ذخائر العرب
٥٨

كتاب
الحلة السيراء
لابن الأبار

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي
المعروف بابن الأبار
(٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠ م)

الجزء الأول
ويضم تراجم أهل المئات الأولى والثانية والثالثة والرابعة

حققه وعلق حواشيه
الدكتور حسين مؤنس
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة
ومدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سابقًا
وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة



دار المعارف

الطبعة الأولى – سنة ١٩٦٣
الطبعة الثانية – سنة ١٩٨٥

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة الطبعة الثانية

باسم الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداة وبعد :

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب الحلة السيراء لابن الأبار ، أقدمها للسادة القراء بعد مراجعة شاملة ، وتصويب لكل ما وقع فى الطبعة الأولى من وجوه النقص والخطأ .

واستبلاغًا فى التدقيق قمت بمراجعة النص على الأصل المخطوط ، وراجعت مادة الكتاب على كل ما صدر منذ ظهور الطبعة الأولى من أصول ودراسات ، وقومت العمل كله على هذا الأساس مع العناية الشديدة بالضبط والإتقان .

وقد أفدت كثيرًا من الملاحظات والتصويبات التى اقترحها أخى الأستاذ الدكتور محمود على مكى وما أورده فيما نشر من أجزاء مقتبس ابن حيان من معلومات ، وإليه أزجى خالص شكرى .

وأفدت كذلك مما نشر فى الصحف العلمية الاستشراقية من نقد وتصويب ، فإن هذا الكتاب لقى من الباحثين فى الغرب عناية كبيرة ، والمقالات التى نشرت فى تقريظه وتصويب النص كما نشرته كثيرة . وأرجو أن يكون الكتاب على هذه الصورة بالغًا من الدقة ما أرجوه ويرجوه الباحثون .

والحمد لله سبحانه فى البداية والنهاية ، فإن عنايته وفضله ومرضاته هى الغاية التى ما بعدها غاية .

وإلى القارئ الكريم أصدق الشكر والتحية .

القاهرة ١٠ من رمضان ١٤٠٤ هـ
١٠ من يونيو ١٩٨٤ م

د . حسين مؤنس
الأستاذ بكلية الآداب – بجامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمهيد :

عاش أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار بين سنتي ٥٩٥/١١٩٩ و٦٥٨/١٢٦٠ ، أي ثلاثاً وستين سنة هجرية (إحدى وستين سنة ميلادية) ، وهو عمر طويل نسبياً ، وأتيحت له الفرصة ليصيب من العلم أوفر نصيب سمح به زمانه ، ووصل إلى الوظائف الكبرى فى عنفوان شبابه ، وظل بعد ذلك صدراً فى بلده بلنسية وفى كل مكان حل فيه ، وأوتى من الذكاء وبعد الفهم وقوة الذاكرة وبلاغة اللسان ما كان كفيلا بأن يهيئ له حياة سعيدة ، أو مستقرة على أقل تقدير ، ولكنه خُلق ذا طبع قلق ونفس حائرة وقلب ذى طماح بعيد المطارح ، فلم يقر له حال منذ أيفع إلى أن مات ، ولم يسعد من حياته الطويلة إلا بفترات قصار معظمها وهو دون الثلاثين ، ثم ما زالت الخطوب تنزل بساحته وما زال يعينها على نفسه حتى تكدرت حياته ما بقى له من أيام العمر بعد ذلك ، وانتهى به الأمر إلى مصرع فاجع على يد من خدمه وملأ الصفحات بمديحه ؛ فلو أننا بحثنا عن مثال لرجل لم ترحمه أيامه ولا رحمته نفسه لما كان هذا المثال خيراً من ابن الأبار .

ولكن الأجيال التالية لعصر ابن الأبار كانت أرفق به من أيامه ومن نفسه ، فتعاقب الناس على إنصافه وتكريمه والإشادة بذكره ، فترجم له أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبرينى (ت ٧١٤/١٣١٤ ـ ١٣١٥) فى « عنوان الدراية » (ص١٨٣ـ١٨٧) وابن خلدون فى تاريخه (٦/٢٨٣ـ

٢٨٥) ، والمقرى فى « نفح الطيب » (٣/٣٤٦–٣٤٧) و « أزهار الرياض » (٣/٢٠٥) ، وأبو على محمد بن إبراهيم اللؤلؤى الزركشى فى «تاريخ الدولتين» (ص ٢٠ – ٢٧) ، ومحمد بن شاكر الكتبى فى « فوات الوفيات » (بولاق ، ٢/٢٨٢–٢٨٤) ، وذكر حاجى خليفة بعض مؤلفاته فى أربعة مواضع من كشف الظنون (٢/١١٥ و٢٣٦ ، ٣/٥٢٧) .

هؤلاء جميعاً أثنوا على ابن الأبار وقدروه قدره الصحيح كواحد من أكبر من أنجبهم الأندلس فى ميادين التاريخ والأدب وعلوم الإسلام ، وأنصفوه من قاتله وأجمعوا على أنه قتل مظلوماً ، بل وصفه بعضهم بالشهيد .

وفاقت عنايةُ المحدثين بابن الأبار عنايةَ الأقدمين ، فتبينوا من فضائله كمؤرخ وكاتب أكثر مما تبينه السابقون ، وصاحب الفضل فى ذلك دون شك هو المستشرق الهولندى المعروف راينهارت پيتر – آن دوزى ، فقد وقف عنده وقفة طويلة فى كتابه الصغير المسمى « مقدمة للبيان المغرب » :

Introduction au Bayan al - Moghrib, Leyde 1848.

وقرر أنه مؤرخ ثبت دقيق جدير بكل ثقة ، وأنه حافظ جمع فأوعى ، وحفل صدره من العلم بالمغرب والأندلس وبتاريخ الإسلام عامة ما لم يصل إليه إلا القلائل من علماء القرن السابع الهجرى ، وأن أسلوبه الأدبى قوى جميل فيه فحولة ندرت بين أهل عصره .

ثم عاد فأكد هذا الرأى ووفى ابن الأبار حقه من التقدير فى تعليقاته على الترجمة اللاتينية للنصوص الخاصة ببنى عباد أصحاب إشبيلية :

Scriptorum Arabum Loci de Abbadides, (Lugdoni Batavorum, 1852) II, 46—47.

ونشر تراجم الأندلسيين من الحلة السيراء فى كتابه المسمى :

Notices sur quelques Manuscrits Arabes (Leyde, 1847—1851) pp. 29 sqq.

مع مقدمة قصيرة عن ابن الأبار أحال فيها إلى ما كتبه عنه فى مؤلفاته الأخرى .

وكان نشر دوزى لهذه القطعة من الحلة ، بالإضافة إلى ما نشره منها فى جامع الكتابات عن بنى عباد منبهاً لأهل العلم إلى قيمة ابن الأبار وأهمية ما كتب ، فأقبل الناس يبحثون عما بقى من آثاره يدرسونها بالعناية الجديرة بها وينشرون ما تيسر لهم منها . وأول من فعل ذلك بعد دوزى ماركوس چوزيف مولر فى كتابه المسمى :

Beiträge Zur Geschichte der Westlichen Araber. (München, 1866) Heft I, 161—192; heft II, 193—360.

ووقف مولر بتراجمه عند أحمد بن أبى الأغلب محيلا بعد ذلك إلى قطعة من « الحلة » كان قد نشرها أمارى فى المكتبة الصقلية (ص ٣٣ وما يليها) ؛

وواضح أن مولر كان ينوى متابعة نشر تراجم أهل المغرب من « الحلة » فى جزء ثالث من كتابه ، ولكنه لم يفعل ، فبقيت هذه التراجم دون نشر .

وكان دوزى قد نشر بضع تراجم أندلسية من « الحلة » ذيولا على بعض أبحاثه فى كتابه المعروف :

Recherches sur l'histoire èt la Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge, 3e éd. Paris, Leyde 1881, Vol. I., appendices X, p. XIX; XX, p. XLVIII; XXIY, p. LVI — vol. II, appendices II, p. XXVII; IX, p. XLVI.

وكان الراهب اللبنانى ميخائيل الغزيرى نزيل إسبانيا وواضع الفهرس الأول للمخطوطات العربية فى مكتبة الإسكريال قد نبه إلى أهمية مخطوط « الحلة السيراء » الموجود بهذه المكتبة ونشر ترجمة لاتينية لقطعة صغيرة منه :

M. CASIRI *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis,* Vol. II, p. 163, n. MDCCXXV.

ونشر كذلك قطعة من مخطوط كتاب آخر لابن الأبار هو التكملة :

Ibidem, Vol. II, n. MDCCXXX.

ثم عكف المستشرق الإسبانى فرانثيسكو كوديرا على نشر مخطوطين لابن الأبار ، أولهما « المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى » ، المكتبة الأندلسية رقم ٤ :

Bibliotheca Arabico Hispana; tomus IV, Madrid 1886.

وثانيهما كتاب التكملة لكتاب الصلة :

Bibliotheca Arabico Hispana, t. V—VI, Madrid 1889.

وقد نشر فى هذين الجزءين التراجم التى يضمها المخطوطان رقم ١٦٧٥ و١٦٧٨ من مخطوطات مكتبة الإسكريال وهى التراجم من حرف الجيم إلى حرف الميم (عدا بعض الحروف بين العين واللام) . وقد عثر على هذه التراجم الناقصة فى مخطوط يحمل رقم ١٧٣٥ فى مكتبة الجزائر ، فقام على نشرها م . ألاركون وأنخل جنثالث بالنثيا فى مدريد سنة ١٩١٥ :

M. ALARCON y C. A. G. PALENCIA : *Apéndice a la edición Codera de la Técmila de Aben al-Abbar* en *Miscelanea de Estudios y Textos Arabes*, Madrid 1915.

وبقيت الحروف من الألف إلى الثاء ثم من اللام إلى الياء ، فأما الأولى فقد عثر عليها ألفريد بل ومحمد بن شنب فى فاس ونشراها فى الجزائر سنة ١٩٢٠ :

IBN AL-ABBAR, *Técmilat as-Ṣila.* Texte arabe d'après un ms. de Fez. Tome I complétant les deux volumes édités par Codera, Alger 1920.

وعثر محمد بن شنب على قطعة تضم فاتحة التكملة فنشرها فى المجلة الإفريقية سنة ١٩١٨ :

M. BEN CHENEB, *L'Introduction d'Ibn al-Abbar à sa Técmila.* Revue Africaine, 1918 p. 300.

وقد قدم كل من كوديرا وألاركون وجنثالث بالنثيا وألفريد بل ومحمد ابن شنب لما نشروا من نصوص لابن الأبار بمقدمات ودراسات ضافية ، نخص منها بالذكر مقدمتى كوديرا للمعجم ولما نشر من التكملة ، فهما دراستان شاملتان عن ابن الأبار وحياته وأعماله وقدره بين من أنجب الأندلس من أعلام .

وعند ما كتب فرديناند ڤستنفلد كتابه المعروف عن مؤرخى العرب اختص ابن الأبار بمادة طيبة :

F. WÜSTENFELD, *Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke.* Göttingen, 1882, p. 129.

وفى الترجمة الإنجليزية التى قام بها بشكوال ـ د جيانجوس للمجلد الأول من « نفح الطيب » للمقرى (طبعة أوروبا) تعليق طويل عن ابن الأبار وأعماله :

PASCUAL DE GAYANGOS, *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain,* II, 528.

وكتب ميكيلى أمارى مادة قصيرة عن ابن الأبار فى الجزء الأول من تاريخ مسلمى صقلية ، ثم نشر قطعة منه خاصة بفتح صقلية فى المكتبة الصقلية (رقم ٥٢) ، وأشار إليه سيمونيت فى معجمه :

F. J. SIMONET, *Glosario de voces ibericas y latinas usadas entre los Mozarabes.* Madrid, 1888, CCXXIV.

وعندما كتب البارون ڤون شاك كتابه البديع عن شعر عرب الأندلس وصقلية وفنهم ، أشاد بابن الأبار وترجم إلى شعر ألمانى سينيته المشهورة فى استصراخ أبى زكريا الحفصى لنجدة الأندلس :

ADOLPH FRIEDERICH VON SCHACK : *Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sizilien.* 3 Auflage, Stuttgart, 1871.

وعن شعر ڤون شاك ترجم نفس القصيدة إلى شعر إسبانى خوان ڤالېرا عند ما ترجم الكتاب كله إلى الإسبانية :

JUAN VALERA, *Poeséa y Arte de los Arabes en Espana y Sicilia.* 3a ed. Sevilla 1881, I, 162.

وأوفى مادة كتبت عن ابن الأبار فى غير العربية هى تلك التى كتبها پونس بويجس فى معجمه عن المؤرخين والجغرافيين من أهل الأندلس :

FRANCISCO PONS BOIGUES, *Ensayo bio-bibliográfico sobre los Historiadores y Geógrafos arábigo-espanoles.* Madrid, 1898, nu. 253 pp. 291—296.

ونضيف إلى هذا العرض لما كتب عن ابن الأبار فى غير العربية مادتى كارل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى، ج ١ / ٤١٦ والملحق ١ / ٥٨٠ (يلاحظ أنه أخطأ فى اسمه فجعله أبا على بن محمد بن على بن أبى بكر بن الأبار) ، ومادة دائرة المعارف الإسلامية فى طبعتها الأولى وقد كتبها محمد بن شنب (١/ ٣٧٤ ب و٣٧٥ ا) ، والفقرة الخاصة به من كتاب تاريخ الفكر الأندلسى (فقرة رقم ٨٦ ص ٢٧٧ — ٢٨٠ من ترجمتنا العربية) ، ثم المادة القصيرة التى اختصه بها كليمان أوار فى كتابه عن تاريخ الأدب العربى (ص ٢٠٤) .

أما المحدثون من العرب ، فأول من نبه منهم إلى مكانة ابن الأبار هو جرجى زيدان فى كتابه القيم عن «تاريخ الأدب العربى» ، فقد اختص ابن الأبار بمادة قصيرة فى الجزء الثالث من ذلك التاريخ (ص ٨٤ من الطبعة الجديدة بتحقيق الدكتور شوقى ضيف) أشار فيها إلى مكانته كمؤرخ ، وهى على صغرها مادة طيبة تضع ابن الأبار فى مكانه بين مؤرخى الغرب الإسلامى فى القرن السابع الهجرى .

ثم تناول ابن الأبار المرحوم الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فكتب عنه كتاباً ضخماً (٣٨٤ صفحة) نال به جائزة مولاى الحسن لسنة ١٩٥١ ، ونشر الكتاب فى نفس العام فى تطوان ، وعلى الرغم من أن هذا التأليف كان أول عهد المؤلف بالدراسات الأندلسية ، إلا أنه عرف كيف يجمع الأصول اللازمة للكتابة عن ابن الأبار ويفيد منها ، فدرس عصره وشخصيته ومؤلفاته دراسة طيبة تدل على اجتهاد وصبر ، وقد أفدنا فائدة كبيرة من هذا الكتاب .

ثم تناول موضوع ابن الأبار الأستاذ ألفريد البستانى فنشر « المقتضب » الذى صنعه أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البلفيقى لكتاب ابن الأبار المسمى « تحفة القادم » فى مجلة المشرق (السنة الحادية والأربعون ، يوليو — سبتمبر ١٩٤٧) وقدم له بدراسة قصيرة .

وبعد ذلك بعشر سنوات أعاد الأستاذ إبراهيم الإبيارى نشر نفس النص ، وعلى نفس مخطوطة الإسكريال (رقم ٣٥٦) وقدم له بمقدمة طيبة تتضمن بحثاً عن حياة ابن الأبار وأعماله ودراسة لذلك « المقتضب » ، وكلاهما عمل طيب مشكور .

وفى سنة ١٩٥٩ تقدم السيد آنيس عبد الله الطباع ببحث له عن ابن الأبار للحصول على الدكتوراه من جامعة مدريد ، وأجيز عليه ، ثم طبع ترجمة عربية للبحث بعد ذلك فى بيروت .

وأخيراً ، فى سنة ١٩٦١ ، قام الدكتور صالح الأشتر بنشر « إعتاب الكتاب » لابن الأبار ومهد له ببحث مستفيض عن حياة ابن الأبار وعصره ومؤلفاته وكتاب إعتاب الكتاب .

فهؤلاء تسعة عشر رجلا من أهل العلم من المحدثين فى الشرق والغرب عرفوا قدر ابن الأبار وقاموا على خدمة نصوصه وصرفوا من الجهد ما تيسر لهم فى التعريف به وبأعماله وخصائصه وميزاته ، وكلهم أجمعوا على ما قرره دوزى من أنه يعتبر بحق من أكبر من أنجب الأندلس من أهل العلم ومن أولاهم بالثقة والتقدير .

ولم يصب هذا الحظ من أعلام الأندلس إلا القلائل ، بل كان حظ ابن الأبار من التقدير أكبر من حظوظ مؤرخين يزيدون عنه أهمية مثل أحمد بن محمد الرازى وابن حيان وابن بسام ، فإن واحداً من هؤلاء لم يظفر من الباحثين بكتاب خاص عنه فى حين ظفر ابن الإبار بكتابين : وتلك عناية من القدر بهذا الرجل الذى يشعر الإنسان وهو يقرأ تاريخ حياته أنه لم يعرف قدر نفسه كما عرفه الآخرون .

* * *

حياة ابن الأبار :

وقد قص معظم هؤلاء حياة ابن الأبار فى تطويل أو فى اختصار ، وتتشابه هذه التراجم فى محتواها ، لأن المراجع التى تعتمد عليها فى الترجمة له

متشابهة فى مادتها لا يضيف واحد منها شيئاً جديداً ، وهى لا تخرج عما أتينا به فى الفقرة الخاصة به من «تاريخ الفكر الأندلسى» (ف ٨٦ ص ٢٧٧ — ٢٨٠)، ويبدو من هذه التراجم أن حياة ابن الأبار واضحة خالية من المعضلات ، وربما كان هذا صحيحا عن نصف حياته الثانى ، أى منذ وصوله إلى تونس إلى مصرعه ، ولكن النصف الأول من حياته فى حاجة إلى دراسة ، وخاصة ما يتعلق منه بمأساة بلنسية ونصيب ابن الأبار فى الأحداث التى انتهت بتسليمها.

ونبدأ من البداية ، فنجد الغبرينى يقول إن أصله من أجردة ، وفى نسخة أجره ، ولا نجد قرية أو موضعاً فى إقليم بلنسية بهذا الاسم ، ولكن محمد بن شنب ناشر «عنوان الدراية» يقول فى تعليق له : فى نسختين «أجره» والصواب «تُورِيّة» ، ولا ندرى علام استند فى هذا التصويب ، لأن تورية أو التوريا هو الاسم اللاتينى والإسبانى لنهر بلنسية الذى يسميه العرب بالنهر الأبيض ، ويسمى فى بعض النصوص الإسبانية بهذا الاسم العربى Guadalaviar، وليست هناك قرية باسم تورية فى ناحية بلنسية . ويضيف الغبرينى عن أجردة هذه : «وهى وما والاها دار القضاعيين فى الأندلس» ، ولم نجد ما يؤيد هذا فى «جمهرة الأنساب» لابن حزم : وصحة الاسم أُنْدَه ، فقد ذكر ابن الأبار فى ترجمته لأبيه (التكملة رقم ١٤٤١) أنه «من أهل أنده وسكن بلنسية» . وأنده Onda اليوم مدينة صغيرة فى مديرية قسطليون Castellón de la Plana ، وتقع على ٢٠ كيلومتراً غربى قسطليون قاعدة المديرية ، وكانت أنده على أيام المسلمين تابعة لكورة بلنسية :

وترجمة ابن الأبار لأبيه تلقى ضوءاً على أصله وحياته الأولى ، فقد كان أبوه عبد الله بن أبى بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبى بكر القضاعى من أهل العلم والدين ، درس على أجلاء أهل العلم فى عصره، وأجاز له الكثيرون منهم رواية كتبهم ورواياتهم ، قال ابن الأبار : «وكتب إليه القاضى أبو بكر بن أبى جمرة يجيز له ولى معه جميع روايته مرتين ،

إحداهما فى غرة رجب سنة ٥٩٧ ، والثانية فى منتصف ذى القعدة من العام المذكور ، وأنا إذ ذاك ابن عامين . وأشهر مولدى عند صلاة الغداة من يوم الجمعة فى أحد شهرى ربيع سنة ٥٩٥ » . وهذا أدق تحديد وجدناه لتاريخ ميلاد ابن الأبار مع ما فى العبارة من تضارب ، فهو يقول أولا أنه كان فى منتصف ذى قعدة سنة ٥٩٧ ابن سنتين ، أى أنه ولد فى ذى قعدة سنة ٥٩٥ ، ثم يقول إنه ولد فى أحد شهرى ربيع من نفس السنة ، فإذا كان قد ولد فى ربيع الأول منها فإن هذا الشهر يقابل ديسمبر ١١٩٨ ، وإذا كان قد ولد فى ربيع الثانى فهو من مواليد يناير سنة ١١٩٩ .

ثم يقول ابن الأبار عن أبيه : « وكان رحمه الله — ولا أزكيه — مقبلا على ما يعنيه ، شديد الانقباض بعيداً عن التصنع ، حريصاً على التخلص مقدّماً فى حَملة القرآن ، كثير التلاوة له والتهجد به ، صاحب ورد لا يكاد يهمله ، ذاكراً للقراءات ، مشاركاً فى حفظ المسائل ، آخذاً فيما يستحسن من الأدب ، معدّلا عند الحكام ، وكان القاضى أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاة بمسجد السيدة من داخل بلنسية . قرأت عليه القرآن بقراءة نافع مراراً ، وسمعت منه أخباراً وأشعاراً ، واستظهرت عليه مراراً أيام أخذى على الشيوخ ، يمتحن بذلك حفظى ، وناولنى جميع كتبه ، وشاركته فى أكثر من روى عنه . وسمعته يقول : حضرت شيخنا أبا عبد الله ابن نوح ، وقد زاره بعض معارفه ، فسأله عن أحواله ، وبالغ فى سؤاله ، فجعل يحمد الله ويردد ذلك عليه ، ثم أنشد متمثلا :

جرت عادة الناس أن يسألوا   عن الحال فى كل خير وشر
فكلٌّ يقول بخـــير أنا   وعند الحقيقة ضد الخبر

... حدثنى أبى رحمه الله غير مرة أنه ولد بأنده سنة ٥٧١ (١١٧٥ — ١١٧٦) ، وتوفى ببلنسية وأنا حينئذ بثغر بطليوس عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس لشهر ربيع الأول سنة ٦١٩ (٢١ مارس ١٢٢٢) ، ودفن لصلاة العصر من يوم الأربعاء بعده بمقبرة باب بيطالة وهو ابن ثمان وأربعين

سنة ، وحضر غسله أبو الحسن بن واجب وجماعة معه ، وكانت جنازته مشهودة والثناء عليه جميلا ، نفعه الله بذلك » .

وإذن فقد نشأ ابن الأبار فى بيت علم ودين وعفاف ، ولكنه لم يكن من بيت رياسة وولاية : ولو أن ابن الأبار سار على نهج أبيه فى الانصراف إلى العلم والانقطاع له لانتفع بحياته بأكثر مما قدر له ، ولكنه انصرف وهو فى مطالع شبابه إلى السياسة وطلب الوظائف والجاه فى ظروف ضيقة عسيرة على الحاكمين والمحكومين معاً ، فأصابه من ذلك بلاء شديد .

وقد أحصى الدكتور عبد العزيز عبد المجيد شيوخ ابن الأبار وترجم لكل منهم ، ولهذا فسنكتفى بالقول بأنه أخذ القرآن والقراءات عن أبيه ، وأخذ الفقه والحديث والمسائل وعقد الشروط عن أبى عبد الله محمد بن أيوب بن نوح السرقسطى (٥٣٠ — ٦٠٨ / ١١٣٥ — ١٢١٢) ، وعن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى زاهر (توفى فى رجب ٦٣٤ / ١٢٣٧) ، وأخذ الحديث أيضاً عن أبى الخطاب أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسى (٥٣٧ — ٦١٤ / ١١٤٢ — ١٢١٧) وعلى هذا الشيخ أخذ « الأخبار » أى درس التاريخ ، وهو العلم الذى بلغ ابن الأبار فيه شأوه ، ولابن الأبار شيخ آخر فى التاريخ هو أبو سليمان داوود بن سليمان .. بن حوط الله الأنصارى (٥٥٢ — ٦٢١ / ١١٥٧ — ١٢٢٤) ، فقد كان ابن حوط الله من المعنيين بالأخبار وممن كتبوا فهرسة لشيوخهم ؛ وأخذ النحو والأدب عن محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصارى (٥٦٣ — ٦١٠ / ١١٦٧ — ١٢١٣) وعن أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن مسلم البكرى (توفى سنة ٦٢٨ / ١٢٣٠) وأبى عامر نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن نذير الفهرى (٥٥٨ — ٦٣٦ / ١١٦٢ — ١٢٣٨) وأبى محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مطروح القيسى (٥٧٤ — ٦٣٥ / ١١٧٨ — ١٢٣٧) ، وقد أورد ابن الأبار فى ترجمته لابن مطروح هذا خبرين لهما أهمية بالنسبة لحياة ابن الأبار نفسه ، ولتاريخ

بلنسية فى أيامه أيضاً ، وذلك أنه ولى قضاء دانية فى آخر عمره ، ثم عزل عنه وتولاه بعده ابن الأبار سنة ٦٣٣ /١٢٣٥ — ١٢٣٦ ، ثم استعفى ابن الأبار من قضاء دانية ، فعاد إليه ابن مطروح لفترة قصيرة إذ أنه توفى سنة ٦٣٥ / ١٢٣٧ — ١٢٣٨ « والروم محاصرون بلنسية » .

غير أن أكبر أساتذة ابن الأبار وأبعدهم أثراً فى حياته هو أبو الربيع سليمان ابن موسى بن سالم بن حسان الحميدى الكلاعى (٥٦٥ — ٦٢٤ / ١١٦٩ — ١٢٢٧) ، فقد كان أبو الربيع كبير علماء بلنسية فى عصره ، وإليك سيرته كما رواها ابن الأبار فى « التكملة » لتستبين النواحى التى أعجبت ابن الأبار فى شيخه هذا واجتهد فى الأخذ بها ، قال بعد ذكره شيوخه : « ...وعنى أتم عناية بالتقييد والرواية ، وكان إماماً فى صناعة الحديث بصيراً به ، حافظاً حافلا عارفاً بالجرح والتعديل ، ذاكراً للمواليد والوفيات ، يتقدم أهلَ زمانه فى ذلك وفى حفظ أسماء الرجال ، خصوصاً من تأخر زمانه وعاصره . وكتب الكثير ، وكان حسن الخط لا نظير له فى الإتقان والضبط مع الاستبحار فى الأدب والاشتهار فى البلاغة ، فرداً فى إنشاء الرسائل ، مجيداً فى النظم ، خطيباً فصيحاً مفوهاً مدركاً حسن السرد والمساق لما يقوله مع الشارة الأنيقة والزى الحسن : وهو كان المتكلم عن الملوك فى مجالسهم والمبينَ عنهم لما يريدون على المنبر فى المحافل . ولىَ خطابة بلنسية فى أوقات . وله تصانيف قصيرة فى فنون ، وله كتاب « الاكتفاء مما تضمنه من مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء » فى أربعة مجلدات ، وكتاب حافل فى معرفة الصحابة والتابعين لم يكمله ، وكتاب فى أخبار البخارى وترجمته ، وكتاب « الأربعين » وتصانيف سوى ذلك كثيرة فى الحديث والأدب والخطب ، وإليه كانت الرحلة فى عصره للأخذ عنه . أخذتُ عنه كثيراً ، وانتفعت به فى الحديث كل الانتفاع ، وحضنى على هذا التاريخ (أى كتاب التكملة) وأمدنى من تقييداته وطُرَفه بما شحنته به . مولده فى رمضان سنة ٥٦٥ ، واستشهد بكائنة أنيشة على ثلاثة فراسخ من بلنسية ،

وكان أبداً يحدثنا أن السبعين منتهى عمره لرؤيا رآها ، وهو آخر الحفاظ والبلغاء المترسلين بالأندلس . قلتُ : أكثرُ هذا عن ابن مسدى ، وقال : لم ألق مثله ، كان مبرزاً فى فنون » (ترجمة رقم ١٩٩١ ، التكملة ٢ / ٧٠٨ – ٧٠٩) .

وأبو الربيع سليمان هذا نموذج لطراز من أهل العلم فى الأندلس تستطيع أن تسميهم « شيوخ » العصر أى الذين انتهت إليهم الصدارة فى علوم الدين والفقه والفتيا فى أيامهم ، ويصدق على كل منهم ماقاله ابن الأبار عن أبى بكر محمد بن عبد الله بن الجد : « ... وكان فى وقته فقيه الأندلس وحافظ المغرب لمذهب مالك غيرَ مدافَع ولا منازَع ، لا يجاريه أحد فى ذلك ولا يدانيه » (التكملة رقم ٨٢٥ جـ ١ ص ٢٥٩) . والخصائص الرئيسية لأولئك الشيوخ غزارة العلم وصدق الإيمان ، وشرف البيت واتصال الرياسة فيه ، وفصاحة اللسان والقدرة على الكتابة والخطابة فى بلاغة ، ثم الاهتمام بشؤون الجماعة الإسلامية والأخذ من السياسة بنصيب ، مع التزام الحق والسمت والعفاف .

وفى عصور الأندلس الأولى ، أيام الإمارة والخلافة ، كان أولئك الشيوخ عمداً من عمد السلطان ، كما نرى فى حالات عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثى وأصبغ بن خليل . أما بعد زوال الخلافة وانتشاب الفتنة وتلاشى السلطان السياسى العام فقد أصبح أولئك الشيوخ رموزاً على السلطان الوحيد الباقى وهو سلطان الدين والعلم ، وصاروا رموزاً على قوة الدين وسيادته ومعقدَ الآمال فى بعث الدولة وعودة هيبة الإسلام فى شبه الجزيرة ، فهم عمد الدين وجماعته ، وهم فى واقع الأمر زعماء الجماعة الإسلامية الأندلسية وقادتها الحقيقيون . وكلما زاد السلطان السياسى تخلخلا ازداد أولئك الشيوخ جلالا وزاد شعورهم بمسؤولياتهم ، فلم يعودوا مجرد فقهاء بل زعماء أيضاً يتحلون بما تتطلبه الزعامة السليمة من صدق وإخلاص وجرأة واستعداد لبذل النفس فى سبيل الجماعة الإسلامية ، مع الحرص على العلم وهو عماد سلطانهم الأول .

وقد يتقارب اثنان أو ثلاثة من الفقهاء في صفاتهم ، ولكننا نجد في الغالب تسليما لواحد بالرياسة والتقدم . ففي أيام أبي على الحسين بن سكرة الصدفي (٤٥٤–٥١٤/١٠٦٢ – ١١٢١) عاش أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (٤٥٠–٥٢٠٪١٠٥٨–١١٢٦) ولكن الزعامة كانت لأبي على بن سكرة الصدفي ، وقد دفع ثمنها باستشهاده فى معركة كُتَنْدَة . وقد عاصرهما أبو بكر بن العربي ، وكان من أجل العلماء وأوفرهم هيبة ، ولكنه فر من معركة كتندة ثم أقحم نفسه في السياسة ، ولم يستطع لهذا أن يرث مكان الصدفي وإنما ورثه القاضي عياض بن موسى بن عياض (٤٧٦–٥٤٤٪١٠٨٣–١١٤٩ ، ٥٠) ، وقد ثبتت زعامته عند تصديه للموحدين وصموده للحق ونفيه إلى المغرب . ثم كان شيخَ الجيل الثاني أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجد (٤٩٦ – ١١٠٢/٥٨٦ – ١١٩٠) وكان رجل الأندلس وشيخه غير مدافع على أيام أبي يعقوب يوسف وابنه أبي يوسف يعقوب المنصور ؛ ثم انتقلت المشيخة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الحفيد (٥٢٠ – ٥٩٥/ ١١٢٦–١١٩٩) وكان بينه وبين الموحدين من الخلاف ما أدى إلى الإساءة إليه ونفيه ثم عودته ؛ ثم كان الشيخَ بعد ذلك أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي (٥٦٥–٦٣٤٪١١٦٩–١٢٣٧) شيخ ابن الأبار ، وقد استشهد مجاهداً في سبيل الإسلام فى معركة أنيشة .

ونصل إلى أيام ابن الأبار ، فنجده سائراً في طريق أولئك الشيوخ ناظراً إلى سيرهم آخذاً بالأصول التي ساروا عليها ، ولكن الظروف في الأندلس كانت قد تغيرت مع الأيام تغيراً حاسماً جعل استمرار هذا الخط الجليل مستحيلا ، فإن الجماعة الإسلامية نفسها – التي بقيت متماسكة رغم كل شيء حتى النصف الثاني من القرن السادس الهجري ٪ العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادي – أصيبت بكوارث كبرى حلت عقدها وضعضعت كيانها السياسي والاجتماعي ولم يتماسك ما بقي منها في منطقة غرناطة إلا بعد فترة طويلة من الفوضى والكوارث المتوالية .

ذلك أن الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية حول مصير الأندلس تحدد مصيره بصورة حاسمة فى نهاية العقد الأول من القرن السابع الهجرى إثر معركة العقاب (١٥ صفر ٦٠٩ / ١٧ يوليو ١٢١٢) بعد قرابة القرنين من صراع ضارٍ أنفق الجانبان الإسلامى والنصرانى فيه أقصى ما استطاعا من الجهد فى سبيل أراض عظيمة وبلاد كبرى أراد القدر أن تحرم ممن ينهض من أهلها لجمع أمرها والدفاع عنها. وقد كان هذا الصراع سجالا بين مد وجزر طالما وقف المرابطون فى الميدان، ثم مال الميزان وشالت كفة الإسلام بعد زوال أمر هذه العصبة من المجاهدين أولى القوى وحلول الموحدين محلهم.

وقد بذل الموحدون ما استطاعوا ولكنهم كانوا أولا وقبل كل شيء أصحاب إمبراطورية كبرى تمتد حدودها من طرابلس فى الشرق إلى مشارف المحيط الأطلسى من الأشبونة إلى ما يعرف اليوم بالسنغال، وكان على الموحدين أن يظلوا على أهبة الحرب على هذه الحدود المترامية وفى داخل إمبراطوريتهم نفسها، وكان من المستحيل ماديا أن يستمروا محاربين بنفس القوة فى جبهات متعددة كهذه، وكانت الجبهة الأندلسية أضعف جبهاتهم وأحفلها بالخطر، لأن أهل الأندلس أنفسهم كانت قد أكلتهم الحروب والفتن المتوالية وفقدوا روح الوحدة وحرموا القادة الصالحين فى وقت كانوا فيه أحوج ما كانوا إلى قادة قادرين، لأن ممالك إسبانيا النصرانية كانت تقوى على حسابهم يوماً بعد يوم، وقد أسعدها الحظ بملوك وأمراء أقوياء ذوى همة ووعى إلى الهدف الذى يجمعهم رغم ما كان بينهم من خلافات.

وخلال القرن الهجرى السادس نرى بوضوح ممالك إسبانيا النصرانية تنتظم وتقوى وتثبت فى أقاليمها وتجمع قواها وتتقدم إلى الجنوب بخطوات ثابتة وعن سياسة واضحة أعانتهم البابوية فى رسمها، وشدت أزرهم بلاد

أوروبية أخرى نهضت واستقرت أمورها قبلهم ، ومن هنا فقد كان الصراع غير متكافئ بوجه من الوجوه .

وقد تماسكت جبهة الأندلس الإسلامى بعد تضحيات كثيرة أيام خلفاء الموحدين الثلاثة الأول ، ثم تداعت على أيام الرابع منهم وهو محمد الناصر ابن أبى يعقوب يوسف المنصور (٥٩٥ — ٦١١ / ١١٩٩ — ١٢١٥) وظهر هذا التداعى فى صورة انهيار سريع بعد معركة العِقاب ، وقد كانت قاصمة الظهر لدولة الموحدين فى الأندلس والمغرب أيضاً .

كان الناصر يشعر قبل هذه المعركة باستحالة الاستمرار فى الدفاع عن دولة مترامية الأطراف كهذه ينتصب لها أعداء ذوو خطر على كل شبر من حدودها بل فى كل ناحية من نواحيها ، فاختار واحداً من خيرة الموحدين وأقامه حاكما عاما على كل الجناح الشرقى من إمبراطوريته ، وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص (سنة ٦٠٣ / ١٢٠٦ — ١٢٠٧) . وكان هذا الإجراء فى حقيقته تقسيما للدولة إلى دولتين ، لأن أبا محمد عبد الواحد ابن أبى حفص وخلفاءه لم يلبثوا أن أصبحوا دولة قائمة بنفسها .

ولو أن محمدا الناصر استأنى قبل أن يخوض معركة االعقاب لكان من الممكن أن يكون حظه فيها أحسن ، ولكنه سار إليها وقسمة الإمبراطورية ما زالت فى الطريق ، ثم إن فتنة بنى غانية كانت قد أفسدت الجانب الشرقى من الأندلس ، وكان لا بد بعد القضاء عليها من تنظيم وترتيب واستجماع قوى . ولكنه — رغم حسن نيته وإخلاصه للدولة وللإسلام — لم يكن بالقائد العسكرى الذى تتطابه جبهة مهيضة يقف فيها خصم عنيد أضْرته الرغبة فى الانتقام لهزيمة يوم الأرك .

ودخلت فى المعركة عوامل أخرى كانت كلها على محمد الناصر ، منها أن رؤساء المقاتلين معه — سواء من الموحدين أو الأندلسيين أو جماعات عرب الهلالية — لم يقدروا أهمية المعركة ولم يدر بخلد أحد منهم أن مصير

الأندلس كله كان فى الميزان فى ذلك اليوم ، فانساقوا مع عصبيات ونوازع شخصية وغير شخصية ، ومنها أن صناعة السلاح والدروع وفن الحرب بصفة عامة كان قد تقدم تقدما بعيدا فى إسبانيا النصرانية نتيجة للاتصال الوثيق مع بقية بلاد غرب أوروبا . ومن هنا دارت على المسلمين هزيمة قاصمة واصطلى أبرياء المقاتلين والمتطوعة بنار حاصدة أكلتهم أكلا ، وربما كان عدد من استشهد من المسلمين فى تلك المعركة أكبر من عدد من استشهد فى أى معركة فى تاريخ الإسلام كله حتى ليقول صاحب روض القرطاس إن السائر فى ريف المغرب بعد ذلك كان يقطع المسافات الطويلة دون أن يرى رجــلا ، لأن زهرة الرجال راحت صرعى فى ذلك اليوم الأسيف .

وأمثال هذه المعارك تخلف فى النفوس آثاراً لا تمحى ، فإن القلائل من الأندلسيين الذين نجوا من السيوف فى ذلك اليوم تفرقوا إلى بلادهم وقد استقر فى نفوسهم شعور بأن الأمر قد ضاع ولا حيلة فى تلافيه ، وألا خير يرتجى من الرؤساء والقادة أمام عدو مستأسد متفوق ، أى أن معنوية المناضلين عن الجبهة الإسلامية ضعفت وخامرها الخوف من العدو ، ومن ثم فلا غرابة بعد ذلك أن نجد الفئة القليلة من النصارى تستولى على البلد الإسلامى الكبير دون مشقة بل دون قتال فى كثير من الأحيان ، لأن اليأس والخوف ملأا قلوب الناس ، ولم يعد لهم ما يحفظ عليهم الأمل فى البقاء إلا التفافهم حول من وُجد فى بلادهم من الشيوخ الذين ذكرنا بعضهم :

وفى أيام أبى يعقوب يوسف المستنصر — خليفة الناصر وخامس خلفاء الموحدين — تلاشت بقية الأمل فى الموحدين ، فقد نجم لهم بنو مرين وبدأوا معهم صراع المصير فى المغرب ، ولم يكن للموحدين مفر من أن يتجرعوا نفس الكأس التى جرعوها هم للمرابطين فى مثل هذه الظروف قبل قرابة القرن من الزمان .

وخلال السنوات العشر التى دامها حكم هذا المستنصر تغيرت نفسية أهل البيت الموحدى وأشياخ حركتهم ، فلم يعودوا بيتا متحدا تجمعه معنوية واحدة وإنما أمراء وأشياخا اقتعد كل منهم قاعدة من قواعد الملك الموحدى أو وظيفة من وظائفه الرئيسية فى مراكش وعينه متجهة إلى عرش الخلافة يمنى نفسه بها أو يمنيه بها من حوله ، ويتمنى فى نفس الوقت فساد الأمر على من تولى هذا العرش . وقد ظهرت هذه المطامع بصورة خاصة عند بعض من بقى من أولاد أبى يوسف يعقوب المنصور وأبناء عمومتهم أولاد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن .

وقد ابتلى الأندلس فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجريين باثنين من أبناء يعقوب المنصور ، هما : أبو محمد عبد الله وكان يتولى مرسية ، وأبو العلا إدريس وكان يتولى قرطبة ؛ وشاركهما فى هذا الطمع وأربى عليهما فيه ابن عمهما عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن الذى عرف أهل بيته بالبَيَّاسيِّين ، وكان يتولى إشبيلية ثم بلنسية ؛ وسار فى طريقه اثنان من أبنائه هما أبو زيد عبد الرحمن وقد خلف أباه فى بلنسية وشاطبة ودانية وجزيرة شُقر ، وأخوه عبد الله الذى اشتهر بالبياسى وكان يتولى إشبيلية . أى أن أولئك النفر من البيت الموحدى كانوا يتقاسمون ملك ما بقى للإسلام فى الأندلس ، ولو أخلصوا وصدقوا واتحدوا لأغنوا فى الحفاظ على هذا الباقى ، ولدام لهم الملك الذى اقتعدوه .

ولكن شيطان الطمع والخلاف غلب عليهم ، فنهض أكبرهم أبو محمد عبد الله بن أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن وأنكر بيعة الموحدين فى مراكش لعم مسن له هو أبو محمد عبد الواحد فى ذى الحجة ٦٢٠/ مارس ١٢٢٤ ، ونادى بنفسه خليفة بعد شهرين من ولاية عبد الواحد وتلقب بالعادل ، وأيده أخوه أبو العلا إدريس صاحب قرطبة وابنُ عمه عبد الله البياسى صاحب إشبيلية ، وتوقف عن البيعة له ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن

ابن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن صاحب بلنسية وما والاها (وهو أخو عبد الله البياسي) . وعبر العادل البحر وخلع عمه عبد الواحد واستقر خليفة فى مراكش ١٢٢٥/٦٢٢ ، وكان يتوجس خيفة من ناحية ابن عمه أبي عبد الله البياسي ، فأضاف إليه قرطبة استرضاءً له ، ولكنه لم يكن ليرضى بأقل من الخلافة ، فما هى إلا شهور حتى خلع طاعة العادل ، وأيس من عون الموحدين فانضم إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وسلم له عددا من بلاد المسلمين منها قَيْجاطة Quesada وباجة Baza ولوشه Loja ، ثم سار بمن معه من القشتاليين ليهاجم أبا العلا ادريس فى إشبيلية ، فثبت له هذا ورده خائبا (صفر ٦٢٣/ فبراير ١٢٢٦) ، فمضى يضرب على غير هدى حتى قام عليه أهل قرطبة وقتلوه ، إذ ترامى إلى علمهم أنه خلع الإسلام ودخل فى النصرانية .

ولم يطل الأمر للعادل بعد ذلك ، لأن خلافا شديدا نجم بينه وبين رجال دولته وقادته من الموحدين فقبضوا عليه ثم قتلوه بعد ١٤ يوما (٦٢٤/ ١٢٢٦ — ١٢٢٧) . وفى هذه الأثناء كان أخوه أبو العلا إدريس قد نادى بنفسه خليفة من إشبيلية ، وتلقب بالمأمون وخاض غمار حروب طويلة مع محمد بن يوسف بن هود الذى كان قد نادى بنفسه أميراً على الأندلس كما سيجىء . ثم صور للمأمون رأيُه القائل ألا معنى للبقاء فى الأندلس أو محاولة الحفاظ على ما بقى منه ، فجمع مَن عنده من جند فى إشبيلية ومن كان منهم فى قرطبة وجيان وما إليها وعبر البحر إلى المغرب وبويع له بالخلافة فى شوال ٦٢٤/ سبتمبر ١٢٢٧ . ولم يتمتع هذا المأمون بالأمان يوما واحداً ، إذ قام عليه المنافسون من كل ناحية وقضى سنوات حكمه القصير (٥ سنوات و ٣ أشهر) فى حروب وهروب ومنازعات ووقائع حتى أدال الله منه بابنه المسمى عبد الواحد المتلقب بالرشيد .

والمهم لدينا أن الدولة الموحدية انتهت فى الأندلس بتصرف المأمون

هذا ، فلم يبق من أمرائهم فيها إلا أبو زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله ابن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن الذى ذكرناه ، وكان يملك بلنسية وشاطبة وجزيرة شقر ؛ أى معظم شرق الأندلس . أما بقية بلاد الأندلس الباقية ، وحدّها الشمالى مجرى الوادى الكبير ، فقد وقفت مكشوفة لا يدفع عنها أحد ، فتجمع مشايخ كل بلد وذوو الهمة من رجاله وتولوا أمر بلادهم والدفاع عنه قدر الطاقة ، أو اختاروا من يقودهم ، وأظهر أولئك الرؤساء محمد بن يوسف بن هود الجذامى الذى سنتكلم عنه .

وهكذا بدت جبهة الأندلس كلها من مرسية إلى إشبيلية مكشوفة أمام أعداء أقوياء لا ينقصهم الحافز للتقدم والاستيلاء على هذه البلاد الكبيرة التى وقف أهلها والخوف ملء قلوبهم تحت رحمة الأعداء .

وقد سار التقدم النصرانى فى ذلك الحين ، ابتداء من العقد الثالث من القرن السابع الهجرى / العقد الثالث من القرن الثالث عشر الميلادى ، فى ثلاثة تيارات : الأول وجهته غرب الأندلس وتولاه أمراء البرتغال ، والثانى وجهته حوض الوادى الكبير وتولاه ملوك قشتالة ، والثالث وجهته شرق الأندلس وتولاه ملوك أرغون . وكانت هذه الممالك الثلاث تختلف فيما بينها وقد تقع الحروب بين جيوشها ، ولكنها كانت تقف صفاً واحداً إذا تعلق الأمر بحرب مع المسلمين ، وكانت البابوية تعمل فى جد لصرف ملوكها عن النزاع مع إخوانهم فى الدين وتوجيه أنظارهم نحو الغنائم السهلة التى تنتظرهم إذا ساروا جنوباً .

أضف إلى ذلك أن هذه الممالك الثلاث رزقت منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر إلى منتصف الثالث عشر ملوكا ذوى قدرة وسياسة وتصميم على مواصلة الحرب مع المسلمين ، وطالت إلى جانب ذلك أعمار الكثيرين منهم ، فانفسحت أمامهم الآجال للعمل والتجربة واكتساب الخبرات وتعويض الهزائم إذا وقعت ، ففيما بين سنتى ١٠٧٢ و ١٢١٤ (٤٦٥ –

٦١١ هـ) – أى قرابة القرن ونصف – حكم قشتالة ثلاثة ملوك كبار فى نسق ، لم تتخلل أيامهم إلا خمس عشرة سنة حكمتها الملكة أورّاكا بعد ألفونسو السادس ، وهؤلاء الملوك هم ألفونسو السادس والسابع والثامن ، وهذا الأخير حكم وحده ٥٦ سنة (١١٥٨ – ١٢١٤) عاصر خلالها أربعة من خلفاء الموحدين هم يوسف ويعقوب المنصور والناصر والمستنصر ، وفى هذا الحكم الطويل ضاهاه خايمه الأول المعروف بالفاتح ملك أرغون ، فقد حكم ٦٣ سنة (١٢١٣ – ١٢٧٦) وفرناندو الثالث ملك قشتالة فقد حكم ٣٥ سنة (١٢١٧ – ١٢٥٢) .

وفرناندو الثالث هذا يكاد أن يكون أشد ملوك إسبانيا النصرانية عزماً فى مواصلة الحرب ضد المسلمين ، وهو الذى استولى على قواعد الوادى الكبير الرئيسية : أندوخر Andujer وبيّاسة Baeza (٦٢٣ / ١٢١٧) وقرطبة (٢٣ شوال ٦٣٣ / ٢٩ يونيو ١٢٣٦) وجيان (٦٤٤ / ١٢٤٦) وقَرمونة ، ثم استولى على إشبيلية (٦٤٦ / ١٢٤٨) . فأما قرطبة فقد سقطت على أهون سبيل ، وقاومت إشبيلية مقاومة عنيفة ولكنها قصيرة ، أما جيان فقد أخذت دون أن يجرَّد سيف من قرابه .

ولم ينجم بين مسلمى الأندلس خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى إلا مغامرون أوتى بعضهم شجاعة ونجدة ، كان كل منهم يعمل منفرداً ويجرى فى نشاطه على غير هدى ، ولم يسلم واحد منهم مع ذلك من الخصوم والأعداء من إخوانه ، مما ضيع جهودهم وقصَّر أيامهم ؛ وأكبر هؤلاء جميعاً محمد بن يوسف بن هود الجذامى ومحمد ابن يوسف بن نصر بن الأحمر .

وابن هود هذا – وقد تسمى بسيف الدولة وتلقب بالمتوكل – نموذج من زعماء الأندلسيين فى ذلك العصر (سيترجم له ابن الأبار فى الحلة) . ظهر وقد نادى المأمون الموحدى بنفسه خليفة فوقعت بينهما حروب طويلة ، ثم انسحب المأمون من الميدان فانضم الكثيرون من جند الأندلسيين الذين كانوا يعملون فى صفوفه إلى سيف الدولة المتوكل بن هود ، فاستقل هذا

بمرسية وجمع قوة عسكرية طيبة ودعا للخليفة العباسى وأتته من بغداد الخلعة واللواء ، فحاز شرق الأندلس كله ، ورهبه النصارى، وأطلسوا عليه اسم ثافادولا (سيف الدولة) وطرد من مرسية أميراً موحدياً كان يدعيها لنفسه هو أبو العباس بن أبى موسى بن عبد المؤمن ، وهزم السيد أبا زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن صاحب بلنسية واضطره إلى الدخول فى طاعته ، وأصبح زعيما لمن بقى من المسلمين فى الأندلس .

وقد أرخ له ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » بأوفى مما فعل ابن الأبار فى « الحلة » ، ويهمنا من كلامه عنه قوله : « وجرت على ابن هود هزائم شهيرة ووقائع مذكورة ؛ أوقع به السلطان أبو عبد الله (محمد بن يوسف) بن نصر ثلاث مرات آخرهن سنة ٦٣٣ أو ٦٣٤ ، وكان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بشرق الأندلس سنة ٦٣٥ ، فهزمه المأمون هزيمة كبيرة ، ولاذ منه بمرسية وامتنع بها ، إلا أن المأمون شغله أمر الفتنة الواقعة بمراكش ، فصرف وجهه إليها ، وثاب الأمر لابن هود ، فدخلت فى طاعته المرية ، ثم غرناطة ، ثم مالقة . وفى سنة ٦٢٧ تحرك بفضل شهامته فى جيوش عظيمة من المسلمين لإصراخ ماردة ، وقد نازلها العدو وحاصرها ، ولقى جيش العدو بها وطاغيته ، فلم يتأنَّ — زعموا — حتى دفع بنفسه العدوّ ، ودخل فى مصافه ، وفقده الناس لما غاب عنهم ، فلم يرجع إلا وقد انهزموا مدبرين ، وكانت هزيمة شنيعة ، واستولى العدو على مدينة ماردة يومئذ ... »

فهذا رجل تصدى للأمر وأثبت شهامة ونجدة ، ولكن أنداده من المسلمين تصدوا له وواقعوه المرة بعد المرة ، ثم خذله جنده ، وكان من الطبيعى لهذا ألا يوفق إلى شىء ذى أثر .

وبينما كان ابن هود يقطع الجزيرة من شرق لغرب كان قائد آخر هو محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر يجمع صفوفه فى بلده أرجونة قرب جيان ويستعد لحربه والحلول محله . ظهر ابن الأحمر سنة ٦٢٩ / ١٢٣١ — ١٢٣٢

ثم تقدم وملك جيان سنة ٦٣٠ / ١٢٣٢ – ١٢٣٣ ثم قرطبة ثم إشبيلية ، ثم استقر فى غرناطة (٦٣٥ / ١٢٣٧ – ١٢٣٨) فضاقت الأمور بين الرجلين ووقعت الحرب بينهما وهلك فيها من المسلمين كثيرون . وكان ابن الأحمر سياسياً بعيد النظر ، استبان من أول الأمر أنه لن يستطيع الثبات فى جبهة الوادى الكبير ، ولهذا اتجه نحو غرناطة ، وعول على أن يجعلها قاعدة ملكه مكتفياً بالطرف الجنوبى من شبه الجزيرة ، ولهذا حالف ملوك قشتالة وعاونهم واعترف لهم بالرياسة عليه مما نفر المسلمين منه ، فطرد أهل قرطبة ثم إشبيلية جنده ، فلم يحفل كثيراً وركز همه فى إقليم غرناطة . وعلى الرغم مما وقع بين ابن هود وابن الأحمر من حروب فإنه يمكن القول بأنه لو لم يكن سيف الدولة المتوكل بن هود لما استطاع الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر أن ينشئ مملكة غرناطة ، فقد شغل ابن هود القشتاليين وأخافهم خوفاً شديداً ، وحفزهم على موالاة خصمه ابن الأحمر وتأييده ، وفى ظل هذا التأييد قامت مملكة غرناطة ، وأنسأ الله فى عمرها بعد ذلك قرنين من الزمان .

* * *

شرق الأندلس

وكان شرق الأندلس يجتاز فترة قلقة مضطربة من تاريخه منذ ذهاب أمر المرابطين ومجىء الموحدين ، فقد نجمت فيـــه سلسلة من أفذاذ القادة والمغامرين أكبرهم أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردانيش ، وكان أبوه فى أوليته من قواد المرابطين يعمل فى صفوف يحيى بن غانية ، وكان له بلاء عظيم فى موقعة أفراغة ، فلما مات بدا لمحمد بن سعد أن يستقل بشىء من شرق الأندلس ، فاستقر فى مرسية وحازها من جمادى الأولى ٥٤٢ / أكتوبر ١١٤٧ . وكان فارسا نجدا عظيم البأس ، تمكن بالاتفاق مع أكناد برشلونة من أن يسود شرق الأندلس كله لقاء إتاوة سنوية ثقيلة قدرها مائة ألف دينار ، كما يقول ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » ، وشد أمره بمصاهرة نفر من الثائرين بشرق الأندلس منهم يوسف بن هلال وكان قد

استقل بحصن مُطْرِيش وإبراهيم بن أحمد بن مفرج بن هَمُشْك الذى انتزى ببعض حصون إقليم مرسية مثل شقويش وشقورة ، ثم انقلبوا عليه ووقعت بينهم فتن طويلة يقص ابن الأبار فى « الحلة » وابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » وابن عذارى فى الجزء الثالث من « البيان المغرب » طرفا منها .

ولجأ محمد بن سعد فى أثناء ذلك إلى النصارى فاعتضد بهم واتخذ لنفسه جنداً منهم وأثقل على رعيته بالضرائب ، فنفر منه الناس ، وتخلى عنه أخوه أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش ودخل فى طاعة الموحدين أيام أبى يوسف يعقوب المنصور . ووجد محمد بن سعد نفسه وحيدا دون نصير وقد علت به السن وقاربه الموت ، فكاتب أبا يوسف يعقوب وتخلى له عن مرسية وبقية ما بيده وأرسل أولاده إلى الخليفة الموحدى وأوصاه بهم ، فرق يعقوب المنصور لهذا الصنيع وقرّب أبناء محمد بن سعد وأقام كبيرهم أبا القمر هلال بن محمد بن سعد عاملا على إشبيلية ، وتزوج ابنة لمحمد بن سعد تسمى الزرقاء فى ربيع الأول ٥٧٠/ أكتوبر ١١٧٤ فحظيت عنده وكان لها أبعد الأثر فى بقاء بنى مردانيش فى السلطان ، وأقام عمها أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش أميراً على بلنسية وأخاه غانم بن سعد بن مردانيش أميراً على أسطول الموحدين فى سبتة . وبعد موت محمد ابن سعد أصبح رأس البيت أخوه أبو الحجاج .

وفى أيام محمد الناصر هبط أمر أبى الحجاج بن سعد بن مردانيش ، ولكنه ظل أميراً على بلنسية حتى سنة ١١٨٦/٥٨٢ . وكان له أولاد كثيرون أهمهم أبو الحملات مدافع وأبو المظفر غالب وأبو الحارث سبع وأبو سلطان عزيز وأبو ساكن عامر وأبو محمد طلحة ، وكان كل منهم يتولى حصنا أو ناحية من نواحى بلنسية ومرسية :

وفى سنة ١٢١٠/٦٠٧ أقام محمد الناصر أبا عبد الله بن أبى حفص

عمر بن عبد المؤمن واليا على بلنسية ثم خلفه عليها ابنه أبو زيد عبد الرحمن ، والمراجع تخلط بين أبي زيد هذا وعم له يحمل نفس الاسم ، ولكن أبا زيد العم لم يكن قط أميرا على بلنسية ، إنما كان أميرا على ميورقة سنة ٥٩٩/ ١٢٠٢ - ١٢٠٣ ثم توفى بعقب ذلك بعد تاريخ طويل فى دولة الموحدين . أما أبو زيد المراد هنا فهو ابن عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ، وهو أخو عبد الله البياسى الذى ذكرناه ، وقد نشأ هو وأخوه وبقية بيته فى بياسة فعرفوا لذلك بالبياسيين ، وكانوا فريقا قليل الإخلاص شديد الأنانية حريصا على الحياة والملك بأى ثمن .

وقد رأينا ما فعله عبد الله البياسى من حرب المسلمين والانضمام إلى القشتاليين ثم الذهاب إليهم جملة ؛ ولم يكن أخوه أبو زيد هذا بأحسن منه ، فقد أمسك ناحيته بعون النصارى وأداء الإتاوة لهم ، وبفضلهم استطاع التغلب على بنى مردانيش ، فاكتفى أكبرهم أبو الحملات مدافع بن أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردانيش بحصن أُبَّدَه ، وقد استشهد فى بعض المواقع شابا ، فخلفه ابنه أبو جُميل زيان بن أبي الحملات وضيق على أبي زيد عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن أبي حفص عمر فى بلنسية ، فأيس هذا من المسلمين جملة ، فهو على خلاف مع الموحدين لا يستطيع طلب عونهم أو اللجوء إليهم ، والمسلمون فى بلنسية كارهون له يتربصون به الدوائر ، ففكر فى اللجوء إلى أنصاره من النصارى وخاصة خايمه الأول صاحب أرغون ، وذهب إليه ليفاوضه فى معاونته ، ولكن خايمه لم يجد فيه ما يستحق العناء ، وإزاء هذا عرض عليه أبو زيد أن ينتقل إلى بعض حصونه ويقيم فيه تابعاً له ، وتم الاتفاق على ذلك ، واستقر فى حصن شُبُرْب ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه دخل هنالك فى النصرانية ، وهو أمر نستبعده ، لأن مفارقة الدين فى سن مثل هذه أمر غير يسير ، خاصة من أمير موحدى مهما كان طبعه ورأينا فيه . واستقر الأمر فى بلنسية لأبى جميل زيان ابن مردانيش .

وقد كتب ابن الأبار لأبى عبد الله والد أبى زيد عبد الرحمن ، ثم كتب لأبى زيد وخرج معه لملاقاة الملك خايمه ، ثم رجع وحده عندما رآه يفضل مباينة دار الإسلام والإقامة فى بلاد ملك أرغون . وقد سكت ابن الأبار عن هذه الواقعة سكوتاً غريباً ، فلم يقل شيئاً ينير لنا هذه النقطة الهامة ، والمهم أنه عاد إلى بلنسية وعمل كاتباً لأبى جُميل زيان بعد ذلك .

وكانت بلنسية إلى ذلك الحين أسعد حالا من غيرها من كبريات مدائن الأندلس ، فقد نفعها قيام بنى مردانيش وابن همشك وبنى هود وابن الأحمر فى إقليمها أو قريباً منها ، لأن أولئك الرجال أخروا سقوطها وصرفوا الغزاة إلى غيرها مما كان أسهل منها ، وأتاحوا لأهلها بضع سنوات من الهدوء والأمان النسبيين ؛ نقول النسبيين لأن الوقائع فى إقليمها كانت على قدم وساق ، وكان أهلها يخرجون للقاء الأعداء كلما أمكنتهم الفرصة .

وكانت سن ابن الأبار إذ ذاك بعد الثلاثين بقليل ، وكان من شخصيات بلده الظاهرين ، فهو واحد من كبار العلماء ورجال الأدب ، وهو كاتب الرسائل للأمير أبى جُميل زيان بن مردانيش ، وكان يلتقى بأصحابه من العلماء وكبار أهل البلد فى قصر الإمارة ؛ من أولئك العلماء الذين ارتبط معهم برباط الصداقة أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عَميرة المخزومى وأبو الحجاج يوسف البياسى .

فأما ابن عَميرة فقد ولد فى بلنسية سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ أى أنه كان أكبر من ابن الأبار بخمس عشرة سنة ، وقد رحل إلى المشرق للدراسة ولقاء الشيوخ ، وعاد إلى بلده ليتولى القضاء فى شاطبة ثم فى ميورقة حتى سنة ٦٢٧ / ١٢٣٠ إذ حضر تسليم الجزيرة لقوات خايمه الأول ملك أرغون ، وكتب كتاباً عن « كائنة ميورقة » بقيت لنا منه فقرات طويلة فى « نفح الطيب » للمقرى ، وقد غادر بلنسية بعد سقوطها سنة ٦٣٦ / ١٢٣٨ ، وتوجه إلى المغرب حيث كتب للرشيد الموحدى وتولى القضاء فى بضع نواح ، ثم انتقل إلى إفريقية حيث كتب للمستنصر الحفصى إلى أن

توفى سنة ٦٥٨ / ١٢٦١ أى فى نفس السنة التى توفى فيها ابن الأبار .

وقد أورد القلقشندى فى « صبح الأعشى » نص رسالة كتبها ابن عميرة هذا عن « طاغية الإفرنج » والمراد به هنا خايمه الأول ملك أرغون الذى استولى على ميورقة قبل أن يستولى على بلنسية . والغالب أن ابن عميرة اضطر للعمل فى الكتابة للملك خايمه بعد سقوط ميورقة وهو فيها ليحقن دمه ، حتى إذا أتيحت له فرصة الخروج منها والعودة إلى دار الإسلام فعل ، والحكاية تبقى رغم ذلك مستغربة مستنكرة من رجل فى مكانة أبى المطرف بن عميرة ، والفرق عظيم على أى حال بينه وبين رجل كأبى الربيع سليمان بن سالم .

وأما أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصارى البياسى فقد ولد فى بلنسية فى ربيع الأول سنة ٥٧٣ / ١١٧٧ أى أنه أكبر من ابن الأبار باثنتى عشرة سنة ، وكان أديباً حافظا اتجه إلى الأدب والتاريخ بصورة خاصة ، وهاجر إلى تونس بعد سقوط بلده بلنسية واستقر فى تونس يعلّم ويؤلف ، وأثرت عنه كتب مثل « الإعلام بالحروب الواقعة فى صدر الإسلام » و «الحماسة» وغيرهما ، حتى مات فى ذى الحجة سنة ٦٥٣ / يناير ١٢٥٦ :

* * *

سقوط بلنسية

فى ذلك الحين كان الخطر يقترب من بلنسية يوما بعد يوم ، لأن مملكة أرغون التى اتحدت مع إمارة قطلونية أيام ملكها پدرو الثانى أصبحت خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى من أقوى ممالك شبه الجزيرة وأهمها ، لأن عرش أرغون كان يضم — إلى جانب إقليم سرقسطة وحوض الإبرُه — دوقيتى پروڤنسة وروسيُّون فى جنوبى فرنسا ، وكان ملكها پدرو الثانى قد استولى على طركونة وطرطوشة وأطل على حدود إمارة بلنسية : وتوفى پدرو الثانى قتيلا فى معركة موريت Moret بجنوبى فرنسا مخلفا ابنه الوحيد خايمه أو جاقه Jaime فى وصاية أمه مارية د مونبلييه ،وكانت

تعيش فى روما منذ طلاقها من زوجها ، فلما ماتت فى أبريل ١٢١٣ تركت ولدها فى وصاية البابوية . وكان لهذا الوضع أثره البعيد فى تاريخ مملكة أرغون أيام خايمه الأول ، لأنها اعتُبرت إقطاعية تابعة للبابوية واعتُبرت حروبها مع المسلمين حروبا صليبية ، وكان البابا إنُسِنْتْ الثالث هو الذى تولى بنفسه رعاية شؤون الصبى خايمه حتى بلغ سن الرشد وتولى الملك ، وقد ندب البابا للوصاية على العرش رجلا من رجاله هو پدرو دِ بِنِفِنْتُو دَيّان كنيسة سنتا ماريا دِ أكيرو ، فأقبل واستقر فى لاردة وعقد هدنة مع المسلمين ، وأناب عنه فى الحكم والوصاية على خايمه سانشو دوقَ پروفنسة وكان ابناً لرامون بيرنجير الرابع.

وفى سنة ١٢١٨/٦١٥ بلغ خايمه سن الرشد ولقب بالأول ، وبدأ فى نفس السنة كفاحه الطويل ضد المسلمين ، فسار نحو بنِشْكُلَه Péniscōla واستغلها ، وكانت تلك أول ما سقط فى يده من توابع بلنسية . ثم حفزه نفر من تجار برشلونة ومندوب البابا ونفر من أشراف مملكته على غزو جزيرة ميورقة ، فجرد حملة من مائة فارس وألف راجل ، واعتبرت الحملة حملةً صليبية ، وتمكن من الاستيلاء على الجزيرة بأيسر جهد فى ١٤ صفر ٦٢١/ أول يناير ١٢٣٠ ، والمراجع النصرانية تذهب إلى أن الغزو تم قبل ذلك بشهر أى فى منتصف المحرم/٣١ ديسمبر من نفس السنة . وعلى سهولة هذا الفتح فقد رفع من شأن خايمه — أو « جاقم » كما يسميه ابن الأبار — إلى مصاف كبار الفاتحين ، وأصبح يلقب بالكونكيستادور أى الفاتح . ولم تسقط الجزيرة كلها بسقوط قاعدتها ، إذ استمرت الحرب هناك سنوات تم خلالها القضاء على كل مقاومة .

وعقب ذلك مباشرة اتجهت أنظار خايمه نحو بلنسية ، وقد حرضه على هذا أوجو فولكالكير Hugo Folcalquer رئيس فرسان الداوية فى مملكة أرغون ونفر من الأشراف ، فسار نحو منطقة بلنسية فى سنة ١٢٣٢ (٦٣٠ —

٦٣١ هـ) : واستولى على آره Ares ثم مُرِلّه Morella فى نفس السنة :

وفى شوال ٦٣٠/يوليو١٢٣٣ استولى على بُريانة Burriana بعد حصار بالبر والبحر ، ثم أعاد إخضاع بنشكله وبُولْبِش Polpes وقسطليون Castellón وبريول Borriol وكويڤاس Cuevas وبِن رومان Vinromá وألقلوطن Alcaluten وبيلافورنس Vilafornés ووصلت غارته إلى ضفاف نهر شقر وناحية البلاط Albalate . وفى سنة ٦٣٣/١٢٣٤ استولى على مُضارة بلنسية ، وفى العام التالى حاول الاستيلاء على قُليارة Cullera دون نجاح ولكنه ملك حصنين يشرفان على بقاع بلنسية هما مُنْكاده Montcada ومُشروس Museros .

وبعد ذلك بثلاث سنوات ، أى فى سنة ١٢٣٨ (٦٣٦ — ٦٣٧) ضرب معسكره بين بلنسية وقرية مجاورة لها تسمى جراو Grau وعول على ألا يريم حتى يستولى على البلد . وتدفقت إليه النجدات من شتى البلاد التابعة له ، بل أقبل لعونه مقاتلون من تربونة ونفر من فرسان قشتالة .

ويغلب على الظن أن ذلك الموضع الذى ضرب الملك خايمه معسكره عنده هو جبل أنيشة أو أنيجة الذى يسميه ابن عبد المنعم الحميرى عقبة أنيشة ويسمى فى النصوص الإسبانية إلبويش el Puig وتقوم عليه قرية تحمل نفس الاسم ، وتقع هذه العقبة على ٢٠ كيلو متراً شمالى بلنسية فى الطريق إلى مربيطر التى تعرف باسم سَجُونتو Sagunto . وأحس أبوجميل زيان بالخطر الداهم ، وانتهز فرصة ابتعاد الملك خايمه عن معسكره ، فخرج فى جمع عظيم من مقاتلى بلنسية فيهم نفر من الشيوخ والفقهاء ، ودارت بين الجانبين معركة عنيفة : وقد استبسل البلنسيون فى القتال ، ولكن أعداءهم أداروا عليهم خدعة كبيرة ، إذ أقبلت طائفة منهم من بعيد حاملة راية الملك وأشاعت أنه عاد بجيش كبير ، ففت ذلك فى عضد المدافعين عن بلدهم وأيقنوا بالهزيمة وأخذ الكثيرون فى الفرار . وفى هذه الفوضى استشهد من المسلمين كثيرون من بينهم أبو الربيع

سليمان بن سالم الكلاعي ، وكان قد بلغ السبعين من عمره ، ولكنه بقى فى الميدان إلى آخر المعركة ، وظل يثبت الناس ويدعو الفارين إلى العودة حتى قتل ، وكان ذلك فى ٢٠ ذى الحجة ٦٣٤/١٣ أغسطس ١٢٣٧ . وكانت تلك آخر محاولة كبيرة قام بها البلنسيون لإنقاذ بلدهم .

ولم يحضر ابن الأبار هذه الواقعة ؛ إذ لو حضرها لقال ذلك ، فقد ذكرها فى « التكملة » وفى « الحلة » . وأحس أبو جميل زيان أنه لن يستطيع الثبات وحده ، فقرر إرسال سفارة إلى أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية (تونس) وندب لها ابن الأبار ، وتلك هى السفارة التى أنشد فيها ابن الأبار قصيدته المشهورة :

أدركْ بخيلك ، خيل الله ، أندلساً   إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهى قصيدة طويلة فيها من التكلف ما يكاد يصرف قارئها عن الحال المحزن الذى قيلت فيه ، ولكنها على أى حال حققت الهدف من إنشادها ، فقد تحمس أبو زكريا وأرسل إلى بلنسية بضع سفن مشحونة بالمال والعتاد والزاد .

وكان خايمه قد ضيق الحصار حول بلنسية فى أثناء ذلك ، ووصل الأسطول الحفصى وحاول النزول فى موضع جراو قرب بلنسية فى ٤ محرم ٦٣٦/ ١٨ أغسطس ١٢٣٨ ، ولكنه وجد الموضع حافلا بجند النصارى فأرسل قائد الحملة أبو يحيى بن أبى حفص عمر الهنتاتى المعروف بالشهيد إلى أبى زكريا الحفصى يعلمه بالحال واتجه هو بالسفن إلى دانية وأرسى فيها فى ١٢ محرم ٦٣٦/ ٢٦ أغسطس ١٢٣٨ وترك لأهلها الطعام والسلاح اللذين كان يحملهما ، أما المال فقد عاد به إذ لم يجد من يتسلمه منه . ومن الغريب أن أبا بكر عزيز بن أبى مروان بن خطاب الذى سيترجم له ابن الأبار فى الحلة بايع لنفسه على مرسية فى نفس اليوم الذى وصل فيه الأسطول الحفصى إلى جراو ولقب نفسه بضياء السنة وعلى مسافة قصيرة منه بلد إسلامى يحتضر ! ولو فى هذا الرجل ومن حوله

من السنة أثارة لخف لنجدة إخوانه ، ولكن إلى هذه الحال من سخف العقول وصل الناس فى تلك الأيام ، والدول لا تسقط عن قلة عدد وإنما عن سقوط الهمم وضياع النخوة وموت الإحساس . ومما يستلفت النظر ويدعو إلى الاعتبار أن لسان الدين بن الخطيب سخر من ابن خطاب هذا وقال إنه قبل الإمرة بمرسية « مع قطع صبي المهد ورضيع الثدى بسوء عقبى من يتحمل ذلك يومئذ» ، وابن الخطيب ذاته سيزج بنفسه مهالك ومعاطب ومطامع يقطع نفس « صبي المهد ورضيع الثدى » بسوء عقباها ، ومع هذا لم يذكر ولم يتعظ ، وانتهى بنفسه إلى مصرع شبيه بمصرع ابن خطاب.

ويذهب ابن الخطيب إلى أن الحصار طال حتى « نفدت الأقوات واستولى الجوع وضعفت القوى وأكلت الجلود والزقوق » ، والواقع أن الحصار لم يطل حتى بلغت الحال هذا المبلغ ، ولكن القتال كان ضارياً عنيفاً وخاصة بعد معركة أنيشة ، ثم إن فرقاً من فرسان أرغون كانت لا تكف عن الغارة على البلد وانتساف ما حوله من معسكرها عند عقبة أنيشة ، وكانت أعدادهم تتزايد يوماً بعد يوم حتى أصبح معسكر ملك أرغون كأنه مدينة كبيرة خف إليها التجار من كل صوب ، وقد أتى بعضهم من مونبلييه ، وأخيراً استقر رأى أبى جميل زيان على التسليم ، وتم ذلك فى ١٧ صفر ٦٣٦/ سبتمبر ١٢٣٨ ، وقد اشترك ابن الأبار فى المفاوضات وكتب بنفسه العقد كما حكى فى « الحلة »؛ وقد نص الاتفاق على أن يغادر من أراد من المسلمين بلده خلال ٢٠ يوما بأمواله وأسبابه ، « وابتدئ بضعفة الناس ، فسُيِّروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً ، وصبيحة يوم الجمعة ١٧ من صفر المذكور كان خروج أبى جميل بأهله من القصر فى طائفة يسيرة أقامت معه ، وعند ذلك استولى عليها الروم » .

استقر أبو جميل زيان وابن الأبار معه فى دانية ، ويبدو أن ابن الأبار حاول أن يجد عملا عند بعض الرؤساء فيما بقى من مدن الأندلس ، فقد أورد

المقرى فى « أزهار الرياض » رسائل منه إلى بعضهم (٣/٢١٦–٢٢١) ، ولكنه لم يوفق ، فعول على مفارقة الأندلس جملة إلى إفريقية والتماس الأمان ببلد ذاع له فيه صيت منذ زيارته الأولى ، وقد فعل فعله أبو المطرف بن عميرة وأبو الحجاج يوسف البياسى وغيرهم كثيرون ، ولم يكن الأندلس قد ضاع كله ولا انقطع منه الرجاء ، ولكن هكذا كان تصرف الكثير من علمائه وقادة السياسة والرأى فيه : نجوا بأنفسهم مخلفين الصغار والضعفاء وأهل الأرياف والمدن ، وهناك فى ظلال الأمن والدعة طفقوا يكتبون مراثى نثرية أو شعرية يعبرون فيها عن أسف متكلف، وليس هناك أبعد عن الصدق من هذه المكاتبات المنظومة أو المنثورة بين ابن الأبار وأبى المطرف بن عميرة فى رثاء بلنسية .

أما أبو جميل زيان فقد تمهد له الأمر فى دانية ، ولكن الملك خايمه اتجه إلى الجنوب فاستولى على كَنَدِية Gandía فخاف أبو جُميل وأرسل إليه يعرض تسليم لَقَنْتْ Alicante فى مقابل تنازل الملك عن جزيرة ميورقة ، فرفض خايمه لأن الاتفاق كان قد تم بينه وبين ملك قشتالة على أن تكون بلنسية آخر ما يستولى عليه من بلاد المسلمين ، والباقى من نصيب قشتالة . ثم حاصر شاطبة حصاراً قصيراً وأقلع عنها عائداً إلى مونبلييه .

وأقام أبو جميل رئيساً لدانية ، وما زال يدبر وهو فيها لرئيس مرسية أبى بكر عُزيز بن أبى مروان بن خطاب ، حتى ثار به الناس وبايعوا لأبى جميل ، ثم قُتل ابن خطاب فى رمضان سنة ٦٣٦/أبريل ١٢٣٩ فأصبح أبو جميل رئيس دانية ومرسية ، وظل فى الأولى حتى سار فارس ألمانى اسمه Carroz ممن كانوا يعملون فى خدمة الملك خايمه فانتزعها منه سنة ٦٤٢/١٢٤٤ . وأما مرسية فقد ظل أميراً عليها داعياً للخليفة العباسى ، ثم دخل فى طاعة محمد بن يوسف ابن نصر بن الأحمر ، وظل على هذا وقتاً قصيراً ، ثم بدا لابن الأحمر فعزله عنها ، فتركها ومضى إلى تونس حيث عاش بقية عمره .

أما هذا الاتفاق الذى أشرنا إليه بين ملكى أرغون وقشتالة فقد تم فى بليدة تسمى الميرسَى Almirza من أحواز بلنسية فى ٢٥ مايو ١٢٤٤ (ذى القعدة ٦٤١) وهو يدل على أن الاستيلاء على ما بقى من قواعد المسلمين فى شرق الجزيرة لم يعد حربا بل تقسيما ، هذه لهذا وتلك لذاك ، وأدهى من ذلك أن هذا الاتفاق تم بينهما توثيقاً لمصاهرة عقداها ، فقد اتفقا على أن تتزوج الأميرة ڤيولانتِ ابنة خايمه الأمير ألفونسو بن فرناندو الثالث ملك قشتالة ، ونص الاتفاق على أن تكون شاطبة جزءاً من شوار العروس ، ولم تكن شاطبة قد سقطت بعد ! وبعد مفاوضات طويلة كادت تؤدى إلى الحرب استقر الملكان على اتفاقية المرسى هذه ، وقد نصت على أن يعطى خايمه لصهره بيّانة Villena وساش Sax وكاوديتِ Caudete وبُغَرَّس Bugarras وأن يتنازل ملك قشتالة عن إنغيرة Enguera وموشنت Mogente ، وأن تكون بلنسية وتوابعها من نصيب أرغون ، ومرسية وتوابعها وما يليها جنوباً من نصيب قشتالة ، ووضع حد فاصل بين الناحيتين ، فتبعت مرسيةَ بلادُ المنزل Almansa وسَرَذول Sarazul وحوض نهر كبرينول Cabrinol ، وتبعت بلنسية بلاد قسطلة Castalla وأبْيار Biar وريُّو Relleu وسشونة Saxona والأرش Alarch وفِنِسْترات Finestrat وطُرَّش Torres وبولوب Polop وموالِه Muela ، وكلها مواضع صغيرة بين حوضى نهرى شقر Jucar وشقورة Segura .

وقد انتقد مؤرخو قطلونية ذلك الاتفاق وقالوا إنه أخرج مملكة أرغون من ميدان الحرب مع المسلمين وأقفل فى وجهها سبيل التوسع جنوباً على حسابهم ، ولكن خايمه الأول كانت أمامه مشاكل كثيرة فى بلاده المترامية ، ولم يكن يستطيع المضى فى حرب المسلمين إلى أكثر مما مضى ، ثم إن مرسية وما يليها جنوباً كان أمرها استقر بعض الشيء بعد قيام أبى جُميل زيان بالأمر فيها وبيعته للخليفة العباسى ودخوله فى طاعة محمد بن يوسف بن الأحمر صاحب غرناطة ، وكان مركز هذا قد استتب وأصبح قادرا على مواصلة

الحرب للدفاع عن كيانه ، وكان ابن الأحمر إلى جانب ذلك تابعاً لملوك قشتالة ، فلم تكن مواصلة الحرب معه بالأمر اليسير ، ومهما يكن من الأمر فقد ختم خايمه أعماله فى هذه الناحية بالاستيلاء على شاطبة فى أبريل ١٢٤٨ (محرم ٦٢٦) ليقدمها فى شوار بنته بعد ذلك .

* * *

ابن الأبار فى إفريقية

غادر ابن الأبار إذن بلاد الأندلس قاصداً بلاد الحفصيين ، ويذهب الغبرينى إلى أنه ذهب أولا إلى بجاية « ودرس بها وأقرأ وروى وسمع وصنف وألف ، ثم استدعاه المستنصر الحفصى ليكتب له » . ويبدو أن إقامته ببجاية كانت قصيرة ، لأنه يذكر فى ترجمة نذير بن وهب بن لُب أن هذا الأخير توفى فى العشر الأواسط من شعبان ٦٣٦ / مارس ١٢٨٩ «بعد ستة أشهر من الحادثة على بلنسية ، وأنا حينئذ بحضرة تونس فى توجهى إليها » أى أنه أقام ببجاية ثلاثة أشهر أو أربعة انتقل بعدها إلى تونس ليكون كاتب المستنصر الحفصى .

وتذهب المراجع إلى أنه تولى كتابة الإنشاء والعلامة ، و « العلامة » هى عبارة التوقيع التى تضاف إلى المكاتبات السلطانية وترفع إلى السلطان ليضع عليها خاتمه ، ويقال إن ابن الأبار كتب العلامة فترة من الزمن وكان يكتبها بخطه المغربى ، ولكن السلطان أبا زكريا يحيى رغب فى أن تكون بالخط المشرقى ، ولهذا أمر بأن يكتفى ابن الأبار بإنشاء المكاتبات ويدع العلامة لأحمد بن إبراهيم الغسانى ، وكان يحسن الكتابة بالخط المشرقى ، فغضب ابن الأبار لذلك واستمر يكتب العلامة على ما ينشئه من رسائل ، فعوتب فى ذلك وروجع ، فاستنشاط غضبا ورمى القلم من يده وأنشد :

اطلب العز فى لظّى وذر الذل (م) ولو فى جنـــان الخلود

وحُمل الخبر إلى السلطان ، فصرفه عن العمل وأمره بلزوم بيته .

هكذا نجد الخبر فى كل مراجعنا على طريقتها فى تعليل الحوادث

تعليلات سطحية ظاهرة التكلف ، والحقيقة أن ما جرى لابن الأبار كان حلقة من حلقات الصراع بين الأندلسيين المهاجرين وشيوخ تونس من موحدين وغير موحدين ، بل حلقة من صراع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين مع شيوخ كل قطر نزلوه وعلمائه . فقد كان الأندلسيون يحسون أنهم أعلم من غيرهم وأقدر ، ومن ثم فهم أولى بالتكريم وبالمناصب . ثم إنهم كانوا يتوقعون ممن نزلوا عليهم مراعاة وعطفاً عليهم مواساة لهم فيما أصابهم فى بلادهم . أما أهل المغرب وتونس ومصر وبقية أهل المشرق فكانوا يرون أن أولئك المهاجرين أولى بأن يتواضعوا ويقنعوا بما وجدوا فى أوطانهم الجديدة ، ثم لماذا يطلبون أن يمتازوا على غيرهم ما داموا قد أصبحوا مواطنين فى البلاد التى نزلوها ؟ هذا كان مدار الخلاف الحقيقى ، نلمحه فى صور شتى فى تراجم الأندلسيين الذين هاجروا إلى بلاد إسلامية بعد ضياع بلادهم ، ويندر أن تقرأ لواحد من أولئك الأندلسيين شيئاً إلا لمسنا فيه المرارة التى نشأت عن خيبة الرجاء فى المهجر ، وأمثلة ذلك كثيرة عند على ابن سعيد وأبى الخطاب بن دحية وأثير الدين أبى حيان وأبى بكر الطرطوشى وابن خلدون والمقرى وغيرهم .

ولكن الخلاف بين الأندلسيين والبلديين كان أوسع مدى وأبعد أثراً فى تونس عاصمة الحفصيين ، فقد كان عدد من نزلها من الأندلسيين عظيما ، وكان الكثيرون منهم سلائل أسر عريقة لها فى تاريخ الأندلس السياسى والعلمى أثر بعيد ، وقد ذكرنا أبا المطرف بن عميرة وأبا الحجاج البياسى ويضيف ابن خلدون أبا مروان أحمد الباجى من أعقاب أبى الوليد وأبا عمر ابن الجد من أعقاب أبى بكر بن الجد وغيرهم . وكان هؤلاء يتجمعون عصبة واحدة على العلماء من أهل البلد ومشايخ الموحدين يحاولون الاستئثار من دونهم بالوظائف الكبرى ومراتب الشرف ، وفى أيام أبى زكريا يحيى الحفصى تجمع هؤلاء حول عمه أبى القاسم بن أبى زيد وكان رجلا طامحا إلى السلطان لايخفى مطامعه ، وكان له مع أبى زكريا أخبار ووقائع ، ومن

ثم فقد كان الشك يحوم حول الأندلسيين ، وكانت الوقيعة فيهم تجد أذناً صاغية من هذه الناحية .

وقد حرص معظم من ذكرنا من مهاجرة الأندلسيين على أن يبتعدوا عن السياسة ما أمكن ، وانصرفوا إلى العلم أو غيره من المشاغل التى لا يثير الاجتهاد فيها مخاوف أولى السلطان ، ولكن ابن الأبار لم يستطع سلوك هذا السبيل ، فقد كان بطبعه رجلا طموحاً إلى السلطان والجاه وعرض الدنيا ، ولو رجلٌ غيره حوى فى صدره من العلم ما حوى لحمد الله على الأمان الذى صار إليه والكرامة التى لقيها وانصرف إلى التأليف والإقراء ، ولكن سوء طالعه غلب عليه ، فقد كان إلى طموحه وطمعه سريع الغضب حديد اللسان تصدر عنه المساءة وكأنه لايشعر ، ومن أمثلة ذلك أنه عند ما وصل إلى إفريقية نزل فى ميناء بنزرت ، وكتب إلى أبى عبد الله بن أبى الحسين وزير أبى زكريا الحفصى ينبئه بمجيئه ويمت إليه بصلة صداقة قديمة بدأت عند ما زار ابن الأبار تونس فى المرة الأولى ، وكان يحسب أن والد الوزير متوفى فنعته فى الخطاب بالمرحوم ، فنبهوه إلى أنه فى قيد الحياة ما يزال ، فضحك وقال : « إن أباً لا تُعرف حياتُه من موته لأبٌ خامل » ، ولم تعدم هذه الكلمة من يحملها إلى الوزير — طبعاً — فآلمته ، وتحدث إلى السلطان فى أن يستقر ابن الأبار فى بجاية ، وفعلا ذهب ابن الأبار إليها وأمضى فيها بضعة أشهر ثم استقدمه أبو زكريا إلى تونس وألحقه بخدمته .

ولم يقلع ابن الأبار عما جبل عليه من إيذاء الناس بلسانه ، ويبدو أنه كان ممن ينبزون الآخرين بالكلام القارص أو النقد المهين فى خفية وتستر حاسبين أن أمرهم لا يفتضح ، وأمرهم فى الحقيقة لا يخفى على أحد ، ومن هنا لقبه خصومه بالفأر ، ويغلب على الظن أن وجهه كان صغيراً نحيلا ومن هنا قال فيه أحد خصومه وهو أبو الحسن على بن شلبون المعافرى البلنسى :

لا تعجبوا لمضرةٍ نالت جميـ ـع الناس صادرةً من الأبار
أوَ ليس فأراً خِلقةً وخليقةً ؟ والفأرُ مجبول على الإضرار

فأجاب ابن الأبار سريعاً :

قل لابن شلبون مقالَ تنزُّهٍ : غيرى يجاريك الهجاءَ ، فجارِ
إنا اقتسمنا خطتينــا بيننــا فحملتُ بَرَّةَ واحتملت ،فجارِ !

ثم إن ابن الأبار كان شديد الاعتداد بنفسه دائم الفخر بالأندلس وتفضيله على إفريقية ، قال ابن خلدون : « وكان فى ابن الأبار أنفة وبأو وضيق خلق » ، ومن هنا زهد فيه أبو زكريا الحفصى وأراد أن يبعده عن ديوانه ، وأيده فى ذلك أبو الحسين أحمد بن إبراهيم الغسانى ، فتعلل السلطان بحكاية خط العلامة هذه حتى لا يراه ، إذ كان صاحب العلامة يعرض الكتب عليه ، ولكن ابن الأبار لم يفهم ، وأصر واستمسك ، ثم ذهب به الغضب إلى التمثل بالبيت الذى يفضل فيه العز فى اللظى على الذل فى جنان الخلود ، ولم يكن هذا منه إلا تشدقاً بألفاظ ، فلو كان فى الحقيقة ممن يفضلون العز فى اللظى لأقام فى الأندلس ، فهناك فعلا كان اللظى فى الحروب التى لا تسكن وهناك أيضا كان العز فى ظلال السيوف .

وليت ابن الأبار استمسك بهذه العزة بعد أن أبعِد وألزِم دارَه ! بل سعى سعياً حثيثاً فى العودة إلى الذل فى جنان السلطان ، بل أنفق الوقت فى رسالة استعطاف طالت حتى صارت كتابا هو « إعتاب الكتّاب » تذلل فى فاتحته فأسرف فى التذلل ، ثم أخذ يقص حكايات كتّاب سبق إليهم غضب السلاطين ثم حلت بهم نعمة الرضا فأعتبوهم . وقد استشفع ابن الأبار بولى العهد أبى يحيى زكريا ، وكان فى أيام أبيه شابا مستضعفاً دائم الخوف من إخوته محمد وإبراهيم وعمر وأبى بكر (وكلهم ولىَ بعده) ومن أبناء عمه محمد بن عبد الواحد المعروف باللحيانى لعظم لحيته ، ولهذا كان حريصا على أن يكسب لنفسه أنصاراً يشدون أزره ، فسره أن يستشفع به ابن الأبار فكلم أباه فى أمره فأعاده إلى الرضا .

وشاءت الأقدار أن يموت أبو يحيى زكريا هذا قبل موت أبيه بسنة واحدة (٦٤٦ / ١٢٤٨ - ٤٩) وأن يصير الأمر بعد ذلك إلى أبى عبد الله

محمد ثانى أولاد أبى زكريا ، وهو الذى عرف بالمستنصر أو المنتصر ، وظل ابن الأبار فى عمله ولكنه استمر على دأبه فى تنقص الناس وخاصة أبى الحسين أحمد بن إبراهيم الغسانى ، وكان قد أصبح وزير المستنصر ، فاجتهد هذا حتى أصدر السلطان أمره بإبعاد ابن الأبار إلى بجاية ؛ فذهب إليها وانصرف إلى التأليف فترة من الزمن أنجز فيها كتاب « التكملة » الذى كان قد بدأه فى الأندلس ؛ وهذه الإقامة فى بجاية هى التى أتاحت للغبرينى فرصة الترجمة لابن الأبار ضمن من حل من العلماء ببجاية ، وهى أحسن وأوفى ترجمة له بين أيدينا .

وفى هذه الفترة أيضا نعتقد أنه أتم كتاب « الحلة السيراء » ، ومن المقطوع به أنه بدأ يكتبه فى تونس عقب استقراره فيها ، فهو فى فاتحته يتحدث عن شعر للسلطان أبى زكريا يحيى وولى عهده أبى يحيى ، وكانا يقرضان الأبيات منه بين الحين والحين ، وقد صنفه ابن الأبار تمجيداً لشاعرية السلطان وابنه وتدليلا على أن قول الشعر من خصال كبار الخلفاء والسلاطين والأمراء ، فهذا الكتاب ، مثل « إعتاب الكتاب » ، كتاب مناسبة ، ولكنها كانت مناسبة سعيدة ، لأنها أتاحت الفرصة لهذا الحافظ الواعى ليسجل شيئاً من محفوظه الغزير . وفى الكتاب إشارة إلى أنه كان ما زال مشتغلا بكتابته سنة ٦٤٦/١٢٤٨ — ٤٩ وهى السنة التى توفى فيها ولى العهد أبو يحيى ، وربما يكون قد أتمه قبل وفاة أبى زكريا ، ولكن العجلة التى تبدو فى الباب الأخير من الكتاب تدل على أنه أتمه بعد هذه السنة بمدة قصيرة ، وفى الغالب أيام إقامته الثانية فى بجاية .

ولا ندرى كيف وفق ابن الأبار إلى رضى المستنصر ، ويبدو أن ذلك كان نتيجة لرسائل مديح كتبها من بجاية يشيد بالمستنصر وأعماله ، وقد أورد المقرى فى « أزهار الرياض » رسالة لابن الأبار بمناسبة تمام حفر القناة المؤدية إلى الحدائق التى أنشأها أبو زكريا الحفصى خارج تونس ، والرسالة

تدل على أن ابن الأبار كتبها من بعيد وأرسلها إلى السلطان . ولم تكن حال ابن الأبار فى بجاية سيئة ، فقد لقيه هناك على بن سعيد المغربى ؛ وقال بعد أن أشار إلى سينيته وتوفيقه فيها وإعجاب الناس بها : « إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة ، فقلصت عند تلك النعمة ، وأخّر عن تلك العناية ، وارتحل إلى بجاية ، وهو الآن بها عاطل من الرتب ، خال من حلى الأدب ، مشتغل بالتصنيف فى فنونه ، متنفّل منه بواجبه ومسنونه ، ولى معه مجالسات آنق من الشباب ، وأبهج من الروض عند نزول السحاب . . . » (القدح المعلى ، برواية المقرى ، ٢٨٢/٤)

وعاد ابن الأبار من بجاية إلى تونس ، ومن حسن الحظ أنه أنهى هناك كتابيه الرئيسين « التكملة » و « الحلة » ، والغالب أنه ترك نسخاً من هذا وذاك هناك ، فنجا الكتابان من الدمار . وكان حريا بابن الأبار بعد ذلك أن يلين خلقه ويضبط لسانه ويخفف من دعواه ، ولكنه مضى على سابق عهده من الكبرياء وحدة اللسان ، وربما كانت هذه دعوى من خصومه الكثيرين وخاصة أحمد بن إبراهيم الغسانى وزير المستنصر الأثير عنده ، ولم يكن الغسانى ليطمئن له جنب وابن الأبار قريب من السلطان يستطيع الوصول إليه إذا أراد . وكان المستنصر رجلا كثير المخاوف يتوقع الشر من كل ناحية إذ أن أعداءه والمدبرين عليه كانوا كثيرين ، وكان ابن الأبار قبل ذلك من أتباع أخيه المتوفى ، فلم يكن هناك أيسر على الغسانى من اتهام ابن الأبار بالتدبير على الدولة ، فيحل بذلك دمه للسلطان ويفرغ منه بأهون سبيل .

نقول هذا لأن عقوبة القتل التى أنزلها المستنصر بابن الأبار لا يمكن أن تعلل بما يقال من أنه سمع السلطان مرة يسأل عن مولد ولده أبى زكريا يحيى الذى تولى السلطة بعده وتلقب بالواثق ، فجاء ابن الأبار فى اليوم التالى برقعة فيها تاريخ الولادة وطالعها ، ويضيف بعض مؤرخينا أن هذا

الطالع كان نحساً ، فاستشاط السلطان غضباً من فضوله وتطفله ، وكان ذلك سبب حتفه ؛ نقول إن ذلك كله لا يفسر لنا غضب المستنصر على ابن الأبار غضبا يؤدى به إلى قتله ثم إحراق شلوه وكتبه ، فهذا التصرف لا يصدر عن غضب بل عن خوف ، وأصحاب السلطان فى تلك العصور لم يكونوا يقتلون إلا لخوف على أنفسهم وعروشهم ، أما ما عدا ذلك فيكفى فيه الإبعاد أو السجن أو المصادرة وما إلى ذلك .

ولهذا فلا بد أن التهمة التى دبرت لابن الأبار كانت تهديد السلطان أو الاشتراك مع نفر فى ذلك ، لأننا حتى لو فرضنا أن ابن الأبار قال بيت الهجاء الذى تنسبه إليه المراجع ، فإن ذلك لا يبرر الحقد الذى ظهر من المستنصر . ولا بد كذلك أن السعاية به بدأت منذ عودته من بجاية إلى تونس ، فقد كان السلطان لا يطيق النظر إليه ، فكان يستفتيه فيما يريد من بعيد ، فإذا دخل عليه لم يكلمه أو يلتفت إليه ، وكان ابن الأبار « يشكو من ذلك ويتألم وينعى على الزمان سوء حظه :

علتْ سنِى وقدرى فى انخفاضٍ وحُكم الرب فى المربوب راض
إلى كم أسخط الأقدار حتى كأنى لم أكن يوماً براض »

ثم تجىء النهاية إثر حادثة مولد ولى العهد وطالعه التى ذكرناها ، ويذهب ابن خلدون بعد ذكرها إلى أن وشايات الحساد أوغرت صدر السلطان عليه وأوهمته أنه يتوقع المكروه للدولة وتهمه بالنظر فى النجوم ، فقُبض عليه وقام الكاتب أحمد بن إبراهيم الغسانى بالبحث فى داره وكتبه ودفاتره ، فعثر فيها على بيت شعر يقول :

طغى بتونس خَلَفٌ سموه ظلماً خليفة

وعثر عنده أيضا على كتاب فى التاريخ فيه ما يسىء إلى السلطان ، فأمر بضربه بالسياط وقتله وإحراق مؤلفاته ، فقتل ضرباً بالرماح صبيحة

الثلاثاء ٢١ من المحرم سنة ٦٥٨ وأحرق شلوه ، وأخذت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه ، وكانت نحواً من خمسة وأربعين تأليفاً (تاريخ الدولتين للزركشى ، ص ٢٧)

والحق أن الإنسان ليدهش من قسوة ذلك العقاب الذى أنزل بابن الأبار ، فمثل هذه العقوبة ما كانت تنزل إلا بأعداء السلاطين ذوى الخطر ، أو الذين ناوأوهم وحاربوهم وكادوا يقضون عليهم ، ولا نتصور مهما ذهبنا مع الخيال أن ابن الأبار بلغ هذا المبلغ فى كراهة المستنصر والتدبير عليه ، ولكن الذى لا شك فيه أن الوشاية فى حقه صورته فى تلك الصورة ، فكانت النتيجة هلاكه على أبشع هيئة نتصورها ، وهذه واحدة من جرائم أولئك السلاطين ووزرائهم ممن حملوا فى رقابهم من أوزار المساكين ودماء الضحايا ما يصمهم إلى الأبد فى حساب الأخلاق وحساب التاريخ .

عاش ابن الأبار ثلاثا وستين سنة هجرية ، اثنتان وأربعون منها فى الأندلس والباقى فى المغرب ، ولم يسعد فى هذا ولا ذلك ، فأما فى الأندلس فقد عاش مروع السرب يحوم فوقه شبح الموت فى كل حين ، وكتب لرجال لولا سوء الزمان لما كان لهم إلى الإمارة سبيل ، ومدح غيرهم ممن لا يستحقون مجرد الذكر فضلا عن المديح ، ثم فقد وطنه وخرج بما حملت يداه إلى المغرب حيث تلقفه الأعداء وأعانهم على نفسه بسوء خلقه وتطلعه إلى الوظائف والجاه ، فلم يسعد فى وطنه الجديد ولا هدأ باله ، وانتهى أمره إلى هذه النهاية الفاجعة ، ولا عجب أن يلقبه بعض المؤرخين بالشهيد ، وهذه الشهادة لا تحق له لموته مظلوماً فحسب ، بل لأن حياته كلها كانت استشهاداً طويلا على يد الأيام .

* * *

مؤلفات ابن الأبار

ألف ابن الأبار كتبا كثيرة ، أحصى معظمها بروكلمان والمرحوم عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه عن ابن الأبار والأستاذ إبراهيم الإبيارى فى

مقدمته للمقتضب من تحفة القادم والدكتور صالح الأشتر فى مقدمة تحقيقه لإعتاب الكتّاب ، وفى ثبت الكتب الوارد فى آخر تحقيقنا هذا ذكر كتب أخرى لابن الأبار ، وله رسائل وأشعار كثيرة أورد الكثير منها من أرخوا له وخاصة المقرى فى « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » والغبرينى فى « عنوان الدراية » .

والناظر فى أسماء كتبه التى ضاعت — وعددها ٣٩ — وكتبه التى وصلت إلينا — وعددها ستة — يلاحظ أنها فى ثلاثة فنون : الحديث والأدب والتاريخ . فأما كتبه فى الحديث فلم يصل إلينا منها شىء يعيننا على تقديرها قدرها الصحيح بين كتب هذا الفن ، وربما كان أهمها هو « المأخذ الصالح فى حديث معاوية بن صالح » ، فقد كان معاوية هذا من أوائل فقهاء الأندلس وقضاتها ، وقد ذكره ابن سعد فى طبقاته وأثنى عليه ومن ثم فإن أحاديثه تعتبر من العوالى ، وطالما تأسف من جاء بعده من الأندلسيين على ضياع أحاديثه وعلمه .

وأما كتبه فى الأدب فلم يبق منها إلا مقتضب تحفة القادم الذى عمله البلفيقى ، وهو مختصر سيئ الصنع ، استغنى البلفيقى فيه عن معظم النثر ولم يبق إلا هيكلا جافاً يتكون من أسماء وبضعة أشعار ، وهذه لا تعين على تقدير ابن الأبار بين أصحاب كتب الأدب .

أما ميدان ابن الأبار الحقيقى فكان التاريخ والتراجم بصورة خاصة ، وكتبه الأربعة الباقية فى هذا الفن تشهد بملكة عظيمة فى هذا الميدان ، ولا تتجلى هذه الملكة فى كتاب كما تتجلى فى « الحلة السيراء » وهو غرة كتبه دون جدال ، ولابن الأبار فيه لمحات وإشارات واستدراكات تدل على أنه كان مؤرخاً حقاً عارفاً بتاريخ الإسلام حافظاً له قارئاً لكتبه ، وهو يستدرك فيه على نفر من أئمة المؤرخين أخطاء لا يتنبه لها إلا عالم متمكن ذو ملكة واعية .

وقبل أن نفرغ لكتاب الحلة نقف وقفة قصيرة عند كتابى « التكملة لكتاب الصلة » و « المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى » .

واضح أن « المعجم » كتب قبل « التكملة » ، كتبه ابن الأبار بعد أن نضج تكوينه العلمى ، ونظن أن ترتيبه الزمنى بين مؤلفاته يجىء بعد « معدن اللجين فى مراثى الحسين » ، فقد أشار إلى هذا الكتاب فى كتبه التالية ، وموضوع « معدن اللجين » — كما يدل عليه عنوانه — من تلك الموضوعات التى تستهوى أفئدة الشباب بسبب غلبة العاطفة عليهم ، وقد كان ابن الأبار طالبياً ، ولكنه لم يكن شيعياً ، فإن الطالبى هو الذى يميل بعواطفه إلى أهل البيت ويأسى لما أصاب الكثيرين منهم أسى عاطفياً ولا يتعدى ذلك ، ومعظم كبار مؤرخينا على هذا الاعتبار طالبيون ، وأما الشيعى فهو الذى يتبع مذهب الشيعة ويميل عن السنة ، وقد ذهب المقرى إلى أن كتاب « در السِّمط فى خبر السِّبط » تشم منه رائحة التشيع ، وقد بالغ فى هذا الوصف ولا شك ، فإن الكتاب بين أيدينا وليس فيه إلا هذه العاطفية البريئة التى نجدها عند المقريزى مثلا .

وكتاب « المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى » كتاب فريد فى نوعه من بين ما وصل إلينا من التراث الأندلسى ، لا لأنه لم يؤلَّف مثله ، بل لأنه أكمل كتاب أندلسى من هذا النوع وصل إلى أيدينا . فقد ألف القاضى عياض كتاباً فى شيوخ أستاذه أبى على الصدفى هذا ، فأراد ابن الأبار أن يكمل العمل بتأليف كتاب فى أصحاب أبى على ، أى تلاميذه ومعاصريه ومن تبادل معهم العلم . ولو وجدنا كتاب عياض لاكتملت لنا مدرسة من مدارس العلم كانت فخراً للأندلس يتوسطها شيخها أبو على بن سكرة الصدفى ومن حوله شيوخه ثم معاصروه وتلاميذه ، والصدفى جدير بهذا التقدير كله ، فإنه لم يكن شيخاً واسع العلم كريم الخلق فحسب ، بل كان مجاهداً باسلاً لقى الشهادة فى معركة كُتُندة على ما ذكرناه .

وابن الأبار فى « المعجم » دقيق الدقة كلها : دقيق فى رسم الأسماء وتواريخ الميلاد وتعداد الشيوخ ، ودقيق أيضاً فى المنهج الذى اتبعه ، فهو يرتب أسماء المترجَم لهم على حروف المعجم (مع بعض خلاف قليل مقصود كإيراد اسم أحمد قبل إبراهيم) ، وهو بعد أن يفرغ من حرف يحصى عدد من ذكرهم فيه ، وإذا أهمل حرفاً نبه إلى أنه لم يجد فيه « معروفاً من هؤلاء الرواة ولا مكثرا » ، أو « ليس فى هؤلاء الرواة من أول اسمه دال أو ذال ، وعدة المذكورين فى الحروف الثلاثة : الجيم والحاء والخاء ثلاثة عشر ، منهم فى التكملة تسعة رجال » . وعدد التراجم التى فى هذا المعجم ٣١٥ .

ويفهم من العبارة السابقة أن كتاب « التكملة » كتب قبل « المعجم » . والراجح — على حسب ما استبان لى — أن كتاب « التكملة » كتب على فترات ، ففيه مواد يبدو بوضوح أنها كتبت قبل سنة ٦٣٠/١٢٣٢ — ١٢٣٣ ، وأخرى كتبت بعد هذا التاريخ وقبل هجرة ابن الأبار إلى المغرب ، وثالثة كتبت وهو فى بجاية . وهذا معقول بالنسبة لكتاب كبير مثل « التكملة » . صحيح أنه يفهم من فاتحة الكتاب — كما نشرها محمد بن شنب فى « المجلة الإفريقية » (سنة ١٩١٨) ص ٣١٧ — أن الفراغ من كتاب « التكملة » كان فى أول المحرم سنة ٦٣١/١٢٣٣ — ٣٤ ولكن فى الكتاب مواد كتبت وابن الأبار فى تونس أو بجاية ، مما يدل على أن ابن الأبار فرغ من صورة أولى من الكتاب فى أول المحرم ٦٣١ ثم عاد إلى الكتاب فأكمله ووضعه فى الصورة التى وصلت إلينـــا وهو فى بجاية للمرة الثانية .

وكتاب « التكملة » إستتمام لما بدأ به أبو الوليد عبد الله بن يوسف الأزدى المعروف بابن الفرضى (٣٥١ — ٤٠٣/٩٦٢ — ١٠١٢) من الترجمة لعلماء الأندلس ، وواصل العمل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود ابن بشكوال الأنصارى (٤٩٤ — ٥٧٨/ ١١٠٠ — ١١٨٢) ثم استتم ما فاته

فى كتاب لم يصل إلينا هو كتاب « ذيل الصلة » يذكره ابن الأبار فى « المعجم » ، ثم جاء ابن الأبار فتصدى لاستكمال ما فات سابقيه ومواصلة التراجم إلى أيامه ، وواصل العمل من بعده محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصارى المراكشى المعروف بابن عبد الملك (٦٣٤ — ٧٠٣ / ١٢٣٧ — ١٣٠٣) ثم واصل هذا العمل الجليل أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الزبير (٦٢٧ — ٧٠٨ / ١٢٢٩ — ١٣٠٨) وختمه ابن الخطيب بكتابه « عائد الصلة » .

وتكمل هذه السلسلة مؤلفات أخرى فى نفس موضوع تراجم علماء الأندلس مثل « جذوة المقتبس » للحميدى و « بغية الملتمس » للضبى و « معجم شيوخ ابن العربى » لابن الأبار (لم يوجد إلى الآن) وغيرها .

وهذه الكتب كلها — فيما عدا الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى — تتبع منهجاً واحداً فى الترجمة ، فتذكر الرجل باسمه الكامل وكنيته ونسبته وبلده الذى ولد فيه أو الذى منه أصله والبلد الذى سكنه إن كان قد نزل بلداً آخر ثم شيوخه وما قرأ عليهم ، ثم تلاميذه ومن أخذ عنه ، وتختم الترجمة بتاريخ الوفاة ومكانها وتاريخ الميلاد ومكانه إذا تيسر .

وهذه فى الحقيقة ليست تراجم بالمعنى المعروف ، إنما هى سجلات بالأسماء وتواريخ الميلاد والوفاة والشيوخ ، فلا تعطى فكرة واضحة عن المترجم له إلا فيما ندر ، فليس فيها — إلا فى القليل جدا — إشارات إلى حياة الرجل وما وقع له أو صفاته وخصائصه كرجل له صفات وخصائص ، بل ليس فيها — إلا فى النادر أيضاً — تلك الطرائف والحكايات الصغيرة التى نجد نماذج منها فى « تاريخ القضاة » للخشنى أو « رياض النفوس » للمالكى أو « الإحاطة » لابن الخطيب أو سلسلة كتب الوفيات المشرقية التى بدأته بابن خلكان ، ومن ثم فإن قيمتها للتاريخ السياسى والاجتماعى للأندلس محدودة ، بل فائدتها فى التعريف بالرجال أنفسهم قليلة .

ولكنها على أى حال أكثر فائدة من المواد التى يتضمنها الكثير من كتب على بن سعيد وكتاب « الخريدة » للعماد الأصفهانى أوالكنية الكامنة لابن الخطيب ، فهذه مجموعات مختارات وليست تراجم أو مواد ذات قيمة تاريخية .

وفى هذه الحدود تتساوى كتب ابن الفرضى وابن بشكوال وابن الأبار وابن الزبير فى الدقة والإتقان ، وربما شف ابن بشكوال على صاحبيه فى تراجمه بسبب ملكته التاريخية الواضحة . وابن الأبار على هذا الاعتبار واحد من أعلام مؤرخى العلم فى الأندلس ومرجع من المراجع التى لا يستغنى عنها مؤرخ له خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بصفة خاصة .

* * *

كتاب الحلة السيراء :

وننتهى إلى كتاب « الحلة السيراء » ، وهو دون شك أحسن كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة ، بل هو من عيون ما ألف أهل الأندلس قاطبة ومن المراجع التى لا يستغنى عنها من يؤرخ له أو يكتب فى أى ناحية من نواحى الحياة فيه .

وقد ذهب بعض المحدثين إلى أن عنوان الكتاب الكامل : « الحلة السيراء فى شعر الأمراء » ولم نجد ما يؤيد هذا فى المخطوط ولا عند الموثوق فيهم ممن كتبوا عنه ، ولهذا جعلنا عنوان الكتاب « الحلة السيراء » فحسب ، ولو أن إكماله بعبارة « فى شعر الأمراء » معقول .

وقد قلنا فى أول هذه المقدمة إن صاحب الفضل فى اكتشاف القيمة التاريخية والأدبية لهذا الكتاب كان المستشرق دوزى ، وقد أثبتت الدراسات التالية حصافة دوزى عندما أشاد بقيمة الكتاب وخصائص صاحبه ، والكتاب الآن بين أيدى القراء يستطيع من يريد منهم أن يستبين بنفسه ما له من قيمة وما يوحى به من ثقة .

ولفظ « السِّيَرَاء » الذى استعمله ابن الأبار فى العنوان لفظ نادر الاستعمال ولكنه جميل أحسن ابن الأبار فى اختياره ، وإليك ما ورد فى « لسان العرب » فى معنى هذا اللفظ :

« . . . وثوب مُسَيَّرٌ وشْيُه مثل السُّيور ، وفى « التهذيب » : إذا كان مخططاً . وسَيَّر الثوبَ والسهمَ جعل فيه خطوطاً ، وعُقابٌ مسيَّرة مخططة . والسِّيْراء والسِّيَرَاء ضرب من البرود ، وقيل هو ثوب مُسيَّر فيه خطوط تعمل من القز كالسيور ، وقيل برود يخالطها حرير ، قال الشمَّاخ :

فقال إزارٌ شَرْعَبِيٌّ وأربعٌ من السِّيَرَاء أو اواق نواجزُ

وقيل هى ثياب من ثياب اليمن والسِّيَرَاء الذهب ، وقيل الذهبُ الصافى ، الجوهرى ، والسِّيَرَاء بكسر السين وفتح الياء والمد بُرْدٌ فيه خطوط صُفر ، قال النابغة :

صفراءُ كالسِّيَرَاء أُكمل خَلْقُها كالغصنِ فى غُلَوائه المتأوِّد

وفى الحديث : أهدى إليه أُكيْدِرُ دومة حلة سيَرَاء . قال ابن الأثير : هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور ، وهو فِعَلاَء من السَّير القِدّ . قال : هكذا روى على هذه الصفة . قال ، وقال بعض المتأخرين : إنما هو على الإضافة ، واحتج بأن سيبويه قال : لم تأت فِعَلاءُ صفةً لكن اسماً ، وشرَح السِّيَرَاء بالحرير الصافى ، ومعناه حلة حرير ، وفى الحديث : أعطى علياً بُرْداً سيَرَاء وقال : اجعله خُمُراً ، وفى حديث عمر : رأى حُلَّةً سيَرَاء تباع ، وحديثه الآخر أن أحد عماله وفد عليه وعليه حُلة مُسَيَّرة أى فيها خطوط من إبريسم كالسيور » (مادة سير ، ٦ / ٥٧) .

وإذن فالمراد بالعنوان : الحلة ذات خطوط من حرير ، وقد تكون هذه الخطوط صفراء فتشبه الذهب ، وإذا أخذنا برأى سيبويه كان المعنى ثوب حرير صاف . وهو بطبيعة الحال كناية عن مادة الكتاب وما فيه من

الشعر ، وجدير بالملاحظة أن شعر الكتاب ليس كله لأمراء ، بل فيه الكثير من شعر الوزراء والكتاب وأصحاب الجاه والعلماء .

وهذا الشعر كله جيد ، مما يدل على ملكة ابن الأبار كناقد للشعر عارف بالجيد منه وغير الجيد . ولكن أهم من الشعر فى الكتاب نثره ، فهو تراجم غاية فى الفائدة لعدد كبير من الشخصيات التاريخية فى المغرب والأندلس من القرن الهجرى الأول إلى منتصف القرن السابع مع مادة تاريخية لا بأس بها عن أعلام مشارقة من أهل القرن الأول كان لهم نصيب فى فتوح المغرب والأندلس .

وفى كل هذه المواد يبدو لنا ابن الأبار مؤرخاً فحلاً واسع الاطلاع نافذ النظر صادق الحكم ، وإذا استثنينا بعض المواد الأولى التى ينسب فيها ابن الأبار شعراً إلى عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان وبعض أجزاء الباب الأخير الخاص بمن لم يؤثر عنهم شعر ، تبينا أن مادة التراجم كلها متعادلة من حيث القيمة والغزارة والأصالة ، غنية بكل ما ينفع المؤرخ ، ولا أذكر أنى قرأت لغير ابن الأبار فى الأندلس شيئاً يدل على سعة العلم على هذه الصورة ، فهو متمكن غزير المادة سواء أكتب عن خلفاء بنى العباس أم خلفاء الفاطميين أم أمراء الأندلس وخلفائها أم أمراء الطوائف ومن عاصرهم . وهو ليس غزير المادة فحسب ، بل ناقد يقظ لا يمر بخطأ فى تاريخ أو اسم إلا استدرك عليه ، وتبدو منه بدوات هنا وهناك تدل على أنه كان بالفعل من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسى والعلمى والأدبى .

ومن حسن الحظ أن ابن الأبار تخلى عن السجع بعد فراغه من فاتحة الكتاب ، فجاء أسلوبه قوياً رصيناً بليغاً يرتفع إلى أحسن مستويات الأساليب العربية الصافية ، وأسلوبه هنا يشبه أسلوبه فى « إعتاب الكتاب » . ومقارنة بين أسلوب الحلة وإعتاب الكتاب ونصوص الرسائل المسجوعة التى كتبها ابن الأبار وأورد المقرى شيئاً منها تعطينا دليلا على جناية السجع

على الأدب العربي ، فهذا ابن الأبار إذا كتب على سجيته دون تكلف أفصح وأبان وأفاد وأمتع ، فإذا تكلف وسجع أسفّ وهبط وضاعت معانيه فى جهد البحث عن السجعات .

وليس هذا موضع تحليل هذا الكتاب ، فهذه دراسة طويلة جديرة بأن يفرد لها بحث خاص ، ومثل هذا الكتاب تتبين مزاياه عند الحاجة إليه والبحث فيه .

* * *

المخطوط :

ولم تُبق الأيام من « الحلة السيراء » إلا نسخة وحيدة هى هذه التى اعتمدنا عليها فى هذا العمل ، وقد وقع فى ظن بعض الباحثين أن هناك نسختين أخريين ، واحدة فى مدريد والثانية فى باريس .

وهذه النسخة الوحيدة الباقية هى المحفوظة فى مكتبة الإسكريال برقم ١٦٥٤ ، وهى نسخة جميلة مكتوبة بخط مغربى على ورق حجمه ٢٧ × ٢٠ سنتيمترا ، فى الصفحة ١٩ سطراً ، وعدد أوراقها ١٩٧ . وفى نفس المجلد ٣ ورقات أضيفت إليه خطأ من تاريخ يظن أنه لأحمد بن أبى الفياض المؤرخ الأندلسى ، والخلاف فى نسبتها شديد بين الباحثين ، انظر :

P. MELCHOR ANTUNA, *Un Fragmento Arábigo – Historico* (Biblioteca del Escurial); en **CIUDAD DE DIOS. San Lorenzo del Escurial, tomo CXXXVII, 1921, p. 103 — 114.**

وانظر أيضا فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الإسكريال الذى وضعه هارتويج ديرنبور وراجعه وأكمله ليفى پروفنسال (باريس ١٩٢٨) ج ٣ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

وتنقص المخطوط من أوله ورقتان أو ثلاث على الأكثر فيها خطبة الكتاب وشىء من فاتحته ، وابن الأبار يأتى فيها بنماذج من شعر أمراء من بنى حفص ، والغالب أن بعضها للأمير أبى يحيى زكريا الذى كان ولياً للعهد ثم

توفى قبل وفاة أبيه أبى زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى فى سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩ – ١٢٥٠ وانتقال الأمر إلى ابنه أبى عبد الله محمد الذى لقب بالمنتصر أو المستنصر .

أما النسخة التى ظن بعضهم أنها فى المكتبة الأهلية فى باريس فنسخة حديثة كتبها المستشرق الإسبانى خوسيه أنطونيو كونْدِ وعن هذه نقل المستشرق رينو نسخة صارت إلى ملك الجمعية الأسيوية الفرنسية ، ثم انتقلت إلى المكتبة الأهلية فى باريس (انظر جامع نصوص بنى عباد للدوزى ، جـ ٢ ص ٤٦ – ٤٧) وقد استعان بها دوزى فى نشر ما نشر من الحلة ، ولكن بعضهم حسبها مخطوطة قديمة من الحلة وتحدث عنها بهذا الوصف .

وأما نسخة مدريد التى ذكرها بعضهم على أنها أصل من أصول الحلة فنسختان لا واحدة ، كتب الأولى منهما فى سنة ١٧٩٥ مستشرق إسبانى يسمى خوسيه أنطونيو پيِثّرْ José Antonio Pellicer وكتب الثانية مستشرق إسبانى آخر يسمى پابلو أودار Pablo Hodar بتوجيه من ميخائيل الغزيرى ، وقد أصبح هذا الرجل بعد ذلك أستاذاً للغة العربية فى جامعة قلمرية Coimbra فى البرتغال ، وتوفى بها سنة ١٧٧٩ (انظر فهرس مخطوطات المكتبة الأهلية بمدريد الذى صنفه جيِّنْ رُوبْلِس Guillén Robles ، مدريد ١٨٩٨ رقمى ١٢ و ١٣ ص ٨ و ٩) .

ولا وجود كذلك لأى نسخة أخرى من الحلة فى أى مكتبة عامة أو خاصة أخرى بحسب ما وصل إليه علمى .

وهذه المخطوطة الوحيدة جميلة واضحة الخط ، ولولا هذا الخرم الصغير فى أولها وبعض ثغرات قليلة الأهمية فى سياق النص لكانت من أكمل ما وصل إلينا من المخطوطات . وقد وقع الناسخ أثناء النقل فى خطأ جر إليه السهو ، فانتقل فى أثناء ترجمة أبى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضى إلى ترجمة أبى عبيد بن عبد العزيز

البكرى ، وكأنه كان ينسخ ترجمة الأول ثم مضى لبعض شأنه وعاد ففتح المخطوط فوقع على ترجمة أبي عبيد بن عبدالعزيز البكرى فلم ينتبه للأمر ومضى ينقل ، وبعد أن فرغ منه تنبه إلى أنه أسقط تراجم معظم أهل القرن الخامس ، فعاد واستتمها ! ومن حسن الحظ أنه لم يسقط شيئاً من الأصل . وقد تنبه إلى ذلك دوزى وبينه فى الكلمة التى صدر بها ما نشر من الحلة ، وراجعتُ الأمر مرة أخرى عند التحقيق ، ونبهت على ذلك فى موضعه .

وقد أفدتُ أكبر الفائدة من عمل دوزى وماركوس مولر فى هذا الكتاب ، وقد جرى الناس على أن يذكروا الأول دون الثانى عند الكلام على الحلة ، مع أن مولر فى الحقيقة خدم ما نشر من النص خدمة طيبة وقد انتفعت من قراءته فى كثير من المواضع ، ومن الحق أن أحيي هنا ذلك الجهد العظيم الذى بذله هذان المستشرقان الجليلان ، لا فى تحقيق ما نشرا من الحلة فحسب ، بل لخدماتهما للدراسات العربية بصفة عامة ، ويكفى أن أحدهما — وهو ماركوس مولر — كان يستحب أن يسمى نفسه امرأ القيس بن الطحان ، لأن امرأ القيس فى رأى البعض تعريب لماركوس أو مرقص ومولر معناه الطحان .

* * *

وبعد فهذا نص « الحلة السيراء » كاملا بين يدى القارئ مخدوماً على قدر ما سمحت به الطاقة وأعان الجهد ، ولقد طالما رجا الباحثون أن يجدوه ميسّراً بين أيديهم ، فعسى أن يكون ما أنفقت من جهد محققاً للرجاء .

وقد أعاننى فى ضبط الشعر صديقى وأخى الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، وأنا مدين له بهذا الفضل ، ووقف على طبع الكتاب فى القاهرة صديقى مصطفى عبد المجيد صالح أكرمه الله بما صدق ونصح ، وتعاونّا نحن الثلاثة على تصحيح تجارب الطبع ، ونحسب أننا نقدم هنا نصاً يخلو من خطأ مطبعى يستحق الذكر .

والله ينفعنا بجهدنا ويزيدنا من فضله وتوفيقه . وخير ما نختم به هذا الكلام دعاء صادق بالرحمة والغفران لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الأبار .

د . حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة
ومدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سابقًا
وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

القاهرة في شوال ١٤٠٥
يوليو ١٩٨٥

كِتَابُ

الحُلَّةِ السِّيَرَاءْ

[بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

... ...

... ...] (*)

/بَنَى لِيَ المجدَ آباءٌ كِرامٌ وَرِثْنا مَجدَهُمْ باعاً فَباعَا [١-١]

وَهذِّبنى الإباء ففات طِرفى(١) وكلٌّ بَعْدُ يَجرى ما استطاعَا

وقبلَهما مما يصل حبلَهما و يصف فضلَهما :

وما لِلناس مِنا غيرُ رَعْيٍ يُفيدهُمُ رِفاهاً وانتفاعَا

فيمنعهم وما شَعَبُوا مَضَاماً(٢) و يُوسِعهمْ وماسَغِبوا انتجاعَا

ولهم رضى الله عنهم ، وسمعت ذلك منهم :

أجِبْ داعِيَيْها فالنجيبُ يُجيب وشُبَّ لَظَاهَا فالنَّخِيبُ(٣) يَخيبُ

(*) ذكرنا فى المقدمة أن المخطوط تنقصه أوراق من أوله ، قد لا تزيد على اثنتين ، هما أول الفاتحة ، ويبدأ الكلام فى المخطوطة بهذه الأبيات ، وهما من شعر أبى زكريا الحفصى الذى أهدى إليه ابن الأبار هذا الكتاب . وقد حاولت العثور على أصول هذه الأشعار ، فوجدت بعضها ولم أجد الباقى . ومن الواضح أن ابن الأبار تحدث فى الصفحات الضائعة عن شعر الأمراء وكيف أنه دليل على امتيازهم وذكائهم وعلمهم ، وهو معنى سيعود إليه أكثر من مرة فى سياق الكلام ، وقد بينا ذلك فى المقدمة . وقد وضعت نقطاً بين حواصر مكان البياضات فىالأصل ، واكتفيت بهذه الإشارة هنا تحاشياً لتكرار عبارة : « بياض فى الأصل » .

(١) الطِّرْف : الكريم من الخيل .

(٢) فى الأصل : وما شغبوا مضاها ، وقد قومناه كما فى المتن . ومعنى الشطر على هذا هو أنه يحميهم ، ومَن تفرق منهم من الضيم (انظر مادة شعَبَ فى لسان العرب ، ١/٤٧٩ - ٤٨٠) .

(٣) النخيب : الجبان .

وَشِمْ عَزمةً لا يَغمِزُ[1] العَجْزُ مَتْنَها ... فَذُو العَزْمِ فى اليَوم الصَّعيبِ يُصيبُ
ولا تَبْتَغِ العَليـــاءَ إلاّ بأبيضٍ ... لِغَرْبَيْهِ فى هامِ الـكُمَاةِ غُروبُ
وأسمرَ غِرٍّ شَيَّبَ الوقعُ رأسَــهُ ... ألاَ إنمـا بعد القَشيبِ مَشيبُ
وإن شئتَ قُلتَ النجمُ توّج رأسَهُ ... فلاحَ لهُ بينَ القُلوبِ ثُقُوبُ
يُنَضْنِضُ صِلاًّ ثم يَهْوِى كأنهُ ... رِشاءٌ له قلبُ الـكَمِىِّ قَليبُ
وصَفراءَ رَبَّتْها الجُيُوبُ[2] ورَاوَحَتْ ... ذوائبَهـــا فوقَ الجُبُوبِ جَنُوبُ
إذا عيجَ مَتْنَاها أُقيمَتْ شَبَاتُها[3] ... فمنها سَرُوبٌ لا يُرَى ورَسُوبُ
فإن سَدِكَتْ بالـكَفِّ[4] أو فُلَّ خَطْوُها ... فخطْوُ بَنيها فى الحُروبِ رَحيبُ
وأجردَ يَستجْلى بأوضاحِه الوغَى ... وقد جَنَّها يومَ الرُّكوبِ عَكُوبُ[5]

---

(١) فى الأصل : يغمق ، وقد صوبها ماركوس مولر (ص ١٦٢) : يغمز ، وهو صحيح .

(٢) هذا البيت من مشكلات هذه القطعة نظراً للجناس اللفظى الذى أراده الشاعر . والبيت كله يدور حول القوس ووصفها . وقد ورد لفظ « الجيوب » هنا واضحاً فى الأصل ، فلم نر ما يدعو إلى تغييره . وقد عدله مولر (ص ١٦٢) إلى « الجبوب » . وكذلك جعله حسن حسنى عبد الوهاب عندما أورد هذه القطعة فى كتابه « المنتخب المدرسى من الأدب التونسى » (الطبعة الثانية ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٤٤) ص ١٠١ . والجُبُوب هو الفرس المُجَبَّب أى المحجّل إلى ركبتى يديه وعرقوبى رجليه . وأعتقد أن الأصوب هنا « الجيوب » والمراد بها الصدور . وسيرد لفظ الجُبُوب فى المصراع الثانى من البيت ، ولهذا فقد استبعدت أن يكرره الشاعر فى بيت مرتين .

(٣) فى الأصل : بناتها . وقد جعلها حسن حسنى عبد الوهاب بُناتها ، وفسر اللفظ بأنه قوائم الفرس ، وعلى هذا الأساس فسّر « سروب » و« رسوب » . وأعتقد أن الشاعر لا يزال يصف القوس ، وعلى هذا فقد صوبت اللفظ إلى « شَباتُها » . وباقى البيت مفهوم على هذا التفسير .

(٤) أى شُدت باليد .

(٥) العُكوب : الغبار .

إذا ما استحرَّ الضربُ واشتَجَر القَنا بدا وهْوَ فى حال [. . . . . .]
له من سَعَالِي الجِنِّ خَلْقٌ مُطَهَّمٌ(1) يَرُوعُ ، وَمِن هُوجِ الرِّياحِ هُبُوبُ
بِتِلكَ يُنالُ الوِتْرُ لوْ حال دونهُ شُهوبٌ ، وحالَتْ عن مَدَاهُ لُهُوبُ(2)
/فدع عنك أبناء الزمان فكلُّهمْ لَهُ عِند تمحيصِ الغُيوب عُيوبُ [١ - ب]
فلا تُورِدَنَهُ ورْدَكَ الصَّفْوَ إنَّهُ شَرُوبٌ وعِند الحادثات سَرُوبُ
[... ...] ساوى الرجَال فبَاسِمٌ لهُ عند هَبَّات الخُطوبِ خطوب
[. . . . . .] قربى يعرد هايباً ويبأى إذا الحق النؤوب يؤُوبُ
[... ... ...] إلى الخليل محلة وقد جعلت [... ... ...]
[... ... ...] يديْك فإنَّه سواء قريب فى الورى وغريبُ
[ألا فـ]اسْتَعِنْ واسْتَغْنِ بالله إنَّهُ لَفَتْحٌ بتقــدير الرقيبِ قَريبُ

ولهم — أيدهم الله — فى استقبال حضرتهم العلية من بعض غزواتهم الميمونة :

تقر جفون عينكَ بالقـــرارِ ومِن شرط الهوى رَعىُ الذَّرارى
ألاحَ البرقُ مُعترضاً فغارَتْ نجومُ الأفْقِ مِن ماء ونارِ
خَفِىٌ يسرِى وظل الدمعُ يجرى فواحَرَباهُ من ســارٍ وجارِ
وهابَ البدرُ أن يفرى دجاه فمال عن الشَّرار إلى السِّرَارِ
وساءل مســنداً يَرويه عَنى فحدَّثه الزفيرُ عن ادِّكار
سَقى أعــلامَ تونس فالحَنايَا فمُقْتَبِلَ العَشِيــةِ والعَرَارِ
فوا كَبِدَاهُ من شــوق تناءتْ نهايتُـــه على قُرب المزارِ
وأبْرَحُ ما يكون الشوقُ يوماً إذا دَنَتِ الديارُ من الديارِ

(١) كذا فى الأصل . وقد قرأها ح . ح . عبد الوهاب : مطهَّر ، وكذلك فصل مولد (ص ١٦٣) .
(٢) لُهوب جمع لِهْب ، وهو هنا : مهواة ما بين كل جبلين (اللسان ، ١/٢٤١) .

ومن قلائدهم المُزْرِيَةِ بقلائد العِقْيان ، المُرْبِيَةِ على فرائد الجُمان (١) :

وحَوْراءَ تستعلي بنَهدين أشرعَا   ولا غَرْوَ أن يدعو هواها فأتْبعَهْ
تقول ، وقد رقَّتْ لما بي : أجازعٌ   وأنت جَرِيٌّ والأسِنَّةُ مُشْرَعَهْ ؟
[٢ - ١] /فقلت لها : جفناكِ عزًّا تَجَلُّدِي   ونَهْداكِ هَدّا نفسَ هَيْمانَ مُوجَعَهْ
وما زلتُ ألقَى القِرنَ يَعسِلُ (٢) رمحه   فمن لي بمن يَلقَى الفؤادَ بأربعَهْ ؟

صدر هذا عنهم ، دامت سعادتهم . وقد أُنشِدَ بمجلسهم العليّ للقاضي أبي بكر بن العربي في مُداعبٍ له من فتيان المُلثَّمةِ هز رمحه عليه وأوْمأ به إليه :

يهزّ عليّ الرمحَ ظبيٌ مُهفهَفٌ   لعوبٌ بألبابِ البَرِيَّةِ عابثُ
فلو كانَ رمحًا واحداً لاتَّقيتُهُ   ولكنَّه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

كذا قرأت في ديوان شعرهم ، أدام الله تأييد أمرهم . وها عندي للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية (٣) ، أنشدنيهما القاضي أبو سليمان داوود ابن سليمان بن حوط الله الأنصاري الحارثي (٤) بمدينة بَلَنْسِيَة ، وهو إذ ذاك يتولى

---

(١) يشير ابن الأبار هنا إلى كتابي « قلائد العقيان » لابن خاقان و« فرائد الجمان » أو « الفرائد الجمانية » (طبع في القاهرة سنة ١٩٠١) لمعين الدين أبي نصر أحمد بن عبد الرزاق الطَّنْطَرَاني المتوفى سنة ٤٨٠ / ١٠٨٧ (انظر بروكلمان ، ملحق ١ ص ٤٤٦) .

(٢) عَسَل الرمح : هزه .

(٣) عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي ، من أهل غرناطة ، يكنى أبا محمد . ترجم له ابن بشكوال في « الصلة » (رقم ٨٢٥ جـ ١ / ٣٨٠) ووصفه بأنه « كان واسع المعرفة قوي الأدب ، متفننًا في العلوم ، أخذ الناس عنه » . توفي سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ - ١١٤٨ .

(٤) هو داوود بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن بن سليمان بن خلف . . بن حوط الله الأنصاري الحارثي من أهل أُنْدَة (٥٥٢ - ٦ ربيع الآخر ٦٢١) ، من أكبر فقهاء الأندلس في عصره وأوسعهم علما وأكثرهم رحلة وشيوخاً . وهو من شيوخ ابن الأبار ، وقد ترجم له ترجمة واسعة في تكملة الصلة ، رقم ٢٠٥ ص ٦٣ - ٦٥ . ولم يرد لأبي محمد عبد الحق بن عطية ذكر في هذه الترجمة ولا في تكملة الصلة .

قضاءها . قال : « أنشدَنا الشيخُ أبو الحسين سِراجُ بن عبد الله العثمانى[1] — مرّاتٍ — للفقيه القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية » ؛ وذكَر البيتين ، إلا أن صدر أولهما فى هذه الرواية « يهددنى بالرمح ظبى مهفهف » ، وصدر ثانيهما « فلو كان رمحاً واحداً لاتقَّيته » ، وباقيهما سواء[2] . ولمَنْ كان منهما ذلك فقد عُدل به عن جادة الإجادة والزيادة .

ومن لزومياتهم السنية فى غزَلياتهم السلطانية :

بدت لك فى ثوب يشفُّ منجَّم أُزَيْرق — يا للهِ للحُسنِ ! — أزرقا
ولاحتْ ، وبدر الأفْق فى الأفْق كاملٌ فلم أدر أىٌّ راعنى حين أشرقا
خلا أنه لما رأى حُسنَ وجهها تأنّى قليــلاً حين شام فأبْرَقا
ودونهما صفوُ الغــدير مسَلسَلاً فأُقسِمُ لولا رقَّةُ الوصل أحْرقا
ولما رنا نحو السَّجَنْجَل وجهُها أطلَّ على متْن الغــدير فأطرقا
وزَرَّتْ عليه الشُّهْبُ ثوبَ سمائه فقارب فى التشبيــه منها وأغرقا
ونازعها ثوباً ولوناً ورفعـــةً وبُعـــداً وإشراقاً ووجهاً ترقرقا

ومن رفيع الرصف وبديع الوصف قولهم ، لا زال يجارى الأقدارَ عدلُهم ويبارى الأمطارَ طَوْلُهم :

/أعِدْ نظراً حيث الرياض كأنها خدودُ الغوانى أو قدودُ الكواعبِ [٢ — ب]

(١) سراج بن عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج من أهل قرطبة ، يكنى أبا الحسين . ترجم له ابن بشكوال فى الصلة (رقم ٥١٤ ، جـ ١ / ٢٢٦) ولم يذكر نسبته العثمانية ، وقال عنه : « وكانت له عناية كاملة بكتب الآداب واللغات والتقييد لها والضبط لمشكلها ، مع الحفظ والإتقان لما جمعه منها » . ولد سنة ٤٣٩/١٠٤٧ وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٥٠٨ / ١٠١٧ . أما هذه النسبة العثمانية فترجع إلى ولاء أسرته لبنى أمية وذكر ذلك القاضى عياض .

(٢) روى البيتين المذكورين هنا أحمد بن محمد المقرى فى نفح الطيب (طبعة محيى الدين عبد الحميد ، جـ ٢ ص ٢٣٣ فى ترجمة أبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى) بالصورة التى وردا بها فى النص ؛ وقد نسبهما إليه .

تميل وليست بين كأس وقَينةٍ ... ولـكنها بين الصَّبا والجنائبِ
وسال نَميرُ الماء بين اخضرارها ... فجاء كمثل الفرق بين الذوائبِ
وإلا كما شـق الـكَنَهْوَر بارقٌ ... وإلا كمثل الصبحِ بين الغياهب
قدِ اطَّرَدَتْ فيـه المذانبُ دائماً ... ولم تَرَ حُسناً كاطِّراد المذانبِ
ولِلنَّرجس النَّضْر اصفرارٌ تخالُه ... كشمس أصيلٍ بين بِيض السحائبِ
يَدبُّ إليك الحسْنُ فى جَنَباتِها ... بعَقربِ أصداغٍ منَ الآسِ لا سِبِ
وللياسَمين الغضِّ فى خُضْرِ بُسْطِها ... نَثائرُ دُرٍّ أو سبائكُ ساكبِ
وللسَّوْسَنِ المُبْيَضِّ إصغاءُ آلفٍ ... يَحنُّ فيحنُو خاشعاً نحو شاربِ
وقد كُلِّلَتْ أغصانُ نارَنْجِها ، فقُلْ ... مجامرُ تِبْرٍ جامدٍ غـيرِ ذائبِ
وعَطَّر منها النَّشْرُ ما بَلَّل الندى ... فنمَّتْ بأنفاسِ الرياحِ الغرائبِ
والماء فى الدولاب — إن رُمتَ وَصْفَه — ... سِهامُ قِسِيٍّ أو مخاريقُ لاعبِ
تضَمَّنَ سَقْىُ الروض رفهاً يَعُلُّهُ ... وفاءٌ فعدِّ القولَ عن قوْس حاجبِ
معَطرة الأردان يَفْعَم نفحُها ... يُحييِّك عَرف الطيب من كل جانبِ
سماء ، وجَرىُ الماء فيها مَجَرَّةٌ ... ومن زهْرها المفترِّ زُهْرُ الكواكبِ
فدونَـكَها تختال زهواً ونُضرةً ... وترفُلُ تِيهاً فى بُرودِ العجائبِ (١)

ولهم — خلَّد الله سلطانَهم — فى طبق مملوء نثائر زهر النارنج والخابور ، وأكثرُ هذا التشبيه على البديهة :

بَعثتها وذَكِیُّ العَرْف ألحفَها ... بُرْدين من وَضَح الإصباح والشَّـفَقِ
كأنما الزهرُ والخابورُ جزّعهُ ... شَذَرٌ تناثر فى درٍّ من العُنُقِ
قد راق منظره حُسناً لمُلتَفِتٍ ... ورَقَّ مَخْبَرُه عَرْفاً لمُنتَشِقِ

(١) ورد هذا البيت الأخير فى الهامش بخط مخالف .

/ ولهم — ظاهرَ اللهُ نِعَمه لديهم — مما كتبْتُه بينَ الكريمتين يديْهم : [٣-١]

خُذها كما نمَّ عَرْفُ الرَّوضِ بالسَّحَرِ ... وأيقظَ الطَّلُّ رَيّا نائمِ الزَّهَرِ

حمراء ترفُل فى أثوابِ بهجتها ... تَفتَرُّ عن لؤلؤٍ عَذْبٍ وعَن أَشَرِ (١)

زَفَفْتُها وَرِوَاق الليــل مُنْسَدِلٌ ... كأنها شَــفَقٌ فى هالةِ القمرِ

ومن ألغازهم ، وسَمِعتُ منهم رضى الله عنهم :

سَحَرتْ أعينُ الجآذرِ لُبِّى ... واستباحتْ حِمَى فؤادى وقلبى

[. . . . . . .] منها اشتباهٌ ... فانظرنَّ التَّصحيفَ مِنْ بعد قَلْبِ

وقد استوفوا حروف المعجم فى هذا الباب ، فأتوا — أيدهم الله — [بما فيه] عبرة لأولى الألباب .

ولهم فى الرثاء ، أدام الله أيامهم كما جعل مفاتيحَ الأقاليم سيوفَهم وأقلامَهم :

تَصَبَّرْ فإنَّ الصبر أولى بذى حِجْرٍ ... وإن كان حِجْراً فالمَلامُ إلى الحِجْرِ (٢)

وما زالتِ الأيامُ تَغدُو على الفتى ... فطوْراً على بِشْرٍ وطوراً على بِسْرِ (٣)

وإنْ سالَمَتْ ، والظلمُ منها سَجِيَّةٌ ... فلا بدَّ يوماً أن تفرَّ وأن تَفرِى

مَرَى (٤) الحزْنُ دمْعى أن أمَرَّ حِبالَهُ ... وكان قديماً لا يُمِرُّ ولا يَمْرِى

وعهدى بهذا الدمع يا عينُ وافياً ... فهل لكِ فى الغَدرِ المبرِّح مِن عُذرِ ؟

ألا مَن لعينٍ لا يُنَهْنَهُ غَرْبُها ... ألا مَن لسَحْرٍ لا يملُّ من السَّحْرِ ؟

ألا تلك شمس الجوِّ فى الدَّوِّ (٥) فاعجبوا ... ألا تِلكمُ إدمانةُ العفر فى القَفْرِ

---

(١) تأشير الأسنان تحزيزها وتحديد أطرافها .

(٢) الحِجر الأولى والثانية بمعنى العقل ، والثانية بمعنى حرام .

(٣) بسَر الرجلُ وجهَه : كَلَح .

(٤) مراه حقَّه : جحده .

(٥) الدو : المفازة .

أأسْلو وهذا شخْصُها حَشْوُ مُقْلتِي　　وأنْسَى وما تنفكُّ منى على ذِكرِ ؟
لئن ضمَّ مِنكِ اللحْدُ ذاتاً زَكيةً　　لقد حُنيَتْ منى الضلوعُ على جَمْرِ
سأبكيكِ ما أنَّتْ فقيدة بِكرها　　وحنَّتْ إلى وَكْرٍ مُطَوَّقَةُ النَّحْرِ
[٣-ب] / أُطارِحُها شَجْوِى فيُسْعِدُ شَجوَها　　فتحسبُنا إلْفَىْ مُصابٍ لَدَى وَكْرِ
ومالى وما للعيدِ لولا تَحَفُّلٌ　　يُكلفنى ما لا أطيقُ من الصبرِ
فمنْ كان ذا هَدْىٍ وهدْىٍ لعيدهِ　　فعندِىَ هدْىٌ من مدامعِىَ الحُمرِ
يُغادُونها قُرْبَى لنَحْرٍ ثلاثةً　　ودمعِىَ من تِشْكابِهِ الدهرَ فى بحرِ
وعندى ولا رَدٌّ زفيرٌ مردَّدٌ　　تهدّ لظاه جانبَ البِشْرِ(١)
وتصديقُ إيمانٍ وإقرارُ موقنٍ　　وتسليمُ مربوبٍ لذى الخَلْقِ والأمْرِ

ومن تصنيف لهم فى الزهد جليل ، هو على انفرادهم فى الكمال وسحر الكلام أوضح دليل :

يَعْجَل الإنسانُ بالشيء ، وهلْ　　خُلِق الإنسانُ إلا من عَجلْ ؟
ولِذِى العدلِ قضاءٌ فى الورى　　يتقاضاه كتابٌ وأجلْ
إنَّ ظُفْر الليث يدمى مِن ردًى　　مثل خَدِّ الخوْدِ يدمى من خَجَلْ
وأخو الغفلةِ فى غَفْلَتِهِ　　إنْ بكتْ وَرقاءُ غَنَّى وَارْتَجَلْ

وإنما أورِد منه الفرائد ، وأقصد إليه من القصائد ، وها هى تضيق عنها المهارق(٢) ، وتضىء منها المغارب والمشارق ، وإنما هذا إلماع بما أعوز العلماء ، وإسماع لما أسكت الحكماء .

ولما ظفرتُ من هذا المقصود الأحمد ، وسبقتُ إليه سبق الجواد إذا استولى على الأمَد ، قصرتُه على ملوك إفريقيَّةَ وبلاد المغرب المضافة إليها ، وقدمتُ

(١) كذا فى الأصل ، ولعله يقصد بالأولى البِشْرَة وبالثانية السرور .
(٢) الصحف .

القادمين فى المائة الأولى من السلف الأول عليها، لأنها من أوائل فتوح الإسلام، ثم من منازل بدرِ التمام مولانا الخليفةِ الإمامِ، أدام الله لهم نصر الألوية والأعلام.

وفى المائة الثانية صارت الأندلس دارَ إيمان، فواليتُ ذكر ولاتها من ذلك الزمان، ليوقَفَ على جلالة شانهم، ويُعرف تمكن محلهم من البلاغة ومكانهم، وذكرتُ أبناءهم، واختصرتُ أنباءهم، هربا من التطويل، ورَهَباً للتثقيل، إلا نُكتاً لها بانتخابها أحسن المواقع/وعيوناً هى باقتضابها أجْوَلُ فى المحافل [٤-١] وأوْلَجُ فى المسامع. وربما عرض ما يدعو إلى البسْط فانتقض حُكم هذا الشرط، ولا غرو أن أواقع المحذور، فللكلام اضطرار يُبيح المحظور.

وأبرزتُه مَسُوقاً على الحِقَب، منسوقا بحسب الرُّتَب؛ أعيِّن للصدور صدرَ كل مائة، وأبيِّن من تميَّز فى جماعة أو تحيَّز إلى فئة، ليستوفى المتأدبين، حتى من المتوثبين.

والذين ما عثرت على أشعارهم، أفردت باباً لأخبارهم، ولم أعرض لمن أعرَضَتْ عنهم الدولةُ الحَفْصِيَّة بالخُلْعان، وانتزعت ما كان بأيديهم تراثاً لها من الملك والسلطان.

ثم [. . . . . .](1) الاسم الذى من خصائصه التأمين والتأمير وأشبهه [... ...](2) النضير والمَشْرَع النَّمير حضرة مولانا الأمير [... ...](3) الأسعد الأطهر الأرضَى أبو يحيى ولى عهد المؤمنين(4)، وعَهْدُ الولىِّ فى متتابعات السنين،

---

(١) بياض بقدر كلمتين.

(٢) بياض بقدر كلمتين.

(٣) هنا مكان كلمتين مبشورتين من الأصل، وآثار البشر واضحة.

(٤) كذا فى الأصل، وصحته أبو زكريا يحيى وهو ابن أبى عبد الله محمد الحفصى الملقب بالمستنصر ثانى أمراء الحفصيين (٦٤٧-٦٧٥ / ١٢٤٨-١٢٧٧). وفى خدمة المستنصر عمل ابن الأبار. والإشارة هنا إلى ولى عهده أبى زكريا يحيى الذى خلفه على العرش سنة ٦٧٥ ٪ ١٢٧٦-١٢٧٧ وتولى بعده وتلقب بالواثق. وقد فرغ ابن الأبار من «الحلة السيراء» خلال سنة ٦٤٩ ٪ ١٢٥١ أوبعدها بقليل، أى أيام كان أبو زكريا يحيى الواثق ولياً للعهد. (انظر: ابن خلدون، تاريخ ٦/٢٩٦).

والملىّ(١) وقد [...](٢) مكارم الآباء بإنجاب كرام البنين . أجْهَدُ فى الاستظهار على شكر نعمته ، وأجهر آناء الليل وأطراف النهار بأن [يكون](٣) العمل خادم النية فى خدمته . وأقصى المأمول أن تأذن له(٤) سيادتُه فى القرب من سُدَّته ، وتقابل وفادته بالقبول ليسعد مداه بسعادة مدته . أبقاه الله ولواؤه منصور ، وكرم الخلال فيه محصور ، وشرف الكمال عليه مقصور ، والعيون والقلوب إليه ميلٌ وصور ، بمنه .

(١) كذا فى الأصل ، وصحة هذا اللفظ تتضح إذا عرفنا ما بعده ، وهو مضطرب فى نسختنا .

(٢) بياض بقدر كلمة فى معنى : عُهِدَت .

(٣) أضفت هذه الكلمة للسياق .

(٤) الضمير هنا عائد على العمل .

المائة الأولى من الهجرة

١ — عَمرو بن العاصى ، أبو عبد الله

قرأت بخط أحمد بن يحيى بن جابر البَلاَذُرِىّ فى كتاب « أنساب الأشراف » من تأليفه : قال محمد بن سعد : قال الواقِدِىّ من خبر عَمرو ابن العاصى إنه قدم على النبى صلى الله عليه وسلم مُسْلِمًا فى صفر سنة ثمانٍ — قبل فتح مكةَ بأشهر ؛ وكان الفتحُ فى شهر رمضان — فوجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة سنة ثمان إلى ذات السلاسل فى سَرِيَّة ، ومعه أبو بكر وعُمر وأبو عُبَيْدة بن الجَرّاح رضى الله عن جميعهم (١) . قال : ثم بعث به إلى ابنَىْ الجُلَنْدَى بعُمان فأسلَمَا ، وكان أميراً عليها . فلم يزل عَمرو بعُمان حتى قُبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

قال : وعَمرو بن العاصى هو الذى فتح مصر ونواحيها فى خلافة عُمر / وعزَله عثمانُ عنها . [٤ – ب]

وقال غير البَلاَذُرِىّ : ثم صار من مصر حتى قدم بَرْقَةَ ، فصالح أهلَها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية ، على أن يبيعوا من أبنائهم

(١) انظر طبقات ابن سعد (طبعة دار صادر ودار بيروت . بيروت ١٩٥٧) : ١٣١/٢ .

فى [جزيتهم « ما أحبوا بيعه »][1] [وعلى يديه تم فتح المسلمين][2] لبرقة .
ثم غزا فى سنة ثلاث وعشرين إطرابلس ، فحاصرها شهراً لا يقدر منها على شىء ، ثم افتتحها فى قصة غريبة ذكرها أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحَكَم فى تاريخه[3] ، وغنم ما فيها ولم يفلت الروم إلا بما خفّ لهم فى مراكبهم . وأراد أن يُوَجّه إلى المغرب فكتب إلى عُمر رضى الله عنه : « إن الله عز وجل فتح علينا إطرابلس ، وليس بينها وبين إفْرِيقِيَّةَ إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها اللهُ على يديه فَعَلَ »[4] ، فكتب إليه عُمر ينهاه عن ذلك .

الظاهر من هذا الخبر تحيُّزُ إطرابلس من إفْرِيقِيَّة[5] ، ولم تزل من أعمالها قديماً وحديثاً . قال ابنُ عبد الحَكَم : « كان سلطان جُرْجِير من إطرابلس إلى طَنْجَة » . وبهذا الاعتبار ساغ لى ذِكر عَمرو رضى الله عنه فى هذا الكتاب .

ومن شعره يخاطب عُمَارة بن الوليد — أخا خالد بن الوليد — عند النجاشى ،

---

(١) أضفت كلمة « جزيتهم » هنا للسياق ، وأكملت النص من فتوح ابن عبد الحكم (طبعة تورى) ص ١٧٠ - ١٧١ وفتوح البلدان للبلاذرى (القاهرة ، بدون تاريخ) ص ٢٢٤ .

(٢) عبارة الأصل هنا مضطربة . فبعد البياض الذى سددناه (راجع الهامش السابق) وردت كلمتا : « لبرقة إطرابلس » ، وهى عبارة غير صحيحة ، لأن برقة — إذ ذاك — لم تكن تابعة لإطرابلس ، ومن ثم فهى لا تنسب إليها . ولما كانت كلمة إطرابلس ترد فى آخر السطر فى المخطوط ، فقد رجحت أن ناسخاً أضافها كعنوان صغير فى الهامش ، ثم أدرجها من أتى بعده فى المتن ، فاختل المعنى . فاستغنيت عنها ، وقومت النص بحسب ما أعرف عن فتح العرب للمغرب .

(٣) راجع هذه القصة فى فتوح ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ — ١٧٢ ، وانظر عنها كتابنا « فتح العرب للمغرب » (الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٧) ص ٦١ .

(٤) راجعت النص على أصله عند ابن عبد الحكم (فتوح ، ص ١٧٢) وبقية النص : « فكتب إليه عمر : لا ، إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة (أيضاً : الغادرة) مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيتُ » .

(٥) يريد أن إطرابلس داخلة فى حوز إفريقية ، أى تبع لها .

وكانت قريش بعثتهما إليه يكلمانه فى مَن قدم عليه من المهاجرين رضى الله عنهم[١] :

تَعَلَّمْ عُمَار أنّ مِن شرِّ شِيمَةٍ[٢] لِمثلك أن يدعَى ابن عم له انتَمى[٣]
لئن كنتَ ذا بُرْدَيْن أحْوى مرجَّلا فلستَ براءٍ لابن عمك مُحرما
إذا المرء لمْ يترك طعامًا يُحبــه ولمْ يَنْهَ قَلبًا هائمًا[٤] حيث يَمّما
قَضَى وَطرًا منهُ[٥] ، وغادر سُبَّةً إذا ذُكِرتْ أمثالُها تملأُ الفَما

وقال أيضاً فى حروب صفين :

شُبَّتِ الحربُ فأعــددتُ لها مفرغ الحاركِ[٦] مَحبُوكَ السَّبَجْ

---

(١) روى البلاذرى فى « أنساب الأشراف » (طبعة الدكتور حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩) ٢٣٣/١ – ٢٣٤ هذه الأبيات فى خبر ما وقع بين عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد فى الحبشة . وكان عمرو قد بعثته قريش مع عبد الله بن أبى ربيعة إلى الحبشة ليكيدا للمهاجرين المسلمين هناك ويغريا النجاشى بالتخلى عن حمايتهم ، بل القضاء عليهم . أما عمارة بن الوليد فكان قد خرج إلى الحبشة فى تجارة له ، وركبا نفس السفينة ، وكانت مع عمرو امرأته ، فسعى عمارة فى الاتصال بها . ووقع الخصام بين الرجلين ، فلما وصلا إلى الحبشة استطاع عمارة أن يتصل ببعض نساء النجاشى . ويبدو أنه كان جميلا مفتونا بنفسه ، فلم يزل عمرو بن العاص يحتال عليه حتى حصل منه على ما يثبت اتصاله بتلك المرأة ، ثم أسرع بالأمر إلى النجاشى ، فغضب على عمارة ويقال إنه قتله . وفى هذه الأبيات يلوم عمرو بن العاص صاحبَه عمارة على ما سولته له نفسه من العدوان على امرأة ابن عمه عمرو . والخبر كله مشكوك فى صحته ، والأبيات – بالتالى – مشكوك فى أصالتها .

(٢) فى « أنساب الأشراف » : شيمة .

(٣) فى « أنساب الأشراف » : ابنما ، وهى قراءة غير صحيحة .

(٤) فى « أنساب الأشراف » : غاوياً .

(٥) فى « أنساب الأشراف » : منها .

(٦) الحارك من الفرس : كاهله .

يَصِلُ الشَّــدَّ بِشَدٍّ فإذا وَنَتِ الخيــلُ مِنَ الشدِّ مَعَجْ
جُرْشُــعٌ أَعْظَمُهُ جُفْرَتُهُ فإذا ابتــلَّ مِنَ المـاءِ حَدَجْ(١)

وقال يخاطب معاويةَ بن أبى سفيان رضى الله عنه :

مُعَاوِىَّ إنى بِعتُ دينى ولم أَنَلْ(٢) به منك دنيا(٣)،فانظُرَنْ كيف تصنعُ
وما الدين والدنيا سواءٌ ، وإننى لآخــذ ما تعطى ورأسى مقنَّعُ
فإن تُعْطِنى مصراً فأَرْبِحْ بصفقةٍ أخذتَ بها شيخاً يضر وينفعُ(٤)

[٥ - ١] / قال عَمرو هذا لأنه شرط على معاوية لما تحيز إليه — وكان معه فى حروبه لعلىّ رضى الله عنهم — أن يوليه ، إذا ظهر ، مصرَ طُعْمَةً ؛ فوفى له بذلك .

ورُوِى أن عُتْبَة بن أبى سفيان دخل على معاوية أخيه وهو يكلم عَمراً فى مصر ، وعَمرو يقول له : « إنما بِعتُك بها دينى » ، فقال له عُتْبة : « أَئْمِنِ الرجلَ بدينه فإنه صاحب من أصحاب محمد »(٥) .

(١) لم أجد هذه الأبيات فى كتاب « وقعة صفين » لنصر بن مزاحم المنقرى (طبعة عبد السلام هارون) ، القاهرة ١٣٦٥ ، وهو يضم أكبر مجموع من الشعر قيل أثناء معارك صفين .

(٢) وردت هذه الأبيات فى « وقعة صفين » ص ٤٤ . وقد ورد فيه هذا المصراع هكذا : « معاوىَّ لا أعطيك دينى ولم أنل » .

(٣) فى « وقعة صفين » : بذلك دنيا ، وفى مخطوط آخر : به منك .

(٤) وردت هذه الأبيات بنظام آخر فى « وقعة صفين » ، وها هى بعد البيت الأول :

فإن تعطنى مصراً فأربح بصفقــة أخــذت بها شيخــاً يضر وينفــع
وما الدين والدنيا سواء ، وإننى لآخذ ما تعطى ورأسى مقنــع
ولكننى أغضى الجفــون ، وإننى لأخدع نفسى ، والمخــادع يُخــدع
وأعطيك أمراً فيه للمُلك قــوة وإنى به إن زلَّت النعــل أضرع
وتمنعنى مصراً وليست برغبــة وإنى بذا الممنوع قدماً لمــولع

وقد ورد المصراع الثانى من البيت الرابع هكذا :

وأُلْفَى به إن زلت النعـل اصرَع

(٥) أورد نصر بن مزاحم المنقرى حديث معاوية بن أبى سفيان مع عمرو بن العاص وكلام عتبة بن أبى سفيان بتفصيل (ص ٤٤) وهو هناك يختلف فى معناه ومبناه عما هو هنا .

فأقام على مصر إلى أن توفى فى خلافة معاوية[١] . ومما يُعزى إليه :

وأُغْضِى على أشياء لو شئتُ قلتُها ولو قُلتها لم أبقِ لِلصُّلح موضعَا
فإن كان عُودِى من نُضارٍ فإننى لأكره يوماً أن أحطم خِرْوَعَا[٢]

وأنشد له ابنُ إسحاق صاحب « المغازى » فى يوم أُحُد ما لم أر وجهاً لذكره.

٢ – ابنه عبد الله بن عَمرو بن العاصى ، أبو محمد

ذكره أبو بكر عبد الله بن محمد المالكى فى الداخلين إفريقِيَّةَ من الصحابة رضى الله عنهم[٣] ، وهم قريب من ثلاثين رجلا . وكان يخلُف أباه على إمارة مصر ، إذ وَلِيَها عَمرو فى خلافة عُمر بن الخطاب [و] فى خلافة معاوية . وهو صلَّى على أبيه عند وفاته ، ثم صلى بالناس يومَ الفطر . ولم يكن بينه و بين أبيه فى السن إلا اثنتا عشرة[٤] سنة ، وأسلم قبله ، وكان أحد فقهاء الصحابة وفضلائهم ، والمكثرين من الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم[٥] .

(١) ورد بالهامش مقابل هذا السطر ما يلى : توفى بمصر ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين وهو ابن تسعين سنة ، ودفن بالمقطم من ناحية « الفج » ، وكانت طريق الناس إلى الحجاز. صح : من در السحابة للجلال الأسيوطى (كذا) .

(٢) جاء فى « اللسان » : ... وكل نبت ضعيف يتثنى خروع : ٩/٤٢٠ .

(٣) انظر « رياض النفوس » لأبى بكر بن أبى عبد الله محمد المالكى (بتحقيق ناشر هذا الكتاب ، حـ ١ ، القاهرة ١٩٥١) رقم ٤ ص ٤٣ – ٤٤ .

(٤) فى « رياض النفوس » (ص ٤٣) : وكان بينه وبين أبيه فى العمر ثلاث عشرة سنة .

(٥) ورد فى الهامش مقابل هذا السطر بخط مختلف عن خط المخطوط : «ط. توفى بمصر ودفن بداره سنة سبع وسبعين فى خلافة عبد الملك وسنه اثنتان وسبعون سنة . صح : من در السحابة » .

قال أبو محمد بن حزم الفقيه : روى عبد الله بن عَمرو بن العاصى سبعمائة حديث .

وفى تاريخ ابن عبد الحَكم أن عثمان رضى الله عنه كتب إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح يؤمِّره على مصر [سنة خمس وعشرين] فجاءه الكتاب بالفيوم بقرية منها تدعى « دموشة » ، فجعل لأهل الجواب[1] جُعْلا على أن يصبحوا به الفسطاط فى موكبه . فقدموا به الفسطاط قبل أن يصبح [الصبح ، فأشار][2] إلى المؤذن فأقام الصلاة حين طلع الفجر ، وعبدُ الله بن عَمرو بن العاصى ينتظر المؤذن يدعوه إلى الصلاة ، لأنه كان خليفة أبيه ، فاستنكر الإقامة ، فقيل له : صلى عبدُ الله بن سعد بالناس .

قال ابن عبد الحَكم : يزعمون أن عبد الله بن سعد أقبل من غربى المسجد بين يديه شمعة ، وأقبل عبدُ الله بن عَمرو من نحو داره بين يديه/شمعة . فالتقت [٥ - ب]
عند القبلة فأقبل عبدُ الله بن عمرو حتى وقف على عبد الله بن سعد فقال : هذا بَغْيُك ودَسُّك ! فقال عبدُ الله بن سعد : ما فعلتُ . وقد كنتَ أنت وأبوك تحسدانى على الصعيد ، فتعالَ حتى أوليك الصعيد ، وأُوَلِّى أباك أسْفَلَ الأرض ، ولا أحسدكما عليه .

وكان عزل عَمرو بن العاصى عن مصر وتولية عبد الله بن سعد فى سنة خمس وعشرين ، صَدْرَ خلافة عثمان رضى الله عنه . ومن شعر عبد الله بن عَمرو فى صفين :

فلو شهِدتْ جُمْلُ مَقامى ومَشْهدى ... بصفِّين يوماً شابَ منه الذوائبُ
عَشيَّةَ جا[3] أهلُ العراقِ كأنهم ... سحابُ ربيعٍ دَفَّعَتْه الجنائبُ[4]

(١) فى الأصل : الطواف ، والتصحيح من ابن عبد الحكم وأبى المحاسن بن تغرى بردى.
(٢) سقطت كلمات هنا ، فأضفت ما بين الحاصرتين ليتصل السياق .
(٣) فى « وقعة صفين » لنصر بن مزاحم المنقرى (ص ٤٢١) : غداة غدا .
(٤) فى نفس المصدر : من البحر موج لجه متراكب .

وجئناهمُ نَرْدِى[١] كأنَّ صفوفَنا | مِنَ البحرِ مَدٌّ موجُه مُتراكبُ[٢]
إذا قُلتَ : قد ولَّوْا سِراعاً، بَدَتْ لنا | كتائبُ منهمْ فَارْجَحَنَّتْ كتائبُ[٣]
فدارتْ رحانا واستدارتْ رحاهُمُ | سَرَاةَ النهار ما تُوَلَّى المناكبُ
وقالوا لنا : إنا نرى أن تُبايعوا[٤] | عَليًّا ، فقلنا : بل نرى أن تُضاربوا[٥]

هكذا وجدت هذا الشعر منسوباً إليه ، وخلاف هذه الحال كان [... ...][٦] . على أن أبا الفتوح الطائى البغدادى قد حكى فى كتابه « الأربعين حديثاً » مِن جَمْعِه أن عبد الله بن عمرو شهد مع أبيه صفين ، وكان يضرب بسَيْفين . والأصح هو الذى رواه أبو عُمر بن عبد البر [فى خبر يسنده][٧] إلى ابن

---

(١) رَدَى فى البئر يردى إذا سقط فيها أو تهور من جبل . وفى « وقعة صفين » : نمشى .

(٢) ورد هذا البيت فى « وقعة صفين » هكذا :

وجئناهم نمشى صفوفا كأننا | سحاب خريف صففته الجنائب

وبعد هذا البيت بيت لم يورده ابن الأبار هو :

فطار إلينا بالرماح كُماتُهم | وطرنا إليهم والسيوف قواضب

(٣) فى نفس المصدر والصفحة ورد هذا البيت هكذا :

إذا قلت يوما : قد وَنَوْا ! برزت لنا | كتائب حمر وارجحنت كتائب

(٤) ورد هذا الشطر عند نصر بن مزاحم المنقرى هكذا :

فقالوا : نرى من رأينا أن تبايعوا .

وفى الأصل : أن نضارب ، ولا تستقيم به القافية ، فجعلته كما هو فى المتن .

(٥) أورد نصر بن مزاحم بعد هذا ثلاثة أبيات :

فأُبنا وقد نالوا سراة رجالنا | وليس لما لا قوا سوى الله حاسب
فلم أر يوماً كان أكثر باكياً | ولا عارضاً منهم كَبِياً يكالب
كأن تلالى البيض فينا وفيهم | تلألؤ برق فى تهامة ثاقب

(٦) بياض بقدر كلمتين .

(٧) أضفت هذه الكلمات للسياق . والخبر وارد فى « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » لأبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى (طبعة المطبعة التجارية على هامش « الإصابة فى تمييز الصحابة » لأحمد بن على بن محمد العسقلانى المعروف بابن حجر . القاهرة ١٩٣٩) ٢/٢٤٠ .

أبي مُلَيْكَةَ أن عبد الله بن عمرو بن العاصي كان يقول : « مالى ولصفين ؟ مالى ولقتال المسلمين ؟ والله لوددت أنى متُّ قبل هذا بعشر سنين » . ثم يقول : « أمَا والله ما ضَربتُ فيها بسيف ، ولا طَعَنت برمح ، ولا رَميت بسهم ، ولوددت أنى لم أحضر شيئاً منها . وأستغفر الله عز وجل من ذلك وأتوب إليه » . قال أبو عُمر : « إلا أنه ذُكر أنه كانت بيده الراية يومئذ ، فنَدِمَ ندامة شديدة على قتاله مع معاوية . قال : وأقسَم أنه إنما شهدها لعزمة أبيه عليه فى ذلك ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « أطع أباك » . ذكر أبو عُمر هذا[1] فى كتاب « الاستيعاب فى الصحابة » من تأليفه ، ولكن الشعر — مع هذا — مذكور له فى مصنف أبى بكر بن أبى شيبة وغيره .

[٦ - ١] ٣/ — عبد الله بن عباس ، أبو العباس[2]

غزا إفريقيَّة مع عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح فى خلافة عثمان سنة سبع وعشرين وشهد فتحها ؛ ذكر ذلك أبو سعيد بن يونس فى تاريخه . ثم وَلِىَ إمارة البصرة فى خلافة علىّ رضى الله عنه حين استعمل أخويه عُبَيد الله على اليمن ومَعبدًا على مكة . وكان لعبد الله بن العباس من عُمر بن الخطاب مكان . وقال لعبد الرحمن بن عوف ، وقد كلمه فى حُظوته لديه : « إنه من حيث علمتَ » .

(١) انظر المصدر السابق ، ٢/٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) فوق هذا العنوان بخط مختلف عن خط المخطوط : « ط. توفى رحمه الله بالطائف سنة ثمان وستين ، وهو ابن إحدى وسبعين سنة . وكان يسمى البحر لسعة علمه . صح . من در السحابة » .

وكان يقول : « ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سَؤُول وقَلب عَقُول » ؛ ويقول إذا سأل [ابنَ عباس] فى الأمر يعرض مع جلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : [كيف تلومونى عليه بعد ما ترون ؟][1]

وفى كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى أن عُيَيْنَة بن مرداس [ابن فَسْوَة] الشاعر ، وهو المعروف بأبى فسوة ، أتى عبدَ الله بن العباس — وهو عامل لعلىّ بن أبى طالب على البَصرة ، وتحتـه يومئذ شُمَيْلة بنت جُنادة بن أبى أُزَيْهِر[2] الزهْرانية ، وكانت قبله تحت مُجاشِع بن مسعود السُّلمى — فاستأذن عليه فأذن له ، وكان لا يزال يأتى أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه . فلما دخل على ابن عباس قال له : « ما جاء بك [إلىّ] يا ابن فَسوة ؟ » فقال له : « وهل دونك مقصدًا[3] أو وراءك معدًّى ؟ جئتك لتعيننى على مروءتى وتصل قرابتى » ، فقال له ابن عباس : « وما مروءة مَن يعصى الرحمٰن ويقول البهتان ويقطع ما أمر الله به أن يوصَل ؟ والله لئن أعطيتك لأعينَنَّك على الكفر والعصيان ! انطلق ! فأنا أقسم بالله لئن بلغنى أنك هجوت أحدًا من العرب لأقطعنّ لسانك » ، فأراد الكلام فمنعه مَن حضر ، وحبسه يومه ذلك . ثم أخرجه عن البصرة ، فوفد إلى المدينة بعد مقتل علىّ [عليه السلام] ، فاتى الحسن [بن علىّ عليه السلام] وعبد الله بن جعفر [عليهما السلام] فسألاه عن خبره مع ابن عباس فأخبرهما ، فاشتريا عِرضَه بما أرضاه ، فقال يمدحهما ويلوم ابن عباس من أبيات :

---

(١) استعنت فى سد فراغ هذا الخبر بماذكره ابن سعد فى طبقاته فى سيرة ابن عباس : « أخبرنا هُشيم بن بشير ، قال : أخبرنا أبو بشرعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم . قال : فذكر أنه سألهم وسأله ، فأجابه ، فقال لهم : كيف تلومونى عليه بعدما ترون ؟ » الطبقات ٢/٣٦٥ .

(٢) فى الأغانى ١٩/١٤٣ : شميلة بنت جنادة بن بنت أبى أزهر الزهرانية .

(٣) فى الأغانى ١٩/١٤٣ : وهل عنك مقصرا .

لقيتُ[١] ابنَ عباسٍ فلم يقض حاجتى ولم يَرجُ معروفى ولم يَخْشَ مُنكرى
فلو كنتُ من زَهرانَ لم ينسَ حاجتى ولكننى مولى جَميلِ بنِ مَعْمَرِ
فليتَ قَلُوصى أغربتْ أو رَحَلْتُها[٢] إلى حَسَنٍ فى داره وابنِ جعفرِ
[٦-ب] /إلى ابن رسول الله يأمر بالتُّقَى وللدينِ يدعو والكِتابِ المطَهَّرِ
إلى معشر لا يخصِفون نعالَهم ولا يلبسون السِّبْتَ ما لم يُخَصَّرِ
فلما عرفتُ اليأسَ منه وقد بدتْ أيادى سَبَا الحاجاتِ للمتذكِّرِ
تسَنَّمتُ حرْجُوجاً كأنّ بُغامَها أجيجُ[٣] ابنِ ماء فى يراعٍ مفَجرِ
فما زلتُ فى التسْيار حتى أنَخْتُها إلى ابن رسول الأمة المتَخَيَّرِ
فلا تَدَعَنِّى إذ رحلتُ إليكمُ بنى هاشمٍ أن تصدرونى بمصدرِ[٤]

قال أبو الفرج : كان عُيَيْنة هـذا شاعراً خبيث اللسان مَخُوفَ المعرة فى جاهليته و إسلامه ، وكان يقدم على أمراء العراق وأشراف الناس فيصيب منهم بشعره . قال : وكان حليفاً لجميل بن مَعْمَر القُرَشى . ومن شعر عبد الله بن العباس ، وكان أبوه العباس أيضا شاعراً :

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجَعَتِ الفتى وأعمل فكرَ الليلِ ، والليلُ عاكرُ
[وباكَرَنى][٥] فى حاجةٍ لم يجدْ لها سِوایَ ولا من نكبة الدهر ناصرُ

(١) هذه الأبيات واردة فى « الأغانى » : ١٩/١٤٤ . ولم يوردها ابن الأبار على توالیها ، وإنما اختار منها .

(٢) عند أبى الفرج الأصبهانى : « فليتَ قلوصى عريت أو رَحلتُها » . والقلوص من النوق : الشابة .

(٣) الأغانى : أحيح .

(٤) الأغانى : لمصدر.

(٥) بياض بالأصل ، وقد أكملته من كتاب « العمدة » لابن رشيق (طبعة محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٤) ، ١/٢٣ .

فرَجتُ بمالي همَّـــهُ من مُقامِهِ وزايله همٌّ طَروقٌ مســـامِرُ
وكانــ له فضلٌ عليَّ بظنِّهِ بيَ الخيرَ ، إني للَّذي ظنَّ شاكرُ

وقال أيضا وقد عَمِي في آخر عمره ، ورُوى عنه من وجوه : قاله أبو عمر ابن عبد البر وغيره :

إن يأخذِ اللهُ من عينيَّ نورَهما ففي لساني وقلبي منهما نورُ
قلبي ذكيٌّ وعقلي غيرُ ذي دَخَلٍ وفي فمي صارمٌ كالسيف مأثورُ

وهذا من أحسن ما قيل في هذا المعنى ، وهو داخل في باب تحسين ما يَقْبُح وقد جمعتُ قطعةً من ذلك في تأليفي للخزانة العالية الإمامية ، الموسوم بـ « قِطَع الرياض في بِدَع الأغراض » . ومن ذلك قول بشار بن برد :

عَميتُ جنيناً ، والذكاء من العمى فجئتُ مُصيبَ الظن للعلم مَوْئلاَ
/وغاض ضياء العين للعقل رافداً بقلبٍ إذا ما ضيَّع الناسُ حصَّلا [٧ - ١]
وشِعرٍ كنَوْر الرَّوْض لامستُ نَظْمَه بقولٍ إذا ما أحزَنَ الشعرُ أسهلا

وقال آخر ، ويُروى لأبي العلاء ، والصحيح أنه لأبي الحسن الحُصْري :

وقالوا : قد عَميت ، فقلت : كلا وإني اليومَ أبصَرُ من بصيرِ
سوادُ العين زار سوادَ قلبي ليجتمعا على فهم الأمـــورِ

وقال عبد الله بن سليمان القرطبي النحوي — المعروف بدَرودٍ ، ويقال دُرَيْوِد — وكان أعمى[1] :

تقول : مَن للعمى بالحُسْن ؟ قلت لها : كَفَى عن الله في تصديقه الخَبَرُ

---

(١) ترجم له الحميدي في جذوة المقتبس رقم ٥٥٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ والزبيدي في طبقات اللغويين والنحاة (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٥) ص ٣٢٣ ، وقد ورد في هذا الأخير أن الخليفة عبد الرحمن الناصر استأدبه لأبنائه ، وتوفي سنة ٣٢٤/ ٩٤٥ - ٩٤٦ .

القلب يدرك ما لا عين تدركهُ والحُسن ما استحسنتْه النفسُ لا البصرُ
وما العيونُ التى تعمَى إذا نظرتْ بل القلوبُ التى يَعمَى بها النظرُ

ومن جَيد العذر — لولا شَوْبُه بالهُجْر — قول الآخر :

قالوا : العمى منظرٌ قبيحٌ قلت : بفقدى لهم يهونُ
تالله ما فى الأنام شىء تأسَى على فقده العيونُ

كأنه أخذه من قول سعيد بن المُسَيّب وقد نزل الماء فى عينيه ، فقيل له : « لو قَدَحْتَهُما » ، فقال : « وعلى من أفتحهما ؟ . . » . ومثل هذا قول المعرى ، وهو عندى من المنشَد :

أبا العــــلاء بنَ سليمانَا إن العمى أولاك إحسانَا
لو أبصرتْ عيناك هذا الورى لم يرَ إنسانُك إنسانَا

٤ — عبد الله بن الزبير ، أبو بكر وأبو خُبَيْب

غزا إفرِيقِيَّةَ مع ابن أبى سَرْح فى خلافة عثمان . وهو الذى وَلِىَ قتلَ جِرْجِير[١] ملكها واحتز رأسه وجعله فى رمحه ، وكبَّر فانهزم الروم فى خبر طويل ذكره مصعب بن الزبير فى كتاب « قريش »[٢] من تأليفه ، فوجه به ابنُ

(١) كذا ورد الاسم مضبوطاً بكسر الأول ، والشائع جُرجير بضم الجيم . وهو البطريق جريجوريوس الذى كان قد استبد بأمر إفريقية بعد موت الإمبراطور هرقل وقبيل فتح المسلمين للمغرب .

(٢) يريد أبا عبد الله المصعب بن عبد الله المصعب الزبيرى وكتابه « نسب قريش » (نشره ليڤى پروڤنسال ، سلسلة ذخائر العرب ، رقم ١١ — القاهرة ١٩٥١ وأعاد نشره فى صورة أكمل ومع فهارس أوفى الأستاذ عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٦٢) والخبر وارد فيه فى ص ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

أبى سرح / بشيراً إلى عثمان ، فقدم عليه ، فأخبره بفتح الله ونصره ، وخطب [٧ - ب]
يومئذ بذلك فى مسجد المدينة على المنبر . قال مصعب : وبُشِّر عبدُ الله مقدمَه
من إفرِيقِيَّة بابنه خُبَيْب بن عبد الله ، وهو أكبر وَلده .

وقال ابن عبد الحَكم : « بعث عبدُ الله بن سعد بالفتح عُقْبَةَ بنَ نافع ، ويقال بل عبد الله بن الزبير ، وذلك أصح — فيقال إنه سار على راحلته إلى المدينة من إفرِيقِيَّة فى عشرين ليلة »[1] . قال : « وقد قيل إن عبد الله بن سعد كان قد وجه مروانَ بن الحكم إلى عثمان من إفرِيقِيَّة ، فلا أدرى أفى الفتح أم بعده ؛ والله أعلم »[2] .

ثم وَلِىَ ابنُ الزبير الخلافة بالحجاز والعراق وأكثر الشام ، بعد موت معاوية ابن يزيد بن معاوية . وكان قد خرج من المدينة مع الحسين بن علىّ — إثر موت معاوية بن أبى سفيان ، ممتنعا من بيعة ابنه يزيد — وأقام يسلَّم عليه بالخلافة تسع سنين ، ثم قتله عبدُ الملك بن مروان على يد الحَجّاج سنة ثلاث وسبعين من الهجرة .

وحكى الزبير بن بَكّار فى كتاب « نسب قريش »[3] له ، عن هشام بن

---

(١) انظر ابن عبد الحكم : « كتاب فتوح إفريقية والأندلس » طبعة جزئية من فتوح ابن عبد الحكم اقتصرت على فتح إفريقية والأندلس نشرها ألبير جاتو ALBERT GATEAU مع ترجمة فرنسية عنوانها : *Conquète de l'Afrique du Nord et de l'Espagne* وهى المجلد الحادى عشر من سلسلة Bibliothèque Arabe-Française التى تنشر فى الجزائر ، وهى طبعة جيدة ، تمتاز بتعليقات وشروح قيمة وفهارس دقيقة . والخبر المشار إليه وارد فيها فى ص ٤٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

(٣) المراد كتاب « جمهرة نسب قريش وأخبارها » لأبى عبد الله الزبير بن بكار (١٧٢ - ٧٨٨/٢٥٦ - ٨٧٠) وهو ابن أخى أبى عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيرى (١٥٦ - ٧٥٤/٢٣٦ - ٨٥٦) صاحب كتاب « نسب قريش » الذى سبقت الإشارة إليه . وقد نشر =

عروة ، قال : كان أول ما أفصح به عمى عبدُ الله بنُ الزبير — وهو صبى — السيف ، وكان لا يضعه من فمه . فكان الزبير بن العوام إذا سمع ذلك منه يقول : أما والله ليكونن له منه يوم ويوم وأيام .

ومن شعره المشهور عنه :

وكم من عدوٍّ قد أراد مساءتى بغَيبٍ ، ولو لاقيتُه لتندَّما
كثير الخَنا ، حتى إذا ما لقِيتُه أصرَّ على إثمٍ وإن كان أقسَما

وقال أيضا ، أنشده له أبو على الحسن بن رشيق فى كتاب « العمدة » من تأليفه ؛ قال غيره : ويُروى لعبد الله بن الزَّبِير (بفتح الزاى وكسر الباء)[1] :

لا أحسبُ الشرَّ جاراً لا يفارقنى ولا أَحُزُّ على ما فاتنى الوَدَجا
وما لقِيتُ من المكروه منزلةً إلا وثقت بأن ألقى لها فرَجا

ويُروى أن معاوية بن أبى سفيان كتب إليه :

رأيتُ كرامَ الناس إن كُفَّ عنهمُ بحلمٍ ، رأوْا فضلاً لمن قد تحلَّما
/ولا سيما إن كان عفواً بقدرةٍ فذلك أحرى أن يَجِلَّ ويعظُما [٨ – ١]

= الأستاذ محمود محمد شاكر الجزء الأول من القسم الذى عثرنا عليه منه : وهو نصف الكتاب تقريباً (القاهرة ١٩٦٢) محققاً تحقيقاً جديراً بكل تقدير وثناء .وقدم له بمقدمة وافية عن الزبير بن بكار وحياته ومؤلفاته ، وقارن بين كتابه فى أنساب قريش وكتاب عمه فى نفس الموضوع ، وقارن كذلك بينه وبين كتاب « جمهرة أنساب العرب » لأبى محمد على بن أحمد ابن حزم . ومن أسف أن القسم الذى ينقل عنه ابن الأبار هنا لم نعثر عليه بعد ،وهو الجزء الثانى عشر من الكتاب – بحسب تجزئة الأصل – وأول الجزء الثالث عشر ، وهو يتناول أخبار عبد الله ابن الزبير (راجع ص ٥ من الكتاب ، وهامش ١) . والمقصود هو عبد الله بن الزبير .

(١) واضح أن المراد هنا رجل آخر غير ابن الزبير ، وقد راجعت هذه الفقرة على أصلها فى « العمدة » لابن رشيق (طبعة محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٤) حـ ١ ص ٢٤ .

ولستُ بذى لؤمٍ فتعذر بالذى أتيت من الأخلاق ما كان ألأما
وإنى لأخشى[1] أن أنالك بالتى كرهت ، فيخزى الله من كان أظلما

فراجعه ابن الزبير :

ألا سَمِعَ الله الذى أنا عبْدُه وأخزى إلٰهُ الناس من كان أظلما
وأجْرا[2] على الله العظيم بجُرْمهِ وأسرعَهُ فى الموبقات تقحُّما
أغرّكَ أن قالوا حليمٌ بقدرةٍ وليس بذى حلمٍ ولكن تحَلّما
وأقسمُ لولا بيعة لك لم أكن لأنقضها ، لم تنج منى مسلَّما

ومما رويته من طريق ابن أبى الحسن بن صخر فى فوائده ، وقرأته على الحافظ أبى الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى بإسناده إلى عبد الله بن المبارك ، قال : حدثنى يونسُ عن الزهرى ، قال : اجتمع مروان وابن الزبير عند عائشة رضى الله عنها ، قال : فذكر مروان بيتاً من شعر لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ يعود رماداً بعد إذ هو ساطعُ

فتعجب منه . قال ابن الزبير : « وما تعجُّبك ؟ لو شئتُ قلتُ ما هو أفضل منه :

ففوِّض إلى الله الأمورَ إذا اعْتَرَتْ فبالله ـ لا بالأقربين ـ تدافعُ »

قال مروان :

وداوِ ضميرَ القلْب بالبرِّ والتُّقَى ولا يستوى قلبان : قاسٍ وخاشع

---

(١) فى الأصل : لا أخشى ، والصواب ما أثبتناه . وقد صوبه كذلك على هذا النحو ماركوس مولر ، ص ١٨٧ .

(٢) فى الأصل : وأجرى ، والصواب ما أثبتناه ، والمراد أجرأ .

وقال ابن الزبير :

ولا يستوى عبدان : عبد مصَلَّمٌ عُتُــلٌّ لأرحام الأقارب قاطع

قال مروان :

وعبدٌ تجافَى جنبُه عن فراشهِ يبيت يناجي ربَّه وهو راكع

قال ابن الزبير :

وللخير أهل يُعرَفون بَهدْيِهم إذا جمعتْهم فى الخطوب المجامع

قال مروان :

وللشر أهل يُعرفون بشكلهم تشير إليهم بالفجور الأصابع

فسكت ابن الزبير ، فقالت له عائشة : «ما سمعتُ مجادلة قط أحسن من هذه ، ولكن لمروان إرث فى الشعر ليس لك » .

[٨ - ب] /٥ — مروان بن الحكم ، أبو عبد الملك

غزا إفريقِيَّة مع ابن أبى سرح ، ووجَّهه إلى عثمان رضى الله عنه ، على ما ذكره ابنُ عبد الحكم حسبما تقدم . وكان ابن أبى سرح قد كتب إلى عثمان يستأذنه فى غزو إفريقِيَّة ، فندب عثمانُ الناس بعد المشورة فى ذلك . فلما اجتمعوا أمَّر عليهم الحٰرث بن الحكم(١) أخا مروان ، إلى أن يقدموا على عبد الله بن سعد بن أبى سرح بمصر فيكون الأمر إليه .

(١) عند النويرى ، نهاية الأرب ، الجزء الخاص بالمغرب ، مخطوط رقم ٢٢ بدار الكتب بالقاهرة ، ورقة ١٦٣ ا : الحارث .

ومن شعر مروان :

اعمل وأنت من الدنيا على حذرٍ واعلم بأنك بعد الموت مبعوثُ
واعلم بأنك ما[1] قَدمت من عملٍ مُحصًى عليك ، وما خَلَّفْتَ موروثُ

وقد أوردت ما دار بينه وبين عبد الله بن الزبير قبل هذا ؛ وهو القائل أيضا بين يدى خلافته عند موت معاوية بن يزيد بن معاوية واضطراب الأمور بالشام :

إنى أرى فتنةً تغلى مراجلُها والمُلك بعد أبى لَيلى لمن غَلبا

وذكر له الزبير بن بَكّار وغيره رجزاً فى قتل الحسين بن على حين قُدم برأسه على المدينة ، تركتُ ذكره ؛ وكان أخوه عبد الرحمن بن الحكم من فحول الشعراء .

٦ — ابنه عبد الملك بن مروان ، أبو الوليد

غزا إفريقِيَّة مع معاوية بن حُدَيج سنة أربع وثلاثين فى آخر خلافة عثمان ، وبعثه معاوية هذا إلى مدينة يقال لها « جَلُولاَ »[2] فى ألف رجل . « فحاصرها

(١) فى الأصل : قد ، وصوبناه للمعنى .

(٢) جلولا أوجلولاء ، مدينة على بعد ٢٤ ميلا عن القيروان . وكانت مدينة كبيرة فيها حصن بيزنطى قديم ، أصل اسمها Cululis . وقد وصفها البكرى بأنها كانت مدينة غنية كثيرة الأشجار والثمار ، وبها قصب السكر (وصف إفريقية ، طبعة دى سلان ، الجزائر ١٩١٠) ص ٣١ و٣٣ و٥٨ . وقد ذكرها الإدريسى باسم جَلُولَه ، ص ٢٠ .

عبد الملك أياماً فلم يصنع شيئاً ، فانصرف راجعاً . فلم يسر إلا يسيراً حتى رأى في ساقة الناس غباراً شديداً ، فظن أن العدو قد طلبهم ، فكرّ بجماعة من الناس لذلك ، وبقي من بقي على مصافّهم ، [وتسرع سرعان الناس] ، فإذا مدينة جَلولاَ قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها ، [وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حديج] »[1] .

ولعبد الملك في تمنيه الخلافة وإجابة دعائه بذلك خبر غريب يدخل في باب الأماني الصادقة ، وقد رويته عن الحافظ أبي الربيع بن سالم بقراءتي عليه من طريق أبي عليّ بن سُكَّرة الصدفي بإسناده إلى الشَّعْبي ، قال : لقد رأيت عجباً : كنا بفناء الكعبة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير[2] وعبد الملك بن مروان . فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليماني/ويسأل الله حاجته ، فإنه يُعطَى من سَعة ؛ قم يا عبد الله [٩ – ا]
ابن الزبير فإنك أول مولود وُلد في الهجرة . فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك عظيم تُرجى لكل عظيم ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ألا تميتني من الدنيا حتى توليَني الحجاز ويسلَّم عليّ بالخلافة ؛ وجاء حتى جلس . فقالوا : قم يا مصعب بن الزبير ، فقام حتى أخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك رب كل شيء وإليك يصير كل شيء ، أسألك بقدرتك على كل شيء ألا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سُكَيْنة بنت الحسين ؛ وجاء حتى جلس . وقالوا : قم يا عبد الملك بن مروان ، فقام وأخذ بالركن اليماني فقال : اللهم رب السماوات السبع ورب الأرضين ذات النَّبْت بعد القَفْر ، أسألك بما سألك

---

(١) نقل ابن الأبار هذه الفقرة عن فتوح ابن عبد الحكم (طبعة توري ، ص ٩٣) وقد راجعتها على أصلها هناك وأكملت نقصها منه .

(٢) ورد في الهامش مقابل هذا السطر : ومصعب بن الزبير ، مع إشارة يفهم منها أن هذا الاسم ينبغي أن يدرج في المتن .

عبادك المطيعون لأمرك ، وأسألك بحرمة وجهك ، وأسألك بحقك على جميع خلقك ، وبحق الطائفين حول بيتك ، ألا تميتني من الدنيا حتى توليني مشرق الأرض ومغربها ، ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه ، ثم جاء حتى جلس . ثم قالوا : قم يا عبد الله بن عمر ، فقام حتى أخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك رحمان رحيم ، أسألك برحمتك التي سَبقتْ غضبَك ، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك ألا تميتني من الدنيا حتى توجبَ لي الجنة . قال الشعبي : فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت كل واحد منهم أُعطي ما سأل ، وبُشر عبد الله بالجنة ، ورؤيت له . ومن شعر عبد الملك ، وقد هم بقتل بعض أهله ثم صفح عنه :

هممتُ بنفسي هَمَّةً لو فعلتُها لكان كثيراً بعدَها ما ألومُها
ولكنني من أسرةٍ عَبْشَمِيَّةٍ إذا هي هَمَّتْ أدركتْها حُلومُها

ويُروى أنه لما بلغه إسراف الحجاج بن يوسف في القتل ، وتبذيره الأموال بعد ظهوره علَى عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، كتب إليه ينهاه ويتوعده ، وكتب في أسفل كتابه :

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها وتطلبْ رضايَ بالذي أنت طالبُهْ
وتخشَ الذي لم يخش مثلك لم تكن كذي الدَّرِّ رَدَّ الدَّرَّ في الضرع حالبُهْ
/فإن ترَ مِني وثبــةً أمَويةً فهذا وهذا — كل ذا — أنا صاحبُه [٩ - ب]
وإن ترَ مني غفلة قرشــيةً فيارُبما قد غُصَّ بالماء شاربُهُ
فلا تأمَنَنِّي والحوادثُ جَمَّــةٌ فإنك تَجْزِيٌّ بما أنتَ كاسبُه
وإني لأُغضِي جفنَ عيني على القذى وأزْوَرُّ بالأمر الذي أنا راكبُه
وأُمْلِي لذي الذنب العظيم كأنني أخو غفلة عنــه وقد جُبَّ غاربُه
فإن آبَ لم أعجل عليه ، وإن أبَى وثبتُ عليه وثبــةً لا أراقبُه

فجاوبه الحجاج برسالة وكتب معها :

إذا أنا لم أطلبْ رضاكَ وأتَّقِي أذاكَ ، فيَوْمي لا تُوارَى كواكبُهْ
وما لامرئٍ يعصَى الخليفةَ جُنَّةٌ تقيه منَ الأمرِ الذى هو راكبُه
أسالمُ مَن سالمتَ من ذى مَوَدةٍ ومَن لم تُسالمْه فإنى مُحاربُه
إذا قارف الحجاجُ فيك خطيئةً فقامتْ عليه بالصِّياح نوادبُه
وإن أنا لم أُدْنِ النصيحَ لنُصحهِ وأُقْصِ الذى دبَّتْ علىَّ عقاربُه
وأُعْطِ المواسى [... ...] ترد الذى ضاقت علىّ مذاهبُه
فمن يتقى بُؤسى ويرْعى مودتى ويخشى [الردى] والدهر جم عجائبُه
فأمرى إليكَ اليومَ : ما قُلتَ قُلتُه وما لم تَقُلْهُ لم أقلْ ما يقاربُه
ومهما تُرِدْ منى فإنى أريدُهُ وما لم تُرِدْ منى فإنى مجانبُه
[... ... ...] بى على الرضا مدى الدهر حتى يرجعَ الدَّرَّ حالبُه

والذى أوردته من أبيات فمنقول عن إثبات ، ومجموع من تصنيفات أشتات ؛ وما كان مقولا عليهم ومنحولا إليهم ، فأنا برىء من عهدته .

المائة الثانية

٧ — أبو جعفر المنصور ، عبد الله بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس

دخل إفريقيّة فى أيام بنى أمية — وهو إذ ذاك سوقة — فراراً منهم ، وملكها فى خلافته بعد أخيه أبى العباس السفاح ، وخُلع فيها وقتاً ، ثم عادت إليه وولاّها الأغلبَ بن سالم التميمى ، جَدَّ الأغالبة المتداولين مُلكها إلى أن غلبهم عليها عُبيد الله الشيعى فانقرضوا به .

وكان يقال لأبى جعفر فى صغره « مِقْلاص » ، لُقب بذلك تشبيها بالمقلاص من الإبل ، وهى الناقة التى تسمن فى الصيف وتهزل فى الشتاء ، وكذلك كان أبو جعفر . حكى ذلك أبو الوليد الوَقَّشِى ، قال : وهو مقلوب العادة . وليس فى خلفاء بنى العباس أعلم من أبى جعفر المنصور وعبد الله المأمون ، ثم بعدهما الرشيد والواثق ، ومن متأخريهم المسترشد بْن المستظهر[1] ؛ وأشعرهم أبو العباس الراضى بن المقتدر .

(١) فى الأصل : المسترشد من المستظهر ، والصواب ما أثبتناه . وهو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن أبى العباس أحمد المستظهر بالله ، وهو التاسع والعشرون من خلفاء بنى العباس فى بغداد (٥١٢ – ٥٢٩ / ١١١٨ – ١١٣٥).

وأبو جعفر معدود فى الكَمَلة من الملوك ، وكان يفرط فى دعواه الاطلاع[1] ، ويقرِّظ بتقريظ نفسه الأسماع ، فمن قوله فى بعض خطبه : « الملوك أربعة : معاوية وكفاه زيادُه ، وعبد الملك وكفاه حَجّاجُه ، وهشام وكفاه مواليه ، وأنا ولا كافىَ لى ! » . ولما عزم على الفتك بأبى مسلم صاحب دولتهم والقائم بدعوتهم — وقد حُذِّر من عاقبة ذلك — كتب إليه عيسى بن موسى بن على ابن عبد الله بن العباس مشيراً عليه بالأناة ، وكان قد شاوره فيه :

إذا كنتَ ذا رأىٍ فكن ذا تدَبُّر ... فإن فسادَ الرأى أن يتَعجَّلا

فقال المنصور يجيبه :

إذا كنت ذا رأىٍ فكن ذا عزيمةٍ ... فإن فساد الرأى أن يُتردَّدا
ولا تهمل الأعداء يوماً بقدرةٍ ... وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

وينظر إلى هذا قول عبد الله بن المعتز :

وإنْ فرصةٌ أمكنتْ فى العدا ... فلا تَبْدَ فِعلَكَ إلا بها
[١٠ - ب] / فإن لم تَلِجْ بابَها مسرعا ... أتاك عدوُّك من بابها
وإياك من ندمٍ بعدَها ... وتأميل أخرى ، وأنَّى بها ؟

وقال المنصور :

تَقَسَّمَنى أمران لم أفتتحهما ... بحَزْمٍ ولم تعرك قُوَاىَ الكراكر
وما ساور الأحشاء مثلُ دفينةٍ ... من الهم رَدَّتها عليك المصادر
وقد علمتْ أبناء عدنانَ أننى ... لدى ما عرا مِقدامةٌ متجاسر

---

(١) الأصل : الاقطلاع .

وقال أيضا يخاطب محمداً وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، حين خرجا عليه بالمدينة والبصرة :

بنى عمِّنا ، لا نَصْرَ عندكم لنا ولكنكمْ فينا سيوفٌ قواطعُ
فلولا دفاعى عنكمْ إذ عجزتمُ وبالله أحمى عنكمُ وأدافع
لكُنتم ذُنَابَى آلِ مروانَ مثلما عَهِدناكمُ ، واللهُ معطٍ ومانع

٨ — عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

الداخل إلى الأندلس ، ويقال له « صقر قريش » — سماه أبو جعفر المنصور بذلك — وكنيته أبو المطرِّف ، وهو الأشهر فى كنيته ، وقيل أبو زيد ، وقيل أبو سليمان .

هرب فى أول دولة بنى العباس إلى المغرب ، وتردد بنواحى إفريقيَّة ، وأقام دهراً فى أخواله « نَفْزَة » من قبائل البربر ، وكانت أمه منهم « راح » ، ثم لحق بالأندلس فى غرة شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وهزم أميرَها يوسف ابنَ عبد الرحمن الفِهْرِىَّ فى يوم الخميس لتسع خلون من ذى الحجة من هذه السنة ، واستوسقت له الخلافة ليومٍ[1] آخر يومَ الجمعةِ يومَ الأضحى وهو ابن ست وعشرين سنة .

ودعا لنفسه عند استغلاظ أمره واستيلائه على دار الإمارة قُرْطُبَة ، ويقال إنه أقام أشهراً دون السَّنة يدعو لأبى جعفر المنصور ، متقيِّلا فى ذلك يوسفَ

(١) أى أن الأمر استقر له فى مدى يوم واحد بعد انتصاره على يوسف الفهرى: انتصر عليه يوم الخميس ٩ ذى الحجة ١٣٨ واستقر له الأمر فى نهاية اليوم التالى وهو يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة ١٣٨ .

١١ - ا] الفِهْرِيّ الوالى قبله ، إلى أن أفرد نفسَه / بالدعاء ؛ ويقال إن عبد الملك بن عمر ابن مروان بن الحَكَم(١) أشار عليه بذلك عند خلوصه إليه فقبله ؛ إلا أنه لم يَعْدُ اسمَ الإمارة ، وسلك الأمراء من وَلدِه سُنّته فى ذلك إلى عهد عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله ، فهو الذى تَسَمَّى بالخلافة بعد سنين من سلطانه ، ودُعِى بأمير المؤمنين لما استفحل أمرُه واستبان له ضعف ولد العباس وانتثار سلطانهم بالمشرق ، وذلك فى آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن أحمد المعتضد منهم . ذكر ذلك أبو مروان حيّان بن خلف بن حيّان صاحب « تاريخ الأندلس » .

ومن شعر عبد الرحمن بن معاوية يتشوق معاهده بالشام ، أنشده الحُمَيْدِىّ فى تاريخه :

أيها الراكبُ الميممُ أرضى أَقْرِ من بَعضىَ السلامَ لبعضِ(٢)
إن جسمى كما علمتَ بأرضٍ وفؤادى ومالكيه بأرضِ
قُدِّر البينُ بينَنا فافترقْنا وطوى البينُ عن جفونىَ غُمضى
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

وقال أيضاً فى حَيْوَة بن مُلامِسٍ الحَضرمى(٣) من جند حمص النازلين إشبيلية ، وكانت له منه منزلة لطيفة فى أول ملكه :

---

(١) راجع : المصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص ١٦١ .
وابن حزم ، جمهرة أنساب قريش (بتحقيق ليڤى پروڤنسال ، القاهرة ١٩٤٨) ص ٨٠ .

(٢) الأصل : إلى بعض ، والتصويب من « المعجب » لعبد الواحد المراكشى ، طبعة دوزى ، ص ١٢ .

(٣) كذا ورد الاسم فى « البيان المغرب » أيضا (طبعة ليڤى پروڤنسال وكولان ، لايدن ١٩٥١) ٢/٥١ . ولم يظل حيوة على ولائه لعبد الرحمن ، إذ أنه ثار عليه حوالى ١٤٥ / ٧٦٢ وتغلب على إشبيلية واستِجّة وأكثر الغرب ، فخرج إليه عبدالرحمن وقاتله قتالا عنيفاً بضعة أيام . وقد كاد عبد الرحمن أن ينهزم أول الأمر ، ولكنه ثبت حتى ملك ناصية المعركة فانهزم حيوة ومن معه من أهل اليمن ، وهرب إلى ناحية فِرِّيش شمالى قرطبة ، ومن هناك كتب إلى عبد الرحمن —

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها إذا غاب عنها حَيْوَةُ بنُ مُلامِسِ
أخو السيف ، قارى الضيف ، حقًّا يراهما عليه ، ونَافِى الضيمِ عن كلِّ بائسِ (1)

وحكى عيسى بن أحمد الرازى أن عبد الرحمن بن معاوية — أولَ نزوله مُنْيَةَ الرُّصافة بقُرْطُبَة واتخاذه لها — نظر إلى نخلة مفردة ، فهاجت شجنه وتذكر بلد المشرق فقال بديهاً :

تَبَدَّتْ لنـــا وَسْطَ الرُّصَافةِ نخلةٌ تناءتْ بأرض الغرب عن بلد النخلِ
فقلتُ : شَبيهى فى التغرُّب والنَّوى وطولِ التنائى عن بَنِيَّ وعن أهلى
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلُكِ فى الإقصاء والمُنتأى مِثلى
سَقَتْكِ غوادى المُزْنِ من صَوْبِها الذى يَسُحُّ ويستمرى السِّماكَيْنِ بالوَبْلِ

/ وقال أيضاً فيها : [١١ - ب]

يا نخلُ أنتِ غريبةٌ مثلى فى الغرب نائية عن الأصلِ
فابكِى ، وهل تبكى مُكَبَّسَةٌ عجماء لم تطبع على خَبْـلِ ؟
لو أنها تبكى ، إذاً لبكت ماءَ الفُرات ومَنْبِتَ النخل
لكنها ذَهَلَتْ ، وأذهلنى بُغْضِى بنى العباس عن أهلى

وقد قيل إن الأبيات الأربعة الأول لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم ، قالها عند دخوله الأندلس فراراً من بنى العباس فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية . وقيل فى الأبيات الأخيرة إنها لعبد الملك

= يسأله العفو عنه . وثورة حيوة بن ملامس حلقة من صراع عبد الرحمن الداخل مع اليمنيين الذين ظنوا بعد وصوله إلى الإمارة بفضلهم (مع البربر) أن الدولة ستكون لهم ، وساءهم أن وجدوا عبد الرحمن يريد أن ينتهج السياسة التى تتفق ومصالح العرش الذى أقامه ، سياسة إنصاف ومساواة بين السكان جميعاً . وقد انتهت ثورات اليمنيين بعبد الرحمن إلى الانصراف عنهم جملة ، والميل إلى الشامية وتفضيلهم .

(١) كذا فى الأصل ، وقد قرأها دوزى ، ص ٣٤ : يائس .

ابن عمر بن مروان بن الحكم ، وقد اجتاز فى قصده قرطبة ، حضرة الأمير عبد الرحمن بن معاوية — [على] ما حكى الحافظ — بمدينة إشبيلية ، فرأى فى موضع منها — يعرف بـ « النخيل » إلى اليوم — نخلة مفردة ، فاحقته[1] رقة عند النظر إليها ، وقال بديهاً الأبيات المذكورة .

ومما يرُد هذا القول ويقوى نسبتَها — أعنى الأبيات الأخيرة — لعبد الرحمن ابن معاوية ، ما حكى الحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال فى تاريخه ، وقرأته على القاضى أبى الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسى بمدينة بلنسية عنه قراءةً عليه بحضرة قرطبة ، قال : قال أبو بكر محمد بن موسى بن فتح ، يُعرف بابن الغرّاب[2] : دخلت يوماً على أبى عثمان بن القزّاز وهو يعلّق فقلت له : رأيت الساعة فى توجهى إليك القاضى والوزراءَ والحكّامَ والعدولَ قد نهضوا بجمعهم إلى حيازة[3] الجنة المعروفة بـ « رَبَنَالِش »[4] ، وهبها هشام المظفر بن أبى عامر . قال : فقال لى ابن القزّاز : إن هشاماً لضعيف ، هذه الجنة المذكورة

---

(١) العبارة ابتداء من « حضرة الأمير » إلى هنا وردت فى الهامش بخط مختلف مع إشارة فى المتن إلى موضعها حيث جعلناها . وعند كلمة « الحافظ » كتب نفس الكاتب كلمة «صح» دون أن يعين اسم الحافظ الذى كتب عنده هذا اللفظ ؛ ويغلب على ظنى أن المراد هنا أبو يوسف عمر بن عبد البر .

(٢) كذا فى الأصل ، وقد جعلها دوزى ، ص ٣٥ : القَرّاب ، والصحيح ما أثبتناه .

(٣) الأصل جيازة ، وقد قرأها دوزى حيازة وفسرها بالخندق أو الفصيل **(une digue)** اعتماداً على ماذكره فَيَيَّرْزْ **Weijers** فى شروحه على القطع التى نشرها من كلام ابن خاقان بعنوان *Loci Ibn Khacanis* ص ٢٣ وتعليق رقم ٦٦ ص ٨٣ .

(٤) الأصل : رُبْنالِش ، وقرأها دوزى رنُبالش والصحيح رَبَنالِش وهى **Rabanales**، ولا زال هذا الاسم يطلق على منطقة حدائق على خمسة كيلومترات شمال شرقى قرطبة .

cf : LÉVI PROVENÇAL, *L'Espagne musulmane au X⁰ siècle*, (Paris, 1932), p. 225, note 3.

وقد روى نفس الخبر ابن بشكوال فى الصلة فى ترجمة سعيد بن عثمان بن أبى سعيد بن محمد ابن سعيد بن عبد الله بن يوسف البربرى اللغوى الذى يعرف بابن القزاز المذكور هنا (رقم ٤٦٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٧) .

هى أول أصل اتخذه عبد الرحمن بن معاوية ؛ وكان فيها نخلة أدركتُها بسنّى ، ومنها توالدت كل نخلة بالأندلس . قال : وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن معاوية ، وقد تنزه إليها ، فرأى تلك النخلة فَحَنّ : « يا نخل أنت غريبة مثلى » ، وذكر الأبيات إلى آخرها .

وحكى أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج صاحب « كتاب الحدائق » المؤلَّف للحَكَم المستنصر بالله من أشعار الأندلسيين ، قال : بلغنى أن بعض الوفود من قُريش كتب إلى الإمام عبد الرحمن بن معاوية — رحمه الله — يستعظم حقه عليه بالرحم و يستقل حظه منه بالمستطمع[1] ، فوقَّع فى ظهر كتابه :

/ شتان[2] من قام ذا امتعاضٍ مُنْتَضِيَ الشفرتين نَصْلاَ [١٢ - ١]
فجاب قفراً ، وشق بحراً مُسَامياً لجــةً ومَحْلا
فشاد مجداً وبَزَّ مُلْـكاً[3] ومِنبراً للخطاب فصلا[4]
وجَنَّد الجندَ حين أوْدى ومصَّر المِصرَ حين أخلى[5]
ثم دعا أهــله جميعاً[6] حيث انتأوْا ، أنْ : هلمّ أهلا[7]

(١) كذا فى الأصل . وقد قرأها دوزى (ص ٣٥) بالمستطيع ، وهى قراءة أركُّ مما فى الأصل . وفى نفس المناسبة يقول ابن عذارى : «ومن شعره البديع الرائق ، ما كتب به إلى بعض من طرأ عليه من قريش ، وكان قد استقل جرايته (فى نسخة : جزايته) واستطال بقرابته ، وسأله الزيادة له والتوسعة ، فكتب إليه بهذه الأبيات . . » . البيان المغرب ، ٢/٥٩ .

(٢) قرأها دوزى هنا : سيان (ص ٣٥) وكذلك قرأ ليڤى پروڤنسال وكولان . انظر البيان المغرب ، ٢/٥٩ .

(٣) ورد هذا الشطر فى صور شتى . فى نفح الطيب : دبر ملكا وشاد عزا .
وعند ابن عذارى (٢ / ٥٩) : فبَزّملكا وشاد عزا .
وفى مخطوطة أخرى من البيان : فشد ملكا وشاد عزا .

(٤) عند ابن عذارى (٢ / ٥٩) : وناثرا للخطاب فصلا .

(٥) عند ابن عذارى (٢ / ٥٩) : وأجلا .

(٦) فى نفح الطيب : ثم دعا أهله إليه .

(٧) الأصل : انتوَوْا ، وكذلك عند ابن عذارى .

فجاء[1] هذا طريدَ جوعٍ شريدَ سيفٍ أباد قتلا
فنال أمناً ، ونال شِبَعاً وحاز مالاً ، وضمَّ شملا
ألم يكن حقُّ ذا على ذا أعظمَ من منعمٍ ومولَى ؟

وبعض هذا الشعر عن ابن حيّان ، وأوله عنده :

شتان من قام ذا امتعاضٍ فشال ما قلَّ[2] واضمحلاَّ
ومن غـــدا مُصْلِتاً لعزمٍ مُجَرِّداً للعِـــداة نصلا
فجاب قفراً ... البيت .

وبعده :

* فبزَّ مُلكاً وشاد عزًّا *

إلا أن ابن حيّان ذكر عن معاوية بن هشام الشَّبِينسِيِّ[3] ، أن جُلساء عبد الرحمن القادمين عليه من فَلِّ[4] أهله بالشام ، حدثوه يوماً ما كان من

(١) الأصل : فجاد .
(٢) الأصل : قال ، وقد صوبه دوزى كما أثبتناه فى المتن ، وهو أصح .
(٣) هو معاوية بن محمد بن هشام بن الوليد ابن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية القرشى المروانى ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا عبد الرحمن ويعرف بابن الشَّبَّانِسِيَّة ، من جلة الفقهاء والعلماء على أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، توفى سنة ٢٩٨ / ٩١٠ — ٩١١ (ابن الأبار ، التكلة ، رقم ١٠٧٧ ص ٣٧٩) . ويعرف أيضاً بالشَّبَّانِسِيّ ، وهى نسبة حملها نفر من سلالة هشام الرِّضا ثانى أمراء بنى أمية فى الأندلس ، أول من نعرفه منهم معاوية هذا ثم ابن أخيه معاوية بن هشام بن محمد بن هشام ، وهو مؤرخ ومؤلف معروف ينسب إليه كتاب فى تاريخ دولة بنى مروان فى الأندلس وكتاب فى نسب العلوية وغيرهم من قريش سماه بـ «التاج السنى فى نسب آل على» (انظر التكلة لابن الأبار ، رقم ١٠٧٨) . وقد ذكر ابن حزم فى « الطوق » من أبناء هذا البيت أبا محمد قاسم بن محمد القرشى المعروف بالشبانسى . وقد ذهب سانشيث ألبورنوث إلى أن الشبانسى معرب عن sapientia أى العلم ، ولكن الغالب أنه نسبة إلى موضع يسمى شَبَانِس ، وواضح أن الربط بين الشبانسى والشبانسية ولفظ سابْيِنْتْيَا مفتعل .
(٤) الأصل : جل ، وقد قرأها دوزى : من جوالى أهله (ص ٣٦) .

الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ابن عمه أيامَ محنتهم ، وكلامه للعباس الساطى بهم — ونَسَب ذلك إلى عبد الله بن على ؛ وفى « الأوراق » للصولى أن السفاح عبد الله بن محمد بن على تولى قتل الغَمْر ، وقد فخر فى مجلسه بمناقب قومه — وكَثَّر القوم فى وصف ذلك وعَجُّوا به ، فكأن الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك فى جنب ما كان منه هو فى الذهاب بنفسه لاقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عن عَدُوِّه ، وقام من مجلسه فصاغ هذه الأبيات بديهةً .

قال ابن الفرج[1] : وأتاه فى بعض غزواته آتٍ ممن كان يعرف كلفه بالصيد ، فأخبره عن غرانيق واقعة[2] فى جانب من مضطَرَب العسكر وحرَّكه إلى اصطيادها ، فقال :

/ دعنى وصيد وُقَّـعِ الغرانقِ ... فإن همّى فى اصطياد المارقِ [١٢ - ب]

فى نفقٍ إن كان أو فى حالقِ ... إذا التظتْ لوافحُ الضوائقِ

كان لِفَاعى[3] ظلَّ بندٍ خافقِ ... غَنِيتُ عن روضٍ وقصرٍ شاهقِ

---

(١) المراد ابن فرج الجيانى صاحب «كتاب الحدائق» وهو أبوعمر أحمد بن محمد بن فرج الجيانى من أهل جيان ونزيل قرطبة ، وكان من شعراء عصر الحكم المستنصر ، وكان أخواه سعيد وعبد الله أيضاً شاعرين . ولا نعرف عن حياته إلا ماذكره ابن خاقان فى المطمح (القاهرة ١٣٢٥) ص ٨٦ من أنه كان عنيف الخلق شديد الزهو بنفسه خليعاً ، وقد قربه الحكم المستنصر ثم بدرت منه بادرة دفعت الحكم إلى إيداعه السجن فظل فيه إلى أن مات . وقد ألف ابن فرج الجيانى كتابه معارضاً لكتاب الزهرة لمحمد بن داوود الأصفهانى وإظهاراً لفضل أهل الأندلس على المشارقة .

انظر : الضبى ، بغية ، رقم ٣٣١ . المقرى ، نفح الطيب (طبعة دوزى وكريل ورايت ودوجا) ٢/٢٩٦ و٤٥٢ .

cf : ELIAS TERÉS, ***Ibn Faray de Jaén y su Kitāb al-Hadā'iq.*** **Al-Andalus, vol. XI (1946) fasc. 1, pp. 131 - 157.**

(٢) قرأ دوزى : واقفة .

(٣) اللفاع والملفعة ما تُلُفِّع به من رداء أولحاف أوقناع ، قال الأزهرى : يجلل به الجسد كله كساءً كان أوغيره (اللسان : ١٠/١٩٦) .

بالقفرِ والإيطانِ بالسرادقِ فقل لمن نام على النمارق :
إن العلا شُدَّتْ بهمٍّ طارقِ فاركبْ إليها ثَبَج المضائق
أوْلا ، فأنت أرذل الخلائقِ

٩ — ابنه هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

وَلِيَ الخلافة بالأندلس بعد أبيه يوم الأحد غرة جمادى الأولى من سنة إحدى وسبعين ومائة . وكانت وفاة أبيه وهو بمَارِدَة يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر ، وبقرطبة وُلد له هشام هذا لأربع خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومائة ؛ ويعرف بـ « الرِّضا » لعدله وفضله ، ويكنى « أبا الوليد » . واستوزره أبوه عبدُ الرحمن وأخاه كبيرَه سليمان المولودَ بالشام تنويهاً بحالهما ، وأخذهما بالركوب إلى القصر ومشاهدة مجالس مشورته . وكانا يركبان متداولين ومتناوبين لا يجتمعان : فإذا كان يوم هشام ، تأهب حاضرو المجلس من كبار أهل المملكة [... ...][1] والإفاضة فى الحديث إلى إنشاد شعر أو ضرب مَثلٍ أو ذكر يوم من أيام العرب أو ذكر حرب أو اجتلاب حيلة أو حكاية تدبير أو إحماد سيرة ؛ وإذا كان يوم سليمان خلا من ذلك كله ، وانبسط الحاضرون فى غث الأحاديث وأخذوا فى الدعابة .

ويروى أن رجلا يعرف بالموّارى دخل على هشام فى حياة أبيه عبد الرحمن ابن معاوية — وهو مرشح للخلافة — فقال له إن فلاناً مات عن ضيعة تعود بكذا وكذا من الغلة ، وأنها تباع فى دَيْن أو عن وصية ، وهى ناعمة مثمرة وطيبة الأرض مخصبة ، وحضه على اشترائها . فقال له : « أنا أريد أمراً إن بلغتُه

(١) أسقط الناسخ هنا شيئاً ولم يترك بياضاً .

غَنِيتُ عنها ، وإن قُطِع بى دونه خسرتُها ؛ ولَاصطناع رجل أحب إلىّ من اكتساب ضيعة » . فقال له الموّارى : / فاصطنِعنى بها تجد أكرم مصطنع » . [١٢ — ١]
فأمر بابتياعها[١] ، فأشار بعض من حضر إلى أن الاستعداد بالمال أعون على درك الآمال ، فأطرق عنه ثم قال :

البذلُ ـ لا الجمعُ ـ فطرةُ الكرمِ   فلا تُرِدْ بىَ ما لم تُرِد شِيمَى
ما أنا من ضيعةٍ وإن نَعُمَتْ ؟   حسبىَ اصطناعُ الأحرار بالنِّعَمِ
مُلكُ الورى ، والعبادِ قاطبةً   ـ لا امِلاك بعض الضياع ـ مِن هِمِمى[٢]
تفيض كفى فى السلم بَحْرَ ندًى   وفى سجال الحروب بحرَ دمِ
تَزِلُّ عن راحتى البدور ، وما   تمسك غير الحسام والقلم

لم أجد لهذا الملك الأمجد — مع نشدان ضالة كلامه — غير هذا المُنشَد . وإن كان قليلا فكفى دليلا على سَرَفِ الحِباء وشرف الحوباء ، حتى كأن أعشى همْدان سمع بطَوْله فاعتمده بقوله :

رأيتُك أمسِ خيرَ بنى لُؤَىّ   وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الخيرَ ضِعْفاً   كذاك تَزِيدُ سادةُ عبدِ شمسِ

١٠ — ابنه الحكم بن هشام المعروف بالرَّبَضى ، أبو العاصى

وَلِىَ بعد أبيه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من صفر سنة ثمانين ومائة . وكان شجاعاً باسلاً ، أديباً مفتنًّا ، خطيباً مفوّهاً ، وشاعراً مجوِّداً ، تُحذر صولاتُه ، وتُستندر أبياتُه .

(١) السياق يقتضى هنا أن تقرأ : بابتياعها له .
(٢) الأصل : همم .

وهو الذى أوقع بأهل « الرَّبَضِ » فنُسب إليه ، وأمر بهدمه وتعطيله ، وصيَّر ذلك وصيةً فيمن خلفه وعهداً على بنيه ما كان لهم سلطان بالأندلس . فلم يُعْمَر ولا اختُطَّت فيه دار إلى آخر دولتهم ، ثم بَعدها إلى أن ملَكَ الرومُ قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وأقام على ذلك نحواً من أربعمائة سنة وثلاثين سنة ؛ ولا أعلمه إلا كذلك إلى اليوم .

وكانت وقعة الرَّبَض الشنعاء يوم الأربعاء النحِسة لثلاث عشرة خلت من [١٢ – ب] شهر رمضان سنة اثنتين ومائتين فى آخر / خلافة الحكم ، ويومَ الخميس بعده أمر بهدم الرَّبَض القبلى الذى منه نشأت الفتنة ، فأعيد بطحاء مزرعة ، بعد أن قتل من أهله مقتلة عظيمة وأسر خلقاً جمًّا ، صَلب منهم نحو ثلثمائة صُفّوا من إزاء « باب القنطرة » إلى آخر « المُصَارَة »[1] مع ضفة النهر ، لم يُرَ فيما سلف مُمَثَّلون أكثر منهم عدداً ولا أهول منظراً . وتمادى القتل والنهب لمنازلهم والتتبع لمُستَخْفِيهم ثلاثة أيام ، لم تُقَلْ لمن عُثِر عليه منهم عثرة ، وجرَتْ عليهم خلالها مِحن لا تضبِطُها الصفة . وكفَّ الحكم عن الحُرَم ووصَّى بهن فأجمل فى ذلك ما شاء .

---

(١) باب القنطرة ، باب من أبواب سور قرطبة ، وكان قريباً من القنطرة – والمراد قنطرة الوادى ، أى الوادى الكبير – وهى القنطرة التى كانت تصل قرطبة بربضها الواقع على الضفة الأخرى من النهر ، وهو ربض شقندة ، معرب من اللاتينى Secunda . وكان هذا الربض مسكن العمال وأهل الأسواق ، وفى هذا الربض قامت الثورة على الحكم بن هشام ، وانجلت عن هزيمة الثائرين وطرد أهله من الأندلس ، وهدم بيوته وتحويل جزء منه إلى مدافن عرفت بمقبرة الربض . ولم يعمر هذا الموضع إلا بعد أيام المسلمين ، ويقوم فيه اليوم حى من أحياء قرطبة الحالية يعرف باسم حى الروح المقدس Barrio del Espiritu Santo ، وعلى مدخل هذا الحى ، فى مواجهة القنطرة يقوم الحصن المعروف بحصن قلهرة Castillo la Calahorra وقد أنشىء بعد أيام المسلمين . أما المُصارة Al-Musara فكان قبل الفتح العربى ضاحية قريبة من قرطبة إلى جنوب غربى البلد على ضفة النهر ، ثم اتصلت بها ، وأصبحت جزءاً منها ، ولكنها ظلت خارج السور .

ولما انقضت الأيام الثلاثة أمر برفع القتل وتأمين الفَلِّ ، على أن يخرجوا من حضرته قُرْطُبة ، فساروا عن أوطانهم كُلٌّ بحسب ما أمكنه . واستمروا ظاعنين على الصعب والذَّلول ، فى يوم الأربعاء لعشرٍ بقين من شهر رمضان المؤرخ ، متفرقين فى قَصِىِّ الكُوَر وأطراف الثغور . ولحق جمهورهم بطُلَيْطِلَة لمخالفة أهلها الحَكَمَ ، ولجأ آخرون إلى سواحل بلاد البربر . وأَصْعَدَت منهم طائفة عظيمة — نحو الخمسة عشر ألفاً — فى البحر نحو المشرق ، حتى انتهوا إلى الإسكندرية ، وذلك فى أول ولاية عبد الله المأمون بن الرشيد ، فَعَازَّهُم أهلُها وذهبوا إلى إذلالهم ، فأبوا الضيم وثاروا بهم فغلبوهم ، وبذلوا السيف فيهم ، وقتلوا كثيراً منهم وسَطَوا بهم سطوة منكرة ، وملكوا الإسكندرية مُدَيدةً . إلى أن ورد عبدُ الله بن طاهر أميراً على مصر من قِبل المأمون ، فصالحهم على التخلى عنها على مالٍ بذله لهم ، وخيَّرهم فى النزول بحيث شاءوا من جزائر البحر ، فاختاروا جزيرة إقريطش من البحر الرومى . وكانت يومئذ خالية من الروم ، فاحتملوا إليها بِقِنْيَتِهم ، ونزلوها فاعتمروها ، وجاءهم الناس من كل مكان فأوطنوها معهم .

وحكى ابنُ حيّان ، عن أبى بكر بن القوطية وغيره ، أن الحَكَم غَرَّب فى بأساء حربه هذه — عندما حَمِىَ وَطيسُها وأعضل[1] خَطْبُها — بنادِرةٍ من نوادر الصبر والتوطين على الموت ما سُمع لأحدٍ من الملوك مِثلُها : وذلك أنه فى مقامه بالسطح[2] ، وعند بصره باشتداد الحرب وجُثوم الكَرْب وسماعه قعقعة السلاح وانتهاء الأبطال ، دعا بقارورةٍ غاليةٍ لتُدنَى منه ، فتوانى بها عنه

(١) الأصل : أعظل ، ولم أجد له معنى هنا فعدلته على ما أثبت فى المتن .

(٢) يريد سطح القصر ، وكان يرقب منه جماهير أهل الربض التى أقبلت تهاجمه . وسطح القصر كثير الورود فى أخبار المروانيين الأندلسيين .

[١٤ - ا] خادمه المسمى « يَزِنْت »[١] ، ظنًّا منه / أنه لهج فى منطقه ، فصاح به وزجره ، — وفى رواية أخرى : فكأنَّ الخادمَ شَكَّ فى طلبته واتهم سمعَه ، فتوقف عن المضى لأمره ، فصاح به الحَكَم : انطلِقْ يا ابن اللخناء فعَجِّلْ — فجاءه بالقارورة فأفرغها على رأسه ولحيته ، ولم يملك الخادم نفسه أن قال له : « وأيةُ ساعةِ طيبٍ هذه يا مولاى فتستعمله ، وقد ترى ما نحن فيه ؟ » فقال له : « اسكت لا أمَّ لك ! من أين يَعرف قاتلُ الحَكمِ رأسَه من رأسِ غيره إذا هو حزه ، إن لم يفرق الطيب بينهما ؟ » . ثم استَلْأَم للحرب ، وأمر بتفريق السلاح والخيل على أجناده ، وأنهضهم لقتال من جاش به ، بعد أن كتَّبهم كتائب قَوَّد عليها كباراً من قواده وأهل بيته ، فانهزمت العامة بعد قتال شديد ، ولم تكن لأحد منهم كَرَّة ؛ وكانوا كالدبا[٢] كثرة .

قال : ولم ينل الحَكم بعد وقيعة الرَّبَض حلاوة العيش ، وامتُحِن بعلة صعبة طاولته أربعة أعوام ، فلَتَّتْ غَرْبَه وأطالت ضَنَاه ، واحتجب فيها آخِرَ مدته واستناب ولده عبد الرحمن فى تدبير ملكه ، فمات على توبةٍ من ذنوبه وندمٍ على

---

(١) كذا ورد الاسم فى الأصل ، وورد فى الأخبار المجموعة « بزنت » بالباء . وقد ذهب دوزى إلى أن يَزَنْتْ أو يَزَنْتُ هو الصورة العربية لاسم أيبيرى رومانى : Jacinto ، ولا زال هذا الاسم مستعملا فى إسبانيا إلى اليوم ، وهو مأخوذ من اللفظ اليونانى Hyacinthe ومعناه « ياقوت » . أما ريبيرا Julián Ribera فقد قرأه بالباء وكتبه فى الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة Vicent وهى الصورة القطلونية للاسم المعروف Vincent . والقراءتان مقبولتان .

cf : DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides.* Nouvelle édition revue et mise à jour par E. Lévi-Provençal, Leyde, 1932 vol. I, p. 298 et note.

الخشنى ، تاريخ قضاة قرطبة ، بتحقيق خليان ريبيرا ، مدريد ١٩١٤ . مقدمة الترجمة الإسبانية ص ٢١ .

(٢) والدَّبا صغار الجراد أو النمل .

ما اقترف منها بين صلاتى الظهر والعصر من يوم الخميس لأربع بقين من ذى الحجة سنة ست ومائتين [1] .

ومن شعره فى ذلك يعذر نفسه بالدفاع عن ملكه والحماية لسلطانه ، وهو من أحسن شعر قيل فى معناه :

رَأَبتُ [2] صدوعَ الأرضِ بالسيفِ راقعاً [3] وقِدْماً لأمتُ الشَّعبَ مُذْ كنتُ يافعاً
فسائلْ ثغورى : هل بها اليومَ ثُغرةٌ أبادرها مُستَنْضِيَ السيفِ [4] دارعاً
وشافِهْ على [5] الأرض الفضاء جماجماً كأقحافِ شِريانِ الهَبيد لَوامعا
تُنَبِّئْكَ أنى لم أكن فى قِراعهمْ بِوانٍ ، وقِدماً [6] كنتُ بالسيفِ قارعا
وإنى إذا حادوا حذاراً [7] عن الردى فلستُ أخا حَيدٍ عن الموت جازعا
حَمَيْتُ ذِمارى فانتهكتُ ذِمارَهمْ ومَن لا يُحامى ظلَّ خَزْيانَ ضارعا

---

(١) كانت ثورة الربض — أو هيج الربض ، كما تسمى فى النصوص — بعيدة الأثر فى سلوك الحكم الربضى بصفة خاصة وسياسة خلفائه من بنى أمية الأندلسيين حيال أهل قرطبة وشعب الأندلس بصفة عامة . فأما الحكم فقد اتعظ بما وقع خلالها فلم يعد إلى الاستبداد والعسف والاستخفاف بالناس ، كما كان يفعل قبلها ، لأنه عرف أن سلوكه الأول واستخفافه بالدماء هما سبب هذه الفتنة الكبيرة ، ثم إن إسرافه فى القتل وإجلاء أهل الربض عن دورهم ثم هدمه وتحويله إلى أرض زرع ، كل ذلك كان بعيد الأثر فى نفسه ، فال إلى التقى للتكفير عما اقترف . وقد ظل على ذلك حتى توفى فى ٢٥ ذى الحجة سنة ٢٠٦ / ٢١ مايو ٨٢٢ . وأما بالنسبة لسياسة خلفائه فقد تعلموا احترام الناس وحقوقهم وسلكوا حيالهم سياسة لين وفهم واحترام ، فلم يقع مثل هيج الربض بعد ذلك .

(٢) قرأها دوزى : رأيت .

(٣) فى النفح : راقما .

(٤) فى النفح : العزم .

(٥) فى الأصل : مع .

(٦) فى النفح : وإنى .

(٧) فى النفح : جزاعا .

ولمّا تساقَيْنا سِجالَ حُروبنا سَقَيْتهمُ سَجْلاً(١) من الموتِ ناقعا
وهل زِدْتُ أنْ وفّيْتُهمْ صاعَ قَرْضِهمْ فلاقَوْا(٢) منايَا قُدِّرتْ ومصارعا
[١٤ - ب] / فهاك بلادى(٣) إننى قد تركتها مِهاداً ، ولم أترك عليها منازعا

قال عثمان بن المثنّى النحوى(٤) المؤدب : قدم بعد الوقعة علينا عباس بن ناصح(٥) قُرْطُبَةَ أيامَ الأمير عبد الرحمن بن الحَكم ، فاستنشدنى شعرَ الأمير الحَكم فى الهَيْج فأنشدته إياه ، فلما بلغت إلى قوله :

وهل زدتُ أن وفيتهم صاع قرضهمْ فلاقَوْا منايا قُدِّرتْ ومصارعا

قال عباس : « لو أن الحَكم يَخْشَى(٦) للخصومة بينه وبين أهل الربض لقام بعذره فيهم هذا البيت » . وفى رواية(٧) : إذا كانت الخصومة بينه وبين أهل الربض أجَرتْه(٨) ، فإن هذا البيت لَيُحاجِجُ عنه يوم القيامة .

(١) النفح : سمًّا . والسَّجْل الدلو الضخمة المملوءة ماء (اللسان : ١٣/٣٤٦) .
(٢) النفح : فوافوا .
(٣) الأصل : سلاحى ، والتصويب من النفح .
(٤) عثمان بن المثنى من أهل قرطبة ، يكنى أبا عبد الملك ، من أهل الأدب والنحو. رحل إلى المشرق « فلقى جماعة من رواة الغريب وأصحاب النحو والمعانى ، منهم محمد بن زياد الأعرابى ، أخذ عنه وعن غيره ، وقرأ على حبيب بن أوس (الطائى ، وهو أبو تمام) وأدخله الأندلس رواية عنه ، وأدب أولاد الإمام عبد الرحمن بن الحكم وأولاد محمد . وعمّر إلى أن بلغ ٩٩ سنة ، وتوفى رحمه الله سنة ٢٧٣ » (٨٨٧ م) ابن الفرضى ، علماء ، رقم ٨٨٩ ص ٢٤٩ .
(٥) عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى نسبة إلى الجزيرة الخضراء ، إذ أن الحكم الربضى ولاه قضاءها . كان شاعراً نحوياً مؤدباً ترجم له ابن الفرضى (رقم ٨٧٩ ج ١ ص ٢٤٥) وقال إنه رحل إلى الأندلس ولقى أبا نواس وسمع منه شعره . وترجم له ابن سعيد فى المغرب (بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، القاهرة بدون تاريخ) ١ / ٣٢٤ . وانظر عنه : الدكتور إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسى (بيروت ١٩٦٠) ص ٣٦ -٣٧ .
(٦) الأصل : يجنى ، وقد قرأها دوزى : يخشى .
(٧) فى الهامش على اليمين مقابل هذا السطر – للخصومة فى الربض .
(٨) الأصل : جيرته ، ويمكن قراءته أيضاً : أجبرته .

وله أيضا فى ذلك :

غِناه صَليلِ البيضِ أشهى إلى الأذنِ من اللحن فى الأوتار واللهو والرَّدْنِ (١)
إذا اختلفتْ زُرقُ الأسِنَّةِ والقَنا أرَتْكَ نجوماً يَطَّلِعْنَ من الطعن
بها يهتدى السارى وتنكشفُ الدجى وتَسْتَشْعِرُ الدنيا لباساً من الأمْن
شققتُ غمارَ الموت تُخْطِئُ مهجتى سهامُ ردًى قبلى أصابتْ ذوى الجُبْن
إذا لفحتْ ريحُ الظهائر لم يكنْ لِفاعِىَ فيها غيرَ فَىْءِ القنا اللَّدْن
و إن لم يجدْ حصناً سوى القَرِّ مُقدِمٌ فمالىَ غيرُ السيف والرمح من حصن
قذفتُ بهم [من] فوقِ يَهْماءَ فاتْرَوَت له الأرضُ واستولى على السهل والحَزْن
فسار يروِّى كل صَدْيانَ حائمٍ وسَحَّ كما سحَّتْ عَزالِ من المزن (٢)
و إنْ عَنَّ للتيار مِنْ سَيَلانِه ذُرَى شاهقٍ أضحى كمُنْتَفِشِ العِهْن
هَنأت به حَرباً تقشَّعَ بَحْرُها بحمل هناء ليس يصْلُحُ لِلبُدْن

وله فى النسيب :

ظلَّ من فرط حبه مملوكاً ولقد كان قَبْلَذاكَ مليكاً
إن بكى ، أو شكا الهوى ، زِيد ظلماً وبِعاداً يُدنى حِماما وشيكا
تركتْه جآذرُ القصر صَبًّا مُستهاماً على الصعيد تَريكا
/ يجعل الخدَّ واضعاً (٣) فوق تربٍ للذى يجعل الحريرَ أريكا [١٥ - ١]
هكذا يحسن التذلل فى الحـ ـبِ (٤) إذا كان فى الهوى مملوكا

(١) لعلها الدَّرَنُ (بفتحتين) بمعنى العبث واللهو . وقد سَنَّ الراء للوزن .

(٢) المزنة العزال هى السحابة التى تنهمر بالماء (اللسان : ١٣ / ٤٦٩) جمع عزلاة ، وهى فم المزادة أو القربة .

(٣) وردت هذه الأبيات فى البيان المغرب لابن عذارى (٢/٨٠) وقد ورد هذا اللفظ هناك : ماثلا .

(٤) فى البيان المغرب : للحرِّ .

وله فى خمس جوارٍ من حظاياه ، كُنّ مصطحبات فتغاضبن عليه وقتاً فى طريق الغيرة وهجرنه :

قُضبٌ من البان ماست فوق كُثبانِ ولّين[1] عنى وقد أزمعن هِجرانى

ناشدتهن بحقِّى فاعتزمن على الـ عصيان[2] ، حتى خلا منهن عصيانى[3]

مَلَكنَنى مِلْكَ مَن[4] ذلَّت عزائمه للحب ذُلَّ أسيرٍ مُوثَقٍ عانِ

من لى بمُغتصبات الروح من بدنى يَغصِبْننى فى الهوى عزى وسلطانى !

١١ — إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن[5] ابن على بن أبى طالب

وُلد لعبد الله بن حسن . وكان شيخَ بنى هاشم فى وقته إدريسُ الأكبر وأمه هِندٌ بنت أبى عبيدة المُطَّلِبية ، وإدريس الأصغر هذا أمه[6] عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث المخزومية ، وأخواه منها : عيسى وسليمان ؛ حكى ذلك أبو على حسين بن أبى سعيد عبد الرحمن بن عبيد القيروانىُّ المعروف بالوكيل فى كتابه « المُغرِب عن أخبار المغرب » واختصرتُه منه . وذكر أن إسحاق

(١) وردت هذه الأبيات أيضاً فى البيان المغرب لابن عذارى (٢/٧٩) . وقد جاء هذا اللفظ هناك : أعرضن .

(٢) رواية البيان : الهجران .

(٣) رواية البيان : حتى خلا منهن هَيمانى .

(٤) فى الأصل : مِلْكاً ، والتصويب من البيان المغرب .

(٥) الأصل : إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب . وهو خطأ ، وقد صوبناه كما فى المتن .

(٦) فى الأصل : وأمه .

ابن عيسى كان على المدينة ، فلما مات المهدى ووَلِىَ موسى الهادى شَخَصَ وافداً عليه ، واستخلف على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب(١) ، فخرج عليه بها الحسينُ بن على بن الحسن بن الحسن العلوى ، واستخفى العُمَرىّ حتى خرج الحسين إلى مكة فى ذى القعدة سنة تسع وستين ومائة .

وكان قد حج فى تلك السنة رجال من بنى العباس ، منهم محمد بن سليمان ابن على ، والعباس بن محمد ، وموسى بن عيسى ، وعلى الموسم سليمان بن أبى جعفر ؛ فكتب الهادى إلى محمد بن سليمان يولّيه الحرب ، فالتقوا بِفَخٍّ ، وخلّفوا عبيد الله ابن قُثَم بمكة للقيام بأمرها . وكانت الوقعة يوم السبت ، يومَ التَّروية ، فقُتل الحسينُ القائمُ وسليمان بن عبد الله ؛ وانهزم الناس فنودى فيهم بالأمان ولم يتبع هاربٌ ، وحُزّت الرؤوس فكانت مائة ونيفاً .

وكان فيمن هرب يحيى وإدريس / ابنا عبد الله بن حسن ؛ فأما إدريس [١٥-ب] فلحق بالمغرب ولجأ إلى أهله فأعظموه ، ولم يزل عندهم إلى أن احتيل عليه ؛ وخلّف ابنه إدريس بن إدريس ، فملكوا(٢) تلك الناحية وانقطعت عنهم البعوث .

وأما يحيى فصار إلى جبل الدَّيْلَم فأقام عند صاحبه ، إلى أن شخص إليه الفضل بن يحيى بن خالد فى أيام الرشيد ، فأمّنه وحمله إليه .

وقد قيل إن إدريس هرب إلى المغرب فى أيام أبى جعفر المنصور ، عند قتل أخويه محمد وإبراهيم القائمين عليه بالمدينة وبالبصرة ، وأن أبا جعفر بعث إليه من سمّه ؛ والصحيح أن ذلك كان فى خلافة الهادى بالعراق ، وبعد عشرة أشهر وأيام منها ، وفى آخر خلافة عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس ، وقبل وفاته بعامين وأشهر ، وأن إدريس وقع إلى مصر وعلى بريدها واضحٌ مولى صالح بن المنصور

(١) واضح أن المراد هنا غير عمر بن عبد العزيز بن مروان الخليفة . انظر عن نسب هذا المذكور فى المتن « جمهرة أنساب العرب » ص ١٤٣ .

(٢) كذا فى الأصل ، والمراد إدريس بن إدريس وآله .

— وكان رافضيًا — فحمله على البريد إلى أرض المغرب حتى انتهى إلى مدينة « وَلِيلِي »[١] من أرض طَنْجَة ، فاستجاب له مَن بها وبأعراضها من البَربر ، فلما وَلِىَ الرشيد علم بذلك فضرب عنق واضح وصلبه ، ودسّ إلى إدريس مَن أنس به واطمأن إليه ، وكتب له كتاباً إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفْرِيقِيَّة فاحتال حتى سَمَّه .

واختُلف فيمن سَم إدريس وما سُم فيه . فقيل : الشَّماخ المشماسى[٢] مولى المهدى سَمَّه فى سَنُون[٣] سقطت منه أسنانه لما استعمله ومات من وقته ، وسيأتى خبره بعد إن شاء الله . وقيل : بل سليمان بن جرير الرَّقّى كان سبب سَمِّه ، وكان إدريس به واثقا فأُتِى من قِبَله ، وهرب مع الرسل الذين أتوا فى ذلك ، وطُلب ففات .

ويقال : إن سليمان هذا — وكان يقول بإمامة زيد بن على بن الحسين — ناظرَ إدريس يوماً فى شىء نخالفه ، ثم دخل الحمام ، فلما خرج بعث إليه سليمان بسمكة مشوية أنكر نفسه عند أكله منها ، فشكا بطنه وقال : « أدركوا

(١) وَلِيلِى ، وتنطق أحياناً وَلِيلَى — والأولى أصح — مدينة أثرية فى المغرب تسمى عند العامة قصر فرعون ، وتقع على ٣ كيلومترات شمال شرقى بلدة مولاى إدريس التى تضم ضريح إدريس الأكبر مؤسس دولة الأدارسة ، وهذه الأخيرة على نحو ٢٠ كيلومتراً غربى فاس ، وهى من تأسيس المغاربة القدامى الذين يسمون بالمُورْطانيين ، جعل منها الرومان مدينة زاهرة خصوصاً فى عهد الإمبراطورية . اكتشفت آثارها سنة ١٨٧٣ وابتدأت عمليات الحفر بها سنة ١٩١٥ ولا تزال متواصلة إلى اليوم .

انظر : أحمد المكناسى : خريطة المغرب الأركيولوجية للمواقع الأثرية لما قبل التاريخ إلى ظهور الإسلام (تطوان ١٩٦١) ص ٢٤ .

والبكرى : صفة إفريقية والمغرب ، ص ١١٨ وما بعدها .

(٢) كذا فى الأصل ، وقرأها ماركوس مولر : الشماسى ، ص ١٩٨ . وجاء فى البيان المغرب لابن عذارى : الشماخ مولى الهادى . . « وذكر أنه متطبب من شيعتهم العلوية » (١/٨٣) .

(٣) السَّنُون كل مسحوق كانوا يستعملونه لدواء الأسنان .

سليمان ! » فأُدرك ، وقيل له : « أجب ! » فامتنع ، فضُرب على وجهه بسيف ، وضُرب أخرى على يده فانقطعت أصبعه ، وأفلت . وقيل : سُمَّ فى طيبٍ تطيب به . وولده وأهل بيته يقولون : إنما سُمَّ فى بطيخة . وهم وإن اختلفوا فى الشىء الذى سُمَّ به ، فهم مجمعون على أنه مات مسموما . ومن شعره :

أليس أبونا هاشم شـــد أزره   وأوصى بنيه بالطعان وبالضربِ
/ فلسنا نمل الحرب حتى تملّنا   ولا نتشكّى ما يهول من النَّكبْ   [١٦ – ١]

١٢ — ابنه إدريس بن إدريس بن عبد الله ، أبو داوود

قال أبو الحسن على بن محمد النَّوْفَلِيّ : توفى إدريس بن عبد الله وجارية من جواريه حبلى اسمها كَنْزَة ، فقام « راشد » مولاه — ويقال إنه مولى أخيه عيسى بن عبد الله ، وهو الذى خرج به حتى أقدمه المغرب — بأمر البربر . إلى أن ولدت الجارية غلاماً فسماه باسم أبيه « إدريس » ، وقام بأمره حتى بلغ الغلام وأدّبه ؛ وكان مولده فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائة .

وتوفى راشد سنة ست وثمانين ، فقام بأمر الغلام أبو خالد يزيد بن إلياس ، وأخذ بيعة البربر له يوم الجمعة فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ، وهو ابن إحدى عشرة سنة . وأسس مدينة القرويين[1] سنة ثلاث وتسعين ، وخرج إلى

(١) يريد فاس القرويين ، أى فاس الأولى التى أنشأها القيروانيون ، وهى منسوبة إليهم . وسينشىء مهاجرة الأندلس الذين خرجوا منها بعد هيج الربض ضاحية لفاس هذه تعرف باسم فاس الأندلسيين ، وتسمى كل منهما عدوة فيقال عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين ، ومنهما معاً تتكون فاس . انظر بيان ذلك فى « البيان المغرب » لابن عذارى (٢/٢١١) .

نِفِّيس[1] فى المحرم سنة سبع وتسعين ، ثم غزا نفزة وتلمسان وتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة : سُمَّ فى حبة عنب فلم يزل مفتوح الفم سائل اللعاب حتى مات .

وعن غير النَّوْفَلِيِّ أن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب هو الذى احتال عليه حتى اغتاله .

وعامة مَن فى المغرب من الحسَنيين من ولد إدريس هذا ، ومنهم بنو حَمُّود الخلفاء فى قُرْطُبَة بعد الأربعمائة .

وذكر أبو بكر الرازى[2] أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب سنة اثنتين

(١) نِفِّيس ، هكذا ورد الاسم مضبوطاً فى الأصل ، ولكن الأغلب نَفِّيس . ذكرها البكرى (ص ١٦٠) وقال إنها قرب أغمات وقال إنها تعرف بالبلد النفيس وأنها بلد كثير الأنهار والثمار ، « ليس فى ذلك القطر موضع أطيب منه ولا أجمل منظراً » ، وقال إنها بلدة عامرة آهلة بينها وبين البحر مسيرة يوم ، أى حوالى ٤٠ كيلومتراً . وهو تقدير غير دقيق ، لأن وادى نفيس واد صغير معروف يصب فى بحيرة جنوبى مراكش . ومكانها اليوم قرية صغيرة تعرف بالمدينة بين تانزْلْت ودَرْكالَة .

(٢) المراد أبو بكر أحمد بن محمد الرازى المؤرخ ، وهو أبو أحمد بن محمد الرازى المؤرخ والد عيسى بن أحمد الرازى مؤرخا الأندلس المعروفين .

وهذه العبارة ذات أهمية تاريخية كبرى ، فهى تقرر بوضوح أن الذى اختط فاس كان إدريس بن عبد الله أى إدريس الأول ، لا ابنه إدريس الثانى كما كان يظن اعتماداً على كلام ابن أبى زرع مؤرخ فاس فى كتابه المعروف « روض القرطاس » . وقد ناقش الموضوع مناقشة شاملة ليڤى پروڤنسال فى بحثه القيم عن « اختطاط فاس » واعتمد على عبارة الرازى هذه وعبارات أخرى لابن القاضى فى « جذوة الاقتباس » والجزنائى فى « زهرة الآس » . وأثبت بالفعل أن اختطاط فاس كان على يد إدريس الأول فى رمضان ١٧٢ فبراير / ٧٨٩ . انظر :

E. LÉVI-PROVENÇAL, *L'Islam d' Occident*, chapitre 1 : *La Fondation de Fès*, pp. 3-41.

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربية بعنوان : « دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس » ، ترجمه الدكتور صلاح الدين حلمى وراجعه الدكتور لطفى عبد البديع ، ونشرت الترجمة فى سلسلة الألف كتاب فى القاهرة سنة ١٩٥٧ .

وجدير بالذكر هنا أن « روض القرطاس » —رغم ما يتمتع به من مكانة بين مراجعنا— يعتبر من أحفلها بالأخطاء ، ولابد من الحذر الشديد فى استعماله .

وسبعين فى شهر رمضان هارباً بنفسه من أبى جعفر ؛ فنزل موضعاً يقال له « وَلِيلِي » بوادى الزيتون ، فاجتمعت إليه قبائل من البربر فقدموه على أنفسهم وبَنَوْا مدينة فاس ؛ وكانت أجمةَ شَعْراء ، ولما احتفرت أساساتها ألفى فى بعضها فأسٌ فسُميت بمدينة « فاس » وسكنها البربر ، فلم تطل أيامه وهلك سنة أربع وسبعين ومائة . وترك جارية حاملا منه ، فولدت بعده ابناً سمى بإدريس ابن إدريس ، ملَك بعد أبيه مدينة فاس وطالت مدته ، وتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة ومائتين ، ومولده فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين (١) .

كذا قال الرازى ، وقد تقدم التنبيه على غلط القائل بدخول إدريس المغرب فى خلافة أبى جعفر المنصور .

ومن شعر إدريس بن إدريس يخاطب البهلول بن عبد الواحد المَدْغَرِىّ ، ذاهباً إلى مراجعة طاعته ومحذِّراً مكرَ / إبراهيم بن الأغلب ، وهو الذى كان [١٦ - ب] أفسده عليه حتى قاتله البهلول :

كأنكَ لم تسمعْ بمكرِ ابنِ أغلبٍ وما قد رمى بالكيدِ كلَّ بلادِ
ومن دونِ ما منَّتْك نفسُك خالياً ومنّاك إبراهيمُ خرطُ قتادِ

وكتب إلى إبراهيم بن الأغلب يدعوه إلى طاعته أو الكف عن ناحيته ، ويذكره قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى أسفل كتابه :

أُذَكِّرُ إبراهيمَ حقَّ محمدٍ وعترتِه والحقُّ خيرُ مَقُولِ
وأدعوه للأمر الذى فيه رشدُه وما هو لولا رأيه بجهولِ
فإن آثر الدنيا فإنَّ أمامَه زلازلُ يومٍ للعقابِ طويلِ

وله يتشوق أهل بيته :

لو مال صبرى بصبر الناس كلهمُ لضَلَّ فى رَوْعتى أو ضَلَّ فى جَزَعى

(١) لم تطل مدته على هذا ، فقد ولد سنة ١٧٥ هـ وتوفى سنة ٢١٣ .

وما أَرِيعُ إلى يأسٍ ليُسْلِيَنى   إلا [... ...] يأسٌ إلى طمعِ
وكيف يَصْبر مَطْوِىٌّ هضائمُه   على وساوسِ همٍّ غيرِ منقطعِ
إذا الهمومُ توافتْ بعد هجعتِهِ   كرَّتْ عليه بكأسٍ مُرّةِ الجُرَعِ
بانَ الأحبةُ واستبدلْتُ بعدهمُ   همًّا مقيماً وشملاً غيرَ مجتمعِ
كأننى حينَ يُجرى الهمُّ ذكرَهمُ   على ضميرىَ مخبول من الفزعِ
تأوى همومى إذا حرَّكْتُ ذكرَهُمُ   إلى جوانح جسمٍ دائمِ الولعِ

١٣ — عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ، أبو مروان

/وقيل أبو الوليد

[١٧ - أ]

قعيدُ جماعة آل مروان فى وقته وفارسُهم وشهابهم . قدِم من مصر على عبد الرحمن بن معاوية فى سنة أربعين ومائة ، أولَ ولايته بالأندلس ، وهو فى عشرة رجال من بنيه فرسانٍ ، فولاه إشبيلية ، وولّى ابنَه عبد الله مَوْرُور ، وأغنى فى حرب يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِىّ عند نكثه وفراره من قُرْطُبَة حتى قُتل .

وقيل : كان والياً على مارِدَة ، وابنه على لَقَنْت . ولما زحف أهل حِمْصَ[(١)] إلى عبد الرحمن بن معاوية يطلبونه بثأر أبى الصَّبّاح اليَحْصُبِىّ — وكان قد طاح على يديه — أبلى عبدُ الملك هذا بلاءً حسنا ، وقَتل ولدَه أميةَ صبراً لما انحاز إليه منهزما : قدَّمه فضرب عنقه ، فهابه الجند وشدوا معه ومع سائر بنيه ، فكانت

(١) يريد أهل إشبيلية وناحيتها من العرب ، وكذلك كانت تسمى بعد أن أنزل أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى جند حمص فى إشبيلية .

الدبرة على أهل حِمصَ ومَن معهم ، وفتح الله على يديه فتحاً لا كفاء له ، وأجلَتِ الحربُ عنه جريحاً فأحظاه عبدُ الرحمن . وقيل : بل قتل ابنه المذكور فى حرب يوسف الفهرى حين[1] انهزم وقُتل من أصحابه نحو عشرة آلاف ، ولم تقم له بعد قائمة ، فأحظاه عبد الرحمن وقدمه واستوزر بنيه عبد الله وإبراهيم وحَكماً ، وزوَّج ابنتَه كَنْزَةَ[2] من ابنه هشام ولى عهده ، فقال عبدُ الملك فى ذلك من قصيدة طويلة :

فيا زمناً أوْدَى بأهلى ومعشرى ... لقد صِرْتَ فى أحشائنا لاذعاً جمرَا
ويزدادُ دهرُ السوء غِشًّا وظُلمةً ... كأنَّ على شمسِ الضحى دوننَا سِتْرَا
إلى أن بدا من آل مروان مُقْمِرٌ ... أضاء لنا مِن بَعدِ ظُلمته الدهرا
هِجَانٌ أصيلُ الرأيِ نَدْبٌ مهذبٌ ... أقام لنا مُلكاً وشد لنا أزرا
وأنبتَ آمالاً وأثبتَ نِعمةً ... وجئنا فألفينا الكرامةَ والبِرّا
أنالَ وأغْنَى مُنْعِماً متفضِّلاً ... وأَصْفَى لنا مأمولَ أبنائه صِهْرا
فنحن حواليْه النجومُ تجمعتْ ... إلى البدر حتى صِرنَ مِن حوله حَجْرا[3]

ومنها يذكر زفاف ابنته كَنْزَة هذه :

لعَمرى لقد أهديتُ بيضاءَ حُرةً ... إلى خير مَن أغلَى بأثمانها المهرَا
/لها حَسَبٌ يأبَى عَلى كُل مُقرِفٍ ... ويَرْضى لها تلك الحضارمة الزهرا [١٧ - ب]
وآل أبى العاصى همُ نظراؤها ... فأكرِمْ بشمسٍ أنكحتْ قمراً بدرا

(١) الأصل : حتى .
(٢) قرأها دوزى ، ص ٤٣ : كثرة .
(٣) الحَجْر هو الستر والمانع (اللسان : ٥/٢٣٩) .

١٤ – عبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن بشر ابن مروان بن الحكم

كان أبوه بِشر من أمراء الأموية ، فقتله أبو جعفر المنصور مع يزيد بن عمر ابن هُبَيْرة الفزَارى آخر عمال بنى أمية على العراق ، ونجا ابنه عبد الملك هذا فى فَلِّ القوم إلى المغرب ، فقصد الأندلس ، ودخلها فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن ابن معاوية ، مع ابن عمه جُزَىّ بن عبد العزيز بن مروان أخى عمر بن عبد العزيز ، وسكن جواره بقُرْطُبَة ، ويعرف بالبِشْرِىّ . وهو القائل فى مقتل أبيه :

لستُ أنسى مصرعاً مِن والدٍ سيدٍ ضخمٍ وعَمٍّ مفْتَقَدْ
غادرتْهُ الخيلُ فى معتَرَكٍ بين عمٍّ وأبٍ زالٍّ وجَدّ
تَسْهك[1] الريحُ عليه بالضحى وتُعَفِّيه أعاصيرُ الأَبَدْ
لم يَرُدَّ الموتَ عنه إذْ سَما نحوهُ كثرةُ مالٍ وعددْ
أُمَوِىٌّ حَكَمِىٌّ عَرفتْ سَوْرة المجد له عُليا مَعَدْ
عاش فى مُلكٍ عزيزاً دونه حُجُبُ المُلكِ وأبوابُ الرَّصَدْ
فانتحتْه بالمنايا فثوَى لِعَوافى الطَّير مسلوبَ الجَسَدْ

وله :

يا معشراً شنفَ الطعامُ قلوبَهم فهمُ طِماحٌ نحو كُلِّ دُخَانِ
يهدى لواءَهمُ ويحمل بَنْدَهمْ فى كل معترك أبو سَعْدانِ

(١) سَهِكت الريح وسَهَكت الدابة سُهُوكا جرت جرياً خفيفاً ، وقيل سهوكها استنانها يميناً وشمالا . (اللسان : ١٢/٣٣٠)

يمشى كمشىِ الليثِ راح عشيةً من غابهِ وأمامه شِبلانِ
لو يعرِض الخَطِّىُّ دونَ وليمةٍ مشروعةٍ فى صدره لطِعانِ
لمضى بصادقِ نيةٍ وبصيرةٍ فيها وقلب(١) مُشَيِّحٍ شيحَانِ(٢)
/ حتى يغيبَ فى الثريد ذراعَه ويجوسها بأشاجعٍ(٣) وبنَانِ [١٨-ا]

وله :

وبِنَفْسِى مَن عندها اليومَ قلبى عَانٍ فى حبالها معمودُ
كلما قلتُ قد تناهيتُ عنها عادنى من غرامها ما يعودُ
فبقلبى من لاعجِ الحبِّ منها كلَّ يومٍ سُقْمٌ وحزنٌ جديدُ

١٥ — حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان ، أبو سليمان

كان بالأندلس فى سلطان عبد الرحمن بن معاوية ، وكانت له منه خاصةٌ لم تكن لأحد من أهل بيته ، وولاه طُلَيْطِلَة وأعمالَها ؛ وهو القائل يخاطبه مُغْرِياً بأبى الصَّبّاح(٤) عليه :

يا ابنَ الخلائفِ إنى ناصحٌ لكم فى قتل ذى إحَنٍ يرتادُ للنِّقَمِ

(١) قرأها دوزى (ص ٤٤) : وقلت .

(٢) شايَح الرجل جَدَّ فى الأمر ، والشَّيْحان الذى يتَهمَّس عدْواً ، أراد السرعة (اللسان : ٤ / ٣٣٢) . والمشيح هو الشجاع .

(٣) الأشاجع هى عظام الأصابع (اللسان : ١٠ / ١٠) .

(٤) هو أبو الصَّبّاح بن يحيى اليَحْصُبى من كبار اليمنيين الذين أعانوا عبد الرحمن الداخل على الوصول إلى الإمارة . وقد ولاه عبد الرحمن على إشبيلية ، ثم عزله

لا يُفْلِتَنْكَ فيأتينا ببائقــةٍ   واشدُدْ يديْكَ به تبرأْ مِن السَّقَمِ
جَلِّلْهُ عَضْباً مِن الهِندىِّ ذا شُطَبٍ   إن الصرامةَ فيه فَذْلَكُ الكرمِ

ذكر ذلك ابنُ حَيّان ، وقيل إن هذا الشعر لعبد الملك بن عمر بن مروان ابن الحكم .

وتوفى حبيب هذا فى أيامه ، فشهد جنازته ومعه ستة من ولده ، فلما صلى عليه قعد وهو يُوارَى ، فالتفت عبدُ الرحمن فرأى ولده هشاماً قاعداً ناحيةً قد [...][1] فى قعوده ، فقال : « ما هذا يا أبا الوليد ؟ أيُدفن عمُّك وخيرُ أهلِ بيتِك وأنت قاعد ؟ قم واشدد نطاق الحزن عليك ، فلن ترى فى قومك مثل أبى سليمان » ، فقام .

وكان حبيب من الذين يشاورهم فى رأيه وإدارته عبدُ الرحمن بن معاوية ويُدنى مجالسَهم منه [ويضمه][2] إلى خاصته من نُقَباء دولته وسائر أصحابه ومواليه .

* * *

نرجع إلى ذكر الأمراء من غير الهاشمية والأموية على الترتيب كما شرطنا فى صدر الكتاب :

= عنها ، فجمع أنصاره وثار عليه ، فأرسل إليه عبد الرحمن مولاه تَمّاماً ، فأقنعه بالاستسلام دون قتال ، وأتى به قرطبة مع ٤٠٠ من أنصاره دون عهد . فلما التقى بعبد الرحمن عاتبه ، فأغلظ له أبو الصباح فى الجواب ، فأمر بقتله ، وقتل سنة ٧٦٦/١٤٩ .

انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٥٣/٢ .

(١) بياض بقدر كلمة .

(٢) بياض فى الأصل .

١٦ – الحُسام بن ضِرار بن سَلامَان الكَلْبِيّ ، أبو الخَطَّار (بالراء)

وَلِيَ إمارة الأندلس في سنة خمس وعشرين ومائة ، من قِبَل حنظلة بن صفوان بن نوفل الكلبي والى إفريقية لهشام بن عبد الملك ثم للوليد بن يزيد بن عبد الملك . وكان قد ولى بإفريقية ولايات في إمرة بشر بن صفوان / الكلبي [١٨ – ب] أخى حنظلة ، ويقال إن أهل الأندلس الشاميين والبلديين كتبوا إلى حنظلة بن صفوان والِى إفريقية والمغرب يسألونه أن يبعث إليهم عند اختلافهم والياً يجتمعون عليه ، فبعث أبا الخطّار هذا ، فأقبل إليهم حتى قدم عليهم ، فأطاعه أهلها واجتمعوا عليه ، ودانت له الأندلس جمعاء[1] إلى ولاية مروان بن محمد بن مروان آخر خلفاء بنى أمية .

ولم يقدِّم في ولايته الأندلس شيئاً على تفريق جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد عن دار الإمارة قُرْطُبَة ، إذ كانت لا تحملهم ، وأنزلهم مع العرب البلديين على شِبهِ منازلهم في كُوَر شامِهِم . وتوسّع لهم في البلاد :

فأنزل في كورتى أُكْشُونُبَة وباجة جندَ مصر مع البلديين الأوَل ، وأنزل باقيهم في كورة تُدْمِير ؛

وأنزل في كورتى لَبْلَة وإشبيلية جندَ حِمْص [مع البلديين] الأوَل أيضا ؛

وأنزل في كورة شَذُونة والجزيرة جندَ فلسطين ؛

وأنزل في كورة رَيَّة جندَ الأردن ؛

---

(١) الأصل : جمعا .

وأنزل فى كورة إلبيرة جند دمشق ؛

وأنزل فى كورة جيّان جند قِنّسْرِين(١) ؛

---

(١) هذه الإشارة تدل على أن الأندلس كان فى ذلك الوقت المبكر مقسما إلى كور محددة واضحة ، وقد ثبت هذا التقسيم كما هو إلى آخر أيام الخلافة ، مما يدل على أنه كان تقسيماً سليماً قائماً على أسس سليمة قديمة ، فلم يحتج بعد إلى تعديل ، وهذا ما حدانا إلى القول فى « فجر الأندلس » بأن العرب وجدوه قائماً ، فأقروه مع تعديلات طفيفة . وهذه الكور التسع هى التى عرفت بالكور المجندة ، وكلها واقعة على الوادى الكبير أوجنوبه أوفى مستواه ، وهى تكوّن معظم جنوب شبه الجزيرة . انظر عن حدودها « صفة الأندلس » للرازى التى لم تبق لنا إلا فى ترجمتها البرتغالية والإسبانية ، وقد ترجمها ليڤى پروڤنسال إلى الفرنسية :

LÉVI-PROVENÇAL, *La Description de L' Espagne de Razi*, **Al-Andalus,** *XVIII* **(1953) pp. 59. sqq.**

وسنشير إلى هذه الترجمة دائماً باسم « صفة الأندلس للرازى » .

وقد أوردنا فيما بعد بيان معظم الأعلام الجغرافية الواردة فى هذا النص (انظر فهرس الأعلام) فيما عدا أكشونبة وباجة وتدميروية ، وفيما يلى التعريف بهذه الكور :

أَكْشُونُبَة أو أَخْشُونُبَة (تكتب خطأ فى بعض المراجع أَشْكُونبة) اسم بلدة رومانية قديمة فى الموضع الذى يسميه العرب شَنْتَمَرِيّة الغرب **Santa Maria de Algarve** التى تسمى حالياً فارو **Faro** جنوبى البرتغال . ويقال إن **Ocsonoba** الرومانية كانت تقع فى الموضع الذى تقوم فيه قرية **Milrau** فى البرتغال التابعة لمركز **Estoy** . وقد أطلق اسم أكشونبة فى التقسيم الإدارى الأندلسى على كورة تحتل الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة ، من نهر وادى آنة إلى المحيط الأطلسى (صفة الأندلس للرازى رقم ٥٤ ص ٩١) . وورد ذكر هذه الكورة فى « التعليق المنتق » على أنها مدينة ، أى كورة عسكرية (ص ٢٢) ، وفى حالة أكشونبة تعتبر كورة بحرية عسكرية . وقاعدة هذه الكورة شِلْب **Silves** فى البرتغال الحالية . وسنتكلم عنها وعن شنتمرية الغرب فى موضعيهما (انظر فهرس الأعلام) .

انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، مادتى **Ocsonoba** و **Santa Maria de Algarve** ، و « الروض المعطار » مواد : أكشونبة وشلب ، والترجمة الفرنسية والتعليقات .

باجَة ، فى البرتغال الحالية ، وتسمى اليوم : بيجا **Beja** وهى قاعدة مديرية ألينتيجو السفلى **Baixo Alentejo** ، وتقع على ١٤٠ كيلومترا جنوب شرق الأشبونة (لِشْبُونَة ، لِيسبُوا) وكانت فى التقسيم الإدارى الأندلسى كورة واسعة تشمل مديرية ألينتيجو السفلى الحالية فى البرتغال وجزءاً من مديريتى بطليوس وولْبة **Huelva** فى إسبانيا الحالية .

انظر : صفة الأندلس للرازى رقم ٤٨ و ٤٩ ص ٨٧ — ٨٨ .

وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طُعْمَةً .

وبقي العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم في شيء منها ، فلما رأوا بلادًا شبه بلادهم خصباً وتوسعةً سكنوا واغتبطوا وتموّلوا(١) .

= والتعليق المنتقى ص٢١ .
والروض المعطار ، رقم ٣٥ ص ٣٦ – ٣٧ .

تُدْمير : هو الاسم القديم لكورة مُرْسِيَة نسبت إلى تُدْمير أو تيودومير حاكم هذه الناحية أيام فتح العرب للأندلس ، والذي عقد معاهدة مع عبد العزيز بن موسى احتفظ لنفسه فيها بشيء من الاستقلال (انظر فجر الأندلس ، ص ١١٢) ثم حولها عبد الرحمن الداخل إلى كورة عادية . وكانت قاعدة الكورة بلدة أوريُولة Orihuela ، فلما اختطت مُرْسِيَة سنة ٢١٦/٨٣١ أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط على يد جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير يومئذ نقلت القاعدة إليها ، وسميت الكورة كلها كورة مرسية . وقد استبد بأمر مرسية وكورتها المولیان العامريان خيران وزهير بعد انتثار عقد الخلافة ، ثم ضمت الكورة إلى بلنسية ، وانفصلت عنها بعد ذلك . وفي أواخر أيام الموحدين استقل بها محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل ، وأصبحت تسمى في النصوص الإسبانية باسم مملكة مرسية El Reino de Murcia . وقد خرجت مرسية عن يد المسلمين نهائياً في جمادى الأولى سنة ٦٦٤/فبراير ١٢٦٦ على يد خايمه الأول ملك أرغون الملقب بالفاتح .

انظر :

MARIANO GASPAR REMIRO, ***Historia de Murica Musulmana*** (Zaragoza, 1905).

وفي تعليقاتنا التالية تفصيلات أخرى كثيرة عن تدمير ومرسية . (انظر فهرس الأعلام)

رَيَّة ، وتكتب أيضاً رَيُّه وهو الأصح ، يظن أن أصل اسمها Regio أي إقليم . اسم كورة من الكور الصغيرة جنوب الوادي الكبير كانت تضم قواعد كبيرة مثل أرشذونة **Archidona** ومالقة (انظر صفة الأندلس للرازي ، رقم ٦٩ ص ٩٨ – ٩٩) . وقد ذهب دوزي إلى أن اسم الإقليم كان قبل العرب **Malacitana Regio** . ولم توجد مدينة باسم رَيَّة ، ولو أن الإصطخري أخطأ فاعتبرها مدينة ، وذهب ابن خلدون إلى أن رَيَّة اسم لمالَقَة . والثابت – بشهادة ابن القوطية – أن رية اسم كورة عاصمتها أرشذونة . وقد اختفت الكورة في عهد الطوائف ، ولا وجود لها في « التعليق المنتقى » .

انظر البحث الطويل عنها في أبحاث دوزي ، ح ١ ص ٣١٧ – ٣٢٤ .

(١) جعلت هذا الخبر في فقرات متميزة للنص على أهميته . وقد نقله ابن الأبار عن أبي =

وطالعتا موسى بن نصير وبَلْج بن بِشْر هما اللتان تعرفان بالأندلس بالجندَيْن .

ثم لم يلبث أبو الخَطّار — مع مكانه من السداد — أن تعصَّب لليمانية وفضَّلهم على المُضَرية ، فآل به الأمر إلى الخلع والفرار إلى جهة باجة فى غرب الأندلس فى قصص طويلة ، وذلك سنة ثمان وعشرين ومائة ، بعد أربع سنين وتسعة أشهر من ولايته ؛ وقيل : كانت ولايته سنة اثنتين وعشرين . ومن شعره :

أَفَأْتُم بنى مروان قيساً دِماءنا ... وفى الله — إن لم تُنصفوا — حَكَمٌ عَدْلُ

(ويُروى : أفاءت بنو مروان ، والأول أَوْلى)

كأنكمُ لم تشهدوا مَرْجَ راهِطٍ ... ولم تعلَمُوا مَن كان ثَمَّ له الفضلُ

وقَيناكُمُ حَــرَّ القَنا بنُحورِنا ... وليس لكم خيل سوانا ولا رَجْلُ

[١٩ - ١] /فلما بلغتمْ نَيْلَ ما قد أردتمُ ... وطاب لكم منا المشاربُ والأكلُ

تعاميتمُ عنا بعيْن جَلِيَّــةٍ ... وأنتمْ كذا ما قد عَلِمنا لها فِعْلُ

فلا تأمَنوا إن دارَتِ الحربُ دورةً ... وزَلَّتْ عنِ المِرقاةِ بالقَدمِ النَّعْلُ

فينتقضُ الحبْلُ الذى قد فتَلْتمُ ... ألا ربما يُلْوَى فينتقضُ الحبلُ

قال أبو الخطار هذا الشعر ، لأن هشام بن عبد الملك ولَّى عُبيدةَ بنَ عبد الرحمن — ابن أخى أبي الأعور السُّلَمى صاحبَ خيل معاوية بصفين — إفريقيةَ ، وصرف بِشْر بن حنظلة الكلبى ، فوَجِدت لذلك اليمانية . ويقال إنه قدم القَيْرَوان — ولم يكن عليها إذ ذاك سور[(١)] — فألفى بشر بن صفوان قد تهيأ

— مروان بن حيان كما نقله أيضاً ابن الخطيب فى الإحاطة (بتحقيق محمد عبد الله عنان ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٥) ص ١٠٩ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ، ٢/٣٣ . وقد تصرف فيه كل منهم بحسب منهجه فى كتابه ، وأعتقد أن الصورة التى أورده فيها ابن الأبار من أصح الصور التى ورد فيها . وقد ناقشنا هذا الموضوع وبسطنا القول فيه فى كتابنا « فجر الأندلس » .

(١) وردت هذه العبارة التى وضعناها بين شرطتين فى الهامش بخط مختلف .

لشهود الجمعة ولبس ثيابه ، فقيل له : « هذا الأمير قد قدم ! » ، فقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! هكذا تقوم الساعة » ، فما حمَلته رِجلاه . ودخل عبيدة بن عبد الرحمن فجَمَّع بالناس[1] .

وقيل إنه لما تتابع ولاةُ إفريقية والأندلس من قيس ، قال أبو الخطار هذا الشعر يعرِّض فيه بيوم مرج راهط ، وما كان من بلاء كَلْبٍ فيه مع مروان ابن الحكم ، وقيام القيسية مع الضحاك بن قيس الفِهْرِىّ أمير عبد الله بن الزبير . فلما بلغ الشعرُ هشامَ بنَ عبد الملك سأل عن قائله فأُعلِم أنه رجل من كلب ، وكان هشام قد وَلَّى إفريقيةَ حنظلةَ بن صفوان الكلبى أخا بِشْر المذكور ، فكتب إليه يأمره أن يولى أبا الخطار الأندلسَ . وهو الرابع عشر من ولاتها ، ثم ولى بعده ثوابة بن سلامة الجذامى ، ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى — وكان خَلْعُه بعبد الرحمن بن معاوية . وأنشد الحمَيْدى فى تاريخه الشِّعرَ ، وقال فيه : « أفادت بنو مروان » ، وقال : « إن لم تعدلوا » ، وقال : « وقينا كم حد القنا بسيوفنا » ؛ وقال فى البيت الرابع وما بعده :

فلما رأيتم واقدَ الحرب قد خبا ... وطاب لكم فيها المشارب والأكل
تغافلتمُ عنا كأن لم نكن لكم ... صديقاً ، وأنتم ما علمت لها فُعْلُ
فلا تعجلوا إن دارت الحربُ دورةً ... وزلَّتْ عن المِهْواةِ بالقَدمِ النعلُ

/ ولم ينشد البيت الأخير [١٩ – ب]

وقال أبو الخطار أيضا يخاطب الصميل بن حاتم الكلابى ، رئيسَ المضرية ورأسَ المتعصبين معها على اليمانية فى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى :

---

(١) الخبر وارد بتفصيل فى البيان المغرب لابن عذارى (١/٥٠) ونص الفقرة الأخيرة منه هناك : ودخل عبيدة فأخذ عمال بِشر وأصحابه فحبسهم وأغرمهم ، وعذب بعضهم .
وكان دخول عبيدة بن عبد الرحمن القيروان فى ربيع الأول ١١٠ هـ / يونيو ٧٢٨ .

إن ابنَ بكرٍ كفانى كلَّ معضلةٍ وحَطَّ عن غاربى ما كان يؤذينى
إذا اتخذتَ صديقاً أو هممتَ بهِ فاعمد لذى حَسَبٍ إن شئتَ أو دينِ
ما يقدر الله فى مالى وفى ولدى لا بد يدركنى لو كنت بالصين(١)

وأنشد له الحمِيْدى :

فليت ابنَ حَوّاسٍ يُخَبَّر أننى سعيتُ به سَعْىَ امرئٍ غيرِ غافلِ
قتلتُ به تسعين تحسب أنهمْ جذوعُ نخيلٍ صُرِّعتْ بالمسايلِ
ولو كانتِ الموتى تباع اشتريتُه بكفِّى ، وما استثنيتُ منها أناملى

وحكى أبو على الحسين بن أبى سعيد عبد الرحمن بن عبيد القيروانى المعروف بالوكيل فى « الكتاب المُعْرب عن أخبار المغرب » من تأليفه ، أن عُبيدةَ بن عبد الرحمن لما قدم القَيْروان أخذ عمالَ بشر بن صفوان وأصحابَه فحبسهم وأغْرَمهم وتحامل عليهم . وكان فيهم أبو الخطار ، فصنع هذه الأبيات وبعث بها إلى الأبرش الكلبى ، فدخل بها على هشام بن عبد الملك بن مروان فأنشدها ، فغضب هشام . وكان ذلك سبب عزل عبيدة عن إفريقية . قال أبو على : وهذا الشعر مشهور بالمشرق كشهرته بالمغرب ؛ ذكره صاحب « كتاب الخصال » وجاء به بعض المؤلفين فى اختياره ، وأتى به أبو الحسن المدائنى ، وقال : لما أنشده سعيدُ بن الوليد الأبرشُ الكلبى هشامَ بن عبد الملك غضب وشتم عبيدة وقال : « قبح الله ابنَ النصرانية ! » وعزله .

---

(١) الأصل :

ما يقدر الله فى مالى لابد يدركنى وفى ولدى لو كنتُ فى الصين

وورد بصورته الصحيحة التى يستقيم بها الوزن فى الهامش .

١٧ - الصُّمَيْل بن حاتم بن شَمِر بن ذى الجَوْشَن الكلابى الضِّبابى ، أبو جَوْشَن

كان جده شَمِر من أشراف عرب الكوفة ، وهو أحد قَتَلةِ الحسين بن على رضى الله عنهما ، والذى قدم برأسه على يزيد بن معاوية . وقَتَل المختارُ بعد ذلك — حين قام ثائراً بقتلةِ الحسين — جماعةً منهم ، فهرب شَمِر بولده وعياله ولحق بالشام فأقام بها فى عز ومنعة .

وقد قيل إن المختارَ قتل شَمِراً وفرَّ ولدُه / إلى أن خرج كلثوم بن عياض [٢٠ - ا] القُشيرى غازياً إلى المغرب ، فكان الصُّمَيْل ممن ضُرب عليه البَعثُ فى أشراف أهل الشام ، ودخل الأندلسَ فى طاعة بَلْج بن بشر فَلِّ أصحاب كلثوم[1] .

(١) كان هشام بن عبد الملك قد ولى كلثوم بن عياض القشيرى على إفريقية سنة ١٢٣/ ٧٤٠ - ٧٤١ بعد عبيد الله بن الحبحاب ليتلافى أمرها بعد انهزام قوات ابن الحبحاب أمام ميسرة المدغرى فى معركة الأشراف وإقدام جند إفريقية على عزله . وقد دخل كلثوم إفريقية فى جيش عدته ثلاثون ألفاً ، يقال إن عشرة آلاف منهم كانوا من صلب بنى أمية ، وعشرين ألفاً من سائر العرب . « وكان مع كلثوم ابن أخيه بلج بن بشر . وقد انهزم هذا الجيش الكبير أمام خالد بن حميد الزناتى رئيس البربر الذى خلف ميسرة المدغرى . وقتل كلثوم بن عياض ومنافسه حبيب بن أبى عبدة وسليمان بن أبى المهاجر ووجوه العرب . فكانت هزيمة أهل الشام إلى الأندلس، وهزيمة أهل مصر وإفريقية إلى إفريقية » .

وقد نجا بلج بن بشر من المعركة ولجأ إلى سبتة فتحصن بها من البربر ، وظل هناك مع من معه من العرب حتى ساء حالهم واستنجدوا بعبد الملك بن قطن عامل الأندلس ، فأذن لهم بعد أن كادوا يهلكون جوعاً ، واشترط عليهم أن يخرجوا من الأندلس بعد أن يفرغوا من حرب البربر الثائرين عليه فى الأندلس . ولكنهم لم يخرجوا ، وانتهى الأمر بتولى بلج بن بشر أمر الأندلس .

انظر : البيان المغرب ١/ ٥٥ - ٥٦ .

وكان شجاعاً ، نجداً ، جواداً ، كريماً . وهو الذى قام بأمر المضرية فى الأندلس عندما أظهر أبو الخطار الحسامُ بن ضرار الكلبي العصبيةَ لليمانية ، إلا أنه كان رجلا أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكانت له فى قلب الدول وتدبير الحروب أخبار مشهورة .

وحكى أبو بكر بن القوطية فى تاريخه أنه مر بمعلِّم يتلو ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ فوقف يتفهم ، وكان أميًّا لا يقرأ ، ونادى المعلمَ : « يا هناه ! كذا نزلتْ هذه الآية ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فأرى والله أن سيشركنا فى هذا الأمر العبيدُ والأراذلُ والسَّفِلةُ » .

وغلب على أمر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فى ولايته ، وكان معه فى حربه لعبد الرحمن بن معاوية بعد أن ولاه مدينة سَرَقُسْطَة ثم طُلَيْطِلَة ؛ وهو القائل عند ما أغار الطائيُّون على داره بشَقُنْدَة يوم المُصَارة عند انهزام الفهرى واستخلاف عبد الرحمن :

ألا إن مالى عند طيٍّ وديعةٌ ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ
سَلُوا يَمَناً عن فِعل رُمحى ومنصلى فإن سكتوا أثنتْ علىَّ الوقائعُ

أنشدهما أبو بكر الرازى فى تاريخه .

وتوفى الصُّمَيْل فى سجن عبد الرحمن بن معاوية سنة اثنتين وأربعين ومائة .

١٨ — الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى ، أبو جعفر

كان ممن سعى فى القيام بدعوة بنى العباس مع أبى مسلم وحارب معه [عبد الله بن][1] على ، وكان مع أبى جعفر المنصور فى حصار ابن هُبَيْرة

(١) أكملت العبارة على هذا النحو ليتصل السياق . ولم أجد اسم الأغلب بين أنصار أبى مسلم —

وفى قتل أبى مسلم ، ويقال إنه الذى ضربه فأطار يده ، ثم تولى حز رأسه[١] ؛ ووجّهه أبو جعفر المنصور مع محمد بن الأشعث بن عقبة الخزاعى إلى قتال البربر. وهو أول [قدومه إلى][٢] إفريقية ، وكان عاملَ مصر ، وذلك فى سنة أربع وأربعين ومائة . فخرج فى أربعين ألفاً عليهم مائة وثمانية وعشرون قائداً من تحت يد ابن الأشعث ، منهم ثلاثون ألفاً من خراسان وعشرة آلاف من الشام — وقيل ألفان فقط من الشام . وقال المنصور : إن حدث به حدث كان الأغلبُ أميرَهم بعده . فولىَ طُبْنَة / إلى أن خرج ابنُ الأشعث من القَيْرَوان فى شهر [٢٠–ب] ربيع الأول سنة ثمان وأربعين — وكان قد بنى سور القيروان — فبعث أبو جعفر إلى الأغلب عهده بولاية القيروان ، فاستقامت له الأمور . ثم اضطربت بعقب ذلك لخروج أبى قُرَّة البربرى عليه واشتغاله بحربه ، [وخرج][٣] الحسن

الخراسانى ورجاله . وقد أورد الطبرى (طبعة المطبعة التجارية ، القاهرة ١٩٣٩) ج ٦ ص ٥٣ قائمة بأصحاب أبى مسلم وقواده لم أجد من بينهم اسم الأغلب ، ولكنى وجدت مقاتل بن حكيم العكى ، وهو أبو محمد بن مقاتل العكى الذى تولى إفريقية قبل إبراهيم بن الأغلب ، فلعل ذلك هو السبب فى قول المؤرخين أن الأغلب كان من رجال أبى مسلم . وربما كان من صغار رجاله فلم يذكر ضمن القواد والنقباء .

(١) لا وجود لهذا عند الطبرى ، وهو أوسع مرجع لدينا عن قتل أبى مسلم : ٦/١٣٧ .

(٢) عبارة « وهو أول [...] إفريقية » قلقة هنا ، وقد قومتها على هذا النحو للسياق . وعلى أى حال فهاك رواية ابن عذارى فى هذا الموضع ، ويبدو أنه يأخذ من نفس المرجع الذى يعتمد عليه ابن الأبار هنا : « ذكر ولاية محمد بن الأشعث الخزاعى على إفريقية : لما غلبت الصُّفْرية على إفريقية بعد أن قَتَلتْ ورفجومةُ مَن قتلت من قريش وغيرهم ، خرج جماعة من عربها إلى المنصور يستنصرون به على البربر ، ويصفون له ما نالهم منهم . فولى أبو جعفر ابنَ الأشعث مصر ، فوجه أبا الأحوص ، فهزمته البربر ، كما تقدم ، فكتب أبو جعفر إلى ابن الأشعث أن يسير بنفسه ، فخرج إلى إفريقية فى أربعين ألف . الخ » .
البيان ١/٧٢ (وكان ذلك سنة ١٤٤/٧٦١ – ٧٦٢) .

(٣) أضفت هذه الكلمة للسياق .

ابن حرب الكندى عليه ، وخاطب القواد مُضَرِيًّا[١] فلحق به منهم جماعةٌ وهو بتونس ، فأقبل إلى القيروان فدخلها . وبلغ الخبرُ الأغلبَ فأقبل فى عدة يسيرة ممن أطاعه ، وكتب إلى الحسن :

ألا مَن مُبلِغٌ عنى مقالا يسير به إلى الحسن بن حربِ
فإنَّ البَغْىَ أبعدُه وبالٌ عليك وقربه لك شر قربِ
فإن لم تدْعُنى لتنالَ سَلْماً وعفوى فادْنُ من طَعْنى وضربى[٢]

فقصد الحسنُ الأغلبَ ، فاقتتلوا قتالا شديداً انهزم الحسنُ عنه وكرَّ راجعاً إلى تونس ، ودخل الأغلبُ القَيْرَوان . ثم زحف الحسنُ إليه ثانيةً ، وخرج الأغلبُ من « باب أصْرَم »[٣] فتواقف الفريقان ، فبرز الأغلب وقال :

(١) الأصل : مضربا ، وقد صوبتها هكذا للسياق ، وكذلك فعل مولر . وإليك توضيحاً لهذه الأحداث نقلا عن ابن عذارى (البيان : ١/٧٤) :

« وفى سنة ١٥٠ ثار الحسن بن حرب الكندى بالقيروان على الأغلب بن سالم ، وسببه ذلك أن أبا قرة الصفرى خرج فى جمع كبير من البربر ، فسار إليه الأغلب فى عامة القواد الذين معه ، وخلف على القيروان سالم بن سوادة . فلما علم أبوقرة أن الأغلب قرُب منه هرب ، وتفرق أصحابه ، وقدم الأغلب الزاب ، وعزم على الرحيل منه إلى تلمْسان ، قاعدة زناتة ، ثم إلى طنجة . فكرهَ الجندُ المسير معه ، وقالوا : « قد هرب أبوقرة الذى خرجنا إليه » وجعلوا يتسللون عنه إلى القيروان ، فلم يبق معه إلا نفر يسير من وجوههم . وكان الحسن بن حرب بتونس ، فلما خرج الأغلب يزيد أبا قرة ، كاتَبَ جميعَ القواد ، فلحق به بعضهم ، وأقبل معهم إلى القيروان ، فدخلها ، وأخذ سالم بن سوادة عاملها ، فحبسه . وبلغ الخبرُ الأغلبَ ، فأقبل فى عدة يسيرة ، وكتب إليه يعرفه بفضل الطاعة ووبال المعصية ، فأعاد الجوابَ إلى الأغلب ، وفى آخره :

ألا قولوا لأغلبَ غيرَ سوءٍ مُغَلْغَلةً عن الحسنِ بن حربِ
بأن البغى مرتعــــه وخيم عليك ، وقربه لك شر قربِ
فإن لم تنثن لتنـــــال سلمى وعفوى ، فادن من طعنى وضربى

(٢) واضح أن الأبيات الواردة فى الهامش السابق رد على هذه الأبيات . ويلاحظ القارئ تشابه شعر الأغلب وشعر الحسن بن حرب على هاتين الروايتين . والحقيقة أن ابن عذارى أخطأ فجعل أبيات ابن الأغلب للحسن بن حرب ، أما أبيات هذا فترد فى ترجمته التالية .

(٣) من أبواب القيروان المعروفة .

أغدو إلى الله بأمرٍ يَرْضاهُ [لا خير فى ... ...]
إن يَهْوَنِي الموتُ ، فإنى أهواه كلُّ امرئٍ يلقى يوماً [...][1]

ثم شدَّ على الميمنة فى أصحابه ، فكشفها ، وانصرف إلى موقفه وهو يقول :

أضربُ فى القومِ ، ومثلى يضربُ فإن [يكن حرْباً] فإنى الأغلبُ
لا أجزعُ اليومَ ولا أكذبُ[2]

ثم شدَّ على الميسرة ، ففعل مثلَ فعله فى الميمنة ، وانصرف وهو يقول :

لم يبقَ إلا القلبُ أو أموتُ إنْ تَحْمِ لى الحربُ فقد حَميتُ
وإن توليْتُ فما بَقيتُ

ثم حمل على القلب ، فلم يُثْنَ حَدُّه ، حتى قُتل بسهم رُمى به ، وذلك فى شعبان سنة خمس ومائة .

وبلغ المنصورَ موتُه فقال : « إن سيفى بالمغرب قد انقطع ، فإن دفع الله عن المغرب بريح دولتنا وإلا فلا مغرب » . وقال الحكم بن ثابت السعدى من ولد سلامة بن جندل يرثى الأغلب :

لقد أفسد الموتُ الحياةَ بأغلبٍ غداةَ غدا للموت فى الحرب مُعْلِماَ
تبدَّتْ له أم المنايا فأقصدتْ [فتى حين] يلقى الموتَ فى الحرب صَمَّماَ[3] [٢١ - ١]
أخا غزواتٍ ما تزال جيادُهُ تُصَبِّحُ عنه غارةً حيث يمَّما
أتته المنايا فى القنا فاخترمْنَهُ وغادَرْنَهُ فى مُلتقى الخيل مسلَما
كأن على أثوابه من دمائهِ عَبيطاً ، وبالخدَّيْن والنَّحْرِ عَنْدَما
فبَاتَ شهيداً نال أكرمَ ميتةٍ ولم يَبْغِ عُمراً أن يطول ويسقُما

(١) وردت هذه الأبيات فى سياق النثر ، ولم ينتبه الناسخ إلى أنها شعر .
(٢) الشطر الأخير من هذا الرجز مكسور . وقد أضفت ما بين حاصرتين فى الشطر الثانى للسياق والوزن ، وظاهر أنه يخاطب الحسن بن حرب ، ومن هنا أخذت عبارة « يكن حربا » .
(٣) ورد الشطر ناقصا فى الأصل فأكملته بما يقيم الوزن .

١٩ ــ الحسن بن حرب الكِندى

كان بتونس ، فقام على الأغلب بن سالم ــ حسبما تقدم خبره ــ وخالفه وسار إلى القيروان فلم يدفعه أحد عنها حتى دخلها . و بلغ أبا جعفر المنصور تنازعهما ، فكتب إلى الحسن بن حرب يحضه على الطاعة . وكان من كبار القواد وأبطال الفرسان بإفريقية ؛ وهو القائل يجيب الأغلب عن أبياته المذكورة قبلُ :

ألا قولا لأغلبَ غيرَ سِرٍّ مُغلغَلة عن الحسن بن حربِ
بأنَّ الموتَ بينكمُ و بينى وكأسُ الموت أكره كلِّ شِربِ
رويدكمُ ، فيومكمُ ويومى ــ وإن بَعُدا ــ مصيرهما لقُربِ

ثم تقاتلا بعد ذلك ، فقُتل الأغلبُ وصاح صائح : « مات الأمير! » . وكان سالم بن سوادة التميمى فى الميمنة ، وهو ابن عم الأغلب ، فقال : « لا أنظر إلى الدنيا بعد اليوم » . ووقع فى عسكر الحسن الصياح : « مات الأمير ! » فظُنَّ أن الحسن هو المقتول ، فولوا منهزمين ، وركبهم سالمُ بن سوادة والمخارق بن غفار الطائى بالسيف ، فقتل من أصحاب الحسن مقتلة عظيمة ، واتُّبع هو فقُتل بتونس . و يقال إنه أتوا به مقتولا إلى القيروان ، فصلبه المخارق يومَ السبت آخر يوم من شعبان سنة خمسين ومائة .

٢٠ ــ يزيد بن حاتم بن قَبيصة بن المهلب بن أبى صُفرة الأزدى العتكى ، أبو خالد

وَلى إفريقية فى خلافة أبى جعفر المنصور ، فأصلحها ورتّب أمر القَيْرَوان

وجدَّد أمر المسجد / الجامع . وكان غايةً في الجود مُمَدَّحًا ، كثيرَ الشبه بجده [٢١-ب] المُهَلَّب فى حروبه ودهائه وكرمه وسخائه ، خاصًّا بأبى جعفر المنصور ، وكان لا يُحجب عنه . ووَلِىَ ولاياتٍ كثيرةً قبل قدومه إلى المغرب ، منها : أرمينية ، والسِّند ، ومصر ، وأذربيجان وغير ذلك .

وقدم إفْرِيقِيَّةَ من مصر — وكان واليًا عليها — فى ذى الحجة سنة أربع وأربعين ومائة إلى سنة اثنتين وخمسين[1] . وحُكى عنه [أنه] قال : لما ولانى أبو جعفر دخلتُ عليه فقال لى : « يا [أبا] خالد ، بادر النيل قبل خروج الرايات الصُّفْر وأصحاب الدواب البُتْر »[2] .

---

(١) تولى يزيد بن حاتم مصر من يوم الاثنين ١٥ ذى قعدة ١٧/١٤٤ مارس ٧٦٢ إلى يوم السبت ١٨ ربيع الآخر ٣/١٥٢ مايو ٧٧٠ .

انظر : أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب بالقاهرة) جـ ٢ (١٩٣٠) ص ١ وما يليها .

(٢) المراد بهذه الإشارة هنا العلويون ، وكان أبو جعفر المنصور مهموماً بأمرهم خلافتَه كلَّها ، وعلى رغم ما أنزل بهم من مقاتل وبأنصارهم من أذى وتعذيب فقد ظل متخوفاً منهم إلى آخر أيامه . وكان أنصار العلويين فى مصر كثيرين ، فكان المنصور يخشى أن يثبوا بها ، فبادر إلى عزل حُمَيْد بن قحطبة وأرسل يزيد بن حاتم ، وكان من أقدر ولاته وأقربهم إلى نفسه . وقد كان أبو جعفر محقاً فى تخوفه ، فنحن نقرأ عند أبى المحاسن : « وفى أيام يزيد بن حاتم المذكور ظهرت بمصر دعوة بنى الحسن بن على بن أبى طالب ، وتكلم بها الناس ، وبايع الكثير منهم لبنى الحسن فى الباطن ، وماجت الناس بمصر ، وكاد أمر بنى الحسن أن يتم ، والبيعة كانت باسم على بن محمد بن عبد الله (بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . وعلىّ هذا هو ابن محمد النفس الزكية الذى قتله المنصور فى المدينة وأخاه إبراهيم فى البصرة سنة ١٤٥) .

وبينما الناس فى ذلك قدم البريد برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة ، فنصب فى المسجد أياما » . (أبو المحاسن ٢/١ - ٢) .

وقد بلغ من خوف يزيد بن حاتم من دعاة العلوية أن منع أهل مصر من الحج سنة ١٤٥ هـ . ولم يوفق يزيد بن حاتم فى القضاء على دعوة العلوية فى مصر ، فعزله المنصور سنة ١٥٢ وأقام مكانه عبد الله بن عبد الرحمن حفيد معاوية بن حديج زعيم العثمانية فى مصر وعدو على بن أبى طالب أثناء الصراع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان .

ثم استقدمه — بعد أن قُتل عمر بن حفص المُهَلَّبي — فولاه إفريقية والمغرب وشيّعه إلى فلسطين ، فحسده الأمراء والرؤساء . وكان المنصور يقول : « ما أخطأت فى شيء من تدبيرى إلا فى ثلاثة أشياء : تشييع يزيد بن حاتم . . أرأيت لو نكث ، أكان يحسن بى أن أرجع ، أو كان يحسن بى أن ألقى الجيش بنفسى ؟ ويومَ الراوندية[1] وقوفى على باب الذهب . . أرأيت لو أن رجلا رمانى بسهم ، أليس دمى كان يذهب ضياعاً ؟ وقتلى أبا مسلم وأنا فى الخرق[2] ، ومعه أهل خراسان ثلاثون ألفاً يعبدونه من دون الله » .

وفى يزيد هذا يقول ربيعة بن ثابت الرَّقِّى من بنى أسد — وقد وفد عليه — أبياته السائرة فى الناس إلى اليوم :

لَشَتَّانَ ما بين اليزيدَين فى الندى ... يزيدُ سُلَيمٍ والأغرِّ بنِ حاتمِ

يزيدُ سُليمٍ سالَمَ المالَ ، والفتى ... أخو الأزدِ للأموال غير مُسالمِ

فَهَمُّ الفتى الأزدىِّ إتلافُ ماله ... وهمُّ الفتى القيسىِّ جمعُ الدراهمِ

فلا يحسب التَّمتام أنى هَجَوْتُه ... ولكننى فضَّلتُ أهلَ المكارمِ

يريد بالتَّمتام — وهو المتردد فى التاء — يزيدَ بن أُسَيْد السلمى . سمّاه المبرد ، وهى من قصيدة حسنة يقول فيها :

أبا خالدٍ أنتَ المنوَّهُ باسمه ... إذا نزلتْ بالناس إحدى العظائمِ

كفيتَ بنى العباس كلَّ عظيمةٍ ... وكنتَ عن الإسلام خيرَ مزاحمِ

---

(١) الراوندية جماعة من شيعة فارس ينسبون إلى راوندقرب أصفهان ، أسرفوا فى تشيعهم لعلى بن أبى طالب حتى قالوا إن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم حلت فيه ، ودعوا إلى تأليه الأئمة ، وذهبت جماعة منهم إلى عبادة أبى جعفر المنصور ، وقد حاربهم المنصور وقتل منهم كثيرين وحبس كثيرين أيضاً فى سجون بغداد ، فاجتمعوا فى السجن وكسروا أبوابه ، وخرجوا واتجهوا إلى قصر المنصور ، فخرج إليهم بنفسه ، فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه لولا أن أنقذه معن بن زائدة الشيبانى . وقد كافأه المنصور على ذلك بولاية اليمن . وإلى يومه هذا مع الراوندية يشير هنا . (راجع الطبرى ، ج ٦ ص ٣٠٧ وما بعدها)

(٢) أى وأنا فى وقت ثورة واضطراب .

ويقال إن ربيعة لما مدحه بهذه القصيدة استبطأ بِرَّه وصِلَتَه فقال :

/ أراني — ولا كفرانَ لله — راجعاً بخُفَّىْ حُنَيْنٍ من يزيد بن حاتم [٢٢-١]

فبلغ ذلك يزيدَ ، فدعا به وقال : « انزعوا خفيه » ، فنُزعا وهو خائف من عقوبته على ذكره خفى حنين ، فملأهما له دراهم ودنانير — وكانا كبيرين كأخفاف الجند — ثم وصله بعد ذلك بصلاتٍ جزيلة . وهذه القصة(١) شبيهة بقصة أبي العتاهية مع عمر بن العلاء(٢) حين امتدحه بقصيدته التي يقول فيها :

إنى أمِنْتُ من الزمان ورَيْبِهِ لما عَلِقْتُ من الأمير حبالاَ
لو يستطيعُ الناسُ من إجلالهِ لَحذَوْا له حُرَّ الخدودِ نعالا
ما كان هذا الجودُ حتى كنتَ يا عمرُ ، ولو يوماً تزولُ لزالا
إنّ المطايا تشتكيك لأنها قطعتْ إليك سَبَاسِباً ورمالا
فإذا وَرَدْنَ بنا وَرَدْنَ مُخِفَّةً وإذا صَدَرْنَ بنا صدرْنَ ثِقالا

فتأخر عنه بِرُّه قليلا ، فكتب إليه يستبطئه :

أصابتْ علينا جُودَكَ العينُ يا عُمَرْ وعزَّ لِمَا نبغى التمائمُ والنشَرْ
سنَرْقيك بالأشعار حتى تملَّها فإن لم تُفِقْ منها رقيناك بالسُّوَرْ

وقال أيضا :

يا ابنَ العلاء ويا ابنَ القَرْمِ مِرْداسِ إنى لأُطريك فى صَحْبِى وجُلاّسِى
أُثنى عليك — ولى حال تكذّبنى فيما أقول — فأستحيى من الناس
حتى إذا قيل : ما أعطاك من صَفَدٍ ؟ طأطأتُ ، من سوءِ حالى عندها ، راسى

فأمر حاجبَه أن يدفع إليه المال ، وقال : « لا تدخله علىّ فإنى أستحى منه » . ورُوِى أنه وصله عليها بسبعين ألف درهم ، فحسدته الشعراء وقالوا : « لنا بباب

(١) الأصل : القصيدة .

(٢) هو عمر بن العلاء ، معتوق عمرو بن حُرَيْث (انظر : الأغانى : ٣/٤٤ و١٣٧)

الأمير أعوام نخدم الآمال ما وصلنا إلى بعض هذا » ، فاتصل ذلك به فأمر بإحضارهم وقال : « قد بلغني الذى قلتم . وإن أحدكم يأتى فيمدحنى بالقصيدة يشبِّب فيها ، فلا يصل إلى المدح حتى تذهب لذة حلاوته ورائق طلاوته . وإن أبا العتاهية أتى فشبَّب / بأبيات يسيرة ، ثم قال : إن المطايا تشتكيك » ، وأنشد الأبيات . [٢٢ - ب]

ومن شعر يزيد بن حاتم :

ما يألف الدرهمُ المضروب خِرقَتنا إلا لَمَامًا قليـــلا ، ثم ينطلقُ
يَمُرُ مَرًّا عليها وهى تَلْفِظُـــهُ إنى امروٌ لم يُحَالِفْ خِرْقَتى الوَرِقُ(١)

وتوفى فى شهر رمضان سنة سبعين ومائة .

٢١ ــ الفَضْل بن رَوْح بن حاتم بن قَبِيصة بن المُهَلَّب(٢)

ولاه الرشيد إفريقيةَ ، فقدم على القيروان فى المحرم سنة سبع وسبعين ومائة ، ويقال إنه لم يَلِ إفريقيةَ أجملُ منه ومِن أبى العباس عبد الله بن إبراهيم ابن الأغلب .

---

(١) وردت هذه الأبيات أيضاً فى البيان المغرب لابن عذارى (١/٨١)

(٢) هذا خامس رجل من آل المهلب يتولى أمر إفريقية للعباسيين . والحقيقة أنه منذ قتل الأغلب بن سالم بن عقال فى سنة ١٤٨/٧٦٥ إلى ولاية ابنه إبراهيم سنة ١٨٤/٨٠٠ ، أى إلى بدء الدولة الأغلبية ، كانت إفريقية فى يد رجال من بيت المهلب بن أبى صفرة فيما عدا فترات قصيرة جداً . وهذا البيت الذى تولى مصائر إفريقية خلال أعصب فترة مرت بتاريخها قبل الأغالبة جدير بدراسة وحده ، فقد كان رجاله عرباً خلصاً تتمثل فيهم صفات العرب الأولى فى أجلى صورها . كانوا شجعاناً كرماء ذوى ثبات وحزم وعزم ، وكانوا إلى جانب ذلك ــ وتلك هى الناحية السلبية من خلقهم ــ متهاونين لا ينظرون إلى بعيد ، ولا يفكرون فى خطة بعيدة المدى لتلافى الأخطار التى أحاطت بإفريقية على أيامهم ، إنما كانوا ينتظرون حتى تشتد الأزمة ويعظم الخطر فيهبون لدفعه فى بسالة وعزم وذكاء وحيلة ، ولم تكن تلك هى السياسة ــ

واستعمل على تونس المغيرةَ بن بشر بن روح ابن أخيه ، وكانت تونس نظيرة القيروان حتى إن أبا جعفر المنصور كان يقول : « ما فعلت إحدى القيروانَيْن ؟ » ، يعنى تونس .

وكان المغيرةُ غِرًّا لا تجربةَ له بالأمور ولا معرفةَ بتصاريفها ، فاستخفّ بالجند وسار فيهم بما أنكروه ، فكتبوا إلى الفضل بذلك فلم يعزله عنهم ، فقدَّموا — فى قصة طويلة — عبدَ الله بن الجارود العبدى[1] وأخرجوا المغيرة .

وكتب ابنُ الجارود إلى الفضل : « إلى الأمير الفضل بن روح من عبد الله ابن الجارود . أما بعد ، فإنّا لم نُخرج المغيرةَ إخراجَ خلافٍ عن الطاعة ، ولكن لأحداث فيها فسادُ الدولة . فوَلِّ علينا من نرضاه ، وإلا نظرنا لأنفسنا . ووَاسِنا بالأسلاف[2] كما كانت الولاةُ تصنع بنا قبلك ، وإلا فلا طاعةَ لك علينا » . وكتب فى أسفل الكتاب :

= الكفيلة بتأمين بلد استعرب أهله وأيقظ الإسلام فيهم وعياً بعيد المدى حفزهم على طلب الحكم والرغبة فى الاستئثار به وإقامة دول عربية مستقلة . وقد قام تفكير الكثيرين منهم على مبادئ الإباضية ، وهى دعوة خارجية سياسية ترمى إلى إنكار حق الاستئثار بالحكم والخلافة على بيت معين ، وتجعل الحكم ولاية يتولاها الأصلح بتراضى المسلمين ، وتدعو من ناحية أخرى إلى التعاون والتآخى بين أفراد الجماعة الواحدة . ولم يسر زعماء الإباضية على هذه المبادئ ، وإن كان أتباعها قد طبقوها فيما بينهم وأنشأوا جماعات عربية إسلامية من التجار والزراع والصناع ، كما نرى عند إباضية جِرْبَة . وكان من الطبيعى ألا يستطيع ولاة بنى العباس من آل المهلب الثبات طويلا أمام جماعات الإباضيين ، وكان أكبر ما أضعف الولاة حرص خلفاء بنى العباس على تقصير مدد ولاتهم خوفاً من وثوبهم . وقد تبين بنو العباس خطأهم فى ذلك ، وانتهوا إلى ترك إفريقية فى يد إبراهيم بن الأغلب وأولاده تحت طاعتهم ، وبهذا بدأ عصر جديد فى التاريخ السياسى لإفريقية الإسلامية .

(١) هو عبد الله بن الجارود بن عَبْدُوَيْه . وقد وهم ناشر ابن عذارى فجعله عبد ربه .

(٢) الأسلاف هنا مصطلح خاص لم أجد له تعريفاً فيما بين يدىّ من المراجع ، ولكنى فهمت من التفصيل الطويل الذى يقدمه النويرى عما وقع بين الفضل بن روح وعبد الله بن الجارود بن عبدويه أن الأسلاف كانت معاونات مالية يرسلها الولاة إلى الظاهرين من أهل النواحى =

ألا مَن مُبلغٌ الفضلَ بنَ روحٍ وصِـــدقُ القولِ زَيْنٌ للرجالِ
بأنك حين ولَّيْتَ ابنَ بِشْرٍ علينا غـــيرُ محمودِ الفِعالِ
فوَلِّ سِواهُ أو كنْ رهنَ حربٍ تُغَصُّ بها على الماء الزلالِ
وإن لم تعطنا الأسلافَ طوعاً أجَبْتَ لها بِكَرْهٍ بالعوالِي[1]

فأجاب الفضلُ عن ذلك يرميهم بالخلاف، ويُؤيسُهم من الأسلاف، وكتب فى آخر كتابه :

[٢٣-ا] / أتانى عنك ما ستنالُ منهُ وبالاً إن عَصَيْتَ على العِقالِ
فإنْ تَرجعْ تنلْ سَلْماً وأمناً وإن تجمحْ فلستَ بمُستَقالِ
وإنَّ لِمَنْ أطاع عليك فضلا كفضلِ يد اليمين على الشمال
ولستَ بمدركِ الأسلاف حتى تناوَلَهُنَّ قسْراً بالعَوَالى

ثم بعث عبدَ الله بن يزيد المهلبى والياً وضم إليه كثيراً من أصحابه. فأخرج ابنُ الجارود جماعة يختبرون ما قَدِموا له، ونهاهم عن الحرب. فلقوهم بسِبخَةِ تونس فقُتِل عبدُ الله — فى خبر يطول ذكره — وأُسر القوادُ الذين معه. وأدى ذلك إلى محاربة الفضلِ بالقيروان، فغُلب عليها فى جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين

=ورؤساء جماعاتها ليظلوا إلى جانب الولاة فى صراعهم مع الثائرين عليهم. وقد قطعها الفضل بن حاتم وواليه على تونس المغيرة بن بشر بن روح، وهو ابن أخى الفضل.

انظر: النويرى، نهاية الأرب، الجزءان الخاصان بإفريقية والأندلس، نشرهما ماريانو جاسپار ريميرو فى :

Revista del Centro de Estudios Históricos de Granada y su Reino. Granada.

ابتداءً من العدد الرابع (المجلد الخامس) سنة ١٩١٥. والقطعة الخاصة بالحوادث التى نشير إليها واردة فى العدد الثانى من المجلد السابع (سنة ١٩١٧) ص ١٢٧ — ١٤١.

وسنشير إلى هذا المرجع من الآن فصاعداً بعبارة: نهاية الأرب للنويرى.

(١) الأصل: بالعوال. والعوالى هى السيوف.

ومائة ، وسُيِّر فى أهل بيته ، ثم استُرجع من طريقه وهو متوجه إلى قابس ، فحُبس مع رَجُلين من أصحابه ، ثم دخل عليه الجند فقتلوه فى محبسه . ومن شعر الفضل :

ومارَسْتُ هذا الدهرَ خمسين حجةً وَنِصفاً أُرَجِّى قابِلاً بعدَ قابلِ
فلا أنا فى الدنيا بلغتُ جسيمَها ولا فى الذى أهوَى كَدَحْتُ بطائل
وقد أشْرَعَتْ فينا المنايا أكُفَّها وأيقنتُ أنِّى رهنُ موتٍ مُعاجل

٢٢ — سعيد بن يزيد بن حاتم المهلبى

لما عَظُم على الفضل بن روح أمرُ ابنِ الجارود وخروجه عليه بتونس وزحْفه إليه ، جمع أهل بيته وقال : « ما ترون فى هذا الأمر الذى لا يخُصُّنى دونكم ؟ » فكثرت الآراء ، فقال ابن عمه سعيد : « أطِعْنى اليومَ واعصَنى فيما يستأنف . سُدَّ أبوابَ المدينةِ كلَّها إلا باباً واحداً ، ونُدخل ما يحتاج إليه الحصارُ سنةً . فوالله لكأنى أنظُر — إن لم تفعلْ ذلك — قد دُخِل عليك من آمَنِها عندَك » . وقال فى ذلك يخاطب الفضل :

أرى الحربَ قد مدتْ إلينا بِساقِها وقلبُك يقظانٌ شبيهٌ بنائمِ
فخذ لِنُهود الحرب أهبةَ يومِها وشمِّرْ لها الأذيالَ قبلَ التنادم
/فإن كنتَ تحمى الحَرْبَ فاشددْ لها القُوَى تنلْ ظفراً ، أو تلقَ موتَ الأكارم [٢٣-ب]
فليس يُريدُ القومُ إلا نفوسَنا أو النَّفْىَ عنها يا ابنَ روحٍ بن حاتم

وقال أيضا :

ألا قُلْ لفضلٍ إنَّنى لك ناصحٌ فلا تسمَعَنْ مما يُشير ابنُ واقدِ[1]

فإنك إن تسمعْ لأقواله تَعُدْ إلى أسَدٍ فى كُبَّةِ الخيلِ لا بِدِ

ستذكر قولى حينَ ليس بنافعٍ إذا شَمَّتِ الأرماحُ نحرَ القلائدِ

نخالفه الفضلُ فكان ما تقدم من أمره .

٢٣ — أخوه عبد الله بن يزيد بن حاتم

كان مع ابن عمه الفضل بن روح بن حاتم فى حروبه بإفريقية ، ثم قُرِفَ عنده بممالأة عدوه الخارج عليه ابنِ الجارود المعروف بعَبْدُويَه ، فنغل صدرُ الفضلِ عليه حتى كتب إليه :

أرى ألسُنَ الحسادِ فيك كأنها سهامٌ تهاوى من قِسِىٍّ نِصالِ

(١) لم أستطع التعرف على ابن واقد هذا ، ولكن يغلب على ظنى أن المراد به محمد بن يزيد الفارسى ، وكان أول الأمر من رجال الفضل بن روح بن حاتم ، وكان سعيد بن يزيد بن حاتم يشك فيه ويحذر عمه الفضل منه . وقد كان اختلاف آراء رجال الفضل سبب ضياع أمره ، وقد أشار ابن عذارى إلى ذلك بقوله بعد أن ذكر القتال الأول بين الفضل وابن الجارود وحصار هذا الأخير للقيروان : « فاجتمع الفضل مع بنى عمه وخاصته ، وتشاور معهم فى أمره فاضطرب الأمر عليه ، ولم يصح له أمر » . وقد انتهى الأمر بدخول ابن الجارود القيروان واستيلائه على الأمر ، ثم أخرج الفضل وأصحابه فى حراسة نفر من رجاله ليخرجوه من حدود إفريقية ، ولكن ابن الجارود قتله بعد ذلك فى شعبان سنة ١٧٨/ أكتوبر ٧٩٤ (ابن عذارى : ١ / ٨٨ — ٨٩) . وقبيل قتله حاول محمد بن يزيد الفارسى (وأظن أنه ابن واقد) الدفاع عن نفسه ، وأشار على رجال ابن الجارود بألا يقتلوه ، فلم يسمعوا له . (النويرى ١٢٧ — ١٢٩) .

يقولون قد كاتبتَ عَبْدُوىَ[1] فى التى إذا نالها أولئكَ شرٌّ وبالِ
وقالوا وعدتَ القومَ عندَ لقائهم رجوعاً عن الهَيْجا بغير قتال
وليس الذى مَنّاكَ عَبْدُوىُ كائناً فدعْهُ ولا تركنْ لقولِ ضلال
ألا إننى لم أمسِ فيكَ مُصَدِّقاً لأقوالهم ، والصدقُ خيرُ مقال

فلما وردت الأبيات على عبد الله علم أنه اتهمه ، فأجابه بقوله :

لَعَمْرُكَ لولا ما اتَّهمتَ لما أتَتْ قوارضُ أبداهُنَّ شَرُّ مقالِ
أظنَّ ابنُ روحٍ أننى كنتُ قاطعاً يمينى التى أسطو بها بشمالى[2]
وهَبْنى تناولتُ التى كنتَ خِفْتَها فكيف اعتذارى فيك بعد فِعالى[3]
فلا تحسبَنِّى مُسلِماً إن لقيتهمْ لأسيافهم ظهرى بغير قتال

فقال الفضل عند قراءة جوابه : « لو كان حسادنا يتركون البَغْىَ على حال لتركوه على مثل حالنا هذه » . ثم أخرجه إلى قتال عَبْدُويَه بن الجارود فهزمه عبدُ الله بن يزيد ، ثم عاوده الحرب فهزمه عبدُويَه / وانصرف عبد الله إلى [٢٤-١]

---

(١) المراد هنا عبد الله بن الجارود بن عَبْدُويَه الذى أشرنا إليه ، وقد كان عدوَّ الفضل ابن روح وزعيم الخارجين عليه ، وتمكن من قتله وإخراج بقية بنى المهلب من إفريقية وتولاها سبعة أشهر انتهت فى ربيع الآخر سنة ١٧٩/ يونيو ٧٩٥ بقدوم هرثمة بن أعين أميراً على إفريقية من قبل الرشيد . وقد قص النويرى أعمال ابن الجارود إلى خروجه من إفريقية بتفصيل (١٢٧ - ١٣١) .

هذا وضبط اسم عَبْدُوى على هذه الصورة فى شعر الفضل وابن عمه عبد الله يدل دلالة واضحة على أن الاسم كان ينطق عَبْدُويَه متابعة للنطق الفارسى ، لا عَبْدَوَيْه كما تعودنا أن نقرأ . وهذا يؤيد ما ذهب إليه المستشرق إينو ليتمان من أن الأسماء التى تنتهى بـ « ويه » -مثل سيبويه- ينبغى أن تنطق سيبُويَه ونفطُويَه وخالُويَه . وهكذا كان العرب ينطقونها كما ترى فى هذا الشعر .

(٢) فى الأصل : بشمال .

(٣) فى الأصل : بفعال .

القيروان مفلولاً ، فكان مع ابن عمه الفضل إلى أن تكلّب عليه ابنُ الجارود ، ثم قتله بعد أن استرجعه من طريقه ، وأطلق عبد الله بن يزيد وأمره وأخاه المهلب بن يزيد ونصر بن حبيب وجماعتهم بالتجهز والخروج من إفريقية ، فخرجوا إلى المشرق .

٢٤ — سليمان بن حميد الغافقى ، أبو داوود(١)

فارس العرب قاطبة بالمغرب فى عصره ، وأحسن الناس لسانا ، وأبلغهم إلى معرفةٍ بأيامِ العربِ وأخبارِها ، وروايةٍ لوقائعها وأشعارها ، مع دعابة كانت فيه وعبثٍ لا يدعه ؛ حُملتْ عنه فى ذلك نوادر مستطرفة وحكايات مستملحة .

وخافه عبدُ الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فسجنه وأخاه محمداً ، ولم يكن بِدُونِهِ . وكان محمد — وهو أكبر من سليمان — والياً على الأُرْبُس ، فثار على عبد الرحمن بن حبيب . وسرحهما إلياس بن حبيب — حين قتل أخاه عبدَ الرحمن(٢) — ووَلِىَ إفريقيةَ بعده ، واستعان بهما فى ذلك وعاش

(١) فرغ ابن الأبار بعد الترجمة لعبد الله بن يزيد بن حاتم من أمراء العصر الأول فى المغرب والأندلس الذين روى لهم شعر ، وبدأ بعد ذلك بالترجمة لمن عاصرهم من وجوه الناس ، ممن أثر عنه شعر ، وبدأ بسليمان بن حميد الغافقى هنا ، وكان معاصراً لعبد الرحمن بن حبيب الذى سنتحدث عنه فى التعليق التالى .

(٢) عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى مغامر كبير قضى عمره كله فى طلب الولاية والفتن والقلاقل فى الأندلس والمغرب . وقد ظهر أمره بعد مقتل كلثوم ابن عياض القشيرى فى معركة حامية دارت بينه وبين خالد بن حميد الزناتى خليفة ميسرة المدغرى وأنصارهما من الإباضيين والصُّفْريين . وكان أبوه حبيب بن أبى عبيدة يتولى قتال خالد بن حميد الزناتى قبل أن يأتى كلثوم ويتولى القيادة دونه ، فنقم حبيب بن أبى عبيدة واختلف مع كلثوم ابن عياض القشيرى ، وكانت النتيجة انهزام كلثوم ومقتله وفرار حبيب بن أبى عبيدة إلى =

سليمان [... ...](1) يزيد بن حاتم المهلبى فقصدوا قَسْطِيلِيَة . وهو القائل فى يوم أبى زرجونة(2) :

وما إن صددنا عنهُمُ خوفَ بأسِهِمْ ... وحاشا لنا أن نتقى بأسَ بَرْبَرَا

وإنا إذا ما الحربُ أُسْعِرَ نارُها ... لَنَلْقَى المنايا دارعِين وحُسَّرَا

ونغدُو بصبرٍ حين تشتجرُ القَنا ... فلستَ ترى منا على الموت أصبرا

ولكنْ أردنا ذلَّ قومٍ تطاولوا ... علينا وأبدوا نخوةً وتكبرا

= إفريقية بطائفة من فل الجيش وفرَّ بلج بن بشر ابن أخت عياض بطائفة أخرى إلى الغرب حيث تحصنوا بسبتة كما روينا . وفى أثناء ذلك هرب عبد الرحمن بن حبيب إلى الأندلس ، وحاول الوصول إلى السلطان فيها ففشل ، فعاد إلى إفريقية فى جمادى الأولى سنة ١٢٧ ، وجمع نفراً من أنصار بيته — بيت عقبة بن نافع — وسار لمقاتلة حنظلة بن صفوان الذى تولى أمر إفريقية فى ربيع الآخر سنة ١٢٤ . وقد رأى حنظلة من سوء فعل عبد الرحمن وقلة تورعه عن أى عمل للوصول إلى السلطان ما جعله يمل العمل فى إفريقية فتركها فى جمادى الآخرة سنة ١٢٧/ مارس ٧٤٥ وانفرد بأمرها عبد الرحمن بن حبيب ، وثار عليه معظم رؤسائها ، فخاض معهم حروباً طويلة انتصر فيها ، وتمكن من أن يستصدر من مروان بن محمد أمراً بإقامته والياً على إفريقية والأندلس . ولما انتقل الأمر إلى العباسيين دخل فى طاعة أبى عبد الله السفاح ثم انقلب عليه . وكان يعينه فى ذلك كله إخوته إلياس وعمران وعبد الوارث . ثم اختلف مع أخويه إلياس وعبد الوارث ، فدبرا اغتيال أخيهما عبد الرحمن وإعادة الدعوة لبنى العباس ، وتمكنا من قتله . وتولى الأمر إلياس بن حبيب ، ولكن حبيباً ابن أخيه عبد الرحمن لم يسكت لمقتل أبيه وانضم إليه عمران ، ودارت رحى حرب طويلة انتصر فيها حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب على عمه إلياس وقتله ، وتولى أمر إفريقية . وهرب عبد الوارث أخو إلياس وحليفُه إلى قبيلة من البربر تسمى وَرْفجومة وأثارها على حبيب بن عبد الرحمن ، ولم يستطع هذا الثبات لورفجومة وزعيمها عاصم بن جميل ، فانهزم وقتل فى المحرم سنة ١٤٠/مايو ٧٥٧ . « وكانت ولاية عبد الرحمن ابن حبيب ١٠ سنين وأشهرا ، وولاية إلياس ٦ أشهر ، وولاية حبيب بن عبد الرحمن سنة واحدة و٦ أشهر » . النويرى : ٤١ —

(١) بياض بالأصل ، يمكن ملؤه بعبارة مثل « وبنوه إلى أيام » .

(٢) لم أجد تعريفاً بهذا اليوم فيما بين يدىّ من المراجع .

٢٥ — عبد الله بن الجارود العَبْدى ، ويقال له عَبْدُوَيه

لما غَلب على القيروان ، وأخرَج الفضلَ بن روح ثم رده وأرداه ، بَعُد صيته واستغلظ أمرُه ؛ وزحف إليه مالك بن المنذر الكلبى من « مِيلَة » فى جند حِمص ثائرين بالفضل ، فصُرع مالك بسهم فى تقاتلهما ونجا ابن الجارود . ثم زحف إليه العلاء بن سعيد المهلبى من الزاب — ولم تكن لابن الجارود به طاقة — فصادفه قد خرج من القيروان ليَلقى خليفة هرثمة بن أعْيَن ، وقد قدّمه بين يديه ، وذلك
[٢ - ب] / مُستهل صفر سنة تسع وسبعين ومائة . وكان الرشيدُ لما بلغه خبرُ ابن الجارود قد وجَّه إليه من تلطَّف به حتى أقدمه عليه ، وكانت أيامُه سبعةَ أشهر . وقدم هَرثمةُ بن أعْيَن والياً على إفريقية .

ومن شعره عند فتكه بمحمد بن الفارسى ، وكان من أصحابه ثم خرج عليه فى أهل خراسان ومن أطاعه ، وتناهضا للحرب فمكر ابنُ الجارود به ، ودعاه إلى الكلام ، وأمر شجاعاً من فرسانه إذا رآه معه أن يفتك به ، فتم ذلك وانهزم أصحابه . وقال ابنُ الجارود فى ذلك[1] :

---

(١) سبق أن ذكرنا ابن الجارود وما كان من حربه مع الفضل بن روح بن حاتم . وجميع الرجال الذين ذكرهم ابن الأبار هنا ورد ذكرهم عند ابن عذارى (١/٨٦ — ٨٨) والنويرى (١٢٧ — ١٣٠) . أما الحادثة التى أوجزها ابن الأبار هنا فقد أوردها النويرى بتفصيل يهمنا منه هنا أن محمد بن يزيد الفارسى — الذى يغلب على ظننا أنه ابن واقد أيضاً — كان من رجال الفضل بن روح بن حاتم وأنصاره ، ثم انقلب عليه وانضم إلى ابن الجارود طالما كان السلطان له . فلما أقام هارون الرشيد هرثمة بن أعين عاملا على إفريقية أرسل معه رجالا من ثقاته منهم يقطين بن موسى ، وكان من كبار جند الخراسانية ، وكان نفر كبير من جند إفريقية خراسانيين ، وبتأييدهم تمكن ابن الجارود من هزيمة الفضل بن روح بن حاتم ومن كان يؤيده من الجند العربى . وقد تمكن يقطين من إقناع ابن الجارود بالعودة إلى الطاعة ، ولكنه تلكأ فى الخروج إلى بغداد . فلجأ يقطين إلى الحيلة ، واتفق مع محمد بن يزيد الفارسى على أن =

لقد رامنى ابنُ الفارسىّ بكيدِه فوافقَ أمضى منه عزماً وأكْيَدا
عشيةَ أدعوه(١) ليسمع منطقى فأعجزه إصدارُ ما كان أوردا
فداريْتُه حتى اطمأن جنانُه وكنتُ امرأً مثلى أغار وأنجدا
أشرتُ إلى ذى نجدةٍ(٢) فانكفا لهُ بأسمرَ خَطِّىٍّ إذا مال أقصَدا
فما زال قابَ القوس إلا وعاملُه(٣) من الرمح دامٍ بينَ خَضْنَيْه(٤) قد بَدَا
فقل للعَلاءِ(٥) : قد أصابتْ محمداً مَنِيَّةُ يومٍ ، فارتقبْ مثلَها غدَا

= يترك ابن الجارود «ووعده بالتقدم وقيادة ألف فارس وصلة وقطيعة فى أى المواضع شاء ، على أن يفسد حال عبد الله بن الجارود ، ففعل ذلك ، وسعى فى إفساد الخواطر على ابن الجارود» ، وقد عرف ابن الجارود كيف ينتقم منه . فلما التقيا للحرب دعاه للتحدث معه كأنه يريد أن يعرض عليه أمراً قبل القتال ، فانخدع محمد بن يزيد الفارسى وخرج إليه ، وكان ابن الجارود قد أرصد له رجلا من أنصاره يسمى أباطالب ، فانقض عليه أثناء الحديث وقتله .

(١) الأصل : يدعوه ، وقد قومتها للسياق .

(٢) الإشارة هنا إلى أبى طالب الذى ذكرناه .

(٣) عاملُ الرمح وعاملَتُه صدره دون السنان ، ويجمع عوامل ؛ وقيل عامل الرمح ما يلى السنان (اللسان : ٤/٥٠٥) .

(٤) كذا فى الأصل ، والحركات واردة فى المخطوط . ولم أجده فى المعاجم ، والأغلب أنه «حِضْنَيْه» ومعناه هنا : جنبيه .

(٥) هو العلاء بن سعيد ، كان والياً للفضل بن روح بن حاتم على الزاب ، فلما قَتل ابنُ الجارود الفضلَ بن روح بمعاونة الجند الخراسانية نهض قادة العرب بمن معهم للثأر منه ، وقد تولى ذلك شمدون القائد . وكان أول من استجاب للنداء أبوعبد الله مالك بن المنذر الكلبى عامل «ميلة» ، فالتقى مع ابن الجارود فانهزم وقُتل ، فأرسل شمدون إلى العلاء بن سعيد فاستقدمه من الزاب ، وكان فى جنده عدد عظيم من البربر ، فأقبل العلاء بن سعيد إلى الأُرْبُس — وهو الموضع الذى قتل فيه أبوعبدالله مالك بن المنذر — واجتمع بشمدون القائد وفلاح بن عبد الرحمن الكلاعى وغيرهما من القواد . وفى هذه الأثناء أرسل الرشيد هرثمة بن أعين أميراً على إفريقية ، فأرسل هرثمةُ يقطين بن موسى ، وكان من رؤساء جند الخراسانية ، ليقنع ابن الجارود بالدخول فى الطاعة ، فلما أبلغه نبأَ استعمالِ الرشيدِ هرثمةَ أجاب بالسمع والطاعة ، لكنه رفض الخروج =

وهو القائل أيضاً فى مصرع مالك بن المنذر ، يخاطب العَلاء بن سعيد عند ما زحف إليه :

أفى كلِّ يومٍ ثائرٌ قتلتُه بفضلٍ (١) ، وما ينفكُّ للفضلِ ثائرُ
قضيتُ لنفسى النَّذْرَ فى قتلِ مالكٍ وإنى لهـا قتلَ العلاء لناذرُ
فما للعـلاء خيرةٌ فى لقائنا وليس له فى الناس إن فرَّ عاذرُ

٢٦ — مالك بن المنذر الكلبى ، أبو عبد الله

كان والياً على « مِيلَة » ، فدعاه جند حِمص وغيرُهم من العرب فأمَّروه لطلب ثأر الفضل بن روح . واجتمع إليه الناس والتقى هو وابن الجارود فانهزم أصحابُ مالك ، فترجَّل عن فرسه وشدَّ فى نفرٍ من أصحابه وهو يقول :

يا موتُ إنى مالكُ بنُ المنذرِ أهتِكُ حَشْوَ البَيْضِ والسَّنَوَّرِ
أقْتُلُ مَن صابَرَ أو لم يصبرِ كأنى أفعلُ ما لَمْ يُقْدَرِ [٢٥-١]

= من إفريقية وقال : « . . ومع العلاء البربر ، فإن تركت الثغر وثب البربر فأخذوه ، وقتلوا العلاء ، ولا يدخله والٍ لأمير المؤمنين أبداً ، فأكون أشأم الخلق على هذا الثغر ، ولكن أخرُجُ إلى العلاء ، فإن ظفر بى فشأنكم بالثغر ، وإن ظفرتُ انتظرتُ قدوم هرثمة . . » . ولم يستطع ابن الجارود أن يهزم العلاء ، بل اضطر إلى مغادرة إفريقية . وقد استولى العلاء على القيروان بعد ذلك ثم دخل فى طاعة الرشيد وقال إنه صاحب الفضل فى إخراج ابن الجارود من المغرب وتخليصه منه ، فأجازه هرثمة بجائزة سنية ، وأرسل إليه الرشيد ١٠٠ ألف درهم سوى الكساء ، وخرج يريد بغداد فمات بمصر ، وكان ذلك سنة ١٧٩ هـ/٧٩٥ . النويرى ١٢٩ — ١٣٠ .

(١) يريد الفضلَ بن روح بن حاتم .

فخرج إليه ابنُ الجارود وهو يقول :

أنا الذى قتلتُ ربَّ المنبرِ ... إلىَّ فادْنُ ، مالكَ بنَ مُنذرِ[1]
فاصبرْ ستلقاهُ وإن لم تَصبرِ ... جرَّعتُــه كأسَ الحِمامِ الأحمرِ

فقُتل مالك بسهم وانهزم أصحابه .

٢٧ — العلاء بن سعيد بن مروان المهلبى

كان والياً على الزاب ، فأقبل منها لمحاربة ابن الجارود . ولما وصل إلى الأُرْبُس اجتمع مع أهل الشام ، وبلغ ذلك ابن الجارود فقال : « أفى كلِّ يومٍ ثائرٌ قد قتلتُه » . . الأبيات الرائية المتقدمة ، وكتب إليه كتاباً معها فجاوبه العلاء عنه وقال يخاطبه :

لعمرك يا عَبْدُوىَ ما كنتُ تاركاً ... دمَ الفضلِ أو يكسُونِىَ الترب ثائرُ
نذرتَ دمى فانظرْ إذا ما لقيتَنى ... على مَن بكأسيْها تدور الدوائرُ
ستعلمُ إنْ أنشبتُ فيك مخالبى ... إلى أىِّ قِرْنٍ أسلمتْكَ المقادرُ

ثم أقبل العلاء فصادف ابنَ الجارود قد خرج إلى يحيى بن موسى خليفةِ هَرْثمة بن أعْيَن ، فكان العلاء يدَّعى أنه الذى أخرج ابنَ الجارود من إفريقية .

---

(١) الإشارة هنا إلى الفضل بن روح بن حاتم أيضاً .

٢٨ — إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مُزَين الأَوْدى (١)

أصلُ سَلَفه من أُكْشُونُبَة ، وصارتْ بها لَعَقِبه رئاسةٌ بعد افتراق الجماعة بقُرْطُبَة إلى أن غَلب على آخرهم المعتضد عباد بن محمد صاحب إشبيلية .

وسكن إبراهيم هذا — وهو والد يحيى بن إبراهيم بن مُزَيْن الفقيه صاحب تفسير الموطأ — قرطبةَ ، وكان يتعاقب مع الحُجّاب وجِلَّةِ الوزراء والقوادِ فى أيام الحكم بن هشام . ثم ولاه إمارة طُلَيْطِلَةَ أعواماً متصلة ، وكان قد وَلِيهَا قبلَه جدُّه إبراهيمُ بنُ مُزَيْن الكاتب ، وابنُ الفَرَضِيِّ يجعل بنى مزين موالى [٢٥ – ب] رَمْلة بنتِ عثمان بن عفان / رضى الله عنه . وإبراهيمُ بن محمد هو القائل :

بِأَبِى أنت من غزالٍ مليحٍ ليس فيه لمَنْ تأمَّلَ « لَوْلاَ »
روضةُ الحُسْنِ فيكَ تُزْهى ولكنْ كل حوْل يبْقى ربيعُك حوْلاَ

٢٩ — محمد بن مقاتل بن حكيم العَكِّىّ

ولاه الرشيدُ إفْرِيقيَّةَ بعد هَرْثَمة بن أَعْيَن ، وكان — فيما يقال — رضيعَ

(١) بنومُزَين أسرة معروفة فى الأندلس ، وأشهر رجالها محمد بن عيسى بن مُزَين المؤرخ والفقيه المعروف . ولم أجد عن إبراهيم هذا إلا إشارة يسيرة يبدو أنها تدور على جده إبراهيم بن مُزَين أيضاً (الضبى ، بغية الملتمس ، رقم ٥٢١ ص ٢١٠) . أما يحيى ابنه فقد ترجم له ابن الفرضى وقال إنه مولى رملة بنت عثمان بن عفان رضى الله عنه ، من أهل قرطبة وأصله من طليطلة ، وهو تلميذ عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى والغازى بن قيس وطبقتهم ، أى أنه من الطبقة الثانية من مالكية الأندلس . وله كتب كثيرة ذكرها ابن الفرضى (رقم ١٥٥٦ ج ٢ ص ٤٦ – ٤٧) توفى ١٢ جمادى الأولى ٢٥٩/ ١٧ مارس ٨٧٢ .

الرشيد . وكان جعفرُ بن يحيى شديدَ العناية به ، فقدم القَيْروان سنة إحدى وثمانين ومائة فى رمضان ، وكان أبوه مقاتل بن حكيم من كبار القائمين بالدعوة العباسية ، وحضر مع قَحْطبة بن شبيب حروبَ المروانية ، ثم قتله عبد الله بن على لما خَلَعَ وادعى الأمر .

ولم يلبث محمدُ بن مقاتل أن اضطرب أمرُه ، واختلف عليه جندُه ، وخرج عليه بتونس تَمّام بن تَميم التميمى — وكان عاملَه عليها ، وهو جد أبى العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام صاحب « طبقات إفريقية » — فزحف إلى القيروان فى رمضان سنة ثلاث وثمانين ، فخرج إليه ابنُ العَكِّى فانهزم ، ودخل تمام القيروان فى آخر رمضان المذكور ، فأمَّنه على دمه وماله على أن يخرج عنهم .

وكان إبراهيم بن الأغلب والياً على الزاب ، فنهض منها فى نصرة محمد بن مقاتل . وعلم تمامٌ أنه لا طاقة له به ، فتخلى عن القيروان ورجع إلى تونس .

ودخل إبراهيمُ القيروان ، فبدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم صعد المنبرَ فخطب الناسَ وأعلمهم أن أميرَهم محمدُ بن مقاتل . وكتبَ إليه فأقبل راجعاً[1] .

وأراد تمامٌ أن يُحَرِّش بينهما فكتب إلى محمد بن مقاتل كتاباً فى آخره[2] :

وما كان إبراهيمُ مِنْ فَضْلِ طاعةٍ ... يَرُدُّ عليكَ الثَّغرَ لكنْ لتُقْتَلا
فلو كنتَ ذا علمٍ وعقلٍ بِكَيْدِه ... لَمَا كنتَ منه يا ابنَ عَكٍّ لتَقْبلا
فمهما تَشَأْ يمنعْك منه ابنُ غالبٍ ... ومهما يَشَأْ فيك ابنُ أغلبَ يفعلا

(١) أورد النويرى (١٣١ – ١٣٢) وابن عذارى (٢/٩٠) الخبر بتفصيل . قال ابن عذارى : « فدخل ابن الأغلب القيروان ، وابتدر المسجد الجامع ، وصعد المنبر ، وكان بليغاً ، فأعلم الناس أنه ما وصل إلا لنصرة محمد بن مقاتل ، وأنه هو أميرهم المقدم عليهم من أمير المؤمنين ، وكتب إلى العكى يخبره بما فعل فى حقه ، ويؤكد عليه فى الوصول ، فأقبل راجعاً . . »

(٢) راجع نص هذا الكتاب عند ابن عذارى : ٢/٩١ .

فجاوبه العكىُّ بنقيض ذلك وكتب فى أسفل كتابه :

[٢٦-١] /وإنى لأرجو إنْ لقيتَ ابنَ أغلبٍ غداً فى المنايا أن تُفَلَّ وتُقتَلا
تُلاقِى فتىً يستصحِبُ الموتَ فى الوغى ويَحمى بصدر الرمح عزًّا مؤثّلا
كأنكَ قد صافحتَ فى بطن كفهِ من البيضِ محمودَ المهزّة مِنْصَلا

وأقبل تمام ثانيةً فى عسكرٍ ضخم ، فخرج إليه إبراهيمُ وابنُ العكى وراءه ، فانهزم تمامٌ عند التقائهما . وعاد ابنُ العكى إلى القَيْروان واتبعه(١) إبراهيم إلى تونس ، فطلب منه الأمان فأمّنه ورحل به إلى القَيْروان . وبعقب هذا ورد كتابُ الرشيد بعزل ابن العكى وتوليةِ إبراهيم بن الأغلب .

٣٠ — الخصيب مولى ابن العكى

قدّمه محمد بن مقاتل مولاه لحرب مخلد بن مرة(٢) — الخارجِ عليه قَبْل تمام بُن تميم — وأمّره على الجيش الناهد صُحبته ، فصبّح القومَ آمَنَ ما كانوا ؛

(١) الضمير هنا عائد على تمّام بن تميم . ويبدو أن الناسخ أسقط هنا شيئاً ، وإليك الخبر كما يقصه ابن عذارى فى حوادث ١٨٣/٧٩٩ و١٨٤/٨٠٠ : « وأقبل تمام من تونس بعسكر عظيم ، وأمر ابنُ العكّى من معه من أهل الطاعة بالخروج إليه مع إبراهيم بن الأغلب ، فتقاتلوا قتالا شديداً ، فانهزم تمام ، وانصرف ابن العكى إلى القيروان ، وأمر ابراهيمَ بن الأغلب بالمسير إلى تونس . وفى سنة ١٨٤ خرج العسكر من القيروان لحصار تونس وقتال تمّام وذلك فى المحرم منها ، فلما بلغ تماماً إقبالُه طلبَ الأمان منه ، فأمّنه إبراهيم ، وأقبل به إلى القيروان يوم جمعة ، لثمان خلون من المحرم المذكور » (٢/٩٢ — ٩٣) .

(٢) زيادة فى التعريف بالحوادث التى يذكرها ابن الأبار هنا نورد الفقرة التالية من « نهاية الأرب » للنويرى (ص ١٣١) : « ولما كتب هرثمة [ابن أعين] إلى هارون [الرشيد] يسأله الإعفاء وجّه محمد بن مقاتل [العكى] أميراً للغرب ، وكان رضيع هارون ، فقدم القيروان فى شهر رمضان سنة ١٨١ ، ولم يكن بالمحمود السيرة ؛ فاضطربت عليه أحواله واختلفت جنده ، —

وهم خمسمائة من أهل خراسان والشـــام . وكان الذى هاج ذلك فلاَح بن عبد الرحمن الـكلاعى ، فقتل مخلد بن مرة أميرَهم وعدةً ممن كان معه ، وانهزم أصحابه إلى تونس . ومرّ الخصيبُ بمنزل فلاح فأحرقه ، وأخذ امرأته فانطلق بها وقال فى ذلك :

لو كنتَ حُرًّا يا فلاحُ صبرتَ لى   وحميتَ عِرْسَكَ والفتى يَحْمِى
لـكنْ هربتَ من القِراع وأسلمتْ   كفَّاكَ حُرْمَتَها على الرَّغْمِ
ما النجمُ أبعد منك — لوْ طالبتَهُ   لتنـــاله بيديْك — مِن سَلْمِى

٣١ — تمام بن تميم الدارمى التميمى ، أبو الجهم
القائم على ابن العكى المذكور آنفاً

وهو ابن عم إبراهيم بن الأغلب . قد تقدم من خبره وشعره ما أغنى عن إعادته هنا ؛ وفى « الـكتاب المُغْرِب عن أخبار المَغْرِب » تأليف أبى على الحسن بن أبى سعيد القيروانى ، أن تمّاماً هذا لمـا سمع بحركة إبراهيم بن الأغلب إليه من الزّاب فى محاربته ونصْر ابن العَـكِّىّ ، كتب إليه كتاباً يستدعيه ويستعطفه وكتب فى أسفله :

— وكان سبب الاضطراب عليه أنه اقتطع من أرزاق الجند وأساء السيرة فيهم وفى الرعية ، فقام فلاح [بن عبد الرحمن الكلاعى القائد] ، ومشى فى أهل الشام وخراسان ، حتى اجتمع رأيهم على تقديم مرة بن مخلد الأزدى (وفى مخطوط آخر : الأسدى ، وكذلك عند ابن عذارى وابن الأثير) وخرج عليه بتونس تمام بن تميم التميمى ، وكان عامله عليها ، فبايعه جماعة من القواد وأهل الشام وأهل خراسان ، فخرج فى النصف من شهر رمضان سنة ١٨٣ إلى القيروان ، وخرج إليه ابن العكى ، فيمن معه ، فقاتله قتالا شديداً فى « مُنية الخيل » فانهزم ابن العكى ، ودخل القيروان ، وتحصنَ فى دار كان قد بناها ، وجلا عن دار الإمارة . . » ، وقد أضفت الحواصر والأقواس وما بينها زيادة فى التوضيح .

[٢٦ - ب] / أُقَدِّم إبراهيمَ عِلماً بفضلِه وحُقَّ له فى الأمر أن يَتَقَدَّما
وقلتُ له : فاحكمْ فحُكمُكَ جائزٌ علينا فقد أصبحتَ فينا مُقَدَّما
ورُدْ فى بلاد الزاب ما شئتَ قادراً وإن شئتَ مُلْكَ الغربِ خُذْهُ مُسَلَّما

فجاوبه ابن الأغلب بخلاف ذلك وكتب إليه فى أسفل كتابه :

دعوتَ إلى ما لو رضيتُ بمثله لما كنتُ — يا تمّام — فيه مقدَّما
سأجعلُ حُكمى فيكَ ضربةَ صارمٍ إذا ما علا منكَ المَفارقَ صَمَّما
ستَعلمُ لو قد صافحَتْك رماحُنا بكفِّ المنايا ، أيُّنا كان أظلَما

فذُكر عن فلاح الكلاعى أنه قال : « كنت عند تمام يومَ قرأ كتاب إبراهيم ، فذهب لونُه ثم ارتعد حتى سقط الكتاب من يده » . وكان صارماً شجاعاً مُمَدَّحاً ، وفيه يقول الفضلُ بن النَّهْشلى يمدحه من قصيدة :

أضحتْ ومنزلُها مِصْرٌ ومنزلُنا بالقَيْروان ، ويا تَشْواقَ مُغْتَرِبِ
أخا بنى نَهْشَلٍ ، دَعْها فقد نزحتْ وامدحْ قَريعَ مَعَدٍّ واحدَ العربِ
تمامُ كَبْشُ بنى عَدْنَانَ قاطبةً الدارمىُّ الكريمُ البيتِ والنسبِ
الفارسُ البطلُ الحامى حقيقتَهُ والناعِشُ الرائشُ الفَرّاجُ للكُرَبِ
تأوى إليه نِزَارٌ حين يَدْهَمُها رَيْبُ الزمان وتخشى سطوة النُّوَبِ
أعطتْ بنو دارمٍ فى المجد رايتَها بنى المُجاشِعِ يومَ الفخرِ والحسَبِ

قال أبو العرب ، وذَكَرَ ولايةَ جدِّه تمام هذا إفْرِيقِيَّةَ بعدَ محمد بن مقاتل العَكِّىّ : « تمامُ بن تميم : هذا هو جَدُّنا ، هو ابن القادم من المشرق » . قال : « وتوفى سنة سبع وثمانين ومائة ببغداد » .

وفى « الكتاب المعْرِب عن أخبار المغرب » أن إبراهيم بن الأغلب لما صار الأمرُ إليه بَعث به وبجماعة معه — من وجوه الجند الذين كان شأنهم الوثوب

على الأمراء — إلى الرشيد ، فأما تمام فإنه حُبس إلى أن مات فى حبسه .

وحُكى أن الرشيدَ / وعد أخاه سَلَمَة بن تميم إطلاقَه ، وبلغ ذلك إبراهيمَ [٢٧ – ١] ابنَ الأغلب فكتب إلى عمته وهىَ ببغداد فى سَمِّه ، فاشتهى تمام حوتاً فسَمَّتْه له ، فمات مِن أكله بعد أن ذهب بصرُه فى المُطْبِق قبلَ موته بشهرٍ . وعَلِمَ الرشيدُ بذلك فترحَّم عليه وتوجَّع له ، وأحسنَ إلى سَلَمَة أخيه وصرفَه إلى إفْرِيقِيَّةَ .

٣٢ — إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال ، أبو إسحٰق

ولاه الرشيدُ إفْرِيقِيَّةَ بعد محمد بن مقاتل العَكِّىّ فاستقلَّ بمُلكها وأورثَ سلطانَها بنيه نيفاً على مائة سنة . وكان فقيهاً عالماً أديباً شاعراً خطيباً ، ذا رأى وبأس وحزم ومعرفة بالحرب ومكائدها ، جرىءَ الجنان طويلَ اللسان حسنَ السيرة ، لم يَلِ إفريقيةَ أحدٌ قبلَه من الأمراء أعدلَ فى سيرةٍ ولا أحسنَ لسياسةٍ ولا أرفقَ برعيةٍ ولا أضبطَ لأمرٍ منه .

وكان فى أول حالته كثيرَ الطلب للعلم والاختلاف إلى الليث بن سعد الفقيه ؛ والليثُ وَهَبَ له « جَلاَجِلَ » أمَّ ابنه زيادة الله ، فخرج بها حتى وصل الزاب — وعلى إفريقية يومئذ الفضلُ بنُ روحٍ بن حاتم — فلقى من تعصُّبِه وسوء مجاورته عظيماً . وأقام أخوه عبد الله بن الأغلب بمصر ، وكان ذا نعمة عظيمة ، فلما توفى ارتحل بنوه إلى إفريقية .

وولى الزابَ من قِبل هارون الرشيد وابنُ العَكِّىّ على إفريقية ، وقد تقدم ذكرُ نُصرته لابن العَكِّىّ إلى أن صُرِف بإبراهيم سنةَ أربع وثمانين ومائة .

وتوجه إلى المشرق ، فلما بلغ طرابلسَ دَلَّس له كاتبُه داوودُ القيروانى على لسان الرشيد كتاباً بإقراره على إفريقية وانصرافه إلى عمله ، فتمشَّى ذلك زماناً . وبلغ الرشيدَ فغاظه ، وأسجلَ لإبراهيمَ بولاية إفريقية ثانيةً ، فاشتد عند ذلك سلطانُه وعظُم دون الملوك الذين تقدموه شأنُه ، وخرج ابنُ العَكِّيّ من إفريقية وأعمالها . وعلى هذه الحال لم يُكافِ إبراهيم على حُسن ما أسلفه فى جانبه إلا بأقبح الأفعال .

ومن فضائل إبراهيم المأثورة ، وجلائل أنبائه المسطورة ، أنه عفا عن داوود كاتبِ ابن العَكِّيّ وأسقط التثريبَ عليه وقَبِل متابَه فأمَّنه واستعمله ، وقد ذكرتُ ذلك فى تأليفى المترجَم بـ « إعتاب الكُتّاب »(١) ، وهو القائل وقد خلَّف أهلَه بمصر فى قصده الزّابَ :

[٢٧-ب] / ما سِرتُ مِيلاً ولا جاوزتُ مرحلةً   إلا وذكرُكِ يَثْنى دائباً عُنقى
ولا ذكرتُكِ إلا بِتُّ مُرتفِقاً   أرعَى النجومَ كأنَّ الموتَ مُعتنِقى

البيت الأول نظير قول يزيد بن معاوية بن أبى سفيان فى زوجه :

إذا سرتُ ميلا أو تغنَّتْ حمامةٌ   دعتنى دواعى الشوق من أمِّ خالدِ

وكان محمد بن سيرين يقول : « هو أشوق بيت قالته العرب » .

وقال إبراهيم وهو بالزاب فى قتل ابن الجارود للفضل بن رَوْح بن حاتم ، وقد بلغه أن نصر بن حبيب المهلبى(٢) أشار بردِّ الفضل من طريقه ، لأنه خاف

(١) انظر : إعتاب الكُتّاب لابن الأبار ، بتحقيق الدكتور صالح الأشتر (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق) دمشق ١٩٦١ ، رقم ص ١٠٥ - ١٠٧ .

(٢) نصر بن حبيب المهلبى ، رابع من تولى أمر إفريقية من المهالبة ، وليها فى ٢٠ رمضان ٣١/١٧٤ يناير ٧٩١ بعد موت روح بن حاتم بن قَبِيصَة بن المهلب بن أبى صفرة ، =

أن يُحدث حدثا فيقتلَه ابنُ الجارود بسببه[(١)] :

يا نصرُ قد أصبحتَ ألأمَ مَن مَضَى منكم،[(٢)] والأمَ حاضرٍ معلومِ
لما أشرتَ بردِّ فضـــلٍ بعدما قطعَ البلادَ على أقبَّ[(٣)] رَسُومِ
لم تَرْضَ بالخذلان حتى كِدتَه لا زلتَ مخذولا بغير حميمِ
ما كنتَ حين غدوتَ تنشر لحيةً فيها لِقومِك غَدْرةٌ بكريمِ
لو كان نادانى أجبتُ دعاءه بالخيل أُقْحِمُها بسَعدِ تميمِ[(٤)]
خيلٌ بها أُهدِى المنايا للعِدَى وبها أفرِّج كُرْبةَ المكظومِ

= وكان هذا الأخير شيخاً مسناً غلب عليه الضعف حتى كان يغلبه النعاس إذا جلس للناس ، فكتب أبو العنبر القائد وصاحبُ البريد إلى الرشيد يقترحان تولية نصر بن حبيب سراً ، حتى إذا مات الفضل لم يضطرب الأمر ، فأجاب الرشيد . وعندما توفى روح بن حاتم فى التاريخ المذكور حاول ابنه قَبِيصَة أن يتولى الأمر بدون عهد ، ولكنه اضطر للتخلى لنصر عندما تبين أن الرشيد عهد إليه . وقد أقام نصر والياً على المغرب سنتين وثلاثة أشهر ، إذ عزل بالفضل بن روح بن حاتم فى المحرم ١٧٧/ أبريل ٧٩٣ .

انظر : النويرى ، ص ١٢٧ .

(١) يفهم من هذا أن إبراهيم بن الأغلب قال هذه الأبيات قبل ولايته أمر إفريقية بزمن طويل ، فقد قتل الفضل سنة ١٧٨/٧٩٤ ، وتولى إبراهيم إفريقية فى منتصف جمادى الآخرة سنة ١٨٤/ يونيو ٨٠٠ . وظاهر من الأبيات أن ابن الأغلب كان يتهم نصر بن حبيب المهلبى بأنه كان سبب قتل الفضل بن روح بن حاتم على يد ابن الجارود . وذلك أن هذا الأخير بعد أن هزم الفضل ودخل القيروان أخرج الفضل منها وتركه ليعود إلى المشرق ، ثم رده برأى نصر بن حبيب المهلبى كما يفهم من ذلك الخبر : وكانت النتيجة أن قتل الفضل وأخرج بقية بنى المهلب من إفريقية . ويبدو أن نصر بن حبيب فعل ذلك انتقاماً من الفضل ، لأن هذا ، بعد وفاة أبيه روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب فى رمضان سنة ١٧٤ ، ذهب إلى بغداد وأقام على باب الرشيد يلح فى طلب الولاية حتى أجيب إلى طلبه ، فعزل نصر بن حبيب وتولى الفضل فى المحرم ١٧٧/ أبريل ٧٩٣ .

(٢) الإشارة هنا إلى بنى المهلب .

(٣) الفرس الأقب هو الذى لحقت خاصرتاه بحالبيه ، كناية عن الضمور . اللسان : ١٥٢/٢ . والرَّسوم هو الفرس اللين السير مع سرعته .

(٤) من المعلوم أن بنى الأغلب تميميون .

وقال أيضاً فى دخوله القيروان قائماً بنُصرة ابن العكى وهربِ تمام بن تميم أمامه :

لو كنتُ لاقيتُ تماماً لصالَ بهِ ضربٌ يفرِّق بين الروح والجسدِ
لكنه حين شام الموتَ يَقْدُمنى ولَّى فراراً وخلَّى لى عن البلدِ
إن يستقمْ نفعُ عما كان قدَّمهُ وإن يَعُدْ بعدَها فى غدرةٍ نَعُدِ

ثم نزل عن المنبر وكتب إلى محمد بن مقاتل يستعيده إلى عمله وقال فى ذلك :

أتشكرُ عنا ما صنعتُ بِرَبِّها[1] وردِّى عليها الثغرَ أمْ هى تكفُرُ ؟
[٢٨-١] / نفَيتُ لها التمام[2] بالسيفِ عنوةً ولم يُغنِه فى الله ما يَتَمَضَّرُ
فأقبِل إلى ما كنتَ خلَّفت كارهاً فقد ذاد سيفى عنكَ ما كنتَ تحذرُ

وقال أيضاً فى ذلك :

ألم ترنى رَدَدْتُ طريدَ عَكٍّ وقد نَزَحَتْ به أيدى الركابِ
أخذتُ الثغر فى سبعين مِنّا وقد أوفى على شرف الذهابِ
هزمتُ لهم بِعُدَّتهم ألوفاً كأنَّ رَعِيلَهمْ قزعُ السحابِ

قال إبراهيم هذا لأنه قصد لنُصرة ابن العَكِّىّ فى سبعين فارساً من أهل بيته وخاصته إقداماً ونجدة ، فقال بعضُ شعراء إفْرِيقيَّة فى ذلك :

ما مر يوم لإبراهيم نعلمهُ إلا وشِيمتُه للجود والباسِ

---

(١) المراد بربِّها هنا واليها أو حاكمها ، والإشارة إلى تمكنه من رد محمد بن مقاتل العكى إلى الولاية بعد هروبه .

(٢) التمّام هو تمّام بن تميم التميمى .

ولما حارب تمّاماً وابن العَكّيّ بالقيروان ، حمل على الميمنة وهو يقول :

أطعنُهمْ ولا أرى لِي كُفْوَا حتى أنالَ ما أريدُ عفْوَا
أو أحسُوَنْ كأسَ المنايا حَسْوَا

ثم رجع إلى الميسرة بعد أن كسر الميمنة وهو يقول :

قد علمتْ سعدٌ وأبناء مُضَرْ أنى مَنَعْتُ عِزَّها أن يُهْتَصَر
وأننى فخارُها لمن فَخَرْ

فنَفَضَّها ، ثم رجع إلى القلب فشدّ عليه وهو يقول :

يا قلبُ قد أبصرتَ صاحبيكا ما لَقِيا منى فخُذْ إليكا
ضرْباً يَمُور وَقْعُه عليكا كيف ترى دَفْعِى بجانِبَيكا

وحمل أصحابُه فكانت الهزيمة على تمام .

وله حين وجّه بمن كان يخاف أمرَهم من وجوه الجند إلى الرشيد[1] :

ما سار كيدى إلى قوم وإن كَثُروا إلا رَمَى شعبَهم بالحزم فانصدَعا
ولا أقولُ ، إذا ما الأمرُ نازَلَنى : « يا ليْتَه كان مصروفاً ! » ، وقد وَقعا
/ حتى أُجَلِّيَه قهــراً بمعتزِمٍ كما يُجَلِّى الدُّجَى بدرٌ إذا طلعا [٢٨-ب]
قوماً قتلتُ وقوماً قد نَفَيْتُهُمُ ساموا الخلافَ بأرضِ الغربِ والبِدَعا
كُلّاً جزيتُهمُ صَدْعاً بصَدْعِهمُ وكلُّ ذى عملٍ يُجْزَى بما صنعا

---

(١) سبق أن ذكر ابن الأبار كيف أرسل إبراهيم بن الأغلب تمام بن تميم التميمى وأخاه سلمة إلى بغداد ، حيث حبسه الرشيد فى المطبق حتى مات فيه . وجاء فى نهاية الأرب للنويرى : « فلما صار الأمر إلى إبراهيم بن الأغلب بعث تماماً بن تميم وغيره من وجوه الجند الذين شأنهم الوثوب على الأمراء إلى بغداد ، فحبسوا فى المطبق » (ص ١٢٣) .

وله أيضاً وهو من جيِّد شعره :

أَلم ترني أَوْدَيْتُ بالكيدِ راشداً ... وأَنِّي بأخرى لابنِ إدريسَ راصدُ

تناوَلَهُ عزمي على نَأْيِ دارهِ ... بمختومةٍ في طَيِّهِنَّ المكائدُ

وقد كان يرجو أن يفوتَ مكائدي ... كما كان يخشاني على البُعدِ راشدُ

ثلاثون أَلفاً سُقتهنَّ لقتلهِ ... لأُصلِحَ بالحربِ الذي هو فاسدُ

فأضحى لدينا راشدٌ يَنْتَبِذْنَهُ ... بناتُ المنايا والحِسانُ الخرائدُ

فتاهَ أخو عَكٍّ بمَهْلَكِ راشدٍ ... وقد كنتُ فيه ساهراً وَهْوَ راقدُ(١)

راشد هذا هو مولى عيسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، وكان عاقلاً شجاعاً أيدًا ، خرج بإدريس بن عبد الله أخي مولاه عند انهزامه في وقعة « فخ » — وقد تقدم ذكرها — وانغمس به في حاجِّ أهلِ مصر ، وغيَّر زِيَّه وألبسَه مِدْرَعَةً وعمامة غليظة ، وصيَّره كالغلام يخدمه ، وإن أمره ونهاه أسرع في ذلك . وتخلص إلى إفريقية في خبر طويل ، فترك دخولها ثم سار به في بلاد البربر حتى انتهى إلى فاس وطَنْجَة ، فأظهر إدريس هنالك أمرَه وأخبر بنسبه ، ودعا البربر إليه فأجابوه ، وذلك سنة اثنتين وسبعين ومائة ، في السنة التي توفي فيها عبدُ الرحمن بنُ معاوية ووَلِيَ ابنُه هشام الرضا ، وفي السنة الثانية من خلافة هارون الرشيد ، أقام بين أظهر البربر ملكاً مطاعاً . وبلغ الرشيدَ خبرُه فشق عليه ، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد فدس إليه مَن

(١) سيفصل ابن الأبار بعد ذلك كيف دبر إبراهيم بن الأغلب قتل راشد ، وكان ذلك أثناء ولايته للزاب ، أي قبل أن يلي إفريقية ، وسيذكر كيف أن محمد بن مقاتل العكي زعم لهارون الرشيد أنه هو الذي قتل راشداً ، ثم عَلِم الرشيد بذلك ، فكان من أسباب توليته إفريقية . وهذه الأبيات ظاهرة النحل ، فهي تخلط بين مقتل راشد وموت إدريس الأول مسموماً .

سَمّه فى غالية ، وقيل فى ذَرور[١] استَنَّ به ، وقيل فى دُلّاعة[٢] قطعها بسكين ، نصفُها مسموم والثانى غير مسموم ، وقيل فى بطيخة . وهرب هو / وصاحب له ، [٢٩ - ١] فيقال إن راشداً اتبعهما وقد بعدا فأدركهما وهو وحده على فرسه ، فشد عليهما بسيفه فضرب أحدهما وفات الآخر ؛ وانصرف راشد وهلك إدريس .

ويقال إن الذى دسَّ الرشيدُ إليه ليسمه هو الشماخ اليمامى[٣] ، وكتب له إلى إبراهيم بن الأغلب . فوصل إلى إدريس وعرَّفه أنه مُتَطَبِّب وأنه من أوليائهم ، فاطمأنّ إليه وأنِسَ به . وشكا إليه عِلّةً فى أسنانه ، فأعطاه سَنُوناً مسموماً وأمره أن يَسْتَنَّ به عند طلوع الفجر ، وهرب تحت الليل . فلما طلع الفجر استَنَّ إدريس بذلك السنون فقتله ، وطُلب الشماخ فلم يُقدر عليه . وقدم

(١) الذرور كل مسحوق يتداوى به ، والسنون كل مسحوق يستعمل دواءً للأسنان ، وكانوا يستنون أو يستاكون به .

(٢) الدُّلّاعة مفرد دُلّاع ، وهو البطيخ أو نوع منه ، وقد عرفه صاحب الكتاب المنصورى بأنه البطيخ الهندى أو السِّندى نسبة إلى السِّند (ومن هنا تسمى البطيخة فى إسبانيا إلى اليوم sandia) ويسمى أيضاً البطيخ الفلسطينى ، وقال أبو القاسم الزهراوى إنه البطيخ الشامى . ويفهم من النص هنا أن الدلاع غير البطيخ ، أو أنه صنف منه على أى حال . وقد قال الرحالة ريتشاردسون إن الدلاع بطيخ صغير مر الطعم . وفى المغرب إلى اليوم يسمى البطيخ : دُلّاح ، أما ما تعرفه بالشام فيسمى البطيخ ، وعلى هذا فيكون تفسير عبارة ابن الأبار أن إدريس الأول سُمَّ فى شمامة أو بطيخة . والروايات كثيرة عن ذلك الحادث .

انظر : دوزى ، ملحق القواميس : ١/٤٥٧ ا .

وروض القرطاس لابن عبد الحليم أو ابن أبى زرع ، طبعة حجر فى فاس ، ص ٥ .

وابن خلدون ، تاريخ (بولاق) : ٤/١٣ .

وابن عذارى ، البيان : ١/٨٣ .

(٣) هو إدريس الشماخ الذى سبق ذكره . وقال عنه ابن خلدون : « ودس إليه الرشيد مولى من موالى المهدى اسمه سليمان بن حريز ويعرف بالشماخ » (٤/١٣) ، وورد اسمه فى روض القرطاس : سليمان بن حرير (ص ٩) ، وذكره أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى السلاوى صاحب كتاب « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » . (الدار البيضاء ، ١٩٥٤) ج ١ ص١٥٨ : سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ .

على إبراهيم بن الأغلب فأخبره ، فكتب إبراهيم إلى الرشيد بذلك ، فولّى الشماخَ بريدَ مصر وأجازه . وقد تقدم عند ذكره أن الذى سمه سليمان بن جرير فى سمكة مشوية ، وقال فى ذلك أشجع السلمى من شعراء الرشيد :

أتظن يا إدريسُ أنَّكَ مُفلِتٌ كيدَ الخليفةِ أو يَقيكَ حِذارُ
إن السيوفَ إذا انتضاها عزمُهُ طالتْ وتقصرُ دونَها الأعمارُ
هيهات إلا أن تكونَ ببلدةٍ لا يهتدى فيها إليكَ نهارُ

وكانت مدة سلطان إدريس بالمغرب ، إلى أن مات بوَلِيلِى سنة خمس — وقيل سنة أربع — وسبعين ومائة ، ثلاثةَ أعوام وستةَ أشهر .

وكان قد خرج إلى سَبْتة فى شعبان سنة ثلاث وسبعين ، وإلى تازا فى جمادى الآخرة سنة أربع وسبعين ، وترك حملا من إحدى جواريه ، فقام راشد بأمر البربر حتى ولدت غلاماً ، فسمّاه باسم أبيه « إدريس » وكفله إلى أن بلغ الغلامُ .

وعلا أمرُ راشد واستفحل ، وهمّ بغزو إفْرِيقِيَّة لما كان فيه من القوة وكثرة الجنود ، فكادهُ إبراهيمُ بنُ الأغلب من الزاب موضعِ ولايته ، ودسّ إلى أصحابه ، وبذل لهم الأموالَ إلى أن اغتالوه وبعثوا برأسه إليه ، فبعث به إلى ابن مقاتل العَكِّىِّ وأخبره بكيده إياه وتدبيره فى قتله ، فبعث به العَكِّىُّ إلى هارون
[٢٩ - ب] الرشيد ونسب ذلك إلى نفسه / دون إبراهيم ، فكتب صاحبُ بريد المغرب إلى هارون بصنيع إبراهيم فى راشد . فعلى إثر ذلك وَلى الرشيدُ إبراهيمَ بنَ الأغلب إفريقيةَ وصرف عنها العَكِّىَّ .

وقد قيلَ إنَّ الرشيدَ إنما دسّ إلى إدريس مَن اغتاله وخاطبَ إبراهيم [... ...][1] به وهو عامل له على إفْرِيقِيَّة ؛ والأول أصح . وتوفى إبراهيمُ

(١) بياض بالأصل يمكن أن تكمله بعبارة مثل : بن الأغلب بأن يُعنَى .

فى شوال لثمانٍ ليالٍ بقين منه سنة ست وتسعين ومائة ، وهو ابنُ ست وخمسين سنة ؛ فكانت ولايته اثنتى عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام .

٣٣ – يحي بن الفضل بن النعمان التميمى ، أبو العباس

كان صاحبَ بريد المغرب أيامَ ابن العكى ، وهو القائل لتمّام بن تميم حين بلغه إقبالُ إبراهيم بنِ الأغلب إليه :

أتمامُ لا تقعدْ فإنى ناصحٌ وخُذْ مُهْلَةً إن كنتَ لا بد هاربَا
وإلا فعُذْ مِن سُخْطِهِ بأمانِهِ فلستَ بلاقٍ لابنِ أغلبَ غالبَا
ولا تَحْسُوَنْ كأساً فليس بنافعٍ تحسِّيك ما فيها إذا كنتَ[1] شاربَا

٣٤ – خُرَيْش[2] بن عبد الرحمن بن خريش الكِنْدىّ

ثار بتونس ، وكان صهرَ الحسن بن حرب الكِندى المخالفِ على الأغلب ابن سالم . ولم يكن من الجند ، ولكنه من أبناء العرب الذين كانوا بإفريقية

(١) فى الأصل إن ، ولا يستقيم بها الوزن .

(٢) كذا ورد اسمه فى الأصل بكل وضوح ، ولكن النويرى (ص ١٤٥) وابن خلدون (١٩٦/٤) جعلاه : حمديس ، وتابعهما فى ذلك ڤوندرهايدن فى كتابه عن الأغالبة :

M. VONDERHEYDEN, *La Berbérie Orientale sous la Dynastie des Benoul'Arlab, 800–909* (Paris, 1929) pp. 87 sqq.

وقد كتب هذا المؤلف اسم الأغلب هكذا : **Arlab** لكى ينطق حرف r غيناً كما هو فى النطق الفرنسى ، وهو مذهب مستهجن لم يتابعه فيه أحد .

أما ابن عذارى فقد اكتفى بقوله : « وثار عليه الكندى بتونس » فأراح نفسه . وستتبين من أبيات لإبراهيم بن الأغلب – يوردها ابن الأبار فيما بعد – أن صحة الاسم خُرَيْش .

وقد يكون بالحاء لا بالخاء ، فقد وجدت اسم حريش كثير التوارد .

قبل المُسَوِّدة ، فخلع المُسَوِّدَةَ وأتاه العربُ والبربرُ من كل ناحية[١] . فلما كثر جمعُه كتب إلى إبراهيم بن الأغلب :

« من خُرَيْش القائم بالعدل إلى إبراهيم بن الأغلب .

أما بعد ، فإنى أقمتُ عن الخروج قبل يومى هذا لأنى كنت أنتظر أن تفنيكم الحرب ؛ فلعمرى لقد أرانا الله فيكم ما قوّى به أهلَ دعوةِ الحقِّ عليكم . فلما وُلِّيتَ أنت وعلمتَ أنهم مقسومون بين خوف منك ورجاء لك ، عرفت قلة طمعهم فيك . ولو كان أحدٌ ممن وَلِىَ هذا الثغر ممن لا نرى طاعتَه يستحق أن نرضى بولايته ، لكنتَ أنت ذلك . وقد كان علىّ بن أبى طالب رحمة الله عليه يقول : « إذا وَلَّى عنكم عدوُّكم من أهل الملة فلا تتبعوهم » . ولستُ أطلبُك إن خرجتَ عن الثغر ، فلا تُرِدْ أن تَصْلَى بحَرْبى ، وليكُنْ رأيُك طلبَ سِلْمِى ؛ والسلام » .

وكتب فى آخر كتابه :

قُلْ جَهْرَةً لأبى إسحاقَ تنصحُهُ هذا فراقُكمْ للغربِ قد حانَا

[٣٠–١] فلا يعود إليه منكمُ أحـــدٌ حتى يعودَ من الأجداثِ موْتانا

فارجِعْ عنِ الغربِ أو ألْقِ السَّوادَ به[٢] لا تَخْتَرِمْكَ المنايا حينَ تلقانا

(١) هذه العبارة عظيمة الأهمية ، وهى تكشف لنا عن حقيقة حركات بنى عبيدة بن عقبة ابن نافع وتمام بن تميم وسليمان بن حميد الغافقى وابن الجارود ومن إليهم ، فهؤلاء هم عرب إفريقية الذين دخلوها أيام الفتح واستقروا فيها ، ونشأ فيها أبناؤهم يرون أنفسهم أهل البلد وأولى بحكمه من الولاة الذين ترسلهم الخلافة وجندهم ، وهذه الحقيقة تكشف لنا سر هذا الصراع وسببه . وقد انضم إلى أولئك العرب الأفارقة جماعات من البربر ، لأنهم كانوا أقرب إليهم من الولاة وجندهم .

(٢) كان عمران بن مجالد ثائراً على دعوة بنى العباس ، وكان هو وجنده كارهين لها ، حتى كان أصحابه يهتفون أثناء قتالهم مع جند إبراهيم بن الأغلب : « بغداد ، بغداد ! فلا والله لا اتخذنا لكم طاعة بعد اليوم أبدا » (النويرى : ١٣٥ – ١٣٦) ، ولهذا فهو يدعو ابن الأغلب هنا إلى خلع السواد إشارة للخروج على بنى العباس . وكان عمران من رؤساء الجند ، وكان أول =

وسوف تعلمُ أنَّ الموتَ يَسمعُ لى إذا التقتْ بنواحى القحص[١] خَيْلانا

فلما قرأ إبراهيم كتابَه كتب إليه :

« من إبراهيم بن الأغلب إلى خُرَيْش رأس الضلال .

سلامٌ على من اتَّبع الهدى ، أما بعد

فإن مِثلَك مِثلُ البعوضة التى قالت للنخلة إذ[٢] سقطت عليها : « استَمْسِكى فإنى أريد الطيران ! » فقالت النخلة : « ما شعرتُ بسقوطك فيُكْرِبُنى طيرانُك » . فأما انتظارُك فى الحرب فَناء ، فلو لم يَبْقَ فى المغرب من أهل الطاعة غيرى ما وصلتَ أنت فى مَن معك بخلافكم إليه ، ولرجوتُ أن أظفر بكم بطاعتى ونُصرةِ دولة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ؛ فكيف وعندى من شيعته وأبناء أنصاره من يعلم الله أنى أرجوه أن ينتقم منك على يدى ؟ وأما ما ذكرتَ عن علىّ ابن أبى طالب رضوان الله عليه ، فذاك أمر غاب عنك . وإن كان كما ذكرتَ فلست منهم ، لأن أهل الملة خلافهم خلاف هُدًى[٣] فى نقمة على جور ، وخلافكم خلاف فرقة دين وشَقٍّ عصا المسلمين ، ونقمتهم ما هو لله رضا . وستعلم أنت وأصحابك إن لقيناكم غداً أنّا سنتَّبعكم ، وإن صبرتم أنا سنفنيكم .

= الأمر من أنصار إبراهيم بن الأغلب ، ثم اختلف معه فى خبر يحكيه النويرى بالتفصيل ملخصه أن عمران سار مع إبراهيم مرة يحدثه مسافة طويلة ، ثم تبين أنه ساهٍ عن كلامه ، فغضب ، ثم كانت الحرب بينهما ؛ وهو سبب فيما يبدو لنا تافه . والحقيقة — كما تستبين من ثنايا الحوادث — أن إبراهيم بن الأغلب لم يجد مالا ليؤدى أرزاق جنده ، فبعث — فيما يبدو — يطلب مدداً من الخليفة ، فتأخر . وفى أثناء ذلك فكر عمران فى خلع الطاعة ، ودعا ابن الأغلب إلى أن يفعل فعله ، فأبى ، فكان الخلاف .

(١) المراد فحص تونس ، وهو السهل المحيط بها .

(٢) الأصل : وسقطت عليها ، وما أثبتناه أوفق للمعنى .

(٣) فى الأصل : هوًى ، وقد قومناه للمعنى .

وأما ذكرك الفحص فإن تركتُك حتى تصير إليه فأنا فى مثل جلدك »[1]
وكتب إليه :

بلِّغْ خُرَيْشاً بأنى سوف أصْبَحُهُ ... كأساً سيقرعُ منها سِنَّ حَيْرانَا
تُهدِى الطِّعانَ له سُمْرٌ مُثقّفةٌ ... تفرِى أسنّتُها فى الحربِ أعدانا
مِن كُلِّ أزرقَ يغتالُ النفوسَ بهِ ... يضحى به مِن دَمِ الأجوافِ مَلآنا
وسوف تَعلمُ هل ألقى السَّوادَ إذا ... أرْسَتْ إليكَ المنايا حين تَلقانا
إنى سأهدى إليكَ الموتَ فى عطبٍ ... فاشربْ منيتَه مِن كفِّ عِمرانا

ثم بعث إلى عمران بن مُجالِد[2] يحضه على قتاله ولقائه قبل خروجه من تونس ، وأوصاه بما يعمل . فلقيه عمران بِسِبْخَة تونس ، فانكشف خُرَيْشٌ وأصحابُه وقُتل ، ودخل عمرانُ تونسَ يتتبعهم ويقتلهم حتى أفناهم / وكان خروجُه [٣٠ ب] سنةَ ست وثمانين ومائة .

٣٥ — عمران بن مُجالد بن يزيد الرَّبَعىّ

ثار على إبراهيم بنِ الأغلب ، وكان قبلَ ذلك فى طاعته ومُناصحته ، وحضر معه قتالَ تمّام بن تميم ، وخرج نائباً عنه لقتال خُرَيْش بن عبد الرحمن المذكور آنفاً . ولما قَوِيَ أمرُه أتى بعسكره حتى نزل بين القيروان و بين قصر إبراهيم ،

---

(١) الأصل : حلدك . وابن الأغلب يريد أن يقول أنه إذا تركه يصل إلى فحص تونس أصبح مثله ، ولهذا أصلحتها إلى « جلدك » وكذلك فعل ماركوس مولر ويجوز أن يكون : حايك

(٢) فى الأصل : مجاهد ، وهو خطأ كما سترى فى ترجمته التى تلى هذه الترجمة . وهو عند ابن خلدون : عمران بن مجالد (١٩٦/٤) وعند النويرى : ابن مجالد ، وفى نسخة : مُخالد (ص ١٣٥) وعند ابن الأثير : ابن مخلد (جـ ٦ ص ١٠٧ من طبعة تورنبرج بأوبسالا بالسويد).

وصارت القيروانُ فى يده . وبعث إلى أسد بن الفرات ليخرج معه فأبى أسدٌ وتمارض ، فبعث إليه : « إما أن تخرج وإلا بعثتُ من يجر برجلك ! » فقال أسد : « والله لئن أخرجتنى لأنادِيَنَّ فى الناس : القاتل والمقتول فى النار ! » فتركه عند ذلك .

وخندقَ إبراهيمُ حول مدينته(١) ، ودامتِ الحرب بينهما سنةً . ثم ضعُف عمران فهرب إلى ناحية الزاب ، وسأل الأمانَ — هو وعمرو بنُ معاوية وعامر ابنُ المعمر — من إبراهيمَ ، فأجابهم إلى ذلك .

وبقى عمرانُ بالزاب إلى وفاة إبراهيم ومصيرِ الأمر إلى ابنه أبى العباس عبد الله ، فكتب إليه عمرانُ يسأله تجديدَ الأمان فأمّنه وأسكنه القصرَ معه ، وكان يغدو عليه ويروح إلى أن سُعِىَ به ، وقيل لعبد الله : « هذا ثار على أبيك وحالُه حالُه » . فبعث إليه فى الظهيرة ، فلم يشُكَّ فى الشر . وكان عبدُ الله قد قال لمولًى له : « إذا وَرَدَ علىَّ وهو مشتغل بالنظر فلا يَشعُر إلا وقد رَميتَ برأسه » ، فكان ذلك على ما حَدّه . وكان يحيى بنُ سلاَم الفقيهُ صاحبُ التفسير قد سَفَر بينهما فى الأمان على ماله ونفسه وولده ، فلما قتله وَجِد لذلك وقال : « لا أسكن بلدًا أُخفِرَ فيه العهدُ على يدى » ، فخرج إلى مصر ثم مضى إلى مكة فحج ، ورجع فلم يلبث إلا يسيراً حتى اعتلّ ومات ، ودُفن بمصر سنة مائتين . ومن شعر عمران فى حرب إبراهيم بن الأغلب مع تمّام بن تميم ، وقد برز من الصف :

---

(١) مدينته هى القصر القديم قرب القيروان . وهى حصن ابتناه إبراهيم بن الأغلب لينتقل إليه مع أهله وجنده وحشمه ، إذ كان يخشى أجناد العرب والخراسانيين لكثرة ثوراتهم على الولاة قبله . وقد بدأ إبراهيم بن الأغلب فى شراء الصقالبة والمماليك حتى كوّن منهم جيشاً ، ثم انتقل إلى ذلك الحصن الذى عرف بالقصر القديم ، وأنشأ حوله قصوراً أخرى ومسجداً ومعسكراً لجنده . وابن خلدون يسميه العباسية (٤/١٩٦) .

يا رُسُلَ الموتِ أنا عمرانُ   أنا الذى أنتم له أعوانُ
تُصعَقُ من خِيفتى الفرسانُ   يضحكُ عن أيامنا الزمانُ
نحن ضربنا الناسَ حتى دانوا   نَقتلُ أهلَ النَّكْثِ حيث كانوا

فخرج إليه رجل من أصحاب تمّام وهو يقول :

ارجِعْ على ظَلْعِكَ يا عمرانُ   قد جاءكَ الموتُ له تَهْتَانُ
/يَسْقِيكَهُ مِن راحتى سِنَانُ   والظنُّ يجلو شكَّه العِيانُ   [٣١-ا]

فشدّ عليه عمرانُ فطعنه فى ثُنْدُوَتِه فبدا عاملُ الرُّمح من خلفه .

٣٦ — عامر بن المعَمَّر بن سِنان التَّيْمى ، تَيْم الرَّباب (١)

كان على شُرطة إبراهيم بن الأغلب ، ثم ثار عليه مع عمران بن مُجالد وعَمرو بن معاوية ، والرئاسة منهم فى تلك الثورة لعمران ، إلى أن استأمنوا جميعاً إلى إبراهيم فأمّنهم . وكان عامر على قسطيلية والياً ، وهو القائل فيما وقع بين محمد بن مقاتل وتمّام بن تميم من الحرب وقيام إبراهيم بن الأغلب بنُصرته :

إذا كُرْبَةٌ شدّتْ خِناقَ محمدٍ   فليس لها إلا ابنُ أغلبَ فارجُ
أتاهُ بتمّامٍ على بأسِهِ بهِ   يُقادُ وقد ضاقتْ عليه المخارج
وقد كان بالإسراف ألقَى سَوادَهُ   ولم تختلجْه فى الخلاف الخوالج

(١) يريد أنه من تيم الرباب بن عبد مناة لا من تيم بن مرة أو تيم بن ثعلبة بن عكابة بن صعب أو تيم الأودم بن غالب .

فعاجله بالكيد حتى استفاده   وأدركه من بعدِ ما قِيلَ خارجُ
ولو أنه يستودعُ الشمس نفسَهُ   إذا وَلَجَتْ مِنهُ عليهِ الولائجُ

وله فى خروج خُرَيْش بن عبد الرحمن بتونس :

لولا دفاعك يا ابنَ أغلبَ أصبحتْ   أرضُ الغروبِ رهينةً لفسادِ
ولَعَمَّنا ذاكَ الخلافُ بفتنةٍ   تعدو كتائبُها بغير سَوَادِ
قالوا غداةَ لقائهمْ : لا ننثنِي   حتى نَحُلَّ « الخُلْدَ » من بغدادِ
فمُنوا بأشْوَسَ ما تزالُ جيادُه   تشكو الوَجَى من غارةٍ وطِرَادِ
نخرتْ به سَعْدٌ فأصبح بيتُها   فوق الفراقد ثابتَ الأوتادِ

ومن ولد عامر هذا حمزة بن أحمد بن عامر بن المعمَّر ، كان أديباً ظريفاً .

وأما أبوه المعمر بن سِنَان فقدِم مع يزيد بن حاتم المُهَلَّبى فى ولايته إفريقيةَ ، وكان زميلَه فى طريقه إذا ركب فى عَمّارِيَّتِهِ ، لأُنسِهِ به واستماعِهِ من حديثه . / [٣١-ب] وكان أعلمَ الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها ، وعنه أخذ أهلُ إفريقية حربَ غَطفانَ وغيرها من وقائع العرب .

٣٧ — حمزة بن السَّبَّال
المعروف بالحَرُون

أحد رؤساء القواد وشجعان الأجناد ، وكان له من إبراهيم بن الأغلب آثَرُ مكانٍ وألطفُ محلٍّ ، لِقِدم صُحبته إياه وتصرُّفِه معه حيث تصرفتْ حالُه ، فكان لا يدانيه عنده أخ ولا ولد ولا أحد من عشيرته . وكان والياً على طُبْنَة ،

ووجّهه إلى الرشيد فى القواد المتوثّبين على الولاة بالقَيْروان [... ...] [1] وولده ولد إبراهيم يتولون لهم [...] [1] إلى قيادةٍ إلى عِمالةٍ حتى انقرضت دولةُ بنى الأغلب . ومن شعره فى إيقاعه بالمذكورين فيه [2] :

سائلْ بأَبْرانَسٍ عَنّا ووَقْعَتِنا لما صببْنا القَنا نحو ابن مِرْدَاسِ
وَلَّى وخَلَّى سعيداً رَهْنَ نافذةٍ مِن طعنِ أَرْوَعَ للأرواح خَلّاسِ
فإن يتوبوا فقد ذاقوا وقائعَنا وإن يعودوا نعُدْ أُخرَى مِن الراسِ

وله فى حرب خُرَيش الخارج على ابن الأغلب :

إن غاب إبراهيمُ عَنّا أو حضرْ فإننى أنصُرُه فيمنْ نَصَرْ
واللهِ لا أرجعُ إلا بظَفَرْ ليس يموت المرء إلا بقَدَرْ
وكلُّ مَن خالَفَنا فقد كَفَرْ

فجعل ما يَشُدُّ على ناحيةٍ إلا هَدَّها . وبرز فارس من عسكر تمام بن تميم فى خلافه وهو يقول :

إنْ ظفرتْ كَفِّى بإبراهيمِ هَدَدْتُ رأسَ العزِّ من تميمِ

---

(١) بياض بالأصل . ومن اليسير أن نسد هذا الفراغ ونقرأ العبارة هكذا : « [ثم خدم] ولدُه ولدَ إبراهيم يتولون لهم [من ولاية] إلى قيادة إلى عمالة » .

ويلاحظ أن إبراهيم بن الأغلب بعد أن صار إليه الأمر أراد أن يبعد عن إفريقية كل من كان يخشى انقلابه عليه من وجوه العرب والقواد ، فأرسلهم إلى بغداد حيث سجنوا هناك ، ومن بينهم حمزة هذا مع أنه كان صديقه . أما أولاد حمزة فاشتهر منهم محمد بن حمزة فى حروب أبى محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب مع منصور الطنبذى . وقد قتل حمزة فى شهر صفر ٢٠٩/مايو ٨٢٣ فى معركة حامية مع الطنبذى ورجاله فى تونس .

(٢) لم أستطع تقويم هذا اللفظ ، وهو غير مفهوم . وقد جعله مولر « بالمذكورين فيه » وهو تقويم مقبول على اعتبار أن المراد : المذكورين فى هذا الشعر .

فلما سمعه إبراهيمُ نادى حمزةَ : « يا حمزةُ ، اخرج إلى هذا الكلب ! »
فخرج إليه وهو يقول :

أحلِفُ بالركنِ وبالحطيمِ ما فيكمُ كُفْوٌ لإبراهيمِ
ليُصبِحنّ اليومَ كالصَّريمِ

ثم شدّ عليه فقتله .

٣٨ — إبراهيم بن محمد الشِّيعى

/ من أبناء أهل خُراسان ووجوه أصحاب إبراهيم بن الأغلب ، وكان أقرب [٣٢ — ا]
الناس إليه فى [... ...][(١)] الداعية أهل خراسان ثم أهل الشام ثم أهل البلد[(٢)] ، وأنفذه رسولا إلى الرشيد وبعث صحبته برسل بهلول بن عبد الواحد[(٣)] المَدْغَرى ، فدخلوا عليه فى اليوم الثالث من قدومهم بغداد . واستأذن الشيعىُّ هذا فى الكلام بعد أن قال : « يا أمير المؤمنين ، رسولُ سيفك [... ... ...][(٤)] دولتك إبراهيم بن الأغلب » ، فأذن له على إثر هذا فخطب [.. ...][(٤)]. وكان

(١) بياض بالأصل ، نستطيع أن نسده بقولنا : فى [قتال] الداعية . والداعية المشار إليه هنا هو إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسنى ثانى أمراء الأدارسة بفاس . وكان بين الأدارسة والأغالبة تنافس وصراع ، وقد رأينا أن إبراهيم بن سالم بن الأغلب كان من المتهمين بقتل إدريس الأول .

(٢) هذه العبارة على أكبر جانب من الأهمية التاريخية ، فهى تلقى ضوءاً واضحاً على تكوين القوة العسكرية للأغالبة ، وقيمة كل فريق من الفرق التى كانت تكونها . ويضاف إليهم فرقة من العبيد السود كانوا هم الحرس الخاص لإبراهيم بن الأغلب وبنيه من بعده .

(٣) يستحسن أن تقرأ هنا : وبعث صحبته برسل [منهم] بهلول بن عبد الواحد المدغرى.

(٤) بياض بالأصل ، لا يعسر تصور ما ينبغى أن يكون فيه .

بليغاً مدركاً ، وهو القائل فى مجلس ابن الأغلب بالقَيْروان وبدار الإمارة منها عند قدومه لمحاربة تمام بن تميم بعد محاورة حسنة :

لولا ابن أغلبَ أضحَى الغربُ ليس بهِ عدلٌ ولا لبنى العباسِ سلطانُ
عَمّ الخلافُ قلوبَ القومِ فابتدعُوا إلا خصائصَ أدّتْها خُراسانُ
جلا ابنُ أغلبَ عنّا كلَّ مُظلمةٍ فيها المُطيعُ بِسُكْرِ الخوفِ حَيرانُ
كادتْ شياطينُ تمامٍ تَرِدْنَ بنا بَحرَ الضلالةِ والتمامُ [شَيْطَ]انُ[1]

٣٩ — عَمرو[2] بن معاوية القَيْسى

هو من ولد عُمَير بن الحباب السُّلَمى أحد فرسان قيْس وساداتها الأربعة فى الإسلام ، وهم : عبد الله بن حازم[3] والجحاف بن حكيم ، وعُمَير بن الحباب المذكور ، وزُفر بن الحرْث . وكان عَمرو بن معاوية [يتولى][4] ناحية القصريْن من إفريقية ، وخرج على إبراهيم بن الأغلب مع عِمران بن مُجالد ، وكان وزيرَه الغالبَ عليه فى أموره . ثم خرج ثانيةً على ولده زيادة الله بن إبراهيم — وكان قد ولاّه القصريْن وما إليهما — فتغلب على تلك الناحية وأظهر الخلاف ، فلما ظفر به زيادة الله قتله وولديه الحباب وسكتان[5] ، ودعا أهلَ بيته فشرب معهم ورؤوسُهم بين يديه ، فغضب لهم منصور بن نصر الجشمى[6] المعروف بالطُّنْبُذِىّ — وكان عاملاً على طرابلس — وتابعَه الجندُ ، فاضطربتْ إفريقيةُ

(١) بياض فى الأصل .
(٢) فى الأصل عُمر ولكنه فى بقية النص عمرو فقومته على هذا النحو .
(٣) عن عبد الله بن حازم السلمى انظر الكامل للمبرد ١ / ٢٤١ .
(٤) أضفت هذه الكلمة للسياق ، مستعيناً بما سيأتى بعد .
(٥) سبق أن علقنا على هذين الاسمين . انظر فهرس الأعلام .
(٦) كذا فى الأصل ، وربما كانت أيضاً : الحَشَمى .

على زيادة الله وحُصِر فى قصره ، ولم يبق فى يده إلا الساحلُ وقابس[1] / إلى أن [٣٢ - ب] قتل منصور واستأنس [. . .][2] إلى زيادة الله وصَفَتْ له إفريقيةُ واستقامت بعد حروب طويلة وخطوب جليلة .

ومن شعر عَمرو بن معاوية ما حُكى أن بعض أصحاب تمام بن تميم — يومَ التقى هو وإبراهيم بن الأغلب ، عند خروج تمام على ابن العَكّىّ — برز من الصف وهو يقول :

اليومَ نسقيكم سِوَى المُدَامِ   بالبيض يَهْوِى حَدُّها بالهامِ

حتى تُخَلُّوا الغربَ للتَّمَّامِ

وبرز إليه عمرو وهو يقول :

من مُبلغٌ قولى إلى التَّمَّامِ   حَلْفًا بِرَبِّ الحِلِّ والحرامِ

إنك محمول على الصَّمْصَامِ   وقد تلاقت حَلَقُ الحِزامِ

ثم شد عليه فأرداه عن فرسه .

٤٠ — بُهلول بن عبد الواحد المَدْغَرِىّ

كان رئيساً فى قومه ، وهو قام بأمر إدريس بن إدريس الحسنى صاحب المغرب ، ثم تغير عليه وفارقه ورجع إلى إبراهيم بن الأغلب عند ظهوره على إفريقية ، وذلك بتلطُّف إبراهيم فى إفساد ما بينه وبين إدريس ، فجرت بينهما مكاتبات كان فى بعضها مما كتبه البهلول إلى إبراهيم :

(١) الأصل : وفاس ، وهو تحريف من الناسخ .

(٢) بياض فى الأصل ، والمعنى مستقيم دون زيادة شىء .

لئن كنتَ تدعونى إلى الحق ناصحًا لتَـكشفَ عن قلبى ضميرَ خلافِ
لَقِدْمًا أتانا عنكَ أنَّك ناصحٌ لِمَنْ قال بالصُّلحِ الخلافةَ كافِ
وأنكَ محمودُ النقائبِ عنـدهمْ تُزَيِّنُ ما تأتى لهم بعفافِ
فعَجِّلْ علىَّ رَدَّ رأيى فإننى أردُّ الهوى للحقِّ حين يُوافى

فجاوبه إبراهيم بقوله :

عرضتُ على البهلول ما إن أصابَهُ تَعَوّض منـه طاعةً بخلافِ
ليركبَ نهجَ الحقِّ، والحقُّ واضحٌ ونهجُ العمى وعْرُ المسالكِ عافِ
فلا تتركَنْ رُشْدَ الهُدى لضلالةٍ كمُستبدلٍ رَنْقَ الشَّرابِ بطافِ
/ وبايعْ لهارونَ الإمامِ بطاعةٍ تجده على الإسلام خير مكافِ [٣٣-أ]

المائة الثالثة

٤١ — عبد الرحمن بن الحَكَم بن هشام الرّضا بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، أبو المُطَرِّف

وهو عبد الرحمن الأوسط والرابع من خلفاء بنى أمية بالأندلس . بويع له يومَ وفاة أبيه الحَكَم المعروف بالرَّبَضِيّ يومَ الخميس لثلاث — وقيل لأربع — بقين من ذى الحجة سنة ست ومائتين (١) .

وكانت خلافتُه إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام . وكان فصيحاً مفوّهاً شاعراً ، مع سعة العلم والحلم وقلة القبول للبَغْى والسعايات . وهو الذى استكمل فخامةَ المُلك بالأندلس ، وكسا الخلافةَ أبهة الجلالة . وظهر فى أيامه

---

(١) بويع لعبد الرحمن الأوسط بعد موت أبيه الحكم الربضى بيوم واحد ، أى يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة ٢٠٦ . وتاريخ وفاة الحكم الربضى ليس ثابتاً ، لأنه عندما شعر باقتراب منيته أخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ثم لابنه المغيرة من بعده يوم الأربعاء ١١ ذى الحجة ٢٠٦ ، ثم دخل قصره واحتجب حتى مات بعد ذلك بأيام . والثابت هو تاريخ ولاية عبد الرحمن ، وإنما تابعنا فيما قلناه هنا ماذكره ابن عذارى فى البيان المغرب : ٧٧/٢ .

الوزراء والقوادُ وأهلُ الكُوَر ، وشيّد القصور ، وجلب المياه من الجبل ، وبنى الرصيف على الوادى ؛ وهو القائل متشوقاً ومفتخراً :

فقدتُ الهوى مذ فقدتُ الحبيبا فما أقطع الليـــلَ إلا نحيباَ
وإما بدتْ لىَ شمسُ النها ر طالعةً ذكَّرتنى « طَرُوبا »(1)

(١) طروب هى جارية عبد الرحمن الأوسط المحببة إليه وأكبر جواريه سلطاناً عليه ، رغم أنها كانت أقلهن وفاءً له . وقد كان عبد الرحمن مولعاً بالنساء ، فاستكثر من الجوارى ، وكثر لهذا أولاده ما بين ذكور وإناث . وكان أكبر أولاده ، والمرشح لخلافته تبعاً لذلك ، ابنه محمد . وقد ذكرت المراجع أمه ، وهى تبر أو تهتز أو بهير وهذا هو الأصح . التى أرضعته جارية أخرى من جوارى عبد الرحمن هى « الشِّفاء » وكانت جميلة تقية عاقلة ، خرجت مع زوجها الأمير فى إحدى غزواته فأصابها المرض ، فأعادها إلى قرطبة ، فماتت فى الطريق ، ودفنت فى قرية مجاورة لطليطلة . وقد أنجبت طروب من الأمير عبد الرحمن ابناً سمى عبد الله ، فطمحت نفسها إلى أن تحوز ولاية العهد له ، واجتهدت فى ذلك اجتهاداً عظيماً دون توفيق ، وأخيراً لجأت إلى ما لجأت إليه مثيلاتها فى ظروف مشابهة : دبرت اغتيال عبد الرحمن وابنه محمد ليخلو الجو لابنها ، واشترك فى المؤامرة نصر الفتى كبير خصيان القصر . فكلفا متطبباً وفد من العراق فى ذلك الحين يسمى الحَرّانى بأن يعد سُمًّا ، فأعده خوفاً على نفسه من طروب ، وأفشى السر إلى جارية أخرى تسمى « فَخْر » فأبلغت الأمير ، فلما أتاه نصر بالشراب المسموم طلب إلى نصر أن يشربه فى حضرته ، فلم يستطع إلا أن يفعل ومات . أما طروب فلا نسمع أن الأمير غضب عليها . وهذا يميل بى إلى الشك فى حكاية المؤامرة كلها ، وإن كانت قد وردت عند الثقات من مؤرخينا ، إذ كيف يعقل أن تقوم طروب بذلك ثم لا يصيبها عقاب ؟ وإذا كان المراد هو التخلص من محمد ولى العهد وأبيه عبد الرحمن ، فلماذا لم يقدم السم إلى هذا أيضاً ؟ الحقيقة — فيما أحسب — أن عبد الرحمن أكثر من الجوارى ، وكانت جواريه معروفات للناس بأسمائهن ، ذكر المؤرخون منهن طروباً والمؤمَّرة والشفاء والمَدَنيّات الثلاث فضـــل وقلم وعلم ، فكان ذلك مثاراً لكثير من الشائعات والأقاويل .

انظر : التكملة لابن الأبار ، القسم الذى نشره **A. GONZALEZ PALENCIA** و **M. ALARCON** فى الكتاب المسمى ***Miscelánea de Estudios y textos Arabes*. Madrid.** أرقام ٢٨٥٢ و٢٨٥٣ و٢٨٥٤ و٢٨٥٥ و٢٨٥٦ و٢٨٥٨ .

وابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٧٦ — ٧٧ .

فيا طولَ شوقى إلى وجهها ويا كبداً أورثتها نُدوبا
ويا أحسنَ الخلقِ فى مقلتىَّ وأوفرَهم فى فؤادى نصيبا
لئن حال دونكِ بُعدُ المزا رِ مِن بَعد أن كنتِ منى قريباَ
لقد أورث الشوقُ جسمى الضنى وأضرم فى القلب منى لهيبا
عدانى عنكِ مزارُ العِدا(١) وقَوْدى إليهم لُهَاماً لهيبا
كأيِّنْ تخطَّيْتُ من سَبْسبٍ(٢) وجاوزتُ بعد دروبٍ دروبا
ألاقى بوجهىَ حَرَّ الهجيرِ إذا كاد منه الحصى أن يذوبا(٣)
وأدَّرِعُ النَّقْعَ حتى لَبِسْـ ـتُ مِن بَعد نضرة وجهى شحوبا
/أريد بذاك ثوابَ الإله ومَن غـيره أبتغيه مُثيبا [٢٣ - ب]
أنا ابنُ الهشامَيْن مِن غالبٍ أَشُبُّ حروباً وأُطْفِى حروبا
بِىَ ادَّارَكَ اللهُ دينَ الهُدَى فأحْيَيْتُه واصْطَلَمْتُ الصليبا
سَمَوْتُ إلى الشِّرْكِ فى جَحْفَلٍ ملأْتُ الحُزونَ بهِ والسُّهُوبا

وذكر سَكَنُ بنُ إبراهيم الكاتبُ(٤) وغيرُه أنه أمر

---

(١) أورد ابن عذارى الأبيات ابتداء من هنا ، وقال إن عبد الرحمن قالها عندما خرج لغزو جليقية سنة ٢٣٥ ، وأخطأ فقال : فقال عبد الرحمن ابن الشِّمر (٢/٨٥ - ٨٦) ، وصحتها « فقال عبد الرحمن بن الحكم » .

(٢) عند ابن عذارى : وكم قد تعسفت من سبب .

(٣) عند ابن عذارى :

ألاقى بوجهى سموم الهجـ ـير وقد كاد منه الحصى أن يذوبا

(٤) لم نعثر على أى تفصيل خاص بحياة سكن بن إبراهيم الكاتب على الرغم من أنه كان من أوائل المؤرخين فى الأندلس ومجيديهم ، فهو مصدر من مصادر ابن حيان ؛ وابن سعيد — فى الذيل الذى علقه على رسالة فضل الأندلس لابن حزم — يسميه بالأخبارى ، ويثنى عليه ويذكر له كتاباً عن طبقات الكتاب فى الأندلس ، وقد سماه ابن حزم « سكن بن سعيد » . وكل ما لدينا من المعلومات عنه أنه كان من إشبيلية وأنه توفى سنة ١٠٦٥/٤٥٧ .

انظر : الضبى ، بغية ، رقم ٨٣٤ ص ٣٠٣ .

لجارية[1] من حظاياه بعقد جوهر كانت قيمته عشرة آلاف دينار ، فجعل بعضُ من حضره من وزرائه وخاصته يُعظم ذلك عليه ويقول : « إن هذا من الأعلاق المضنون بها ، الذخرة للنائبة » ، فقال له عبد الرحمن : « ويحك ! إن لابِس العقد أنفس خطراً ، وأرفع قدراً ، وأكرم جوهراً . ولئن راق من هذه الحصباء منظرُها ، ولَطُفَ إفْرِنْدُها ، لقد برأ الله من خلقه البَشَرى جوهراً تَعْشَى منه الأبصار وتَتِيهُ الألباب . وهل على الأرض من شريف جوهرها ، وسَنِيِّ زِبْرِجِها[2] ، ومُسْتَلَذِّ نعيمها ، وفاتن بهجتها ، أقَرُّ لعينٍ ، أو أجمعُ لزينٍ ، من وجهٍ أكملَ اللهُ حُسنَه ، وألقى عليه الجمالُ بهجتَه ؟ » ثم دعا بعبد الله بن الشمر[3] شاعرِه وجليسِه فذكر له ما كان بينه وبين وزيرِه في شأن العِقد وقال : « هل يحضرك

= المقرى ، نفح الطيب (لايدن) : ١١٩/٢ .

جايانجوس ، ترجمة القسم الأول من نفح الطيب المعروفة باسم *History of the Muhammedan Dynasties in Spain.* ٤٦٤/١ .

الغزيرى ، فهرس الإسكريال : ١٣٧/٢ .

پونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ، رقم ١٠٤ ص ١٣٨ .

الترجمة الفرنسية لرسالة ابن حزم فى فضل الأندلس التى عملها *Charles Pellat* ونشرها باسم : ***Ibn Hazm, Bibliographe et Apologiste*** **(Al - Andalus, XIX (1954) fasc. 1, § 27. p. 87 et n. 16.**

وأنخل جنذالث پالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة ناشر هذا الكتاب (القاهرة ١٩٥٥) ص ٢١٠ .

(١) قرأها دوزى (٦٢) : بجارية . وأورد نفس الخبر ابن عذارى فى البيان (٩٢/٢) وقال إن هذه الجارية هى طروب .

(٢) البيان (٩٢/٢) : زبرجدها .

(٣) عبد الله بن الشِّمر بن نمير القرطبى ، شاعر عبد الرحمن الأوسط ومنجمه . ترجم له ابن سعيد فى « المغرب » ترجمة واسعة وجعله تحت علماء التنجيم ، وأورد كثيراً من شعره ونوادره فى التنجيم (طبعة الدكتور شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٣) رقم ٥٩ ج١ ص ١٢٤ .

شيء في تأكيد ما احتججنا به ؟ » ، قال : « نعم » ، وأطرق بُرَيْهَةً ثم أنشأ يقول :

أتُقْرَنُ[(١)] حصباء اليواقيت والشَّذْرِ ... إلى مَن تعالى عن سَنا الشمسِ والبَدْرِ ؟
إلى مَن بَرَتْ قِدْماً يدُ اللهِ خَلْقَهُ ... ولم يَكُ شيئاً غيرُه أحدٌ يَبْرِى[(٢)] ؟
فأكرِمْ به مِن صيغةِ[(٣)] اللهِ جوهراً ... تضاءلَ عنه جوهرُ البَرِّ والبحر
له خَلَقَ الرحمٰنُ ما فى سمائِه ... وما فوقَ أرضيه ومَكَّنَ فى الأمر

فأعجبَ الأميرُ عبدُ الرحمن ببديهته ، وتحركَ طبعُه للقول وأنشأ يقول مناغياً على رَوِيِّه :

قَرِيضُكَ يا ابنَ الشمر عَفَّى على الشِّعرِ ... وأشرقَ بالإيضاح فى الوهم والفكرِ[(٤)]
إذا جال فى سمعٍ يُؤدِّى بسحرِه ... إلى القلبِ إبداعاً يَجِلُّ عن السِّحْرِ[(٥)]
/ وهل بَرَأ الرحمنُ فى كل ما برا ... أقرَّ لعينٍ من مُنَعَّمَةٍ بكرِ [٢٤-أ]
ترى الوردَ فوق الياسمين بخدِّها ... كما فَوَّف[(٦)] الروضُ المنوَّرُ بالزهرِ
فلو أننى مُلِّكْتُ قلبى وناظرى ... نَظَمْتُهما منها على الجيد والنحرِ

فقال له ابنُ الشمر : « يا ابنَ الخلائف ، شِعركَ واللهِ أجود من شِعرى ،

---

(١) الأصل : أيقرن ، والتصويب من البيان المغرب : ٢/٩٢ .

(٢) الأصل : يبصرى ، والتصويب من البيان : ٢/٩٢ .

(٣) فى البيان : صنعة .

(٤) فى البيان (٢/٩٢) : وجل عن الأوهام والذهنِ والفكرِ .

(٥) فى البيان (٢/٩٢) :

إذا شافهتْه الأذن أدى بسحرها ... إلى القلب إبداعاً فجل عن السحر

(٦) عند دوزى : فوَّق ، ورواية الأصل صحيحة . فَوَّف من الفوف ، وهو البياض مع رقة (اللسان : ١١/١٨٠) .

وثناؤك عليه أفضل من صِلتى ، وما مِنحتُك لى إلا تَطَوُّلاً منك بغير استحقاق منى » ، فأضعف جائزته وأكثر الثناء عليه(١) .

وله أيضا فى النسيب :

قتلتِنى بهـــواكا وما أحِبُّ سِواكا
مَن لى بسحرِ جُفونٍ تُدِيره عَيْنـــاكا
وحمرةٍ فى بياضٍ تـكسى به وجنتاكا
اعطِف علىّ قليلاً وأَحْيِنى برضاكا
فقد قنعتُ وحسْبى بأن أرى من رآكا

وحكى ابنُ فرج صاحب « كتاب الحدائق » أنه فرّق فى يومِ فَصْدٍ له بِدَراً على مَن حَضَرَه ، وعبيدُ الله بن قَرْلُمان أحد خواصه ومواليه غائب فى باديته ، فابتدر فوجد أمراً قد نفذ ، فكتب إليه بأبيات منها :

يا مَلِكاً حَلَّ ذُرَى المجـــدِ وعَمَّ بالإنعـــام والرِّفْدِ
طُوبَى لمنْ أسْمعتَه دعوةً فى يومِك المأنوسِ بالفَصْدِ
فظلّ ذاكَ اليومَ مِن قَصْفِهِ مُستوطِناً فى جَنة الخُـــلْدِ
وقد عَدَانى أن أُرى حاضراً جَدٌّ متى يُحْظِى الورى يكــدِ
فامْنُنْ بتنويلىَ جَدًّا لم يزلْ يَعُمُّ أهـــلَ القُرب والبُعْدِ

(١) روى ابن عذارى (البيان : ٢/٩٣) نادرة لطيفة ، قال : ثم أمر لابن الشمر ببدرة فيها خمسمائة دينار ، فخرج مع الوصيف يحملها له تحت إبطه ، فلما تواريا عن الأمير قال له الوصيف : « أين لذات العمر يا ابن الشمر ؟ » فقال : « تحت إبطك يا سيدى . . »

فوقَّع فى أسفل كتابه : « مَن آثرَ التَّضجُّع فليَرْضَ بحظه من النوم ! » ، فجاوبه ابنُ قرلمان بأبيات أولها :

* لا نمتُ إن كنتُ يا مولاى محروماً *

فأمر له بالصِّلة وردَّ فى جوابه :

لا غَروَ أنْ كنتَ ممنوعاً ومحروماً إذ غبتَ عنّا وكان العرفُ مقسوماً
فلن ينالَ امرؤٌ من حظه أملاً حتى يشُدَّ على الإجهادِ حَيْزوماً
/ فهاكَ من سَيْبِنا ما كنتَ تأمُله إذ نُمْتَ فوق رجاء الوِردِ تحويماً [٣٤ - ب]

٤٣ — ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحَكم ، أبو عبد الله

بويع له فى صبيحة الليلة التى توفى فيها أبوه ، وذلك يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وهو ابن ثلاثين سنة . وكان أيمنَ الخلفاء بالأندلس مُلكاً ، وأسراهم نفسا ، وأكرمهم تَثَبُّتاً وأناةً ؛ وكان السعى عنده ساقطاً . يجمع إلى هذه الخلال الشريفة البلاغةَ والأدبَ . وتوفى يوم الخميس مُنْسَلخ صفر — وقيل لليلة بقيت منه — سنة ثلاث وسبعين ومائتين وهو ابن خمس وستين [سنة] ، فكانت خلافته أربعاً وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً . وهو القائل فى منصرفه من بعض غزواته :

قفَلتُ فأغمدتُ السيوفَ عن الحربِ وما أُغمدتْ عنى السيوفُ من الحبِّ
صدرتُ وبى للبعد ما بى ، فزادنى إلى الشوق أشواقاً رجائىَ فى القربِ
أُحُلُّ شِدادى فى السرادقِ نازلاً وللشوق عقد ليس ينحلُّ عن قلبى
أقُرطبة ، هل لى إليكِ وفادة تقر بعينى أو تمهد من جنبى ؟

سَقى القصرَ غيثٌ بالرُّصافة[١] مثلُهُ وجادت عَزَالِيهِ[٢] كجودىَ فى الجدب
عدانى عدوٌّ عن حبيبٍ ، فزرتُهُ بجيشٍ تضيق الأرضُ عن عَرضه الرحب
إذا اسودَّ من ليلِ الدروع تبلجتْ أسنَّتُهُ فيه عن الأنجم الشُّهْب
على أننى حِصْن لجيشى إذا التقَوْا وعزمى بهمْ أدنى السيوف إلى الضرب

وله :

ذكرَ الصَّبوحَ فظل مصطبحًا يستعمل الإبريقَ والقدحَا
ما زال حيًّا وهْوَ يشربُها حتى أماتته الكؤوسُ ضُحَى

٤٣ — ابنه الأمير عبد الله بن محمد ، أبو محمد

وَلِىَ بعد أخيه أبى الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمن فى صفر سنة خمس
[٣٥-١] وسبعين ومائتين ، وتوفى سنة ثلاثمائة وهو ابن اثنتين وسبعين سنة ، / فكانت خلافتُه خمساً وعشرين سنة . وكان أديباً ، شاعراً ، بليغاً ، بصيراً باللغة والغريب وأيام العرب . وفى أيامه اضطرمت نار الفتنة بالأندلس فتنغَّص عليه مُلكه .

ومن مشهور شعره ما وقَّع به إلى الوزراء فى قصة موسى بن حُدَيْر وعيسى ابن أحمد بن أبى عبده[٣] ، إذ أراد كل واحد منهما أن يكون مجلسُه فوق الآخر ،

---

(١) قرأ دوزى هنا (ص ٦٥) : فالرصافة .

(٢) يقال للسحابة إذا انهمرت بالمطر الجَوْد قد حلت عَزَالِيها وأرسلت عزاليها (اللسان : ٤٦٩/١٤ — ٤٧٠) .

(٣) بنو حُدَير وبنو أبى عبدة من بيوت الأندلس الكبيرة التى تقاسمت الوظائف الكبرى فى الإمارة ثم فى الخلافة الأندلسية ، وكانت تعرف بالبيوتات ، وأكبرها هذان البيتان ثم بنو شهيد وبنو عبد الرءوف وبنو فطيس ، وكلهم من موالى الأمويين المشرقيين أو الأندلسيين أو موالى مواليهم . فبنو حدير كانوا من موالى البيت الأموى المشرقى ولهذا كانوا معدودين فى =

فَسْخاً لما كان قد رتّبه والدُه الأميرُ محمد بن عبد الرحمن من رفع الموالى الشاميين على البلديين :

موالى قريشٍ من قريشٍ فقدِّموا   موالى قريشٍ لا موالى مُعَتِّبِ
إذا كان مولانا يساوم عندنا   سِــواه فمولانا كآخر أجنبى

حوّل اسم « مغيث » إلى « مُعَتِّب » إغماضاً وانقياداً للقافية .

وله فى النسيب :

يا كَبِدَ المشتاق ما أوجعكْ   ويا أسيرَ الحب ما أخضعكْ
ويا رسولَ العين من لحظها   بالرد والتبليغ ما أسرعكْ
تذهب بالسر وتأتى به   فى مجلسٍ يَخْفَى على مَن معكْ
كم حاجةٍ أنجزتَ موعدَها   تباركَ الرحمٰنُ ، ما أطوعكْ !

وله فى ذلك :

ويَحِى على شادنٍ كحيلٍ   فى مِثله يُخلَع العِـــذارُ
كأنمـــا وجنتاه وردٌ   خالطَـــه النَّوْرُ والبَهارُ
قضيبُ بانٍ إذا تثنَّى   يُدير طرفاً به احورارُ
وقْفٌ عليه صفاء وُدِّى   ما اختلف الليلُ والنهارُ

--- الشاميين ، أما بنو أبي عبدة فكانوا موالى مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك ، ولهذا فقد كانوا معدودين فى البلديين أى أهل البلد ، لأن أصلهم من الأندلس . وقد كان الأمير محمد قد قرر أن يتقدم الشاميون على البلديين ، ومن المعروف أن الوزارة فى الأندلس كانت تتألف من حاجب أشبه برئيس الوزراء ثم عدد من الوزراء ، فلو اجتمع فى الوزارة شامى وبلدى كان التقدم للأول . وكان كل من موسى بن محمد بن حدير وعيسى بن أحمد بن أبي عبدة من أكبر رجال بيتيهما ، وقد ولى أولها الحجابة للناصر . فلما اجتمعا فى الوزارة أيام الأمير عبد الله أراد عيسى بن أحمد ابن أبي عبدة أن يتقدم على صاحبه ، لأن أباه أبا العباس أحمد بن أبي عبدة كان أكبر قواد الأمير عبد الله وهو صاحب الفضل فى إنقاذ الإمارة من الضياع ، ولكن الأمير عبد الله آثر أن يظل الأمر كما رسمه أبوه ، وقرر أن يظل بنو حدير متقدمين على بنى أبي عبدة .

وله فى الزهد :

يا مَن يراوغه الأجلْ حتّامَ يُلهيكَ الأملْ
حتّامَ لا تخشى الرّدَى وكأنه بكَ قد نزلْ
أغفلْتَ عن طلبِ النجا ةِ ولا نجاةَ لمن غفلْ
هيهات يَشغلُك الرجا ء ولا يدوم لك الشُّغُلْ

[٣٥ - ب] / وله فى مثله :

أرى الدنيا تصير إلى فناء وما فيها لشئٍ من بقاء
فبادرْ بالإنابةِ غيرَ لاوٍ على شئٍ يصير إلى فناء
كأنكَ قد حُملتَ على سريرٍ وصار جديدُ حُسنكَ للبلاء
فنفسَك فابْكها أو نُحْ عليها فرُبّتَما رُحِمْتَ على البكاء

وكان ، بفضل أدبه ، ربما استرسل ، فقال بحسب ذلك أو تمثل ، ثم لا يدعه كرمُ الأوائل ، وشرف الشمائل ، حتى يُدنى من أقصاه ، ويُبدى لمن أعتب رضاه . قال فى النَّضْر(١) بن سَلمة الكلابى :

أنت يا نضر آبِدَهْ لستَ تُرْجَى لفائدهْ
إنما أنت عـــدة لـــكنيف ومائده

(١) فى الأصل : النضر بوضوح ، وكذلك عند ابن عذارى (٢/ ١٥٤) . ولكن فرانثيسكو كوديرا ناشر تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى قرأه : نصر . وهو النضر بن سلمة ابن وليد بن أبى بكر بن عبيد بن بلج بن عبيد بن على الكلابى القيسى . ترجم له ابن الفرضى تحت رقم ١٤٩٦ ، ج ٢/ ٢٨ - ٢٩ وقال إنه من أهل قرطبة ، يكنى أبا محمد ، استقضاه الأمير عبد الله بن محمد بقرطبة مرتين ثم استوزره . . وقال الرازى إنه توفى يوم الثلاثاء ٩ ذى الحجة ٣٠٢/ ٢٦ يونيو ٩١٥ . وترجم ابن الفرضى لأخيه محمد تحت رقم ١١٣٩ (٢/ ٣٢٠) وقال إن الأمير عبد الله استقضاه بعد أخيه النصر (كذا وصحتها : النضر) بن سلمة ، وكان رجلا صالحاً كثير العلم . توفى فى ذى الحجة ٢٨٩/ نوفمبر ٩٠٢ .

وعلى ذلك استقضاه مرتين ، ثم استوزره واستقضى أيضاً أخاه محمد بن سلمة تقيّلا للأخلاق الحَكَمية[1] ، وجرياً على الأعراق العَبْشَمية .

وقرأتُ في تاريخ الُحمَيدْى ، أن الوزير سليمان بن وانسُوس[2] — وكان من رؤساء البربر — دخل عليه يوماً — وكان عظيم اللحية — فلما رآه مقبلا جعل الأمير عبد الله ينشد :

هِلَّوفة[3] كأنها جوَالِقُ نكراء لا بارك فيها الخالقُ
للقمل في حافاتها نقانقُ فيها لباغى المتَّكا مرافقُ
وفى احتدام الصيف ظلٌّ رائقُ إن الذى يحملها لمائقُ

ثم قال له : « اجلس يا بربرى ! » فجلس وقد غضب فقال : « أيها الأمير ، إنما كان الناس يرغبون فى هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم ، وأما إذ صارت جالبة للذل فغَنِينا عنكم ، فإن حُلْتُم بيننا وبينها فلنا دور تسعنا ، لا تقدرون على أن تحولوا [بيننا و][5] بينها » ثم وضع يديه فى الأرض وقام من غير أن يسلم ،

(١) هنا يلمح ابن الأبار ويشير إلى ما تقتضيه « الأخلاق الحكمية » و« الأعراق العبشمية» إشارة إلى غضب السلطان أبى زكريا عليه وإبعاده وإلزامه بيته ، مما حفز ابن الأبار على تأليف كتابه « إعتاب الكتّاب » على ما هو معروف وما ذكرناه فى المقدمة . وقد كان ابن الأبار سيىء الحظ فى تونس بسبب حدة مزاجه وعدم ضبطه لسانه ، فكان معظم أيامه مبعداً أو مغضوباً عليه كالمبعد ، ولهذا تكثر فى كتبه مثل هذه الإشارات .

(٢) سيترجم ابن الأبار لسليمان بن وانسوس هذا فيما بعد .

(٣) الهلوفة والهلوف اللحية الضخمة .

(٤) ربما كانت صحتها نقانق أى نقيق .

(٥) وردت هذه العبارة مضطربة بالأصل ، بعضها فى المتن وبعضها فى الهامش ، وقد وردت « فغنينا » « تغنينا » وقد قومها دوزى (ص ٦٧) على هذا النحو ، وهو تقويم مقبول ، فأخذناه . وقوله : « فإن حلتم بيننا وبينها » المراد بها المنزلة أو وظيفة الوزارة التى كان يحتلها سليمان بن وانسوس فى ذلك الحين . وأما قوله : « فلنا دور تسعنا لا تقدرون على أن تحولوا بيننا وبينها » فإشارة إلى بيت أسرته الأول فى ماردة ، وكان جده قد ثار فيها وامتنع على الحكم الربضى وسبب له متاعب طويلة حتى استسلم ولده وانسوس ونشأ ابنه سليمان فى قرطبة على الطاعة . وتصرف الأمير عبد الله مع سليمان يعرض علينا جانباً من سياسته العامة ، فقد كان يدارى الناس ما أمكن تجنباً لمزيد من الثورات التى ملأت عصره كله .

ونهض إلى منزله ، فغضب الأمير وأمر بعزله ورفع دَسْتَه(١) الذى كان يجلس عليه ؛ وبقى كذلك مدة .

ثم إن الأمير عبد الله وجد فقْدَه(٢) لغنائه وأمانته ونصيحته وفضل رأيه ، فقال للوزراء : « لقد وجَدتُ لفقد سليمان تأثيراً ، وإن أردتُ استرجاعَه ابتداء منا كان ذلك غضاضةً علينا ، ولوَددتُ أن يبتدئنا بالرغبة » ، فقال له / الوزير [٣٦ — ا]
محمد بن الوليد بن غانم : « إن أذنتَ لى فى المسير إليه استنهضتهُ إلى هذا » فأذن له . فنهض ابنُ غانم إلى دار ابن وانسوس فاستأذن ، وكانت رُتبة الوزارة بالأندلس أيام بنى أمية ألا يقوم الوزير إلا لوزير مثله ، فإنه كان يتلقاه وينزله معه على مرتبته ولا يحجبه أوّلا لحظةً(٣) ، فأبطأ الإذنُ على ابن غانم حيناً ، ثم أذن له ، فدخل عليه فوجده قاعداً ، فلم يتزحزح له ولا قام إليه . فقال له ابن غانم : « ما هذا الكِبْر ؟ عهدى بك وأنت وزير السلطان وفى أبهة رضاه تتلقانى على قَدَم وتتزحزح لى عن صدر مجلسك ، وأنت الآن فى موجدته بضد ذلك ! » فقال له : « نعم . لأنى كنت حينئذ عبداً مثلك ، وأنا اليوم حر » ، فيئس ابنُ غانم منه وخرج ولم يكلمه ، ورجع إلى الأمير فأخبره ؛ فابتدأ الأمير بالإرسال إليه ورده إلى أفضل ما كان عليه .

٤٤ — يعقوب ابن الأمير عبد الرحمن بن الحَكم بن هشام

ويُكنى أبا قُصَىّ ؛ كان أديباً شاعراً مطبوعاً كلفاً بالعلوم ، جواداً لا يُليق

(١) أى عزله من الوزارة . وقد كان لكل عضو من أعضائها دست أى مقعد يجلس عليه عند اجتماع الوزراء . وكان دست رئيسهم — وهو الحاجب — أعلى من دسوت الآخرين.
(٢) الأصح أن نقرأ هنا : وَجِد لفقده ، أى حزن لغيابه .
(٣) كذا فى الأصل بوضوح . وأصح أن نقرأ هنا : ولا لحظة .

شيئا[1] ، وهو القائل فى ابن أخيه أبى أمية العاصى ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن من قصيدة :

تُنادِى ماجداً من عبد شمسٍ زَكِىَّ الفرع مفضالَ اليدينِ
سما للمكرُمات فقدْ حواها بهنـديٍّ وخطارٍ رُدَيْنى
وغَيْثاً حين يَشْكُبُ لا الثريا به جادتْ ولا نوء البُطَيْنِ

ما أحسن قول أبى مروان بن حيان ، وذَكَر ثناء معاوية بن هشام الشبينسى على أبى قُصى هذا : أقول : وصَفه بالطبع فى الشعر ، ثم لم ينشد له ما يصدِّق وصْفَه ، بل أنشد له ثلاثة أبيات [من قصيدة مدح بها ابن أخيه العاصى ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن][2] ليست بطائل . وله مما قرأتُ فى « كتاب الحدائق » لابن فرج :

يا ابنَ الخلائف من بنى فِهْرِ [... ... ...] الزهرِ[3]
يا أكْرَمَ[4] الأمـــلاك كلهم [... ... ...] مضطر
إن الصيام قد انقضى ومضى ينثدى يديك [... ...] البشر

---

(١) يقال : فلان ما يُليق شيئاً من سخائه ، أى ما يمسك . (اللسان ١٢/٢١٠) .

(٢) ابن الأبار ينقل هنا عن ابن حيان ، وقد وجدت الموضع فى مخطوطته التى عثرنا عليها ، وأعِدُّها للنشر مع الدكتور محمود على مكى (١٩٥ – ا) ، وأكملت نقص متن ابن حيان منها . وقد علق ابن حيان على هذه الأبيات بقوله : اضطرته القافية إلى أن قرن بين أغزر الأنواء وأنزرها ، فأحال جدا » . والأبيات الثلاثة هى المذكورة آنفاً ، وبين روايتى ابن حيان وابن الأبار لما نقلاه عن معاوية ابن هشام الشبينسى بعض خلاف فى الألفاظ .

(٣) وردت هذه الأبيات فى الأصل مبتورة هكذا ، ومن أسف أننا فقدنا كتاب الحدائق لابن فرج ، ولم أستطع إكمالها من أى مرجع آخر .

(٤) فى الأصل : كرام ، وصوبتها للوزن .

[٣٦ - ب]

٤٥ - /أخوه بِشْر ابن الأمير عبد الرحمن

ذكر أبو محمد بن حزم فى كتاب « جمهرة الأنساب »[١] أنه كان شاعراً ، وأنشد له أبو عمر بن فرج صاحب « كتاب الحدائق » :

حجابك لى عن الدنيا حجابُ ويوم لا أراك به عذابُ
وقد كانت تضيق الأرضُ عندى إذا واراك سِتْرٌ أو نقابُ
فكيف أعيش إذ[٢] واراك عنى قصور دونها بابٌ فبابُ ؟

وليعقوب و بِشْر هذين إخوة جلة [منهم][٣] هشام ، وكان من أهل العلم والفضل والبصر بالعربية ، وأكثَرَ من الرواية عن يحيى بن يحيى . وكان أبوه الأمير عبد الرحمن الحكم قد نصَبه فى خلافته للصلاة على جنائز أهل قصره وأكابر رجاله ، كما نصب عبد الرحمن [بن معاو] ية ابنه هشاماً . [ومنهم أبان و ع] ثمان على اختلاف فيه ، [وهما][٤] ابنا عبد الرحمن بن الحكم ، وكانا أديبين شاعرين ، وسيأتى ذكرهما فى آخر التأليف إن شاء الله تعالى .

---

(١) لا وجود لهذا فى « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم التى بين أيدينا ، مما يدل على أن نسختنا مختصرة . ومن أسف أن ذلك الاختصار نال الكثير مما وصلنا من الكتب.

(٢) الأصل : إذا ، ولا يستقيم به الوزن .

(٣) أضافها دوزى هنا (٦٩) وهى إضافة فى موضعها .

(٤) وردت هذه العبارة مضطربة فى الأصل ، بعضها فى المتن وبعضها فى الهامش ، وقد رتبناها على هذا النحو كما فعل دوزى (ص ٦٩) . وقد أثبت دوزى اسم أبان اعتماداً على أن ابن الأبار ترجم له مع أخيه عثمان بعد ذلك . ولم أجد اسم أبان بين أولاد عبد الرحمن بن الحكم كما أوردهم ابن حيان نقلا عن الرازى (مخطوط ١٩٤ ب) ، وليس له ذكر كذلك فى نسب بنى أمية الأندلسيين كما ذكره ابن حزم فى « الجمهرة » (ص ٩٠) ، وربما كان هذا هو السبب فى قول ابن الآبار بعد أن ذكر أبان وعثمان : « على اختلاف فيه » .

٤٦ — القاسم ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحَكم ، أبو محمد

كان من الأدباء الشعراء ، إلا أنه مُقِلّ . وكان أحد الجبابرة الموصوفين ، شديد البَأْو تيّاهاً ؛ وقبض عليه أخوه الأمير عبد الله فمات فى حبسه مسموماً .

ومن شِعره [و](1) بديهته السائرة فى الناس ، وقد دخل دار أخيه عثمان بن محمد فاستسقى ماء فأبطأ عليه غلامه لعلة لم يقبلها ، وأنشأ يقول :

الماء فى دارِ عثمانَ له ثمنٌ ... والخبزُ فيها له شانٌ من الشانِ
فاسْلَحْ على كلِّ عثمانٍ مررتَ به ... إلا الخليفةَ عثمانَ بنَ عفانِ

كذا قال ابنُ حيّان ، وهو غلط لاخفاء به . وإنما البيتان من قطعة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى أنشدها أبو عمر [بن عبد البر النمرى فى كتاب « بهجة](2) المجالس » من تأليفه وهى :

يا أختَ كِنْدَةَ جافِى شرب عثمان ... وأزمِعى لبنى أودٍ بهجرانِ
يا أختَ كِندة سِيرى سير ساخطةٍ ... كىْ تنتوِى مُنتوَى غَضْبَى وغَضبانِ
/الماء فى دارِ عثمانَ له ثمنٌ ... والخبزُ فيه له شانٌ من الشانِ [٣٧ – ١]
عثمان يعلمُ أنَّ الحمدَ ذو ثمنٍ ... لكنَّه يشتهى حمداً بمَجانِ
والناسُ أكيسُ من أن يَحمدوا رجلاً ... حتى يَرَوْا عنده آثارَ إحسانِ
اغسلْ يديكَ بأشنانٍ وأنقِهِما ... غسْلَ الجنابةِ من معروف عثمانِ
واسلَحْ على كل عثمانٍ مررتَ به ... إلا الخليفةَ عثمانَ بنَ عفانِ

---

(١) أضفنا الواو هنا للسياق .

(٢) بياض فى الأصل ، وهكذا أكمله دوزى ، وهو حسن .

وأنشد له الحُمَيْدى وقال فيه [... ...] القاسم غلط منه[1] :

سَكَّنتُ من قلبى الهوى ما أمكنا ولقد أراه للصبابة مَعدنَا
هذا هلالٌ قد بدا ومدامةٌ تجرى براحته وعيش قد هَنَا

وله أبيات كتب بها إلى محمد بن عبد العزيز العتبى الأديب لم يُجِد رصفَها فرأيت حذفها .

٤٧ — المطرف ابن الأمير محمد ، أبو القاسم

شقيق القاسم المذكور آنفاً . برع فى الشعر وهو ابن عشرين سنة ، وتوفى معتَبَطاً فى حياة أبيه وهو ابن أربع وعشرين ، وكان آدَبَ وَلَدِ الأمير محمد وأشعرهم . ذكر ذلك ابن حَيّان ، وقال أبو محمد بن حزم فى كتاب « جمهرة الأنساب » من تأليفه — وذَكَر المطرف هذا : « كان شاعراً مفلقاً ، عالما بالغناء . وكان له عَقِب قد انقرض » .

وأنشد له صاحب « الحدائق » يرثى أخاه عبد الرحمن بن محمد :

أخٌ كان إن لم يرع الناسُ أصبحتْ مواهبُهُ للنـاسِ وهى مرابعُ
كثيرٌ عليكَ الحزن مِن كلِّ جانبٍ كما كَثرتْ مِن راحتيكَ الصنائعُ
عليكَ سلامُ الله ، إن النَّدى لهُ زوالٌ وإنَّ السعىَ بعدَكَ ضائعُ

وله فيه :

يا عابدَ الرحمٰن ما أوضح فينـا سُبلكْ

(١) كذا فى الأصل ، ولم أستطع تقويم العبارة من جذوة المقتبس للحميدى كما وصلتنا .

أيقظتَ(١) شِعرى أبداً فالقول لى والفعل لكْ
ما الثُّكْلُ والحسرة [...] [... ... ...](٢)
يا موت أعجلتَ فتىً فى(٣) الرَّوع قِدماً أعجلكْ

/ وله أيضا : [٣٧ - ب]

أشهى منَ الكاسِ حاملُ الكاسِ أرعاه ما طاف حول جُلاّسى
يثقل مِن أجـــله الجليسُ ولو كان منَ النسك آمَنَ الناسِ

وكتب إلى أخيه المنذر بن محمد ، وكان مائلا إليه :

هل أتّكِى مُشرِفاً على نهرى أرمى بطَرْفى إليه من قصرى
عند أخٍ لو دَهَتْــه حادثةٌ أعطيتُه ما أحبَّ من عمرى
نشرب نحليــة(٤) فضيلتها أتحفتِ الخمـــرَ ذِلَّةَ الخمرِ ؟

فوعده السكونَ عنده ، فكتب إليه يستنجزه :

وُلوعُ النفسِ بالوعدِ الوَفىِّ وإنجازُ المقال على الوَلىِّ
فإن أرضاك أن نغدو ضحاءً وإلا كان ذاكَ مع العَشىِّ
نكون ثلاثةً أنتَ المُبَدَّى ونحن إليكَ ، ثم أبو علىٍّ

---

(١) الأصل : أبغضت ، ولا يستقيم بها المعنى . وقد جعلها دوزى : أيْقَضْت ، وما أثبتناه أقرب للسياق .

(٢) تركها الناسخ بياضا ، ولعل تمام البيت :

ما الثكل والحسرة [لى * الثكل والحسرة لَكْ]

(٣) نسى دوزى (ص ٧١) هذا الحرف .

(٤) كذا فى الأصل ، وقرأها دوزى (ص ٧١) : تحلية ، ولم أجد أى اللفظين أو ما يقرب منهما فى باب الخمر فى مخصص ابن سيدة ، ولا وجدت لأحدهما معنى يتصل بالخمر فى المعاجم ، وكل ما وجدت فى مفردات ابن البيطار لفظ نحلى ، عقار كان يتطبب به .

وله فى الشَّيب :

إنّ شَيْباً وصَبْوَةً لمُحالُ قد أبَى أن يكونَ عنها زوالُ
ركِبَ الشيبُ لِمَّتى خَلَلَ الشعـ ـرِ لوقتٍ حالتْ به الأحوالُ
فَدَعِ(١) النفسَ عن مزاحٍ ولهوٍ تلك حالٌ مضتْ وجاءتْ حالُ

ولمحمد بن عبد العزيز العُتبي فيه ، يفضِّل شعره على أشعار إخوته وأقربائه

يُغْنِي(٢) مسامعنا لديه حوَالياً بلآلئٍ مِن لفظِهِ وزبرجدِ
والشعرُ يسجدُ نحو قِبلةِ شعرِهِ ولغير قِبلةِ شعرِهِ لم يسجدِ

٤٨ — إبراهيم ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن ، أخوهما

أنشد له ابن فرج فى « كتاب الحدائق » :

دُنُوُّكَ مِنىَ فى منزلى هو المُلْكُ يَسَّرَهُ اللّهُ لى
/فيَكْنُفُنا جانب واحدٌ ويجمعنا الشّرب من مَنْهَلِ [٣٨-١]
وإنْ حالَ دونَك باباً حديدٍ وقصرٌ مَشِيدٌ من الجَنْدلِ

هؤلاء المروانيون فى هذه المائة .

* * *

ومن الحسنيين فيها :

(١) الأصل : فزع . فعل أمر من وزع أى ازجر النفس .
(٢) الأصل : يعنى ، ولا معنى له هنا ، وقد تكون صحته ما أثبتناه .

٤٩ – القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن حسن بن حسن بن على

وَلى البَصْرة(١) وطَنْجَة وما يليهما لأخيه محمد بن إدريس القائم بعد أبيه سلطان المغرب . وكان إدريس قد ولد محمداً هذا والقاسمَ وأحمدَ وعبدَ الله وعيسى وإدريسَ وجعفراً ويحيى وحمزةَ وعبيدَ الله وداود – وبه كان يُكنَى – وعمرَ ، وبنات .

ولما توفى إدريس مسموماً فى حبة عنب(٢) سنة ثلاث عشرة ومائتين – كما تقدم ذكره – اجتمعت البربر على محمد ، فبايع له إخوته جميعاً ، واتخذ مدينة فاس قراراً ، وفرّق بلاد الغرب عليهم(٣) ؛ فنكث أخوه عيسى

---

(١) يريد بَصْرة المغرب وكانت بلداً إسلامياً مشهوراً ، ولا زالت آثاره باقية ظاهرة على يسار الطريق من طنجة إلى سوق الأربعاء ، وهى على نحو ١٠٠ كيلومتر جنوبى طنجة فى خط مستقيم تقريباً ، وتسمى بصرة الكتان أو بصرة الذبان ، أسسها محمد بن إدريس الثانى سنة ٢١٨/ ٨٣٣ ، وقد أطال الكلام عنها أبو عبيد البكرى (ص ١١٠ – ١١١) وذكرها ابن حوقل والإدريسى وغيرهما .

انظر : أحمد المكناسى ، خريطة المغرب الأركيولوجية (تطوان ، ١٩٦١) ص ١١ . وانظر عنها : الاستقصا للسلاوى (الدار البيضاء ١٩٥٤) ١/١٧٢ .

(٢) هذه أيضاً رواية روض القرطاس (ص ٦) وكانت وفاته حسب رواية هذا الكتاب فى ليلة ١٢ جمادى الثانية ٢١٣/٢٩ أغسطس ٨٢٨ وكانت سنه ٣٨ سنة .

(٣) كان محمد بن إدريس بن إدريس قد قسم نواحى دولته بين إخوته ، نصحته بذلك جدته كنزة . وقد أورد هذا التقسيم ابن أبى زرع فى روض القرطاس (طبعة فاس ، ص ٦) ، وابن عذارى فى البيان المغرب (١/٢١٠) ، والسلاوى فى الاستقصا (١/١٧٣) ، والبكرى فى وصف إفريقية ؛ وهذا التقسيم يهمنا هنا لتيسير تتبع الحوادث الخاصة بمن يترجم لهم ابن الأبار من الأدارسة . وفيما يلى جدول مقارن لهذا التقسيم ، ولم نورد نص ابن عذارى لأنه لا يضيف شيئاً ذا بال :

ابن إدريس وخرج عليه ، فكتب محمد إلى القاسم يأمره بمحاربته إذا كان يحاديه[1] فى ولايته ، فأبى القاسمُ وكتب إليه معتذراً من توقفه عما أمره به :

سأترك للراغب الغربَ نهباً ... وإن كنت فى الغرب قَيْلا ونَدْبَا
وأسمو إلى الشرق فى همةٍ ... يعز بها رُتَبَاً من أحَبَّا
وأترك عيسى على رأيهِ ... يعالج فى الغرب همّاً وكربا

وصف إفريقية	روض القرطاس	الاستقصا
القاسم : البصرة وطنجة وما والاهما .	طنجة . سبتة . قلعة حجر النسر . تطوان . بلادمصمودة وما إلى ذلك من البلاد والقبائل .	مثل روض القرطاس .
داود : هوارة تاسلمت .	بلاد هوارة . تسول . بلاد غياثة .	بلادهوارة . تسولوتازا ومابين ذلك من قبائل مكناسةوغياثة .
يحيى : داى وما والاها .	البصرة . أصيلا . العرائش إلى بلاد ورغة .	أصيلا والبصرة والعرائش وورغة .
عمر : صنهاجة وغمارة .	مدينة تمنجساس . بلاد هوارة وما والاها .	تيكساس . ترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة .
أحمد : لم يذكره فى هذه الولايات .	مكناسة . بلاد فازاز . بلاد تادلا .	مكناسة . تادلا وما بينهما من بلاد فازاز.
عبد الله : لمطة وما والاها .	مدينة أغمات . بلاد نفيس . بلاد المصامدة . السوس .	أغمات . نفيس . جبال المصامدة . بلاد لمطة . السوس الأقصى .
حمزة : الأودية بقرب وليلى .	تلمسان وأعمالها .	وليلى وأعمالها .
عيسى : وازَمُّور وسَلَى .	مدينة شالة وبلاد تامسنا .	سلا . شالة . آزمور . تامسنا وما انضم إلى ذلك من القبائل .

وأجمع الأربعة على أن الباقين من إخوته كانوا صغاراً ، فبقوا فى كفالة جدتهم كنزة . ويلاحظ أن ابن الأبار فى كلامه هنا يقول إن القاسم تولى البصرة إلى جانب طنجة متابعا البكرى فى حين أنها — حسب روض القرطاس والاستقصا — كانت من نصيب يحيى .

(١) كذا فى الأصل ، واللفظ غير واضح المعنى ، فإن كان المراد أن حدود ولايتيهما متجاورة لم يصح ذلك تماماً كما يتضح من الجدول السابق . والغالب أنها تصحيف للفظ يعاديه أو يحاذيه .

ولو كان قلبىَ عن قلبــه لـكنت له فى القــرابة قلبَا
وإن أحدث الدهر من ريبهِ شقاقاً علينا وأحدثَ حرباَ
فإنى أرى البُعدَ سِتْراً لنــا يُجدد شوقاً لدينا وحبًّا
ولم نَجْنِ قطعاً لأرحامنا نُلاقى به آخرَ الدهرِ عَتْباَ
وتبقى العــداوةُ فى عقبنا وأكرم به حين نعقب عقباَ
وأوفق من ذاك جوب الفلاةِ وقطعُ المخارم نَقْباً فنقباَ

/ فـكتب محمد إلى أخيه عمر — وكان على صَنهاجة وغمارة[١] — يأمره [٣٨-ب] بمحاربة عيسى ، فأجابه وسارع وخرج يريد عيسى بعسكره . فلما قرب من أحواز فاس كتب إلى محمد يستمده ، فبعث إليه من كان معه ، ونفذ فى أصحابه قبل لحاق المدد ، فأوقع بعيسى ونفاه عن عمله واستولى عليه ، فأمره محمد بالإقامة فيه ، ثم أمره بمحاربة القاسم ، فحاربه وتغلب على ما كان بيده ، فتخلى القاسمُ عن ذلك لمحمد وعمر ، وتزهّد و بنى مسجداً على ساحل البحر بأَصِيلاَ ولزمه .

فلما عاين البربرُ ذلك نهضوا إليه وهو بمُرَابَطِه فصرفوه إلى عمله ، ورجع إليه كلٌ من صدر إلى أخويه محمد وعمر .

وقال الرازى ، وذكر أولاد إدريس بن إدريس : « فأما محمد بن إدريس فوَلِىَ مدينةَ فاس بعد أبيه ، وقَسم عمل أبيه على إخوته وأخرجهم عُمّالاً ، ثم أخلد إلى اللهو واشتهر بالشرب والخلوة بالنساء[٢] ، فخلعه إخوته ومَلَكَ كلٌ واحدٍ منهم ما تحت يده . ثم لم يلبث محمد أن هلك ولم يعقب ، فوَلِىَ أمرَ فاسٍ

(١) هنا أيضاً يختلف التقسيم عما أوردناه فى هامش الصحيفة السابقة نقلا عن روض القرطاس .

(٢) هنا وقع الرازى فى غلط كبير ، فخلط بين الأدارسة خلطاً لا ندرى كيف يقع فيه مثله . فإن محمد بن إدريس بن إدريس كان من صلحاء أمراء الأدارسة وقادريهم ، وقد ظل=

بعد [ه][1] القاسم أخوه ، ومَلَكَها ملك سيادة ، وتجمع الناس إليه من كل ناحية[2] ، ولحق المنفيون عن ربض قرطبة بها ، وتمدنت وكثر أهلها .

* * *

= يحكم إلى أن توفى فى ربيع الثانى سنة ٢٢١/مارس ٨٣٥ ، وخلفه ابنه على بن محمد بن إدريس ابن إدريس الملقب بحَيْدَرَة ، وظل فى الحكم إلى رجب ٢٣٤/يناير ٨٤٨ ، وخلفه أخوه يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس ، وكان أميراً قادراً ذا عناية بشئون العمران ، وفى أيامه بنى جامع القرويين سنة ٨٥٩/٢٤٥ . ثم خلفه ابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس ، وهذا هو الذى أساء السيرة وكثر عبثه فى الحرم حتى دخل الحمام على امرأة ، فثار الناس عليه بزعامة رجل من أهل فاس يسمى عبد الرحمن بن أبى سهل الجذامى وأخرجه منها فهرب إلى عدوة الأندلسيين فمات بها من ليلته (البكرى ؛ ص ١٢٤ — ١٢٥)

وكانت زوجة يحيى هذا هى عاتكة بنت على بن عمر بن إدريس « صاحب الريف والسواحل» كما يقول السلاوى ، فكتبت إلى أبيها تعلمه بما وقع ، فجمع رجاله ودخل فاس وتولى الأمر.

أما ما يقوله الرازى من أن القاسم تولى الأمر ، فرده إلى خلط بين القاسم وابنه يحيى . ذلك أن علياً بن عمر المذكور لم يستطع البقاء طويلا فى الحكم ، إذ ثار عليه رجل من الخوارج الصفرية يسمى عبد الرازق الفهرى ، وغلبه على الأمر ، وفر عمر بنفسه إلى بلاد أوربة ، وملك عبد الرازق عُدْوَة الأندلسيين من فاس ، أما أهل عدوة القرويين فامتنعوا عليه ، وبعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس ، فأقبل وولوه عليهم ، فتمكن من هزيمة عبد الرازق الفهرى ، وملك بلاد الأدارسة إلى أن اغتاله رجل يسمى الربيع بن سليمان سنة ٩٠٤/٢٩٢ .

انظر : روض القرطاس : ص ٦ وما يليها . ابن خلدون ، تاريخ : ١٤/٤ — ١٨ . أبو عبيد البكرى : المسالك والممالك ، الجزء الخاص بالمغرب ، نشره دى سلين فى الجزائر سنة ١٩١٠ ، ص ١٢٣ — ١٣٢ . السلاوى ، الاستقصا : ١٧٣/١ — ١٨٣ . أما ابن عذارى فروايته لأخبار الأدارسة يشوبها كثير من الخطأ ، فهو يخلط بين يحيى الأول ويحيى الثانى ، ويخبط خبطا غريباً : ٢١٠/١ — ٢١٦ .

(١) زيادة لابد منها للسياق .

(٢) هذا يخالف ما فى "روض القرطاس (ص ٧) . قال فى شأن القاسم بعد أن ذكر مسير أخيه عمر إليه : « فكانت بينهما حروب عظيمة ، ثم هزم القاسم ، واحتوى عمر على ما بيده من البلاد . وسار القاسم إلى ساحل البحر مما يلى مدينة أصيلا ، فبنى هناك مسجداً على ضفة البحر بموضع يعرف بتاهدارت ، فأقام يتعبد فيه ، وزهد فى الدنيا إلى أن مات رحمه الله تعالى » . وانظر أيضاً البكرى ، ص ١٢٤

ومن رجال المروانية :

٥٠ — عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث[١]
الحاجب ، أبو حفص

استحجبه الحَكَمُ الرَّبَضِيّ ، وكان أبوه عبدُ الواحد حاجباً لهشام الرضا والدِ الحكم . وعن ابن حيّان أن هشاماً وَلَّى عبدَ الكريم هذا كورة جيّان ، وأنه أغْزَاه أَلَبَةَ والقلاع[٢] ، وأغزى أيضاً أخاه عبدَ الملك وولاه سَرَقُسْطَةَ .

---

(١) عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث من أكابر رجال الدولة المروانية الأندلسية أيام الحكم الربضى وابنه عبد الرحمن ، وهو فى الغالب من أولاد مغيث الرومى مولى الوليد بن عبد الملك ، وقد كان أخوه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث من قواد الأمير هشام الرضا ابن عبد الرحمن الداخل . وقد كان عبد الكريم قائداً من قواد الحكم ثم استوزره وولاه الحجابة فأقام فى هذه الوظيفة حتى وفاة الحكم ، واستحجبه أيضاً عبد الرحمن الأوسط مع بقائه على القيادة . وتوفى عبد الكريم فى طريقه إلى غزو جليقية سنة ٢٠٩/٨٢٤ — ٨٢٥ . ولم يجد عبد الرحمن من يقيمه مكانه ، فعهد فى قيادة الصائفة إلى أمية بن معاوية بن هشام . وبعد موت عبد الكريم تنافس الوزراء فى الوصول إلى الحجابة وأكثروا السعى والشفاعات حتى أضجروه ، فقرر ألا يوليها أحداً منهم ، وعطلها مدة ثم اختار لها رجلا من المقربين إليه ، لم يكن من الوزراء ولا سبقت له خدمة هو سفيان بن عبد ربه ، وأصله من بربر بيّانة ، فتولاها إلى أن مات ، ثم خلفه فيها عبد الرحمن بن غانم ، ثم صارت إلى عيسى بن شهيد معظم أيام عبد الرحمن الأوسط . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم يل الحجابة أقدر ولا أصلح من عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وعيسى بن شهيد ، وهم يقولون إن عبد الكريم كان أكفأ وأقدر من صاحبه ، ولكن عيسى كان أسلم خلقاً إذ لم يكن يقبل المكافأة على قضاء الحاجة ، أما عبد الكريم فإنه كان يقبل ذلك ولا يأباه . (أبو بكر بن القوطية ، برواية ابن حيان ، المخطوط ص١٩٥ ا ، ١٩٥ب) .

(٢) أَلَبَه والقلاع ، علمان جغرافيان يستعملان عادة معاً فى النصوص العربية . أما ألبه فهى **Alava** وهى الإقليم الواقع عند منابع نهر إبْرُه على الضفة اليمنى (الشمالية) للنهر . وأصل الاسم غير معروف ، فذهب بعضهم إلى أنه مشتق من **Uraba** و **Alba** ، بل ذهب بعضهم =

وكان عبدُ الكريم بليغاً مفوهاً شاعراً ، وولِىَ الكتابةَ للحَكَم إثر محمد بنِ أمية ، وقاد الصوائف ، وجرت على يديه فتوح جسام . وعلى يديه استأمن أهلُ الرَّبَض ؛ وله رسائل عن الحكم فى الهَيْج . ذكر ذلك عيسى بن أحمد الرازى ، قال : « وأخرجه الحكمُ إلى عَمْروس(1) — وكان قد خلع بسَرَقُسْطَة — فاستماله وقدم به قُرْطُبَة ، فوصله الحكمُ وخَلع عليه وسَجَّل له على سَرَقُسْطَة وتُطِيلَة ووَشْقَة ، وصرفه إلى الثغر فمات هناك . وأنشد ابنُ حيّان لعبد الكريم هذا فى رثاء الحكم بنِ هشام وتهنئةِ ولدِه الأميرِ عبدِ الرحمن بن الحكم بالخلافة :

[٣٩–١] /كان الزمانُ مُرَزَّأً بخليفةٍ أرْدَى فكاد نهارُنا أن يُظْلِمَا
حتى إذا قَعَد الإمامُ لبيعةٍ كالغيثِ شَحَّ بوَبْلِه ثم انْهَمَى
لله آية بيعـــةٍ ما أعظما وأجل فخراً فى الأنام وأفخما
أعطتْ قريشٌ بيعةً مرضيَّةً لإمامِها الملكِ الكريمِ المُنْتَمَى
وبدا كمِثْلِ البدرِ ينصدعُ الدُّجى عنه ويكشف نورُه ما أبهما
لله أنت أبو المطرف فى الوغى ولخائف ولمُعْتَفٍ قد أعدما

— إلى أن أصله عَرَبه Araba لأن الاسم لم يظهر إلا بعد دخول العرب . أما القلاع فيراد به المنطقة التى تعرف اليوم بقشتالة القديمة Castilla la Vieja ، سماها العرب كذلك لكثرة قلاعها ، وقد يكون العرب ترجموا بذلك اسمها القديم Castellae . وألبة اليوم إحدى المديريات الثلاث التى يتكون منها إقليم Vascongadas وهو الذى كان العرب يسمونه بلاد البشكونس ، وهذه المديريات هى Guipuzcoa وقاعدتها سان سباستيان وبسكاية Vizcaya وقاعدتها بلباو Bilbao و Alava وهى أكبرها مساحة وعاصمتها Vitoria . وكان العرب فى غزواتهم لهذه النواحى يسيرون حتى سرقسطة ، ثم يمضون مع نهر إبره نحو منابعه حتى يفضوا إلى ألبه ثم القلاع ، ولهذا يذكر الإقليمان معاً .

(١) فى الهامش إلى يمين هذا السطر بخط مخالف : عيسى بن أحمد الرازى .

٥١ — هاشم[١] بن عبد العزيز
الوزير ، أبو خالد

هو أخو القاضى أسلم بن عبد العزيز وكبيره ، ووَلاءُ سَلَفِهِما لعثمان بن عفان رضى الله عنه[٢] . وكان هاشم خاصًّا بالأمير محمد بن عبد الرحمن : يؤثره بالوزارة ، ويرشحه مع بنيه — ومفرداً — للقيادة والإمارة . وولاه كورةَ جيّان ، فعلى يده بُنيت أبدة وأكثر معاقلها المنيعة . وهو أحد رجالات الموالى المروانية بالأندلس .

اجتمعت فيه خصال لم تجتمع فى سواه من أهل زمانه ، إلى ما كان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة وقرض الأشعار البديعة ، إلى ما له من القديم والبيت والسابقة . فلو لم يُعِنْه سَلَفُهُ ، لنهضت به أدواته هذه الرفيعة .

ونَكَبَهُ المنذرُ بن محمد لأشهر من خلافته ، بعد أن ولاه الحجابةَ وأظهر عنه الرضا ، وذلك لأشياء حقدها عليه فى خلافة أبيه محمد ، إذ كان يُخرجه معه قائداً للجيش وبعد ذلك[٣] .

---

(١) فى الأصل : هشام ، وهو خطأ .

(٢) ذكر ابن الفرضى نسب هاشم وأخيه أسلم فى ترجمته لهذا الأخير (رقم ٢٧٨ ج ١/٨٠) : أسلم بن عبد العزيز بن هاشم بن خالد بن عبد الله بن حسن بن جعد بن أسلم بن أبان ابن عمرو مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه . وقد كان أسلم من أجلاء فقهاء الأندلس ، سمع من بقى بن مخلد وصحبه زماناً طويلا ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٢٦٠ ثم رحل إلى المشرق فلقى الشيوخ ، وعاد إلى قرطبة . وقد تولى قضاء الجماعة فيها مرتين ، توفى فى رجب ٣١٩/يوليو ٩٣١ .

(٣) العبارة مقطوعة هنا . وقد أطال ابن حيان الكلام على هاشم بن عبد العزيز فى المقتبس (مخطوطتنا ، ص ٢٢٥ — ا وما بعدها) ، ولكنى لم أجد ما يصلح هذه العبارة . وقد وجدت فى المغرب لابن سعيد (١/٥٣ و٢/٩٤) عبارة يمكن أن نعيد بها تقويم الكلام هكذا : « إذ كان يخرجه معه قائداً للجيش ، [فأساء الأدب معه حتى أحقده وأتلف محبته بعد أن صارت السلطنة إليه] بعد ذلك ، [فلما مات محمد وولى المنذر قتله المنذر شرقتلة بعد السجن والعذاب] »

وحكى عيسى بن أحمد بن محمد الرازى فى كتاب «أُلحجّاب للخلفاء بالأندلس» من تأليفه ، أن المنذرَ بن محمد استُخلف يومَ الأحد لثلاث[1] خلوْنَ من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، بعد وفاة أبيه بأربع ليالٍ ، إذ كان غازياً بناحية رَيَّة ، فأغَذَّ السَّيْرَ ودخل القصرَ يومَ الأحد وصلى على أبيه — وكانت وفاته ليلة الخميس لليلةٍ بقيت من صفر — ودُفن . وبويع للمنذر بقيةَ الأحد ويوم الاثنين بعده ، واستحجب هاشم بن عبد العزيز / إلى أن قتله . [٣٩ - ب]

قال : ولما قدم المنذرُ نزل فى السطح وقعد للبيعة فى ثياب سفره ، وربما اتكأ على فراشه لما كان أخذه من النصَب وألم السفر لطيِّه المراحل . فلما دخل الناس قام هاشم وبيده كتاب البيعة فافتتح قراءته ، فلما بلغ إلى ذكر الإمام محمد خنقته العبرة ، فلم يبن كلامه . ثم استدرك أمره ورجع من أول الكتاب ، حتى إذا انتهى إلى الموضع الذى انتهى إليه أولا أخذه أيضاً الحصر ، فلحظه المنذر لحظة منكرة ، ورآها منه هاشم فمضى فى قراءة الكتاب حتى أكمله . فلم يشك كل من رأى تلك اللحظة أنه قاتله . قال : ولما وُضع نعش الإمام محمد على قبره ، ألقى هاشم رداءه وقلنسوته ودخل القبر وبكى بكاء شديداً ، ثم قال متمثلا وهو يقبر :

أعَزِّى يا محمدُ عنك نفسى   معاذَ الله والِمنن الجِسامِ
فهلا مات قوم لم يموتوا   ودُوفِع عنك لى كأسُ الحِمامِ

فكان ذلك مما أوقد عليه موجدة المنذر ؛ والبيتان لأبى نواس الحسن ابن هانئ يقولهما فى محمد الأمين حين قُتِل .

قال الرازى : وذُكر أن محمد بن جَهْوَر وعبد الملك بن أمية كانا يرفعان عليه ويغريان به ، وأنه خرج توقيع بخط يد الإمام المنذر فيه وَهْم ، فتنفس هاشم

---

(١) عند ابن عذارى (١٣٣/٢) : لثمان .

فرفع عنه . قال : وحدَّث مَن كان [حاضراً عند][1] هاشمٍ — يعنى يوم القبض عليه — إذ أقبل صاحب الرسائل مستحثًا له ، فخرج هاشم ومعه عُمر ابنه فقبضَ منه كتباً كانت بيده . وكان فى رحبة داره قوم من أهل لَبْلَة قد أتوا لشكر ابن أخيه — وكان عاملَهم — فلما خرج هاشم اندفعوا مستهلين بالشكر ، فانتهرهم الفتى الذى أتى فيه وخرج عليهم[2] وأغلظ لهم وقال لهم : « يا كَذَبَة ! » . قال : فرأيت هاشماً قد اربدَّ وجهُه ، غير أنه لم يُقارِضْه بكلمة ، ومضى .

وكان تحته فرس رائع أشقر ، فلما أتى عند باب الجِنان[3] كبا الفرسُ بهاشم فاستُقل[4] به ووقف [و] قد امتقع لونه ساعة ، ثم تقدم ودخل . قال : فلم ينفَضَّ أهلُ موكبه حتى خرج راجلاً مكبَّلا ، فوالله ما رأيتُ يوماً أكثرَ باكياً من ذلك اليوم ، ولو قلتُ إنه / لم تخلُ دارٌ بقُرْطُبَة من بكاء على هاشم [٤٠ - ١] يومَ حُبس لما أبْعَدْتُ واصدقتُ ، فإنه كان رَحْمَــةً مبسوطة للعامة والخاصة[5] .

قال : وأمر المن[ذر] بحبس أكابر أولاده ، [غير][6] فإنه كان عيناً

(١) بياض فى الأصل ، أكملناه للسياق .

(٢) الأصل : حرج . وخرج على : بمعنى سب وشتم ، وهو استعمال يرد كثيراً عند ابن حيان بهذا المعنى .

(٣) باب معروف من أبواب قصر الإمارة بقرطبة ، وكان باباً خلفياً يفضى إلى حدائق القصر ، والغالب أنه كان يقع على ضفة الوادى الكبير .

(٤) الأصل : وكبحه . وقد صوبها دوزى : وكبَّه ، وهو تصويب صحيح . وقد تركت الضمة فوق تاء استقل كما هى فى الأصل .

(٥) وردت هذه العبارة مضطربة فى الأصل ، وبعضها فى الهامش على اليمين ، فقومناها كما فى المتن .

(٦) ورد هذا اللفظ فى الأصل : غب . وقد أكملته على هذا النحو كما يقتضيه السياق . وواضح أنه سقط اسم ذلك الولد من أولاد هاشم بن عبد العزيز الذى كان عيناً للمنذر عليه . ولم اجد فيما بين يدىّ من المراجع ما أسد به هذا النقص ، ولو أننى أستبعد أن يكون هذا الجاسوس ابناً مباشراً لهاشم بن عبد العزيز ، لأنه لو كان كذلك لما فات أصحاب الكتب التى بين=

للمنذر عليه ، يخاطبه بأسراره وجميع أخباره ، ولم يزل عبدُ الملك بن أمية يغرى به[1] ويرفع عليه ويستعين بالسيدة أخت المنذر فى مطالبته ، حتى كان من ضرْبه وهدم داره وإخراجه منها وقتْله ما كان .

قال : وأُخرج هاشم صبيحةَ الليلة التى قُتِل فيها — ليلةَ الأحد لأربع بقين من شوال سنة ثلاث وسبعين — غُطيت[2] جثتُه ورأسه بثوب ، وبُعث به إلى أهله . وكان موادُه فى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحَكم . ومن شعره ، وكتب به من محبسه إلى جاريته « عاج » :

وإنى عَدَانى أن أزورَكِ مطبقٌ ... وبابٌ منيعٌ بالحديد مُضَبَّبُ
فإن تعجَبى يا « عاجُ » مما أصابنى ... فنى رَيْبِ هذا الدهر ما يتعجبُ
وفى النفسِ أشيا أَبيتُ بغمِّها ... كأنى على جمر الغضى أتقلبُ
تركت رشادَ الأمر إذ كنتُ قادراً ... عليه فلاقيتُ الذى كنتُ أرهبُ

= أيدينا (وكلها مختصرات عدا مخطوطة ابن حيان) الإشارة إلى هذه الغريبة . فابن عذارى يقول : « ثم بعث فيه الأمير ليلا ، فقتله وسجن أولاده وحاشيته ، وانتهب ماله وهدم داره ، وألقى أولاده فى السجن ، وألزمهم غرم ٢٠٠٠٠٠ دينار ، فلم يزالوا فى السجن والغُرم إلى موت المنذر وولاية أخيه عبد الله ، ثم أطلقهم عبد الله ، وصرف عليهم ضياعهم ، وولى أحدهم الوزارة والقيادة » (البيان : ٢/١١٦)

(١) العداوة بين عبد الملك بن عبد الله بن أمية وهاشم بن عبد العزيز عداوة قديمة ترجع إلى أول ولاية ابن أمية الكتابة العليا للأمير محمد ، وكانت خطة كبرى تجعل صاحبها فى عداد الوزراء ، وكان يتولاها قبله حامد بن محمد الزجالى ، وكان عبد الملك بن أمية غير مؤهل لصنعة الكتابة ، فهاجمه هاشم بن عبد العزيز من هذه الناحية ، ومضى يتنقصه ، فنبه الأمير محمد إلى سوء تصرفه فتوقف حيناً عن مهاجمة عبد الملك بن أمية . وقد صارح ابنُ أمية الأميرَ بأنه لا يجيد الكتابة ، فأبقاه الأمير فيها رغم ذلك ووعده بأن يمده بمن يعينه فيها . ثم عاد هاشم إلى تنقص عبد الملك ونقده ، واشتدت العداوة بينهما . وقد ظلت الغلبة لهاشم ما عاش الأمير محمد ، فلما مات وخلفه ابنه المنذر أمكنت الفرصة لعبد الملك بن أمية فى هاشم ، فلم يتوان فى الانتقام (ابن حيان ، مخطوط ، ص ٢٢٤ ب ، ٢٢٥ ا)

(٢) الأصل : وغطيت .

وكم قائلٍ قال : انجُ ويحَك سالماً ففى الأرض عنهم مُستَرادٌ ومذهبُ
فقلت له : إن الفرار مَذَلّةٌ ونفسى على الأسواء أحلَى وأطيبُ
سأرضى بحكم الله فيما يَنُوبُنى وما مِن قضاء الله للمرء مهربُ
فمن يكُ مسروراً بحالى فإنه[1] سينْهَل فى كاسى وشيكاً ويشرب

وله ، وكتب به إلى وليد بن غانم[2] الوزير فى أسره أثناء مخاطبة :

فكم غصةٍ بالدمع نهنهتُ خوفَ أنْ يُسَرَّ بما أبديه شنآنُ كاشحُ
تحاملتُ عنه ثم نادمتُ فى الدُّجَى نجومَ الثريا والدموعُ سوافحُ

وله مما قاله بديهاً ، ووقَّع بذلك على ظهر رقعة لأحد أبنائه خاطبه فيها بشعر ضعيف :

لا تقلْ — إن عزمتَ — إلا قريضاً رائقاً لفظُه ، ثقيفاً رصينا

---

(١) فى البيان لابن عذارى (١١٦/٢) :

* فمن يك أمسى شامتاً بى فإنه *

(٢) وليد بن عبد الرحمن بن غانم من أجل وزراء الأمير محمد وأقدرهم وأعظمهم مروءة وأكثرهم ثقافة وعلما . كانت أول الوظائف الكبيرة التى وليها وظيفة « صاحب المدينة » ولاه إياها الأمير محمد ، ثم استعفى منها لخلاف فى الرأى مع الأمير محمد حول مسألة تتصل بالإدارة والمال ، ثم ثبتت صحة رأيه ، فعاد الأمير محمد واستدعاه ليشغل وظيفة صاحب المدينة كما كان ، فأبى ، وظل معتزلا إلى أن رفعه محمد إلى مرتبة الوزارة . وكان وليد صديقاً لهاشم بن عبد العزيز ، فلما وقع هاشم أسيراً فى غزوة خرج إليها تحت قيادة المنذر بن محمد ولىّ العهد للقضاء على ابن مروان الجليقى غضب الأمير محمد إذ رأى فى وقوع هذا الوزير القائد الأثير إليه مهانة للدولة ، فجعل « يلومه ويستقصره ويحمل عليه وينال منه » ولم يبق فى المجلس من لم يحمل على هاشم ، إلا وليد بن غانم فقد تصدى للدفاع والاعتذار عنه ، فأعجبت هذه الشهامة الأمير محمداً . وفى سنة ٢٦٣ خرج وليد فى الغزاة تحت إمرة الأمير المنذر لقتال ابن مروان الجليقى وكان هاشم فى أسره . وقد أطلق ابن مروان أسر هاشم سنة ٢٦٤ .

ابن حيان ، المخطوط : ٢٣٢ ا ، ب . ابن عذارى ، البيان : ١٠٢/٢ — ١٠٣ .

[٤٠ - ب] /أو دع الشعر ، فهو خير من الغـــث ، إذا لم تجد مقالا سمينا

وما أحسن قول عبد الجبار بن حمديس الصقلى فى هذا المعنى :

حرر لمعناك لفظاً كى تزان بهِ   وقل من الشعر سحراً ، أو فلا تَقُلِ
فالكحل لا يفتن الأبصار منظرُهُ   حتى يُصَيَّرَ حَشْوَ الأعينِ النُّجُلِ

ولهاشم فى إلبيرة يذم وروده عليها ، وهى مكان أوليته :

إذا نحن رُحْنا عنك يا شرَّ بلدةٍ   فلا سُقيتْ رباكِ صوبَ الرواعدِ[1]
ولا زال سوطٌ من عذاب مُنَزَّلٍ   على قائم من ساكنيك وقاعدِ

فأجابه فتى من أهلها المتأدبين يعرف بابن وَجِيه :

لقد حُرِم التوفيقَ مَن ذم بلدةً   يروح بها فى نعمة وفوائدِ
ومن يتمنى سوط خزى منزلٍ   على قائم من ساكنيها وقاعدِ
فإن كنتم لم تحمدوا ما اختبرتمُ   فكلٌّ لكلٍّ لائم غير حامدِ

٥٢ — ابنه عمر بن هاشم

سجنه الأمير المنذر بن محمد مع إخوته لما نكب أباهم ، ثم أمر بصلبهم فى الغزاة التى توفى فيها ، ووَلِىَ أخوه الأمير عبد الله بن محمد فعجل الكتاب بإطلاقهم ، ثم قدم وولَّى عمر هذا كورة جَيَّان ، وأخاه أحمد بن هاشم الوزارة والقيادة . ومن شعر عمر :

يا خليــــلاً فضلُه با   دٍ على كلِّ خليلِ
والمجيد الشعرَ فى كـ   ـلِّ بسيطٍ وطويلِ

(١) كذا عند ابن حيان وابن الأبار ، وفى البيت زحاف ظاهر .

بضروب الضرب والإيـ ـقاع والقول الأصيلِ
لا تلمنى واصفحنْ عَنـِّ (م) ى وسهِّلْ لى سبيلى
فى خلاصى [... ...] [... ...] العذر الجميل (١)

٥٣ — تَمّام بن عامر الثقفى
الوزير ، أبو غالب

هو تمام بن عامر بن أحمد بن غالب بن تمام بن علقمة (٢) ، مولى عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفى ؛ وأم الحكم بنت أبى سفيان بن حرب أخت معاوية ابن أبى سفيان ،/ عُرف بها ابنه لشرفها . [٤١ - ا]

ودخل تمام بن علقمة أبو غالب الأندلس فى طالعة بَلْج ، وهو أحد النقباء القائمين بدولة عبد الرحمن بن معاوية ، ووَلى له الحجابة والقيادة . وهو افتتح طُلَيْطِلَة عنوةً مع بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية ، ثم وَلىَ وَشْقَة وطُرْطُوشة وطَرَسُّونة ؛ وعمَّر طويلاً وتُوفى فى آخر دولة الحكم الرَّبَضِىّ .

وقد وُلد تمام بن عامر هذا [سنة أربع وثمانين ومائة] (٣) ، وكان غالب بن تمام

---

(١) الأصل : العذار الجميل . وقد جعلها دوزى (ص ٧٧) : الجهل الجميل .

(٢) ذكر ابن حيان نقلا عن «كتاب القاضى أبى الوليد بن الفرضى المؤلف فى الأدباء» نسبه الكامل ، قال : «هو تمام بن أحمد بن عامر بن غالب بن تمام بن علقمة مولى عبد الرحمن ابن أم الحكم الثقفى»

(٣) أكملت العبارة بهذا للسياق ، وسيذكر ابن الأبار نفسه تاريخ مولده فى آخر ترجمته ، ولكن إذا حسبنا هذا التاريخ على أساس تاريخ وفاته وعمره بحسب مايذكره ابن الأبار ، لكان ميلاده سنة ١٩٧ هـ .

والياً على طُلَيْطِلَة ، وقتله سليمانُ بن عبد الرحمن بن معاوية وصلبه ومثَّل به فى انتزائه على أخيه هشام بن عبد الرحمن الأمير بعد أبيهما .

ووَلِىَ تمام بن عامر خطة الوزارة للأمير محمد بن عبد الرحمن وولديه الأميرين المنذر وعبد الله ، فانتظمت وزارته لثلاثة من الخلفاء . وعُمِّر عمراً طويلا زائداً على عمر جده الأكبر ، وكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين وقد بلغ ستًّا وتسعين سنة . وله الأرجوزة المشهورة فى ذكر افتتاح الأندلس وتسمية ولاتها والخلفاء فيها ووصف حروبها ، من وقت دخول طارق بن زياد مُفتتِحِها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم .

وكان عالماً أديباً ، ذكر ذلك ابن حيّان . وقال أبو بكر الرازى : وَلد عامر ابن أحمد تمّاماً ؛ وَلِىَ الوزارة والخيل والقيادة ، وتوفى سنة ثلاث وثمانين — يعنى ومائتين — ومولده سنة أربع وتسعين ومائة . ومن شعره :

يُكلفنى العُذالُ صبراً على التى(١) أبَى الصبرُ عنها أن يَحُلَّ محلَّها
إذا ما قرعتُ(٢) النفس يوماً فأبصرتْ سبيل الهدى عاد الهوى فأضلَّها
وكم مِن عزيزِ النفسِ لم يَلْقَ ذِلَّةً أقادَ الهوى مِن نفسِه فأذلَّها
عجبتُ لمذولٍ(٣) على حبِّ نفسِه يكلِّفه عُذّالُه أن يَمَلَّها

---

(٢) الأصل : إنى ، وقد جعلها دوزى (ص ٧٨) : أنسى ، والتصويب من ابن حيان . وقد قال تمام هذا الشعر فى زوجته أم الوليد بنت خلف بن رومان النصرانية ، قال ابن حيان : « فجاء من نسلها الوزير الكاتب عيسى بن فُطَيْس ، فتمّام جده لأمه . وكانت أم الوليد بارعة الجمال سبّاءة للألباب ، فرآها تمام فعلِقها وهام فيها ، فانقاد لهواه فى نكاحها ، فكان أعداؤه يعيبونه بها ، ومن قوله فيها لما عُذل فى نكاحها . . » ثم أورد الأبيات الواردة فى متن ابن الأبار .

(٣) ابن حيان : وزعت .

(٤) الأصل : لمذور ، والتصويب لدوزى ، ص ٧٨ . وقد جعل ابن حيان هذا البيت :

عجبت لمشغوف على الحب نفسه يكلفه عـذاله أن يسـلها

٥٤ — منصور بن محمد بن أبى البهلول

دخل الأندلس جدُّه أبو البهلول — واسمه منصور بن صَدَقة — فى أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية فاستعمله ، وكان يُكَنِّيه لِسِنِّهِ وفضله ؛ ثم تصرف ابنه محمد للأمير الحَكَم فى بعض أشغاله ؛ وحجب منصور هذا مَسْلَمَة[١] بن عبد الرحمن بن الحَكَم / فى الكور المجندة[٢] دهراً ، ثم وَلِىَ العَرْض[٣] [٤١ - ب] للأميرين محمد وابنه المنذر بن محمد ؛ ذكره الرازى ، قال : وكان فيه تصرف ورواية غزيرة وشعر حسن يمدح به الخلفاء ، وأنشد له :

كما أن خير العالمين محمدٌ   براحته عين من الجود تنبعُ

وله :

بمحمدٍ حُمِدَ الزمان كما   بفِعالِهِ قد أحْسِنَ[٤] الذِّكْرُ

(١) الأصل : سلمة ، وكذلك عند دوزى (ص ٧٨) ، وقد صوبت الاسم من قائمة أسماء أبناء عبد الرحمن عند ابن حيان (مخطوط ص ١٢) .

(٢) هذا التعبير غير واضح لى ، لأن الكور المجندة هى الكور التى أنزل فيها جند العرب على أيام أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى كما هو واضح فى ترجمته وفى أصول أخرى ، وقد عالجنا هذا الموضوع فى « فجر الأندلس » . ولكن : كيف يحجب رجل لمسلمة بن عبد الرحمن الأوسط فى هذه الكور؟ ربما جاز تفسيره على أنه كانت هناك إدارة خاصة للكور المجندة ، أى خاصة بما ينبغى على كل منها من جند وأرزاقهم وحقوقهم وما إلى ذلك ، تولاها أيام عبد الرحمن ابنه مسلمة ، وكان منصور هذا حاجبه فى هذه الإدارة ، وحاجبه هنا تعنى شيئاً مثل مدير مكتبه فى تعبيرنا الحديث . فإذا صدق هذا الفرض كانت وظيفة إداريةً كبيرة ، لأن الكور المجندة كانت تقدم لجيش الإمارة معظم جنده العربى .

(٣) العرض وظيفة من وظائف التنظيم العسكرى ، وهى استعراض الجنود المقيدين فى الديوان فى أوقات منتظمة للتأكد من وجودهم والتثبت من سلاحهم وخيل الفرسان منهم وحالتها وما إلى ذلك . وتسمى أيضاً الاعتراض والتمييز . وكان العرض يجرى فى ميدان كبير خارج العاصمة ، وفى صبيحته ينادى ببوق جهير ليحضر الجند .

(٤) فى الأصل : حَسُنَ مشكولة هكذا ، ولا يستقيم بها الوزن .

أيامُه بِيضٌ مهـــذبةٌ لولا مكارمُه انقضى الدهرُ

وله :

كَمْ ، إلى كَمْ أتسَلَّى ؟ ليس لى صبرٌ . . أجل ، لا !

بأبى أنت وأمى وترى قتـــلى حِلاّ ؟

حاشَ لله بأن أسـ لو عن الحب وكلاّ

٥٥ — عبيد الله بن محمد بن الغَمر بن أبى عبدة الوزير ، أبو عثمان[1]

تصرّف للأمير عبد الله بن محمد فى الـكُوَر وحجابة الأولاد والمدينة والخيل والقيادة ، ثم فى الـكتابة الخاصة والوزارة . وكان — مع اقتنانه فى الأدب واتّصافه بالبلاغة — ذا بأس وغَناء فى الحروب ، وكانت له فتوح جمة ومَقَاوِم[2]

(١) استكثر الأمير عبد الله بن محمد من الوزراء أول عهده حتى بلغوا فى بعض الأوقات ثلاثة عشروزيراً ، ثم تناقص عددهم حتى أصبحوا أربعة عند موته . أما الحجابة فقد استغنى عنها أخريات أيامه مكتفياً ببدر بن أحمد الخصى الصقلبى وصيفه « اللصيق بنفسه ، الخفيف عليه » كما يقول ابن حيان (ص ٤ من الجزء الذى نشره الأب ملشور أنطونيا) . قال ابن حيان (ص ٥ من ذلك الجزء) : « ومن الغريب أن اجتمع فى بيت الوزارة فى أيامه أربعة رجال من وزرائه — أى وزراء الأمير عبد الله — أقارب من بيت واحد من صميم الموالى آل أبى عبدة حسان بن مالك ، هم :

أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة (صاحب الترجمة) .

وأبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى بن أبى عبدة .

وسلم بن على بن أبى عبدة .

وعبد الرحمن بن حمدون بن أبى عبدة المعروف بِدُحَيْم » .

(٢) هذه الصيغة — جمعاً لمقام — غريبة من ابن الأبار ، وقد أخذها عن ابن حيان .

محمودة . وتوفى خاملا بتحامل بَدْرٍ الوصيف[1] عليه بعد أن استأذن للحج ، فأدى فرضَه وكرَّ إلى قُرْطُبَة فلزم داره ؛ وسيأتى ذكر هذا مع نسبه مستوفًى عند ذكر ابنيه جهور الوزير ومحمد . وفيه يقول العُتْبِي الشاعر[2] ، وقد اعتلَّ وهو يَلِي الكتابة :

لَأَيْنَعَ العِيُّ مُذْ أصبحتَ مرتدياً ثوبَ السقامِ وجفَّتْ زهرةُ الكَلِمِ
واستوحشَ الطِّرسُ مِن أُنسِ البديعِ إذا نشبتَ فيه وطالتْ عُجمةُ القلمِ

ومن شعر عبيد الله :

صدودٌ ليس يبلُغه عِقَــابٌ وعتبٌ ليس يثنيه عتــابُ
وإبعادٌ — بلا ذنبٍ — طويلٌ وإعراضٌ وهجرٌ واجتنابُ
فلا سَهَرٌ يَطِيبُ ولا رُقادٌ ولا طَعمٌ يَسُوغُ ولا شَرابُ
/ فجسمى ناحلٌ والجَفْنُ منى قريحٌ ، والفؤاد له اضطرابُ [٤٢-١]
وموتٌ عاجلٌ أحلى وأشهى إلىَّ من أن يطاولَنى العذابُ

٥٦ — سَوَّار بن حَمْدُون القيسى المحاربى

من محارب بن خَصَفَة بن قيس عَيْلان . ثار بناحية البَرَاجِلة من كورة إِلْبِيرة فى سنة ست وسبعين ومائتين ، وهى السنة الثانية من ولاية الأمير عبد الله

(١) ذكرنا اسمه الكامل فى التعليق الذى قبل السابق ، وقد أورد ابن حيان فى سيرة الأمير عبد الله ما يدل على ذكاء بدر هذا وحسن رأيه ، فهو صاحب الفضل فى استئلاف بنى الحجاج الثائرين فى إشبيلية وكسبهم إلى جانب الأمير عبد الله .

(٢) محمد بن عبد العزيز العتبى ، نقل ابن سعيد من « المسهب » أنه كان من نبهاء شعراء دولة الأمير محمد ، وكان مخصوصاً بالقاسم ابنه ، كما كان مؤمن بن سعيد مخصوصاً بسلمة ابن الأمير محمد (المغرب ، ١/١٣٤) .

ابن محمد ، وانضوت إليه بيوتات العرب من إلبيرة وجيّان وريّة وغيرها ، عند ما تميّزت الأحزاب[1] بالعصبية وشبّوا نار الفتنة . وكان مبتدأ رئاسة سوّار هذا أنه كان صاحباً ليحيى بن صُقَالة — أول الخارجين بالبراجلة بهذه الدعوة — عن استبصار شديد وحميّة ، فصُبّ على المولّدين والعجم منه ومن أصحابه أعظمُ آفة ، إلى أن أصابوا منه غرة فثاروا به بغتة وقتلوه[2] . فرأّسَ أصحابُه بعدَه سَوّاراً هذا ، فاشتد به أمرُهم وقام طالباً بثأر صاحبه . وكان شجاعا مِحْرَباً[3] ، فكثر أتباعُه واشتدت شوكتُه واعتز العربُ بمكانه ، فلفَّفَ جموعَها وحمى ذمارها وسعى لإدراك ثارها . وقصد حصناً[4] اجتمع فيه من المولدين والنصارى نحو من ستة آلاف رجل ، فنازلهم بالعرب حتى قهرهم ، وأخرج نابِلاً[5] رئيسَهم المقيمَ

---

(١) جعلها دوزى « الأعراب » دون مبرر (ص ٨٠) . والعبارة منقولة بنصها من ابن حيان : «قال عيسى بن أحمد (الرازى) : فى صدر هذه السنة ثار سوار بن حمدون القيسى بناحية البراجلة من كورة إلبيرة ، وقد انضوت إليه بيوتات العرب من كور إلبيرة وجيان ورية وغيرها عندما تميزت الأحزاب بالعصبية وشبوا نار الفتنة . . » . وقد أراد دوزى بهذا أن يلقى تبعة هذه الفتنة الكبرى — التى شغلت كل أيام الأمير عبد الله وجزءاً من أيام عبد الرحمن الناصر — على العرب ، وهو غير صحيح كما يتضح من البيان الشافى الذى يقدمه ابن حيان عن هذه الفتنة فى الجزء الذى نشره ملشور أنطونيا .

(٢) كان يحيى بن صُقالة القيسى قد « وادع أهل حاضرة إلبيرة الذين دعوتهم للمولدين والمسالمة وعقد بينه وبينهم أماناً مؤكداً ، حلفوا عليه أيماناً مغلظة توثق بها منهم ، واطمأن إليهم فجعل يأتى حاضرتهم ينزل فيها ويقيم الأيام ، وهم يرصدون منه غرة فى بعض قدَماته إليهم ، فثاروا به بغتة وقتلوه ، فرأّس أصحابُه سواراً » . ابن حيان ، المقتبس (تحقيق ملشور أنطونيا) ص ٥٥ .

(٣) مِحْرب مصطلح يستعمله ابن الأبار كثيراً ، ويريد به الكثير الحرب . وقد ورد اللفظ عند ابن حيان (ص ٥٥) : محارباً .

(٤) هو حصن منت شاقر Monte Sacro على الجبل الذى يحمل نفس الاسم ، وهو مطل على سهل غرناطة .

(٥) الأصل نائل ، والتصحيح من ابن حيان (المقتبس ، ص ٥٥) . كان زعيماً من زعماء المولدين الذين قاموا على العرب فى كورة إلبيرة . وقد كانت أول حرب نابل مع يحيى بن صقالة ، فغلبه على حصن منت شاقر وانتزعه منه ، فاسترده سوار.

فيه عنه ومَلَكَه . وكان نابلٌ قد انتزعه من يحيى بن صُقالة ، فاسترده سَوّار إلى مُلكه .

ثم افتتح حصون المسالمة والنصارى حصناً حصناً ، وقتل من ظفر به وغنم أموالهم . ولقيه جَعْد بن عبد الغافر — عامل الأمير عبد الله — فهزمه سَوّار وقتل من أصحابه نحواً من سبعة آلاف ، وأسر جعداً فمَنّ عليه وأطلقه وأبلغه وأمنه[1] .

وغلظ أمرُه فاستبق حينئذ إلى حصن غرناطة بالقرب من مدينة إلْبِيرة ، وصعد إليه فتبوّأه داراً اجتمعت إليه فيه عرب كورة إلبيرة وكاتبته عربُ النواحى إلى حدود « قلعة رَبَاح » وغيرها ، وكانت دار الداخلين إلى الأندلس من بكر ابن وائل ، فصاروا إلْباً معه على المَوَلدين . وبَجَح[2] سَوّار بما تهيأ له على أعدائه ، وعلتْ هِمّتُه ، وأمّلَتْه العربُ ، وعلا فى الناس ذِكرُه ، وقال الأشعار الجزلة ، / وأكثَرَ الفَخارَ بنفسه وقومه . ذكر ذلك ابنُ حَيّان ، وحكى أنه أوقع بأصحاب [٤٢ - ب] ابن حَفْصُون ثانيةً ، ويقال إن قتلاهم كانوا فيها اثنى عشر ألفاً ، وتُعرف

---

(١) بعد أن انتصر سوار المحاربى على نابل ومن معه من المولدين والمسالمة استشرى أمره وانطلق يستولى على حصونهم ويقتل من يظفر به منهم ويغنم أمواله ، وكانت نتيجة إسرافه أن أخذ بقية المولدين والمسالمة ينضمون إلى الثورة ، فخاف جعد بن عبد الغافر عامل كورة إلبيرة للأمير عبد الله أن يؤدى ذلك إلى خروج الكورة كلها من يده ، فسار إلى حرب سوار وانضم إليه المولدون ، فانهزم جعد ووقع فى أسر سوار ، ثم أطلق هذا سراحه . وكان جعد من أقدر قواد الأمير عبد الله ، وكذلك كان أخوه أمية ، وقد ظل أمية يقاتل فى سبيل الإمارة القرطبية والجماعة حتى استشهد فى معركة مع بنى الحجاج الخارجين فى إشبيلية فى موقف يفيض حمية ورجولة .

(٢) جعلها دوزى (ص ٨١) : فخم ، ولا محل للتغيير ، لأن الكلمة صحيحة فى موضعها : بجح بمعنى فرح وعظمت نفسه عنده (اللسان : ٣/٢٢٨) .

بـ « وقيعة المدينة »[1] . قال : وقد ذكرها سعيدُ بن جُودِى السعدى صاحب سَوّارٍ والوالى رئاسة العرب بعده فى شعر له ، منه :

وَلما رأوْنا راجعين إليهمُ ... تولَّوْا سِراعاً خوفَ وَقْعِ المناصِلِ
فسِرنا إليهمْ والرماحُ تَنوشُهمْ ... كوقع الصياصى تحت رَهْجِ القَساطِلِ
فلم يَبْقَ منهمْ غيرُ عانٍ مُصَفَّدٍ ... يُقادُ أسيراً مُوثَقاً فى السلاسلِ
وآخر منهمْ هاربٌ قد تضايقتْ ... به الأرضُ يهفو من جوًى وبَلابلِ

ومنه :

لقد سَلَّ سَوّارٌ عليكمْ مُهَنَّداً ... يَجُذُّ به الهاماتِ جَذَّ المَفاصلِ
به قتلَ اللهُ الذين تحزّبوا ... علينا وكانوا أهلَ إفكٍ وباطلِ
سما لبنى الحمراء إذ حان حَيْنُهم ... بجمعٍ كمِثل الطَّوْدِ أرعنَ رافلِ
أدرتمْ رحى حربٍ فدارتْ عليكمُ ... لحتفٍ قد أفناكم به اللهُ عاجلِ
لقيتمُ لنا ملمومةً مستجيرةً ... تُجيدُ ضراب الهام تحت العواملِ
بها من بنى عدنانَ فتيانُ غارةٍ ... ومن آلِ قحطانٍ كمِثلِ الأجادلِ
يقودهمُ ليثٌ هِزَبْرٌ ضُبارمٌ ... مِحَشٌّ حروبٍ ماجدٌ غيرُ خاملِ

---

(١) كسب سوار بن حمدون القيسى انتصارين كبيرين ، الأول انتصاره على جعد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله على إلبيرة وأهل البيرة الذين يعرفون هنا بأهل الحاضرة ، وقد ذكرنا هذا الانتصار ويسمى بوقيعة جَعْد . والانتصار الثانى كان على أهل إلبيرة أيضاً ، وكان سوار وأصحابه قد احتلوا حصن غرناطة واتخذوه قاعدة لهم فأراد خصومهم من المولدين والمسالمة أن يخرجوهم منه ، وهاجموا الحصن ، ولكن سواراً استطاع الانتصار عليهم وأوقع بهم بعد مقتلة عظيمة ، قال ابن حيان : « فيقال إن قتلاهم فى هذه الوقيعة كانوا اثنى عشر ألفاً » ، وهذه هى وقعة سوار الثانية المعروفة بوقعة المدينة » . هذا ، وقد كانت نتيجة شدة سوار أن انضم المولدون والمسالمة فى كور جيان وإلبيرة ورية إلى عمر بن حفصون ، فآل الأمر إلى أن قتل سوار فى إحدى المعارك . (ابن حيان : المقتبس ، ص ٥٨ – ٦١) .

أُرومتُهُ مِن خيرِ قَيْسٍ سما بِهِ إلى المجد قِدْماً والعلا كل فاضلِ

له سَوْرةٌ قيسيَّةٌ عربيـــةٌ(١) بها ذاد عن دينِ الهُدى كلَّ جاهلِ

وهى طويلة . وقال فى ذلك :

فما كان إلا ساعةً ثم غُودروا كمِثل حصيدٍ فوقَ ظهرِ صعيدِ

وقال أيضاً قصيدة أخرى ذكر فيها أَسْرَ جعد بن عبد الغافر يخاطب المولدين(٢) :

لم تزالوا تبغونها عِوَجاً حـتّـى وردتمْ للموتِ شرَّ ورودِ

فاصطلوا حرَّها وحرَّ سيوفٍ تتَلَظّى عليكمُ كالوقودِ

/قد قتلناكمُ بيحيى وما إنْ كان حُكمُ الإلٰهِ بالمردودِ [٤٣-١]

هِجتُمُ يا بنى العبيدِ(٣) ليوثاً لم يكونوا عن ثارهم بقُعودِ

---

(١) أورد القصيدة بكاملها ابن حيان فى المقتبس (تحقيق ملشور أنطونيا ، ص ٥٧ - ٥٨) فيما عدا الأبيات الخمسة الأخيرة التى ذكرها ابن الأبار . ويلاحظ أن هذه الأبيات واضحة الوضع ، فإن سواراً لم يكن يذود عن «دين الهدى» وإنما كان يحارب جند إمارة قرطبة الذائدة عن «دين الهدى» ، وكان يحارب المولدين والمسالمة وهم مسلمون ، بل كان عمر بن حفصون إلى ذلك الحين مسلما ، وإنما كان خارجاً عن طاعة الإمارة . وهذا يكفى للدلالة على أنها أضيفت فيما بعد ، أضافها رجل لا يعرف الظروف التى أحاطت بثورة يحيى بن صقالة وخلفه سوار بن حمدون ثم خلفهما سعيد بن جودى ، وكلهم قيسيون .

(٢) قال ابن حيان فى التقديم لهذه الأبيات : «ولسعيد بن جودى فى مديح سوار بن حمدون وذكر وقيعته الأولى بأهل حاضرة إلبيرة وأسره لجعد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله وأخذه بثأر يحيى بن صقالة أميرهم قبله قصيدة طويلة منها . .» (المقتبس ، ص ٥٨) .

هذا ، وقد أورد ابن الأبار مختاراً من هذه القصيدة وترتيب الأبيات عنده يختلف من ترتيبها فى المقتبس (ص ٥٩) ، ولم نر ضرورة للإشارة إلى اختلافات الترتيب فى المرجعين .

(٣) المقتبس : العبود .

وهذه اللفظة هنا تكشف عن حقيقة هذه الفتنة التى جرت على الإمارة الأندلسية وأهلها بلاء عظيماً . فإن أبا الخطار الحسام بن ضرار عندما فرق الجند العربى على الكور التى عرفت باسم ـ

جاءكم ماجدٌ يقود إليكم فتيةً ذادةً كمثل الأسودِ[١]
يطلب الثارَ ، ثارَ قومٍ كرامٍ آزروا بالعهود بعدَ العهودِ[٢]
فاستباح الحمراءَ[٣] لم يبق منهم غير عانٍ فى قِدِّه مصفودِ
قد قتلنا منكم ألوفًا وما يَعْـ دِلُ قَتْلَ الكريمِ قتلُ العبيدِ
فلئن كان قَتْبَله غَدرةً ما كان بالنِّكْسِ ، لا ولا الرِّعديدِ

يريد يحيى بن صقالة أميرَ العرب القائم على المولدين . وقال يحيى بن أخى

= الكور المجندة ، وهى : إلبيرة ورية وجيان وإشبيلية وشذونة وباجة وتدمير ، أنزلهم فيها « على أموال العجم من مال ونعَم » أى جعلهم سادة هذه الكور ، « وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة » . وقد أسلم أهل هذه الكور شيئاً فشيئاً ، ولم يعودوا أهل ذمة ولا عجما ، ولم يعد من الشريعة أن يؤدوا ثلث أموالهم لأولئك العرب ، ثم إن أعدادهم تكاثرت نتيجة للأمان والاستقرار فى ظل أمراء قرطبة ، وثقلت عليهم تلك الجباية الكبيرة ، ومن ناحية أخرى لم تعد لهذا الوضع ضرورة بعد قيام الإمارة وقيامها بأمر جميع أهل الأندلس ، ولهذا فقد بدأوا يتململون من هذا الوضع ، وناصرتهم الإمارة ورجالها . ولكن العرب المستقرين فى تلك الكور استمسكوا بضرورة الأداء على هذا النحو ، فثار المولدون والمسالمة وأيدهم عمال الإمارة وحاربوا أولئك العرب ، ثم تطور الأمر بعد ذلك واتسع مداه ودخلت فيه عوامل أخرى ، وخاصة بعد أن دخل فى الموضوع عمر بن حفصون.

(١) المقتبس (ص ٥٩) : فتية منهم كمثل الأسود .

(٢) الأصل : أدروا بالعهود قبل العهود . وقد قرأ دوزى : إذ وفوا . وعند ابن حيان : أخذوا بالعهود قبل العهود . وفى مخطوط « الإحاطة » فى أكاديمية التاريخ فى فى مدريد :

يطلب الثار ابن قوم كرام أخذوا بالعهود قبل العهود

وقوله : « أخذوا بالعهود » يؤيد ما قلناه من أن أولئك العرب كانوا يستمسكون بما عاهدهم عليه أبو الخطار.

(٣) الحمراء هنا اختصار « بنى الحمراء » ، وهكذا كان أولئك العرب يسمون أهل البلاد .

يحيى بن صقالة ، من قصيدة طويلة يمدح فيها سوّاراً ويذكر وقيعة إلبيرة ويناقض العَبْلِىّ[1] شاعر المولدين ، وقيل إنها لسعيد بن جودى[2] :

لسَوّارٍ على الأعداء سيفٌ أباد ذوى الغواية فاضمحلُّوا
سقاهم كأسَ حتفٍ بعدَ حتفٍ بها نَهَلَ العبيدُ معاً وعَلُّوا
قتلتَ بواحدٍ سَوّارُ ألفاً وألفُهمُ بواحدِنا يَقِـلُّ
وأكثرُ قتلِنا لهمُ حلالٌ بما ارتكبوه ظلماً واستحلُّوا
فأوردْنا رقابهمُ سيوفاً تَشُبُّ النارُ منها إذ تُسَلُّ
ورِثنا العِزَّ عن آباءِ صِدقٍ وإرثُكُمُ بَنِى العُبْدانِ ذُلُّ

وأول شعر العبلى[3] :

قد انقصفت قناتهمُ وذَلُّوا وضعضع[4] ركن عزهم الأذلُّ

(١) الأصل : الصلى ، والتصويب من المقتبس لابن حيان (ص ٦٢ — ٦٣) وهو عبد الرحمن بن أحمد المعروف بالعبلى ، ينسب إلى قرية عبلة التى منها أصله ، وكان شاعر إلبيرة المحامى عن المولدين ، وكان يقابله فى الجانب العربى محمد بن سعيد بن مخارق الأسدى« أسد بنى خزيمة ، شاعر العرب القائم فيها مقام العبلى فى المولدين ، وكان كل منهما يحرض قومه ويناضل عن مذهبه ويصف ما يجرى لقومه على أضدادهم من الوقائع المخزية ، فلهما فى ذلك أشعار كثيرة ، وكل منهما كان بعيد المدى فى فرط العصبية » .

(٢) قيلت هذه الأبيات رداً على قصيدة العبلى ومطلعها :

قد انقصفت قناتهم وذلوا وزعزع ركن عزهم الأذل

وقد أورد ابن حيان الأبيات فى المقتبس (ص ٦٥) وبين روايته ورواية ابن الأبار خلاف .

(٣) الأصل : العبدى ، وهو تصحيف .

(٤) فى المقتبس (ص ٦٤) : وزُعزع .

فما طُلَّت دِماؤُهُمُ لديهم وهاهم عندنا فى « البير » طَلٌّ(١)

ومن شعر سَوّار قوله من قصيدة طويلة :

صَرَم الغوانى يا هُنَيْدُ مودتى إذ شابَ مِفْرَقُ لِمَّتى وقَذالى(٢)

[٤٣-ب] / وصَدَدْنَ عنى يا هنيدُ وطالما عَلِقَتْ حِبالُ وِصالِهن خبالى

وقُتِل فى صدر سنة سبع وسبعين ومائتين ، فكان أمده فى رئاسته نحو العام(٣) .

٥٧ — سعيد بن جُودى السَّعْدِى ، أبو عثمان

هو سعيد بن سليمان بن جودى بن أسباط بن إدريس السعدى ؛ هو من هوازن من جند قِنَّسْرِين .

(١) الأصل : ظل دون شكل . وقد تكون : ظِلٌّ ، وهى قراءة طيبة تعطى معنى جميلا . وقد جعلناها : طَلٌّ متابعة لرواية ابن حيان ، ص ٦٦ .
و « البير » يراد بها « إلبيرة » .

وذكر ابن حيان لمناسبة هذا البيت أنه « لما ظهرت العرب على أهل حاضرة إلبيرة وسجل الأمير عبد الله لأميرهم سعيد بن جودى على الكورة ، فدخل الحاضرة ، وأتاه شاعرهم عبد الله بن أحمد العبلى (كذا ، وقد ذكر قبل ذلك أن اسمه عبد الرحمن) بشعر يمتدحه فيه ، فاستمع له وأمر له بجائزة . ثم ذكَّره أحد الحاضرين بشعره الذى قال فيه هذا البيت ، فأمر سعيد بن جودى بعض بنى صقالة بقتله وإلقاء جثته فى « بئر غامضة » ففعل ، فكأنه فهم لفظ « البير » على أنها « البئر » لا ترخيما للفظ إلبيرة .

(٢) صحف دوزى هذا البيت تصحيفاً شديداً أفسد وزنه ومعناه :

صرمن الغوانى يا هنيد مودتى إذا شاب مفرق لمّى وقـــدالى

ثم أضاف حاشية طويلة يفهم منها أنه خلط بين البيت وما قبله ، وواضح أنه من قصيدة أخرى . ومن الغريب أن يعسر عليه هذا البيت مع وضوحه ومع أنه قرأ وفسر ما هو أعسر منه بكثير .

(٣) راجع المقتبس ، ص ٦٠ .

وَلِىَ جدُّه جودى بن أسباط الشرطةَ للأمير الحَكَمِ الرَّبَضِىّ ، ووَلِىَ أيضاً قضاء بلده إلْبيرة — وقع ذكرُ ذلك فى « المُقْنِع » من تأليف ابن بَطّال فى الأحكام[1] . ولما قُتل سَوّار بن حمدون ذَلّتِ العربُ بمقتله ، وكَلّ حَدُّها بما نَزَل فيه ، وكان قد أصيب على يدى بعض أصحاب ابن حَفْصُون[2] . فيقال إن جثته مزقها ثـكالى نساء المولدين قِطعاً ، وأكله كثير منهن حنقاً عليه ، لما نالهن به المرة بعد المرة من الثـكل فى بعولتهن وأهليهن . فنصبت العربُ لإمارتها بعده سعيدَ بن سليمان بن جودى صاحبَه ، وعلّقتْ آمالَها به ، فلم يسُدَّ مكانَه ، ولا بلغ مداه فى السياسة . على أنه كان شجاعاً بطلا وفارساً مُجَرِّباً ، قد تصرف مع فروسيته فى فنون العلم ، وتحقق بضروب الأدب ، فاغتدى أديباً نحريراً ، وشاعراً محسناً ، تُعَد له عشرُ خصال تَفرّد بها فى زمانه لا يُدفع عنها : الجودُ ، والشجاعة ، والفروسية ، والجمال ، والشعر ، والخطابة ، والشدة ، والطعن ، والضرب ، والرماية . وهابَه ابن حفصون هيبةً لم يَهَبْها أحداً ممن مارسه ، إذ لم يَلْقَه قط إلا عَلاه وهزمه .

ولقد دعاه فى بعض أيامهم إلى المبارزة ، فلم يجبه ابنُ حفصون إليها وحاد عنه . وواجهه يوماً فألقى عليه ذراعه واجتذبه إلى الأرض ، فما نَجّاه منه إلا أصحابُه

---

(١) هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوسى ، أصله من بطليوس واستقر فى إلبيرة وعاش فيها . ترجم له ابن بشكوال ، وذكر كتاب « المقنع فى أصول الأحكام » وقال إنه لا يستغنى عنه الحكام ، وكان إلى جانب ذلك شاعراً مجيداً ، وقد سمى « العين جودى » لكثرة ماكان يردد فى أشعاره « يا عين جودى » ، وقد انصرف عن الشعر عندما كبرت سنه وتزهد ، وتوفى سنة ٤٠٤ أونحوها .

« الصلة » لابن بشكوال ، رقم ٤٤٠ ص ١٩٦ . فهرست ابن خير ، ص ٢٥٢ .

(٢) قتل سوار على يد حفص بن المرة قائد عمر بن حفصون « الشديد التمرد واللعنة » كما يقول ابن حيان (ص ٥١) وقد قتل حفصٌ هذا سنة ٢٨٠ على يد عبد الملك بن عبد الله ابن أمية قائد الأمير عبد الله ، وقد علق ابن حيان على قتله بقوله : « كبير قواده ولزاز حروبه وخليفته فيما غاب عنه من مساعيه ، فكان وجده عليه حسب مكانه من أثرته » (ص ١٠٨) .

الذين انقضوا على سعيد فتنقّذوا عمر من يده . وله زَرْقَةٌ بعيدة المدى إلى بعض القناطر المعتلية مشهورة النسبة إليه ، لم يقدر أحد بعده ممن يتعاطى الشدة يبلغ إليها — ذكر ذلك أبو مروان بن حيّان فى تاريخه(١) .

وقال فى موضع آخر : كان ، مع رئاسته وشجاعته ، شاعراً مفلقاً وخطيباً مِصْقَعاً ، فصيح اللسان ، ربيط الجنان ، جميل الشارة ، حسن الإشارة ، ثبت الأصالة ، واسع الأدب / والمعرفة ، يضرب فى صنعة الشعر بسُهمة وافرة ، [٤٤-ا] ويتصرف من سبله بكل منيعة(٢) . وحكى أن الأمير عبد الله بن محمد أسْجَل له على كورة إلْبِيرة ، لمّا ظهرت العرب على حاضرتها . فاتصل قيامه بأمر العرب ، إلى أن قُتل غيلةً بأيدى بعض أصحابه فى ذى القعدة من سنة أربع وثمانين ومائتين .

قال : وزعموا أن من أقوى الأسباب فى قتله أبياتاً من الشعر قالها فى غمص الأئمة من بنى مروان . منها ، قال لعبد الله :

يا بنى مروانَ جِدُّوا فى الهربْ نَجَمَ الثائرُ من وادى القصبْ
يا بنى مروانَ خَلُّوا مُلكَنا إنما المُلكُ لأبناء العربْ(٣)

ورثاه الأسدى شاعر العرب فى ذلك الأوان ، وقال فيه مُقَدَّم بن مُعافى يرثيه :

من ذا الذى يُطعِمُ أو يكسو وقد حوى حِلْفَ الندى رَمْسُ ؟
لا اخضرّتِ الأرضُ ولا أورقَ الـ عودُ ولا أشرقتِ الشمسُ

(١) روى ذلك ابن حيان وبعضه عن تاريخ عبادة بن ماء السماء . انظر « المقتبس » ، ص ٢٩ — ٣١ .

(٢) كذا فى الأصل ، وكذلك عند ابن حيان : « المقتبس » ، ص ١٢٣ .

(٣) روى هذه الأبيات أيضاً ابن حيان (المقتبس ، ص ٣٠) ولكنه جعل صدر البيت الأول :

* قل لعبد الله يَجِدْ فى الهرب *

وأضاف إليها بيتاً ثالثاً :

قربوا الورد المحلى بالذهب واسرجوه ، إن نَجمى قد غَلَبْ

بعد ابن جودىٍّ الذى لن ترى   أكرمَ منــه الجنُّ والإنسُ
دموعُ عينى فى سبيلِ الأسى   على ســعيدٍ أبداً حَبْسُ

وقام بأمر العرب بعدَه محمد بنُ أضحى بن عبد اللطيف الهمدانى صاحب حصن الحَمَّة ، إلى أن استنزله الناصرُ عبد الرحمن بن محمد . ولسعيد بن جودى شعر كثير ، وقد ذكرنا منه جملة . وسَمع يوماً منشداً ينشد قول أبى قيس بن الأسْلت :

قد حَصَّتِ البيضةُ رأسى فما   أطعم نوماً غــيرَ تهجاعِ
أسعى على جُلِّ بنى مالكٍ   كل امرئٍ فى شأنه ساعِ[1]

فقال معارضاً له على البديهة :

الدِّرعُ قد صارتْ شعارى فما   أبسُطُ حاشاها لتهجاعِ
والسيفُ إن قصَّره صانعٌ   طوَّله يومَ الوغى باعى
/ وما كُمَيتى لى بمُسْتَقْصِرٍ[2]   إذا دعانى لِلِّقــا داعِ [٤٤ - ب]
هذا الذى أسعى له جاهداً   كل امرئٍ فى شأنه ساعِ

وله فى جارية سمعها بقُرْطُبَة تغنى للأمير عبد الله بن محمد — وذلك فى إمارة أبيه الأمير محمد — فهام بها واشترى جارية سماها باسمها « جيجان » ، فلم يُسْلِه ذلك عنها وهام بها دهراً[3] :

سمعى أبى أن يكون الروحُ فى بدنى   فاعتاض قلبى منهُ لوعةَ الحزنِ
أعطيتُ جيجانَ روحى عن تذكرها   هــذا ولم أرها يوماً ولم ترَنِى

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الأغانى (١٥ / ١٥٣) وقد راجعتها على أصلها هناك وقومتها بمقتضاه .

(٢) فى المقتبس (ص ١٢٤) : بمستصغر .

(٣) روى الحكاية بالتفصيل ابن حيان فى « المقتبس » (ص ١٢٤) ، وقد ورد اسم الجارية عنده « جيحان » . وكلتا صورتى هذا الاسم عند ابن حيان وابن الأبار قلقة يبدو أنها محرفة .

كأننى واسمها والدمعُ منسكبٌ من مقلتى راهبٌ صلى إلى وثنِ (١)

وله فى جارية حُملت إليه من قرطبة ، فلما خلا بها أعرضت عنه ورمت بطرفها إلى الأرض خجلا فقال :

أمائلةَ الألحاظِ عنى إلى الأرضِ أهذا الذى تُبدين-ويحكِ-من بُغضى؟
فإن كان بُغضاً لستُ والله أهلَه ووجهى بذاك اللحظ أولَى من الأرض

وله أيضاً يهزل ويتغزل :

لا شىء أملح من ساقٍ على عنقٍ ومن مناوَلةٍ كأساً على طبقِ
ومن مواصلةٍ من بَعدِ مَعْتَبةٍ ومن مراسلةِ الأحبابِ بالحدقِ
جريتُ جرىَ جموحٍ فى الصِّبا طَلَقاً وما خرجتُ لصرفِ الدهرِ عن طلقى
ولا انثنيتُ لداعى الموتِ يومَ وغًى كما انثنيتُ وحبلُ الحبِّ فى عنقى

ومقاصده فى غزله المشوب بشجاعته تشبه مقاصد أبى دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلى ، وكانت له أيضاً رئاسة وثورة .

ولسعيد أيضاً فى جارية جميلة عَرضت له صباحاً فى غلالة حمراء وهو خارج إلى مجلسه ، لتأخذ عليه الطريق وهى تتثنى فى حركتها فقال :

قضيبٌ منَ الريحانِ فى ورقٍ حُمْرِ

ثم أعيته الإجازةُ طولَ نهاره وقد شُغل بها فكرُه ، حتى دخل عليه حاجبُه
[٤٥-١] فاستأذن لعُبَيْديس / الشاعر الكاتب — وكان ينتابه هو وغيره — فساعةَ دخلَ عليه ناداه سعيد :

قضيبٌ منَ الريحانِ فى ورقٍ حُمْرِ

(١) أورد ابن حيان قبل هذا البيت بيتاً هو :
فقل لجيحان يا سؤلى ويا أملى استَوْصِ خيراً بروح زال عن بدنِ

فأجابه من قبل أن يجلس :

وعهدىَ بالريحانِ فى ورقٍ خُضْرِ

فسُرّ وأجزلَ صِلته .

وله يرثى :

أمُستنصراً بالصبرِ قد دُفِن الصبرُ مع الحسَنِ(١) المأمولِ إذ ضمّه القبرُ
فياعجباً للقبرِ مِنْـــــه يضمُّهُ وقد كان سهلُ الأرضِ يخشاه والوعرُ
وما مات ذاكَ الماجدُ القَرمُ وحدهُ بل الجودُ والإقدامُ والباسُ والصبرُ
وإنْ يَــكُنِ الشيطانُ زيَّنَ خَيْرةً لقاتله فى الــكُفْرِ ، بل دونَه الــكفرُ
فشمسُ الضحى ترجو لفقدان نورهِ وبدرُ الدجى يبكيه والأنجمُ الزهرُ

وله حين أسره عمر بن حفصون ، رأس الفتنة بالأندلس ومضرم نارها وركنُ العصبية للعجم والمولدين ، وذلكَ قبل إمارة سعيد ورئاسته للعرب :

خليليّ صبراً ، راحةُ الحرّ فى الصبرِ ولا شىءَ مثلُ الصبرِ فى الــكَرْبِ للحُرّ
فــكم من أسيرٍ كان فى القِدّ(٢) مُوثَقاً فأطلقَهُ الرحمٰنُ من حَلَقِ الأسرِ
لئن كنتُ مأخوذاً أسيراً وكنتُما فليس على حربٍ ولــكنْ على غدرِ
ولو كنتُ أخشى بعضَ ما قد أصابنى حَمَتْنىَ أطرافُ الرُّدَيْنيّةِ السُمْرِ
فقد علمَ الفتيانُ أنى كَميُّها وفارسُها المقدامُ فى ساعةِ الذعرِ

(١) لم أعثر على شىء يكشف عن شخصية الحسن هذا ، والغالب أنه من زعماء جماعة يحيى بن صقالة وسوار بن حمدون وسعيد بن جودى .

(٢) جعلها دوزى (ص ٨٧) وملشور أنطونيا (المقتبس ، ص ١٢٦) : القيد ، ولا داعى لذلك فالقد صحيحة فى معنى القيد ، واستعمالها فى الشعر كثير .

ومن هذه القصيدة :

بِهَمِّكِ أَلْقَى خالقى يومَ موقفى وكربُكِ أقضى لى من القتلِ والأَسرِ (١)
وإن لم يكن قبرٌ فأحسنُ موطئاً من القبر للفتيان حَوْصَلَةُ النَّسْرِ

٥٨ — سليمان بن وانسوس
الوزير ، أبو أيوب

هو سليمان بن محمد بن أصبغ بن عبد الله وانسوس المكناسى مولى سليمان ابن عبد الملك . أصله من البرابر ، وله فيهم بيت شرف / بالأندلس . وكان جده [٤٥ – ب] أصبغ رئيساً بمارِدَة مطاعاً ، ثار فيها على الأمير الحَكم بن هشام فملكها لنفسه واتصل خلافُه فيها سنين ، وجرت له خطوب كبار فى حالَىْ المعصية والطاعة .

وتمهد ابن ابنه هذا مهاد الطاعة من بعد نزوات سلفه ، وعَلِق حبالَ الخدمة ، فتصرف للسلطان فى أعمال كثيرة ، إلى أن ارتقى الذروة من خطة الوزارة للأمير عبد الله ، وصارت له حظوة . وكان أديباً مُفْتَنًّا ، وشاعراً مطبوعاً ، حسن البيان ، بليغاً ، حصيفاً ، داهياً ؛ وكان فى لحيته كوسجاً (٢) . ومن شعره يغرى

(١) أسقط ابن الأبار هنا بيتين يوضحان المقصود بالبيتين اللذين أتى بهما ، وهما :
فيا ظاعناً أبلغْ سلامى تحيةً إلى والدىَّ الهائمين لدى ذكرى
وأَدِّ إلى عرسى السلام وقل لها عليك تحياتى إلى موقف الحشر
ويفهم من هذين البيتين أنه يخاطب زوجه فى البيتين اللذين أوردهما ابن الأبار.

(٢) الأصل : وكان فى حليته كوسجاً له . والكوسج هو الذى لا شعر على عارضيه ، ولهذا فقد غلب على ظنى أن « حلية » هى « لحية » وهم الناسخ فى كتابتها . وكان سليمان بن وانسوس كوسجاً أى لا شعر على عارضيه ، فى حين أن لحيته كانت طويلة ضخمة وصفها الأمير عبد الله كما رأينا بأنها « هلوفة » . وهذا التعارض بين ضخامة اللحية وانعدام شعر العارضين هو الذى جعل الأمير عبد الله يسخر من لحية سليمان بن وانسوس.

الأميرَ عبد الله بن محمد بجهور بنِ عبد الملك البُخْتِيّ ، وكان قد صُرف عن عمله بكورة إلْبيرة لتَظَلُّم الرعية :

جاء الحمارُ ـ حمارُ المرج ـ محتشياً[1] مما أفاد من الأموال والطُّرَفِ
خَلّى لِبيرةَ قد أَوْدَتْ مساكنها بقبح سيرته والعنفِ والسرفِ
فاحمل على العير حملاً يستقلُّ به واترك له سبباً للتِّبن والعلفِ

فلما قرأ الأمير عبد الله أبياته أمر بإدخاله إليه فضحك منه وقال له : « يا سليمان لو زدتنا فى الأبيات لزدنا الحمارَ فى الغُرْم » ، وأمر بإغرامه ثلاثةَ آلاف دينار . وقد تقدم لسليمان هذا خبرٌ مع الأمير عبد الله يدل على شرف ذاته وعلو همته .

٥٩ — عامر بن عامر بن كليب بن ثعلبة بن عبيد الجذامى ، أبو مروان

وَلِيَ أبوه عامرٌ طليطلةَ ، ثم صرفه عنها عبدُ الرحمن بن الحكم بأخيه عبد الله بنِ كليب . وكان أحد وجوه أصحاب السلطان ، واختص بصحبة هاشم ابن عبد العزيز . وكانت فيه — مع أدبه وبلاغته — حدة ومعارضة للناس ، وتحكك بالشعراء ، فلم يسلم منهم ؛ وهو القائل فى الاعتذار :

عَظُمَ الخطاء فهل تُقيلُ يا سيدى ، أو ما تقولُ ؟
أنت العزيز بهفوتى وأنا بها العبد الذليلُ
والله لو أنى استطعـ ـتُ لما بدتْ منى فضولُ
ولما رأى منى الصديـ ـقُ سوى قوامٍ لا يميلُ

(١) روى الحكاية ابن حيان عن أبى الوليد بن الفرضى بتفصيل . وقد ورد هذا اللفظ فيه : محتسبًا وقرأها دوزى (ص ٨٨) : محتشيًا ولا معنى لها ، والصواب ما أثبتناه .

[٤٦-١] /ولسان صدق لا يزو ... لُ من الصواب ولا يَحُولُ
فأبتْ علىَّ الـكاسُ إلْ ... لاَ أن يُداخلَنى الذهولُ[١]

٦٠ — عبد الرحمن بن وليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد ابن غانم

كان هو وأخوه محمد وأبوهما وليد فى بيت أدب رائع وكتابة وجلالة ، ووَلِىَ وليد للأمير محمد بن عبد الرحمن خِطَّتَىْ الوزارة والمدينة ، وقاد جيش الصائفة الذى قدَّم عليه ابنه عبد الرحمن بن محمد ، وكان عدده عظيماً . ووَلِىَ أيضاً محمدُ ابنُ وليد خطةَ المدينة ، وسيأتى ذكرها . وعبد الرحمن هو القائل (وسَمِع عبيدَ الله بن يحيى بن يحيى صاحب مالك وقد سئل عن النعامة ففسرها بطير الماء) :

ذهب الزمان بصفوة العلماء ... وبقيتُ فى ظُلَمٍ وفى عمياءِ
وأتى طغامٌ رُقَّعٌ مِن بعدِهم ... لا فرقَ بينهمُ وبين الشاءِ
فإذا سألتَ عن النعامِ أسَدَّهمْ ... عِلماً ، يفسره بطير الماءِ

☆ ☆ ☆

(١) نقل ابن الأبار هذا عن ابن حيان ، ونقله ابن حيان عن أبى الوليد بن الفرضى (مخطوط ابن حيان ، ص ٢٢٧ ا و ب) وقد روى حكايته مع الوزير محمد بن جهور وكيف أمر هذا الأخير بضربه وسجنه ، وكيف حاول الوزير هاشم بن عبد العزيز إنقاذه من يد ابن جهور فلم يستطع ، مما حط من قدره أمام الناس . ولعله يعتذر فى هذه الأبيات للوزير ابن جهور .
انظر أيضا : « المغرب لابن سعيد » : ١ / ٩٤ – ٩٥ .

وهؤلاء شعراء بنى الأغلب ملوك إفريقية فى هذه المائة ، وفى آخرها انقرض ملكهم حسبما يُذكر بعد :

٦١ — زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ، أبو محمد

وَلِىَ بعد أخيه أبى العباس عبد الله الجميل[1] سنة إحدى ومائتين . وكان أبوه — إبراهيم بن الأغلب — إذا قدم عليه أحد من الأعراب والعلماء بالعربية والشعراء ، أصحبَهم ابنَه زيادة الله هذا وأمرهم بملازمته ، فكان أفضلَ أهل بيته وأفصحهم لسانًا ، وأكثرهم بيانًا . وكان يعرب كلامه ولا يلحن ، دون تشادق ولا تقعر ، ويصوغ الشعر الجيد . ولا يُعلَم أحد قبله سُمِّى « زيادة الله » ولا « هبة الله » قبل وَلدِ إبراهيم بن المهدى[2] .

ووُلِد زيادةُ الله قبلَ هبة الله هذا بنحو من ثلاثين سنة .

وهو الذى بنى جامع القَيْروان بالصخر[3] والآجر والرخام بعد أن هدمه ، وبنى المحراب كله بالرخام / من أسفله إلى أعلاه ، وهو منقوش بكِتَاب وغيرِ [٤٦ — ب] كِتَاب ، ويستدير به سَوارٍ حسان ، بعضها مجزعة بأسود ناصعةُ البياض شديدة السواد ، ويقابل المحراب عمودان أحمران ، فيهما تَوْشِية بحمرة صافية

(١) قال ابن عذارى عن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب هذا : « . . وكان من أجمل الناس وجهاً وأقبحهم فعلا ,وأعظمهم ظلماً . . » . وله حكاية مشهورة فى كتب التاريخ المغربى مع صلحاء القيروان ، إذ نصحوه بأن يعدل عن سياسته فأبى ، فدعوا عليه « فيقال إن قرحة خرجت تحت أذنه ، فقتلته فى السادس من دعاء القوم . وقال من حضر غسله أنه لما كشفت عنه ثيابه ، ظُن أنه عبد أسود بعد جماله ، وذلك بسبب سوء فعاله » . توفى فى ذى الحجة ٢٠١/ يونيو ٨١٧.

ولهذا يلقبه ابن الأبار بالجميل .

انظر : البيان المغرب ، ١/٩٥ — ٩٦ .

(٢) وردت هذه العبارة أيضاً عند النويرى : نهاية الأرب ، طبعة جسبار ريميرو ، ص ١٣٩ .

(٣) الأصل : بالصحن ، وقد صوبناها للسياق .

دون حمرة سائرها ، يقول كلٌّ من رآهما من أهل المشرق والمغرب أنه لم ير مثلهما . وقد بذل فيهما صاحب القسطنطينية وزنهما ذهباً فلم يُجِبْه الناظرُ للإسلام فى ذلك[(١)] .

وأول من بنى هذا الجامع الأشرف عقبة بن نافع الفِهْرى ، وهو الذى اختط مدينه القَيْروان فى سنة ثلاث وخمسين من الهجرة .

فلما وَلِىَ حسّان بنُ النُّعْمان الغَسّانى إفريقيةَ هدمه — حاشى المحراب — و بناه بالطوب . فلما وَلِىَ يزيد بنُ حاتم إفريقيةَ ، سنة خمس وخمسين ومائة ، هدمه و بناه . فلما وَلِىَ زيادةُ الله هذا ، هدمه و بناه مع المحراب كما وُصف وتم بنيانُه سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

و بعد ذلك بعام أو نحوه توفى فى رجب سنة ثلاث وعشرين .

ولأبى إبراهيم أحمد بن محمد — والد إبراهيم بن أحمد السفاك — زيادةٌ فى هذا الجامع كملت سنةَ ثمان وأربعين ومائتين[(٢)] ، وهى عليها إلى اليوم .

---

(١) يروى أن زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب كان يقول بعد أن فرغ من تجديد الجامع : « ما أبالى ما قدمتُ عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات : بنيانى المسجد الجامع بالقيروان ، وبنيانى قنطرة أم الربيع ، وبنيانى مدينة سوسة ، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قاضى إفريقية » — ابن عذارى ، البيان ، ١/١٠٦ .

(٢) تحدث النويرى (ص ١٥٠) بشىء من التفصيل عن تلك الزيادة التى أضافها أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ، قال : « ولأبى إبراهيم آثار عظيمة فى المبانى بإفريقية ، فمن ذلك بنيان الماجل الكبير بباب تونس — وهو بمعنى الصهريج عندنا — وزاد فى جامع القيروان النهر والمجنَّبات والقبة ، وبنى الماجل الذى بباب أبى الربيع ، والماجل الكبير الذى بالقصر القديم ، وبنى المسجد الجامع بمدينة تونس ، وبنى سور مدينة سوسة ، وكان آخر ما عمل الماجل الذى بالقصر القديم » .

وأبو إبراهيم هذا من أحسن أمراء بنى الأغلب سيرة وأبقاهم أثراً مع أنه كان من أصغر من تولى منهم سناً ، فقد تولى فى الثانية والعشرين — أو الثالثة والعشرين — من عمره ، ولم يحكم غير سبع سنين وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً . وكان موته يوم الثلاثاء ١٤ ذى قعدة سنة ٢٤٩ = ٢٠/

ومن شعر زيادة الله — على أنه كان يصنعه ويكتمه — ما يُروى أن المأمون كتب إليه أن يدعو على منابره لعبد الله بن طاهر بن الحسين ، فأنف من ذلك وأمر بإدخال الرسول عليه — بعد أن تملأ من الشراب ، وحلّ شعره ، ونارٌ عظيمة بين يديه فى كوانين ، وقد احمرت عيناه — فهال الرسولَ ذلك المنظر ، ثم قال : « قد علم أمير المؤمنين طاعتى له وطاعةَ آبائى لآبائه ، وتقدُّمَ سلفى فى دعوتهم ، ثم يأمرنى الآن بالدعاء لعبدِ خُزَاعة ؟ هذا والله أمر لا يكون أبداً » . ثم مد يده إلى كيس إلى جانبه فيه ألف دينار فدفعه إلى الرسول ليوصله إلى المأمون ، وكانت الدنانير مضروبة باسم إدريس الحسنى ، ليُعْلمه ما هو عليه من فتنة المغرب ومناضلة العلويين ، وكتب جواب الكتاب وهو سكران فى آخره أبيات منها :

أنا النار فى أحجارها مستكنة فإن كنتَ ممن يقدح الزند فاقدحِ
أنا الليث يحمى غيلَه بزئيره فإن كنتَ كلباً حان موتك فانبحِ
/ أنا البحر فى أمواجه وعُبابه فإن كنتَ ممن يسبحُ البحرَ فاسبحِ [٤٧ - ١]

فلما صحا بعث فى طلب الرسول ففاته ، وكتب كتاباً آخر يتلطف فيه ، فوصل الكتاب الأول والثانى ، فأعرضوا عن ذكر الأول وجاوبوه عن الثانى بما أحب . وصدْر البيت الأول من هذه الأبيات وقع فى ما تمثل به المأمون ،

= يناير ٨٦٢ ، أما ابنه أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب فقد كان مصابا بشبه جنون جعل منه أكبر سفاك للدماء عرفه تاريخنا ، ولم تقتصر جرائمه على خصومه السياسيين أو من يخشى خطرهم ، بل كان يقتل للذة القتل ، وقد أورد النويرى – نقلا عن أبى إسحاق إبراهيم الرقيق – بياناً مفزعاً ببعض المذابح التى أوقعها بأهل بيته وخدمه حتى لقد قتل ٣٠٠ خادم بسبب منديل ضاع منه ، وقتل ابناً من أبنائه وثمانية من إخوته ، وقتل ١٦ من بناته مرة واحدة . وكان به شذوذ وميل للغلمان ، وكان عنده منهم نيف وستون ، فشك فى أمرهم مرة فقتلهم جميعاً على أبشع صورة ، إلى آخر هذا البيان الأسود . وكان يتلذذ لمنظر القتل ويتفنن فيه ، ومن هنا فإن لقب السفاك الذى سماه به ابن الأبار قليل فى حقه.

إذ قتل ليلاً بالمُطبق إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام بن محمد ابن على بن عبد الله بن العباس المعروف بابن عائشة وأصحابه ، فقال حين فرغ من ذلك :

أنا النار فى أحجارها مستكنة   متى ما يَهِجْها قادحٌ تتضرَّمُ

حكاه المسعودى .

وكان زيادةُ الله يدعو للمأمون ، وابنُ شَكْلَة[١] — وهو إبراهيم بن المهدى — ببغداد قد ادعى الخلافةَ بعد قتْل الأمين ، إلى أن قدم المأمونُ بغدادَ فكاتَبه وشكر له فِعلَه .

وله يخاطب أمَّه « جلاجل » — جارية الليث بن سعد[٢] — وقد استفحل أمر الجند فى خلافهم عليه ، واستولوا على إفْرِيقِيَّة كلها ، إثر وقعة على أصحابه شديدة خاف منها على ملكه ، وأيقن بانقطاع مدته ، و بلغ ذلك منه كلَّ مبلغ ، فدخلت عليه أمه تصبِّره وتسهِّل الأمرَ عليه ، ففكر ساعة ثم رفع رأسه وأنشد أبياتاً منها :

أمنتْ سَبِيبةُ كل قَرْمٍ باسلٍ   ومن العبيد جماجماً أبطالاَ

فإذا ذكرت مصاباً بسَبِيبةٍ   فابكى جلاجل واندبى إعوالاَ

---

(١) ورد الاسم على هذا الضبط عند المسعودى ، انظر « مروج الذهب » (تحقيق باربييه دى مينارد ، باريس ١٨٧١) : ٦/١٠ .

(٢) سمع إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة من الليث بن سعد قبل أن يلى حكم إفريقية ، ويقال إن الليث وهب له « جلاجل » أم ولده « لمكانه منه » كما يقول ابن عذارى. وزيادة الله الأول هو ثانى ولد من أولاد إبراهيم بن الأغلب يلى الإمارة (ابن عذارى ، البيان ، ٩٢/١) .

يا ويح نفسي حين أركب غادياً بالقَيْروان تخالني مختالاَ
في فتيةٍ مثل النجوم طوالع وتخالني بين النجوم هلالاَ
فاليوم أركب في الرّعاع ولا أرى إلا العبيد ومعشراً أنذالاَ(١)

وله في النسيب :

بالله لا تقطَعَنْ بالهجر أنفاسى فأنتَ تملك إنطاقي وإخراسي
صدودُ طَرْفك عن طرفي إذا التقيا مُجَرِّعي كأسَ إرغامٍ وإتعاسِ
لو لم أُبحْكَ حِمَى قلبي تَرُودُ به لم تستبحْ مهجتي يا أملحَ الناسِ

/ وله أيضاً في تفاحة : [٤٧ - ب]

ولابسةٍ ثوبَ اصفرارٍ بلا جسمٍ تَنِمُّ بأنفاسِ الحبيبِ لمُشْتَمِّ
تجمَّع معشوقٌ لديها وعاشقٌ فذو نظرٍ يرنو إليها وذو شمِّ
سأُفنيكِ أو أَفنَى عليك تذكُّراً لمَنْ أنتِ عطرٌ منه في الرشف واللثمِ
فقد هِجتِ في قلبي لظًى لتذكرى وعنوانُه في مقلتي دمعةٌ تَهْمِي
كأني أُدْني حين أدنيكِ مَن بهِ أثرتِ اشتياقي في عناقٍ وفي ضمِّ

(١) كانت أيام زيادة الله بن الأغلب كلها أيام فتنة واضطراب ، بسبب قلة كفايته وسوء تصرفه مما كان سبباً في ثورة منصور الطُّنْبُذِي التي كادت تطيح بدولة بني الأغلب . وقد كان زيادة الله لهذا في ضيق وهم دائمين ، وربما كان هذا بعض سبب إسرافه في الشراب . وتشير أبيات زيادة الله إلى وقيعة سبيبة التي كانت سنة ٢١٠/٨٢٥ - ٨٢٦ ، أوقعها بجند زيادة الله عامر بن نافع صاحب منصور الطنبذي وقسيمه في الثورة ، وكان يقود جند زيادة الله فيها ابن أخيه محمد بن عبد الله بن الأغلب ، فقتل في المعركة ، وقد كاد أمر زيادة الله يتلاشى بعدها . قال ابن عذارى : « ولم يبق بيد زيادة الله من إفريقية كلها إلا قابس والساحل ونفزاوة وإطرابلس ، فإنهم تمسكوا بطاعته ، ولم ينقصوه شيئاً من جبايته . وملك منصور جميع عمل زيادة الله ، وضرب السكة باسم نفسه » (البيان المغرب ، ١/١٠٠ - ١٠١) .

٦٢ ـ الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ، أبو عِقال
(ويلقب بخزر)

وَلِىَ إفريقية بعد إبراهيم بن الأغلب ثلاثةٌ من أبنائه لصلبه ، أولهم أبو العباس عبد الله : وَلِىَ بعَهد أبيه ، وكان عند وفاته بطرابلس ، فقام أخوه زيادة الله بالأمر فى مغيبه ، وأخذ له البيعة على نفسه وعلى أهل بيته وسائر الناس ، فكان يتحامل عليه فى ولايته وينتقصه ، وهو يظهر التجمل والاحتمال(١) ؛ وعوجل فلم تطل مدته ، ولم يوصف بأدب فنذكره . وثانيهم أبو محمد زيادة الله المتقدم الذكر : وهو كان أطولهم ولايةً ، وأمتنهم بعد أبيهم أدبا . وثالثهم أبو عقال الأغلب هذا : وَلِىَ بعد أخيه زيادةِ الله ، وهو كان أقصرهم ولاية ؛ أقام سنتين وتسعة أشهر وأياماً ، غير أن الملوك منهم من عقبه(٢) دون أخويه . وكل من وَلِىَ بعده من آل الأغلب — إلى أن انقرض ملكهم وزال سلطانهم — من ولده . وآثاره صالحة : أمَّن الجندَ وأحسن إليهم ، فلم يكن فى أيامه — على قصرها وتقلصها — حروب . وغيَّر مما أحدث العمال كثيراً ، وقبض أيديهم عن أموال الرعية ، وقطع النبيذ من القيروان ؛ فحُمدت سيرته ، وظهرت فضيلته ، وانتشر عدله . وكان له حظ من الأدب يصوغ به مقطعات من الشعر ، فمنها قوله :

---

(١) عندما توفى إبراهيم بن الأغلب فى شوال ١٩٦/ يونيو ٨١٢ كان ابنه وولى عهده عبد الله بطرابلس ، فقام ابنه الثانى زيادة الله بأخذ البيعة على نفسه وأهل بيته ورجال الدولة لأخيه الغائب ، ولما وصل عبد الله إلى القيروان سلم إليه الأمر ، ولكن عبد الله لم يحمد لأخيه هذا الفضل وجعل دأبه التحامل على أخيه وإطلاق لسانه فيه ، فخاف زيادة الله وخرج إلى المشرق . وعندما توفى أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب فى صفر ١٩٧/ أكتوبر ٨١٢ تولى زيادة الله بعده .

(٢) الأصل : غبنه .

له مقلة تكفيه حملَ سلاحِهِ   محاربة ألحاظها من تسالمُهْ
سَقى صَبَّه من خمرها فبدا بها   كما تفعل الصهباء ما هو كاتمُهْ
وقد سكرتْ أجفانُه فكأنما   تُسَقِّيهِ من صهبائها وتنادمهْ

/٦٣ — ابنه محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ، أبو العباس [٤٨ - ١]

وَلِىَ بعد أبيه أبى عقال فى آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين ، وتوفى يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة اثنتين وأربعين ومائتين وهو ابن ست وثلاثين سنة ، فكانت ولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر واثنى عشر يوماً .

وكان كوسَجاً : كان وجهُه وجهَ خَصِىٍّ ليس فيه إلا شعرات يسيرة ، عقيماً لايولَد له ، موصوفاً بحلم وجود . وحاربه أخوه أحمد فظفر به وأخرجه إلى المشرق ، وكانت فى أيامه حروب كثيرة نُصر فيها . وأما أخوه الثانى — ويسمى أيضاً محمداً ، ويكنى أبا عبد الله — فكان والياً على طرابلس من قبله ، ومات بها فى أيامه سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ؛ ومن ولده أمراء بنى الأغلب الولاة بعد أبى العباس هذا [١] .

---

(١) هذه المعلومات تصحح خطأ كبيراً جارياً فى نسب بنى الأغلب ، فإن كل المؤرخين يتابعون ابن عذارى وابن خلدون والنويرى فى القول بأن أمراء بنى الأغلب بعد أبى العباس محمد بن الأغلب السعدى كانوا من نسله ، وأن أحمدَ الوالى بعده ابنُه . ولكن ما يذكره ابن الأبار هنا من أن محمداً الأول كان عقيماً لا ولد له ، وأن أحمد الذى جاء بعده هو ابن أخيه — واسمه محمد أيضاً — الذى تولى طرابلس ، يغير الوضع . ولم ينتبه لذلك زامباور فى معجم =

وأبو العباس [هو] القائل يفخر — في ما نسبه إليه بعض خاصته ، وقيل إنه لعبد الرحمن بن أبي مَسْلمة — قاله على لسانه عند ظفره بخارجٍ عليه :

أليسَ أبي وجدّي أوطآني — وجَدُّ أبي وعَمّايَ — الرقابا ؟
ورثتُ المُلكَ والسلطانَ عنهمْ فصرتُ أعزَّ مَن وطئَ الترابا
وقدَّمني الخلائفُ واصطفَوْني فمَن مثلي قديماً وانتسابا
أنا المَلكُ الذي أسمو بنفسي فأبلغ بالسموِّ بها السحابا
إذا نَقَّبْتَ عن كرمي ومجدي وجدتَني المُصاصةَ[1] واللُّبابا
أنا المَلكُ الذي أيَّدْتُ مُلكي بسيفي إذ كشفتُ به الضبابا
فأمضي إن سَرَدْتُ[2] الجفنَ عنه فأغتصبُ النفوسَ به اغتصابا
لقد فتح المهيمنُ لي بسيفي وإقدامي ، إذا ما الجمعُ هابا
أمتُّ به ابنَ حمزةَ[3] حين دبتْ عقاربُ غدره وسعَى نخابا

= الأنساب ، ولا الذين ترجموه إلى العربية (١/١٠٥) ، بل لم ينتبه لذلك ڤوندرهايدن الذي ألف كتاباً ضخماً عن الأغالبة بالفرنسية سبق أن أشرنا إليه (ص ٢١٣ — ٢١٦) .

وقد وصف ابن عذارى والنويرى محمداً هذا بالجهل والغباء ، بل أورد ابن عذارى حكاية أيد بها هذا الوصف ، ولكن الحقيقة — كما يتضح من التفاصيل التي يقدمها النويرى — أنه كان من أذكى بني الأغلب وأشدهم مكراً .

انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١/١٠٧ — ١١٤ . النويرى ، ١٤٦ — ١٥٠ .

(١) كذا في الأصل ، على اعتبار أن المُصَاصة العصارة التي تمص . وقد تكون صحة اللفظ : الخلاصة .

(٢) الأصل : أمضي إذا سررت ، ولا يستقيم به الوزن أو المعنى .

(٣) ابن حمزة هو نصر بن حمزة الجَرَوِيّ وزير أبي جعفر أحمد بن أبي عقال الأغلب ابن إبراهيم بن الأغلب ، وأحمد هذا هو أخو أبي العباس محمد المترجم له هنا ، وكان قد ثار عليه بمعاونة صاحبه نصر بن حمزة الجروى وأخيه داوود ، وتمكن من أن يتولى الأمر دون أخيه دون أن يخلعه . وقد تمكن محمد بالحيلة من أن يستعيد سلطانه ويتغلب على أخيه أحمد وأنصاره ، ثم أخرجه مبعداً إلى المشرق ، وقتل نصر بن حمزة الجروى ، وبهذا يفخر هنا . أما داوود بن حمزة الجروى فكان قد انضم إلى محمد نكاية في أحمد بن الأغلب لأنه فضل أخاه عليه .

أسلتُ به دمَ الأوداج منه فصار لشَيبِ لحيته خضابا[1]

/ أظلّ عشيرتى بجناح عِزّى وأمنحها الكرامةَ والثوابا [٤٨ - ب]

وأصطنعُ الرجال وأصطفيهم[2] وأغفر للمسىء إذا أنابا

وأسمو بالخميسِ إلى الأعادى فأكسر بالعقاب لها العقابا

أنا ابنُ الحرب ربتنى وليداً إلى أن صرتُ مكتهلاً شبابا

لعَمرُ أبيك ما أنْ عِبتُ قومى وما أخشى بقومىَ أن أعابا

بنيتُ لهم مكارمَ باقياتٍ إذا ما صارت الدنيا خرابا

٦٤ — إبراهيم بن أبى إبراهيم أحمد بن أبى عبد الله محمد بن أبى عِقال الأغلب

وهو خَزَر المذكور قبل ابن إبراهيم بن الأغلب ، أبو إسحاق .

وَلِىَ بعد أخيه أبى عبد الله محمد بن أحمد ، الذى يُعرف بأبى الغرانيق ، لكثرة ولوعه بتصيدها . وكان محمد هذا قد عقد لابنه أبى عِقال الأغلب ولاية عهده ، واستحلف إبراهيمَ هذا خمسين يميناً بجامع مدينة القَيْرَوان ألا ينازعَه ، وذلك بمحضر مشيخه الأغلب[3] وقضاة القيروان وفقهائها ، فلما هلك أبو الغرانيق

---

(١) ورد هذا الشطر فى الأصل هكذا :

* فصارت لشيب لحيته خضابا *

ولا يستقيم به الوزن ، وقد قومته على هذا النحو.

(٢) الأصل : أطيبهم .

(٣) فى النويرى : وذلك بحضرة مشائخة بنى الأغلب وقضاة القيروان وفقهائها (ص ٢٥٣)

لستٍّ مضين من جمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين ، خلع ابنَه أهلُ القيروان وقدموا إبراهيمَ بن أحمد فى قصة طويلة ، فابتلاهم الله بظلمه ، وامتحنهم بإسرافه ، حتى سموه « الفاسق » . وكان أول أمره قد أحسن السيرة فيهم نحواً من سبع سنين ، ثم ارتكب من العدوان وسفك الدماء مالم يرتكبه أحد قبله ، وأخذ فى قتل أصحابه وكتّابه وحجّابه ، حتى إنه قتل ابنه أبا عقال وبناته ؛ والأخبارُ عنه فى ذلك فظيعة شنيعة . وكان كثير المال شديد الحسد ، على اتصافه بالحزم والعزم والضبط للأمور . ولم يكن يوصف بعلم بارع ولا أدب ، وكان ربما صنع من الشعر شيئاً ضعيفاً ، فمن ذلك قوله :

نحن النجوم بنو النجوم ، وجدُّنا قمرُ السماء أبو النجوم تميمُ
والشمسُ جدّتُنا ، فمن ذا مثلُنا متواصلان : كريمةٌ وكريمُ ؟

[٤٩ - ١] / وحذْف هذا النظم الغث أولى من إثباته ، وليتَه بعقاب أهل بيته عوقب على أبياته . ولم يَلِ إفريقية قبلَه أطولُ عمراً منه فى سلطانها . مَلَكَ تسعاً وعشرين سنة إلا خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، ليطول به الابتلاء ؛ والله يفعل ما يشاء .

وحكى أبو عبيد البكرى فى كتاب « الممالك والمسالك » من تأليفه أن إبراهيم بن أحمد هو الذى بنى مدينة رَقّادة واتخذها وطنا ، وانتقل إليها من مدينة « القصر القديم » وبنى بها قصوراً عجيبة وجامعاً . ولم تزل بعد ذلك دار مُلك لبنى الأغلب ، إلى أن هرب عنها زيادةُ الله أمام أبى عبد الله الشيعى . وسكنها عبيدُ الله المهدى ، إلى أن انتقل إلى « المهدية » ، فدخلها الوَهَنُ وانتقل عنها ساكنوها . ولم تزل تخرب شيئاً بعد شىء ، إلى أن وَلِىَ مَعَدُّ بنُ إسماعيل ، فخرّب ما بقى منها وعفّى آثارها ولم يبق منها غير بساتينها .

قال : وليس بإفريقية أعدل هواءً ، ولا أرق نسيماً ، ولا أطيب تربة من مدينة رَقّادة . وذكروا أن أحد بنى الأغلب أرِقَ وشَرَدَ عنه النوم أياماً ، فعالجه

إسحاق — يعنى طبيبهم ، وهو الذى ينسب إليه إطريفُل إسحاق[1] — فلم ينم ، فأمره بالخروج والمشى ، فلما وصل إلى موضع رَقّادة نام ، فسميت رَقّادة من يومئذ ، واتُّخذت داراً ومسكناً وموضع فرجة للملك . قال : ولما بناها إبراهيمُ ابن أحمد منع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رَقّادة ، فقال بعض ظرفاء أهل القيروان :

يا سيدَ الناس وابنَ سَيّدِهِمْ ومَن إليــــه الرِّقَابُ منقاده
ما حَرّمَ الشُّرْبَ فى مَدينتِنا وهو حلال بأرض رَقّاده ؟

ومع بُعد إبراهيم فى المَلَكة عن الإسجاح ، فقد كان لا يَخلُ بنصيبه من السماح . حكى أبو إسحاق الرقيق أن بكر بن حماد التاهَرتى[2] كان ينتجع هذا الطاغية ويمدحه ، فغدا يوماً بمديح له على « بلاغ » الخادم فقال له : « الأمير عنا مشغول فى هذا اليوم » ، قال : « فالطف بى فى إيصال رقعة إليه » ، قال : « إنه مصطبح فى الجنان مع الجوارى ، ولا يصل إليه أحد » ؛ فكتب بكر فى رقعة ، واحتال « بلاغ » فى / توصيلها مساعدةً له ، وفيها أبيات منها : [٤٩ – ب]

---

(١) العبارة كلها منقولة عن المسالك والممالك للبكرى (صفة إفريقية ، ص ٢٧ – ٢٨) . والإطريفُل أو الإطريفال – كما جاء فى معجم الكتاب المنصورى المعروف باسم « مفيد العلوم ومبيد الهموم » لابن الحشاء – دواء مركب فيه لا محالة بعض الهليلجات أو كلها ، ويزاد فيه بحسب الحاجة من الأفاويه ، وصوابه بضم الفاء .
وانظر : دوزى ، ملحق القواميس ، ١/٢٨ .

(٢) ترجم له أبو بكر المالكى فى « رياض النفوس » : ٢/١٦ – ١٩ ، وأورد كثيراً من الشعر فى رثاء ابنه وفى الزهد . وقال « سُعى به إلى إبراهيم بن أحمد الأمير ، فخرج هارباً من القيروان يريد تاهرت بلده ، فلما صار بسَبَاطة خرج عليه قطاع الطريق ، فقتل ولده عبد الرحمن وجرح بجراحات ، فما زال فى بطنه فتق منها إلى أن مات (سنة ٢٩٦/٩٠٨ – ٩٠٩) . وترجم له الدباغ فى « معالم الإيمان » (٢/١٩٢) وذكر أساتذته ورحلته إلى البصرة سنة ٢٢٧ . وقد أضاف الدباغ أن قاسم بن أصبغ أخذ عنه ، وقال إنه كان ثقة عالماً بالحديث ورجاله ، شاعراً فصيحاً .

خُلِقنَ الغوانى للرجال بَليةً فهنّ موالينا ونحن عبيدُها
إذا ما أردنَ الوَرْدَ فى غير حينهِ أتتنا به فى كل حين خدودُها

وكتب تحت الأبيات :

فإن تَكُنِ الوسائلُ أعوزتنى فإنّ وسائلى وردُ الخدودِ

فلما قرأها أنشدها الجوارى ، فأظهرن له سروراً بها وشفعن إليه إلى أن خرج بصُرّة مختومة فيها مائة دينار ؛ ووصل منه إلى بكرٍ مالٌ عظيم .

٦٥ — ابنه عبد الله بن إبراهيم بن أحمد ، أبو العباس

وَلِىَ بعد أبيه إبراهيم ، وكان شجاعاً بطلا ،(١) ذا بصر بالحروب والتدبير ، عاقلا أديباً عالماً ، له نظر فى الجدل وعناية باللغة والآداب . وكان فى أيام أبيه على خوف شديد منه ، لسوء أخلاقه وقبح أفعاله ، وجرأته على قتل من قَرُب منه أو بعُد ، وكان يُظهر من طاعته والتذلل له أمراً عظيماً . وكان أبوه يوجهه إلى محاربة كثير ممن يخالف عليه ، ويفضله على سائر ولده ، ثم ولاه عهده وصيّر إليه خاتمه ووزارته ، وكتب بذلك كتاباً تاريخه يوم الجمعة لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين ومائتين .

وفى ذى القعدة منها هلك أبوه إبراهيم بن أحمد ، ومن ذلك الوقت رُمِى

(١) لم يصفه بذلك غير ابن الأبار ، بل قال ابن عذارى : إنه أظهر التقشف والجلوس على الأرض وإنصاف المظلوم ، وجالس أهل العلم وشاورهم ، وكان لا يركب إلا إلى الجامع ، فقال قوم : إن أهل النجوم أمروه بذلك ، وقال قوم : « به وسوسة » . ثم ذكر كيف احتال على ابنه زيادة الله حتى سجنه مع نفر من أصحابه ، فكان هذا حافزاً لزيادة الله على تدبير مقتل أبيه . ابن عذارى ، ١/١٣٣ — ١٣٤ . النويرى : ١٦٣ — ١٦٤ .

بالنجوم ، فكانت تتناثر كالمطر يميناً وشمالا ، وكانت تؤرخ بسنة النجوم (١) .

ومَلك عبدُ الله سنةً واحدة واثنين وخمسين يوماً ، وكانت أيامه — على قصر مدته — أيام عدل وصلاح وحسن سيرة ، إلى أن قُتِل ليلة الأربعاء آخر شعبان سنة تسعين ومائتين : تولى قتلَه ثلاثةٌ من خدمه الصقالبة وهو نائم ، وأتوا برأسه ابنَه زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغالبة وهو محبوس من قِبَل أبيه — وكان قد صانعهم على ذلك — فقتلهم وصلبهم . ومن شعر عبد الله فى دواء شربه بصقلية :

/شربتُ الدواءَ على غُربةٍ بعيداً من الأهل والمنزلِ [٥٠ — ١]
وكنتُ إذا ما شربتُ الدواءَ تطيَّبتُ بالمسكِ والمَنْدَلِ
فقد صار شربى بِحارَ الدماء ونقع العَجَاجةِ والقسطلِ

٦٦ — ابنه زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد ، أبو مُضَر

خاتمة ملوك الأغالبة ، عليه انقرضِ مُلكهم وزال سلطانهم بعبيد الله المهدى أول ملوك الشيعة .

ولما هَزم أبو عبد الله الشيعى — داعية عبيد الله — عسكرَ زيادة الله هذا يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ومائتين (٢) ،

(١) راجع التعليق السابق .

(٢) كانت الأُرْبُس آخر معاقل زيادة الله الثانى آخر أمراء بنى الأغلب ، فلما سقطت فى يد أبى عبد الله الشيعى أسقط فى يده وقرر الفرار ، ولم يلبث فى القيروان إلا ريثما أخذ ماتيسر من ماله ومتاعه ، « فلما كان وقت صلاة العتمة من ليلة الاثنين لأربع بقين من جمادى الآخرة [سنة ٢٩٦] ركب فرسه وتقلد سيفه ، وقدم الأحمال تمر بين يديه ، هارباً على عيون أهله وحرمه وولده . . » .

وكانت تلك هى نهاية أمر بنى الأغلب ، على رغم محاولة أخيرة يائسة قام بها إبراهيم بن أبى الأغلب وأبى أهل القيروان أن يؤيدوه فيها فاضطر إلى الفرار لاحقاً بزيادة الله .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١/١٤٧ — ١٤٨ .

ودُخلت مدينة الأُرْبُس بالسيف ، وبلغ الخبر زيادةَ الله عند صلاة العصر يوم الأحد بعْده ، فر على وجهه وأسلم البلاد ، ولحق بإطرابلس ميمماً ديار مصر ، وذلك فى خلافة المقتدر بن جعفر بن المعتضد ، فكانت ولايته ست سنين إلا شهرين وأياماً ، أتلف جُلَّها فى اللذات والبطالة ، حتى انقضت دولته وظفر به عدوه .

وكان فراره من مدينه رَقّادة التى بناها جده إبراهيم بن أحمد ، وأجرى إليها المياه ، واغترس فيها صنوف الثمار الطيبة والرياحين ، وبنى على القصور التى أحدث فيها سوراً ، وأحد هذه القصور يسمى « بغداد » ، وآخر منها يسمى « المختار » ، فصارت أكبر من القيروان ، وبينهما ستة أميال .

فلما وَلى زيادةُ الله هذا ، انتقل إليها وحفر بها حفيراً بناه صهريجاً ، طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع ، وأجرى إليها ساقية وسماه « البحر » ، وبنى فيه قصراً وسماه « العروس » على أربع طبقات أنفق فيه — سوى خَسْر[1] اليهود والعجم — مائتى ألف دينار واثنين وثلاثين ألف دينار .

وكان عبيد الله[2] يقول : « رأيت ثلاثة أشياء بإفريقية لم أر مثلها بالمشرق ، منها هذا القصر » . فبهذا وأمثاله كان اشتغاله ، حتى حالت لأول وهلة حاله ، ليصدق ما قاله أبو الفتح البُسْتِىّ :

إذا غــدا مَلِكٌ باللهو مشتغلا فاحكم على مُلكه بالويلِ والحَرَبِ

[٥٠ - ب] / وحكى أبو إسحاق الرقيق أنه سأل « مؤنساً » المغنى هل يعلم صوتاً من أصواته لم يسمعه منه ، فقال : « والله يا مولاى ما علمت غير بيت ، وقد أُنسيتُ أوله » ، قال : « هاته » ، فغناه :

(١) وردت هكذا مشكولة فى الأصل ، فتركتها كما هى ولو أننى لم أعرف معناها هنا ، وقد تكون صحتها : عُشْر اليهود والعجم .

(٢) المراد عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين فى إفريقية .

فقد صرتُ بعد البَيْنِ أقنَعُ بالهجرِ

ثم وجَّه فى صاحب البريد عبد الله بن الصائغ[1] — وكان شاعراً مجيداً — فعرَّفه ما جرى وقال له : « بحياتى إلا ازدتَ عليه شيئاً » ، فقال ابنُ الصائغ :

ولى كَبِدٌ لولا الأسى لتصدَّعتْ   وقلبٌ أبَى أن يستريح إلى الصبرِ
وقد كنتُ أخشى هجرَهم قبل بَيْنهمْ   فقد صرتُ بعدَ البَيْنِ أقنعُ بالهجرِ

فأعجبه ذلك ووقع منه أحسن موقع ، وغنى به « مؤنس » فطرب وأمر له بخلع نفيسة وكيس فيه ألف دينار وفرس بسرج ولجام مُحَلَّيَيْنِ . وهذا قد كان يحسن منه لولا انهماكه [فى ملذاته][2] الذى كان فيه هلاكه .

وقال أبو بكر محمد بن محمد الصُّولى فى كتاب « الأخبار المنثورة » من تأليفه : حدثنى أبو الحسن على بن جعفر الكاتب ، حدثنى أبى ، قال : كان لزيادة الله ابن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد — وهو زيادة الله الأصغر ، وكان أميراً بإفريقية — غلام فحل صبى يُدعى خَطّاباً — وهو الذى اسمه فى السكك — فسخط عليه وقيده بقيد من ذهب ، فدخل يوماً من الأيام صاحبُه على البريد — وهو عبد الله بن الصائغ — فلما رأى الغلامَ مقيداً تأخر قليلا ، وعمل بيتين وكتب بهما إلى زيادة الله وهما :

يأيها الملك الميمون طائرُهُ   رفقاً فإن يد المعشوق فوق يدكْ
كم ذا التجلد والأحشاء راجفةٌ   أعيذ قلبَك أن يسطو على كبدكْ

(١) عبد الله بن الصائغ هو صاحب بريد زيادة الله هذا ثم وزيره ، وهو الذى أشار عليه بقتل أعمامه ومن يتوقع أن ينافسه فى العرش من آله ، وهو وأبومسلم منصور بن إبراهيم — الذى ولاه الخراج — مسئولان عن كثير من الأخطاء التى وقع فيها وأدت إلى ضياع ملكه وذهاب دولة بنى الأغلب . وقد آل أمره إلى أن قتله زيادة الله ، وكان ذلك بعد فرارهما جميعاً . وقد كان مقتل عبد الله بن الصائغ فى طرابلس سنة ٢٩٦ .
انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١ / ١٣٤ — ١٤٦ .
(٢) أضفت ذلك للسياق .

فأطلق الغلام ورضى عنه ، ووصل عبدَ الله الصائغ بالقيد الذهب[1] .

ومن شعر زيادة الله ما حكى الصُّولى أيضاً فى « كتاب الوزراء » من تأليفه أن العباس بن الحسن ، لما استوزره المكتفى أبو محمد على بن أحمد المعتضد ، أراد أن يريه أنه فوق الوزير قبلَه القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب فى التدبير ، [٥١ – ا] فاستأذنه فى مخاطبة بن الأغلب هذا ، ففعل ، فوجه ابن الأغلب إليه/ برسول معه هدايا عظيمة ومائتا خادم وخيل وَبَزٌ كثير وطِيب ، ومن اللبوذ[2] المغربية ألف ومائتان ، وعشرة آلاف درهم فى كل درهم عشرة دراهم ، وألف دينار فى كل دينار عشرة دنانير ، وكتب على الدنانير والدراهم فى وجهٍ :

يا سائراً نحو الخليفة قل له ... أن قد كفاك الله أمرَكَ كلَّهُ
زيادةُ الله بن عبد الله سيـ ... ـفُ الله من دون الخليفة سلَّهُ

وفى الوجه الآخر :

ما ينبرى لك بالشقاق منافقٌ ... إلا استباح حريمَه وأحلَّهُ
من لا يرى لكَ طاعةً فالله قد ... أعماه عن طُرق الهدى وأضلَّهُ

---

(١) روى ابن عذارى هذا الخبر فى صورة أخرى ، فذكر كلفه بهذا الغلام خطاب وكتابة اسمه فى سكة الدنانير والدراهم ، ثم غضبه عليه ، ولكنه قال إن الذى قال الشعر جارية من جواريه . (البيان : ١/١٤٣)

وغلام فحل معناه أنه ليس من الخصيان ، فقد كان أولئك الغلمان الذين يشتريهم الأمراء إما فحولا – أى لم يخصوا – أو خصياناً .

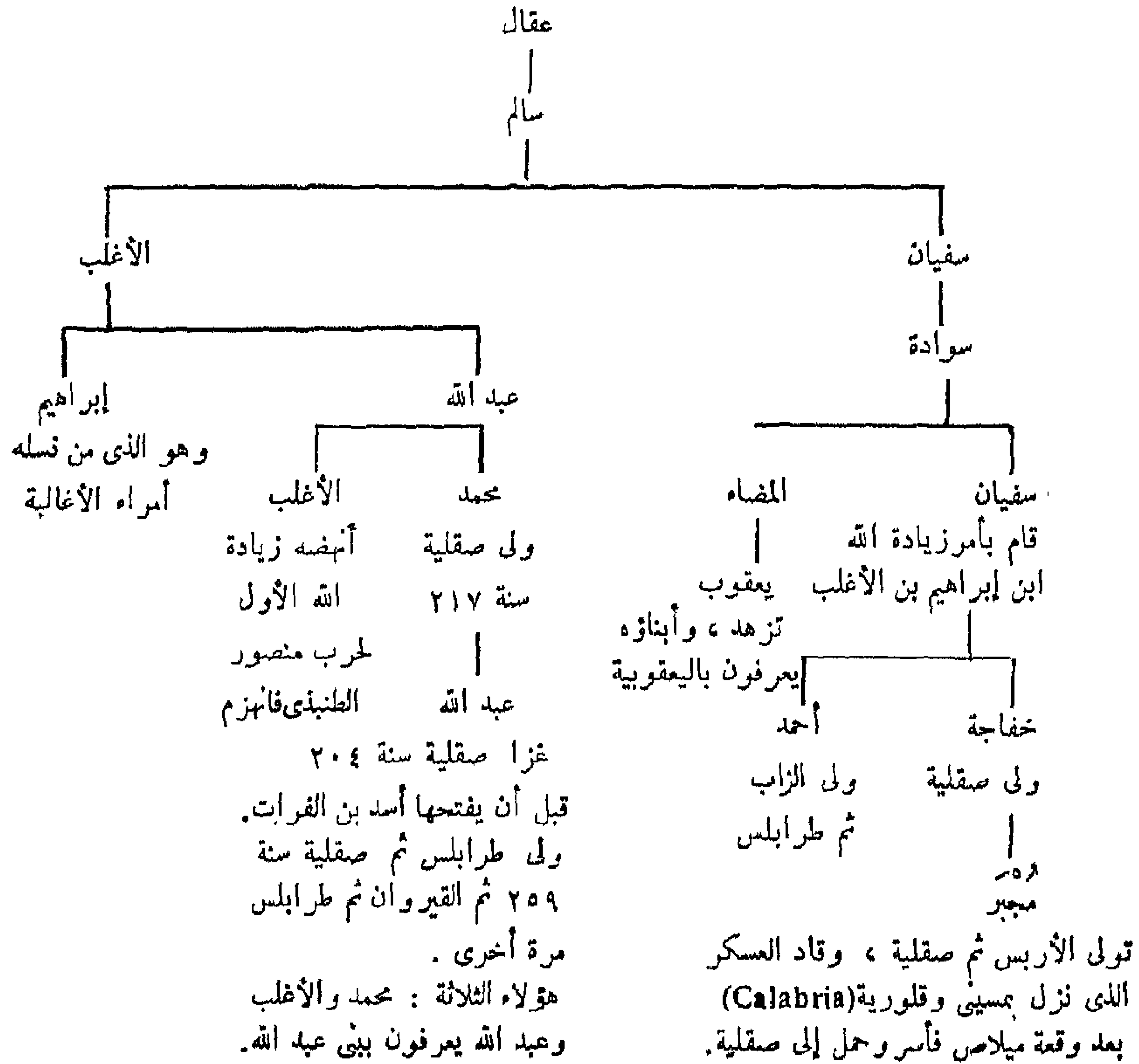
(٢) كذا . والمشهور اللبود بالدال المعجمة وهو قماش من الصوف الغليظ الأبيض ،كان يستعمل فى صنع نوع من القلانس الطوال ، وفى بعض الأحيان تصنع منه الخفاف . وقد يلبسه المقاتلة ليقى أجسامهم . وهو يقابل بالفرنسية feutre . انظر : ملحق القواميس لدوزى : ٢/٥١٠ .

٦٧ — محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم ابن الأغلب، أبو العباس (١)

وَلِيَ لابن عمه إبراهيم بن أحمد بن محمد طرابلس ، فكان يشق عليه حسن سيرته ويكره ذلك . وكان عالماً أديباً شاعراً خطيباً ، مع عشرة لإخوانه ، ولين

---

(١) سيذكر ابن الأبار هنا وفى الفصلين التاليين نفراً من كبار بنى الأغلب الذين فى زامباور ذكرهم فى جدول نسبهم (ص ١٠٥ من الترجمة العربية) . وقد رأيت لهذا أن أكمل هذا الجدول هنا :



جانب لأخدانه ، لا ينادم إلا أهل الأدب . وكان أبوه زيادة الله قد وَلِيَ إفريقية بعد أخيه أبى إبراهيم أحمد بن محمد ، وكان محمود السيرة ذا رأى ونجدة .

يُروى عن سليمان بن عمران القاضى أنه قال : « ماوَلِيَ لبنى الأغلب أعقلُ من زيادة الله الأصغر » ، سماه « الأصغر » لأنه سُمى باسم عم أبيه زيادة الله ابن إبراهيم المتقدم ذكره . وبعدهما وَلِيَ زيادةُ الله بن عبد الله ثالثُهم ، وهو آخر ولاتهم .

ولم يزل إبراهيم بن أحمد يحقد على محمد هذا ما يؤثر عنه من جميل ، إلى أن قتله . وكان الذى هاجه لذلك وبعثه عليه — مع قِدم حسدِه له — أنه وجه رسولا إلى بغداد ، فكتب إليه يخبره أن بعض من سار إلى بغداد من أهل تونس شكوا إلى المعتضد صنع إبراهيم ، فقال المعتضد : « عجباً من إبراهيم ! مايبلُغنا عنه إلا سوء الثناء عليه ، وعامله على طرابلس يبلُغنا عنه خلافُ ذلك من رفقٍ بمن وَلِيَ عليه وإحسانٍ » ، فمضى إبراهيمُ قاصداً إلى طرابلس فقتله وصلبه بَغياً وحسداً ، وقتل أولاده وعاث فى أصاغرهم عَيْثَه المشهور ، حتى إنه شق جوف بعض نسائه عن جنينها جرأةً على الله تعالى ، وذلك سنةَ ثلاث وثمانين ومائتين .

[٥١ — ب] وقرأتُ فى تاريخ أبى إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق / أن المعتضد كتب إلى إبراهيم من العراق : « إن لم تترك أخلاقَك فى سَفْك الدماء فأسْلِم البلادَ إلى ابن عمك محمد بن زيادة الله صاحِب طرابلس » ، فخرج إبراهيمُ إلى طرابلس فى خفيةٍ ، وأظهر أنه يريد الخروجَ إلى مصر ، حيلةً منه ، إلى أن ظفر به فقتله وصلبه . وكان بين خروجه ورجوعه خمسة عشر يوماً .

قال : وكان محمد هذا أديباً ظريفاً ، ألف كتاب « راحة القلب » وكتاب « الزهر » و « تاريخ بنى الأغلب » .

ومن شعره ما أنشده له أبو على حسين بن أبى سعيد القيروانى صاحب « الكتاب المُغرِب عن المَغْرب » :

وبما شجا قلبى بتُوزَرَ أننى تناءيتُ عن دار الأحبةِ والقَصْرِ
غريباً ، فليت اللهَ لم يخلُقِ النَّوَى ولم يَجْرِ بَيْنٌ بيننا آخرَ الدهرِ

ومن بنى عمهم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الأغلب بن سالم ، أبو العباس . ويُعرف هو وأبوه محمد وعمُّه الأغلب بن عبد الله ، ببنى عبد الله . وجده عبد الله — الذين يعرفون به — هو أخو أبى إسحاق إبراهيم بن الأغلب .

وكان عمه الأغلب ممن أُنهض لحرب منصور بن نصر الطُّنْبُذِىّ أيامَ زيادة الله ابن إبراهيم ، فجنَّد له جُنده وانهزم .

ووَلِىَ محمد بن عبد الله لزيادة الله المذكور صقليةَ سنة سبع عشرة ومائتين ، وفتح بها فتوحات . وقد كان زيادة الله أغزاه إليها سنةَ أربع ومائتين — قبل فتحها على يد أسد بن الفرات بنحوٍ من ثمانى سنين — فسبى منها شيئاً كثيراً وانصرف .

ثم وَلِيَها ابنهُ عبد الله بن محمد هذا لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ، المعروف بأبى الغرانيق ، سنةَ تسع وخمسين ومائتين — وكان قد وَلِىَ قبل ذلك بحينٍ أطرابلس — ثم وَلِيَها مرةً أخرى بعد ولاية صقلية [و] وَلِىَ أيضاً إمارةَ القيروان . وكان أديباً شاعراً ، طالباً للحديث والفقه . وهو القائل لما أتاه كتابُ عزْله عن طرابلس يخاطب أبا هارون موسى بن مرزوق صاحب بريدها ، وكان له صديقاً :

قد أتى فى الكتاب ما قد علمنا من تناء ورحـــلةٍ وفراقِ
وعددْنا الأيامَ فهىَ ثمانٍ بعد خمسٍ سريعة الإفتراقِ

[٥٢ – ١] /فعليكَ السلامُ إنَّ فراقى قد دنا ، والفراقُ مر المذاقِ

* * *

ومن بنى أخى الأغلب بن سالم :

٦٨ — يعقوب بن المضاء بن سوادة بن سفيان ابن سالم بن عِقال التيمى

كان أبوه من أمراء بنى عمه الأغالبة ، ورغب يعقوب عن السلطان وولايته ، وانصرف إلى النسك ، ونَزَع السواد ، وأعرض عن الدنيا ومال إلى الآخرة . وله بنون ينتسبون إليه فيقال لهم « اليعقوبية » . وهو الذى توجه إلى العباس محمد ابن الأغلب الـكَوْسَج ، مع ابن عمه خفاجة بن سفيان بن سوادة ، فأصلحا بينه وبين أخيه أحمد القائم عليه وأشارا بتأمينه ، وقد تفاقم الخطب بينهما ، فقبل ذلك محمد فى حديث طويل ، ووصل إليه وعانبه ، ثم أمره بالتوجُّه إلى المشرق ، فسار إلى العراق وبها مات . ويعقوب هو القائل :

فإن تَكُ لِمَّتى كُسيتْ بياضاً وبُدِّل لى المشيبُ من الشبابِ
فقد عُمِّرتُ ذا فرعٍ أثيث كأن سوادَه حنكُ الغرابِ
فلا تعجلْ ، رويدك ، عن قريبٍ كأنك بالمشيب وبالخضابِ

٦٩ — أحمد بن سفيان بن سَوَادة بن سفيان ابن سالم بن عِقال

وعقال هو ابن خفاجة بن عبد الله بن عبّاد بن محرث بن سعد بن حزام

ابن سعد بن مالك بن سعد بن زيدِ مَناة بن تميم . وسالم بن عقال هو جد الأغالبة ، وهو جد هؤلاء .

وَلِىَ أحمدُ هذا الزابَ ثم وَلِىَ طرابلسَ وأعمالَها سنين كثيرة ، وله بها أخبار وآثار ووقائع مشهورة . وكان من الجنود بمكان رفيع ، وهو أيضاً ممن قام بنصرة أبى العباس محمد بن الأغلب على أخيه أحمد ، مع أخيه خفاجة بن سفيان وابن عمهما يعقوب بن المضاء ، حتى ظفر به أبو العباس وانحفظ سلطانه . وكذلك قام أبوه سفيان بن سوادة بأمر زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب فى حروبه ، وكان سبب ثبات مُلكه . وفى أحمد بن سفيان هذا يقول بكر بن حماد التاهرتى من قصيدة له :

/وقائلةٍ : زارَ الملوكَ فلم يُفِدْ فياليتَه زارَ ابنَ سُفيانَ أحمدَا [٥٢ -ب]
فتًى يُسْخِطُ المالَ الذى هو ربُّهُ ويُرْضِى العَوالى والُحسامَ المهنَّدَا

وكان خفاجة بن سفيان — أخو أحمد هذا — من رجالات بنى عمه الأغالبة ، وهو أكبر سنا منه وأجل حالا ، ووَلِىَ صقلية فأقام بها مدة ، ونُصر على الروم فله فيهم فتوحات شهيرة .

ومن شعر أحمد :

قرِّبوا الأبلقَ إنى أعرفُ الخيلَ العِتاقا
وعليها أصرع الأبـ طالَ طعناً واعتناقا
أخبط الأرواحَ والأنـ فُسَ بالرمح صِداقا
وأرَوِّى من نجيع الـ هامِ أسيافاً رِقاقا
تنقع الأعداء فى النَّقْـ ع حميماً وغساقا
فإذا ما دارت السَّلْـ م بما نبغى وفاقا

وأزحْنا كلَّ ما كا ن شقاقاً ونفـــاقا
اصطبحناها سُـــلافاً وشربنـــاها اغتباقا
وأدرنا الـكاس بالرا حِ على الشَّربِ دِهاقا

وله أيضاً من قصيدة أخرى :

إنمــا الأبلقُ حِصْنى ثم رُمحى وحُســـامى
فيـــه عزٌّ لعَشِيرى وبه عنهم أُحامى
وبه أشفى من الأعـــداء صــــدرى بانتقامِ
أنا مــن سر نزار وابنُ ساداتٍ كرام
أنا من سعدِ تميمٍ لستُ من سعدِ جُذام
أنا من قد جالَ ذِكْرى وجـــرى بين الأنام
باحتمالى كل ثِقْـــلٍ فى الملمات العِظـــام
وسِدادى(١) كل ثغرٍ ثم حزمى وقيـــامى
أنجبتنى السادةُ الصِّيدُ ، هامٌ لهمام
[سالم قد كان](٢) جَدِّى ثم سفيانُ المحامى
أركبُ الهولَ بكرّاتى على الجيش اللُّهَام
[أخطف](٣) الأرواحَ كالصقرِ لأرواحِ الحمَام
تعرف الأنسُرُ بأسى فهى من فوق حوَام

---

(١) الأصل كلمة لم يبق منها إلا شيء مثل : طى ، وفى نسخة باريس جعلها الناسخ : ملى ، فجعلتها هكذا . والكلمة الأصلية لا تخرج على أى حال عن هذا المعنى .

(٢) بياض بالأصل ، أكملته على هذه الصورة للسياق .

(٣) هذه الكلمة ناقصة فى الأصل .

ميَّزتْ في الحرب رايا تى وأرماحى الدوامى
فهى حولى عاكفات وهى خلفى وأمامى
ترقب الطعم الذى عوَّ(م) دْتُها يومَ صدامى
أبداً تعرف منى هكذا فى كلِّ عام
فإذا ما آلت السِّلْ مُ وصرنا للمُدام
أبصرتْ عيناك منا أنجُماً تحت الظلام
نتلاقى ونُبَدِّى بتحيات السلام
ونُنيلُ الزائرَ المعروفَ من قبل الكلام

* * *

/ ومن رجال الأغالبة : [٥٣ - ١]

٧٠ — مُجْبَر بن إبراهيم بن سفيان

كان من أهل الشرف والثروة ، وولاه إبراهيمُ بن أحمد الأربُسَ وغيرَها ، وكان ينادمه لحذقه الغناء ، ثم أخرجه إلى صقلية وولاه العسكر الذى بمسِّينى وأرضِ قَلُورَية بعد وقعة ميلاص(١) فخرج فى شينى يريد قلورية(٢) ، فأسرته الروم وحُمل إلى القسطنطينية فمات بها . وهو القائل فى أسره ، من قصيدة طويلة بعث بها من محبسه عند الروم ورواها فى أيام بنى الأغلب أكثر الناس :

(١) ميلاص هى Milazzo فرضة صغيرة على الساحل الشمالى لجزيرة صقلية ، وهى إلى الشرق من مسِّينى Messina

(٢) قلورية هى Calabria وهى شبه الجزيرة الغربى البارز من جنوب شبه الجزيرة الإيطالية فى اتجاه صقلية .

ألا ليتَ شِعرى ما الذى فعل الدهرُ بإخواننا يا قَيْرَوَانُ ويا قَصْرُ
ونحن فإنّا طخطختنا[1] رَحَى النَّوَى فلم يجتمع شملٌ لنا [، لا] ولا وَفْرُ
رأينا وجوهَ الدهر وهْىَ عوابسٌ بأعيُنِ خطبٍ فى ملاحظها شَزْرُ

وآخر هذه القصيدة :

لعل الذى نجّى من الُجبِّ يوسُفاً وفرَّجَ عن أيوبَ إذْ مَسَّهُ الضُّرُّ
وخلَّصَ إبراهيم مِن نارِ قومِهِ وأعْلَى عصا موسى فذَلّ له السحرُ
يصبِّر أهلَ الأَسْرِ فى طول أسرِهِمْ على مُعْضلات الأسر ، لا سَلِمَ الأسرُ !

٧١ — أحمد بن محمد بن أحمد بن حمزة بن السبال

(بالباء ، بواحدة واللام) ويعرف حمزة بالحرون ، وقد تقدم ذكره . وابنه محمد بن حمزة هو الذى وجهه زيادة الله بن إبراهيم للقبض على منصور الطُّنْبُذِىّ بقصره بالمحمدية ، فكاده .[2] وقُتِل محمد هذا فى وقعة سَبِيبَةَ[3] ، أيامَ خلاف منصورٍ والجند على زيادة الله .

---

(١) لم أجد فى معانى طخطخ ما يتمشى مع المعنى هنا إلا ما جاء فى لسان العرب (٤/٧) من أن المطخطخ هو الضعيف البصر ، وقد طخطخ الليل بصره إذا حجبته الظلمة عن انفساح النظر . والأوفق هنا طحطح بمعنى فرّق وكَسر وبدّد (اللسان : ٣/٣٦١) . واللفظ مستعمل فى هذا المعنى فى العامية المصرية فى صورة ضحضح .

(٢) كان ذلك فى أول ثورة منصور بن نصر الطنبذى فى تونس . وقد روى ابن عذارى الخبر بالتفصيل ، وكيف احتال منصور على محمد هذا ومن معه — ومن بينهم القاضى شجرة ابن عيسى — وحبسهم ، حتى تمكن من تونس . وقد هزمهم هزيمة كبيرة ، وكانَ ذلك فى ٢٤ صفر ٢٠٩/٢٧ أبريل ٨٢٤ .

انظر : « البيان المغرب » : ١/٩٨ — ٩٩ .

(٣) كانت وقعة سبيبة فى ٢٠ محرم سنة ٢١٠/١٤ مايو ٨٢٥ ، وقد قتل فيها محمد هذا .

وكان أحمد بن محمد حاجباً لإبراهيم بن أحمد ومقدماً عنده ، قد فوّض إليه أمورَه . ووَلىَ ابنُ عمه القَيْرَوان . وهو من بيت رئاسة وقيادة ، مع علم واسع وأدب بارع ؛ ومن شعره :

ليس كلُّ الذى يُدار علينا　　من أمورٍ يوافق المقدورا
قد قضى الله ما لَنا وعلينا　　قبلَ أن يُبرِمَ العدوُّ الأمورا

٧٢ — الحسن بن منصور بن نافع بن عبد الرحمن بن عامر ابن نافع / بن مَحِمِيَّة المُسْلِىّ المَذْحِجِىّ ، أبو على [٥٣ - ب]

من بيت قيادة وإمارة ؛ وكان جدُّ أبيه عبد الرحمن بن عامر ، وابنُ عمه عامر ابن إسماعيل بن عامر بن نافع ، ممن قدم مع محمد بن الأشعث الخزاعى من قواد العباسية . وخرج عمه عامر بن نافع على زيادةِ الله بن إبراهيم بن الأغلب ؛ وسيأتى ذكره . وعامر بن إسماعيل هو الذى قتل مروان الجَعْدِىّ ، وكان مقدماً عند أبى العباس السفاح ومَن بعده لأجل ذلك .

وكان الحسن بن منصور هذا يجمع إلى شرف آبائه وأهل بيته علماً واسعاً وأدباً كاملا ، وأقل ماتصرف فيه الشعر . وكان بصيراً باللغة ، نافذاً فى النحو ، عالماً بأيام العرب وأخبارها ، ووقائعها وأشعارها . وهو القائل يرثى ابن عم له يُكنى أبا الفضل ، من قصيدة طويلة أولها :

حَلَّ أمرٌ لم يُغْنِ فيه احتيال　　يَقْصُر الوصفُ دونَه والمقالُ
كان مِن قبلِه البكاء حراماً　　وهْوَ مِن بَعدُ للعيون حلالُ

ومنها :

يا أبا الفضل حَمَّلْتنى المنايا   منك ما لا تقوى عليه الجبالُ
وكأنّى[1] لما تضمَّنكَ اللحد   دُ يمينٌ قد فارقتها الشمالُ

وله :

يا قاتلى ظُلماً ، ألم تخشَ ما   جاء به التنزيلُ والآىُ ؟
وَأيْتَ بالوعدِ فما ضَرَّكُمْ   لو صدقَ الميعادُ والوأىُ ؟[2]
نأيتَ عنى فتبدَّلْتَنى   كذا لَعمرى يفعل النائىُ
فإن يكنْ هجرىَ مِن رأيكمْ   فليس لى فى هجركم رأىُ

وله يخاطب ابن عمه أبا العرب بن عامر بن نافع :

يا مَن سما للمكرمات فحازَها   وغدا وأصبح للسماح مليكاَ
إن الإلٰهَ بمَنِّه وبفضلِه   جمعَ المكارمَ والمفاخرَ فيكا
أشبهتَ آباءً كراماً سادةً   بيضَ الوجوه معظَّمين ملوكاَ
/ وَجِّهْ إلينا بالمُسَبِّح إننى   تَفْديكَ نفسى قد ضَمنتُ الديكاَ [٥٤ - ١]

ولهذه الأبيات قصة ذكرها صاحب « الكتاب المُغرب عن أبناء المغرب » .

---

(١) الأصل : وبأنى .
(٢) أصل الوَأْى الوعد الذى يوثقه الرجل على نفسه ، ويعزم على الوفاء به (اللسان : ٢٠/٢٥٤) .

٧٣ – عبد الله بن الصائغ
(المعروف بصاحب البريد)

أحد ولاة زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك بنى الأغلب وأصحابه المخصوصين بلطف المنزلة عنده ، وتغيَّر عليه آخراً فقتله بطرابلس عند انتقاض دولته وهربه إلى مصر أمام الشيعى فى سنة ست وتسعين ومائتين ؛ وقد تقدم من خبره ومن شعره ما أغنى عن إعادته . وهو القائل أيضاً :

رأيتُ دجْناً فقلت الراحُ أشبهُ بى فقُمْ بنا أيها المخمورُ نصطبحِ
فقام يمسح وجهاً كلُّه قمرٌ وقمتُ ألثمهُ مِن شدة الفرحِ

وله :

طالعتْنى طوالعُ الشوقِ لما أنْ بدا البدرُ فى مثالِ طُلوعكْ
يا غزالاً أقسى منَ الصخرِ قلباً ليتَ قلبى يبيتُ بين ضلوعكْ
أنا أرضَى أنْ أقبِّلَ نعليـ ـكَ على قُبحِ ما بدا من صنيعكْ

وله :

إذا قلتُ : زرنى ، قال : قالوا وشنَّعوا .. تُرى – هكذا – من كان فينا يُصَدَّقُ ؟
فيا كبدى رِقِّى على الكبد التى أقامت على عهد الهوى وهى تحرقُ
كأنى إذا ما الليلُ أرخى سدولَه بقلبى إلى بعض النجوم مُعلقُ

* * *

أول ملوك الشيعة الناجمين فى آخر هذه المائة :

٧٤ ـ عبيد الله الملقب بالمهدى ، أبو محمد

قال الرازى[١] : « اختلف الناس فى نسب عبيد الله . فقال قوم : هو عبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن البصرى من مدينة سَلَمْيَة . وزعم هو أنه عبيد الله ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب .

قال : وأخبرنا الثقة عن أبى القاسم أحمد بن إسماعيل الرسى الحسنى أنه قال : [٥٤ ـ ب] بالله الذى / لا إله إلا هو ، ما عبيد الله منا[٢] . ولا أقول هذا لما فعل ، فقد فعل مَن لا يُشَك فى نسبه أكثر من فعله وأشنع » .

وقال أبو بكر بن الطيب الباقِلّانى ، وذَكر عبيدَ الله وبنيه : هم أدعياء ، إذ هم بنو عبيد الله بن ميمون القَدّاح ، ادّعوا إلى على بن أبى طالب ؛ وذَكر لهم قصة طويلة[٣] .

وأهل مصر يصححون نسبهم .

وذكر ابن أبى الطاهر[٤] فى « أخبار بغداد » أن اسم الخارج بالقَيْرَوان عبيد

(١) كلام الرازى عن العبيديين له أهمية خاصة هنا ، ولا نعرف إن كان القائل هنا أحمد بن محمد الرازى أو ابنه عيسى بن أحمد . وعلى أى حال فهو يصور لنا الآراء التى كان يتناقلها بنو أمية الأندلسيون وأنصارهم فى نسب العبيديين ، وهم خصومهم سياسياً ومذهبياً .

ويلاحظ أن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر كان لا يستبعد صحة انتساب عبيد الله الشيعى إلى على بن أبى طالب ، فقد ساق ابن عذارى هذا النسب ثم قال : « وهو مذهب المستنصر بالله الأموى » . البيان المغرب : ١٥٨/١ .

(٢) نُسب مثل ذلك القول إلى أبى القاسم بن طباطبا العلوى ؛ قال : « والله الذى لا إله إلا هو ! ما عبيد الله الشيعى منا ، ولا بيننا وبينه نسب » . ابن عذارى ، البيان : ١٥٨/١ .

(٣) ذكر الباقلانى ذلك فى كتابه « كشف الأسرار وهتك الأستار » .

(٤) كذا ، والأصح ابن أبى طاهر ، وهو أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور صاحب « تاريخ بغداد » المتوفى سنة ٨٩٣/٢٨٠ ، وكتابه هذا من أكبر المراجع التى اعتمد عليها الطبرى فى تاريخه .

الله بن عبد الله بن سالم ، مولى مُكرم بن سِندان الباهِلِىّ صاحب شُرَط زياد المنسوب إليه عسكر مكرم ، فانتقل عبدُ الله بن سالم إلى سلمية . وكان وكيلا للتجار ، وقيل كان يبيع الصُّفْر ويتشيَّع . فلما خرج القرمَطىّ بالشام أضرّ به وطالبَه ، فهرب إلى مصرَ ثم إلى المغرب ، وكان يُعرف بابن البصرى .

قال الرازى : ودخل معه — يعنى القيروان — ابنُه محمد المعروف بأبى القاسم (واختلفوا فى اسمه ونسبه ، فطائفة قالت : عبد الرحمن ابنُه ، وطائفة قالت : محمد ربيبُه) . ويقال إن عبيد الله من بنى حسن بن على ، وأن أبا القاسم القائم بعده من بنى الحسين بن على ، إسماعيلى تزوَّج عبيدُ الله أمَّه وهى رومية تسمى «لعب» .

وقيل فى اسم أبى القاسم عبد الرحمن ومحمد كما تقدم ، وقيل حسن ويُكنى أبا جعفر . خرج به عبيدُ الله من الشام يتصدى للسلطان ، ويخاطر فى طلب المُلك قاصداً المغربَ ، وعبيدُ الله إذ ذاك شابٌّ عند كماله . وخرج معه خاصتُه وثقاتُ رجاله ، ولما انتهى إلى مصر أمَّل أن يقصد اليمنَ ، ثم كره ذلك فخرج من مصر فى زى التجار ، وخلص من يد عاملها فى قصة طويلة ، وانتهى إلى سَجِلْمَاسَة(١) فدانَ له المغرب واجتمعت عليه البربرُ . وزحف داعيتُه أبو عبد الله الشيعى بهم إلى زيادة الله الأغلبى فكسر جيشَه فى سنة ست وتسعين ومائتين — حسبما ذُكر قبل — فهرب زيادةُ الله إلى مصر . وبويع لعبيد الله برَقّادة يومَ الجمعة لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ، وكان وصولُه إليها يومَ الخميس قبلَه ، ودُعى له بالإمامة .

وفى هذه السنة انقرض مُلك بنى الأغلب بعد مائة سنة واثنتى عشرة سنة ،

---

(١) كذا فى الأصل بفتح السين الأولى ، والمشهور بكسرها ، وسنتركها بضبط المخطوط فيما يلى من النص .

[٥٥ - ١] ومُلك بنى مدْرار بسَجِلْمَاسَة بعد مائة سنة وستين سنة ، ومُلك / بنى رُسْتُم بتاهَرْت عن مائة وثلاثين سنة .

وكثرت السعايات بأبى عبد الله الشيعى — وهو الذى مهَّد لمُلك عبيد الله وشدَّ سلطانه مجالداً ومجادلا — فقتَلَه وأخاه أبا العباس يومَ الثلاثاء مُستهلَّ ذى الحجة سنة ثمان وتسعين ، وأمر بدفنهما فى بستان القصر .

ثم ابتدأ بناء « المهدية » يومَ السبت لخمس خلون من ذى القعدة سنة ثلاث وثلثمائة ، وارتاد مواضعها ؛ وقصد التحصين بها على أهل بيته لما كانوا يتحدثون به من ظهور أبى يزيد الخارج عليهم وعَيْثه فى مُلكهم ، فكان ذلك . وفى بنائها يقول بعض شعراء إفريقية :

خُطَّت بأرجاء المغاربِ دارُ دانتْ لها الأمصارُ والأقطارُ
لانتْ بِبَرْدِ الماء لما أيقنتْ أنَّ القلوبَ على الحُسين حِرَارُ

وكان انتقالُ عبيدِ الله إليها فى شوال سنة ثمان وثلاثمائة ، بعد أن مَلك إفريقيةَ وأعمالَ المغربِ وطرابلسَ وبرقةَ وصقليةَ .

وسيَّر ولىَّ عهده أبا القاسم إلى مصر دفعتين : الأولى فى سنة إحدى وثلاثمائة ، فملك الإسكندريةَ والفيومَ وجبى خراجَهما وخراج بعض أعمال الصعيد ، وعاد إلى المغرب فى سنة اثنتين وثلاثمائة ؛ والثانية سنة ست وثلاثمائة ، فملك الإسكندريةَ أيضاً .

ولم يزل سلطانُه يتمهَّد ، وظهورُه يتزيَّد ، إلى أن توفى منتصفَ شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة . فكانت ولايتُه — منذ وصل إلى رَقّادة وبويع بها ، إلى يوم وفاته — أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً . وقيل : كانت خلافته — من يوم ظهوره بسَجِلْمَاسَة فى أول ذى الحجة سنة ست وتسعين

ومائتين وفيها سُلِّم عليه بالخلافة ، إلى يوم وفاته بالمهدية — خمساً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، وهو ابن اثنتين وستين سنة . مولده سَلَمْيَة — وقيل ببغداد — سنة ستين ومائتين . ومولد أبى القاسم ابنه سنة تسع وسبعين ، وقيل سنة ثمانين .

وكان ، مع نجدته وشهامته ، مفوّهاً فصيحاً عالماً أديباً . قال أبو عبيد البكرى : لما تغلب عبيدُ الله الشيعى ، كتب إلى أهل المغرب يدعوهم إلى الدخول فى طاعته والتدبُّر بإمامته ، وكتب بمثل ذلك إلى سعيد بن صالح[1] ، وكان والياً على نَكُور[2] وما إليها من أعمال المغرب / لبنى مروان ؛ وكتب فى أسفل [٥٥ - ب] كتابه أبياتاً كثيرة ، منها :

---

(١) راجع عن تاريخ سعيد بن صالح هذا ونسبه وتاريخ بنى صالح أمراء نكور البيان المغرب لابن عذارى : ١٧٦/١ — ١٨١ .

(٢) نكور مدينة كانت فى شمال المغرب على نحو عشرة كيلومترات جنوب الحُسَيمة الحالية إلى الشرق يسيراً ، ولم يبق من آثارها اليوم إلا أطلال قليلة ، وهى واقعة فى إقليم صنهاجة الريف على السفح الشمالى لجبال الريف . وقد أسسها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور فى أواخر القرن الهجرى الأول . وفى سنة ٢٤٤/٨٥٨ — ٨٥٩ نزل بها النرمان — الذين تسميهم النصوص المجوس — وانتهبوا ما فيها . وفى سنة ٤٧٣/١٠٨٠ —١٠٨١ خربها يوسف بن تاشفين . وقد أجريت بها حفريات سنة ١٩٥٩ .

انظر : أحمد المكناسى : « المدن المندرسة فى شمال المغرب » .

وكتب المكناسى كذلك بحثاً قصيراً عن أطلالها وما قام به من الحفائر فيها فى سنة ١٩٥٩ ، ونشر نتيجة بحثه فى دراسة فى مجلة تمودة تحت عنوان :

Reconocimientos Arqueológicos en el Rif, Tamuda, ano VII, Tetuán 1959 fasc. I, II, p. 156-158 .

وانظر : خريطة المغرب الأركيولوجية ، لنفس المؤلف (تطوان ١٩٦١) ص ٢٤ . وقد تحدث عنها البكرى والإدريسى ، أنظر فهرس الأعلام فى كل منهما .

فإن تستقيموا أستقمْ لصلاحكمْ وإن تعدلوا عنى أرى قتلكم عدلاَ
وأعلو بسيفى قاهراً لسيوفكمْ وأدخلها عفواً وأملؤها عدلاَ

قال : فأجابه رجل من شعراء الأندلس من أهل طُلَيْطِلَة يعرف بالأخمش ، أمره سعيد بن صالح بذلك :

كذبتَ ، وبيتِ اللهِ ، لا تُحسنُ العدلا ولا علم الرحمٰن من قولك الفصلا
وما أنت إلا جاهل ومنافقٌ تَمَثَّلُ للجهال فى السُّنة المثلَى
وهمتُنا العليا لدينِ محمدٍ وقد جعل الرحمٰن همتك السفلى (1)

وكان عبيد الله إذا رأى ابنَه أبا القاسم ونظر إليه فَسُرَّ به يقول :

مباركُ الطلعةِ ميمونُها يصلحُ للدنيا وللدينِ

٧٥ – أبو عبد الله الشيعى
داعية عبيد الله المهدى

كان — مع قَوْده الجيوشَ وخوضِه الحروبَ — عالماً أديباً شاعراً . وهو الذى حاربَ جيش زيادة الله بن الأغلب وهزمه ، نائباً عن عبيد الله وناصراً لمذهبه وداعياً إلى دعوته . وزحف إلى القيروانَ ونازلها ، وبها جمهور أجناد إفريقية ، فدخلها واستولى على رَقّادة — دارِ مُلك الأغالبة حينئذ — وعلى أعمال إفريقية .

(١) روى ابن عذارى فى البيان المغرب (١٧٨/١) هذه الأبيات مع خلاف فى الألفاظ . وقد ورد لفظ الجلالة الوارد فى البيت الأول : الإله ، ولا يستقيم به الوزن ، فصوبناه على رواية البيان المغرب .

وقدم عبيدُ الله بعدَ ذلك من سَجِلْماسَة ، فبويع له وقَوِىَ أمرُه واشتد سلطانُه ، ولم يلبث أن قتله وأخاه أبا العباس — وكان أكبرَ منه ، كما تقدم وصفُ ذلك — تولَّى قتلَهما عَرُوبة الكُتَامِىّ[1] ، ثم قُتل عَرُوبة هذا منافقاً واستؤصل أهلُ بيته فى أيام عبيد الله . وأبو عبد الله الشيعى هو القائل بعدَ إيقاعه بجيش بنى الأغلب :

من كان مغتبطاً بلينِ حشيةٍ فَحَشِيَّتى وأريكتى سَرْجِي

من كان يعجبه ويبهجه نقرُ الدفوفِ ورنة الصَّنْجِ

فأنا الذى لا شىءَ يُعجبنى[2] إلا اقتحامى لجـــة الرَّهْجِ

/سلْ عن خميسى إذ طلعتُ به يوم الخميس ضحًى على الفَجِّ [٥٦-١]

البيت الأول من هذه القطعة كقول امرئُ القيس :

يارُبَّ غانيةٍ صَرَمْتُ حبالَها ومَشيتُ متئداً على رِسْلِي

وأبيات القصيدة كلها على خلاف ذلك . وكقول الآخر ، ويستشهد به العروضيون :

---

(١) هو عروبة بن يوسف الملوسى الكتامى ، كان من رجال أبى عبد الله الشيعى واشترك معه فى معظم غزواته ، ولكنه كان يحسده ويحسد أخاه أبا العباس المخطوم ، فظل يسعى بهما ، مع نفر آخر من رجال كتامة حتى حفزا عبيد الله على قتلهما . وقد اشترك فى قتلهما مع عروبة جبر بن نُماسب الميلى . ولم يقدم عبيد الله على قتلهما إلا بعد أن تخلص من نصيرهما الأكبر بين شيوخ كتامة وهو أبوزاك تمام بن معارك الأجانى : أمر واليه على طرابلس فقتله .

(٢) الأصل : « فأنا الذى يعجبه ولا شىء يعجبنى » مع إشارة فوق « يعجبه » فهمت منها بعد لأى أنها مشطوبة ، وكذلك الواو التى تليها .

بالله أبي محمد الحسن ، بلغ فى ولايته سبعاً وأربعين سنة ، وبويع له فى [ذى] القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة[1] .

وقرأت فى كتاب أبى الحسين بن أبى السرور الروحى الإسكندرى فى أخبار ملوك العُبيدية[2] / أن المستنصر بالله أبا تميم مَعَدَّ بنَ على بن الظاهر بن الحاكم [٥٦ - ب] بلغ فى ولايته بمصر ستين سنة وأشهراً ، فأربى على هؤلاء الخلفاء .

وتَسَمَّى الناصرُ عبدُ الرحمن بن محمد بأمير المؤمنين بعد سنين من خلافته ، لما ضَعُفَ سلطانُ العباسية بالمشرق ، وغلبت عليهم الأتراكُ ، وادعت الشيعةُ ماشاءت بإفريقية ، وساعدتهم عليه قبائلُ البربر وأصبح الناس فى الآفاق فوضى ؛ وكان مَن قَبْلَه من آبائه يُدعون بالأمراء .

وظَهَرَ لأول ولايته مِن يُمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة — على اضطرامها بكل جهة —

---

(١) إليك تواريخ حكم أولئك العباسيين الثلاثة الذين يكادون يضاهون عبد الرحمن الناصر فى طول المدة :

أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق المقتدر : ١٩ رجب ٣٨١ — ١٠ ذى الحجة ٤٢٢ .

أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله بن القادر : ١١ ذى حجة ٤٢٢ — ١٣ شعبان ٤٦٧ .

أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء : ٢ ذى قعدة ٥٧٥ — ٣٠ رمضان ٦٢٢ .

(٢) كذا ورد اسم الكتاب ومؤلفه ، ولم أعثر على ما يزيدنا معرفة بهذا المؤلف وكتابه . ولدينا فى تاريخ الفاطميين بهذا الاسم كتاب « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » لأبى الحسن على بن حماد الصنهاجى المتوفى عام ٦٢٨/١٢٣١ ، وله كتاب آخر هو « النبذ المحتاجة فى أخبار صنهاجة » . وقد نشر ڤوندرهايدن كتاب أبى الحسن على بن حمادُه فى أخبار العبيديين سنة ١٩٢٧ فى باريس مع ترجمة فرنسية ، وأخطأ فجعل اسمه ابن حماد . ولا ينبغى الخلط بين هذا المؤلف وأبى عبد الله محمد بن حمادُه البرنسى السبتى ، وهو من أهل القرن السادس الهجرى ، ومن تلاميذ القاضى عياض ، وله كتاب « المقتبس فى مفاخر المغرب والأندلس » .

انظر مقال ليڤى پروڤنسال : نص جديد عن فتح العرب للمغرب لعبيد الله بن صالح بن عبدالحليم . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ . ص ٢٠٥ .

وانقياد العصاة لطاعته ، ما تعجز عن تصوره الأوهام ، وتكلُّ فى تحبيره الأقلام . وقيض له من ابنه وولى عهده الحكَم المستنصر بالله ، المدعو بأمير المؤمنين بَعدَه ، من زان مُلكه ، وزاد فى أبهته ، وقام بأمره أحسن قيام ؛ فكمل جلالُه ، وجل كمالُه .

وكان الناصرُ — على علاء جانبه واستيلاء هيبته — يرتاح للشعر وينبسط إلى أهله ، ويراجع من خاطبه به من خاصته .

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج صاحب « كتاب الحدائق » : حدثنى أبو بكر إسماعيل بن بدر[1] ، أنه خاطب أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد ، رحمه الله ، فى غزاة كان آلى ألا يأنس فيها بمنادمة أحد حتى يفتتح معقلا ، فافتتح معقلا بعد آخر ، وتمادى على عزمه فى العزوف عن المنادمة ، فذكر أنه كتب إليه :

لقد حَلَّتْ حُمَيَّا الراحِ عِندى ... وطابتْ بعدَ فتحك معقلينِ
وآذنَ كلُّ همٍّ بانفراجٍ ... وأن يقضى غريمٌ كلَّ دَينِ

قال : فلم يحركه ما خاطبتُه به ، فعاودته بالمخاطبة فقلت :

يا مَلِكاً رأيُه ضياءٌ ... فى كلِّ خطبٍ ألمَّ داجِ
مَن لى بيومٍ به فراغٌ ... ليس أخو حَرْبِه بناجِ

---

(١) ذكره ابن الفرضى (رقم ٢١٤ جـ ١ ص ٦٢) : إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد مولى نعمةٍ لبنى أمية . من أهل قرطبة ، يكنى أبا بكر . وبعد أن ذكر شيوخه قال : إلا أن صناعة الشعر غلبت عليه وطارت باسمه وكانت ألصق به . وطال عمره إلى أن سمع بعض الناس منه وتسهلوا فيه . وولى أحكام السوق ، فحمد أمرُه فيها ، وتوفى فى أول ولاية المستنصر بالله سنة ٣٥١ .

وذكره أيضاً الضبى (رقم ٥٤٣ ص ٢١٥) وقال إنه كان أثيراً عند عبد الرحمن الناصر ، ثم أورد له بضعة أبيات رواها له أبو محمد على بن أحمد بن حزم .

بكل بيضاء مَن رآها يحسبُها شعلةَ السراجِ
لا تنس مولاك فى وغاه واذكره فى حومة الهياجِ

[٥٧ — ا] / فذكر أنه جاوبه بقوله :

كيف وأنّى لمن يناجي من لوعة الهم ما أناجي
يطمع أن يستريحَ وقتاً أو يقتلَ الراحَ بالمِزاج ؟
لو حُمِّل الصخرُ بعض شَجْوِى عاد إلى رقّة الزجاجِ
كنتَ لما قد علمتَ الهوْ لَ إذْ أنا مما شكوتُ ناجِ
فصرتُ للبيْن فى علاجٍ طَمَّ وأربَى على العلاجِ
الوردُ مما يهيج حُزنى ويبعث السوسنُ اهتياجي
أرى ليالى بعدَ حُسْنٍ أقبحَ من أوجهٍ سماجِ
لا ترْجُ مما أردتَ شيئاً أو يؤذن الهمُّ بانفراجِ

٧٧ — ابنه الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله ، أبو العاصي

وَلِىَ بعده الخلافة وهو ابن سبع وأربعين سنة — وقيل ابن ثمان وأربعين سنة — وشهرين ويومين ، وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من رمضان سنة خمسين وثلاثمائة ، وتوفى لليلتين خلتا من صفر سنة ست وستين ، فكانت خلافته خمس عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام ؛ استغرقت خلافةُ أبيه الطويلة عمرَه ، حتى كان يقول له فيما يُحكى عنه : « لقد طوّلنا عليك يا أبا العاصى ! »

وكان حسن السيرة فاضلا عادلا مشغوفا بالعلوم ، حريصاً على اقتناء دواوينها ، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان ، ويبذل فى أعلاقها ودفاترها أنفس

الأثمان . ونَفَق ذلك لديه ، فحُملت من كل جهة إليه ، والمَلك سوقٌ ، ما نفق فيها جُلب إليها ، حتى غصَّت بها بيوتُه ، وضاقت عنها خزائنه .

قال ابن حيّان عند ذِكر الحَكم : كان من أهل الدين والعلم ، راغباً فى جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم ، باحثاً عن الأنساب ، حريصاً على تأليف قبائل العرب و إلحاق من درسَ نسبُه أو جَهِلَه بقبيلته التى هو منها ، مستجلباً للعلماء ورُواة / الحديث من جميع الآفاق ، يشاهد مجالس العلماء ويسمع [٥٧ - ب] منهم ويروى عنهم .

وكان أخوه عبدالله — المعروف بالولد[١] — على مثل هذه الحال من المحبة فى العلم والعلماء والرواية ، وتوفى فى حياة أبيه مقتولا فتَصُيِّرَتْ كتبُه إلى أخيه الحَكم .

ولم يُسمع فى الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحَكم فى اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمُّم بها . أفاء على العلم ، ونوَّه بأهله ، ورغَّب الناسَ فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه ، ومنهم أبو إسحاق محمد ابن القاسم بن شعبان[٢] بمصر ، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى وغيرهما ؛ جرى ذِكر هذا فى كُتب تواريخهم .

وبعث إلى أبى الفرج الأصبهانى القرشى المروانى ألف دينار عيناً ذهباً ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذى ألفه فى الأغانى ، وما لأحد مثله ،

---

(١) الولد هنا مصطلح أندلسى لا يطلق إلا على الأمراء ، وكثيراً ما يختص به ولى العهد .

(٢) كبير فقهاء المالكية فى مصر فى أواخر العصر الإخشيدى ، وأصله أندلسى من قرطبة ، وقد أرسل إليه عبد الرحمن الناصر عشرة آلاف دينار ليفرقها فى شيوخ المالكية ، فأخرج الإخشيد مثلها (كما يقول ابن الزيات فى الكواكب السيارة) ليفرقها فى شيوخ الشافعية . وكان يرجو الله أن يميته قبل دخول الفاطميين مصر ، فمات قبل ذلك بثلاث سنوات .

ووصَل بذلك المال رَحِمَه ، إذ كان قسيمَه فى المروانية ، ومن ولد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أو ينسخه أحد منهم .

وألَّف له أيضاً أنسابَ قومه بنى أمية موشحةً بمناقبهم وأسماء رجالهم ، فأحسن فيه جدا ، وخلد لهم مجداً . وأرسل به إلى قرطبة وأنفذ معه قصيدة حسنة من شعره — وكان محسناً — يمدحه بها ويذكر مجد قومه بنى أمية وفخرهم على سائر قريش ، فجدَّد له عليه الصلةَ الجزيلةَ .

وكان له ورّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجالٌ يوجههم إلى الآفاق عنها[1] . ومن ورّاقيه ببغداد محمد بن طَرْخان ، ومن أهل المشرق والأندلس جماعةٌ . وكان مع هذا كثيرَ التهمُّم بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها ، وقلما تجد له كتاباً كان فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه — إما فى أوله أو آخره أو فى تضاعيفه — نَسبَ المؤلف ومولدَه ووفاتَه والتعريفَ به ، ويذكر أنسابَ الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن . وكان موثوقاً به مأموناً عليه . صار كلُّ ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلون من خطه ويحاضرون به .

[٥٨-ا] قلت : وقد/اجتمع لى من ذلك جزء مفيد مما وُجد بخطه ، ووجدتُ أنه يشتمل على فوائد جمة فى أنواع شتى .

قال[2] : وكان قد قيَّد كثيراً من أنساب أهل بلده ، وكلف أهلَ كُوَر الأندلس أن يُلْحِقوا كلَّ عربى، أُخْمِلَ ذِكْرُه قبل ولايته ، وأن يصحِّح

(١) هنا يحسن أن نقرأ : باحثين عنها .

(٢) يستمر ابن الأبار فى الرواية عن ابن حيان .

نسبَهم أهلُ المعرفة بذلك ، ويؤلَّف من الكتب[1] ، ويُرَدَّ كل ذى نسب إلى نسبه ، وفرج ذلك بالعلم فتم له من ذلك ما أراد ، ونفع الله بكرم قصده البلاد والعباد .

وقال أبو محمد بن حزم فى « كتاب جمهرة الأنساب » من تأليفه ، وذَكر الحَكَمَ : اتصلت ولايته خمسة عشر عاماً فى هدوء وعلو . وكان رفيقاً بالرعية ، محبًّا فى العلم ، ملأ الأندلسَ بجميع كتب العلوم . وأخبرنى « تليد »[2] الفتى — وكان على خزانة العلوم بقصر بنى مروان بالأندلس — أن عدد الفهارس التى كانت [فيها] تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقةً ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط .

قال : ولم يَعقب إلا هشاماً الوالى بعده ، وقد انقرض ولا عقب له ولا لأبيه[3] .

وذكر الحُمَيْدِىّ فى تاريخه أن الحكم رام قطع الخمر من الأندلس ، فأمر بإراقتها وتشدد فى ذلك ، وشاور فى استئصال شجرة العنب من جميع أعماله ، فقيل إنهم يعملونها من التين وغيره ، فتوقف عن ذلك .

ومن شعره :

عجبتُ ، وقد ودعتها ، كيف لم أمُتْ وكيف انثنتْ عند الفراقِ يدى معى

فيامقلتى العَبْرَى عليها اسكُبى دماً ويا كبدى الحَرَّى عليها تقطَّعى

---

(١) المراد أن الحكم المستنصر أمر أن تصحح أنساب الناس وتكتب بحسب ما فى كتب الأنساب

(٢) فى جمهرة الأنساب لابن حزم (تحقيق ليڤى پروڤنسال) : تأييد الفتى (ص ٩٢) وهذه العبارة كلها واردة عنده .

(٣) عبارة ابن حزم (الجمهرة ص ٩٢) : فأما الحكم المستنصر فلم يعقب إلا هشاماً الوالى بعده ، ولى الأمر وهو ابن أحد عشر عاماً . وكان متغلَّباً عليه ، لا أمر له ولا نهى ، تلقب بالمؤيد ، وخُلع المرة بعد المرة ، وقد انقرض ، ولا عقب له .

وكان الحكم قد أنجب قبل هشام غلاماً سماه عبد الرحمن ولد سنة ٣٥١/٩٦٢ ، ومات طفلا .

قال ابنُ حيّان : وعلى إطباقِ أهلِ وقته فى نَزارة جَنَى أدبه ، فقد أنشدنى الفقيه أبو على الحسن بن أيوب الحداد[1] له بيتى شعر ارتجلهما يوم ودّعته حظيته أم هشام ، لما خرج لغزوته الفذة المعروفة بشَنْتِ اشتيبَنْ[2] ، فأكثرت من التعلق به والوَلَهِ لفراقه ، وكان شديد الكلف بها ، وذكر البيتين . قلت : وقد قرأتُ فى ما يُروى لمِهْيار الدَّيْلَمِىّ :

ومن عجبٍ أنى أحنُّ إليهمُ وأسألُ شوقاً عنهمُ ، وهمُ معى
وتبكى دماً عينى ، وهمْ فى سوادها ويشكو الهوى قلبى ، وهم بين أضلُعى
[٥٨ – ب] /فيامُقلتى العَبْرَى أفيضى عليهمُ ويا كبدى الحَرَّى عليهمْ تقطَّعى

فلا أدرى : أوافقَ الحكمَ فى بيته الأخير أم سرقه وغيَّره كما ترى ؟

وقال أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى (المعروف بالاشتركونى[3] ، صاحب

(١) ذكره ابن بشكوال فى « صلته » (رقم ٣٠٦ جـ١/١٣٦ – ١٣٧) : الحسن ابن أيوب بن محمد بن أيوب الأنصارى ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا على ، ويعرف بالحداد . وبعد أن ذكر شيوخه قال : وجمع مسائله فى أربعة أجزاء . روى عنه جماعة من كبار العلماء منهم أبوعمر بن مهدى ، وقال : كان من أهل العلم بالمسائل والحديث ، مقدماً فى الشورى على جميع أصحابه لسنه ، راوية للحديث واللغات ، وافر الحظ من الأدب ، حسن الشعر فى الزهد والرثاء وشِبْهه ، ذا دين وفضل . ولد فى المحرم سنة ٣٣٨ ، وتوفى ودفن ضحوة يوم السبت خلف باب القنطرة فى رمضان سنة ٤٢٥ .

(٢) رسم الاسم هنا دقيق ، لأنه بالإفرنجية San Estéban ، وفى إسبانيا أكثر من موضع بهذا الاسم ، ولكن المراد هنا San Estéban del Mall قرية صغيرة فى مديرية وشقة Huesca تابعة لمركز Benavarre . وكانت غزوة شنت اشتيبن سنة ٣٥٢/ ٩٦٣ ولم يكن هشام قد ولد بعد . وأم هشام المذكورة هنا هى صبح البشكنسية .

(٣) هذه الأبيات لا وجود لها فى ديوان مهيار .

(٤) ترجم له ابن بشكوال فى الصلة (رقم ١١٧٥ جـ٢ ص ٥٣٩) ولم يذكر نسبته هذه ، وإنما اكتفى بقوله : محمد بن يوسف بن عبد الله التميمى من أهل سرقسطة ، سكن قرطبة ، يكنى أبا الطاهر . وبعد أن ذكر شيوخه قال : وكان مقدماً فى اللغة والعربية ، شاعراً محسناً ، =

« المقامات اللزومية » ، فى ما جمع من شعر أبى بكر بن عمار وزير بنى عباد) :
« ومما ينسب إليه . . . » ، وذكر البيتين :

* « ومن عجبى أنى أحن إليهم » *

والذى بعده ، لم يزد عليهما .

وقرأت فى « كتاب الحدائق » لابن فرج قوله — بعد إيراده جملة من أشعار الخلفاء الأموية — : « وهم يجلّون عن الشعر أقدارهم ، كما يرتفعون عن أن يُرْوَى عنهم أو يُؤخذ من أقوالهم ، وإنما ينبسطون به فى سرائرهم فليس يظهر عليهم منه إلا الشاذ القليل ؛ ولعل ما سقط عنا أفضل مما سقط إلينا . فأما أمير المؤمنين المستنصر بالله — أطال الله بقاءه — فهو فوق أن يعلن به أو ينشر اسمَه عليه ، ولعل له منه ما لا نعرفه ، فأما الأدوات التى يقال بها ، بل التى يحتاج كل علم إليها ، فهى معه بأزيد مما كانت لأحد قبله أو تكون لأحد بعده » .

وهذا الذى قال غيرُ مسلَّم له ولا مقبول منه ، بل إكثار الملوك من الشعر دالٌّ على قوة عارضتهم وسعة ذرعهم ، وحاكم بمَتَانة مادتهم وتمكن تصرفهم ، ولولا ذلك لما فضل ابن المعتز أهل بيته بالإبداع فى أنواع القريض ، وكذلك تميم بن المعز المتقيِّل أثرَه فى الإكثار ، والإتيان بما قُيِّد وخُلِّد من بدائع الأشعار . ولا أبلغ من الاحتجاج ، وأقطع للخصم المتناهى اللجاج ، مما هو عليه مولانا من تحبير الغرائب ، وتسيير الكلم الغر أثناء المشارق والمغارب ، وهو البرهان على رحب المجال ، وتحصيل أسباب الفضل وأشتات الكمال ، لا زال سلطانه يُبْخَع له بالطاعة ويُدَان ، وزمانُه يُشرِق بمحاسنه الباهرة ويزدان .

= وله مقامات من تأليفه أخذت عنه واستحسنت . توفى فى قرطبة فى جمادى الأولى من سنة ٥٣٨ .

واشتركونة Estercuel وتكتب أيضاً اشترقونة ، مدينة فى مديرية تيروال Teruel فى إسبانيا ، وتبعد عن القاعدة بمائة وعشرين كيلومتراً ، وهى تابعة لمركز Aliaga الإدارى ، وهى مرتفعة تقوم على سفح جبل سانتاآنا Pena de Santa Ana

٧٨ – عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أبو محمد

قتله أبوه عبد الرحمن لمنافسته أخاه الحَكم وليّ عهده ؛ وكان من نجباء أولاد الخلفاء ، محبا فى العلم والعلماء ، سمع من جملة منهم ، وحدث فى اللف عنهم . وله تواليف تدل على علمه وفهمه ، وتشهد بشرف ذاته وكمال أدواته ، منها « كتاب العليل والقتيل فى أخبار وَلدِ العباس » انتهى به إلى خلافة الراضى / [٥٩ – ا]
ابن المقتدر ؛ ومنها « المسكتة فى فضائل بَقِيّ بن مَخْلَد » . قال أبو محمد بن حزم : كان فقيها شافعيا شاعراً أخباريا متنسكاً ؛ ومن شعره :

أما فؤادى فكاتمٌ ألمَهْ ... لو لم يَبُحْ ناظرى بما كتمَهْ
ما أوضحَ السُّقمَ فى ملاحظ مَنْ ... يهوَى ، وإن كان كاتماً سقَمَهْ
ظللتُ أبكى ، وظلّ يعذُلُنى ... مَن لم يقاسِ الهوى ولا علمَهْ
إليك عن عاشقٍ بكى أسفاً ... حبيبَه فى الهوى وإن ظلمَهْ
ظلتْ جيوشُ الأسى تقاتلُهُ ... مذ نذرتْ أعينُ الملاحِ دمَهْ

وحكى أبو عمر بن عفيف[١] فى تاريخه الذى هذَّبه ابنُ حَيّان وانتخبه ، قال : وكان الأمير الحَكم بن الناصر لدين الله ولى عهد المسلمين ، وأخوه عبد الله هذا ، يتباريان فى طلب العلم ، ويتناغيان فى جمعه ، ويتبادران إلى اصطناع أهله واختصاص رجاله وإدناء منازلهم والإحسان إليهم . فكان ابن عبد البر

---

(١) أبو عمر أحمد بن محمد بن عفيف بن مَرْتُيول بن حاتم بن عبد الله الأموى (٣٠٨ – ٤٢٠/٩٥٩ – ١٠٢٩) ، ترجم له ابن بشكوال فى « الصلة » (رقم ٧٣) وذكر مؤلفاته وفضائله ، وقد نقلنا هذه الترجمة فى كتابنا « تاريخ الفكر الأندلسى » الذى ترجمناه عن آنخل جنذالذ پالنثيا (ص ٤٢٣) . وأشرنا إلى اعتماد ابن حيان فى تأليف تاريخه على كتاب لابن عفيف فى التاريخ لم يذكره ابن بشكوال (ص ٢٠٨) .

— يعنى أحمد بن محمد ، صاحب التاريخ[١] — ممن تميز فى حزب عبد الله واختص به حتى لا يكاد يفارقه ، فسُعى إلى الخليفة الناصر لدين الله بابنه عبد الله هذا ، ورُفع عليه أنه يريد خلعه ويدعو إلى القيام معه ، وأن جماعات من طبقات الناس دخلوا فى ذلك معه ، وأنهم على أن يثوروا به فى يوم عيد قد اقترب إليه . فأرسل الناصرُ فى الليل بمن قبض على ولده عبد الله وحبسه ، فألفى عنده فى تلك الليلة هذا الفقيه أحمد بن محمد بن عبد البر وفقيهاً آخر من أصحابه يعرف بصاحب الوردة — وهو أحمد بن عبد الله بن العطار[٢] — كانا بائتين عنده ، فأُخذا وحُملا إلى الزهراء حَضْرة أمير المؤمنين الناصر بأسفل قرطبة ، فأمر بسجنهما وعرّف الوزراء بخبر ولده عبد الله ، وكشف لهم عظيم ما أراد أن يحدثه عليه وعلى المسلمين فيه وتبرأ منه . وأعلمهم بمسارعته إلى القبض عليه ، ووجدان رسُله هذين الفقيهين النطِفين[٣] بائتين عنده وقال لهم : « ما أعجب إلا من مكان ابن العطار عنده ! ما الذى أدخله فى هذا مع غباوته وقلة شره ؟ وأما ابن عبد البر فأنا أعلم أنه

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد البر فقيه ومؤرخ معاصر لعبد الرحمن الناصر ، وهو غير أبى عمر يوسف بن عبد البر النمرى . ترجم له ابن الفرضى (رقم ١٢٠ جـ ١ ص ٣٧) وذكر فى مقدمة « تاريخ علماء قرطبة » أنه نقل عنه كثيراً فى كتابه . وقد سمع ابن عبد البر هذا من أجلاء شيوخ قرطبة من أمثال ابن لبابة وأسلم بن عبد العزيز وقاسم بن أصبغ ، وكان فقيهاً نبيلا متصرفاً فى فنون العلم ، وكان علم الحديث أغلب عليه ، وله كتاب مؤلف فى « الفقهاء بقرطبة » وهو الذى استعان به ابن الفرضى فى تأليف كتابه . وقال ابن الفرضى أنه توفى فى السجن لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٣٣٨ ، أخبرنى بذلك المعيطى . وقال الرازى : توفى يوم الخميس لليلة بقيت من رمضان فى السجن . غمص فى قصة العاق عبد الله بن الناصر .

(٢) أحمد بن عبد الله بن سعيد الأموى ، من أهل قرطبة ، يعرف بابن العطار ، ويقال له صاحب الوردة ، يكنى أباعمر ، حدث عن محمد بن وضاح وغيره . توفى فى شوال سنة ٣٤٥ (ابن الفرضى ، رقم ١٥٨ جـ ١/٤٦) .

ويفهم من هذا أن عبد الرحمن الناصر عفا عنه ، لاستبعاده أن يكون له ضلع فى المؤامرة ، إذ أنه توفى بعدها بسبع سنوات .

(٣) نطِف : اتهم بريبة ، تلطخ بعيب ، فسد ، بشم من أكل ونحوه .

[٥٩ - ب] الذى زيّن لهذا العاق(١) ذلك ليكون قاضى الجماعة / ويأبى الله ذلك » ، فهنأوه بالسلامة ودعوا الله له . وعزم الناصر على أن يعاقب ابنَ عبد البر يومَ العيد — عيد الأضحى — الذى كان التدبير عليه فيه ، فأصبح ابنُ عبد البر يومَ العيد نفسه ميتاً فى السجن ، وأسلم إلى أهله فدُفن بمقبرة الرَّبَض ؛ وكان ذلك فى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة .

٧٩ — عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر ، أبو الأصبغ

كان أديباً شاعراً ، ظهرت منه نجابة فى صغره . وحُكى أن أول لوح كتبه عند دخوله الكتاب بعث به إلى أخيه الحكم المستنصر ، وكتب إليه من شعره :

هاكَ يا مولاى خَطًّا مَطَّهُ فى اللوح مطَّا
ابنُ سبعٍ فى سِنيهِ لم يُطِقْ للوحِ ضبطاً
دمتَ يا مولاى حتى يُولد(٢) ابنُ ابنك سِبْطاً

٨٠ — محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر

هو والد الخليفتين فى الفتنة : أبى المُطَرِّف عبد الرحمن الملقب بالمرتَضى ،

(١) هذه الكلمة واردة فى الأصل واضحة هكذا . ولكن دوزى جعلها العلق (ص ١٠٦) دون مبرر . وقد جعل كوديرا الكلمة : الغاق !

(٢) الأصح هنا أن يقال : « يلد ابن ابنك سبطا » ، لأن الشطر كما هو فى الأصل يعنى أن الذى سيولد سيكون حفيداً للحكم المستنصر ، أما على اقتراحنا فإن المولود سيكون ابن حفيد الحكم ، أى سبطه . ويمكن أن تقرأ أيضاً سَبطاً بفتح السين ، والمراد فارها .

وأبى بكر هشام الملقب بالمعتدّ ، آخر خلفاء بنى أمية بالأندلس ؛ على رحيله[1] انقرضوا فلم يعد مُلكهم إلى اليوم . وَلىَ فى شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وأربعمائة ، وكان أسنَّ من أخيه المرتضى بأربعة أعوام ، مولده فى سنة أربع وستين وثلاثمائة ، وأقام فى خلافته متردداً بالثغور ثلاثةَ أعوام إلا شهرين ، ودخل قرطبة يومَ مِنًى ثامنَ ذى الحجة سنة عشرين ، لم يبق إلا يسيراً حتى قامت عليه فرقة من الجند فخُلع . وانقطعت الدعوةُ الأموية من يومئذ ، واستولى على قرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الوزير ، ثم ابنُه أبو الوليد محمد بن جهور .

ومن شعر محمد بن عبد الملك قوله يفتخر :

ألسنا بنى مروان كيف تبدلتْ بنا الحالُ أو دارت علينا الدوائرُ ؟

إذا وُلد المولودُ منـــا تهللتْ له الأرضُ واهتزت إليه المنائرُ

/ وقد أنشد أبو منصور الثعالبى فى « اليتيمة » من تأليفه هذا الشعر ونسبه [٦٠ - ا] إلى الحكم المستنصر بالله ، وزعم أن ذلك من قصيدة كتب بها إلى صاحب مصر

---

(١) فى الأصل : رجله ، ومعناها على إثره أو بعده ، والمعروف أن هشامًا المعتد - أو هشام الثالث - آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس أعلن خليفة فى ربيع الثانى ٤١٨ / يونيو ١٠٢٧ . وكان يعيش منذ مقتل أخيه عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى حياة خمول فى حماية عبد الله بن قاسم الفهرى صاحب البونت Alpuente شمالى غربى بلنسية ، ولم يدخل هشام قرطبة إلا بعد عامين فى ٨ ذى حجة ٤٢٠/١٨ ديسمبر ١٠٢٩ واستوزر رجلا يسمى حكم بن سعيد ، ولم يستقم أمره ، إذ ظلت الفتنة ضاربة أطنابها ، وقام عليه ينافسه أمير أموى آخر يسمى أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان ، ولكن هذا الأخير قتل فى ١٢ ذى حجة ٣٠/٤٢٢ نوفمبر ١٠٣١ ، وعلى إثر ذلك قرر أبو الحزم بن جهور مع رؤساء قرطبة إخراج بقية الأمويين من البلد والمناداة بنهاية حكمهم فيه . وكان هشام المعتد وسط هذه الفوضى قد لجأ إلى بيت ملحق بالجامع واختبأ فيه مع بعض عياله ، وقضوا ليلتهم الأخيرة فى عاصمة أجدادهم فى ظلام لا تضيئه إلا شمعة متهافتة ، وفى الصباح رحل عن قرطبة مع أهله ، واحتمى بعض الوقت فى حصن قديم ، وانتهى إلى لاردة حيث قضى بقية أيامه فى كنف سليمان ابن هود .

يفتخر . وهذا من أغلاط أبي منصور وأوهامه الفاحشة : حكى — لبُعد مكانه — ما لم يحقق ، وروى عمن لا علم له بشأنه ما لم يضبط . ومثل هذا النظم الفائق لم يكن ليغيب عن ابن فرج صاحب « كتاب الحدائق » ، و [لم يكن ليغيب][1] أيضاً عن أبي مروان بن حَيّان — جُهَيْنة أخبار المروانية ومؤرخ آثارها السلطانية — فكيف يصح ذلك [والأول منهما][2] كما تقدم ينفي عنه الشعر ، والآخرُ يثبت له منه النزر ؟ على أن محمداً هذا المنسوبَ إليه ليس في أدباء أهل بيته بمشهور ؛ وعلى كل حال فلا معنى للفظ أبي منصور .

٨١ — عبد العزيز بن المنذر بن عبد الرحمن الناصر
ويعرف بابن القُرشية

كان من ذوي التعدد في بني مروان ؛ وأبوه أبو الحكم المنذر هو الذي اشتهرت معرفته بـ « ابن القُرَشية » ، لأن أمه فاطمة بنت الأمير أبي الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمن[3] ، حظيت بنكاح الناصر عبد الرحمن بن محمد وولدت له ابنَه المنذر فسمته باسم أبيها ، فولَد عبد العزيز هذا ، وكان له حظ وافر من الأدب وحسن الشعر . ذكره أبو الوليد إسماعيل بن محمد المعروف بحبيب العامري في كتابه « البديع في فصل الربيع » ، وأنشد له في البهار ، قال — وهو من التشبيهات العقم :

(١) أضفت هذه العبارة للسياق .

(٢) أضفت هذه العبارة أيضا للسياق ، والأول منهما هو ابن فرج ، وقد سبق أن روى له ابن الأبار عبارة ينزه الحكم فيها عن قول الشعر .

(٣) المراد عبد الرحمن الأوسط .

كأن الثرى سِترٌ تمدُّ خلاله ... بأكؤسِ راحٍ راحَهُنَّ الكواعبُ
يُسَتِّرن من فرط الحياء معاصماً ... بأكمامهن الخضرِ عمن يراقبُ (١)

وأنشد لأبى عمر يوسف بن هارون الرمادى من قصيدة أمأى (٢) فيها ، يمدح ابن القرشية هذا ويصف أزهار الربيع :

تأمل بإثْر الغَيْمِ من زهرة الثرى ... حياةَ عيونٍ مُتْنَ قبل التنعُّمِ (٣)
كأن الربيعَ الطلقَ أقبل مهدياً ... بطلعة معشوقٍ إلى عينِ مغرمِ
تعجبتُ من غوص الحيَا فى حشا الثرى ... فأفشى الذى فيه ولم يتكلمِ (٤)
/ كأنَّ الذى يُسقَى الثرى صِرفُ قهوةٍ ... تنمُّ عليه بالضمير المكتَّمِ [٦٠ - ب]
أرى حسناً فى صفحةٍ قد تغيرتْ ... كبِشرٍ بدا فى الوجه بعد التجهمِ
ألا يا سماءَ الأرضِ أعطيتِ بهجةً ... تطالِعُنا منها بوجهٍ مقسَّمِ

---

(١) ورد هذان البيتان فى كتاب « البديع فى وصف الربيع » لأبى الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى (توفى حوالى ٤٤٠/١٠٤٨) بتحقيق هنرى بيريس ، الرباط ١٩٤٠ ، ص ٩٨ .

وقد ترجم له ابن الأبار فى التكملة (القطعة التى نشرها محمد بن شنب فى الجزائر وفيها من حرف الألف إلى حرف الجيم الذى تبدأ به النسخة التى حققها كوديرا ونشرت فى مجلدين فى المكتبة الأندلسية) ، رقم ٤٧٤ ص ٢١٩ وليس فى هذه الترجمة من جديد إلا قوله إن أباه كان يلقب بحبيب وأنه أخو أبى زيد بن محمد بن عامر شيخ أبى بكر بن العربى .

وكتاب « البديع فى وصف الربيع » ويقال أيضا « فى فصل الربيع » و « فى وشى الربيع » كتاب فريد فى بابه ، إذ أن أبا الوليد جمع فيه طائفة كبيرة من شعر الأندلسيين فى الربيع وأزهاره . وقد جعله أبوابا اختص كل زهرة بواحد .

(٢) أمأى أى جعل أبياتها مائة .

(٣) أورد هذه الأبيات أيضا أبو الوليد إسماعيل الحميرى فى « البديع فى وصف الربيع » ص ١٢ . وقد ورد لفظ « التنعم » فى الأصل : التنغم ، فصوبناه .

(٤) بعد هذا البيت أقحم الناسخ بيتا سبق أن ورد فى شعر عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، وهو :

ظللت أبكى وظل يعذلنى ... من لم يقاس الهوى ولا علمه

وإن قالتِ الأرضُ المنعّمُ روضُها : «لىَ الفضلُ فى فخرى عليكَ»، فسلِّمى
فخُضرةُ ما فيها تفوقُكَ خُضرةً ونُوّارها فيها ثواقبُ أنجمِ
وإن جئتها بالشمس والبدر والحيا مفاخرةً ، جاءت بأسنى وأكرمِ
بعبد العزيز ابن الخلائف والذى جميعُ المعالى تنتمى حيث ينتمى(١)

٨٢ — محمد ابن الأمير المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام ، أبو عبد الله

كان من [أكمل] رجال البيت الأموى خلقاً وعقلا وأدباً تاما وحظا من الشعر الجيد ، وكانت أختُه لأبيه فاطمةُ عند الناصر عبد الرحمن بن محمد ، فحظى بمصاهرته ؛ واعتُبِط فى خلافة الناصر فتوفى للنصف من ذى القعدة سنة ست عشرة وثلاثمائة . وهو القائل :

بنفسى وأهلى مَن بذلتُ له ودى وملَّكْتُه رِقّى على القُربِ والبعدِ
وأبغضتُ فيه كلَّ خِدْنٍ مناصحٍ وأبديتُ للعذال فى عشقه صَدِّى
ولم أنصرف فيه إلى قول كاشحٍ وأصررتُ فى حُبِّيه إصرارَ ذى الحقد

(١) علق أبو الوليد الحميرى على هذه الأبيات بقوله (ص ١٢ — ١٣) : «ودخوله فى هذا الموضع إلى المدح ، ومفاخرته بين السماء والأرض من المعانى التى سبق فيها ، واستولى على الأمد بها . وقوله :

* كأن الذى يسقى الثرى صرف قهوة *

البيت ، شبَّه فيه إفشاء الأرض نوارها وخضرتها بالمطر بإفشاء المرء أسراره المكتومة بالقهوة .
وقوله : «ينم» مستقبل من النميمة ، يقال : ينم بكسر النون وضمها ، والكسر أفصح .
وقوله : «بوجه مقسم» أى محسَّن ، من القَسام وهو الحسن .
وقوله : «فسلمى» أراد : فأذعنى لها ، وأقرى بفضلها .

سقانى بعينيه الهوى ، وبكفه سُلافًا ، وحيّانى بها ناقضَ العهد

وله :

طال اشتياقى إلى من كنتُ آلَفُهُ فالعينُ بالدمع ما تنفكُّ تَذْرِفهُ

اعتضتُ مِن قربِ من أهوى زيارتَهُ مَن كنتُ أكرهه جُهدى وأقذفهُ

وصار مَن كنتُ أشناهُ وأبعِدهُ مكانَ مَن كنتُ أهواه وأُلْطِفُهُ

/فالنفسُ فى قلقٍ ، والعينُ فى أرقٍ والقلبُ فى حُرَقٍ مما يُخَلِّفُهُ [٦١ - ا]

مَن رامَ صرفَ محبٍّ عن أحبتهِ فإن قلبىَ مما لستُ أصرفهُ

٨٣ — الحكم بن أحمد ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام

كان من نبهاء قومه المروانيين بقرطبة ، وكان له طبع معين فى قرض الشعر . وهو القائل فى ابن مات له ، أنشده ابن حَيّان :

عينى تجود بمسكوبٍ ومُهْراقِ فالحمد لله ، ما الموت مِن باقِ

وكيف أبقَى بلا نورٍ ، بلا بصرٍ أم كيف ينبُتُ لحمٌ زال عن ساقِ ؟

لا يبعِدَنْكَ بُنَىَّ اللهُ إنكَ قد لاقيتَ ما كلُّ مَن فى ظهرها لاقِ

٨٤ — عمر بن أحمد ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن

أخو الحكم المذكور، كان من أهل الأدب والشعر . وهو القائل يرثى أباه، وتوفى والناصر غائب فى غزاته سنة خمس عشرة وثلاثمائة :

لِفقدِكَ تنهَلُّ العيونُ وتَدمَعُ … وتنهدُّ أركانُ المعالى وتخشَعُ
ويُعْوِلُ مَن قد كان بالأمس ضاحكاً … لغَفْلتهِ فى ظلِّ نُعماكَ يرتَعُ
ألا أيها القبرُ الذى ضم جسمَه … سقاكَ من الأنواء هَتّانُ مُمْرِعُ
ولَقّى كريماً فيك رَوْحاً ورحمةً … مليكٌ إذا ما شاء يعطِى ويمنعُ
وكانت له كفٌّ يفيضُ نوالُها … مدى الدهر عن تَسْكابها ليس تُقلِعُ
وكانت له جَفْنٌ تجافَى عن الكرى … ونفسٌ تُناجي اللهَ والناسُ هُجَّعُ
وصوم وتسبيح وذكر وخشيةٌ … وطول صلاة أجرها لا يُضَيَّعُ
بكيتُكَ إشفاقاً عليكَ وحسرةً … لعل البكا من شدة الوَجد ينفعُ
فلستُ لشيء بعدَ فقدِكَ فارحاً … ولا لمصابٍ بعد فقدكَ أجزعُ
عليكَ سلامُ الله من ذى مصيبةٍ … له مهجةٌ نحو المنايا تَطلَّعُ

٨٥ — /عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز [٦١ - ب]
ابن أمية بن الحكم الربضى ،
أبو بكر ، الملقب بالحجر

ويقال له البِطْرَ شَكْ[1] بالعجمية ، ومعناه الحجر اليابس .

---

(١) البِطْرَ شَكْ — كما هو واضح من كلام ابن الأبار — لفظان إسبانيان : Piedra Seca .
وقد قال رومى Romey فى تاريخه (ج ٤ ص ٣٧٨) أنه يقابل اللاتينية Petra Sicca ، ولكن دوزى رجح أنها تقابل اللفظين الإسبانيين اللذين ذكرناهما . وقال دوزى أيضاً أن عبد الله ابن عبد العزيز المروانى ربما لقب بالحجر اليابس لبخله . انظر :

R. DOZY, *Rechèrches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Age* (Leyde, 1849) 1,273.

وهى الطبعة الأولى من أبحاث دوزى المعروفة ، وتختلف فى فصولها وترقيم صفحاتها عن الطبعتين الثانية والثالثة . والأخيرة هى الجارية فى أيدى الناس اليوم .

وقد ذكر دوزى — فى فصل خاص بترتيب صفحات نسخة الحلة السيراء التى نُقلت عن أصلها فى الإسكريال للمكتبة الأهلية فى باريس بناء على طلب المستشرق كوندى — أن مجلدها قدم بعض الأوراق على بعض فاختلطت ترجمة عبد العزيز المروانى هذا بترجمة غيره ، وغلط كوندى فى متابعتها دون أن يتنبه إلى الخطأ .

وحياة عبد العزيز المروانى هذا طويلة حافلة بالأحداث ، فقد كان — كما رأينا — يتولى طليطلة لهشام المؤيد والمنصور بن أبى عامر . وعاونه على الخلاص من القائد غالب ، ثم اتهم بالاشتراك مع عبد الله بن محمد بن أبى عامر فى مؤامرة ضد أبيه ، واشترك فى المؤامرة أيضاً عبد الرحمن بن مطرف التجيبى المتولى أمر ثغر سرقسطة . ولم تنجح المؤامرة ، ففر عبد الله بن المنصور إلى برمودو الثانى ملك ليون ، فمازال المنصور يسعى حتى أرغم برمودو على تسليمه إليه ثم قتله . وقد فر عبد الله المروانى أيضاً إلى برمودو هذا ، ولا نعلم إن كان قد فر مع عبد الله بن المنصور أو بعد ذلك ، وعلى أى الأحوال فقد ظفر به المنصور أيضاً وسجنه فى المطبق «بعد أن طيف به على جمل وهو مقيد» . وبقية الخبر يرويها ابن الأبار هنا .

انظر ، علاوة على المراجع المذكورة أعلاه : البيان المغرب لابن عذارى : ٢/٢٨٣ — ٢٨٦ .
محمد عبد الله عنان ، الدولة العامرية (القاهرة ١٩٥٨) ص . ٦ — ٦٣ .
وتعليقات الدكتور محمود على مكى على تحقيقه لديوان ابن دراج القسطلى (دمشق ١٩٦١) ص ٣٦٢ تعليق ٢ وص ١١١ تعليق ١ وص ٤٦٠ تعليق ٢ .

أمَّره هشام المؤيد فى بعض الأوقات ، وسَدَّ به الثغر ، وفوض إليه أمر طُلَيْطِلَة وقلده إياها مع خطة الوزارة ، فاستقل بمقاومة غالب[١] أيامَ فتلته ، حتى دعاه إلى القيام بالخلافة[٢] .

وكان على مقدمة المنصور بن أبى عامر فى غزاته إلى جَلِّيقِيَّة ، بعد مُنصَرَفه من مقتل غالب بالثغر ، فى أول المحرم سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ، ومعه خيل طليطلة وطبقات الأجناد وجميع الرَّجْل . وفيها حَصَر سَمُّورة ، وامتنعت عليه قصبتُها ، وعمّ بالتدمير كثيراً من نواحيها ، ومنها جهة دمر فيها نحو ألف قرية ، معروفة الأسماء كثيرة البِيَع والدِّيَارات . ووصل قرطبةَ ومعه أربعة آلاف سَبْيَة ، وقد حزّ قريباً منها من رؤوس الكفرة[٣] .

(١) أبوتمام غالب الناصرى « صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى ، شيخ الموالى قاطبة ، وفارس الأندلس يومئذ غير مدافع » كما يقول ابن عذارى (البيان : ٢/٢٦٥) . كان الوزير أبو جعفر المصحفى (سيتحدث عنه ابن الأبار بعد ذلك) قد أساء معاملته عندما تولى الحجابة لهشام المؤيد ، رغبة منه فى الانفراد بالسلطان المطلق ، فاضطربت أحوال الثغر نتيجة للمنافسة بين الرجلين ، وكان هذا من الظروف التى استغلها محمد بن أبى عامر للوصول إلى السلطان ، وقد سلك إليه طريقاً ملتوية تقوم على الاحتيال على الرجال والإيقاع بينهم ، فاستعان بغالب على جعفرٍ المصحفى ، فاستصدر أمراً منهشام المؤيد برفع غالب إلى خطة الوزارتين ، أى وزارة السيف ووزارة القلم ، أى أنه أصبح وزيراً وقائداً أعلى ، واتفق معه على أن يدبر ابن أبى عامر جيش الحضرة ، ويدبر غالب جيش الثغر . ثم صاهره فتزوج ابنته أسماء ، وبمعاونته قضى على جعفر المصحفى . ثم سعى بعد ذلك فى القضاء على غالب باستقدام جعفر بن على بن حمدون المعروف بالأندلسى ، وكان شيخاً من شيوخ زناتة الموالين لبنى أمية الأندلسيين ، وكان يقوم بأمر العدوة ، واستوزره وولاه القيادة . وشعر غالب بغرض ابن أبى عامر ، ويبدو أنه استعان بالنصارى للدفاع عن نفسه ، ولكنه قتل فى معركة بين رجاله ورجال ابن أبى عامر.

راجع ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢/٢٦٢ - ٢٧٩ .

(٢) يفهم من هذا أن غالباً دعا عبد الله بن عبد العزيز المروانى إلى طلب الخلافة لنفسه . ويبدو أن العبارة ينقصها شىء .

(٣) قام ابن أبى عامر بهذه الغزوة فى العام التالى لمقتل غالب ، ولم يذكرها ابن عذارى ، ولكنى وجدت فى البيان الذى يورده أحمد بن أنس العذرى لغزوات ابن أبى عامر حتى سنة ٣٧٦=

وكان عبد الله هذا أحد رجالات المروانية ، عقلا وشهامةً وأدباً وغزارةَ علم وإمتاعَ حديث وطيبَ مجالسة . ومن شعره ، قال الحُمَيْدى فى تاريخه : أنشدنى عنه أبو عبد الله بن المعلم الطلَيْطِلى ، قال : أنشدنى لنفسه :

اجعلْ لنا منكَ حظا أيها القمرُ ... فإنما حظُّنا من وجهك النظرُ
رآكَ ناسٌ فقالوا : إنّ ذا قمرٌ ! ... فقلتُ : كُفُّوا ، فعندى منهما خبرُ..
البدرُ ليلةَ نصفِ الشهرِ بهجتُهُ ... حتى الصباحِ ، وهذا دهرَهُ قمرُ
والله ما طلعتْ شمسٌ ولا غرَبتْ ... إلا وجاءتْ إليكَ الشمسُ تعتذرُ (١)

وأنشد له ابن أبى الفَيّاض فى [تاريخه] :

ومن لا أسمِّيه مخافةَ عَتْبهِ ... على أنَّ قلبى مستهامٌ بحبهِ
وبعضُ اسمه حاءٌ وبا [... ...] ... حروفٌ طواها [... ... ...]
عليه سلامُ الله مِنى مردَّداً ... سلامَ محبٍّ جاد فيه بقلبهِ

وله :

يا ظالماً ظنَّ قتلى فى الهوى حسَنا ... كنْ كيف شئتَ فظنى فيكَ قد حَسُنَا
/طويتُ حبَّكَ حتى ظلَّ ينشرُهُ ... دمعٌ جرى فغدا سِرِّى به علَنا [٦٢ - ١]
أفديكَ من ساكنٍ فى القلب مسكنُهُ ... وغائبٍ لم تزل نفسى له وطنا
يا قرةَ العين ، قد عذبتَها سهراً ... ومنيةَ النفس ، قد قطّعتَها شجَنا

=ذكراً لها ، ومنه يتبين أن مقتل غالب كان يوم الأربعاء لثمان بقين من المحرم سنة ٣٧٠ أى قبل التاريخ الذى يحدده ابن الأبار هنا بسنة . أما الغزوة التى يشير إليها هنا فيسميها العذرى « سمورة الأولى » وقد خرج بها ابن أبى عامر يوم الأربعاء ١٩ صفر ٣٧١ وعاد منها السبت ١٤ ربيع الأول من نفس السنة . ويمكن أن نعزو ما قامت به هذه الحملة من التخريب إلى أن هذه أول حملة كبرى يشترك فيها جند البربر الذين أتى بهم ابن أبى عامر مع جعفر بن على بن حمدون .

(١) وردت هذه الأبيات مع بعض خلاف فى الألفاظ فى جذوة المقتبس للحميدى : رقم ٥٥٦ ص٢٤٤ ، والبغية للضبى : رقم ٩٢٣ ص ٣٣٤ ، والمغرب لابن سعيد : ٢/ ١٠ .

ما بالُ قلبكَ يشكو فَرْطَ قسوتِه   قلبٌ يقاسى عليكَ البثّ والحزَنا
أما هواكَ فإنى لستُ ساليَه   ومَن يَمُتْ كمداً فيه فذاك أنا

وأنشد له ابن فرج فى « الحدائق »[1] :

سُقْياً لهم من ظاعنين حسبتهم   وَسْطَ الهوادج لؤلؤاً مكنونا
[١١٠-ا] /لو كنت أنصفهم عشية ودعوا   ما عشتُ بعد نوى الأحبة حينا
أغصانُ بانٍ فوقَ كثبان النَّقا   فإذا لَحَظْنَكَ خِلْتَهُنَّ العينا
أجرَى الزمانُ بِبَيْنِهِنّ مدامعاً   ما كنَّ من قبل الهوى يجرينا

وله مع رسالة حين ظفر به المنصور محمد بن أبى عامر فى شوال سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، وكان قد هرب أمامه إلى بلد الروم فسجنه بالمطبق بعد أن طيف به على جمل وهو مقيد :

فررتُ فلم يُغنِ الفرارُ ، ومن يكنْ   مع الله لا يُعجزْه فى الأرض هاربُ
ووالله ما كان الفرارُ لحالةٍ   سوى حذر الموت الذى أنا راهبُ
ولو أننى وُفِّقتُ للرشد لم يكن   ولكنَّ أمرَ الله لابد غالبُ
وقد قادنى جرمى إليك برُمَّتى   كما اجترَّ ميتاً فى رحى الحرب سالبُ

(١) سبق أن ذكرنا أن الناسخ خلط فى هذا الموضع خلطاً شديداً ، فوصل بين ترجمة عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضى وترجمة أبى عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، ولا أدرى كيف وقع الخلط ، ويبدو أنه كان ينسخ فى ترجمة الأول ، ووقف عند بيت : « أما هواك . . » فلما عاد إلى النسخ فتح المخطوط باحثاً عن عبد الله ابن عبد العزيز بن أمية ، فوقع فى صفحات أبى عبيد البكرىّ ، فمضى ينقل غير منتبه لخطئه حتى فرغ من أهل القرن الخامس ، ثم تنبه إلى أن جزءاً كبيراً من المخطوط لم ينسخ ، فعاد يستدرك ما نسى نسخه ، ولكنه لم يصلح الخطأ ، وهكذا وصلتنا المخطوطة الوحيدة من الحلة .

وظاهر أن ابن فرج الجيانى لا يمكن أن يروى شعراً لأبى عبيد البكرى ، لأنه مات قبله بزمن طويل ، ولا يمكن أن يروى لعبد الرحمن المستظهر ، لأنه مات قبله كذلك . ولهذا فقد رجحت أن هذه الأبيات لأبى عبد الله بن عبد العزيز المروانى هذا ، فجعلتها فى هذا الموضع .

وأجمع كلُّ النـاس أنك قاتلى ... ورُبَّتَ ظنٍّ ربُّه فيــه كاذبُ
وما هو إلا الانتقـــام فتشتَفى ... وتَرْكُكَ منه واجباً ، لك واجب
وإلا فعفوٌ يرتضى اللهُ فِعــلَه ... ويَجزيك منه فوق ما أنت طالب
ولا نفسَ إلا دون نفسك ، فليكن ... على قدرها قدرُ الذى أنت واهب
فما خاب من جدواك مذ كنتَ سائلٌ ... ولا رُدَّ دون المبتغَى عنك راغب
وقد منحتْ كفاك ما يُعجز الورى ... وعمتْ عمومَ الغيث منك المواهب
وإن حُمَّ تأخيرٌ لنفسى فليكن ... لمُتلِفِها من حاجب الملك حاجب
فما زال سبّاقاً إلى كل خَصْـــلةٍ ... يسير بها فى الأرض ماشٍ وراكب
فلا انفــكَّ لى مولًى ألوذُ بعزِّهِ ... فيصرِفُ عنى الخطبَ والدهر عاتب

وله أيضا يستشفع بالمظفر عبد الملك إلى أبيه المنصور :

/ ألا أيهـــا الحاجب المرتجَى ... وأكرم من كان أومن يكونْ [١١١-أ]
دعوْتُك دعـــوةَ مستصرخٍ ... أحاطت به وَأثْخَنَتْهُ المَنونْ
فإن لم تغثنى فمن ذا الذى ... يلوذ به الخائف المستكين ؟
جمعتَ التقى والعـــلى والنُّهى ... فمالٌ مُـــذالٌ وعِرض مصون
وتفريجُ غَمّاء عن حائنٍ ... يعود بك الحىُّ وهْو الدفين
فقل لى : لعاً ! من عثار له ... أناديك والموت لى مستبين
وإن جل ذنبى فأنت الجليل ... وهل لك فيمن عليها قرين ؟

ومن خبره أنه أقام مسجوناً إلى أن مات المنصور ، وولى ابنُه المظفرُ عبد الملك حجابةَ هشام ، فأطلقه واستحله لأبيه ، وخلع عليه وولاه الوزارة وخَصَّ

به ، فلم تطل حياته ، وتوفى غازياً مع عبد الملك غزاته الأولى سنة ثلاث وتسعين بمدينة لارِدَة ، وقبرُه بمسجدها .

وكان جَلْداً فى محنته ، كثير الدعاء والضراعة ، قد رزق من الناس رحمة . ولما أسلمه برمند ملك الجلالقة(١) مضطرا إلى ثقات المنصور وطيف به ، كان قدامه [من] ينادى : « هذا عبد الله بن عبد العزيز ، المفارق لجماعة المسلمين ، النازع إلى عدوهم ، المظاهِر له عليهم ! » ، فكان هو يرد عليه ويقول : « كذبتَ ! بل نفس خافت ففرَّت تبغى الأمن من غير شِرك ولا رِدَّة » . ولم يعرض المنصور لمنازله وضياعه ، أطلقها لبنيه مدة اعتقاله .

٨٦ — مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ، أبو عبد الملك

هو الطليق ، وقيل له ذلك لأنه سُجن فى أيام المنصور محمد بن أبى عامر مدة طويلة ثم أطلِق بعد ذلك فسُمى « الطليق » .

وكان — فيما قيل — يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها له ، ثم إنه استأثر بها ،

---

(١) هو برمودو الثانى Bermudo II ابن رذمير الثانى Ramiro II ملك مملكة ليون وأشتريس وجليقية من سنة ٩٨٢ إلى ٩٩٩م (٣٧٢ — ٣٩٠ هـ) معاصر المنصور ابن أبى عامر وصاحب الوقائع الكثيرة معه . وهو الذى لجأ إليه عبد الله بن المنصور بن أبى عامر وعبد الله بن عبد العزيز المروانى هاربين خوفاً من المنصور بعد انكشاف مؤامرتهما عليه ، وقد استطاع المنصور أخيراً الحصول عليهما . أما عبد الله ابنه فقد قتله ، وأما عبد الله المروانى فقد سجنه حتى كان من أمره ما يحكيه ابن الأبار.

انظر : تعليق الدكتور محمود على مكى على القصيدة رقم ١٢٨ من ديوان ابن دراج القسطلى (دمشق ١٩٦١) ص ٤٦٠ هامش ٢ .

فاشتدت غيرة مروان لذلك ، وانتضى سيفاً ، وانتهز فرصةً فى بعض خلوات أبيه معها فقتله . وعُثر على القصة ، فسُجن وهو ابن ست عشرة سنة ، ومكث فى السجن ست عشرة سنة ، وعاش بعد إطلاقه ست عشرة سنة ، وهذا من نادر الاتفاق . ومات قريباً من سنة أربعمائة .

وكان أديباً شاعراً مكثراً ، وأكثر/ شعره فى السجن . وإنما ذكرتُه — [١١١-ب] وليس من شرطى فى الإتيان بالأمراء والمتأمرين ومن قَرُب إليهم دون مَن بَعُد من البنين — لقول أبى محمد بن حزم : « أبو عبد الملك هذا فى بنى أمية كابن المعتز فى بنى العباس ، ملاحةَ شعرٍ وحُسنَ تشبيهٍ »(١) ؛ فحذفُه من هذا المجموع هو المعترَض [عليه] حقيقةً لا إثباته واجتلاب محاسنه ، والخطأ مع الاجتهاد معفوٌّ عنه . ولعلى قد أتيتُ فى ما أثبتُّ بما هو قريب منه . ومن شعر الطليق فى معتقله :

ألا إنَّ دهراً هادماً كلَّ ما نبنى ... سيَبْـلَى كما يُبْلِى ، ويَفْنى كما يُفْنى(٢)

وما الفوز فى الدنيا هو الفوز ، إنما ... يفوز الفتى بالربح فيها مع الغَبْن

يُجازَى ببؤس عن لذيذ نعيمها ... ويَجْني الرَّدَى مما غدتْ كفُّه تجنى

ولا شك أن الحزنَ يجرى لغايةٍ ... ولـكنَّ نفس المرء سيئةُ الظن

وله يصف السجن :

فى منزل كالليل أسودَ فاحمٍ ... داجى النواحى مظلمِ الأثباجِ

(١) عبارة ابن حزم فى الجمهرة (ص ٩٤) : وأما مروان بن الناصر ، فمن ولده مروان الطليق ، وأخوه عبد الملك ، ابنا عبد الرحمن بن مروان بن الناصر . كان مروان هذا من الشعراء المفلقين المحسنين ، وأعقب أربعة : يزيد أبوخالد ، ولبيد أبوليلى ، وعبيد الله أبو إمامة ، وأربد أبو زبيد ، وأخوه عبد الملك ساكن الآن بدَرُوقَة » .

(٢) ورد فى الهامش إلى يمين هذا السطر : « أخذ قول البحترى برمته :

ستفنى مثل ما نفنى وتبلى ... كما نبلى ، ويدرَك منـك ثـارُ

يسْوَدُّ والزهراء تُشرق حولَه كالحبر أُودع فى دواةِ العاجِ

وله فى النسيب :

أقول ودمعى يستهلُّ ويسفَحُ وقد هاج فى الصدر الغليلُ المبرِّحُ
دَعُونى من الصبر الجميل فإننى رأيتُ جميلَ الصبر فى الحب يقبُحُ
لقد هيَّج الأضحى لنفسى جوى أسًى كريهُ المنايا منه للنفس أروح
كأن بعينِى حَلْقَ كل ذبيحةٍ به ، وبصدرى قَلْبَها حين تُذبح
فيا ليت شعرى ، هل لمولاى عَطفةٌ يداوَى بها منى فؤادٌ مجرَّح ؟
يحنُّ إلى البدر الذى فوق خدهِ مكانَ سوادِ البدر وردٌ مفتح
تقنَّع بدرُ التِّمِّ عند طلوعهِ مخافةَ أن يسرى إليه فيُفضَح
فقلتُ له : يا بدرُ أسفِرْ فقد غدا عليه رقيبٌ للعِدا ليس يبرح
لعَمرى لَذاك البدرُ أجملُ منظراً وأحسنُ من بدر التمام وأملح

[١١٢ - ا] وله من قصيدة / فريدة أولها :

غصنٌ يهتزُّ فى دِعْصٍ نقًى يجتنى منه فؤادى حُرَقا
باسِمٌ عن عقدِ درٍّ خِلتُه سَلَبتْهُ لِثَتاهُ العُنُقا
سالَ لامُ الصدغ فى صفحته سيلانَ التبر وافَى الوَرِقا
فتناهى الحسنُ فيه ، إنما يَحسُن الغصنُ إذا ما أورَقا
رقَّ منه الخصرُ حتى خِلتُهُ من نحولٍ شَفَّه قد عشقا
وكأن الرِّدفَ قد تيَّمهُ فغدا فيه مُعَنًّى قلقا
ناحلا جاور منه ناعماً كحبيبى ظل لى معتنقا
عجباً إذ أشبهانا ، كيف لم يُحدثا هجراً ولم يفترقا ؟

ومنها يصف الخمر :

رب كأسٍ قد كستْ جنحَ الدجى ثوبَ نُورٍ من سناها أشرقا
بتُّ أسقيها رشاً فى طرفه سِنَةٌ تُورث عينى أرقا
خَفِيَتْ للعــين حتى خِلتُها تتقى من لحظه ما يُتَّقى
أشرقتْ فى ناصعٍ من كفهِ كشعاع الشمس لاقى الفَلَقا
وكأن الكأسَ فى أنمُلهِ صفرةُ النرجسِ تعلو الورَقا
أصبحتْ شمساً وفُوهُ مغرباً ويدُ الساقى المحيِّى مَشرِقا
فإذا ما غربت فى فمــهِ تركت فى الخـــد منه شَفَقا

ومنها فى أوصاف شتى :

وغمامٍ هطلٍ شؤبُوبُهُ نادمَ الروض فغنَّى وسَقَى
فكأن الأرضَ منه مطبقٌ وكأن النَّصب جانٍ أُطبِقا
خلع البرقُ على أرجائه ثوبَ وَشْيٍ منه لما بَرَقا
وكأن العارضَ الجَوْنَ بهِ أدهمٌ خلى عليه بَلَقا
/ وكأن الريحَ إذ هبَّتْ له طيَّرتْ فى الجو منه عَقْعَقا [١١٢–ب]
فى ليالٍ ضلَّ سارى نجمِها حائراً لا يستبين الطرُقا
أوقدَ البرقُ لهــا مصباحَه فانثنى وجهُ دُجاها مُشرِقا
وشدَا الرعدُ حنيناً فجرتْ أكؤسُ المزنِ عليه عرقا
وغدتْ تجذبه الشمسُ وقد ألحفتْه من سناها نُمرُقا(١)
فكأن الشمس تُحْيِى نفسَه غُرةُ المعشوقِ تُحْيِى الشيِّقا

(١) قرأها دوزى (ص ١١٦) : عزقا .

وكأن الوردَ يعلوه الندى وجنةُ المحبوب تندى عرقا
يتفقّا(١) عن بهار فاقعٍ خِلتُه بالورد يطوى وَمَقا
كالمحبّين الوصولَين غدَا خَجِلاً هذا ، وهذا فَرِقا
ورَنَتْ منه إلى شمس الضحى حدقٌ للنَّور تُصبى الحدَقا
وكأن القَطْر لما جادها صار فى الأوراق منها زئبقا

ومنها فى الفخر :

مَن فتًى مثلى لبأسٍ وندًى ومقالٍ وفَعالٍ وتُقَى ؟
شرفى نفسى ، وحَلْيى أدبى وحُسامى مِقْوَلى عند اللقا
ولسانى عند مَن يَخْبُرُهُ أفعوان ليس يثنيه الرُّقى
ويمينى يُمنُ عافٍ مُعسرٍ جَمعتْ حمداً غدا مفترِقا
جَدِّى الناصرُ للدين الذى فرّقتْ كفّاه عنه الفِرَقا
أشرفُ الأشراف نفساً وأباً حين يعلوه وأعلى مُرتقى
أنا فخر العَبْشَمِيِّين ولى جَدٌّ من فخرهم ما أخلقا
أنا أكسو ما عفَى من مجدهم بحُلَى رونقِ شعرى رونقا

[١١٣-ا] / وله أيضاً يصف السحاب ، أنشده له أبو الحسن على بن محمد بن أبى الحسن القرطبى فى كتاب « الفرائد فى التشبيه من الأشعار الأندلسية » من تأليفه :

فكأن الغمام صبٌّ عميدٌ أنّ بالرعد حُرقةً واشتكاء
وكأن البروق نارُ جواهُ والحَيا دَمْعُه يسيل بكاء

(١) ورد هذان البيتان من هذه القصيدة فى كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتانى .

وله أيضاً :

كأنما إنسانُ أجفانها للخمر من تحييرها مدمنُ
وليس إنساناً ولكنهُ هاروتُ فى مقلتها يسكنُ

وله فى طول الليل :

فما بال صُبحى قد تقارب خَطوُهُ فأبطأ حتى ليس يُرجى قدومُهُ
كأن نجومَ الليل قيَّدها الدجى وأوقفها فى موضع لا تريمه

وله فى الرسوم :

رَبْعٌ تربصت(١) النجوم لأهلهِ ورماهمُ ريب الزمان فقَرْطَسا
فكأنه مما تقادم عهدُهُ ربعُ امرئِ القيس القديمُ بعَسْعَسَا

وله فى مثل ذلك :

فبقيتُ فى العرصات وحدى بعدهم حيران بين معاهد ما تُعهدُ
فكأنهن ديار مَىٍّ إذ خلتْ وكأننى غَيْلانُ فيها يُنشِدُ

وله :

وكأن المياهَ فيها ثعابيـ ـن تَجُنِّبن تَبَعَّثتْ فى السواقى
وكأن الحصباء فى رونق المـا ء سنا الدرِّ فى بياض التراقى

* * *

(١) فى الأصل ، وفى دوزى (ص ١١٨) : تربّعت.

ومن أبناء الأدارسة الحسنيين :

٨٧ – إبراهيم بن إدريس الحسنى

كذا قال فيه ابن حيّان ، وقال الحُميدى : إبراهيم بن إدريس العلوى الحسنى المنبوز بالمؤبّل . كان أديباً شاعراً ، وكان فى أيام المنصور أبى عامر محمد ابن أبى عامر ، وعاش إلى أيام الفتنة . أصله من المغرب ، وسكن قرطبة إلى أن سيّره ابنُ أبى عامر عن الأندلس ، فيمن سيّر من أهل بيته بعد مقتل حسن بن قنُّون كبيرهم[1] . وهو القائل يخاطب المروانية بقرطبة ، لما رأى غلبة ابن أبى [١١٣–ب] /عامر على هشام المؤيد واستبداده بالأمر دونه :

(١) يشير ابن الأبار بذلك إلى ماكان بين الحسن بن كنون آخر ممثل لسلطان الأدارسة فى المغرب والمنصور بن أبى عامر . والحسن بن كنون هو من أبناء القاسم بن محمد بن القاسم ابن إدريس ، والقاسم هذا – واسمه كنون – هو الذى ضم بقايا دولة الأدارسة بعد أن شتت شملها قواد العبيديين واحتلوا فاس . فأقام القاسم كنون دويلة قاعدتها حصن صغير يسمى حجر النسر ، وتوفى سنة ٣٣٠ وخلفه ابنه أبو العيش . ولم تستطع هذه الدويلة الإدريسية أن تقوم بنفسها ، فكانت طوراً تخضع للأمويين الأندلسيين وطوراً للعبيديين ، ولكنها كانت فى الغالب فى حماية بنى أمية ، وقد بايع أبو العيش لعبد الرحمن الناصر ، وبعونه استطاع أن يمد سلطانه حتى سجلماسة . وكان الناصر قد استولى على سبتة ، وأراد أن يضم إليها طنجة ليملك بيده مفتاحى الزقاق . وبعد حرب طويلة ، استولى عليها وانتقل أبو العيش إلى بصرة المغرب الأقصى غير بعيد عن حجر النسر ، واستولى قواد عبد الرحمن الناصر على معظم نواحى شمال المغرب الأقصى من تاهرت إلى طنجة . ورأى أبو العيش أنه لم يبق له من الأمر شىء ، فكاتب الناصر واستأذنه فى الانتقال بأهله إلى قرطبة ليشترك فى الغزوات التى كان الناصر يقودها على ممالك النصارى ، وقد اشترك أبو العيش فيها بالفعل واستشهد سنة ٣٤٨ .

وبعد أن غزا جوهر الصقلى المغرب الأقصى غزوته المخربة التى احتل فيها فاس وقضى على كل أثر لسلطان الأمويين فى المغرب (٣٤٨ – ٣٥٠) اضطر الحسن بن كنون أخو أبى العيش وخليفته فى البصرة إلى الدخول فى طاعة العبيديين ، فلما انصرف جوهر عاد إلى الأمويين ، فعاد الفاطميون وبعثوا بلقين بن زيرى بجيش كثيف إلى المغرب فدخل الحسن بن كنون فى طاعته . وبعد انصراف بلقين أرسل الحكم المستنصر قائده غالباً الناصرى ، فتحصن منه الحسن =

فيا أرى عجبٌ لمن يتعجبُ   جلّت مصيبتُنا وضاق المذهبُ
إنى لأكْذِبُ مقلتى فيا أرى   حتى أقولَ غلِطتُ فيا أحسِبُ
أيكونُ حيًّا من أمية واحدٌ   ويسوس هذا الملكَ هذا الأحدب ؟
تمشى عساكرُهم حوالَىْ هودجٍ   أعواده فيهن قردٌ أشهب
أبَنى أميةَ أين أقمارُ الدجى   منكم ، وما لوجوهها تتغيب ؟

هذا ما أورد ابنُ حَيّان فى أخبار الدولة العامرية من شعره .

وقال الُحمَيدْى فى كتابه : رأيت له قصيدة طويلة يمدح بها مؤيد الدولة هذيل بن خلف بن رَزين صاحب القلاع ويهجو فى دَرجها غيره ، أولها :

للبَين فى تعذيب نفسىَ مذهبُ   ولنائبات الدهر عندى مطلبُ
أما ديونُ الحادثاتِ فإنها   تأتى لوقتٍ صادق لا تكذبُ
والبين مُغرًى كيدُه بأولى النُّهى   طبعاً تَطَبَّع ، والطبيعة أغلبُ

ومنها :

أيقنتُ أنى للرزايا مطعَمٌ   ودمى لوافدة المكاره مشربُ
فأنا من الآفات عِرضٌ سالمٌ   وجوانحٌ تُكوَى وعقلٌ يذهبُ

= ابن كنون فى حجر النسر ، ولكنه استسلم أخيراً وأُخذ وجميع أهله إلى قرطبة حيث أكرمه الحكم المستنصر ، ثم اختلف معه فنكبه وأخرجه إلى المشرق حيث نزل على العزيز بالله الفاطمى ، فسيره فى جيش إلى المغرب سنة ٣٧٣ . فلما صار الأمر فى قرطبة إلى محمد بن أبى عامر أرسل قواده وجيوشه إلى المغرب ليحاربوا الحسن بن كنون ، وقد تمكنوا من استنزاله على أمانه المنصور ، ولكن هذا غدر به ولم يمض أمانه وقتله سنة ٣٧٥ . وقد وصف ابن عذارى (البيان المغرب : ٢٨١/٢) مشهد قتله وما صاحبه من رعد وبرق دلالة على الغضب الإلهى لتلك الجريمة . وكانت تلك هى النهاية الأخيرة للأدارسة الحسنيين .

انظر : الاستقصا (الدار البيضاء ١٩٥٤) : ١٩٤/١ — ٢٠٥ .

ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢٨١/٢ . وقد روى ابن عذارى نفس الأبيات التى رواها ابن الأبار .

ولم يذكر منها سوى هذه الأبيات ، فيشبه أن يكون فيها ما أنشد ابنُ حَيّان ، ويشبه أن يكون قطعة فى المنصور على انفراد ؛ والظاهر أن الحُمَيْدى تركها ولم ير إثباتها .

* * *

ومن رجال المروانية فى هذه المائة :

٨٨ – أحمد بن محمد بن أضحَى الهَمْدانى

[١١٤-ا] / هو أحمد بن محمد بن أضحى بن عبد اللطيف بن خالد بن يزيد بن الشمِر من همْدان ؛ وخالد يقال له « الغريب » ، وسُمى بذلك لأنه أول مولود من العرب الشاميين بكُورة إلبيرة[١] . كان أبوه محمد بن أضحى صاحب حصن الحَمَّة من أعمال إلبيرة زمنَ الفتنة[٢] ، وقام بأمر العرب بعد قتل سعيد بن جُودِىّ ،

(١) ذكر ابن حيان (المقتبس – ملشور أنطونيا ، ص ٣١) خبر محمد بن أضحى ابن عبد اللطيف الهمدانى الثائر أيام الأمير عبد الله ، وما كان بينه وبين سعيد بن جودى من عداوة ، ثم ذكر دخوله فى طاعة الأمير عبد الله واشتراكه فى حرب عمر بن حفصون ، ثم استنزال الناصر له ضمن من استنزل من الثوار واستقدامه إلى قرطبة سنة ٣١٣ حيث عاش فى كنفه . قال ابن حيان : « وكان ابن أضحى هذا مع رجوليته أديباً بيناً يقوم بين يدى الخلفاء فى المحافل والمقاوم ، فيحسن القول ويطيب الثناء ، وله أخبار معروفة » .

وقد ذكر ابن الخطيب فى الإحاطة (بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ ، ج ١ ص ١٥٦ – ١٥٨) أحمد بن محمد بن أضحى هذا وساق نسبه : ابن عبد اللطيف بن غريب ابن يزيد . . الخ ، أى أنه وضع « غريب » موضع « خالد » . وقد فسر لنا ذلك ابن الأبار عندما قال إن خالداً كان يسمى بالغريب . وأورد ابن الخطيب قطعة من الخطبة التى ألقاها أحمد هذا بين يدى الناصر ، وأورد له بيتين لم يوردهما ابن الأبار ، ثم قصيدة « أيا مَلكاً » بأكملها .

(٢) يريد الفتنة الأولى أيام الأمير عبد الله ، انظر التعليق السابق .

وتمسك بموالاة الأمير عبد الله بن محمد إلى آخر مدته ، وأورث عقبَه نباهةً ورياسة انسحبت عليهم دهراً .

وثار منهم القاضى أبو الحسن على بن عمر بن محمد بن مُشرّف بن أحمد هذا بغرناطة فى المائة السادسة ، وسأذكره هنالك إن شاء الله عز وجل .

وقدم أحمدُ بن محمد مع أبيه علَى الناصر عبد الرحمن بن محمد ، باخِعَين بطاعته ، داخِلَين فى جماعته — وكان من أحسن الناس وجهاً ، وأفصحهم لساناً ، وأشهمهم نفساً ، وأوسعهم أدباً — فأجمل الناصرُ لقاءهما ، وأحسن قبولهما ، وأعلى منازلهما ، وأجزل عطاءهما . وقام أحمد هذا يومئذ بين يديه خطيباً ، ثم أنشد فى إثر خطبته :

أيا مَلِكاً تُرْمَى به قضبُ الهندِ ... إذا لمعت فوق المغافر والسَّردِ
ومَن بأسُه فى منهل الموت واردٌ ... إذا أنفسُ الأبطال كفَّتْ عن الوِردِ
ومَن ألبس الله الخلافةَ نعمةً ... به ، فاتت النُّعمى فجلَّتْ عن العدِّ
تجلَّى على الدنيا فجَلَّى ظلامَها ... كما انجلتِ الظلماء عن قمر السعد
إمامُ هدًى زيدت به الأرضُ بهجةً ... ملبسةً نوراً كموشِيَّةِ البُرْد
كفانى لديه أن جعلتُ وسيلتى ... ذِماماً شآمىَّ الهوى مخلصَ الود

وأنشد له صاحب « الحدائق » :

هوًى كدَّر الواشون منه الذى صفا ... ونمَّوا بأفهى الإفك عنى مزخرفَا
وشَوْا وأصاختْ أذْنُ خِلِّى فما وفَوْا ... بتبليغه ما لم أقله ولا وَفَى
/ وهلاَّ — كما أنصفتُه فى محبتى — ... ثناهم على الأعقاب منهم فأنصفا ؟ [١١٤-ب]
فلا كان واشٍ كان داءَ ضميره ... هوانا ، فلما أنْ رأى هجرَنا اشتفى
ولا يفرحوا أن أوقدوا الهجرَ جاحماً ... فما قريب ينطفى ، أو قد انطفى

٨٩ — لب بن عبيد الله بن أمية
المعروف بابن الشاليَة ، أبوعيسى

كان أبوه من كبار الثوار فى أيام الأمير عبد الله بن محمد ؛ سماه ابنُ حَيّان فى أعلام المخالفين عليه ، وجعله ثانياً لدَيْسَم بن إسحاق صاحب تُدْمِير ، و بعده ذَكر إبراهيمَ بن حجاج صاحب إشبيلية . وكان مَلكَ جبل شمنتان وما يليها من كورة جَيّان ، وامتد إلى حصن قَسْطلونة وغيره ، وانطلقت يده فتبنَّك النعمةَ و بنى المبانى الفخمة . وأظهر الإذعان وقتاً ، بعد وَقيعَةٍ جرتْ عليه ، والتزم حمل قطيع من المال فُورق عليه عما فى يده ، فلما رُوخِى عاد إلى غيه فنكث ، ووالَى عميد المخالفين عمر بن حفصون ، وواصله بالصِّهر مِن أسفل ، فزوَّج ابنتَه من جعفر ولد ابن حفصون ، ونقلها إليه بِبُبَشْتَرُ ، ووصل يدَه بيده ، فاعتز جانبه . وكان عُبَيْدِيس بن محمود [الشاعر الأديب][1] كاتباً لعبيد الله ، ومتصرفاً فى خدمته ، مكثراً من مديحه ، واصفاً لمغازيه ومبانيه وأحواله أوصافَ الشعراء لأكابر الملوك ، يستحسن ذلك منه ويجزل عطيته عليه ، فشعره فى ذلك مشهور؛ ومنه قوله فى وصف قصره :

قصر الأمير أبى مروان مُنتسَخٌ من جنةِ الخُلدِ بالسراءِ معمورُ
فيه مجالس قد شِيدتْ على عمدٍ بُنيانها مرمرٌ بالتبر مطرورُ

ونازع الفتحُ بن موسى بن ذى النون عبيدَ الله حصناً أورثهما حرباً ، فغلبه عليه عبيد الله وهزمه وحاز الحصن دونه ، وتيمَّن بحضور ابنه لبّ بن عبيد الله معه فى وجهه هذا ، فقال عُبَيْديس فى ذلك شعراً طويلا منه :

---

(١) نقل ابن الأبار هذا الكلام كله عن ابن حيان (المقتبس ص ٩ — ١٠) وأسقط هذه الجملة على أهميتها هنا ، فأتيت بها زيادة فى التعريف بعبيديس بن محمود .

/ جاء البشيرُ بما عم السرورُ بهِ عن الأمير أبي مروان في السفرِ [١١٥-أ]
فقلتُ ، حين سألناه فأخبرَنا : بالله قل وأعد يا طيّبَ الخبر
بيُمن لُبٍّ أبي عيسى وغزوتهِ فاز الأمير على الأعداء بالظفر

يقول فيه :

قاد الجيوش إلى الأعداء مدرعاً يَصْلَى الوغى بالوغى في سِنِّ مُثَّغِرِ (١)
من تحته فرسٌ ، في كفه قبسٌ يرمى الشياطين في الهيجاء بالشررِ (٢)

وعجُز البيت الثاني من هذه الأبيات منقول من قول أبي نواس :

يا ذا الذي عن « جنان » ظل يخبرنا بالله قل وأعد يا طيِّب الخـــبر

ولما غزا الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد غزوته الأولى إلى جَيّان ، خرج إليه عبيد الله مقالصاً(٣) في طاعته إياه ، فأمر بالقبض عليه وأرسل إلى معاقله مَن ضبطها وحمل عيـاله إلى قُرْطُبَة ، فصار في الديوان بها في أعلى الملاحق(٤) . وصرّفه الناصر في ضروب من خدمته سكن منه فيها إلى نصاحة وثقة ، فصرفه من أجل ذلك إلى معاقله بشمنتان والياً من قِبله ، لالتياثٍ أحسه من أهلها — ولا رعيةَ أجهل منهم — فأصلحها عبيدُ الله وأقام بها إلى أن صرفه ثانيةً عنها وأعاده إلى مصافِّه .

وكان ابنهُ لُبّ بن عبيد الله أديباً شاعراً حسن التصرف ، وهو القائل ،

(١) المثغر هنا كناية عن صغر السن ، لأن المثغر هو الطفل اللذى نبتت أسنانه .
(٢) أورد ابن حيان (المقتبس ، ١٠ - ١١) أبياتاً كثيرة أخرى من هذه القصيدة .
(٣) مقالصاً أى منقصا من طاعته ، والمراد أنه قصر فى طاعته للناصر.
(٤) الملحق ، وجمعه ملاحق ، هو المقيد فى ديوان العطاء ليصرف له راتب شهرى وما يتبعه ، والمراد أنه تقرر له راتب من أكبر ماكان يعطى لأمثاله من الثائرين الذين استنزلهم الناصر وأتى بهم إلى قرطبة ليعيشوا فى أمان على رواتب تصرف لهم ولذويهم .

أنشده له أبو الحسن بن أبى الحسين القُرْطُبِىّ فى كتاب « الفرائد » من تأليفه فى التشبيه :

صابَحتُها والروضُ يَسْطَعُ مِسكهُ فكأنه بالليل بات مغَلَّفَا
والورد يبدو فى الغصون كأنما أضحى يقارب من نداه قَرْقَفَا[1]

وله فى الخِيرى :

وكأنما الخِيرى إن أبدى النرجسُ[2] أسرارَه عن نشرِ مسكٍ أذفرا
لص يرائى بالنهار زهادةً خوفًا ويقطع ليلَه مُتَشَطِّرا

وله :

وراهقةٍ عنها السيوف كأنها عيونٌ يروع الليثَ فيها حَسِيرُها
[١١٥-ب] / إذا غشيتها البيض تعشَى بنورها كأن سناها من أذاها مُجيرُها
كأن فؤادى فوق رأسى صلابة فكل حسام ينتحيها كَسِيرُها

يصف بيضةَ حديدٍ . ومن هذه القصيدة فى وصف تُرس :

ومُمتَثِلٍ[3] قرصَ الغزالة فى يدى هجمتُ به والخيلُ تَدمَى نحورُها
تُقَلِّبُ منه الكفُّ مِغْنَطِسَ[4] القَنا فلا آلةٌ إلا إليه مصيرُها

٩٠ — موسى بن محمد بن سعيد بن موسى

مولى عبد الرحمن بن معاوية ، الحاجب الوزير ، أبو الأصبغ .

---

(١) القرقف اسم من أسماء الخمر : ويقارب القرقف ، أى يشربها ، مقتبس من قوله تعالى : «ولا تقربوا الخمر» .
(٢) كذا ، والوزن لا يستقيم على هذه الصورة ، ولعل صواب هذا الشطر : « وكأنما الخيرى إذ أبدى لنا » ، كما أن كلمة « النرجس » تبدو مقحمة لا مكان لها فى هذا الموضع .
(٣) أى : وشبيه بقرص الشمس .
(٤) الأصل : مغنطيس ، ولا يستقيم به الوزن .

كان — مع رئاسته وجلالته ، ونباهة سلفه واستعمالهم فى السكُوَر وسنيّات الخطط — من أهل العلم والأدب والشعر . وأول ما تصرّف فيه للأمير عبد الله خطة القُطُع[١] ، ثم وَلى خطة المدينة ، وعُزل عنها ، وأعيد إليها . ولما أفضت الخلافة إلى الناصر عبد الرحمن بن محمد أقره على المدينة ، واستوزره يوم استخلافه ، ثم استحجبه عند وفاة بدر فى سنة تسع وثلاثمائة ، فاضطلع واكتفى .

وكان الوزير عبد الملك بن جَهْوَر يقول : « ما رأيت مثل موسى : لم يجمعه أمير المؤمنين مع أحد إلا كان المستحوذَ على المجلس فى الجد والهزل » .

وتوفى للنصف من صفر سنة عشرين وثلاثمائة — وقيل فى آخر سنة تسع عشرة — فلم يستحجب الناصر بعده أحداً . وكان يحجبه عند قعوده لسلام الأجناد ، ولوفود الأطراف ، ورسل الأمم وأصحاب الخيل والمدينة والشرطة العليا والوسطى[٢] على مراتبهم مع سائر الخدَمة . ومن شعره قوله يمدح عبد الرحمن الناصر ويذكر هيبته :

---

(١) القُطُع جمع قطيعة ، وهى فى المصطلح الإدارى الذى يستعمله ابن حيان مبلغ من مال الجباية يتعهد بأدائه سادة النواحى الذين تعجز الدولة عن السيطرة عليهم ، فتتركهم عليها فى مقابل أدائهم إياها . وقد يتعهد المستبد بالناحية بأداء القطيعة دون ثورة أو قطع للطاعة . وكان أولئك المستبدون بالنواحى كثيرين فى الأندلس حتى منتصف حكم عبد الرحمن الناصر . وكان هناك لهذا ديوان — أو « خطة » فى المصطلح الأندلسى — هذه القُطُع . وهى تشبه من بعض الوجوه المقاطعات فى المصطلح الشرقى ، وتختلف عنها من وجوه أخرى .

انظر : دوزى ، ملحق القواميس ، ٢/٣٧٢ .

(٢) صاحب الخيل هو المشرف على شؤون الخيل اللازمة للجيش وما يتصل بها من سرج وقرابيس وما إلى ذلك . وكانت خطة الخيل وظيفة إدارية فى الغالب ، وقد يتولاها قائد من القواد ، وقد يقود صاحبُ الخيل الصوائفَ .

وصاحب المدينة هو حاكمها ، ويراد بها عادة العاصمة قرطبة .

أما الشرطة العليا والوسطى ففى تفسيرهما خلاف . وقد انتهينا من استقراء النصوص إلى أن الشرطة العليا كانت خاصة بأمن الأمير وقصوره وأهل بيته وكبار الناس ، والوسطى تتعلق بأعمال الشرطة المعروفة ، أى الأمن العام فى المدينة نفسها . وفى بعض النصوص ورد ذكر=

إذا ما فُرِّجَت خللُ الستورِ ولاح وقد تمكن فى السريرِ
ترى الأملاكَ مائلةً لديهِ بأعناق إلى الغبراء صورِ
كأنهمُ لهيبتـه قد أوفوا منْ الموت الزعاف على شفيرِ

وله :

أبطأتَ بالإذن على عبدكا فعاذ بالمعروف من نَجْدكا
[١١٦-١] /قد جُدتَ لى بالوعد ياسيدى ولم تزل تصدقُ فى وعدكا
إن لم يكن من خدمتى شافعٌ فالخُلْف ما يصلُح مِن عِندكا

وله :

معظَّمٌ تَحْسِرُ الألحاظُ من رَهَبٍ عنه ، وتلحظه الآمال من رَغَبِ
إذا بدا تضحك الدنيـا لطلعته وتتقى الجِنُّ منه سَورةَ الغضبِ
لمـا ارتقى فى سماء الجود قاد به إلى التبذُّل فينـا جوهر الأدبِ

وله :

كان العزاء ولىَّ العهد بعد أمير ن الله ، والمُلكُ وقفٌ بين هذينِ
فصرتُ لما نأتْ عنى وجوهُهما كالصقرِ أصبح مقصوص الجناحين
أستودع اللهَ مَن نفسى فِداؤهما ومُلِّيا العُمْرَ فى الدنيا عزيزيْنْ
تأميلُ هذين نقدٌ ناجزٌ ، وأرى تأميلَ غيرِهما كالدَّين بالدَّين
أعُدُّ ما حُزتُه من حُسنِ رأيهما مُلـكاً ، أضاهى به مُلكَ العراقين

= الشرطة السفلى واختصاصها — فيما يبدو — الأسواق والأحياء الدنيا من البلد . وقد حاولت أن أتعرف ما إذا كان صاحب الشرطة العليا مثلا هوالمشرف على الأمن العام فى مصطلحنا الحديث — ومن ثم فهورئيس الشرطة الوسطى والشرطة السفلى — فلم أستطع تبين ذلك بوضوح ، خاصة وأنى لاحظت أن صاحب الشرطة الوسطى كان فى نفس المكانة التى كان فيها صاحب الشرطة العليا ، وكان يعينهما الأمير أو الخليفة بنفسه .

وحكى ابن حيّان أن موسى بن محمد بن موسى بن حُدَيْر[١] — عمّ الحاجب موسى هذا — وهو المعروف بالزاهد ، كان ممن يُكثر مجالسة الأمير عبد الله ويصل مؤانسته . وكان حدثاً ظريف المشاهدة ، مليح العبارة ، إخباريًّا ، ممتعاً ، حُفَظَةً لأخبار دولة مواليه بنى أمية ، مفتنًا ، مفوهاً ، بليغاً ، يقرض أبياتاً من الشعر حسنة ، بديهةً ورويةً . قال : فشهد مجلس مذاكرة الأمير عبد الله يوماً وهو حافل بأهل الأدب والمعرفة ، وقد أفاضوا فيما كانوا يفيضون فيه من أبواب المذاكرة ، حتى مر ذكرُ الشيب وذمِّه — وكان الأميرُ عبد الله شديدَ التكرُّه له — فقال لجلسائه : « أىُّ شىء تروونه فى ذم الشيب أبلغ ؟ » ، فلم يحضر أحدَهم شىء ، إلا موسى بن محمد هذا فقال أحسن ما قيل فيـــه عندى ، قول الأوَّل :

أقول لضيفِ الشيبِ إذ حلّ مفرقى : نصيبك منى جَفوةٌ وقطوبُ
حرام علينا أن تنالَكَ عندَنا كرامةُ بِرٍّ أو يمسّك طِيبُ

/ فاستحسنهما الأمير وقال له : « اكتبهما يا موسى وزد فيهما ، إن كانت [١١٦-ب] فيهما عندك زيادة » ، فقال : « لا والله يا سيدى ما عندى فيهما مزيد » . وتبطّأ الوصيف بإحضار الدرج والدواة لموسى بن محمد[٢] ، وموسى مطرق أن يتأتى[٣] له القول فى الزيادة التى استمطرها[٤] منه الأمير ، فقال : « قد جاءنى يا سيدى — بسَعْدك — بعضُ الذى أردته » ، واندفع فوصل البيتين بقوله :

(١) من هنا ينقل ابن الأبار عن المقتبس ، ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢) الأصل : موسى بن موسى .

(٣) المقتبس (ص ٣٥) : إلى أن تأتى .

(٤) الأصل : أمتطرها ، والتصويب من المقتبس (ص ٣٥) وابن الأبار ينقل عن ابن حيان هنا حرفاً بحرف .

فياشرَّ ضيفٍ حلَّ بى ، وحلوله ... يُخَبِّرنى أن المماتَ قريبُ
وأنَّ جديدى كلَّ يومٍ إلى بِلًى ... وأنِّىَ من ثوب الشباب سليبُ
فما طِيبُ عيشِ المرء إلا شبابُهُ ... وليس إذا ما بان عنـــه يطيبُ
سأقريك يا ضيفَ المشيب قِرى القِلَى ... فمالك عندى فى سواه نصيبُ
وأبكى على ما قد مضى من شبيبتى ... بكاء محب قد جفاه حبيبُ
مضى مُسْلِمًا لهفى عليه لمدى المدى ... فليس إلى يوم التنادِ[1] يؤوبُ

فسُرَّ الأمير عبد الله بما أتى به ، وأثنى على قريحته .

وأنشد له أبو عامر السالمى[2] فى كتاب « حلية اللسان وبغية الإنسان » فى التشبيهات من تأليفه :

ليت شعرى كيف يَفْرى لحظُهُ ... من شِغاف القلبِ باللحظِ الأَكَلْ
طَرْفُهُ ساجٍ ، وفيـــه مرضٌ ... كم صحيـــحٍ قد رماه فقتَلْ

---

(١) الأصل : الثناء ، وقد قرأها دوزى : التناء . وصوبناها عن أصلها عند ابن حيان (المقتبس ، ٣٥) .

(٢) أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوىّ السالمى الطرطوشى ، من أهل طرطوشة وسكن مرسية ، وسُمى السالمى لأن أصله من مدينة سالم ، مؤرخ أديب عمر طويلا فى مرسية وتوفى فيها سنة ١١٦٣/٥٥٩ . ترجم له ابن الأبار فى التكملة ، رقم ٧٢٥ ، والضبى فى البغية ، رقم ٣١ . تنسب إليه كتب فى اللغة والأدب والشعر والتواريخ والحديث كما يقول الضبى ، نقل عنه ابن عذارى كلامه فى غزو النورمانيين للأندلس سنة ٨٤٣/٢٢٩ ، وقد نقل دوزى هذه القطعة فى « أبحاثه » ، الطبعة الثالثة ، ص ٢٥٥ ، ونقل المقرى فى نفح الطيب (طبعة أوروبا) ٨٢/١ فقرة من كلامه عن فضائل الأندلس . وينسب إليه من الكتب ، غير الذى ذكره ابن الأبار : « درر القلائد وغرر الفوائد » وهو أكبر كتبه وأكثرها ذكراً فى المراجع ، وكتاب « السلك المنظوم والمسك المختوم » .

انظر : تعليقات جايانجوس على ترجمته الإنجليزية لجزء من نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣١٣ ، وفهرس مخطوطات الإسكريال للغزيرى ٢/ ٤٠ . وذكره حاجى خليفة تحت رقمى ٧٦١٤ و ٩٩٧٥ من طبعة أوروبا وپونس بويجيس ، رقم ١٨٧ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

مَن مُجيرى من رشاً ألحاظُه إنما تُذْكرنى وقعَ الأسَلْ

وقرأت فى تاريخ الُحمَيدى أن صُهيب بن مَنيع — وكان قاضياً بإشبيلية — كان نقْش خاتمه :

يا علياً كل عيبٍ كن رفيقاً بصُهيبِ

وأنه كان يشرب النبيذ — لعله كان يذهب مذهب أهل العراق — فشرب[1] مرة عند / الحاجب موسى بن حُدَيْر — وكانَ من عظماء الدوْلة [١١٧ -أ] الأموية — فلما غفل أمر باختلاس خاتمه ، وأحضر نقاشاً فنقش تحت البيت المذكور :

واستر العيبَ عليه إن فيه كلَّ عيبِ

ورد الخاتم إليه . وختم القاضى به زماناً حتى فطن له .

٩١ — أحمد بن عبد الملك بن شُهيد الوزير ، أبو عمر

هو أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن شُهيد بن عيسى بن شَهيد بن الوَضّاح الأشجعى .

---

(١) الأصل : فشرد ، والتصويب من بغية الملتمس للضبى ، وقد أورد الحكاية بنصها فى كلامه عن صهيب بن منيع (رقم ٨٥٦ ص ٣١٢) .

وترجمة أبى الوليد بن الفرضى لصهيب بن منيع أوفى مما هى عند الضبى ، فقد ذكر فى رقم ٦٠٢ ج ١/١٦٨ أنه يكنى أبا القاسم وأنه من تلاميذ بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح وإبراهيم بن قاسم ابن هلال ومطرف بن قيس وعبد الله بن مسرة ، وأن عبد الرحمن الناصر ولاه قضاء إشبيلية وأنه توفى فى ١٢ رجب ٣١٨ .

وقال الرازى إن جدهم مولى معاوية بن مروان بن الحكم . وكان الوضّاح مع الضحاك بن قيس يومَ مَرْج راهِط . وشُهَيد بن عيسى هو الداخل إلى الأندلس فى أيام عبد الرحمن بن معاوية ، وتصرّف بنوه للخلفاء فى الخُطَط السنية ، من الإمارة والحجابة والوزارة والكتابة ، إلى انقراض الدولة الأموية بالأندلس .

وتصرّف أحمدُ هذا للناصر عبد الرحمن بن محمد فى ولاية الكُوَر والوزارة وقَوْد الصوائف ، وغزا البَشْكُنْس . وهو أول من سُمى بـ « ذى الوزارتين » . وكان من أهل الأدب البارع . حكى الُحمَيدى عن أبى محمد بن حزم بسندٍ ذَكره أن أحمد بن عبد الملك هذا زار عبد الملك بن جَهْوَر الوزير — وكانا جميعاً يخدمان الناصر عبد الرحمن — فوافقه محجوباً ولم يمكنه الاجتماع به ، فكتب إليه :

أتيناك ، لا عن حاجةٍ عرضتْ لنا إليك ، ولا قلبٍ إليك مشوقِ

ولكننا زرنا ـ بضعف عقولنا ـ حماراً تولى برّنا بعقوقِ

فأجابه ابن جَهْوَر بقوله :

حجبناك لما زرتنا غيرَ تائقٍ بقلبِ عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ

وما كان بيطار[1] الشآمِ بموضعٍ يباشر فيه برّنا بخايقِ

وذكرتُ بقول ابن شُهَيد قولَ عبد الملك بن سعيد المرادى الخازن :

ما حمدناك إذ وقفنا ببابكْ للذى كان من طويل حجابكْ

[١١٧–ب] /بل ذممنا الزمانَ فيك وقلنا : أبْعد اللهُ كلَّ دهرٍ أتى بكْ !

(١) عبد الملك بن محمد بن جهور يعير أحمد بن شهيد فى هذا البيت بما يقال من أن جده وضاحاً كان يعمل بيطاراً فى الشام قبل أن يخدم معاوية بن مروان بن الحكم ويدخل فى ولائه .

ولأبى عمر بن شُهَيد :

جريتُ مع العشاق فى حَلْبة الوَجْدِ فقاتهم وضْلى وما عرفوا جهدى
وما نهج العشاقُ فى الحب منهجاً ولا سلكوا إلا السبيل التى أهدِى
وما أضمر العشاقُ فى الوجد غايةً من الشوق إلا وهى من بعض ما أبدى
وما ضعفوا عن حملِ ثقلٍ [.....] [....][1] اضطلعتُ به وحدى
أنا فاتحُ المنهاجِ فى سُبلِ الهوى كما عابدُ الرحمٰن[2] فاتحةُ المجدِ
وخاتمـــةُ العشاق شرقاً ومغرباً كما عابدُ الرحمٰن خاتمةُ الرشدِ

٩٢ — ابنه عبد الملك بن أحمد
الوزير ، أبو مروان[3]

كان على طُلَيْطِلَة لهشام بن الحَكم المؤيد ، ومنها خاطبه مهنئاً بمقتل غالب القائد صاحب مدينة سالم فى خلافه . ومن شعره :

---

(١) بياض بالأصل لم أستطع سده من المراجع التى تحت يدى ، لأن أخبار أحمد بن شهيد هذا قليلة ، ويخلط بعضهم بين أحمد هذا وحفيده أحمد بن شهيد الشاعر المشهور أيام الطوائف ومعاصر ابن حزم .
وليس من العسير سد هذا الفراغ بشىء مثل :
وما ضعفوا عن حمل ثقل [عرفته] [وناءوا به إلا] اضطلعت به وحدى
(٢) المراد عبد الرحمن الناصر.
(٣) عبد الملك بن أحمد بن شهيد نقطة تحول كبير فى تاريخ بنى شهيد ، فبعد الجلالة التى كانت لآبائه منذ أيام عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن الناصر ، نجد عبد الملك بن شهيد وزيراً من وزراء المنصور ونديماً من ندمائه ، بل كان أقرب هؤلاء إليه وأكثرهم اجتهاداً فى مرضاته حتى لقد حاول أن يرقص فى مجلسه رغم سنه العالية ، فتحامل على أصحابه ليسرّ المنصور (راجع نفح الطيب للمقرى ، طبعة أوروبا ، ١/٢٦٠ – ٢٦١ و٢/١٧٧) . وقد ترجم لعبد الملك بن شهيد من الناحية العلمية والأدبية أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال فى الصلة

طلع البـــدرُ علينا فحسبناه « لَبِيبــــا »
والتقينــــا فرأينا هُ بعيـــداً وقريبا(١)

وله :

قصَّرتَ عن شأوى فعاديْتَنى أقْصِرْ فليس الجهلُ من شانى
إن كان [قد] أغناك ما تحتوى بُخْلاً ، فإن الجودَ أغنانى

٩٣ – عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب الوزير ، أبو وهب(٢)

هو عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرءوف بن عبد السلام بن إبراهيم بن يزيد بن عبد الله بن جابر بن عمر بن أيوب ، مولى مروان بن الحَكَم .

=(رقم ٧٥٦ ص ٣٤٩) فذكر كيف أخذ عن قاسم بن أصبغ وأبي الحزم وهب بن مسرة الحجارى ، بل سمع منه ناس أجلاء مثل أبي عبد الله بن عائذ الذى ذكره فى فهرسة شيوخه بكلام كثير وقال إنه كان «أوحد الناس بالتقدم فى علم الخبر والتاريخ واللغة والأشعار وسائر ما يحاضر به الملوك مع سعة روايته للحديث والآثار ، وهو مؤلف كتاب « التاريخ الكبير فى الأخبار على السنين » بدأ فيه من عام الجماعة سنة ٤٠ وانتهى إلى أخبار زمانه المنقطعة بوفاته رحمه الله ، وهو أزيد من ١٠٠ سفر . كانت صحبتى له نحو عشرة أعوام أوفوقها ، إذ كان مجاوراً لنا بمنية المغيرة لما استقرب المنصور رحمه الله لقاءه بإسكانه فى منية النعمان بالناحية المذكورة » ، ثم ذكر – روايةعن ابن الفرضى – أنه توفى ليلة الأحد ٤ ذى القعدة ٢٣/٣٩٣ سبتمبر ١٠٠٤ . وكانت منيته من ذبحة أصابته . وكان فى السبعين من عمره لما توفى .

(١) الأصل : قريباً وبعيداً .

(٢) فى هذا الفصل يورد ابن الأبار موجزاً طيباً جداً لتاريخ ذلك البيت الأندلسى الكبير الذى عرف افراده ببنى عبد الرءوف ، وكانوا من الظاهرين بين الشاميين من موالى الأمويين .

وزيادة فى التوضيح جعلت لكل رجل من رجال البيت فقرة خاصة . وقد نسب البيت إلى عبد الرءوف ، ولو أنه لم يكن الجد الأعلى ، ولكنه أول من وصل إلى الوزارة من أفراده .

وكان عبد الله بن جابر قاضياً لعمر بن عبد العزيز بالشام ، ودخل الأندلسَ من عقبه عبدُ السلام بن إبراهيم وأخواه أبو المفوز وعُقْبة فتناسلوا بها ، وخدموا الخلفاء وتصرفوا فى الولايات .

وحكى أبو بكر الرازى أن عبد السلام ولد اثنى عشر ولداً . قال : وكان أميناً(١) للأمير عبد الرحمن بن معاوية بكورة إلبيرة ، ويكنى أبا الدِّلهاث .

وولّىَ ابنهُ عبد الرءوف / طليطلةَ وما والاها للأمير عبد الرحمن بن الحَكَم سبعةَ أعوام ، وتصرف فى كثير من الكُوَر ، ثم استوزره فى أخريات أيامه . واستوزره أيضاً الأميرُ محمد بن عبد الرحمن ، وتوفى وهو وزير . [١١٨-١]

وولّىَ عبدُ الوهاب بن عبد الرءوف الكورَ المجندة وغيرها ، أيامَ الأمراء محمد وابنيه المنذر وعبد الله ، وتوفى بإشبيلية وهو عامل عليها .

وولّىَ محمدُ بن عبد الوهاب كورةَ جَيّان ومات بها .

وتصرّف عبدُ الوهاب بن محمد هذا لأمير المؤمنين الناصر عبد الرحمن بن محمد فى الولايات والأمانات ، ثم استوزره . وذكره أبو بكر الزبيدى فى كتاب « طبقات النحويين » من تأليفه ، وقال : كان بصيراً بالعربية ، طالع كتاب سيبويه ونظر فيه . وكان ذا كِبْر عظيم وبأوٍ مفرط ، ويُظهر مع ذلك زهداً .

---

(١) الأمين هو المتولى شؤون المال فى الكورة ، فهو الذى يقوم بجباية الضرائب المختلفة واستنزال نفقات الموظفين والأعمال العامة ورواتب الجند ، وإرسال الباقى (وكان يسمى « الفائض » أو « المستفاض ») إلى الإدارة العامة بقرطبة ، وكانت هذه الإدارة مجموعة من المبانى ملحقة بالقصر يُدخل إليها من باب يسمى بباب السُّدّة ، ولهذا عرفت كلها باسم باب السدة ، وكان يتبع الأمين عدد كبير من الجباة والحُسّاب والمشرفين (جمع مشرف) وهم أشبه بالمفتشين الماليين . وقد يسمى الأمين خازناً أيضاً ، ولو أن هذه التسمية تختص فى الغالب بالمتولى لشؤون المال فى قرطبة ، فيقال الخازن والمراد به شىء شبيه بوزير المال . وقد جرت العادة بألا يقتصر على خازن واحد ، بل نجدهم فى الغالب ثلاثة يسمون الخُزّان أو الخَزَنة .

والأمين هنا غير الأمين بمعنى نقيب أهل حرفة من الحرف .

ووَلِىَ الوزارة ، فكان لا يزال يورد على أصحابه من الوزراء مسائلَ من عويص النحو ، حتى بَرِموا به واستعفَوْه من ذلك . وهو القائل ، وكان سِنَاطاً :

ليس بمن ليست له لحيةٌ بأسٌ ، إذا حَصَّلته ، لِبْسَا[1]
وصاحبُ اللحيةِ مستقبَحٌ يشبه فى طلعته التيسا
إن هبتِ الريحُ تلاهتْ بهِ وماستِ الريحُ به مَيْسا

وله :

قتلتْ عيناكَ عبدَكْ قبل أن تقضىَ وعدَكْ
خُلتَ عن عهدِ محبٍ لم يزل يحفظ عهدَكْ
ما لأفعالك [...] [...] لا تشبه ندك[2]

وله :

إذا ما بدا يُغْشِى العيون بسُنةٍ منافية تُغنِى عن الشمس والبدرِ
ووجهٍ إذا ما الأنجمُ الزُّهْرُ أبصرتْ محياه ظنته من الأنجم الزُّهر

وله :

أحوَذِىٌّ فى مجده أوْحَدِىٌّ ليس يُحكَى سناؤه وسَناهُ
من رآه فقد رأى الغيثَ والليثَ جميعاً فى بأسه ونداهُ
يستميل العيونَ منه رواءٌ ترتوى من حيائه وحياهُ[3]

---

(١) أورد نفس الأبيات أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى فى « طبقات النحويين واللغويين » ، بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٣٢١ . وقد وردت كلمة لبسا فى الأصل لبْسَا ، وهكذا قرأها دوزى ، فصوبتها على أصلها عند الزبيدى .

(٢) البياضان بين المعقوفات واردان بالأصل . وقد وردت « ندك » دون نقط .

(٣) الأصل :

يستميل منه العيون رؤى وترتوى من حيائه وحياه

وهو غير واضح ووزنه غير مستقيم . وقد صوبه دوزى (ص ١٣٠) كما أثبتناه .

إن بدا خِلتَ أنه قمرُ الأر ض وصِنْواه حولَه كوكباهُ

[وله :][1]

/ ليهنى النـاسُ فى مُلـكه[2] أن ابنَه التاسعُ من بَعدِه[3] [١١٨ ـ ب]
يقوم فى المُلك مقاماتِه ويحتذى فيها على قصده
أوتى حكماً فات فيــه الورى فـكاد أن ينطق فى مهده
حُمِّل أعباء العُــلَى فاكتفى عفواً ولم يبلغ إلى جهــده

ودخل يوماً على عبد الملك بن جَهْوَر الوزير فأقعده إلى جنبه ، ومال إليه بحديثه ، ثم دخل الخرُّوبى[4] فأقعده فوقه ؛ فخرج أبو وهب مغضباً وكتب إليه :

بلوتُك أسْنَى العالَمِين وأفضلا وأهذبَ فى التحصيل رأياً وأ كملا
فقل لىَ : ما الأمر الذى صار مُخْمِلى لديك فأضحى مُسقِطاً لىَ مُخْملا ؟

---

(١) أضفتها لسياق الكلام . (٢) هذا الشطر غير مستقيم الوزن .

(٣) هذه الأبيات – كما هو واضح – تهنئة لعبد الرحمن الناصر بابنه الحكم ولى عهده ، والحكم بالفعل هو تاسع أمراء وخلفاء البيت الأموى الأندلسى .

(٤) محمد بن عبد الله الخروبى من كبار رجال « التدبير » أى الإدارة المدنية أيام عبد الرحمن الناصر ، فقد ولاه فى أول سنة لإمارته (سنة ٣٠٠ هـ) خزانة السلاح مع العَقل ، مشتركاً فى خزانة السلاح مع حسين بن أحمد الكاتب (ابن عذارى : ١٥٩/٢) ، وفى السنة التالية ولاه خطة العَرض مع آخرين (ابن عذارى : ١٦٤/٢) ، وفى سنة ٣١٠ رقاه إلى ولاية المدينة أياماً يسيرة(نفس المرجع : ١٨٣/٢)،وفى سنة ٣١٣ ولاه خزانة السلاح منفرداً بها (نفس المرجع : ١٩١/٢) ، ثم تولى خطة صاحب المدينة سنة ٣١٤ ، وفى هذه الوظيفة مات فى أول صفر منها .

وكان لمحمد الخروبى أخ يسمى أحمد بن عبد الله الخروبى تولى خطة العرض سنة ٣١٠ أيام الناصر (ابن عذارى: ١٨٣/٢) . وكان له ابن يسمى عبد الله بن محمد بن عبد الله الخروبى تولى فى حياة أبيه بعض الوظائف الصغيرة .

و« العَقل » المذكور فى هذا التعليق خطة ، أى وظيفة مالية ، وتسمى « الاعتقال » أيضاً ، اختصاصها الحياطة على أموال المتوفين أو الغائبين أومن تطالبهم الدولة بأموال حتى يتم الفصل فى أمرها . والإشارات قليلة فى النصوص عن هذه الخطة .

تُقدِّم من أضحى تقــدَّم لومُهُ ... لقد ضل هذا من فمالك مشكلا
وما كنت أرضى ـ يعلم الله ـ أننى ... أساويه فى الفردوس داراً ومنزلا
فإن كنتَ قد قصرتَ بى عن محلتى ... صبرتُ ، وما زال التصبر أجملا
ورحت على الدهر المليم ألومهُ ... فقد هيض أعلاه وغودر أسفلا
وكنتَ جديراً فى كمالك أن ترى ... لمثلى نصيباً من ودادك أجزلا

فأجابه عبد الملك بأبيات منها :

غَدرتُك[1] ، إلا أنَّ فَرط محبتى ... وإخلاصَ ودى سهَّلا لى التدلُّلا[2]
ظلمتُك فيما كان منىَ مجمَلاً ... على غير تحصيلٍ وعاتبتَ مجملا
تقربتَ من قلبى ، وإن كنتُ آخِراً ... وأُخِّرَ عن قلبى ، وإن كان أوَّلا
وما أجهلُ القدْرَ الذى أنتَ أهلُهُ ... ولا شرفاً أضحى عليك مظلَّلا
فإن عنَّ[3] تقصيرٌ بغــير تعمُّدٍ ... فغَطِّ عليــه منعِماً متطوِّلا

[١١٩-١] ٩٤ ــ أخوه/غالب بن محمد بن عبد الوهاب ، أبو عبد السلام

وَلى خطة العَرض ، وكتب للحَكم وهو ولى عهد فى حياة أبيه الناصر ؛ ذكر ذلك الرازى . وأنشد له صاحب « الحدائق » :

---

(١) يريد : ظلمتك .

(٢) يريد : جعلا لى دالة عليك .

وورد هذا اللفظ عند الزبيدى (ص ٣٢١) : التذللا ، ورواية ابن الأبار أصح . وهناك خلافات أخرى بين النصين لا تغير المعنى ، فلم نر الإشارة إليها ، فيما عدا لفظ « ضل » فى الشطر الثانى من البيت الثالث ، فقد ورد عند الزبيدى : ظل ، وهو أحسن .

(٣) الأصل : عز ، والتصويب من الزبيدى (ص ٣٢٢) وقد أسقط ابن الأبار هنا أبياتاً وردت عند الزبيدى .

جُفون هَمَتْ مذ غاب عنها حبيبُها ونفسٌ بها للشوق نارٌ تُذيبُها
تيقَّنْتُ إذ ودَّعْتها أن مهجتى سيقضى عليها شوقُها ونحيبُها(١)
شققتُ جيوبى يوم بانتْ ، وطالما أطالَ عذابى ما طوتْه(٢) جيوبُها
وللحب حالاتٌ تمرُّ خطوبُها إذا قُرنت بالبَيْن تحلو(٣) خطوبُها
معذِّبتى ، لا تأسفى ، فلعلَّها تعـــود ليالينا القصارُ وطيبُها
ألا ليتَ نفْسى تستطيع فداءها ويا ليتَها من كل خيرٍ نصيبُها
يعيبونها عمداً لأسلوَ ذِكرَها وما عاب إلا نفسَه من يعيبها

٩٥ — جهور بن عبيد الله بن أبي عبدة
الوزير ، أبو الحَزْم

قال أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، فى تأليفه فى الأنساب المسمى بـ « الاستيعاب » : الوزير جَهْوَر بن عبيد الله هو جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغَمْر بن يحيى بن عبد الغافر بن حسان بن مالك بن عبد الله بن جابر(٤) .

---

(١) الأصل ودوزى (١٣٢) : نجيبها .

(٢) قرأها دوزى (١٣٢) : ضوته .

(٣) قرأها دوزى (١٣٢) : يحلو.

(٤) هنا أيضاً يوجز ابن الأبار تاريخ بيت ثان من بيوت الموالى الشاميين ، وهو بيت أبي عبدة الذى تفرع عنه فيما بعد بيت بنى جهور.

وقد كتب اسم حسان بن مالك ، حسان بن ملك ، والأول أصح بحسب ما نعلم ، وقد صوبت كتابة الاسم كما كتبه ابن الأبار نقلا عن أحمد بن محمد الرازى ، وإلى أن نعثر على كتاب الرازى لا نستطيع القطع بالصورة الصحيحة للاسم .

وبيت بنى عبدة هو بيت حسان بن مالك . الداخل إلى الأندلس سنة ١١٣ / ٧٣١ ومن نسله جاء جهور بن عبيد الله بن محمد .

وكان عبد الله مملوكاً لمروان الحَكم ، أبلى يومَ وقيعة مَرْج راهِط بلاءً حسناً فأعتقه .

والداخل من أجداد هذا الوزير حسان بن مالك ، وهو أبو عبدة . وكان دخولُه سنةَ ثلاث عشرة ومائة ، قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية بخمس وعشرين سنة . وولد حسان بالمشرق أولاداً قُتلوا ، إلا عبد الغافر لصغره ، فنشأ مع عبد الرحمن بن معاوية ، وتأدب معه بالمشرق . ولما قدم بدرٌ مولى عبد الرحمن بخبره إلى مواليه الشاميين ، استراح به إلى أبى عبْدة[1] ، فوجّـــه ابنَه عبد الغافر إليه[2] .

فلما توطد عبد الرحمن ، استوزر أبا عبدة واستقوده ، ثم استعمله على [١١٩-ب] إشبيلية قائداً بها ، ومضيقاً على أهل باجة وغيرها ، فملك الغرب أجمع/ خمسةَ أعوام ، إلى أن توفى بإشبيلية ؛ وقبره بها[3] .

= ابن الغمر وبعد جهور بن عبيد الله يصبح الاسم الغالب على البيت بيت بنى جهور ، ومن هذا البيت ينحدر أبو الحزم بن جهور الذى تولى أمر قرطبة بعد إلغاء الخلافة الأموية سنة ٤٢٣ / ١٠٣١ ومن هنا جاء الخلط بين هؤلاء الجهاورة والجهاورة المنحدرين مِنْ يوسف بن بخت من موالى عبد الرحمن الداخل .

(١) أى أن بدراً عندما عبر إلى الأندلس من المغرب حاملا إلى الموالى الشاميين خبر وجود عبد الرحمن بن معاوية عند قبيلة نفزة على مقربة من طنجة ، وأنه يرغب فى العبور إلى الأندلس ويرجو عونهم ، أفضىَ بدر بالخبر أولا إلى حسان بن مالك المعروف بأبى عبدة .

(٢) أى أن أبا عبدة حسان بن مالك أرسل ابنه عبد الغافر إلى عبد الرحمن فى ملجئه عند قبيلة نفزة ليطلعه على أحوال الأندلس ويؤكد له استعداد الموالى لتأييده .

(٣) كانت إشبيلية وما يليها من غرب الأندلس ، وأكبر مدنه إذ ذاك باجة وماردة وقورية ، من مراكز الثورة الكبرى على عبد الرحمن الداخل ، وقد اجتهد هذا فى القضاء عليها وتمهيد أمور الغرب طوال إمارته كلها . وقد تزعم الثورة فى إشبيلية عبد الغافر اليمانى رأس العرب اليمنية ، وفى باجة العلاء بن مغيث الجذامى ،وكان قد لجأ إلى الدعوة العباسية ونادى بها ، وقد تمكن ، عبد الرحمن من القضاء على عبد الغافر وإرغامه على الهرب إلى المشرق حوالى سنة ١٤٥ ، وقتل العلاء بن مغيث بعد معركة عنيفة سنة ١٤٦ ، وولى عليها عبد الرحمن زعيما يمنياً هو أبو الصباح ابن يحيى اليحصبى ، فثار عليه ، وتمكن عبد الرحمن من القضاء عليه أيضاً سنة ١٥٠ . وأما لبلة فقد ثار فيها يمنى آخر هو سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى ، واتسع مدى ثورته حتى استولى على إشبيلية ، وقد تمكن عبد الرحمن من القضاء عليه وقتله سنة ١٤٩ . =

وتصرف عبدُ الغافر فى الوزارة للإمام عبد الرحمن ، وبَرِئ(١) إليه بخاتمه ، إلى أن مات .

قال : وأما عبيد الله بن محمد بن الغَمْر ، فإنه تصرَّف فى الكُوَر وحِجابة الأولاد والمدينة والخيل والكتابة والقيادة ؛ وقد تقدم ذكر ذلك .

قال : وتصرَّف جَهْوَر بن عبيد الله فى الكُوَر والأمانات والقيادة والمدينة والوزارة للناصر .

وقال غيره : كان عبيد الله والد أبى الحزم هذا — مع تحققه بالمعرفة والأدب والبلاغة — ذا بأس وشجاعة وغناء فى الحروب ، وله فتوح جمة ومَقَاوِم حميدة . واستأذن الأمير عبد الله بن محمد فى آخر دولته لقضاء فريضة الحج فأذن له ، وحج ثم انصرف إلى قرطبة فانقبض عن السلطان ، وأخلد إلى الخمول ، وأقام على حاله تلك فى داره إلى أن توفى سنة ست وتسعين ومائتين ، آخرَ أيام الأمير عبد الله .

وتصرف ابنهُ جَهْوَر بعدَه — فيما ذكره الرازى — وكان شاعراً مكثراً ؛ فمن شعره قوله من أبيات فى تفضيل الورد ، وكأنه يرد بها على ابن الرومى(٢) :

= وهذا الخبر الذى يورده ابن الأبار عن تولية أبى عبدة حسان بن مالك قائداً فى إشبيلية والغرب كله يفسر لنا سبباً من أسباب انتصار عبد الرحمن على هذه الثورات كلها .

(١) الأصل : بَرَى ، وقرأها دوزى (ص ١٣٣) : رمى .

(٢) كان لقصيدة ابن الرومى فى تفضيل الورد ومطلعها :

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا ، توردُها عليه شاهد

صدى بعيد عند شعراء الأندلس ، وقد أورد أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى فى « البديع فى وصف الربيع » (ص ٧٠ وما يليها) طائفة من ردود الأندلسيين عليه ومحاولاتهم مضاهاته ، مثل قصيدة أبى عثمان سعيد بن فرج الجيانى ومطلعها :

عنى إليك ، فما القياسُ الفاسدُ إلا الذى أدى العيانُ الشاهدُ

وقصيدة أبى بكر بن القوطية التى مطلعها :

كُسفت خدود النرجس المصفر من حسدٍ ، وقد يَدْوى العدو الحاسد =

خضعت نواويرُ الرياض لحسنه ... فتذلّلت تنقاد وهى شواردُ
وإذا تبدّى الوردُ فى أغصانه ... ذأّتْ[1] ، فذا ميتٌ وهذا حاسدُ
وإذا أتى وفد الربيع مبشِّراً ... بطلوع صفْحته فنعم الوافد
ليس المبشِّر كالمبشَّرِ باسْمِهِ ... خبرٌ عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرّى الوردُ من أوراقهِ ... بقيتْ عوارفُه فهنّ خوالد

وله :

يا عاتباً لى بالصـــــدو ... دِ ألا ذكرتَ قبيحَ غدْرِكْ ؟
أخليتَ من قلبى مكا ... ناً كان معموراً بذكْرِك
وأنا أحبكَ لو وثِقْـ ... ـت وأستديمُ بقاءَ عُمرِك

وله :

[١٢٠-١] /يا لائماً والـــــظلمُ مِنْـ ... ـهُ ظاهرٌ لى والفظاعهْ
كم قد ضرعتُ وقد سمعـ ... ـتَ فما لويتَ إلى الضراعه
فلئن رجعتَ كما علمْـ ... ـتُ لأقطعنْ فيكَ الجماعه
ومتى لججتَ على الأذى ... جازيتُ فملّك فىّ صاعَهْ

وله :

أسأتَ ــ لَعَمرى ــ إذ أسأتَ بى الظنّا ... وألزمتَنى ذنباً شَغلتَ به الذهنا
تجنيتَ فى عَذْلى كأنىَ مذنبٌ ... رُويدكَ ، إن العذلَ قد يوجب الشحْنا
فلا تتجنَّ الذنبَ من غير علةٍ ... فرب تجنٍّ يورث الحقدَ والضِّغنا

ــ ولم يشر فى هذا الموضع إلى أبيات أبى الحزم جهور بن عبيد الله ، وهى من طائر الشعر فى الأندلس ، وقد رواها معظم مراجعنا .

(١) جعلها دوزى (ص ١٣٤) : يزهو ، وقد أخذ ذلك عن « مطمح الأنفس » لابن خاقان (طبعة الجوائب ، الآستانة ١٣٠٢) ص ١٥ .

وإني امرؤٌ محضُ المودةِ مخلصٌ ... أصافي خليلي بالذي هو بي أسْنى
وإن [زَلَّ][1] يوماً في ودادي أقلته ... وقارضتُه في ذاك[2] بالصحبة الحسْنا
وهل لي ـ فَدَتْكَ النفسُ ـ دونَكَ راحةٌ ... وأنت شقيقُ النفس والأقربُ الأدنى ؟
فثق بي ، ولا تعجل عليَّ ، فإنني ... أدين بما ترضى ، وأعنَى بما تعنَى
ولا ذنب لي ـ فيما علمتُ ـ ولم أكن ... لأصغى إلى الواشين في قيلهم أذْنا

وله :

انظر إلى محنِ الزما ... ن تزِدْكَ في الدنيا اعتبارَا
واسمــع لنعى الذاهبيـ ... ـن وكن كواحدهم حذارا
واعمــل بجد الخائفيـ ... ـن ولا تنم إلا غرارا
واعلم بأنك لاحــقٌ ... من قد كرهتَ له جوارا
إن الليالى ما فتئـ ... ـن تُكدِّر العيشَ المُعارا
وتفرِّق الشَّملَ الجميـ ... ـعَ وتجلِبُ الأمرَ الضِّرارا
فحوادثٌ فيهـا استلبْـ ... ـنَ أخاً دَعَوْنَ به فسارا
/رزئ إلى جنبٍ اغترا ... بٍ أرَّثا في القلب نارا [١٢٠ـب]
وفجيعةٌ سَلَفَتْ وكا ... نت محنةً لى واختبارا
بأخٍ شقيقٍ ما أطيـ ... ـقُ على رزيَّتِه اصطبارا

(١) سقطت من الأصل كلمة فى هذا المعنى والوزن ، وقد اقترح زيادتها دوزى (ص ١٣٥ هامش ١) . ولم يترك الناسخ بياضاً .

(٢) جعلها دوزى : « ذلك » ولا يستقيم بها الوزن ، ومن الغريب أنه يتنبه إلى انكسار الوزن فى الشطر الأول ، ويضيف ما يقيمه ، ثم يسيء قراءة الشطر الثانى ويثبت ما يكسر وزنه .

ومنها :

اصبرْ فلستَ ترى على أحدٍ حماه الصبرُ عارا
فالصـــبرُ أنفعُ ذُخرةً لو كنتُ آتيه اختيارا

أنشد أبو نصر الفتح بن عبيد الله الإشبيلي في كتاب « مطمح الأنفس ومسرح التأنس في محاسن أهل المغرب والأندلس » من تأليفه أكثر هـذه الأبيات والتي قبلها ، ونسبها لأبي الحزم جَهْوَر بن محمد بن جَهْوَر رئيس قرطبة المتأخر غلطاً منه ووهماً لا خفاء به ، وإنما هي لجده جَهْوَر بن عبيد الله هذا المذكور هنا . ثم أعقب غلطَه بغلط آخر أفحش منه ، فأورد أبياتاً لابن فرج فيه يرثيه ، وأتى بعد ذلك برثاء ابن زيدون فأفرط[1] وخلط ، وألحقَ بالباطل الحقَّ . أما ابن زيدون فرثاؤه لأبي الحزم الأخير صحيح غير معترض ، وأما ابن فرج فموته من مولده مقتربان[2] ، عَمْرَكَ الله كيف يلتقيان ؟ وُلد جَهْوَر بن محمد[3] سنة أربع وستين وثلاثمائة في المحرم ، وتوفي ابن فرج إثر وفاة الحكم المستنصر بالله في صفر سنة ست بعدها . وللفتح أيضاً غلط ينضاف إلى ما تقدم في نسبة بيتين لأبي الحزم هذا ، وأنشدهما الحُمَيْدي لجَهْوَر بن محمد التجيبي أبي محمد المعروف بابن الفَلُوِّ ، وهو الصحيح — لأنه ذكر أنه شاهده بالمرية وكتبهما من شعره — وهما :

قلتُ يوماً لدار قومٍ تفانوا : أين سكانُكِ الكرامُ عَلينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلاً ثم ساروا ، ولستُ أعلمُ أينا

(١) الأصل : ءا. . .ط .
(٢) أي أن تاريخ مولد ابن فرج قريب من تاريخ وفاة أبي الحزم بن جهور.
(٣) يريد أبا الحزم بن جهور.

ولم يلق الحُمَيْدى أبا الحزم فيما علمتُ ، وإن كان عاصره . ولعل الفَتْحَ من كتابه استفاد هذين البيتين . واشتباه الأسماء جرَّ هذا الخلل ، وعدمُ المبالاة بضبط الموالد والوفيات كثيراً / ما يوجد الزلل[1] . وسيأتى ذكر أبى الحزم [١٢١-١] الأندلسى الأخير فى المائة الخامسة مستوفًى إن شاء الله عز وجل .

---

(١) هذا مثل طيب جداً من تدقيق ابن الأبار وقدرته على استدراك الأخطاء . فأبونصر الفتح بن عبيد الله الذى يذكره هو ابن خاقان ، وهو أقرب عهداً إلى ما يتحدث عنه ابن الأبار ، وكان حرياً ألا يقع فى الأخطاء التى أشار إليها هذا الأخير . وقد رجعت إلى نسخة «مطمح الأنفس» التى بين أيدينا (طبعة الجوائب ، سنة ١٣٠٢) فلم أجد من الأبيات التى ذكرها ابن الأبار إلا قصيدة الورد منسوبة إلى أبى الحزم جهوربن محمد بن جهور ، وقد بدأها ببيت لم يذكره ابن الأبار وهو :

الورد أحسن ما رأت عينى وأذ كى ما سقى ماءُ السحاب الجائد

وقد أعقب ابن خاقان مادته عن أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور بمادة عن «ذى الوزارتين أبى الفرج» ولم أستطع التعرف على أبى الفرج هذا الذى لا يكتب عنه ابن خاقان إلا بضع سجعات لا تقدم ولا تؤخر ، بل هو يسميه فى أثنائها أباعامر.

وواضح أن نسخة «المطمح» التى بين أيدينا إنما هى الصغرى ، وكان معتمد ابن الأبار على الكبرى أو الوسطى من نسخ المطمح التى كتبها ابن خاقان . وابن الأبار يشير هنا دون شك إلى أبى عمر أحمد بن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق ، فهو الذى توفى سنة ٩٧٦/٣٦٦ .

وقد فرّق أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبى فى بغية الملتمس بين جهور بن عبيد الله ابن أبى عبدة وحفيده أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور تفريقاً واضحاً ، واختص كلا منهما بمادة (رقم ٦٢٣ ص ٢٤٣ ورقم ٦٢٥ ص ٢٤٤) .

أما جهور بن محمد التجيبى المعروف بابن الفَـلُّو فقد ذكره الضبى تحت رقم ٦٢٤ (ص٢٤٤) ونسب إليه البيتين اللذين ذكرهما ابن الأبار . ومن المعروف أن الضبى نقل كتاب جذوة المقتبس للحميدى حرفياً تقريباً . وترجم ابن بشكوال فى الصلة (رقم ٢٩٧ ص ١٣٢) لأبى الحزم جهور بن محمد بن جهور ، أى الحفيد ، دون الجد . وذكر أنه ولد أول المحرم سنة ٣٦٤ وتوفى فى ٢٣ محرم ٤٣٥ .

وترجم كذلك لجهور بن إبراهيم بن محمد بن خلف التجيبى ، وقال إنه أيضاً يكنى أباالحزم وأنه من أهل مورور ، ورحل إلى المشرق للقاء الشيوخ وقال إنه لقيه فى إشبيلية وأجاز له مارواه عنهم . «وكان رجلا فاضلا منقبضاً مقبلا على ما يعنيه ، وتولى الصلاة بموضعه . . وتوفى ببلده سنة ٥٢٦»

٩٦ ـ أخوه محمد بن عبيد الله

هو أسنُّ من أخيه جَهْوَر ، وجَهْوَر أشهر منه ، وتصرّف محمد هذا فى السكُوَر والقيادة — قاله الرازى . وأنشد له الحُمَيْدى يخاطب أبا عُمر ابن عبد ربه :

أعِدْها فى تصابيها خداعا[1] فقد فُضَّتْ خواتمها نزاعا
قلوب يستخِف بها التصابى إذا أسكَنْتَها[2] طارت شعاعا

فأجابه :

حقيقٌ أنْ يُصاخَ لكَ استماعا وأن يُعصَى العذولُ وأن تُطاعا
متى تكشِفْ قِناعَكَ للتصابى فقد ناديتَ من كشفَ القناعا
متى يَمْش الصديقُ إلىّ فِتْراً مشيتُ إليه — من كرمٍ — ذراعا
فجدِّدْ عهدَ لهوِكَ حين يَبْلَى ولا تُذهِبْ بشاشَته ضياعا

٩٧ ـ عبد الرحمن بن بدر بن أحمد

كان بدر[3] وصيفاً للأمير عبد الله ، فأعتقه وصرّفه فى الخطط الشريفة .

---

(١) قرأها دوزى أيضًا (١٣٧) : جذاعا . والمراد : أعدها هيئة شابة .

(٢) فى الأصل : سكنتها ، وقد صوبتها للوزن والمعنى . أما دوزى فقد جعلها : سكنت لنا .

(٣) هو بدر بن أحمد الصقلى وصيف الأمير عبد الله ، وقد سبقت الإشارة إليه . ومن الغريب أن يوصف بدر فى المراجع بالخصى ويكون له رغم ذلك ابنان : عبد الرحمن هذا =

ثم ولاه الناصرُ الوزارةَ والحجابة والقيادة والخيل والبُرُد ، وكان ينفرد بالولايات فتُكتب السجلاتُ فى داره ، ثم يبعثها للطبع فتُطبع[1] وتُخرج إليه ، فيبعث فى العمال وينفذون على يديه . ووَلِىَ عبدُ الرحمن هذا الكتابةَ والوزارة والعرض والخزانة للناصر ، وصرفه فى عمارة[2] كورة إشبيلية . ومن شعره :

لسانى كان من أعــداء قلبى إذ أُلزِمه الذنوبَ بغير ذنبِ
إلى من أشتكى عَدْوَى اعتذارٍ أمَرَّ مــذاقَتَىْ طَعمى وشربى
وأسهرَ مقلتى وأسال دمعى لفرط الوَجدِ ، سَكْباً بعدَ سكبِ ؟

وله :

يا وردةً وسْــطَ روضةٍ سَفَرَتْ لو رُمتُهـــا باللِّحاظ لانتثرتْ
ودرةً فى الجمال مُفرَغــةً لولا حجابٌ يُكِنُّهـا بَهَرتْ
/دَعْ كبدى فى الضلوع آمنــةً وخُـــذ جفونى فإنها نظرتْ [١٢١-ب]

=وعبد الله . وكان عبد الرحمن الناصر عندما تولى الإمارة رقى بدراً إلى الحجابة -أى رئاسة الوزراء- ثم أجرى رزقا - أى قدر مرتباً - لكل من عبد الرحمن وعبد الله قدره ٣٠ ديناراً وازنة . وبعد ذلك بقليل ولى عبد الرحمن بن بدر خطة الخيل ، وفى نفس السنة (رمضان ٣٠٠) استخلف عبد الرحمن بن بدر مع موسى بن محمد بن حدير صاحب المدينة على القصر عندما خرج فى حملته على ناحية جيان ، وفى سنة ٣٠٢ عزل عبد الرحمن عن خطة الخيل ، ثم تنقل فى الوظائف بعد ذلك ، وكانت آخر وظيفة تولاها حكومة إشبيلية .

والراجح أن ابن حيان خلط بين بدر بن موسى - وكان مولى خصياً عاش وخدم أيام عبد الرحمن الناصر وظهر اسمه أواخر أيامه - وبدر بن أحمد . فقد كان بدر بن أحمد هذا فحلا لا خصيا ، كما هو واضح .

(١) أى يرسلها إلى باب السدة لتختم بخاتم الدولة ثم ترد إليه ليرسل بها إلى العمال ليقوموا بالتنفيذ تحت إشرافه .

(٢) كذا فى الأصل . والأصح هنا : عمالة ، وهى آخر الوظائف التى تولاها عبد الرحمن ابن بدر بن أحمد . ولا بأس هنا كذلك بلفظ عمارة .

٩٨ — إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد، أبو بكر

كان مولى نعمة لبنى أمية ، ووَلِىَ إشبيليةَ للناصر عبد الرحمن بن محمد ، وكان أثيراً لديه ، ومنادماً له ، وعاش إلى أول دولة ابنه الحكم المستنصر بالله . وقد حُمل عنه الحديث لسماعه من بَقِيّ بن مخلد والخُشَنى ومحمد بن وَضّاح وطبقتهم ، فاحتاج إليه الناس — ذكره ابنُ الفرضى فى تاريخه ، وذكر أن صناعة الشعر غلبت عليه[1] ؛ وهو أحد المكثرين . أنشد له ابن فرج فى «كتاب الحدائق» من تأليفه :

وذى لَجَبٍ كالبحر عبَّ عبابُهُ ... فضاق به رحبُ الفلا والتنائفِ
قريبُ الخُطَى ، نائى المدى ، مالئُ الملا ... بجمعٍ تراه واقفاً غيرَ واقفِ
تركنا به أرضَ العدو كأنها ... مجاهل للمرتاد غيرَ معارفِ
غدت بعد سَحْب البيض فيها ذيولها ... تجرّ ذيول الطامسات العواصفِ

وله فى الناصر :

لو كان يُعبَد دونَ الله من أحدٍ ... ما كان غيرُك فى الدنيا بمعبودِ
قد فات قدرُك وصْفَ الواصفين فما ... ذكراك إلا بتحميدٍ وتمجيدِ
لما ذكرتُك يوماً قلتُ من جذلٍ : ... يا نعمةَ الله فى أيامه زيدى !

(١) ذكر ابن عذارى (١٥٩/٢) أن عبد الرحمن الناصر ولى إسماعيل بن بدر كتابته الخاصة فى ربيع الآخر ٣٠٠ . أما ترجمة ابن الفرضى له فهى رقم ٢١٤ ج ٦٢/١ ، وقد أضاف إلى ما رواه عنه ابن الأبار أنه ولى أحكام السوق فحُمد أثره فيها وتوفى فى أول ولاية المستنصر بالله سنة ٣٥١ .

وذكر ابن الأبار شيوخه ومنهم بقى بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الخشنى ومحمد بن وضاح ومطرف بن قيس وعبد الله بن مسرة وعبيد الله بن يحيى.

وله فى بيعة المستنصر بعد وفاة أبيه الناصر :

لئن غربت شمسٌ لقد طلعتْ شمسُ　　فما فى صلاح الأرض رَيبٌ ولا لَبْسُ
بمستنصرٍ بالله دانَ لمُلكِهِ　　وأيامِـــه الميمونة الجنُّ والإنسُ
تولَّى أميرُ المؤمنـــين فأصبحوا　　وما بينهم نجوى بعَدْوى ولا همْس
فلا سُقيتْ أرضٌ بغيرِ سحابِهِ　　بِلالاً ، ولا سُرَّتْ لساكنها نفس
وإن شد حِلسٌ لا يكونُ ثيابُهُ　　فلا نهضت يوماً بمن شده عَنْس

[١٢٢-١] / وأنشد له الحُمَيْدى عن أبى محمد بن حزم :

أناجى حُسنَ رأيك بالأمانى　　وأشكو بالتـــوهُّم ما شجانى
ولى بـ«عسى» و «لو» و «لعل» رَوْحٌ　　ينفِّسُ عن كئيب القلب عانِ
ومَحْضُ هوًى بظهر الغيبِ صافٍ　　ترى عيـــنى به من لا يرانى
على ذاك الزمانِ — وإن تَقفَّى —　　ســـلامٌ لا يَبيدُ على الزمانِ
كفانى — يامدى أملى — بعادٌ　　تمنيتُ المماتَ له ، كفانى

وله يرثى ابنه :

غرستُ قضيباً زعزعته يدُ الرَّدى　　فخلوا دموعَ العين تبكِ على غرسى
وهــذا حَمامُ الأيكِ يبكى هَديلَه　　فما لهديلى لا تذوبُ له نَفْسى ؟

وله فيه :

ما حُزنُ يعقوبَ على يوسفٍ　　أشـــد من حزنى على أحمدِ
أحمدُ ملحودٌ ، فهل نستوى　　وذاك لم يُقبَر ولم يُلحَدِ ؟
وكان يرجوه ، وهل أرتجى　　هذا وقد غَمَّضْتُه باليـــدِ ؟

وله فى توتٍ أهداه :

تفاءلتُ بالتـــوت التأتّى لزورةٍ وذلكَ[1] فالٌ — ما علمت — صَدوقُ
فأهديتُه غضًّا حكى حدقَ المَها له منظر بالُحسن منـــه يروقُ
وبعضٌ حكى الياقوتَ منه احمرارُهُ وما مجّـــــه للذائقين رحيق
فذا سَبَجٌ — فيما يُرى — لاسودادِه وذا — لاحمرارِ اللونِ منه — عقيق

٩٩ — عبيد الله بن أحمد بن يَعْلَى بن وهب

ولاه الناصرُ عبد الرحمن بن محمد ما كان بيد أبيه — أحمد بن يَعْلَى ، قائده الجليل المقدار ، الحميد الآثار — من قيادة الجوف (بَطَلْيَوْس وأعمالها) حين نوه بأحمد المذكور ، وولاه طُلَيْطِلَةَ وأعمالَهَا من الثغر الأدنى ، ورفع رزقه إلى أرزاق الوزراء ، مع مقامه على خطته فى الشرطة العليا ، وسُمى قائد الأعنَّة ، وذلك فى صفر / سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة . فأغنى عُبيد الله فى قتال الروم غَناءَ أبيه ، [١٢٢-ب]
وتوالت له فيهم فتوح . وكان أديباً شاعراً ؛ وهو القائل من قصيدة :

ترى الأرض فينا لا يَقِرُّ قرارُها إذا لم يَسُسْها من أميةَ سائسُ
ذوو الهضبات الشُّمِّ والأبحُرِ التى تفيض ملاءً والملوكُ الأشاوسُ
هم ذهبوا بالمــكرُمات ولم يزلْ لهم جبـــل العز القديم القوامس[2]
وهم نزلوا من خِنْدِفٍ[3] حيث تلتقى رؤوسُ قُصَىٍّ فى الذرى والمغاطس

---

(١) فى الأصل : وذاك وقد قومتها لوزن الشعر .
(٢) كذا فى الأصل . ولعل صحتها القداس تأييدًا لقدمها .
(٣) خندف هى امرأة إلياس بن مضر وقد أنجبت منه مُدْرِكة وطابخة وقَمْعَة ، وعن طريق مدركة بن إلياس اتصل عمود النسب ، أى أنها الجدة العليا لقريش ، وإلى هذا يشير الشاعر . انظر : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى (بتحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة ١٩٥٩) ص ٢٤٨ . وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ١٨٦ .

وهم غمسوا فى جَفنة الطِّيب قبل أن ... يُرى أحدٌ من قومهم وهو غامِس

وهم أوقدوا حربَ الفجار حفيظةً ... فقامت بها أعياصُهم والعنابس(١)

بهاليــل من إن يستضيف إليهمُ ... بما شيَّدوا إلا الخصال النفائس

إذا سوجلوا لم يحتملهم مساجل ... وإن قويسوا لم يستطعهم مقايس

تطيف بهم ساحاتُ مكةَ فى العُلا ... وتــكنُفُهم منها البطاحُ الأمالِس

وكان أخوه يعلى بن أحمد أديباً أيضاً ، وسيأتى ذكرُه .

١٠٠ — جعفر بن عثمان المصحفى
الحاجب الوزير ، أبو الحسن

هو جعفر بن عثمان بن نصر بن قوى بن عبد الله بن كسيلة من برابر بلنسية ، ينتمى إلى قيس بالمحالفة .

وذكر ابنُ الفرضى فى تاريخه أباه عثمان وقال فى نسبه بعد نصر : ابن عبد الله بن حُمَيْد بن سلمة بن عَبّاد بن يونس القيسى .

وكان قد أدَّب الحَــكم ، وذلك أزلف جعفراً عنده وأدناه منه فاستخدمه بالـكتابة فى إمارته . ووَلِىَ جزيرةَ ميُورْقة فى أيام الناصر ، ثم تقلد الحَــكمُ

---

(١) الأعياص هم أبو العاصى والعاصى وأبو العيص أبناء أمية الأكبر ابن عبد شمس ابن عبد مناف . والعنابس هم سفيان وأبو سفيان وعمر وأبوحرب أبناء أمية الأكبر ابن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف ، سموا العنابس — أى الأسود — لثباتهم فى حرب الفجار واستطاعتهم نصر قريش على قيس عيلان .

انظر : المصعب الزبيرى ، نسب قريش ، ص ٩٧ .

العقد الفريد ، بتحقيق أحمد أمين وآخرين ، ٣/٣٠٦ .

الخلافةَ فاستوزره ، وأمضاه مع ذلك على كتابته الخاصة ، وضم إليه بعد مدة ولاية الشرطة ، وأخدمه ابنه هشاماً .

[١٢٢-١] وأقام على ذلك إلى وفاة الحَكَم واستخلاف هشام / ابنِه ، فحجبه يومَ قعوده للبيعة ، وذلك يوم الاثنين لخمس خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة ، وعن يمينه ويساره الفتيان جُؤْذُر وفائق ، ثم أهل الخطط على منازلهم . وكان القائد محمد بن عبد الله بن أبى عامر — وهو إذ ذاك يتولى الشرطة الوسطى والسِّكة والمواريث والوكالة[1] — يشرف على عقد الشهادات فى نُسخ البيعة بين يديه ، بعد ما كان القاضى محمد بن إسحاق بن السليم يأخذها على طبقات من شهدها مِن الأعمام وأبنائهم والوزراء وضروب أهل الخدمة ورجالات قريش وأعلام قرطبة — حكى ذلك عيسى بن أحمد الرازى .

قال : ثم لما كان يوم السبت لعشر خلون من صفر المؤرخ ، قلد هشامٌ حجابتَه جعفرَ بن عثمان لقـــدم صحبته لأبيه المستنصر ، وكان المستنصر قد شرّفه لتأديب أبيه عثمان بن نصر له ، وصرّفه فى الأعمال ، وقدّمه إلى الكُوَر ، ثم استكتبه وهو ولى عهد — وذكر نحواً مما تقدم من خبره — قال : ثم قدّم هشامٌ المؤيدُ ابنَ أخيه هشامَ بن محمد بن عثمان إلى خطة الخيل ، ثم إلى الوزارة ، وولّى بنيه — محمداً ، وعثمان ، وعبد الرحمن — وأخاه سعيداً ، وابنَ أخيه محمداً ، الشرطةَ العليا والوسطى ، فلم ينهض بعبء ما قلده ، وخلف على المدينة ابنه محمداً

(١) أى وكالة أبناء الخليفة ، وقد أقيم محمد بن أبى عامر وكيلا للولد (أى الأمير) عبد الرحمن بن الحكم المستنصر فى ٩ ربيع الأول سنة ٣٥٦ ، « وأجرى عليه فى ذلك الوقت ١٥ دينارا فى الشهر مرتبا بالوازنة » . ولما مات عبد الرحمن هذا أقيم محمد بن أبى عامر وكيلا لأخيه هشام ابن الحكم فى ٤ رمضان سنة ٣٥٩ . وكان قبل ذلك قد تقدم للنظر فى أمانة دار السكة فى ١٣ شوال ٣٥٦ ، ثم أضيفت له الخزانة ، ثم قدمه الحكم المستنصر على خطة المواريث فى ٧ محرم ٣٥٨ ، وفى سنة ٣٦١ تولى الشرطة الوسطى .

ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢ / ٢٥١ .

فأساء السيرة . وزكا على المحبة أبو عامر محمد بن أبى عامر ، فبسط المؤيدُ يدَه وقبض يد جعفر بن عثمان ، فأداله وابنَ أخيه .

وقال ابن حيّان : استطال عليه محمد بن أبى عامر بكفايته ودفاعه العدوَّ المتكالب ، لأول ولاية هشام ووفاة الحكم ، واستظهر على ذلك بمصاهرة غالب القائد مولى الناصر عبد الرحمن بن محمد .

وقد كان غالب — فيما حكى الرازى — شارَكَ جعفرَ بن عثمان فى الحجابة ، وصُيِّر فراشُه فى الصدر ، وعن يمينه جعفر ، وعن يساره أبو عامر للوزارتين . قال ابن حيان : فأدى ذلك إلى القبض على جعفر ، وعلى ولده وأسبابه ، وعلى أخيه هشام وسائر أقاربه ، وطولبوا بالأموال . وكان ابن أبى عامر يحمل جعفراً معه فى الغزوات ، تعنيتاً وانتقاماً منه . فلما بان عجزه وضعف ، أُقِرّ بالمطبق إلى أن هلك فيه سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، فأسلِم إلى أهله فى أقبح صورة — وقيل : قُتل خنقاً[1] . وكان مقدماً فى صناعة الكتابة ، مفضلا / على طبقته بالبلاغة . [١٢٣-ب]
وله شعر كثير مدوّن يدل على تمكنه من الإجادة ، وتصرفه فى أفانين البيان ؛ وهو القائل :

سألتُ نجومَ الليل : هل ينقضى الدجى ؟ فخطَّتْ جواباً بالثريا كخطِّ « لا » !
وكنتُ أرى أنى بآخِرِ ليـــلةٍ فأطرقُ حتى خِلتُـــه عاد أوَّلا
وما عن هوًى سامرتُها ، غير أننى أنافسُها المجرَى إلى رُتب العـــلا

(١) أوجز ابن الأبار كلام الرازى وابن حيان هنا إيجازاً شديداً ، وقد أورد هذه الأخبار بصورة أوفى ابن عذارى فى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ وما يليها .

وله :

أما–والهوى–ما كنتُ أعرف ما الهوى ولا ما دواعى الشوق حتى تكلَّما
دعانى بلفظٍ لو دعا « يَذْبُلاً »(١) به لَلَبّاهُ مشــتاقاً ووافاه مُغْرَما

وله ، ويُروى لغيره :

كلمتْنى فقلتُ : درٌّ سَقيطُ فتأملتُ عِقــدَها هل تناثرْ
وازدهاها تبسُّمٌ فأرتنــا عِقْـدَ درٍّ من التبسم آخَرْ

وله :

إنْ فاهَ أشربَتِ الضلوعُ هوًى حــتى كأنَّ جميعَها أذُنُ
لا تُنكروا كلفَ الضلوع بهِ فحديثُــه لوجيبها سَـكَنُ

وقرأت فى كتاب « الفرائد فى التشبيه » لابن أبى الحسن القرطبى منسوباً إليه :

بادرْ ، فإنَّ نذيرَ الغيثِ قد نَذرا مجــدداً لسرورٍ كان قد دَثَرا
أرْخَتْ عَزالِيهِ واصْطَرّت(٢) بمُنصرهِ ريحُ الصَّبا واستدرَّت دمعَه فجرى
أوْفَى فبرَّد من حرِّ القلوب كما أوفى علينا حبيبٌ طالما هَجرا
فلاقِهِ بكؤوسِ الراحِ مُترَعةً شكراً له ، فكريمُ القوم من شَكرا

(١) يذبل هو الجبل الذى ذكره امرؤ القيس فى قوله :

فيالكَ من ليــل كأن نجــومه بكل مغــار الفتل شدت بيذبل

ولكن دوزى قرأها يدبل بالدال المهملة وقال يحاول تفسيرها : Diable, à ce qu'il parait وكأنه تصور أن هناك علاقة ما بين « دبل » و « ديَابل » أو « ديابولو » بمعنى الشيطان !

(٢) الكلمة غير واضحة فى الأصل ، وأقرب قراءة لها : واصرت ، ولا يستقيم بها الوزن . وقرأها دوزى : وأهزت ولا يستقيم بها الوزن أيضاً ، وكان أقرب لوقال : واهتزت. وقد جعلتها : واصطرت بمعنى صوتت كما فى لسان العرب (مادة صرر) .

وله فى سوسنة :

يا ربَّ سوسنةٍ قد بتُّ ألثَمُها وما لها غير طعم المسك من ريقِ
مصفرةُ الوَسْط ، مبيضٌّ جوانبُها كأنها عاشق فى حجر معشوق

وله فى الخيال :

لئن سلبونى شخصَه ووصالَهُ لما قدروا أن يسلبونى خيالَهُ
إذا حجبتْ عنى الحوادثُ وجهَهُ أقام الهوى لى حيث كنتُ مِثالَهُ

/وله : [١٢٤-١]

وكم مَهْمَهٍ لا يوجِد الركب مشرعاً قطعتُ ، وبحرٍ شامِخ الموجِ أسْفعاَ
خِضَمٍّ إذا استعلتْ به الشمسُ لم يزلْ يطاولها حتى تملَّ فتخضعا
تغيب وتبدو فيـــه حتى كأنما غدا مَغربا تجرى إليـــه ومَطلعا
إذا ما ارتمت أمواجه خلتَ أنها ذرى الشُّمِّ أمّتْنا من البرّ نُزَّعا
تقاذف فى رَحْب الجمال بَسيطُها يَردُّ وفودَ الريح حَسْرى وظُلّعا

وله فى تفاحة :

لعمرى لئن أهدَيتُ نفسى وما حوتْ فأنت بها منى أحق وأملكُ
ولـكننى أهدى التى[1] لا تردها يمينٌ ولا فيها لِذى اللحظ مَتْرَكُ
تناولتُها من غصنها وكأنها من الحسن ذاك الناجمُ المتفلِّكُ

وله فى سفرجلة :

ومصفرةٍ تختالُ فى ثوبِ نَرْجِسٍ وتَعْبَقُ عن مسكٍ ذكىِّ التنفسِ
لها ريحُ محبوبٍ وقسوةُ قلبهِ ولونُ محبٍّ حُلةَ السقمِ مكتسِ

---

(١) فى الأصل : اللذى ، وقرأها دوزى (ص ١٤٤) : يَداً .

فصُفرتها من صُفرتى مستعارةٌ وأنفاسُها فى الطيب أنفاسُ مؤنِسى(١)
فلما استَتَمَّتْ فى القضيب شبابَها وحاكت لها الأنواءُ أبرادَ سُندُسِ
مددتُ يدى باللُّطف أبغى اقتطافَها لأجعلَها ريحانتى وَسْطَ مجلسى(٢)
وكان لها ثوب من الزُّغب أغبرٌ يَرِفُّ على جسم من التبر أملس(٣)
فلما تعرَّتْ فى يدى من لباسها ولم تبق إلا فى غلالة نرجس
ذكرتُ بها من لا أبوح بذكرهِ فأذبلَها فى الكف حرُّ تنفُّسى

وله وقد أهديت إليـــه رامشنة ورد فى زمن البرد ، فاستغربها وكتب إلى مهديها :

لعمرك ما فى فطرة الروض قدرةٌ يَحيلُ بها مجرى الزمان عن القَصْدِ
ولكنها أخلاقُك الغر نبَّهت بِرَبْعِكَ(٤) فى كانون نائمةَ الورد

---

(١) الأصل : مونس .

(٢) الأصل : مجلس .

(٣) بعد هذا البيت أورد ابن خاقان فى « مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس » (الجوائب ١٣٠٢) ص ٥ بيتاً آخر هو :

فَبزَّتْ يدى غصبـاً لها ثوب جسمها وأعريتُها باللطف من كل ملبس

(٤) هذه الكلمة ساقطة من الأصل . وقد أكلتُها من « البديع فى وصف الربيع » لأبى الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى ، ص ١٢٠ . وقد أورد بعد ذلك بيتاً هو :

كأنك قد أمطرتَهـا ديمـةَ المجـد وأجريتَ فى أغصانها كرم العهـــد

وقد قدم الحميرى للأبيات بقوله :

« فن المستندر فى الورد قول الحاجب أبى الحسن جعفر بن عثمان المصحفى ، وقد أهدى إليه الوزير زياد بن أفلح ورداً سيق إليه من رَيَّة فى شهر كانون الآخر »

وقال بعد ذلك :

« فلما وصل هذا النظم المستملح إلى زياد بن أفلح بعث إليه بوردة كان احتبسها لنفسه ، فبعث إليه بيتين وهما :

فاجـأنى كانـونُ بالـورد فزادنى وجـــداً إلى الوجـد
وردُ العـلا أهـدى لنا وردةً يا حبـــذا الورد من الورد »

وله فى الخمر ، وقد أنشد ذلك أبو منصور الثعالبى فى « اليتيمة » :

/صفراء تطرق فى الزجاج فإن سَرتْ فى الجسم دبّت مثل صِلٍّ لادغ [١٢٤-ب]
خفيت على شرابها فكأنما يجدون ريًّا فى إناء فارغ
عبث الزمان بجسمها فتسترتْ عن عينها فى ثوب نورٍ سابغ

وله :

كم ليلة بتُّ أطويها وأنشرها ولا أرى فى الذى أقضى بها حرجاً
فى فتية نُجُبٍ صاروا بمعترك يجرى النعيم على الصرعى بها خلجا
والجو ملتحف [... ... ...][1] والنجم مكحولة ألحاظه دعجا
لفّوا دُجَى ليلِهمْ فى نورِ[2] كاسِهِمُ ونفسوا من خناق الزق فانبلجا

وله :

لعينيكَ فى قلبى علىّ عيونُ وبين ضلوعى للشجون فنونُ
لئن كان جسمى مُخْلَقاً فى يد الهوى فحبُّك غضٌّ فى الفؤاد مصونُ
نصيبى من الدنيا هواك ، وإنهُ عذابى ولكنى عليه ضنينُ

وله :

يا ذا الذى لم يدَعْ لى حبّه رمقاَ هذا مُحبك يشكو البَثَّ والأرقا
لو كنتَ تعلم ما شوقى إليك ، إذاً أيقنتَ أن جميعَ الشوق لى خُلِقا
لم يُبصرِ الُحسنَ مجموعاً على أحدٍ مَن ليس يبصرُ ذاك الخدَّ والعنقا

وله فى وفاة الناصر عبد الرحمن بن محمد وبيعة ابنه المستنصر بالله الحكم ابن عبد الرحمن :

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) فى الأصل : . . . وكاسهم ، فأكلتها على هذه الصورة .

ألا إنّ أياماً هَفَتْ بإمامها ... لجائرةٌ مُشْتَطَّةٌ باحتكامها
تأمّلْ : فهل مِن طالعٍ غير آفلٍ ... بِمَنّ ، وهل من قاعدٍ لقيامها ؟
وعاينْ : فهل مِن عائشٍ برضاعها ... من الناس إلا ميِّتٌ بفطامها ؟
كأنّ نفوسَ الناس كانت بنفسه ... فلما توارى أيقنتْ بحِمامها
فطار بها يأسُ الأسى وتقاصرتْ ... يد الصبر عن إعوالها والتدامها

[١٢٥-أ] / ومنها له :

إمامٌ تلقَّته الخلافةُ صبّـةً ... إلى نَسَمٍ (١) محمولة عن إمامها
فصارت إليه فى حدود تمامه ... وصار إليها فى حـــدود تمامها
فلم ينتقلْ بالناس يومَ انتقالها ... إليه سبيلٌ عن محل قَوامها
أتَوْه فأعطَوْه المواثق عن هوًى ... تمكّن فى أبشارها وعِظامها
وناولهم كفًّا يطول الهُدى بها ... رضا اللهِ فى تقبيلها واستلامها
أناف على الدنيا بعينٍ محيطةٍ ... وقال : ادخلوا فى أمنها وسلامها !

وله :

يطالعنا فى كل يومٍ بغُرّةٍ ... بنو الدين والدنيا معاً يأملونها
إذا ما تراءته العيونُ تواضعتْ ... لإجلاله عن أن تقل شؤونها
عليها من الرحمٰن نورُ جلالةٍ ... يقصِّر بالألحاظ أن تستبينها

وله مما قاله بديهاً بين يدى الحَكَم ، عندما بُشر بولادة ابنه هشام :

اطَّلعَ البدرُ من حِجابهْ ... واطَّردَ السيفُ من قِرابهْ
وجاءنا وارثُ المعـــالى ... ليُثبتَ المُلكَ فى نصابهْ

---

(١) الأصل : نسيم ، ولايستقيم به الوزن ، وهكذا صوبه دوزى ، ص ١٤٥ .

بشَّرنا سيـــــدُ البرايا بنعـــمةِ اللهِ فى كتابهْ
لو كنتُ أعطى البشيرَ عُمرى لم أقضِ حقًّا لِما أتى بهْ

وله فى نكبته :

تأملتُ صَرفَ الحادثات فلم أزلْ أراها تُوافى عند مَقصدِها الحُرّا
فلله أيام مضت لسبيلها فإنىَ لا أنسى لها أبداً ذِكرا
تجافت بها عنا الحوادثُ برهةً وأبدت لنا منها الطلاقةَ والبِشرا
ليالىَ لم يدرِ الزمانُ مكاننا ولا نظرتْ منا حوادثُه شَزْرا
وما هذه الأيامُ إلا سحائبٌ على كلِّ حالٍ تُمطر الخيرَ والشرا

/ وله : [١٢٥-ب]

أجارى(1) الزمانَ على حالهِ مجاراةَ نفسى لأنفاسِها
إذا نَفَسٌ صاعـــدٌ شفَّها توارت به بين جُـــلاّسِها
وإن عكفت نكبةٌ للزمان عكفتُ بصدرى على راسِها

وله يستعطف المنصور محمد بن أبى عامر ، وكتب إليه بها من محبسه :

هبنى أسأتُ ، فأين العفو والكرمُ إذ قادنى نحوكَ الإذعانُ والندمُ ؟
يا خيرَ مَن مُدَّتِ الأيدى إليه ، أما ترثى لشيخٍ نعاه عندَك القلم ؟
بالغتَ فى السُّخْط فاصفح صفح مقتدرٍ إن الملوك إذا ما استُرحموا رَحموا

هذه الأبيات متنازَعة ، ينسبها إلى المصحفى جماعة ، وقد وجدتُها منسوبةً إلى أبى عمر بن دَرّاج القسطلى ، وذكر أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق فى

(١) الأصل : أجاز . وقرأها دوزى (ص ١٤٦) : أجازى .

تاريخه أنها لـكاتب إبراهيم بن أحمد بن الأغلب[١] . وكلاهما أساء الردَّ على من قالها وتمثّل بها ؛ أما إبراهيم فقال ، لجهله وفظاظته وقلة رحمته : « إن الملوك إذا ما استُرحموا قتلوا ! » وبعث إليه من قتله . وقرأت في « كتاب الافتخار » لأبي بكر عتيق بن خلف القيرواني ، أن إبراهيم بن أحمد لما قرأ رسالة كاتبه إليه من محبسه ، قال : " يكتب إليّ « هبني أسأت » وهو قد أساء ؟ والله لو كتب إليّ بقول الأول :

ونحن الـكاتبون وقد أسأنا فهبنا للـكرام الـكاتبينا

لعفوت عنه " ، ثم أمر به فجُعل في تابوت وأحرق بالنار وهو حي ![٢] وأما ابنُ أبي عامر فأمر عبدَ الملك بن إدريس[٣] أن يجاوبه عن هذه الأبيات ، فقال :

(١) لم نجد هذه الأبيات في ديوان ابن دراج ، ووجدناها عند ابن عذارى منسوبة إلى محمد بن حيون المعروف بابن البريدي كاتب إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (البيان المغرب : ١٣١/١).

وقد روى ابن بسام نفس الأبيات في الذخيرة (القسم الرابع - المجلد الأول ، القاهرة ١٩٤٥) ص ٥١ دون أن ينبه إلى شيء مما نبه إليه ابن الأبار ، وهذا من الشواهد الكثيرة على سعة اطلاع ابن الأبار بالقياس إلى علامة جمّاع كابن بسام .

(٢) لم يذكر ذلك ابن عذارى ، وهو ينقل أيضاً عن أبي إسحاق القاسم بن الرقيق ، وإنما قال : « ثم أمر - قبحه الله - به فجُعل في تابوت حتّى مات ، رحمه الله تعالى » . البيان المغرب : ١٢٢/١ .

(٣) هو أبو مروان عبد الملك الجزيري أحد شعراء المنصور محمد بن أبي عامر وابنه المظفر ، وهو معدود بين كبار شعراء عصره وأدبائهم . ومن الطريف أن عبد الملك الجزيري سارع إلى الرد على أديب مثله هو جعفر بن عثمان المصحفي متكلما بلسان طاغية جبار ، فأرادت المقادير أن يلقّى نفس الميتة على يد عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر ، إذ أنه مازال يسعى حتّى وصل إلى الوزارة أيام المظفر ، ودفعه حقده على عيسى بن سعيد القطاع ، أكبر وزراء المظفر ، إلى التآمر على هذا الأخير مع فتاه الصقلبي طَرَفة ، ففشل فيما سعى إليه وقبض على طرفة وعليه ، وأودع نفس المطبق الذي مات فيه جعفر المصحفي ولقّى نفس النهاية في شوّال سنة ٣٩٤ . قال ابن حيان : « أخبرني أبي خلف بن حسين قال : سألت الذي تولى قتل الجزيري في محبسه ، =

الآن يا جاهلاً زلّتْ بك القدمُ تبغى التكرمَ لما فاتك الكرمُ ؟
أغريتَ بى مَلِكاً لولا تثبّتُه ما جاز لى عنده نُطق ولا كلم
فايأسْ من العيش إذ قد صرت فى طبقٍ إن الملوك إذا ما استُنقموا نقموا
نفْسى إذا سخِطتْ ليست براضيةٍ ولو تشفَّع فيك العُرب والعجم

ويقال إن الأبيات لابن أبى عامر . وكلتا الفعلتين من أفعال الجبابرة الذين أطغتهم النعمة ، ونزعت من قلوبهم / الرحمة . [١٢٦-أ]

وللمصحفى لما يئس من المنصور وصفحه :

لا تأمننَّ مِن الزمانِ تقلُّباً إن الزمانَ بأهله يتقلبُ
ولقد أرانى والليوثُ تخافُنى فأخافنى مِن بعدِ ذاكَ الثعلبُ
حَسْبُ الكريم مذلةً ونقيصةً ألا يزالَ إلى لئيمٍ يَطلبُ
وإذا أتت أعجوبةٌ فاصبرْ لها فالدهرُ يأتى بعدُ ما هو أعجبُ

وله :

لى مــدةٌ لا بدَّ أبلغُها فإذا انقضتْ أيامُها متُّ
لو قابلتْنى الأُسْــدُ ضاريةً ـ والموتُ لم يُقدَرْ[١] ـ لما خِفتُ
فانظر إلىَّ وكن على حذرٍ فبمثلِ حالكَ أمسِ قد كنتُ

= فجعل يصف لى سهولة ما عاناه منه لقَضَافَته وضعف أسره ، ويقول : « ما كان الشئُ إلا كالفَرّوج فى يدى ، دققت رقبته بركبتى ، فما زاد أن نفخ فى وجهى » ، فعجبت من جهل هذا الأسود » . الذخيرة لابن بسام ، القسم الرابع — المجلد الأول ، ص ٣١ — ٣٦ .

(١) فى الذخيرة (القسم الرابع المجلد الأول ، ص ٥١) :
* والموت لم يَدْنُ لما خِفت *
وفى نسخة أخرى : لم يقرب .

١٠١ ـــ محمد بن عبد الله بن أبي عامر
الحاجبُ ، المنصورُ أبو عامر

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك المعافرى ، أمير الأندلس فى دولة المؤيد بالله هشام بن الحكم المستنصر بالله ، والغالب عليه . أصله من الجزيرة الخضراء ، ولسلفه بها قدر ونباهة ، وقدم قرطبة شابًّا ، فطلب بها العلم والأدب وسمع الحديث . وكان أبوه ـــ أبو حفص عبد الله ـــ قد سمع الحديث أيضاً ، وصحب أبا محمد الباجي الراوية فى الأخذ عن الشيوخ بقرطبة ؛ وقد ذكرتُه فى كتابى الموسوم بـ « التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال »[1] .

وكانت للمنصور همة ترمى به المرامى ، ويحدث نفسَه بإدراك معالى الأمور ، ويزيد فى ذلك حتى كان يحدِّث من يختص به بما يقع له من ذلك ، فتم له مرادُه . وكان أحد أعاجيب الدنيا فى ترقِّيه والظفر بتمنِّيه : تصرَّف أولَ أمره فى الوكالة لصبح أم هشام ، والنظر فى أموالها وضِياعها ، والجد ينهض به ، والأقدار تساعده . إلى أن توفى الحَكم وقُلِّد هشامٌ الخلافةَ وهو صغير .

ولما انتقض العدو على إثر ذلك ، وخيف الاضطراب ، ولم يكن عند المصحفى

---

(١) راجع ترجمة أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر المعافرى والد المنصور محمد بن أبي عامر فى تكملة الصلة لابن الأبار رقم ١٢٥١ ج ١ ص ٤٣٧ ، وقد قال فيه بعد أن ذكر شيوخه : « ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، وكان من أهل الدين والخير والصلاح والزهد والقعود عن السلطان ، أثنى عليه الراوية أبو محمد الباجى وقال : كان خير صديق أنتفع به وينتفع بى ، وأقابلَ معه كتبه وكتبى ، ومات منصرفَه من حجه ، ودفن بمدينة طرابلس المغرب ». وذكر أيضاً أنه مات برقادة آخر خلافة الناصر .

غَناء ولا دفاع ، ضَمِن محمد بن أبي عامر لصبح أم هشام سكونَ الحال وزوالَ الخوف واستقرارَ المُلك لابنها ، على أن يُمَدَّ بالأموال ويُجعلَ إليه قودُ الجيوش ، إلى ما كان بيده من الخطط السنية . وهو — بقوة نفسه وسعادة جَده — / [١٢٦-ب] يَعِدُ النصر ولا يمترى فى الظهور ، ويستعجل الأسباب المعينة على الفتح ، حتى أُسعفَ ولقى العدو فهزمه . ووالى غزوَ بلاد الروم عاليَ القدم ، منصورَ العلم ، لا يُخفق له مسعًى ولا يؤوب دون مغنم — كَرَّةً بعد أخرى — إلى أن صار صاحب التدبير ، والمتغلبَ على جميع الأمور . فدانت له أقطار الأندلس كلها ، وأمِنتْ به ، ولم يضطرب عليه منها شىء أيامَ حياته ، لحسن سياسته وعظم هيبته .

وكان ربما أنذر خاصته بما يكون وراءه من الفتن ، حتى ليكدِّر عليهم مجالس أنسه بما يلقى من ذلك إليهم ، فوقع الأمر على ما توقع ، وجرى القدر بما قدر على ذلك . فما زال يبطش بأعدائه ، ويسقط مَن فوقه بقهره واستيلائه ، إلى أن صار الخليفةُ حينئذ — هشام بن الحَكم — ليس له من الأمر غير الاسم خاصة ، فما ظنك برجاله ومواليه الذين منهم(١) كان يرهب وبهم كان يتمرس ؟ هذا ونصرته على النصارى متوالية ، وغزواته فى كل صائفة متصلة ، أزيد من خمسين — عدّها ابنُ حَيَّان فى كتابه الموضوع فى أخبار الدولة العامرية(٢) ، وجعله لمن شاء خَزَلَه عن تاريخه الكبير أو ضمه إليه — حتى أذعن له ملوك الروم ورغبوا فى مصاهرته . تناول ذلك كلَّه بتأييد إلٰهى مدة طويلة ، وأورثه بنيه وقتاً قصيراً .

فأما أبو مروان عبد الملك المظفر منهم ، فقام بالدولة مقام أبيه ، وأغنى فى غزو

---

(١) كذا فى الأصل ، والأصح هنا : الذين بهم كان يرهب .

(٢) فى الأصل : الناصرية ، ولم نسمع أن ابن حيان كتب كتابا خاصا عن عبد الرحمن الناصر ، ولكن الثابت أن له كتاباً فى أخبار سقوط بنى جهور يسمى « البطشة الكبرى » وعنه نقل ابن بسام ما أورده فى « الذخيرة » من تاريخ محمد بن أبي عامر.

العدو ، إلا أن مدته لم تطل . وبلغت الأندلسُ فى أيامه نهاية الكمال ، وكان على أهلها أسعدَ مولود . حكى ابنُ حَيّان عن زعيم المنجمين على عهد الحَكَم[1] ، أنه نظر فى مولد عبد الملك هذا وهو طفل ، فأشار مِن بَعد سعادته إلى أمرٍ كبير لم يدرك هو آخرَه ، فعجبَ مَن شاهده مِن جودة إصابته ، وذلك أنه قال : « لم يولد قط بالأندلس مولود أسعد منه على أبيه ، وعلى نفسه ، وعلى حاشيته ، نَعم ! وعلى أهل الأندلس طرًّا ، وعلى أرضها طرًّا ، فضلا عن ناسها . وإنها لا تزال كذلك حالَ حياته ، وإذا هلك فما أراها إلا بالضد »[2] ، فكان كذلك .

وأمّا أبو المطرف عبد الرحمن الناصر أخو عبد الملك ، فإنه وَلِيَ الحجابةَ بعده ، فلم يقم إلا يسيراً حتى قام عليه المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، فقُتل وصُلب . وانبعثت الفتنُ على الأثر ، فما خمدت نارُها [١٢٧-١] إلا فى النادر ،/ إلى وقتنا هذا — وهو سنة [...][3] أربعين وستمائة . وقد استولى الرومُ فيه على الأندلس بأسرها ، مع الجزائر الشرقية المضافة إليها ، بين صلح وعنوة .

وشؤم عبد الرحمن الناصر[4] هو الذى جرّ افتراقَ الجماعة ، وجرّأ على خلعان الطاعة ؛ وعلى رِجله كان الفسادُ العام ، لما استشرف إلى الخلافة ، واستقل خطةَ الحجابة ، ولم يرض إلا بالإمامة . فداخل هشاماً المضعوف ، وطالبه بأن يجعله ولىَّ عهده ، ويلقى إليه بجميع أمره ، فاستفتى فى ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها

---

(١) هو أحمد بن فارس البصرى المنجم زعيم الصناعة بها على عهد الحكم ، كما قال ابن بسام راوياً عن ابن حيان — فى الذخيرة قسم ٤ مجلد ١ ، ص ٥٩ .

(٢) نقل ابن الأبار ذلك عن ابن حيان . راجع المرجع السابق ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٣) أسقط الناسخ هذا الرقم سامحه الله . . كان هذا يحدد لنا تاريخ كتابة الحلة السيراء بالضبط .

(٤) المراد عبد الرحمن بن أبي عامر الذى اتخذ لنفسه لقب الناصر ، ويلقب أيضاً بالمأمون .

حينئذ ، فسوّغوا له ما طلب واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » — وكان ابن أبي عامر معافريًّا قحطانيًّا — فقالوا : عسى أن يكون الذى وَعد به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . وجدَّ فى ذلك السعى الخبيث أبو العباس بن ذكوان[1] القاضى وأبو حفص ابن برد الكاتب[2] ، حتى قال فيهما ابن أبي يزيد المصرى :

---

(١) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبد الله بن عبدوس بن ذكوان الأموى ، قاضى الجماعة بقرطبة على أيام المنصور محمد بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر بن أبي عامر وأخيه عبد الرحمن بن أبي عامر ، وهو أول الموقعين على الوثيقة التى استصدرها عبد الرحمن بن أبي عامر لهشام المؤيد بتوليته العهد للخليفة هشام المؤيد . وقد أثنى عليه معظم من ترجموا له (الضبى ، رقم ٤٢٥ ص ١٧٤ والنباهى : المرقبة العليا ، ص ٨٤ وابن سعيد فى « المغرب » ، رقم ٢١٠ ج ١ ص ١٤٤ وأعمال الأعلام لابن الخطيب ، ص ٤٩) . وأسرة بنى ذكوان أسرة فقه وقضاء ، وقد علت منزلته عند عبد الرحمن بن أبي عامر حتى قلده الوزارة إلى جانب القضاء ، وكان يكتب عنه : من الوزير قاضى القضاة ، وهو أول من كتب عنه بذلك من قضاة الأندلس . وقد ظل جليل القدر إلى وفاته فى ٢١ رجب سنة ٤١٣ . وأبو محمد ابن حزم يتنقصه وينقده نقداً شديداً .

(٢) أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الكاتب ، المعروف بابن برد الأكبر . ذكر الحميدى فى الجذوة (بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٣٧٢) أنه كان مولى لأحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد ، أديب وشاعر اشتهر بأسلوبه المسجوع المثقل بزينة اللفظ ، ويعتبر من أوائل من أدخل هذه الطريقة فى الأندلس . وقد شارك فى السياسة وخدم المنصور ابن أبي عامر وابنيه عبدالملك وعبد الرحمن ، وعلا أمره فى أيام هذا الأخير حتى وصل إلى الوزارة . لم يقدم لنا الذين ترجموا له شيئاً نافعاً عن حياته ، ولكن الحميدى يذكر أنه لقيه مراراً زائراً لأبي محمد على بن أحمد بن حزم وأنه توفى سنة ١٠٢٧/٤١٨ ، ونسب إليه الحميدى كتباً فى علوم القرآن ، وذكر له ابن بسام معاصره كتاب « سر الأدب وسبك الذهب » ونقل فقرات طويلة منه ومن شعره ، ومن كلامه فى أغراض شتى .

أنظر : ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ١٩ وما بعدها .
ياقوت ، معجم الأدباء (طبعة أحمد فريد رفاعى ، القاهرة) ٥/٤١ — ٤٣ .
الضبى ، بغية الملتمس ، ص ١٥٣ (كلاهما نقل كلام الحميدى دون زيادة)
ابن سعيد ، المغرب : ١/٨٦ وتعليق الدكتور شوقى ضيف .

إن ابن ذكوان وابن بردٍ قد ناقضا الدينَ بَعْدَ عمدِ
وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شَنْجُهْ[1] ولىَّ عهدِ

ولم يقم كذلك إلا أربعةَ أشهر — فى ما ذكر الُحمَيدى وغيره — واختل أمره وأسلمته الجيوش ، فكان من خبره ما تقدم ذكره .

وكان مولد المنصور محمد بن ابى عامر سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، وفيها كانت الهزيمة العظيمة بالخندق[2] على عبد الرحمن الناصر ، فأخذ الله بثأر

---

(١) إشارة إلى ما هو معروف من أن أم عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر كانت بنت شانجه الثانى ابن غرسية الأول ابن شانجه الأول وهو الملقب بأباركا ملك نبارة Sancho Garcés II (Abarca) . وقد أسلمت هذه الأميرة بعد زواجها بالمنصور وتسمت باسم عَبْدة ، وأنجبت عبد الرحمن حوالى سنة ٣٧٤/٩٨٤ ، وأطلقت عليه — تدليلا — مصغر اسم أبيها ، أى سانشويلو Sanchuelo (بالعربية شنجول) . وقد أعقبت هذا الزواج هدنة بين قرطبة والبشكنس ، وأقبل سانشو جارثيس فى زيارة رسمية لحميه فى قرطبة فى سبتمبر سنة ٩٩٢/رجب ٣٨٢ .

وقد ذكر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام (ص ٦٣) شانجو غرسيس هذا وقال : المعروف بـ « رِىْ فَرجه » Rey Abarca .

انظر : تعليق الدكتور مكى على القصيدة رقم ١٠٧ من ديوان ابن دراج ، ص ٣٩٥ .

ابن عذارى ، البيان المغرب (بتحقيق ليڤى پروڤنسال) ج ٣ ، ص ٣٨ و ٤٢ .

ابن الخطيب ، أعمال الأعلام (بتحقيق ليڤى پروڤنسال) ص ٧٩ .

Dozy, ***Recherches*** **(3e édition) I. 188-192.**

LÉVI — PROVENÇAL, ***Histoire de l'Espagne Musulmane*** **(2e éd, Paris, 1950) II, 241-242, 292.**

(٢) دارت معركة الخندق بضعة أيام ، ولكنها بلغت ذروتها وتقرر مصيرها فى ١١ شوال ٣٢٧/ أول أغسطس ٩٣٩ عند مدينة شنت مانقش (سيمانقاس Simancas) وقد سميت باسم الخندق بسبب خندق كان عبد الرحمن الناصر قد أمر بحفره تحت أسوار سيمانقاس حتى يحصر عنده قوات العدو الهاربة فى حالة الهزيمة . وكان عبد الرحمن قد احتفل بالاستعداد للمعركة احتفالا ضخما وحشد لها نحو ١٢٠ ألف جندى وسماها لهذا « غزاة القدرة » لأنه عول على أن يجعلها قاضية على رذمير الثالث Ramiro III ملك ليون . ولكن معظم جيش المسلمين كان من المتطوعة والقوات غير النظامية ، ثم حدث خلاف بين قادة الجيش من الأندلسيين وصقالبة عبد الرحمن ، ولهذا فعندما شدت قوات ليون على المسلمين فى اليوم الأخير للمعركة تراجعوا وتخاذل بعضهم وولوا الأدبار ، حتى إذا وصلوا إلى الخندق تساقطوا فيه وقتلوا =

الإسلام على يدى المنصور ، وكانت وفاته سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة . خرج غازياً ، وقد وقع فى مرضه الذى مات فيه ، فاقتحم جليقية من تلقاء مدينة طليطلة ، ومرضُه يخف وقتاً ويثقل أوقاتاً ، وقويت عليه العلة بأرض قشتيلة ، فاتُّخذ له سرير من خشب يُحمل على أعناق الرجال ، قطع بذلك أربعة عشر يوماً ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، فوجه ابنه عبد الملك ليخبر هشاماً بما ترك عليه أباه ، وتوفى ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر رمضان من السنة المذكورة . قيل : ودفن بمدينة سالم وقبره بها ؛ وكان عليه مكتوباً :

آثارُه تُنبيك عن أخبارِهِ حتى كأنك بالعِيان تراهُ
تالله لا يأتى الزمانُ بمثــله أبداً ، ولا يحمى الثغورَ سواهُ

[١٢٧-ب] / وعلى ما كان عليه من الهيبة والرهبة ، فقد كان له حلم واحتمال ، مع محبة للعلم وإيثار للأدب وإكرام لمن ينتسب إليهما . يحكى أن أبا محمد الباجى الراوية دخل عليه وقال : « أصلحك الله يا حاجب ، وحفظك ووفقك وأحسن عونك » ، فرد عليه ابنُ أبى عامر أجملَ رد ، وبجَّله ووقَّره وأدنى مكانَه حتى أقعده إلى جانبه ، وقال له : « كيف أنت اليوم وحالك ؟ » فقال له : « بخير ما كنت به »[1] ثم قال له الباجى : « أى والدٍ كان لك رحمـــة الله عليه ! كان والله

= بالألوف ، وأسرع عبد الرحمن ناجياً بنفسه فى فل الجيش . وتلك هى المعركة الوحيدة التى خسرها عبد الرحمن الناصر ، وكانت آخر غزوة غزاها بنفسه .

انظر : الأخبار المجموعة ، ١٥٥ - ١٥٦ .

نفح الطيب (طبعة أوربا) ١/٢٢٨ .

ابن عبد المنعم الحميرى ، الروض المعطار ، ٩٩ - ١٠٠ .

DOZY, *Recherches*, I, 156 - 170.

LÉVI - PROVENÇAL, *op. cit.*, 56 - 59.

والمراجع الوافية المعطاة فى هذين المرجعين .

(١) الأصل : فكنت به .

— ما علمتُ — من أهل الخير والعافية ، والصلاح والعفة ، والحرص على الطلب والمعرفة . اختلف معى إلى محمد بن عمر بن لبابة ، وإلى أحمد بن خالد ، وإلى محمد بن فُطَيْس الالبيرى وغيرهم . وكان لى خيرَ صديق وصاحب : أنتفعُ به ، وينتفعُ بى ، وأقابلُ معه كتبَه وكتبى[1] . ولم يكن فضوليًّا البتة . وأما أنت فلم تمتثله ، وأدخلتَ يدك فى الدنيا ، فانغمستَ فى لُجَّها . وطلبتَ الفضول ، فعلمتَ أخباراً كثيرة[2] ، وأوبقت نفسك والله يا مغرور ، وعزّ علىّ انتشابك» ، فقال له ابنُ أبى عامر : «يا فقيه ، هكذا صاحب الدنيا : لا بد أن يخلط خيراً بشر ، ويأتى معروفاً ومنكراً ؛ والله يتوب على من يشاء برحمته» . وسأله الباجى إثر هذا رفع القرامة عن ماله بإشبيلية ، فأمر بإسقاطها ، ووصله ببدرة دراهم كاملة ، ومنديل كسوة[3] تشاكله ، فيها خلعة تامة . ومن شعره يفخر :

رميتُ بنفسى هولَ كل عظيمةٍ وخاطرتُ ، والحر الكريمُ مخاطرُ
وما صاحبى إلا جنانٌ مشيعٌ وأسمر خطى وأبيض باترُ
ومن شيمى أنى على كل طالبٍ أجودُ بمالٍ لا تقيه المعاذرُ
وإنى لزجّاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيها أسود خوادرُ
لَسُدْتُ بنفسى أهلَ كل سيادة وكاثرتُ حتى لم أجد من أكاثرُ

---

(١) أورد ابن الأبار هذه الفقرة فى ترجمته لأبى حفص عبد الله بن محمد بن أبى عامر (رقم ١٢٥١ ج ١ ص ٤٣٧) ، وقد ذكرناه فى تعليقاتنا آنفاً .

(٢) انظر عن نظام الجاسوسية الذى وضعه المنصور : أعمال الأعلام لابن الخطيب (بتحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦) ص ٧٦ — ٧٧ .

(٣) الأصل : منديل كشره ، والصواب ما أثبتناه . وليس المراد بالمنديل ما نريده به اليوم فى الاستعمال الجارى ، وإنما قطعة قماش كبيرة توضع فيها الأشياء وتلف ، والمراد أنه أعطاه كسوة لائقة به ملفوفة فى منديل . انظر عن استعمال اللفظ فى هذا المعنى

DOZY, *Dictionnaire detaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, Amsterdam, 1845, p. 416.

وما شِدْتُ بنياناً ، ولكن زيادة　　على ما بنى عبدُ المليك وعامرُ
رفعْنا المعالى بالعوالى حديثَهُ　　وأورثناها فى القديم مَعافرُ

قال ابن حَيّان : هذا لأنه محمد بن عبد الله ، ونسبه كما تقدم . قال :
وعبد الملك جده هذا هو الداخل إلى الأندلس / مع طارق بن زياد ، مولى موسى [١٢٨-١]
ابن نصير ، فى أول الداخلين من المغرب ؛ وهو فى قومه وسيط .

وقال الحُمَيدى : قال لى أبو محمد على بن أحمد — يعنى ابن حزم — الفقيه :
كان المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر مَعافِرِىَّ النسب من حِمْيَر ، وأمه تميمية
وهى بُرَيْهَةَ بنت يحيى بن زكرياء التميمى المعروف بابن بِرْطال ، ولذلك قال فيه
أحمد بن دَرّاج — هو أبو عمر القسطلى — من قصيدة له فيه :

تلاقت عليه من تَميمٍ ويَعْرُبٍ　　شموسٌ تَلألأَ فى العلا وبدورُ
من الحميرين الذين أكفُّهمْ　　سحائبُ تهمى بالندى وبحورُ(١)

وللمنصور — لما اشتد سلطانه وتوالى ظفره — وكتب به إلى صاحب
مصر يتوعده :

مَنعَ العينَ أن تذوقَ المناما　　حُبُّها أن ترى الصَّفا والمَقاما
لى ديون بالشرق عند أناسٍ　　قد أحلوا بالمَشْعَرَين الحراما
إن قَضَوْها نالوا الأمانى وإلا　　جعلوا وزنها رقاباً وهاما
عن قريبٍ ترى خيولَ هشامٍ　　يبلغُ النيلَ خطوُها والشآما

وله :

ألم ترنى بِعتُ الإقامةَ بالسُّرَى　　ولِينَ الحشايا بالخيولِ الضوامرِ ؟

(١) راجع ديوان ابن دراج ، بتحقيق الدكتور مكى ، ص ٣٠١ .

تبدَّلْتُ بعد الزعفرانِ وطِيبِه صدا الدِّرع من مستحكمات المسامرِ
أرونى فتًى يحمى حماىَ وموقفى إذا اشتجر الأقرانُ بين العساكر
أنا الحاجب المنصور من آل عامرٍ بسيفى أقُدُّ الهامَ تحت المغافر
تِلادُ أمير المؤمنين وعَبدُهُ وناصحُه المشهودُ يومَ المفاخر
فلا تحسبوا أنى شُغلت بغيركم ولـكنْ عَهدتُ[1] الله فى قتل كافر

وأهدى المنصور إلى أبى مروان عبد الملك بن أحمد[2] بن شُهَيْد الوزير عقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار — وقد سأله ذلك عند صدره من بعض غزواته — وكتب إليه معهن يداعبه :

قد بعثنا بها كشمسِ النهار فى ثلاثٍ من المَها أبـكارِ
فاجتهدْ واتَّئد فإنك شيخٌ خفِىَ الليلُ عن بياض النهار[3]
[١٢٨-ب] /صانك الله عن كَلالك فيها فمن العــار[4] كَلَّةُ المسمار

فافتضهن أجمع فى ليلته ، وكتب إليه :

قد فضضنا ختامَ ذاك السِّوار[5] واصطبغنا من النجيع الجـارى

(١) كذا فى الأصل ، وفى يتيمة الدهر لأبى منصور عبد الملك الثعالبى (طبعة محيى الدين ، القاهرة ، بدون تاريخ) ، ٢/٦٢ :

* ولكنْ أطعتُ اللهَ فى كل كافر *

(٢) الأصل : عمر بن شهيد وهو خطأ ، وقد صوبت الاسم من الذخيرة ، قسم ٤ مجلد ١ ص ١٦ ، وقد وردت نفس الأبيات هناك ، ص ١٨ — ١٩ . وقد سبقت ترجمته .

(٣) الذخيرة ، قسم ٤ مجلد ١ :

فاتئـد واجتهـد فإنك شيخ قد جـلا الليلَ عن بياض النهار

(٤) الأصل : الصدر ، والتصويب من الذخيرة .

(٥) كذا فى الأصل وفى مخطوط الذخيرة ، وقد صوبه المحققون إلى : الصوار .

ونعمنا فى ظـــل أنعم ليل ولهـــونا بالدر أو بالدرارى(١)
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذى مضاء عضب الظُّبى بتارِ
فاصطنِعْه ، فليس يُجزيك كفراً واتخِذْه سيفاً على الكفارِ

قال ابن حيّان : وكانت حجابة المنصور خمساً وعشرين سنة ، وعمره خمساً — أو ستًّا — وستين سنة .

١٠٢ — عبد الله بن عَمرو بن أبى عامر ، أبو حفص

كان أبوه عمرو — وهو الملقب بـ « عَسْكلاجة » — صاحب المدينتين(٢) فى أيام هشام المؤيد ، بتقديم ابن عمه المنصور محمد بن أبى عامر . ثم وَلِى بلادَ المغرب بعد ذلك فاشتد سلطانُه هنالك ، واستنزل حسنَ بن القاسم العَلَوى الإدريسى وأنفذه إلى الأندلس . وكان صارماً مهيباً جباراً قاسياً(٣) ، وقتلَه(٤) ابنُ عمه المنصور بتنقصه إياه وغضِّه منه وتسخُّيه عليه احتجانه الأموال دونه

(١) الذخيرة :

وصَبَوْنا فى ظـــل أطيب عيش ولعبنـــا بالدر أو بالـــدرارى

(٢) أقام المنصور بن أبى عامر ابنَ عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر على مدينة قرطبة عقب توليه هو الشرطة العليا لكى تتم له السيطرة على شؤون الأمن والحراسة فى العاصمة ، وكان محمد بن أبى عامر قد سلك فى حكومة المدينة سياسة العنف والشدة حتى أقر الأمن فيها ؛ ثم استناب عن نفسه ابن عمه هذا فسار سيرته (ابن عذارى، البيان : ٢/٢٦٦ — ٢٦٧) وعند تمام بناء مدينة الزاهرة أقامه عليها ؛ فأصبح يلقب بصاحب المدينتين .

(٣) كان ذلك فى الغالب سنة ٣٧٥ ، وقد روى ابن عذارى إرسال المنصور جيشاً كثيفاً فى تلك السنة إلى المغرب للقضاء على ماكان يحاوله حسن بن كنون من الخروج عن طاعة الأمويين كما سبق أن رويناه . وحسن بن القاسم المذكورهنا هو حسن بن كنون بن القاسم ، وقد قتله المنصور غدراً بعد أن استسلم على أمان وقبل أن يذهب إلى قرطبة . البيان المغرب : ٢/٢٨١ .

(٤) أى قتل عمراً أبا المترجم له هنا .

[بعد أن][1] استقدمه من المغرب ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة .

ومن شعر أبى حفص هذا يذم المظفرَ عبدَ الملك ، لما زوَّج « حبيبة » بنت ابن عمه عبد الله بن يحيى بن عبيد الله بن أبى عامر — وهى بنت أخته « بُرَيْهَة » — من عبد الملك بن قند مولاهم :

عـــــربىٌّ مزوِّجٌ عبدَه بنتَ أختهِ
قبَّح الله فعلَ ذا ورماه بمقتـــــهِ

وقد قيل إنهما لعبد الملك بن يحيى ، أخى عبد الله بن يحيى المذكور .

١٠٣ — زياد بن أفلح
مولى الناصر عبد الرحمن بن محمد

كان من وزراء الدولة العامرية وكبار رجالها ، وتوفى فى أولها سنة ثمان وستين وثلاثمائة — ذكر ذلك ابنُ حيّان فى تاريخه الكبير ، وذكر فى « الدولة العامرية »[2] أنه كان على المدينة ، وأن جُؤذُراً الفتى الحكمى تحيَّن ركوبَ

(١) أضفت هاتين الكلمتين للسياق .

(٢) إشارة إلى كتاب ابن حيان الخاص بالدولة العامرية ، وهو المعروف بـ « البطشة الكبرى » وقد احتفظ لنا بأجزاء منه ابن بسام فى الذخيرة (قسم ٤ مجلد ١) ص ٣٩ وما بعدها ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام (بيروت ١٩٥٦) ص ٤٨ وما يليها ، وابن عذارى فى البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٣ وما يليها . ولكن ما ينقله ابن الأبار هنا لا يوجد فى أى من تلك المراجع . وله لهذا أهمية كبرى ، رغم إيجازه . وإليك تفصيله :

بعد أن استقر الأمر على أن يظل هشام المؤيد خليفة بعد أن تخلص جعفر المصحفى ومحمد بن أبى عامر من المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، شعر صقالبة القصر وعلى رأسهم الفتيان —

زيادٍ هذا إلى داره بطرف المدينة ، حين توصَّل إلى هشامٍ المؤيد ، عازماً على الفتك به ، عند مداخلته الجماعةَ الذين اجتمعوا على خلعه ، بتدبير عبد الملك ابن القاضي منذر بن سعيد صاحب خطة الرد ، فبُطش بجُوْذَر / وقُبض عليه بمبادرة [١٢٩-١]

جؤذر وفائق بأن الأمر صار فى الحقيقة إلى المصحفى وابن أبى عامر ، تعاونهما صبح أم المؤيد . فأخذا يعارضان هذا الثالوث الذى استأثر بالحكم . وتنبه ابن أبى عامر لخطر الصقالبة ، فما زال يضايقهم حتى استصدر من هشام أمراً بعزل جؤذر وفائق عن رياستهما ، فعرضا الانصراف من القصر مع أتباعهما فأجيبا إلى ما طلبا وانتقلا إلى دورهما فى المدينة . وكان يلى المدينة إذ ذاك زياد بن أفلح المترجم له هنا ، وكان فى الباطن من الناقمين على الثالوث الحاكم المتوجسين شراً من ابن أبى عامر.

وبعد أن تمكن محمد بن أبى عامر من إسقاط جعفر المصحفى والانفراد بالحجابة سنة ٣٦٧/ ٩٧٨ تبين لجؤذر وفائق وشركائهما أنه لابد من معاجلة ابن أبى عامر ، فدبروا فى السنة التالية مؤامرة ترمى إلى أقصاء هشام المؤيد عن الخلافة والمناداة بحفيد لعبد الرحمن الناصر يسمى عبد الرحمن ابن عبيد الله . وقد اشترك فى المؤامرة زياد بن أفلح وعبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطى ، وكان يلى خطة الرد فى قرطبة ، والشاعر يوسف بن هارون الرمادى . وفشلت المؤامرة ، وخاف زياد بن أفلح أن يفتضح أمره فألقى بزملائه المتآمرين فى السجن . ويفهم من رواية ابن الأبار أن جؤذراً لم يسجن ، وحاول أن يغتال زياد بن أفلح انتقاما منه على الصورة الواردة فى النص . ولم يوفق جؤذر فى ذلك لأن أحمد بن محمد بن عروس (ويبدو أنه كان يتولى وظيفة كبرى من وظائف الشرط) قبض عليه ، فأسرع زياد بن أفلح — وكان فى داره — مخافة أن يتكلم جؤذر ويفضحه ، ولكن يبدو أن هذا تكلم ، ولهذا وبخ ابن عروس زياد بن أفلح «وتعاونا فى النازلة» أى على كتمان الأمر . وقد قتل عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عقب ذلك . أما عبد الملك بن منذر فقد اتهم بالزندقة والاعتزال ، وأفتى عليه بآية الحرابة كما يقول ابن الأبار ، فأشار زياد بن أفلح بصلبه تقرباً لابن أبى عامر ، فصُلب عند باب السدة فى منتصف جمادى الثانية ٣٦٨/١٨ يناير ٩٧٧ . وتوفى زياد بن أفلح بعقب ذلك . أما الشاعر الرمادى فقد هرب واختفى حتى عفا عنه المنصور.

انظر : طوق الحمامة لابن حزم ، طبعة ليون برشير مع ترجمة فرنسية (الجزائر ١٩٤٩) ص ١١٤ — ١١٥ .

ASIN PALACIOS, *Abenmasarra y su escuela, en Obras Escogidas*, 1, 124.

LÉVI - PROVENÇAL, *op. cit.* II, 216 - 218.

بالإضافة إلى المراجع المذكورة فى أول هذا التعليق .

أحمد بن محمد بن عروس إلى تلافى الأمر . قال : ووافى زياد على إثر ذلك فوبخه ابن عروس ، فأخذ فى الاعتذار وتعاونا على النازلة ، وما سَلِم زياد من التهمة . وحُكى أن عبد الملك بن منذر فى هذه القصة — لما أفتى عليه بآية الحرابة ورَد إلى الخليفة الأمر فيما يختار له من العقوبة — أشار صاحب المدينة زياد بن أفلح هذا بأن يُصلب ، استبلاغاً فى المثلة — يبغى بذلك التقرب إلى ابن أبى عامر ونفى التهمة عنه — فعمل برأيه ، وذلك فى سنة سبع وستين وثلاثمائة . وزياد هو القائل :

وأصبحتِ الدنيا بأوْبتك الرضا لذىّ وَصلٍ صافٍ لقفا الصَّدِّ
ولِمْ لا ، ودهرى كلُّه بك مونقٌ ؟ أرقُّ - إذا ما شئتَ - من طُرّتَى بُرْدِ

١٠٤ — فَرْحُون بن عبد الله
يُعرف بابن الوَبْلة(١)

وهو محمد بن عبد الله بن عبد الواحد ، ويُشهَر بفَرْحُون . كان والياً على شنترين بغرب الأندلس ، فى أيام الحَكم المستنصر بالله أو ابنه هشام المؤيد بالله ، وقدم عليه أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى منتجعاً ، فأمر بإنزاله ، فقصّر به متولّى ذلك ، فكتب إليه الرمادى :

أيها العارض والمُهْـ ـدِى لمستسقيه وَبْلاَ
حين لا يهدى إذا ما اُسْـ ـتُسْقِىَ العارض طَلاَّ

(١) الأصل : الدبّله ، والتصويب من دوزى ، ص ١٥٥ .

قائداً أفنت مغازيـ ـهِ العِدا سبياً وقتـلا
إنَّ ضيفاً قاصداً قد ت له : أهلا وسهلا
قد توسعت له فيـ ما يَسُرُّ الضيفَ نُزُلا[١]
ما له فرش على الأر ض سوى وجه مُصَلَّى
فأنا لولا [اصطبار][٢] ردَّ منه الوعرَ سهلا
لم تجـد عيني لنومٍ بمبيتِ السوء كَحْلا

فوردت الأبيات على فرحون وهو خارج إلى الغزو ، فخجل من ذلك ، وأمر له بما طلب ، وقرن ذلك بجارية ، وكتب إليه معتذراً من التقصير :

أيها السـيد أهلا بالذى أهديتَ أهـلا
ما يُناوِيك مُنـاوٍ إن وصلتَ القولَ وصلا
شاعراً نَدْباً نبيـلا محسناً جِـدًّا وهزلا
ما تولَّى الشعرَ إلا ردَّ منه الوعرَ سهلا
شِعرُه سَحٌّ ووَبْلٌ إذ يكون الشعرُ طَلاّ
محكَمٌ غضٌّ بديعٌ لا يكادُ الدهرَ يَبْلَى
/فله ما قلتُ أهـلا ثم رحباً ثم سهلا [١٢٩-ب]
أيها السـيد مهلا بأخيك المحضِ ، مهلا[٣]
إن شكواكَ إلينـا ولَّدَتْ فى النفس خَبْلا
ونفَتْ نومى فلـا تـكتَحِل عيناىَ كَحْلا

(١) قرأها دوزى : خزلا ، وصوبها إلى : خذلا .
(٢) بياض بالأصل ، وقد أكملته بما يناسب الوزن والمعنى .
(٣) الأصل : أهلا ، ولكن السياق والمقابلة مع الشطر الأول يقتضيان هذا التعديل .

ما على عمدٍ ولكنَّ (م) ما جهلنا الأمرَ جهلا
وظننّا بالمكازى[1] إنه أكرمُ بذلا
فابسُطَنْ عذرى وإن لم أكُ للأعذارِ[2] أهلا
يا أخى أنت ومولًى وقليلٌ لك مولَى
قد بعثنا بفراشٍ فاهجرنْ وجهَ المصلَّى
ووصلناه بغيذا ء كبدرٍ يتجلَّى
فتفضّلْ بقبولٍ لا عدمتَ الدهرَ فضلا
وورا ذلك منى سترى فضلا وفضلا

وله أيضا :

يارسولى أبلغْ إليها شكاتى واستنلها ولو بقاء حياتى
قل لها : قد قضى هواكِ عليهِ فهو ميت ، أو مؤذنٌ بالمماتِ
فالحظيهِ ترَىْ إذا شئتِ ميْتاً كان يحيا بأيسر اللحظاتِ
واعجبى أن تكونَ لحظةُ عينٍ منكِ تهدى الحياةَ للأمواتِ

١٠٥ — على بن وَداعة بن عبد الودود السلمى ، أبو الحسن

قال فيه الحُمَيْدى : أميرٌ كان قريباً من الأربعمائة . وقال ابن بسام ، وذكر صاعداً اللغوى : انتهت به الحال إلى أن أُغرِم ، فاستغاث علىَّ بن وداعة ، أحدَ الفرسان الأبطال ، ونبهاء الدولة كان فى ذلك الأوان . قال : ومن شعره فيه :

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعله اسم الشخص الذى وُكِلَ إليه إنزال الشاعر والحفاوة به .

(٢) الأصل : فابسطن عذرى وإنى لم أكن للأعذار أهلا

والبيت على هذه الصورة مختل الوزن ، وقد أبدل دوزى (ص ١٥٧ آ) كلمة « للأعذار » بـ « للعذر » ، وما أثبتناه أصلح وأقوم .

أبا حسنٍ ، ربيعةُ من سُلَيْم سِنانٌ زانَ عاليةَ الرماحِ
وإنى عائذٌ بك من هناةٍ(١) تَحُشُّ دعائمى تحت القِداحِ
فكُرَّ على ابن عمك وانتشِلْهُ فليس حِمى ابنِ عمك بالمباحِ
فإن الجار عندك بين جَنْبَىْ عُقابِ الدَّجْنِ كاسرةِ الجَناحِ
نظنك طالعاً ببنى سُلَيْمٍ عليها عند مفتضَحِ الصباحِ
إذا ساورتَ قِرْنَك فى مِكَرٍّ جعلت له ذراعَك كالوشاحِ

ومن شعر ابن أبى وداعة :

زار الحبيب فمرحباً بالزائرِ أهلا ببدرٍ فوق غصنٍ ناضرِ
/قبَّلتُ من فرحى ترابَ طريقِهِ ومسحتُ أسفلَ نعلِهِ بمحاجرى [١٣٠-١]
وخشيت أن يَنْقَدَّ إخمصُ رِجلِهِ من رقةٍ فبسطتُ أسْودَ ناظرى

---

(١) فى الأصل بالتاء المفتوحة ، وصححها كما أثبتناه . والهناة الداهية ، وقد حسب ناشرو الذخيرة أنها مستعملة هنا جمعاً لأنهم قرأوا الكلمة الواردة بعدها تَحُتَّن . وصحة قراءتها كما هى هنا. انظر : الذخيرة (قسم ٤ مجلد ١) ص ٣٨ .

وقد روى ابن بسام فى الذخيرة (نفس المرجع ص ٣٧ وما بعدها) تفصيل ما جعل صاعدا يستغيث بعلى بن وداعة ، وخلاصته أن صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادى ساءت حاله بعد العز الذى كان فيه أيام المنصور ، و« طولب فى أخريات تلك الدولة ، وانتهت به الحال إلى أن أُغرم فى خبر طويل » فاستغاث بعلى بن وداعة شعراً ونثراً ، فما انتفع بعلى بن وداعة ، ولا كانت فيه شفاعة ، فتوجه إلى الخليفة هشام يرجوه معاونته ، ثم قُتل ابن وداعة ولم يبق عند صاعد أمل ، إذ اضطربت الأحوال وارتجت الفتنة وضاع أمر صاعد « بين غلاء السعر ورخص الشعر » . ورفض رجال هشام المؤيد أن يأذنوا لصاعد فى مبارحة الأندلس خوفاً من لسانه ، فخرج مستخفياً ولجأ إلى أبى زيد البكرى صاحب جزيرة شلطيش سنة ٤٠٣ ، ومن هناك ذهب إلى صقلية حيث تحسنت حاله ، ثم عاد إلى الأندلس ليأخذ أهله وعياله ، ومدح الخليفة المستعين فلم يظفر منه بطائل ، فعاد إلى صقلية وتوفى فيها سنة ٤١٠ .

١٠٦ — يَعْلَى بن أحمد بن يعلى

كان أبوه من رؤساء الدولة الأموية وقوادها الجِلَّة ، وكان يَعْلَى هذا في دولة المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر . ومن شعره ، وقد بعث إليه بورد مبكر :

بعثتُ من جَنتي بوردٍ غضٍّ له منظرٌ بديعُ
قال أناس رأوْهُ عندي : أعجَلَه عامُنا المُريعُ
قلتُ : أبو عامرِ المعلَّى أيامُه كلُّها ربيعُ

وتوفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة . وله يرثي أبا علي البغدادي من أبيات :

أمات العلمَ موتُ أبي عليّ منارِ العلِم والفضل الرضيِّ
سأبكي بعدَه سرًّا وجهراً كما يبكي الوليُّ على الوليِّ
ولو لم أبكه حزناً ووجداً إذاً ما كنتُ بالرجل الوفيِّ
إذا قلبٌ خلا من حب مَيْتٍ فقلبي ليس عنه بالخليِّ

وله :

إني هجرتُ الغانياتِ جميعاً ونزعتُ عن كَلَفي بهنَّ نُزوعاً
ورفضتُ لذّاتي فصرتُ لناصحٍ بعد الإباية[1] سامعاً ومطيعاً
ونَهى النُّهى قلبي فأقصر وارعوى واعتاض بعد الكبرياء خشوعاً

ورأيتُ رشدى واضحاً بعد العمى   فنكصتُ عن غىِّ الضلالِ رجوعاً

يا حسرةً ساعاتُها ما تنقضى   كيف النجاةُ وقد أسأتُ صنيعاً ؟

* * *

ومن ملوك إفريقية ورجالهم فى هذه المائة :

١٠٧ — محمد القائم أبو القاسم بن المهدى عبيد الله

/ قد تقدم الاختلافُ فى نسب عبيد الله إلى الحسين بن على ، رِضوانُ الله [١٣٠-ب] عليه ، فمن مُسَلِّمٍ ما ادعاه ومن دافعٍ له فيما حكاه ، وهو الأكثر وهو الأصح والأظهر .

واختُلف أيضاً فى اسم القائم هذا ، فقيل عبد الرحمن وقيل حسن وقيل محمد ، وبهذا الاسم كان يُذكر فى الأمداح[1] ، قال على بن محمد الإيادى التونسى :

أعجبْ بأسطولِ الإمامِ محمدٍ   وبحسْنه وزمانه المستغربِ

لبِسَتْ به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ   يبـدو لعين الناظر المتعجبِ

وتقدم أيضا ذِكرُ وروده المغربَ مع أبيه وما قيل فى تبنِّيه وهو يومئذ

---

(١) أشار إلى الاختلاف فى اسمه محمد بن على بن حَمَّادُه فى كتابه « أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » (بتحقيق م . ڤوندرهايدن ، باريس - الجزائر ، ١٩٢٧) ص ١٢ ، ورجح أن صحة الاسم محمد واستدل على ذلك بأن أبا القاسم القائم عندما سار إلى المغرب الأوسط فى حياة أبيه فى صفر سنة ٣١٥ لحرب محمد بن خزر الزناتى ومن تبعه من زناتة اختط مدينة المسيلة وسماها « المحمدية » باسمه ، وهذا يدل على أن اسمه محمد ، بخلاف من يقول إن اسمه عبد الرحمن .

حَدَث . ثم بويع له بالخلافة بعد عبيد الله للنصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وأخفى القائم موته[١] سنة .

وكان فى حياة أبيه — على الخلاف فيه[٢] — أظهرَ منه فى خلافته ومصيرِ الأمر إليه : غزا قبل ذلك الإسكندريةَ فى عسكر عظيم فملكها مع الفيوم وصار فى يديه أكثرُ خراج مصر وضيّق على أهلها وحاربه مؤنسٌ الخادم بها . وكان خروجُه من رَقّادة فى سنة إحدى وثلاثمائة ، ولستٍّ بقين من جمادى الأولى سنة ثلاثمائة وَصَله جيشُ حباسة[٣] بن يوسف صاحب المهدى فى مائتى مركب فنزل فسطاطَ مصر والإسكندريةَ ، وقَوِيَ على مؤنسٍ[٤] بالرجال والأموال ، وشخص لحربه فكانت بينهما وقعة قتل فيها خلق من الفريقين ، ثم انصرف حباسة[٥] ومن معه عن الإسكندرية راجعين إلى المغرب بعد هزيمة وقعت على المغاربة .

---

(١) أى أنه أخفى موت أبيه سنة . وقد أشار ابن عذارى إلى حزن القائم على أبيه حزناً شديداً فى ص ٢٠٨ (ج ١) من البيان المغرب .

(٢) أى على رغم الخلاف فى بنوته له . ويحتمل أيضاً أن يكون المراد : على الخلاف فى أمر عبيد الله نفسه .

(٣) الأصل : حباشة ، والأصح ما أثبتناه . وقد كتبه ناشرو « النجوم الزاهرة » حَبَاسة بفتح الحاء ، والأغلب الضم . راجع المناقشة فى ضبط الاسم فى « النجوم » : ١٧٢/٣ .

(٤) مؤنس الخادم القائد العباسى الطائر الصيت ، وقد سماه ابن حَمَّادُه « مؤنس الخادم الذى يعرف بالفحل أو يدعى المظفر » (ص ١٢) .

(٥) هذا التفصيل من ابن الأبار يحل خلافاً كبيراً بين المؤرخين ، فبعضهم (مثل الطبرى والكندى) يقولون إن القائد كان حباسة بن يوسف ، وبعضهم الآخر (مثل عريب بن سعد وابن خلكان والمقريزى) يقولون إن القائد كان القائم ، وانفرد أوتيخا بالقول بأن عبيد الله المهدى أرسل ابنه القائم بجيش مدداً لحباسة بعد استيلائه على الإسكندرية والفيوم (انظر المناقشة عند حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ١١٣ هامش ١) .

وقد فصّل ابن عذارى (البيان المغرب : ١٧١/١ — ١٧٢) أخبار هذه الحملة تفصيلا شافياً ، وذكر السبب فى قتل المهدى لحباسة بن يوسف وعروبة بن يوسف وجميع قرابتهما . وهناك تفاصيل أخرى عن هذه الحملة فى « أخبار بنى عبيد » لمحمد بن على بن حماده ، ص ١١ — ١٢ .

ثم غزا فى حياة أبيه ثانيةً ، وعند وصوله إلى الإسكندرية — وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وثلاثمائة — خرج عاملُ المقتدر عنها ودخل الجيزة[1] من أرض مصر فى خلق عظيم .

وكتب القائمُ إلى مكة وإلى مَن حولَها يدعوهم إلى طاعته ويعدهم الجميلَ ، وقال : « نحن أهل بيت الرسول ، ومن أحق بهذا الأمر منا ؟ » ، وضمَّن الكتابَ أبياتاً يقول فيها :

أيا أهل شرق الله زالت حلومُكمْ   أم اصَّدعت من قلة الفهم والأدبْ ؟
فويحاً لكم خالفتمُ الحقَّ والهُدى   ومَن حاد عن أم الهدايةِ لم يُصِبْ
/ فيا مُعرضاً عنى وليس بمُنصفى   وقد ظهر الحق المبينُ لمن رغِبْ [١٣١-١]
ألم ترنى بعتُ الرفاهــةَ بالسُّرَى   وقمتُ بأمر الله حقًّا وقد وجبْ

فلما وصل إليهم الكتاب بعثوا به إلى المقتدر ، فأرسل إلى أبى بكر الصُّولى بعد قراءته الرسالةَ والشعر ، فدفع إليه الشعر وقال له : جاوِبه عنه ، فكتب إليه :

عجبتُ وما يخلو الزمانُ من العجبْ   لقول امرئٍ قد جاء بالمَيْن والكذِبْ

(١) الأصل : الجزيرة ، والتصحيح من « القضاة والولاة » للكندى ، بتحقيق روفن جست ، ص ٢٧٥ . والثابت من مراجعنا أن القائم لم يستطع دخول الجيزة ، إذ ظل فيها « تكينُ » عامل مصر حتى وصلت عساكر المهدى ومراكبه فى النيل قادمة من الإسكندرية ، وانتصر تكين على القائم وظفر بمراكبه فى شوال ٣٠٧ ، ثم أقبل إلى مصر مدد بغداد يقوده مؤنس الخادم فى محرم ٣٠٨ ، واستمر القتال بين الجانبين ، وفى أثنائه استولى القائم على الفيوم وجزيرة الأشمونين وعدة بلاد ، فأتت نجدة أخرى من بغداد يقودها جِنِّى الخادم المعروف بالصَّفْوانى ، فكانت بين الجانبين حروب طويلة فى الفيوم والإسكندرية ، ثم انصرف القائم عن مصر إلى برقة عائداً إلى إفريقية ، وعزل تكين عن ولاية مصر فى ١٣ ربيع الأول ٣٠٩ .

انظر : أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ٣/١٩٥ — ١٩٧ .

وجاء بملحونٍ من الشعر ناقصٍ فسحقاً له من مدعٍ أفضلَ النسبْ

فمَن أنت يا مَهدى السفاهةِ والخَنا فقد قمتَ بالدين الخبيث وبالريَب

فلم يجيبوه . وهى قصيدة طويلة ، منها فى ذكر الخلفاء من بنى العباس :

ومعتَمِدٍ من بعـــدِهِ وموفقٍ يرددُ من إرثِ الخلافة ما ذهبْ

نوازِلُهم[1] فى كلِّ فضلٍ وسؤددٍ وإن لم يكن فى العَدِّ منهم لمَن حَسَبْ

أنشدهما أبو إسحاق إبراهيم بن تميم القيروانى الحصرى فى كتاب « زهر الآداب وثمر الألباب » من تأليفه . وقد أجرى ذِكر الموفق أبى أحمد بن المتوكل ومَدْح ابن المعتز له ، قال : ويلقب بالناصر وبالموفق ، كانت حاله قد ترقّت فى أيام المعتمد إلى غاية لم يبلغها الخليفة[2] . وقد ذكره الصولى فى قصيدته لصاحب المغرب ، وقد اقتص[3] خلفاء بنى العباس من أولهم ، وذكر البيتين . والموفق هذا هو الذى قتل صاحب الزنج القائم بالبصرة ، بعد مواقمات كثيرة ومحاربات شديدة ، وفى ذلك يقول ابن الرومى فى قصيدته الطويلة الجليلة :

أبا أحمدٍ أبليت أمةَ أحمدٍ بلاءً سيرضاه ابنُ عمكَ أحمدُ

حصرتَ عبيدَ الزنج حتى تخاذلت قواه وأودى زاده المتزود

فظلَّ ــ ولم تقتلْه ــ يلفظ نفسَهُ وظلَّ ــ ولم تأسرْه ــ وهو مقيَّد

فما رُمتَه حتى استقلَّ برأسهِ مكانَ قناةِ الظهر أسمرُ أجرد

---

(١) الأصل : مواز لهم . والتصويب من « زهر الآداب » للحصرى القيروانى ، بتحقيق زكى مبارك ، ٣/١٩٣ .

(٢) فى « زهر الآداب » للحصرى القيروانى (بتحقيق الدكتور زكى مبارك ، القاهرة ، بلون تاريخ) ، جـ ٣ ص ١٩٣ : خليفة .

(٣) فى الأصل : اقتصر ؛ والتصويب من زهر الآداب ، نفس الجزء والصحيفة .

/ وكان صاحب الزنج يدعى الانتماء إلى بيت على رضى الله عنه ، ومنحاه [١٣١-ب]
نحا العُبيديون بعدَه ، وينال من بنى العباس نيلَ هؤلاء منهم ، وفى ذلك يقول :

لَهفَ نفسى على قصورٍ ببغدا دَ وما قد حَوته من كلِّ عاصِ
وخمورٍ هناك تُشرب جهراً ورجالٍ على المعاصى حِراصِ
لستُ لابن الفواطم الغُرِّ إن لم أُجلِ الخيلَ بين تلك العِراصِ

وقرأتُ فى كتاب أبى الحسن على بن بحر بن أبى السرور الروحى الإسكندرى أن المهدى عبيد الله سيَّر ولىَّ عهده أبا القاسم ابنَه إلى مصر دَفعتين : الأولى فى سنة إحدى وثلاثمائة ، قال : وعاد فى سنة اثنتين وثلاثمائة ، والثانية سنة ست وثلاثمائة ، وحُكى أنه ملَكَ الإسكندريةَ فيهما .

وقال غيرُه : فى أيام عبيد الله بَطَل الحجُّ وأُخذ الحجرُ الأسود ، أخذه القرامطةُ وأقام عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا شهراً ، وقتِل المقتدر ببغداد وأظهر عبيدُ الله عندما بلغه الخبر أن دعاته قتلوه بأمره ، وجلس لذلك مجلساً(١) .

وحكى الصولى أن الذى قتله رجل من أهل المغرب بربرى يقال له عليّون الصَّنهاجى ، رماه بحربة — وهو على فرسه يُصلِح بين الجند — فى ظهره فخرجت من صدره ووقع ميتاً .

وكان « القائمُ » فى حياة عبيد الله القائمَ بالأمور والد[ولة] ، فلما أفضت

---

(١) وردت بنفس العبارة فى تاريخ بنى عبيد لابن حمادُه ، فأكلتها منها (ص ١٧) . وما قاله عبيد الله الشيعى لا يستبعد ، والخبر الذى يرويه ابن الأبار عن الصولى بعد ذلك يقوى هذا الاحتمال . ويقويه كذلك ما جاء فى النجوم الزاهرة (٣/٢٣٣) : «وكان غالب عسكر مؤنس (القائد الذى خرج على المقتدر وقُتل المقتدر وهو يحاربه ، وهو نفسه مؤنس الخادم) من البربر ، فلما انكشف عن المقتدر أصحابه ، جاءه واحد من البربر فضربه من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض ، فقال : ويلك ! أنا الخليفة ! ، فقال : أنت المطلوب ! وذبحه بالسيف ، وشال رأسه على رمح . . » .

الخلافة إليه ظهر أبو اليزيد[١] الخارجي مخلد بن كيداد عليه فعجز عن مقاومته ولم يستقل بمدافعته ، فتغلب على البلاد فى جموع البربر الملتفة عليه إلى أن حصره فى المهدية . وأبو يزيد من بنى يَفْرَن[٢] ، ويُقال إن الذى قُتِل فى فتنته أربعمائة ألف . وللإنذار به والتحدث بخروجه[٣] بنى « المهديةَ » عبيدُ الله وجعلها دار ملكه وقرار سلطانه . وقال بعد تحصينها وعند انتقاله إليها : « اليوم أمنت على الفواطم »[٤] ، يريد حُرَمه .

وكان قيام أبي يزيد فى آخر خلافة القائم سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وتوفى القائم يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من شوال سنة [أربع وثلاثين وثلاثمائة] .

/ وكان[٥] القائم وَلَّى ابنَه إسماعيلَ عهدَه وفوضَ إليه أمرَه ، وذلك فى سنة أربع وثلاثين ، وأدخل عليه جماعةً من وجوه كتامة ورؤسائهم فقال : « هذا مولاكم وولى عهدى والخليفة من بعدى ، وهو صاحب هذا الفاسق وقاتله » ، يعنى أبا يزيد[٦] . [١٣٢-١]

وقال ابن حيّان فى تاريخه « المقتبَس من أنباء أهل الأندلس » : وفى العشر الأواخر من ذى الحجة منها — يعنى سنة أربع وثلاثمائة — قدم محمد بن محمد ابن كُليب من القيروان فحكى أن أبا القاسم بن عبيد الله الشيعى صاحب المهدية

---

(١) المشهور « أبو يزيد » بدون أداة التعريف .

(٢) الأصل : يغرن ، والصواب بالفاء كما أثبتناه ، واسمه الكامل كما أورده ابن عذارى (البيان المغرب ، ١/٢١٦) : مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان ابن وُرِيمت بن تبقراسن (فى نسخة أخرى : تنفراس) بن سميدان ابن يَفْرَن .

(٣) يقال إن عبيد الله المهدى تنبأ بخروج أبي يزيد بن كيداد ، وأنه بنى « المهدية » لتكون حصناً له ولدولته عند قيامه .

(٤) المشهور أنه قال : « الآن أمنت على الفاطميات » .

(٥) الأصل إن .

(٦) وردت نفس العبارة عند ابن حمادُه فى تاريخ بنى عبيد ، ص ٢١ .

هلك فيها وهو محصور من قبل أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى النكارى المعروف بصاحب الحمار القائم عليه فى جموع البرابرة ، وأن شيعته قدّمت إسماعيلَ ولده ، وأنه فارس شجاع أبى النفس ، أقدم على أبى يزيد وجموعه ولاقاه بمدينة سوسة فانهزم أبو يزيد قُدّامه إلى القيروان ثم إلى سبيبة . زاد غير ابن حيان : وما زال يتبعه إلى أن ظفر به حيًّا وقيذاً بالجراح فمات منها وهو فى أسره ، فأمر به فسُلخ وطيف به .

وإسماعيل المنصور هـذا أبو الطاهر ، وابنه أبو تميم معد بن إسماعيل المعز لدين الله ، كانا خطيبين مفوهين ، ولم أقف لهما على شعر أكتبه فى هذا المجموع ، وسيأتى ذكرهما بعدُ إن شاء الله . وكانت خلافة القائم اثنتى عشرة سنة وسبعة أشهر ، وتوفى وهو ابن خمس وخمسين سنة ومولده بسَلَمْيَة .

١٠٨ — تميم بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيد الله ، أبو على

شاعر أهل بيت العُبيديين غير منازَع ولا مدافَع ، وكان فيهم كابن المعتز فى بنى العباس غزارةَ علم ومَتَانةَ أدب وحسنَ تشبيه و إبداعَ تخييل ، وكان يقتفى آثاره ، ويصوغ على مناحيه فى شعره أشعارَه . ولّاه أبوه المعز لدين الله معد بن إسماعيل المنصور عهدَه ، و به كان يُـكنى ، فخُلع برأى جوهر الصقلى لأنه كان عقيماً لا يولد له ، ووَلِىَ أخوه عبد الله فتوفى فى حياة أبيه ، ثم وَلِىَ العهدَ أخوه أبو المنصور نزار العزيز بالله ، وانتقلا من إفريقية إلى مصر بانتقال أبيهما معد ابن إسماعيل فى آخر سنة إحدى وستين وثلاثمائة .

وشِعر تميم مدوّن ، ومحاسنه كثيرة ، وتصرفاته بديعة . ووقع منه فى كتابىَ

الحصْرى « زهر الآداب وثمر الألباب » و « نُور الطَّرف ونوْر الظَّرف » كل نادر غريب .

[١٣٢-ب] /وكان تميم لما استقر بمصر وتوفى أبوه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين [وثلاثمائة] وولىَ أخوه نزار يمدحه ويداريه طلباً للسلامة منه ، لأنه لم يكن يأمن عاديته[1] بسبب انخلاعه عن العهد . وكذلك كان ابن المعتز يدارى المعتضدَ والمكتفى ابنَه ويمدحهما ويمدح عمه الموفق رغبة فى التخلص منهم ، لأنه كان أهلا للخلافة فعصمه الله بذلك من هؤلاء ، وقُدِّر أن طاح على يدى المقتدر بعدَ أن بويع له من الليلة التى قبض عليه فى صبيحتها ، ولقب بالراضى بالله — وقيل بالمنتصف بالله — وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين .

ومن شعر تميم فى أخيه نزار :

يا ابنَ الوصىِّ المرتَضَى ، يا ابنَ الإما ... مِ المجتبَى ، يا ابنَ النبىِّ المرسلِ[2]
ما بال مالِك ليس يرميـه الندى ... إلا يوافق منـه موضع مقتلِ ؟
أنت المحصَّل[3] فى زمانٍ أصبحتْ ... أملاكُه كالقول غـير محصَّلِ
لو لم تكن فى جحفلٍ لغدوتَ من ... عَزَمات رأيك وحدِها[4] فى جحفل
عجباً لأبصارٍ تراك ولو درتْ ... مقدارَ فضلِك كن عنك بمعزل

(١) فى الهامش بخط مخالف : غائلته .

(٢) راجعت هذه الأبيات على أصل القصيدة كما وردت كاملة فى « ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى » (دار الكتب المصرية) ١٩٥٧ ، ص ٣١١ وما بعدها ، وقد أورد ابن الأبار مختاراته منها على غير نسقها فى القصيدة ، وهذا البيت والأربعة الأبيات التالية له وردت فى آخر صفحة ٣١٣ وأول ٣١٤ .

(٣) المحصَّل ، كما ورد فى الشروح الضافية المعلقة على متن الديوان : المميَّز ، وأصل التحصيل إظهار اللب من القشر وتمييزه عنه.

(٤) الديوان ، ص ٣١٤ : وحدها .

وهى قصيدة طويلة . ومنها فى وصف فرس له يدعى السرور :

نعم المعين على الوغى فى مأزق لَبِسَتْ به الأبطالُ نَقْعَ القَسْطَلِ[(١)]
فرسٌ أشَمُّ[(٢)] المَنْكِبَيْن مُقابِلٌ[(٣)] يرمى الجنادل من يديه بجندلِ
تُنبيكَ[(٤)] عن أنسابه أعضاؤهُ حُسناً ، وعن أخراه عِتقُ الأَوَّل
وكأنما مبيضٌّ أعلى وجهه وجبينِه ضوءُ الصباحِ المقبل
وكأنَّ دَفةَ [سَرجه ولجامه][(٥)] [شُدّا][(٦)] على ظهر السِّمَاكِ الأعزل
ويسابق البرقَ [المُثارَ بخَطوه][(٧)] ويَزيدُ فيه على الصبا والشَّمْأَل
صافى الصهيل كأنَّ [فى ترجيعِهِ][(٨)] غرد يغنى فى الثقيل الأول
ذو قَوْنَسٍ [مالتْ نواحى عُرفهِ][(٩)] مستشرِفُ الأعلى رحيبُ الأسفل
وكأنما فَلَقُ الصباحِ بوجهه ماءٌ بدا مترقرقاً فى جدول

(١) هذا هو مطلع القصيدة كما وردت فى الديوان ، ص ٣١١ ، وعنوانها هناك : وقال يمدح الخليفة العزيز بالله ، ويصف فرساً يدعى « السرور » .

والمأزق : الموضع الضيق الذى يُقتتل فيه ، والنقع : الغبار الساطع المرتفع ، والقسطل : الغبار فى الحرب .

(٢) الأشم : العالى المرتفع .

(٣) مقابل : كريم النسب من أبويه ، أصيل في طرفيه .

(٤) الأصل : تغنيك ، والتصويب من الديوان (ص ٣١١) .

(٥) لم يرد من هذا الشطر فى الأصل إلا : وكان ذو ، فصححته وأكملته من الديوان (ص ٣١٢) .

(٦) ساقطة فى الأصل .

(٧) ساقطة فى الأصل .

(٨) لم يرد من هذا الشطر فى الأصل إلا الكلمات الثلاث الأولى ، هكذا : صافى الصهيل كأنه .

(٩) وهذا أيضاً لم يرد منه إلا الكلمتان الأوليان ، هكذا : ذو قوس .

والقونس : أعلى الرأس ومقدمه ، وقونس الفرس : ما بين أذنيه ، وهو عظم ناتئ بينهما .

وله يمدح أخاه :

ألسنا [بنى] بنتِ النبىِّ الذى به تخلَّص من زَيْغ العمى الثقَلانِ[١]
أليس أبونا خِدنَه ووصيَّه وفارسَه فى كل يوم طِعانِ
فكُفُّوا بنى العباسِ عنا جِمَاحَكُم[٢] فقد طالما خُنتم بكل مكان[٣]
[١٣٣-ا] / متى لم تكونوا دوننَا وتُسابقوا بصالحنا[٤] فى كل يوم رهان
بمَن نُصر الإسلامُ فى يوم خيبرٍ ويومَ حُنينٍ والقنا مُتَدان ؟
أليس علىٌّ كان كاشفَ غَمِّها وما كان للعباس ثَمّ يَدان
ومَن فرَّجَ الغَمّاء عن وجه أحمدٍ بمكةَ لما رِيعَ كلُّ جَنان
فبات على ظهر الفراش بديلَه يقيه ردى الأعداء غيرَ جبان
وكم مثلها من مفخر وفضيلة حواها علىٌّ وهو ليس بوَان
وإن[٥] قلتمْ إنا جميعاً لهاشمٍ فما تستوى[٦] فى الجُثة العَضُدان
فلِمْ[٧] تدفعون الحقَّ والحقُّ واضحٌ ؟ دنا منكم ما كان ليس بدان
أمية كانت قبلَكم فى اغتصابها أحقّ ، فبادت[٨] وارتدَت بهوان

(١) اختار ابن الأبار هذه الأبيات من قصيدة لتميم فى مدح أخيه العزيز مطلعها :
دعانى ، فليس الرأى ما تريان نُهانى الحجا من كل ما تصفان
وقد ورد المصراع الأول من هذا البيت فى الأصل محرفاً هكذا :
* ألسنا بيت النبى الذى به *
(٢) الأصل : جماكم .
(٣) ورد هذا الشطر فى الديوان ، ص ٤٤٩ هكذا :
* فقد آن أن نغزو بكل مكان *
(٤) الديوان : لمنالحنا .
(٥) الديوان (ص ٤٥٠) : فإن .
(٦) الديوان : يستوى .
(٧) الديوان : فكم .
(٨) الديوان : فبادت .

أخذتم بغصبٍ إرثَنا وصعدتمُ منابرَ ما كانت لكم بأمانى[1]
وجئتم بأسماء يروق استماعُها وألفاظِ حُسنٍ ما لهن معان :
رشيدٌ ولم يرشَدْ ، وهادٍ وما هَدَى لحقّ ، ومأمونٌ بغير أمان
ومعتصمٌ لم يعتصم بإلهه ومقتدرٌ لم يقتدرْ ببيان
ومعتضدٌ بالإفكِ خاب اعتضادُه ومنتصرٌ بالبَغْيِ غير معان
أصيخوا فقدقام « العزيزُ » الذى له[2] تذلُّ خطوبُ الدهر بعد حِران
كأنَّ رواقَ العزِّ[3] من نور وجهه سماء بدا فى أفْقِها القمران
أغرُّ كنصلِ السيفِ يُمضِى اعتزامَه بكل رقيقِ الشفرتين يَمان
كأن المنايا والعطايا نوافلٌ يجود بها من مُنْصُلٍ وبنان
حويتَ أبا المنصور كلَّ فضيلةٍ وأمسكتَها دون الورى بعِنان
كأنك فى سيماك إذ قمتَ خاطباً وأعيُنُنا طرًّا إليك رَوَانِ
شبيهُ نبىِّ اللهِ جدِّك أحمدٍ ويشبهُ فرعُ البانةِ الغُصُنان
وكم عَلَوِىٍّ فاطمىٍّ مفضَّل ولكنهمْ ما فيهمُ لك ثان
ومن يدَّعى منهم مكانَك فى العلا فقد جاء بالبُهتان والهذَيان
إذا ما كفاك اللهُ ما أنت متَّقٍ شفانىَ مما أتقى وكفانى
وإنى لسهمٌ من سهامك ماطرٌ[4] على كل من عاداك سُمُّ سِنان
/ أراك بعينِ النصحِ فى كل حالةٍ على كل ما فيه[5] اعتقدت ترانى [١٣٣-ب]

(١) الأصل : بأمان ، والتصويب من الديوان .
(٢) الديوان : [الذى] به .
(٣) الديوان : الملك .
(٤) الأصل : قاطر ، والتصويب من الديوان ، ص ٤٥١ .
(٥) الديوان : فيك .

ومن ذا الذى يرعاك رعياً توده[١] على كل غيثٍ أو بكل عيان[٢]
أخ وولىٌّ مشفق وابنُ والدٍ شفيقٌ ومـــــدّاحٌ بكل لسان[٣]

وكان العزيز يُوالى إكرامه ويُجزل عطاءه ويعامله بما قتله[٤] علماً من صدق وده وإخلاصه فى مدحه .

ويحكى أنه تنزه إلى « بركة الحَبَش » فلما قرب من قصور أخيه تميم سأل عنه ، فأسرع إليه مَن عرّفه ، فخرج راجلا حافياً حتى لقيه ، فسلم عليه بالخلافة ، وقال : « يا أمير المؤمنين ، قد وجبت على عبدك الضيافة » ، قال : « نعم » ، ودخل إلى بستانه وقد أمر بجَنِيبةٍ من الجنائب التى كانت بين يديه ، وأقسم على تميم أن يركبها ويسايره ، فلما توسط البستان نظر إلى ثمر يلوح الذهبُ عليه ، فتعجب منه واستطرفه ، ودنا من شجرة فأخذ منها ليمونة واحدة ، فقرأها وإذا عليها مكتوبٌ بالذهب :

أنا الليمونُ قد غُذِيَتْ عروقى ببردِ الماء فى حرزٍ حريزِ
حَسُنْتُ فليس يَحْسُنُ أن يُحَيِّى بأمثالى سوى الملكِ العزيزِ

فجعلها فى كمه وقال : هـــذه ضيافتى عندك . وانصرف إلى قصره فبعث إلى أبى جعفر بن مهذب[٥] صاحب بيت المال ، فقال له : « ما عندك من الدنانير ضرب هذه السنة ؟ » — وكان ذلك فى أولها — فقال له : « مائة ألف وستون

---

(١) الديوان : عنى بوده .
(٢) فى الأصل : عيانى .
(٣) فى الأصل : لسانى .
(٤) كذا فى الأصل ، والمعنى مفهوم رغم نبو كلمة « قتل » هنا ، إذا صحت قراءتى لها .
(٥) ورد الاسم فى الأصل : جعفر بن مغرهب ، وجعلها مولر : قرهب . وقد غلب على ظنى أن المراد هنا هو أبو جعفر بن حسين (أو أبو جعفر حسين) بن مهذب ، وقد ذكره المقريزى (الخطط ٢/١٦٤ ، واتعاظ الحنفا ، ص ١٣٩) ووصفه بأنه صاحب بيت المال أيام المعز . والغالب أنه استمر على هذه الوظيفة أيام ابنه العزيز .

ألفاً » ، فأمره بحملها من ساعته إلى الأمير تميم مع راشد العزيزي ، وقال له : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك : استعن بهذا على مؤونتك . فقبَّل الأرض وبعث إليه من الغد قصيدة حسنة يمدحه فيها ويشكره .

وكانت أيام العزيز بمصر أعياداً ، رفاهيةً ودعةً وتمهُّداً . فكان تميم إذا جاء الليل أمر مائتي فارس من عبيده بحراسة الناس الخارجين في أيام النيروز والميلاد والمهرجان وعيد الشعّانين وغير ذلك من أيام اللهو التي كانوا ينحون فيها على أموالهم رغبة ويخرجون إلى بركة الحَبَش متنزهين ، فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات / والقباب ، ومنهم من يخرج بالقِيان والمُسْمِعات والمخدَّرات ، [١٢٤-ا] وخيلُ تميم تحرسهم في كل ليلة إلى أن ينصرفوا ويركب تميم في عُشاري[١] تتبعه أربعة زوارق وأكثر ، مملوءة فاكهة وطعاماً ومشروباً ، فإن كانت الليالي مقمرة وإلا كان معه من الشمع ما يعود به الليل نهاراً ، فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً أمرهم بإعادته ، وسألهم عما ينقصهم فيعطيهم ، وربما رغبوا إليه أن يُسمعهم من غنائه ، فيقف عليهم ويأمر من يغني لهم ، وينتقل عنهم إلى غيرهم فيفعل هذا عامةَ ليله ، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه على هذه البِركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضي هذه الأيام ويفترق الناس[٢] .

ولتميم يفخر :

---

(١) العشارى طراز من السفن متوسطة الحجم كان يستعمل في الأنهار والبحار للرحلات الصغيرة . وقد تلحق بالسفن الكبيرة لتكون قوارب نجاة ، وقد ورد ذكرها عند المقريزي والنويري وابن جبير وابن بطوطة وعبد اللطيف البغدادي ، أي أنها كانت معروفة في الشرق والغرب على السواء ، وعن العرب أخذها الأوربيون ، فسميت في إيطاليا باسمها العربي **usciere** (أوشييرى) وفي إسبانيا **esquife de nave** . ويبدو أنها سميت عشاريات لأنها كانت تتسع لعشرة أشخاص .

انظر : دوزى ، ملحق القواميس : ٢/١٣٠ .

(٢) روى هذا الخبر بنصه المقريزي في الخطط : ٣/١٤٥ .

لا تُبطر السراء لى خلقاً ولا أغدو على ضرائها متخشعاَ
لى فى المشارق والمغارب جولةٌ يغدو بها قلبُ الزمان مصدَّعاَ

وله :

ليَهْنِ المعـــالى أننى أنا ربُّها وأنى إذا مارُمتُ صعباً تيسرَا
غذتْنى ــ مذ كنتُ ــ النبوةُ والهدى فحسبِىَ أن كانا هُما لىَ عُنصرا

وله :

وإنى لألقى كلَّ خطب بمهجةٍ يهون عليها منـه ما يتصعَّبُ
وأستصحبُ الأهوالَ فى كل موطنٍ ويُمزج لى السمُّ الزعافُ فأشربُ
فما الحرُّ إلا مَن تَدَرَّع حزمَه ولم يك إلا بالقَنا يتنـكب(1)
خليلىَّ ما فى أكؤسِ الراح راحتى ولا فى المثانى لذتى حين تُضرب(2)
ولـكننى للمدحِ(3) أرتاحُ والعلا وللجود والإعطاء أصبو وأطرب
ومَن بين جنبيه كنفسى وهِمتى يُرجِّى له(4) فوقَ الـكواكب مركب

وله فى التشبيه :

علِّلانى بها فقد أقبل الليـــ لُ كلونِ الصدودِ من بَعد وَصلِ

---

(١) الأصل : يتكسب ، والتصويب من يتيمة الدهر للثعالبى ، ١/٤٢٧ . وقد وردت فى الديوان أيضاً : يتكسب (ص ٤١) .

(٢) كذا أيضاً فى مخطوطتين مما اعتُمد عليه فى نشر الديوان ، وفى الباقى : تُطرِب ، وقد أخذ المحققون بهذه الرواية الأخيرة .

(٣) الديوان (ص ٤٢) : للمجد ، وهو أجود .

(٤) الديوان : يروح له ، وقد وضعها المحققون بين قوسين ، للدلالة على أنهم لا يرتاحون لهذه القراءة .

وانجلى الغيمُ بعد ما أضحكَ الرو ضَ بكاء السحابِ فيه بوَبْل
عن هلال كصَولجان نُضارٍ فى سماء كأنها جامُ ذَبْل[1]

/ وله : [١٢٤-ب]

[رب صفراء علّلتْنى] بصفرا ء ، وجنح الظلامِ مُرخى الإزارِ[2]
وكأنَّ الدُّجى غدائرُ شَعرٍ وكأن النجومَ فيها مَدارِى[3]

وله :

وانجلى الغيمُ عن هلالٍ تبدَّى فى يد الأفق مثلَ نصف سِوارِ

وله :

كأن السحاب الغر أصبحن أكؤساً لنا ، وكأن الراحَ فيها سنا البرق
إلى أن رأيتُ النجمَ[4] وهو مغرِّبٌ وأقبل راياتُ الصباح من الشرق
كأن سوادَ الليل والصبحُ طالعٌ بقايا مجالِ الكُحل فى الأعين الزُّرق

وله :

ما ترى الليلَ كيف رقَّ دُجاهُ وبدا طيلسانُه ينجـــابُ

---

(١) الذبل (كما ورد فى شروح الديوان ، ص ٣٣٨) عظام ظهر دابة بحرية يتخذ منها الأسورة والأمشاط والخواتم وغيرها .

(٢) لم يرد من الشطر الأول من هذا البيت إلا « بى صفر » ، فأكملته وقومته من الديوان (ص ١٨٣) ، وقد ورد الشطر الثانى من هذا البيت هكذا :

* ءَ وجنح الظلام جـون الإزار *

وفى نسخة أخرى: مُرخَى الإزار.

(٣) ورد لفظ « مدارى» فى الأصل دون ياء ، وقد قومته من الديوان (ص ١٨٣) . وورد فى هامش الديوان المطبوع : المدارى جمع مدراة ، وهى المشط .

والبيتان من قصيدة فى الغزل ، وقد ترك ابن الأبار بين البيت الأول والبيت الثانى بيتين وردا فى الديوان .

(٤) الأصل : النجوم ، والتصويب من الديوان .

وكأنَّ الصباحَ فى الأفْقِ بازٌ والدجى بين مخلبيه غرابُ

وله :

ألا سَقِّنيها(١) قهــوةً ذهبيةً فقد ألبسَ الآفاقَ جُنحُ الدجى دَعجْ
كأن الثريا والظلامُ يحفُّها(٢) فصوصُ لجينٍ قد أحاط بها سَبَجْ
كأن نجومَ الليلِ تحتَ سوادهِ ـ إذا جَنّ ـ زنجىٌّ تبسم عن فَلَجْ

وله :

كأن كؤوس الشَّرْبِ وهى دوائرٌ قطائعُ ماء جامدٍ تحمل اللهبْ
فبتنا نسَقِّى الشمسَ والليلُ راكدٌ ونقرُب من بدر السماء وما قرُبْ
وقد حجب الغيمُ الهلالَ كأنهُ ستارةُ شَرْبٍ(٣) خلفَهاوجهُ مَن نُحِب
كأن الثريا تحت حُلــكة ليلِها مداهنُ بِلَّوْرٍ على الأفقِ تضطرب

وله :

خذها إليك ـ ودع لومى ـ مُشَعْشَعَةً من كفِّ أحوَى(٤) أسيلِ الخدِّ مُذهبِهِ
وانظر إلى الليل كالزنجى منهزماً والصبحُ فى إثرهِ يعدو بأشهبِهِ
والبدرُ منتصِفٌ(٥) ما بين أنجمهِ كأنه مَلِكٌ فى صــدر موكِبِه

وله :

أوفَى فأشرقتِ البـــلادُ لنورهِ حُسناً وأرسلَ بالشفاء رسولا(٦)

---

(١) الديوان (ص ٨٦) : ألا سَقِّيانى .
(٢) الديوان (ص ٨٦) : يحثها .
(٣) الديوان (ص ٦٢) : سِرْبٍ ، وشرحها الناشرون ، هامش ٥ ، هكذا : ويعنى بها جماعة .
(٤) الديوان (ص ٧١) : أقنى .
(٥) الديوان (ص ٧١) . منتصب .
(٦) هذه الأبيات غير واردة فى الديوان .

/ ما كنتُ أحسِبُ أنَّ بدراً قبلَها نقل الخُطى كرماً وعاد عليلا [١٣٥-١]
يا علةً زار الحبيبُ من أجْلِهـــا لله أنتِ ، لقد شَفَيْتِ غليلا

وله ، وهو من مختار شعره فى النسيب :

أأعذل قلبى ؟ وهو لى غيرُ عاذلٍ وأعصِى غرامى وهو ما بين أضلعى [١]
ومن لى بصبرٍ أستزيلُ به الجَوى ولا[٢] جَلَدى طَوْعى ولا كَبِدى معى
نَأَوْا والأسى عنى بهمْ غيرُ مُنْتأٍ وودعتُهم والقلبُ غـيرُ مودِّعِ[٣]

وله :

يا مُعطِشى من وصـــــالٍ كنت واردَه
هل فيك لى رحمة إن صِحتُ : « واعطَشى[٤] ! » ؟
أنتَ الحياةُ التى تحيا النفوسُ بهـا حقًّا فإن فقدتْك النفسُ لم تعِشِ

توفى تميم فى خلافة أخيه العزيز سنة أربع وسبعين ، وتوفى العزيز سنة ست وثمانين وثلاثمائة[٥] .

---

(١) الديوان ، ص ٢٦٧ :
أأعذر قلبى وهو لى غير عاذر أم اعصى غرامى ، وهو ما بين أضلعى
(٢) الديوان : وما .
(٣) الديوان : مودعى .
(٤) هذه الأبيات غير واردة فى الديوان .
(٥) قال ابن خلكان فى الوفيات (٢٧٠/١) إنه « توفى فى ذى القعدة سنة ٣٧٤ ، وزاد العتقى فى تاريخه أنه توفى يوم الثلاثاء مع زوال الشمس لثلاث خلت من الشهر المذكور ، وأن أخاه العزيز نزار بن المعز حضر الصلاة عليه فى بستانه ، وغسله القاضى محمد بن النعمان وكفنه فى ستين ثوباً . . وقال عبد الملك الهمدانى فى كتابه الذى سماه « المعارف المتأخرة » إنه توفى سنة ٣٧٥ والله أعلم . وقال غيرهما إنه ولد سنة ٣٣٧ » .

١٠٩ — خليل بن إسحاق بن ورد ، أبو العباس

مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها ، وكان فى أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية ويبيت فى المساجد ، إلى أن خالف أهلُ طرابلس بلدِه سنة تسع وتسعين ومائتين ، فكان هو المتولى لعذابهم وأخْذ أموالهم ، وذلك فى أول دولة عبيد الله المهدى . واتَّبع القائمَ أبا القاسم محمد بن عبيد الله المهدى فى مسيره إلى محاربة أهل مصر ، وهو إذ ذاك ولىُّ عهدٍ فلحقه بالإسكندرية ، وكان المتولى لجباية الأموال والنظر فيها ، وانصرف إلى المهدية فقُدِّم على خيل إفريقية ، وكان أمرُ جندها إليه مع النظر فى البحر .

وخرج إلى صقلية والياً على أهلها فأهلكهم جوعاً وقتلا ، وهرب كثير منهم إلى بلد الروم . وكان يقول بعد وصوله إلى إفريقية مفتخراً : « المكثر يقول إنى قتلت وأهلكت ألفَ ألف ، والمقلل يقول ستمائة ألف » . وكان خروجه إليها فى أول دولة القائم سنة خمس وعشرين وثلاثمائة .

وقد كان المهدى عبيد الله سخط عليه فى آخر دولته فخاف ، ولما توفى أمَّنه القائمُ واستعمله ، فجار أشد الجور ، « ونعوذ بالله من الحور بعد الكَوْر ! »[1] .

[١٣٥-ب] ثم إن القائم/ صرفه عن صقلية واستقدمه منها ، وقدَّمه لحرب أبى يزيد الخارجى ، وأخرجه إلى مدينة القيروان فى ألف فارس من وجوه العبيد ، فأساء معاملتهم حتى أضْغَنهم ، ودبروا عليه . وقصده أبو زيد فدخل القيروان وحصره بداره إلى أن أخذه وأصحابه فاعتقلهم ثم قتلهم جميعاً بباب أبى الربيع وأمر بهم فصُلبوا .

---

(١) حديث نبوى شريف ، والحور هو النقصان ، والكور الزيادة .

ومن شعره يمدح المهدى ويناقض مروان بن أبى حفصة :

قف بالمنازل واسألنْ أطلالَها ماذا يضرُّكَ إن أردتَ سؤالَها ؟
هل أنتَ أولُ مَن بكى فى دِمنةٍ دَرَستْ وغيَّرتِ الحوادثُ حالها ؟
يا دارَ زينبَ هل ترُدِّين البُكا عن مقلةٍ سفحتْ عليك سِجالَها ؟
بُدِّلْتِ بالإنسِ الخرائدِ كالدُّمَى وحشَ الفلاة ظِباءَها ورِئالَها
ولقد عهدتُ لآل زينبَ حَبْرةً فيها ، ودنيا أقبلت إقبالها
بيضاءَ ناعمةً يجول وِشاحُها وتهزُّ دقةُ خصرها أكفالها
ولها قوامٌ كالقضيب وفوقَه جَعْدٌ يصافح كفُّه خَلخالها
وكأنَّ فى فيها بُعيدَ رقادها عسلاً أصاب من السماء زُلالها
ولقد عصَيتُ عواذلى فى حبها والنفسُ تعصى فى الهوى عُذّالها

ومنها :

صلى الإلهُ على النبيِّ محمدٍ وعلى الإمامِ وزادَه أمثالَها
إن الإمامَ أقام سُنةَ جدِّه للمسلمين كما حَذَوْتَ نِعالها
أحْيا شرائعَها وقوَّم كُتْبَها وفُروضَها وحرامَها وحلالها
وهدى به اللهُ البريةَ بعدما طلب الغواةُ الظالمون ضلالها
إن الخلافةَ يا ابنَ بنتِ محمدٍ حطَّتْ إليكَ عن النبيِّ رحالها

وله وقد افتصد القاسمُ :

قل للطبيب الذى أوصى ليفصده رفقاً ولا زلتَ بالإسعاد ترتفقُ
/ كيف استطعتَ ترى بالله طلعته ومن سنا نوره ما يُشرِق الأفقُ ؟ [١٣٦-ا]
أم كيف تُخرج من كفٍ تقبِّلها دماً ومنها بحارُ الجودِ تندفق ؟

إنى لأعجبُ من كفٍّ مَسَسْتَ بها خيرَ الورى كيف لم يَنبُتْ بها الوَرِق

وله عند توديع القائم فى خروجه إلى القيروان وكتب بها إليه :

وما ودعتُ خيرَ الناسِ طُرًّا ولا فارقتُه عن طيبِ نفسِ
وكيف تطيبُ نفسى عن حياتى أفارقُها ، وعن قمرى وشمسى ؟
ولكنى طلبتُ رضاه جَهْدى وعفوَ الله يومَ حلولِ رمسى
فعاش مملَّكاً ما لاح شمسٌ على الثَّقَلين من جنٍّ وإنسِ

وبعد وروده القيروان كان من قتله وصلبه ما كان ، وما أفظع[1] مصرع من احتقب الاثم والعدوان !

١١٠ — جعفر بن فَلَاح[2] الكُتَامى ، أبو الفضل

هذا من رجال الدولة العبيدية ، ولم يقع إلىّ من خبره ما أذكره ها هنا سوى امتداح أبى القاسم بن هانئ إياه ، وحسبه بذلك نباهة وكفاه ، وذكر ابنَه إبراهيمَ معه فى مدحه . وفى بعض النسخ التى وقفت عليها من شعر ابن هانئ

(١) الأصل : ولما أفضع .

(٢) الأصل : بَلّاح . وجعفر بن فلاح بن أبى مرزوق قائد مشهور من قواد الدولة الفاطمية فى عهدها الأول ، وكان يعمل أولا تحت إمرة جوهر الصقلى ، وقد بعثه هذا إلى الشام ليقضى على بقايا الإخشيديين ، وكان الحسن بن طغج قد تحصن بالرملة وملكها ، فسار إليه جعفر بن فلاح وهزمه فى ذى القعدة ٣٥٨/ سبتمبر ٩٦٩ وأسره وبعث به إلى الفسطاط ، حيث أرسل إلى المغرب ومات هناك سنة ٣٧١/٩٨٢ . وأخذ جعفر يستعد للمسير إلى دمشق ، فشعر الحسن بن أحمد القرمطى بأن الفاطميين خطر يهدد سلطانه ، خاصة وقد سار جعفر بن فلاح إلى طبرية ثم دمشق ودخلها سنة ٣٥٩ ، وأسقط الدعوة للخليفة العباسى ، وخطب للمعز الفاطمى ، فسار اليه القرمطى والتقى به فى ٦ ذى القعدة ٣٦٠/ سبتمبر ٩٧١ فأسر جعفر وقتل =

أن الممدوح إبراهيم بن جعفر لا أبوه جعفر ، ووجدتُ منسوباً إليه :

ويوم ٍ كأنَّ الغيمَ تحتَ سمائهِ حكى مقلتى سَحًّا ولم يَحْكِنى ضَنًا
كأنّ الغوادى بالمثانى نضحنهُ وألبسْنَه ثوباً من الخزِّ أدكنا

١١١ — يحيى بن على بن حمدون الجُذامى بن الأندلسى[1]

وله ولأبيه ولأخيه جعفر بن على رئاسة معروفة ونباهة فى أيام العبيدية مذكورة ، وعلى بن حمدون هو الذى بنى المسيلة من بلاد الزاب الأكبر وسكنها ابنُه جعفر فعظم شأنه .

ولأبى القاسم محمد بن هانئ الأندلسى فيه وفى أخيه يحيى مدائح شهيرة ، وكان[2] لما خرج من الأندلس إلى بنى علىّ هؤلاء وقع ، وإليهم قصد ، / إلى [١٣٦-ب] أن أعلقوه بالمعز مَعَدِّ بن إسماعيل فاستفرغ فيه شعرَه وقصر عليه مدحَه[3] .

= وجعفر من زعماء الكتاميين ورجالهم الذين شادوا بناء الدولة الفاطمية . وكان ابنه أبوالحسن على بن جعفر بن فلاح من كبار وزراء الدولة الفاطمية بعد ذلك ، وكان يلقب بوزير الوزراء ذى الرياستين ، الآمر المظفر قطب الدولة .

المقريزى ، اتعاظ الحنفا (بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال) ص ١٥٥ (هامش ٥) — ١٦٧ — ١٨٠ — ٢٤٨ — ٢٤٩ .

ابن منجب الصيرفى ، الإشارة إلى من نال الوزارة (القاهرة ١٩٢٤) ص ٣٠ — ٣٢ .
البيان المغرب لابن عذارى : ١ / ٢٣١ .

(١) الأخبار التى يوردها ابن الأبار هنا تكمل ما لدينا من أخبار بيت بنى حمدون ، ومعظمها عند ابن عذارى (البيان المغرب ، ٢٤٢/٣ — ٢٤٤) وابن الخطيب (أعمال الأعلام ، ٦٠ — ٦٢) . وقد نقل ابن عذارى عن محمد بن يوسف الوراق (ص ٢٤٣) نسبهم وطرفا من أوليتهم فقال إن جدهم الأكبر عبدالحميد كان الداخل إلى الأندلس من الشام ، ونزل فى إلبيرة ، ثم انتقل حفيده حمدون ، جد جعفر ويحيى ، إلى بجاية ودخل فى دعوة الشيعة .. انظر بقية الخبر هناك .

(٢) المراد هنا ابن هانئ الشاعر .

(٣) هذه الفقرة ظاهر فيها أسلوب ابن حيان مؤرخ الأندلس .

وهرب جعفر إلى الأندلس بعد مقتل زيري بن مناد الصنهاجي ، ولحق به أخوه يحيى فأقاما مكرمين عند الحَكَم المستنصر بالله إلى أن سُعي بهما إليه ، فسخط عليهما وأمر بإزعاجهما ومَن معهما رَجّالةً من منازلهم إلى المُطبق بمدينة الزهراء ، والنداء عليهم بما كفروا من النعمة . وظهر من شهامة يحيى وتجلُّده في هذه المحنة ما شُهر ، فكان ينادي على نفسه معارضا للمنادي : « لا ، بل جزاء مَن آثر بني مروان على وَلَدِ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ونُميَتْ في الوقت إلى مَعَدِّ بن إسماعيل وهو في القيروان فأرْضَتْه وعطَّفته على آل علي بن الأندلسي .

ثم إن الحَكَم عفا عنهما بسعي عبد الملك بن القاضي منذر بن سعيد البَلُّوطِيّ صاحب خطة الردّ وتلطُّفِه في الاستشفاع بهشام بن الحَكَم فيهما ، وهو إذ ذاك طفل ، فأطلقا من مُعتقَلهما ، وتراجعت حالُهما .

وحَظِيَ جعفر في أيام هشامٍ عند المنصور محمد بن أبي عامر — بعد وفاة الحَكَم — وخُصَّ به ، ثم قُتِل في طريقه إلى قصر العُقاب[1] حسبَما يُذكَر في آخر هذا المجموع بحول الله ، فرجَّم الناسُ فيه الظنون ، وأظهر ابنُ أبي عامر الحزنَ عليه وهو المتهم به .

---

(١) عندما أراد المنصور بن أبي عامر التخلص من غالب الناصري قائد الثغر وشيخ الموالي ، فكر في استقدام جعفر وعلي ابني حمدون ، وهما من موالي بني أمية ، وكانا يحكمان منطقة طنجة وسبتة باسم هشام المؤيد الأموي ، فأخذ المنصور يستحثهما على المجيء إليه ، فعبر إليه جعفر منهما ، تاركاً شؤون العدوة بيد أخيه يحيى . وأنزله المنصور عند مجيئه في قصر العقاب بقرطبة « بعد أن أعد له ما يصلح له فيه » ، وكان جعفر قد أتى بقوة من مقاتلة البربر تبلغ ٦٠٠ فارس ، فاشتد بهم ساعد محمد بن أبي عامر على غالب . وبعد أن تخلص المنصور من غالب ، دبر الخلاص من جعفر بن حمدون ، فدعاه إلى وليمة وقدم له الشراب فأفرط فيه ، وأرصد له من قتلوه وهو عائد بالليل إلى منزله في قصر العقاب سنة ٣٧٤ ، وقد تظاهر المنصور بالحزن عليه .

ابن عذاري ، البيان المغرب ، ٢/ ٢٨٠ — ٢٨١ .

ودعا يحيى بن على أخاه وألهاه[1] إلى أن قال لابن أبى عامر أولَ لَقْيَـةٍ لقيَه غِبَّ قتل أخيه : « قد علمنا مَن قتَله ، وهذا جزاء مِثله ، ولا مُقام بأرضك بعدَه » ، فقال له ابنُ أبى عامر : « لولا أن أصدِّق ظنَّك فى أخيك لألحقتُك به ، فاخرج إلى لعنة الله غيرَ مكلوءٍ ولا مصاحَب ! » ووكل به من أزعجه فخرج إلى العُدوة . وسبق الإخبار عنه حذراً من بَلقِّين بن زيرى بن مناد فصار إلى سَجلماسة ثم ركب الصحراء إلى مصر ، فقبـــله العزيز بالله أبو المنصور نزار ، وهو يومئذ الخليفة بها ، وأدخله فى يوم زينة ، ثم جعل يعترف بالزلة ، ويسأل الصفح والإقالة ، فقال له نزار : « كلمتُك بالزهراء قد أتت على ذلك كله »

وعلم بَلقِّين — واسمه يوسف[2] ، ويكنَّى أبا الفتوح — نفوذَ يحيى إلى مصر فقامت عليه القيامة ، وعثر على ابن له عامر[3] تخلف عنه بالمغرب فقبض عليه

---

(١) العبارة هنا مضطربة . وقد ورد اللفظ هنا : وله ، فقومته على هذا النحو للسياق . وواضح أن هنا شيئاً ساقطاً ، والمعنى مفهوم على أى حال . فإن المنصور دعا على بن حمدون ليطمئن من ناحيته ، وكان يخشى ثورته عليه وانضمامه إلى العبيديين بعد أن قتل أخاه . ولكن يحيى ظل على إيمانه بأن المنصور قتل أخاه ، فجعل يلمح بذلك . وكان يحيى أكبر من أخيه وأعظم ، وقد سبق أن وفد على الخليفة المستنصر سنة ٣٦٠ خالعاً طاعة العبيديين وقادماً إليه بطاعة زناتة — وكانوا أتباعه — فاستقبله الحكم استقبالا عظيما وولاه العدوة هو وأخاه جعفر ، فظلا هناك إلى أن استعان بهما المنصور ، فقدم عليه جعفر منهما .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ٢/٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٢) هو بلقين يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى القائد المعروف الذى استخلفه الفاطميون على المغرب عند انتقال المعز إلى مصر ، وهو منشئ دولة بنى زيرى فى إفريقية .

انظر عنه : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١/٢٢٨ وما بعدها .

ومن الطبيعى أن يغضب بلقين عندما يسمع أن العزيز نزار قد استقبل خصمه يحيى بن على ابن حمدون زعيم زناتة وعدو الصنهاجيين وأنه عفا عنه وأكرمه بعد الذى كان منه .

(٣) لفظ عامر هنا غير مفهوم ، وقد يكون اسم ابنٍ لجعفر بن على بن حمدون . وقد تكون صحة اللفظ « غامر » بمعنى مغمور .

وقتله . ولم تطل به(١) المسرة بعد قتل جعفر حتى فاجأته المنية ، فهلك في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة .

[١٢٧-١] ومن شعر يحيى بن علي ، وأنشده أبو عامر السالمي في كتاب التشبيهات / من تأليفه قوله يصف فرساً :

ومتمماً في خَلقِه لم يُبْخَسِ ... عاري الأديم من اللاحة مُكتسِ
صلّت إليه الخيلُ فهو إمامها ... وهو المقدَّمُ عندها في الأنفسِ
وكأنّ لونَ أديمه من سوسَنٍ ... وكأنّ لونَ لجامه من نرجسِ

تم بعون الله

الجزء الأول من كتاب

الحلة السيراء

ويليه الجزء الثاني وأوله ترجمة :

سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المستعين بالله ، أبي أيوب .

---

(١) أي بأبي الفتوح يوسف (بلقين) بن زيري ، فقد توفي في موضع يسمى واركنفو في المغرب في ٢١ ذي الحجة ٣٧٠ (ابن عذارى ، ١/٢٣٩) .

فهرس الجزء الأول

صفحة

المائة الأولى من الهجرة

المائة الثانية

المائة الثالثة

صفحة

المائة الرابعة

صفحة

ذخائر العرب

٥٨

كتاب

الحلة السيراء

لابن الأبار

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي

المعروف بابن الأبار

(٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ - ١٢٦٠ م)

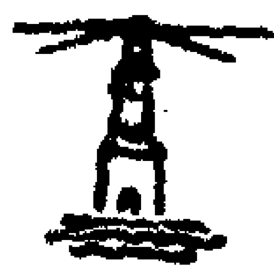
الجزء الثاني

ويضم تراجم أهل المئات الخامسة والسادسة والسابعة

ومن لم يؤثر عنهم شعر

حققه وعلق حواشيه

الدكتور حسين مؤنس



دار المعارف

الطبعة الأولى – سنة ١٩٦٣
الطبعة الثانية – سنة ١٩٨٥

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

المائة الخامسة

١١٢ — سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المستعين بالله ، أبو أيوب

قدمته البرابرةُ عند قتل عمه هشام بن سليمان بن الناصر القائم على المهديّ محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، باعثِ الفتنة بالأندلس ، وموقِدِ نارها الخامدة ، وشاهرِ سيفها المغمد .

وكان المهدى حاقداً على العامريين قتلَهم أباه هشاماً فى دولة المظفر عبد الملك ابن المنصور محمد بن أبى عامر ، لاتهامهم إياه بممالأة الوزير عيسى بن سعيد القَطّاع قتيلِ عبد الملك[1] ، فقام على هشامٍ المؤيد فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين

---

(١) المراد عبد الملك المظفر بن المنصور محمد بن أبى عامر.

وعيسى بن سعيد اليحصبى المعروف بالقطاع كان وزيراً للمنصور محمد بن أبى عامر ثم لابنه عبد الملك المظفر . وقد بلغ فى عهد هذا الأخير سلطاناً عظيما بعد أن تخلص من الفتى طَرَفة الذى كان حاجب المظفر ، وقد كثر خصومه وأعداؤه ، وتزعم هؤلاء عبد الرحمن بن أبى عامر أخو المظفر . وكان عيسى بن سعيد صديقاً لهشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، فاتُّهم الاثنان بالتدبير على المظفر لقتله والمناداة بهشام هذا خليفة ، وانتهى الأمر بأن قتل المظفر وزيره بيده فى مجلس شراب ، ثم قبض على هشام وأودع محبسا ، « فكان آخر العهد به » .

ابن عذارى ، البيان المغرب ٣/٣١ — ٣٥ .

وثلاثمائة وخلعه وحبسه عند وزيره الحسين بن حى[١] ، وقتل عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر — وهو الملقب بالناصر — وصلبه ، وأدرك به ثأره .

وأقام بقرطبة ، مدعوًّا له على منابرها وسائر منابر الأندلس ، إلى أن ثار عليه فى آخر شوال من السنة هشام بن سليمان المذكور وحاربه ، فظفر به المهدى وعجل قتلَه . فهرب سليمان المستعين بالله وأهل بيته ، خيفةً من المهدى ، واضطربوا فى نواحى قرطبة . فالتف البربرُ على سليمان هذا وقدموه خليفةً ، وأصفقوا على بيعته ، لانحرافهم عن المهدى واضطغانهم عليه قتلَ عبد الرحمن بن أبى عامر . وتعجلَ سليمانُ بهم النهوضَ إلى الثغر ، مستجيشاً بالنصارى على محاربة المهدى . ثم عاد فالتقوا جميعاً بقَنْتِيش[٢] ، فكانت الوقعة المشهورة على أهل قرطبة ، قُتِل فيها نيفٌ على عشرين ألفاً — ذكر ذلك الُحميدى وغيره .

---

(١) فى البيان المغرب لابن عذارى (٣/٧٧) : الحسن بن حى .

(٢) ورد موضع هذه الواقعة على هذه الصورة عند ابن حيان (برواية ابن بسام ، قسم ١ـ مجلد ١ ، ص ٣٠ و٣١) وهو موضع إلى شمال شرق القُلَيْعة Alcolea غير بعيد من ملتقى وادى أرملاط Gualmellato بالوادى الكبير . وقد ورد ذكر موضع الموقعة ٤ مرات عند ابن بشكوال (الصلة ، تراجم أرقام ٢٦ و ٤٦٢ و٩٥٨ و١٠٣٠) مع اختلاف فى الصورة فى حالتين ، فقد وردت مرة فنتيش Fuentes ومرة بنتيش Puentes وهما صورتان مقبولتان للاسم . وورد فى بغية الملتمس للضبى قنتش بدون شكل أوحروف علة ، ويمكن فى هذه الحالة قراءة اسم الموضع Quintos .

وفى تطور أحداث الفتنة الأندلسية الكبرى تعتبر موقعة قنتيش من المعارك الحاسمة ، فقد كانت أولا قاضية على خلافة محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدى وعلى كل أمل فى إعادة الخلافة الأموية القرطبية ، وكانت ثانياً مؤكدة لانقسام العسكر الأندلسى إلى قسمين رئيسيين متعاديين : البربر فى ناحية ، والأندلسيين فى ناحية أخرى . وقد انهزم فيها محمد بن عبد الجبار المهدى والأندلسيون هزيمة قاصمة ، وانتصر البربر تؤيدهم فرقة من النصارى يقودها الكونت سانشو غرسية ودخلوا قرطبة وعاثوا فيها . وبعد ذلك مباشرة شعر حكام النواحى ألا أمل فى إعادة سلطان مركزى ، فبدأ كل منهم يستقل بناحيته ، ولهذا فإننا نستطيع اعتبار تاريخ هذه المعركة وهو ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠/٣ نوفبر ١٠٠٩ المبدأ الحقيقى لفترة الطوائف .

Cf : LÉVI-PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, II, 810, et n.1

ودخل سليمانُ قصرَ قرطبة ، وبويع له بالخلافة للنصف من شهر ربيع الأول سنة أربعمائة ؛ وتَسمى حينئذ بـ « الظافر بحول الله » مضافاً ذلك إلى لقب « المستعين بالله » . واستتر المهديُّ بعد انهزامه إلى أن لحق/ بطليطلة ، والثغورُ باقية [١٣٧-ب]
على طاعته ودعوته : من طَرَطُوشة قاصية شرق الأندلس إلى الأشبونة من غربها : فاستجاش هو أيضا النصارى وأقبل بهم إلى قرطبة ، فخرج إليه سليمان ، فهزمه المهديُّ بموضع يعرف بعَقبة البَقَر[١] ، ودخل قرطبة كرةً أخرى والياً ومستولياً [على الخلافة][٢] فلم يلبث أن وثب عليه العبيدُ العامريون مع واضح الصقلبي فقتلوه وصرفوا هشاماً المؤيد . وسليمانُ المستعين أثناء ذلك يجوس خلال الأندلس [ورجاله ومن معهم من البربر ينهبون ويقتلون و][٣] يُقفرون المدائن والقرى بالسيف ، وينهبون كل ما يجدون من الأموال . إلى أن دخلوا معه قرطبة عنوة في صدر شوال سنة ثلاث وأربعمائة ، فاستباحوها وقتلوا أهلها . وغيَّب سليمانُ هشاماً المؤيد فلم يره أحد بعد ذلك ، وكان لِدَتَه : وُلِدا جميعاً في ليلة واحدة ، ثم تقاربا في الوفاة . وأقام سليمانُ والياً إلى أن [ثار عليه] عليّ بن حمود العلوى الإدريسى ، وكان في [جملة جنده] ، فقتله بيده يوم الأحد لثمان بقين من المحرم سنة سبع وأربعمائة ، وقتل معه أباه حَكم بن سليمان وأخاه عبد الرحمن ، وادعى أن هشاماً المؤيد عهد إليه بالأمر من بعده .

---

(١) عقبة البقر ، اليوم **El Vacar** ، وهو حصن على عشرين كيلومتراً شمال قرطبة إلى الجنوب الغربي قليلا من **Ovejo** ، وقد ذكرها الإدريسى باسم « دار البقر » . وكانت الموقعة في ٥ شوال ٤٠٠/٢٢ مايو ١٠١٠ وبعدها مباشرة دخل محمد بن عبد الجبار المهدى قرطبة وهرب منها البربر وبدأت خلافته الثانية .

(٢) بياض في الأصل .

(٣) بياض بالأصل ، أكملناه بالمعنى من التفاصيل التي قدمها ابن عذارى في البيان المغرب (٣/٩٧ – ٩٩) .

وفى ذلك اليوم انقرض مُلك بنى مروان بالأندلس على رأس مائتى سنة[١] وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوما ، مُحصاةً من يوم الأضحى الذى تقدم فيه عبدُ الرحمن بن معاوية إلى مقتل سليمان هذا . ثم عاد بعد ذلك سنين يسيرةً ، وانقرض على الأثر فلم يعد إلى اليوم .

وكان سليمان المستعين من أهل العلم والفهم ، أديبا فصيحا شاعرا ، له رسائل وأشعار بديعة . وهو القائل — فيما أخبرنى به القاضى أبو الخطاب أحمد بن محمد ابن واجب القيسى ، مناولة ببلنسية عن القاضى أبى بكر بن العربى ، إجازةً[٢] عن أبى بكر محمد بن طرخان ، عن أبى عبد الله محمد بن أبى نصر الُحميدى ، وأخبرنى أيضا القاضى أبو بكر محمد بن أحمد بن أبى جمرة[٣] فى كتابه من مرسية مرتين ، عن القاضيين أبى بكر بن العربى المذكور وأبى الحسن شُريح بن محمد الرعينى ، وأخبرنى أيضاً قاضى قضاة المغرب أبو القاسم أحمد بن يزيد بن بقى فى كتابه إلىّ من قرطبة ، عن أبى الحسن شُريح بن محمد بن شريح ، كلاهما عن الفقيه أبى محمد على بن أحمد بن حزم ؛ قال الُحميدى : منهما[٤] أنشدنى
[١٣٨-١] أبو محمد على بن أحمد ، قال : أنشدنى فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق المنادى الشاعر ، وكان يكتب لأبى جعفر أحمد بن سعيد الدب ، قال : أنشدنى أبو جعفر ، قال : أنشدنى أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه ، قال أبو محمد — هو ابن حزم : وأنشدنيها قاسم بن محمد المروانى ، قال : أنشدنيها وليد بن محمد الكاتب لسليمان الظافر :

(١) فى الأصل هنا لفظ « ثنتين » ، وهى زائدة .

(٢) دوزى ، ص ١٦١ : إخبارة .

(٣) الكلام من أول « ابن العربى » إلى هنا مكتوب فى الهامش وفوقه كلمة « صح » .

(٤) كذا ، والأصح : عنهما .

عجباً ! يهابُ الليثُ حدَّ سِنانىْ وأهاب لحظ فواتر الأجفانِ
وأقارع الأهوال لا متهيباً منها سوى الإعراض والهجران
وتملَّكَتْ نفسى ثلاثٌ كالدُّمَى زُهْرُ الوجوهِ ، نواعمُ الأبدان
ككواكب الظلماء لُحْنَ لناظرٍ من فوق أغصانٍ على كُثْبان
هذى الهلالُ ، وتلك بنتُ المشترى حُسناً ، وهذى أختُ غصنِ البان
حاكمتُ فيهنَّ السُّلُوَّ إلى الهوى(١) فقضى بسلطانٍ على سلطانى
فأبحنَ من قلبى الحِمَى ، وثنيْنَنى(٢) فى عزِّ مُلكى كالأسير العانى
لا تعذلوا مَلِكاً تذلَّل للهوى ذلُّ الهوى عز ومُلكٌ ثانِ
ما ضرَّ أنى عبدُهن صَبابةً وبنو الزمان وهنَّ من عُبدانى
إن لم أطع فيهن سلطانَ الهوى كَلَفاً بهن ، فلستُ من مروان
وإذا الكريمُ أحبَّ أمّنَ إلفَهُ خطبَ القِلَى وحوادثَ السُّلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهلُ الهوى عاش الهوى فى غِبطةٍ وأمان

قال الُحميدى : وهذه الأبيات معارضة للأبيات التى تنسب إلى هارون الرشيد ، أنشدنيها له أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان العمرى وهى :

ملَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنانى وحلَلْن من قلبِى بكل مكانِ
مالى تطاوعنى البريةُ كلُّها وأطيعُهن ، وهنَّ فى عِصيانى ؟
ما ذاك إلا أنَّ سلطانَ الهوى ــ وبه قَوِينَ ــ أعزُّ من سُلطانى

قلت : وقد صرح الرشيد بأسماء هؤلاء الجوارى الثلاث فى قوله :

إن «سِحْراً» و« ضِياء » و« خُنُثْ » هنَّ سحرٌ ، وضياء ، وخنثْ

---

(١) الذخيرة (قسم ١ مجلد ١) : الصبا .
(٢) الذخيرة : وتركننى .

[١٣٨-ب] / أخذتْ سحرٌ — ولا ذنبَ لها — ثلثَيْ قلبي ، وتِرْباها الثلثْ

وقال أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبي الفيَّاض — المعروف بابن الغَشَّاء[1] — في كتاب « العِبَر » من تأليفه ، وذَكر سليمان هذا : له قصائد طويلة في فنون كثيرة ، مع المعاني العجيبة ، والألفاظ الغريبة . إلا أنه تقلد في قيامه بالمُلك عظيماً ، وحمل إلى عنقه من دماء المسلمين جسيماً . وكان — قبل الخلافة — ربما امتدح من خدَمة السلطان المستخدمين : أُخبرتُ عن الوزير ابن صاعد أنه امتدحه أيام ولايته على جَيَّان ، وكان يَبَرُّه في ضيعة له ولا يكلفه عليها عُشوراً ولا حَشداً[2] . قال : وكأني أراه قائماً بين يدي ابنِ عمه المهديِّ القائم على بني أبي عامر ، والمهديُّ جالس على مقعد الخلافة ، وهو أمامه قد لبس ثوبَ خزٍّ ، وعليه طاقُ خزٍّ ملونٌ ، وأخروفٌ[3] وَشْيٍ ، وقد رمى بثيابه على عاتقه ، وبيده

(١) لم أجد هذه التسمية لابن أبي الفياض إلا هنا . وهو مؤرخ أندلسي وجغرافي معروف ، ولد في إسْتِجّة سنة ٣٧٥/٩٨٦ وعاش في المرية « ويكنى بأبي بكر ، سمع بإستجة من يوسف بن عمروس وبالمرية من أبي عمر الطلمنكي وأبي عمر بن عفيف والمهلب بن أبي صفرة وغيرهم ، وله تأليف في الخبر والتاريخ ، وتوفي سنة ٤٥٩ (١٠٦٦) وقد جاوز الثمانين سنة . ذكره ابن مُدَيْر » .

انظر كذلك : المقري ، نفح الطيب (طبع أوروبا) ٢/١٢٣ .

وترجمة جايانجوس لهذا الأخير ، جـ ١ ص ١٩٣ و ٤٧٤.

و« جامع أقوال المؤرخين في بني عباد » : ٢/٣٤ .

وپونس بويجس ، رقم ١٠٥ ص ١٣٨ .

وتاريخ الفكر الأندلسي لپالنثيا وترجمتنا ، ص ٢١٢ .

(٢) العشور معروفة ، وأما الحشد فضريبة مالية كانت تفرض في الأندلس على أصحاب الضياع في الريف وعلى الناس في المدن معونة للخليفة على شؤون الحرب ، وكان الناس أولا مكلفين بالخروج إلى الحرب ، وكان عليهم أن يخرجوا إلى الحشد عندما يجيء أوان الصائفة ، ثم استبدلت بضريبة مالية أو عينية لمن لا يريد الخروج ، ثم أصبحت ضريبة مالية خالصة تؤدى للحاشد أو الحشاد في كل منطقة .

(٣) الأخروف ، غطاء من أغطية الرأس . وقد ذكره دوزي في :

***Dictionnaire detaillé des noms des vêtements chez les Arabes*, P. 23.**

في صورة أخروق بالقاف ، ثم عاد فصوب القراءة في الحلة (ص ١٦٢) وأضاف تعليقاً ضافياً .

سيف ، وهو ينشد شعراً طويلا يهنيه فيه بالخلافة ، ويَمُتُّ إليه بالقرابة ، أوله :

الحمد لله حمـــداً لا نقلِّلُهُ هذا السرورُ الذى كنا نؤمِّلُهُ

وهى قصيدة كبيرة رائقة ، واختراعاته فيها فائقة ، مع المعانى الجزلة . ورفع إليه بعضُ خدمته معتذراً ، فوقَّع له على ظهر كتابه :

قرأنا ما كتبتَ به إلينا وعـــذرُك واضح فيما لدينا
ومَن يكنِ القريضُ له شفيعاً فتركُ عتابه فرضٌ علينا

قال ابن أبي الفيَّاض ، وأخبرنى أحد إخوانى ، قال : كتب إليه الوزير يوسف بن أحمد الباجى يذكره بزمانه معه ، ويَمُتُّ بخدمته له ، ويسأله تجديد العارفة لديه ، ونظم أبياتاً أولها :

قل للإمام المستعـــينْ ورســـول رب العالمينْ

فوقَّع له سليمان :

أنت المصدَّق عنـــدنا بصريح ودٍّ مستبينْ
فاربَعْ عليـــك فهمُّنا توطيــدُ أمر المسلمين
فإذا توطـــد واستقا م وخاب ظن الحاسدين
أصبحت من دنياك فى أعلى محـــل الآملين

قال : وكتب إليه القاضى أبو القاسم بن مِقدام يشكو إليــه ضيق حاله — وكان معه فى تجوله مع البربر — بشعر أوله :

أَهَلْ ترضى لعبدك أن يُذالا وأن يبقى على الدنيا عيالا ؟

فبعث إليه بصلة وكسوة ، ووقَّع له على ظهر كتابه :

معاذَ الله أن تبقى عيالا وأن نرضى لِمثلك أن يُذالا(١)

وكيف وأنت منقطع إلينا وقد عَلِقتْ يداك بنا حبالا ؟

/ ودونك من نوافلنا يسير ولكنا انتَقيناه(٢) حلالا [١٣٩-ا]

ولما نهضَ إلى قرطبة — بعد تغلبه عليها ، وأخذه إياها عنوةً بالفتكة الأخيرة القاهرة — خرج أهلُها إليه ، متلقين له ومسلمين عليه ، فأنشد متمثلا :

إذا ما رأونى طالعاً من ثَنِيَّةٍ يقولون : « مَن هذا ؟ » ، وقد عرفونى

يقولون لى : « أهلا وسهلا ومرحبا ! » ولو ظفروا بى ساعةً قتلونى . .

فكان بهما فى هذا الموطن أحقَّ من قائلهما .

١١٣ — عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، أبو المطرف المستظهر بالله

أخو أبى الوليد محمد بن هشام المهدى ، بويع له بالخلافة بقرطبة فى رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ، بعد ذهاب دولة بنى حَمُّود وانقراضها من قرطبة ، وهو ابن ثلاث — أو اثنتين — وعشرين سنة .

ثم ثار عليه ابنُ عمه المستكفى محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن محمد فى طائفة من أراذل العوام ، فقُتل المستظهر لثلاث بقين من ذى القعدة من السنة ، فكانت خلافتُه سبعةً وأربعين يوماً ؛ ولم يعقِّب .

---

(١) ذال الشيء يذيل : هان ، وأذلته : أهنته ولم أحسن القيام عليه ، وأذال فلان فرسه وغلامه إذا أهانه ، والإذالة الإهانة . . والمذال : المهان . اللسان : ٢٧٧/١٤ .

(٢) الأصل : اتقيناه .

قال أبو محمد بن حزم الفقيه : كان المستظهر فى غاية الأدب ، والبلاغة والفهم ورقة النفس . وقال ابن حَيَّان : لم يكن فى بيته يومئذ أبرع منه . وكان قد نَقَّلَتْه المخاوف وتقاذفت به الأسفار ، فتحنَّك وتخرَّج وتمرن ، وكاد يستولى على الأمر لو أن المنايا أنسأته . وقال فى موضع آخر : وكان فتًى أيَّ فتًى لو أخطأته المتالف . وكان قد أخرج رسلَه إلى جماعة الرؤساء بالأندلس يلتمس البيعة ، ويستنفر الكافةَ ، ويدعو إلى كَرَّة الدولة ، فأخفق ما طلبه ، وعوجل ولما تقتضِ الأجوبةَ رسلُه ، واضمحل أمرُه ؛ والبقاء لله وحده . قال : وكانت سِنه يومَ قُتل ثلاثا وعشرين سنة . وكان على حدوث سِنه يقظاً أديباً ، حسن الكلام ، جيد القريحة ، مليح البلاغة ، يتصرف فى ما شاء من الخطاب بديهةً ورويةً ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة[1] . وهو القائل يخاطب « شنف »[2] زوج سليمان المستعين ، عندما / خطب ابنتها منه المسماة « حَبِيبَة » وتُكَنَّى أمَّ الحكم ، [١٣٩–ب] فلَوَته وسوَّفته :

---

(١) نقل ابن الأبار كلامه عن عبد الرحمن المستظهر عن ابن حيان وابن بسام (انظر الذخيرة : قسم ١ مجلد ١ ص ٣٤ وما بعدها) . وقد كان عبد الرحمن هذا أقصر خلفاء بنى أمية حكما ، فقد حكم – كما يقول ابن حيان – « سبعة وأربعين يوماً ، لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمت عليه جماعة ، ولا تجاوزت دعوته قرطبة ، وكانت سنه يوم قتل ٢٣ سنة » . وقد وصل إلى الخلافة على صورة من الغصب والمباغتة رواها ابن حيان فى أسلوبه اللاذع وعرضها فى صورة مهزلة مبكية . وكما كانت خلافته أقصر الخلافات فقد انتهت أسوأ وأخزى نهاية . فقد أقره فى الحكم رجال الدائرة أى حرس الخليفة ، وانتظروا أن يفيض عليهم العطايا ، ولكنه كان مفلساً « لا يقع بيده درهم إلا من صُبابة مستغَلٍّ جوف المدينة (قرطبة) أو نهب مغلول من تقلقل عنها » . وأراد أن يصالح البربر ورؤساءهم فانقلبت عليه الدائرة فنادوا بابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر وأتوا به إلى القصر ، فهرب المستظهر واستخفى فى أبزن الحمام (أى فى مخزن الفحم والحشب) ثم عثروا عليه بعد قليل « فأخرج فى قميص مسودٍّ فى حال قبيحة » وضربوه أمام ابن عمه ثم قتلوه . ويثنى عليه ابن حزم لأنه كان صديقه ، وقد استوزره واستوزر كذلك ابن عمه عبد الوهاب ابن حزم والشاعر أبا عامر بن شهيد .

(٢) عند ابن بسام : مُشْتَنَف .

وجالبةٍ عـــذرًا لتصرِفَ رغبتى ... وتأبى المعالى أن تجيز لها عذرًا

يكلفها الأهـــلون ردى جهالةً ... وهل حَسنٌ بالشمس أن تمنع البدرا ؟

وماذا على أم الحبيبة — إذ رأتْ ... جلالةَ قدرى — أن أكون لها صِهرا ؟

ربيبـــة ملك [... ... ...] ... [... ... ...](١) حبـــه نكرا

جعلتُ لها شرطًا علىّ تعبُّـــدى ... وسُقتُ إليها فى الهوى مهجتى مَهرا

تعلّقتُها من عبدِ شمسٍ غريرةً ... مخدرةً(٢) من صـــيد آبائها غُرّا

حمامةُ بيتِ العبشميِّين رفرفتْ ... فطِرتُ إليها من سَراتهمُ صقرا

تَقِلُّ الثريا أن تكون لها يدًا ... ويرجو الصباحُ أن يكون لنا نَحْرا

لقد طال صومُ الحب عنكِ ، فما الذى ... يضرك منه أن تكونى له فِطرا ؟

وإنى لأستشفى لما بى(٣) بداركم ... هدوءا ، وأستسقى لساكنها القطرا

وألصِق أحشـــائى ببرد تُرابها ... لأطفىء من نار الأسى بكمُ جمرا

فإن تصرفينى يا ابنـــةَ العم تصرفى ... — وعيشِك — كفوًا مد رغبتَه سترا

وإنى لأرجو أن أطوِّق مَفخرى ... بِملـكى لها ، وهى التى عظُمت فخرا

وإنى لطعّان إذا الخيل أقبلتْ ... جرائدُها ، حتى تُرى جونُها شُقرا

ومُـكرِمُ ضيفى حين ينزل ساحتى ... وجاعلُ وَفرى عنـــد سائله وَفْرا

وإنى لأولَى الناس من قومها بها ... وأنبهُهم ذكرًا ، وأرفعهم قدرا

وعندىَ ما يُصـــبى الحليمةَ ثيبًا ... وينسى الفتاةَ الخودَ عُذرتَها البِكرا

جمال وآداب وخـــلق موطّأ ... ولفظ إذا ما شئتَ أسمعك السحرا

---

(١) أورد ابن بسام القصيدة كاملة ، إلا هذا البيت . وكأنه كان أيضاً مضطرباً فى الأصول التى نقلت عنها نسخ الذخيرة الموجودة بين أيدينا .

(٢) الذخيرة (قسم ١ مجلد ١ ص ٤٠) : مُحـَدَّرة .

(٣) الذخيرة : بمَسرّى .

[١٤٠-١] / وله وقد لحها يوماً وأوما بالسلام فلم ترد عليه خجلا :

سلام على مَن لم يَجُـدْ بكلامهِ ... ولم يَرَى أهـلاً لردِّ سلامهِ
سلام على الظبي(١) الذى كلما رمى ... أصاب فؤادى عامـداً بسهامه
بنفسى حبيبٌ لم يَجُـد لمُحبهِ ... بطيفِ خيـالٍ زائرٍ فى منامه
ألم تعلمى يا عـذبةَ الإسم أننى ... فتًى فيك مخلوع عـذارُ لجامه ؟
وإنى وفىٌّ حافظ لأذمَّـتى ... إذا لم يقل غـيرى بحفظ ذمامه
يبشِّر ذاكَ الشَّعرُ شِـعرى أنه ... سيوصل حَبلى بعـد طول انصرامه
وما شكَّ طرفى أن طرفَكَ مُسعدى ... ومنقـذُ قلبى من خبـالِ غرامه
عليكِ سلام الله من ذى تحيةٍ ... وإن كان هذا زائداً فى اجترامه(٢)

---

(١) الذخيرة : الرامى .

(٢) هنا يضطرب المخطوط اضطراباً شديداً ، فقد أورد هذه الأبيات فى ترجمة عبد الله ابن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضى الذى سبقت ترجمته ، والمشهور أنها لعبد الرحمن بن هشام المستظهر الذى يترجم له ابن الأبار هنا (راجع الذخيرة ، طبعة القاهرة ، قسم ١ مجلد ١ ص ٣٥ وما بعدها) . ثم كتب الناسخ بعد ذلك : « ورفع إليه شاعر هنأه بالخلافة يوم بيعته شعراً فى رق مبشور . . » وهذا لا يمكن أن يكون المراد به عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أمية بن الحكم الربضى ، ومن الثابت أنه وقع لعبد الرحمن المستظهر بن هشام (راجع الذخيرة ، نفس الجزء ، ص ٤٢) . ثم يتبع الناسخ ذلك بالحديث عن إدريس بن يحيى العلوى ، ويستمر فى شعراء الأمراء والأعيان فى المائة الخامسة حتى يصل إلى أبى عبيد البكرى (ص ١٠٩ من المخطوط) ويقول : وأنشد له ابن فرج فى الحدائق :

سقيا لهم من ظاعنين حسبتهم . . الأبيات .

وبعد ذلك فى ص ١١٠ — ب يعود إلى استكمال سيرة عبد الله بن عبد العزيز المروانى ، ثم يستطرد فى ذكر نفر من المروانيين من أهل المائة الرابعة .

ويُتبعهم (ورقة ١١٢ — ب) بمعاصريهم من الأدارسة .

ثم يعود فى ورقة ١١٣ — ا إلى رجال المروانية فى المائة الرابعة . وفى ورقة ١٣٤ — ا يعود إلى المائة الخامسة بادئاً بالخليفة سليمان المستعين . =

وله أيضاً فيها :

تبسَّم عن درٍّ تنضَّد فى الوَرْسِ وأسفر عن وجهٍ ينوب[1] عن الشمس
غزالٌ براه الله من نورِ عرشِه لتقطيع أنفاسى ، وليس من الإنس
وهبت له روحى ومُلكى ومهجتى ونفسى ، ولا شىء أعز من النفس

وله :

طال عمر الليل عندى مذ تولعتَ بصدى
يا غزالا نقض العهـ ـدَ ولم يوفِ بعهدى
أنَسيتَ العهد إذ بِتْـ ـنا على مفرش ورد
واجتمعنا فى وشاحٍ وانتظمنا نظمَ عقد
وتعانقنا كغصنَيْـ ـنِ وقدّانا كقدٍّ
ونجوم الليل تحكى ذهباً فى لازوَرْدِ

ورفع إليه شاعر ممن هنأه بالخلافة يومَ بيعته شعراً فى رَقٍّ مبشور ، واعتذر من ذلك بهذين البيتين :

الرَّقُّ مبشورٌ وفيه بِشارةٌ بِبَقا الإمامِ الفاضلِ المستظهرِ

= ويستمر فى شعراء الأمراء من المائة الخامسة حتى أبى عبيد البكرى ، وفى أثناء ترجمته يعود إلى عبيد الله بن عبد العزيز المرواني !

لهذا كله كان لابد من إعادة ترتيب هذه المواد على النحو الذى يراه القارئ هنا .

وقد فعل مثل ذلك دوزى مستعيناً بفهرس تراجم الحلة الذى أورده ميخائيل الغزيرى فى فهرس مخطوطات الإسكريال . ولكن دوزى نسب لعبد الله بن عبد العزيز المروانى شعرا ليس له . ولم تبق إلا مشكلة الأبيات : « سقيا لهم من ظاعنين » . . الخ التى نسبها المخطوط لعبد الرحمن المستظهر ، ولا يمكن أن تكون له مادامت مروية عن ابن فرج فى الحدائق ، وقد مات ابن فرج قبل المستظهر ، ولا يمكن أن تكون بالتالى لأبى عبيد البكرى ، لأنه مات بعدها ، فتركناها فى شعر عبد الله المروانى ، وإن كنا فى شك من صحة هذه النسبة .

(١) الذخيرة : يتيه .

مليكاً أعاد العيشَ غضًّا شخصُه ... وكذا يكون به طوالَ الأدهر

فأجزل صلته ، ووقع على ظهر رقعته بهذه الأبيات :

قبلنا العذرَ فى بَشْرِ الكتابِ ... لِما أحكمتَ من فصلِ الخطابِ
وجُدنا بالجزا مما لدينا ... على قدر الوجود ، بلا حساب
فنحن المنعمون إذا قدرنا ... ونحن الغافرون أذى الذناب
ونحن المطْلِعون بلا امتراء ... شموسَ المجد من فَلَكِ التراب

وله يوم الوثوب عليه :

يا أيها القمر المنيرْ ... كن نحو شِبهك لى سفيرْ
بتحيةٍ أودعتُها ... شوقاً بُنَيّات الصدورْ

١١٤ — أبو الحسن بن هارون

قرأت فى تاريخ أبى بكر بن عيسى بن عيسى بن مُزَيْن(١) ، أن أبا جعفر

(١) أبو بكر محمد بن عيسى بن مزين مؤرخ أندلسى معروف نشر له دوزى فى أبحاثه قطعة عظيمة القيمة عن افتتاح الأندلس وما اتبعه العرب الأول من نظم فى توزيع أراضيها ، وهو يكتب فى أسلوب بسيط واضح دقيق . ويبدو أن كتابه الذى ينقل عنه ابن الأبار هنا غير كتاب آخر ينسب إليه اسمه « مغناطيس الأفكار ، فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والآثار » ، ومدينة الفرج هى وادى الحجارة Guadalajara ، وربما جاز لنا من هذا أن نستنتج أن أصل أسرته من هذا البلد . ومع أن كتابه هذا يتناول جغرافية وادى الحجارة إلا أننى لم أجد فيه فقرة واحدة تمكننى من الحكم عليه كجغرافى ، ولهذا فقد استطردت عنه فى بحثى عن الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس . ولا نعرف سنة ميلاده أو وفاته ، ولكن لدينا ما يدل على أنه كان حياً سنة ٤٧١/ ١٠٧٨ . وسينقل عنه ابن الأبار مرة أخرى عند كلامه عن ابن طاهر قائلا : « قرأت فى تاريخ أبى بكر محمد بن عيسى بن مزين الكاتب ، وأبوه عيسى هو مخلوع المعتضد عباد بن محمد من شلب ، =

أحمد بن سعيد المعروف بالدّبّ(١) ، وزير سليمان المستعين بالله وكاتبه الخاص به ، ولما تحركت فتنة على بن حَمّود العلوى بَعث إلى شَنْتَمَرِيَّة الغرب — وهى مَرَسَى أكشونبَة مما يلى البحر المحيط الغربى — ذا الوزارتين أبا عثمان سعيد بن هارون الماردى الدار ، وكانت بينهما مصاهرة ، قال : فلم تطل المدة حتى قُتل الدّبّ ثم قُتِل سليمان ، فملك ابنُ هارون ما بيده إلى أن مات فى سنة أربع — أو خمس — وثلاثين وأربعمائة ، فورث حاله ابنُه محمد بن سعيد — وحُكى أنه سُمى بالمعتصم — إلى أن أخرجه عباد بن محمد — يعنى المعتضد — فى سنة أربع وأربعين ، فصارت فى يده ثم فى يد ابنه محمد بن عباد .

[١٤٠-ب] وقال ابنُ بسام ، وذكر أبا الحسن بن هارون هذا ولم / ينسُبه : وهو علىّ ابن محمد بن سعيد بن هارون ، جدُّه لأمه أبو الحسن بن الإستِجِّى ، فأما سلفه من قبل أبيه فقد انخدع لهم الزمان بُرَيهة ، وهيَنَمَ بأسمائهم السلطانُ هُنَيهة بشنتمرية الغرب ، إلى أن نُبِّه الدهرُ الغافلُ على أمرهم ، وأسكت عن ذكرهم على يدى المعتضد عباد بن محمد ، مُخْلِي الأوطان ، وملحق الأقران بالأقران .

= وكان صهره » . ويفهم من هذا أن عيسى ابن مزين والد المؤرخ تولى أمر شلب زمناً حتى خلعه المعتضد ، وهو فى هذا يشبه أبا عبيد البكرى فقد كان أبوه قد تملك وَلْبَة Huelva وجزيرة شلطيش على مقربة من شلب حتى عزله المعتضد فى نفس الوقت تقريباً .

انظر : پونس بويجس ، رقم ١٣٤ ص ١٧١ و :

DOZY, *Scriptorum Arabum Loci de Abbadidis* (Leiden 1852) II, 123 et n. 144.

(١) أورد ابن عذارى فيما نقل عن ابن حيان اسمه : أحمد بن يوسف بن الدب ، وقال ساخراً عندما تحدث عن مقتل المستعين « دولة كفاها ذما أن أنشأها شانُجه ووزرها دبّ ، فتمخضت عن الفاقرة الكبرى » .

البيان المغرب : ٣/١١٨ .

ويفهم من رواية الرقيق أن أحمد بن الدب هذا اشترك مع محمد بن سليمان المستعين فى قتل هشام المؤيد . (البيان المغرب : ٣/١١٧) .

ومن شعره :

عادت إلى أذنابها هَيْفُ واطرد الإسراف والحَيْفُ
وامتنع الإصْبَعُ من وصلنا وزاد حتى امتنع الطيف
شنتمريُّ القطر غربيُّـــهُ وربما حَنَّ له الخَيْفُ
ذو لحظة إن لم تكن فى الحشا رمحاً ، وإلا فهى السيف

وله :

يا ليلةَ العيدِ عُدتِ ثانيــةً وعاد إحسانُك الذى أذكرْ
إذ أقبل الناسُ ينظرون إلى هلالِك النِّضْوِ ناحلاً أصفر
وفيهمُ مَن أحبــــه وأنا أنظرُه فى السماء إذ يَنظر
فقلتُ — لا مؤمناً بقولىَ — بل معرِّضا للــكلام ، لا أكثر :
أثَّرَ شهرُ الصيامِ فيكَ ، أبا محمدٍ ؟ قال لى ، وما أثَّرْ :
بل أثَّر الصومُ فى هلالــكمُ هذا الذى لا يكاد أن يظهر !

أحسنُ من هذا قولُ أبى الحسن بن الزَّقّاق(١) :

(١) أبو الحسن على بن عطية بن مطرِّف بن سلمة المعروف بابن الزقاق المتوفى سنة٥٢٨/ ١١٣٣ أو ٥٣٠ / ١١٣٥ وسنه تقارب الأربعين ، فلابد على هذا أن يكون قد ولد بين سنتى ٤٩٠ و٤٩٢ . ولد فى بلنسية فى فترة عصيبة من تاريخها الإسلامى ، إذ كانت إذ ذاك تحت سلطان السيد القمبيطور ، ولهذا يسمى البلنسى ، ويسمى أيضاً بالمرسى خطأ ، وقد أدرك سن الطلب بعد تحرر المدينة وعودتها إلى الإسلام على أيدى المرابطين . وأمه أخت الشاعر المعروف أبى إسحق إبراهيم بن خفاجة (٤٥٠ — ١٠٥٨/٥٣٣ — ١١٣٨) ، ومن المعروف أن هذا ينتسب إلى قبيلة هوارة البربرية . ويسمى ابن الزقاق باللخمى ، أى أن أباه عربى وأمه ترجع فى نسبها البعيد إلى البربر ، فهو على هذا نموذج طيب للتمازج بين هذين الجنسين الكبيرين . وقد نشأ ابن الزقاق نشأة متواضعة حتى كان أبوه — وكان صاحب متجر صغير — يلومه على السهر للدرس لأنه لا يملك —

وشهرٍ أدرنا لارتقابِ هـلالهِ جُفوناً(١) إلي نحو السماء مَوائلاَ
إلى أن بدا أحوى المدامع أحورُ يجرّ لأذيال الشباب ذلاذلاَ
فقلت له : أهلا وسهلا ومرحباً ببدرٍ حوى طيب الشمول شمائلا
أتطلبك الأبصارُ فى الجو ناقصاً وأنت هنا(٢) تمشى على الأرض كاملا؟

وذكرت بقول ابن هارون ما حُكى أن عبد الصمد بن المعَذّل رأى مخنثاً
[١٤١-أ] ليلةَ الرابع عشر من رمضان وهو / مضطجع على ظهره يخاطب القمر وهو يقول : « لا أماتنى الله منك بحسرة أو تقع فى السِّلّ ! » ، فلما كانت ليلة اليوم السابع والعشرين منه رأى عبدُ الصمد الهلالَ فقال :

يا قمراً قد صار مثلَ الهلالْ مِن بَعد ما صيَّرنى كالخيالْ
الحمــد لله الذى لم أمُتْ حتى أرانيكَ بهذا السُّلالْ

ولابن هارون :

وحديقة شرقت بِعدٍّ(٣) نَميرها يحكى صفاء الجو صفوُ غديرِها
تُجرِى المياهَ بها أسودٌ أحكمتْ من خالِص العقيانِ فى تصويرِها(٤)
فكأنها أسْدُ الشَّرى فى شكلها وكأنَّ وقْعَ الماء صوتُ زئيرِها

* * *

= ما يشترى به الزيت للقنديل . وقد درس ابن الزقاق دراسة طيبة على أيدى شيوخ أجلاء يذكرهم ابن الأبار فى التكملة (ترجمة رقم ١٨٤٤) ثم أخذ فى قول الشعر واشتهر أمره ، غير أنه لم يعمر طويلا كما ذكرنا . وشعره رقيق جميل إلا أنه قليل ، وقد جمعه إميليو غرسية غومس ونشره فى مدريد :

IBN-AL ZAQQAQ. *Poesías* (edición y traducción en verso. Madrid, 1956)

وقدم له بمقدمة شافية عن حياته وشعره .

(١) فى الديوان (ص ٨٦) : عيونا .
(٢) فى الديوان (ص ٨٦) كذا .
(٣) العِدّ هو الماء الكثير .
(٤) لم يورد دوزى (ص ١٦٩) هذا البيت .

ومن أمراء إفريقية فى هذه المائة :

١١٥ – المعز بن باديس بن المنصور بن بُلُقين :
ابنه تميم بن المعز ، أبو الطاهر

ولاه أبوه المعزُّ بنُ باديس المهديةَ سنة خمس وأربعين وأربعمائة وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وقد استفحل أمر العرب(١) بعد هزيمتهم إياه ، واستشرى شرهم وجدُّوا فى تخريب القيروان إلى أن تم لهم ذلك ، ثم تخلى أبوه عن القيروان وخرج من المنصورية لائذاً بالمهدية فنزل قصرَها ، وتميمٌ القائمُ بالأمر فى حياة أبيه إلى أن هلك سنة أربع وخمسين وأربعمائة .

(١) المراد هنا العرب الهلالية (الأثبج ورياح وزغبة وعديّ وغيرهم) الذين كانوا يسكنون فى صعيد مصر على الضفة الشرقية للنيل دون أن يسمح لهم بعبوره ، فلما انقلب بنو زيرى على العبيديين وتخلوا عن المذهب الشيعى وعادوا إلى السنة ودعوا لبنى العباس أذن لهم الجرجرائى أو البطائحى الوزير الفاطمى (عند ابن خلدون أن الذى سمح هو أبو الحسن اليازورى) بعبور النيل والذهاب إلى المغرب ، فمضوا إلى برقة فانثالوا عليه انثيالا لا يبقون على شىء ، حتّى إن جماعة منهم رأت فى مسيرها قرية فقال بعضهم : هذه القيروان ! فانقضت الجماعة عليها ونهبتها من حينها . واستقروا فى برقة بعض الوقت . وكان زعيم أولئك الهلالية مؤنس بن يحيى الصَّنْبَرى الرياحى قد وفد على المعز بن باديس قادماً من برقة وخدمه ، ثم أراد المعز أن يستعين بالعرب الهلالية على أبناء عمه ومنافسيه بنى حماد أصحاب القلعة المنسوبة إليهم فى الجزائر الحالية وعلى زناتة من أنصار بنى أمية الأندلسيين ، فطلب إلى مؤنس استقدام العرب من برقة ، فنصحه بألا يفعل ، فأصر المعز ، وكانت النتيجة أن أقبلوا فنهبوا بلاد إفريقية وخربوا القيروان ، ولم يجد المعز بداً من أن يلجأ إلى المهدية ليعتصم خلف أسوارها بعد أن انهزمت قواته هزيمة قاصمة عند القيروان فى شوال ٤٤٣ . وفى سنة ٤٤٩ اقتحم الهلاليون القيروان وخربوها . وقد ولد المعز سنة ٣٩٩ وتولى إمارة إفريقية سنة ٤٠٧ وسنه ٧ أعوام وتوفى سنة ٤٥٥ وعمره ٥٨ سنة .

ابن عذارى ، البيان المغرب : ١/٢٨٨ – ٢٩٥ .

ابن خلدون ، العبر : ٦/١٥٧ – ١٥٩ .

فاستبد تميمٌ بالمملكة ودخل إليه القضاة والفقهاء ووجوه القواد والأجناد وقد برز إليهم من الطاق[١] ، فعزَّوْه عن المعز وهنَّوْه بالملك وأنشده الشعراء فى ذلك ، فأجزل جوائزهم وأكثر عطاياهم . وأقام إلى أن توفى منتصفَ رجب سنةَ إحدى وخمسمائة ، وهو ابن تسع وسبعين سنة .

مولده بالمنصورية يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من رجب سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، فكانت مدة ولايته بعد أبيه سبعاً وأربعين سنة غير أربعين يوماً . وخلَّف من الوَلَد ما جاوز عددهم المائة . وطالت إمارته فتمهد [١٤١-ب] سلطانُه وعلا شانُه ، وانتجع حضرتَه جماعة من شعراء المغرب والأندلس / منهم أبو إسحاق بن خفاجة فى صباه وعبد الله بن عبد الجبار الطرطوشى وأبو الحسن على بن عبد العزيز الحلبى المعروف بالفكيك وغيرهم . وخدمه بالشعر من أهل إفريقية جماعة أيضاً ، منهم أبو الحسين بن خصيب وأبو عبد الله محمد ابن على القفصى الأعمى وأبو الحسن على بن محمد الحداد الأقطع ، ومدحه قبل هؤلاء من شعراء المعز — أبيه — أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن شرف[٢] وأبو على حسن بن رشيق ، وفيه يقول :

(١) لم أفهم المراد بهذه العبارة ، وابن الأبار لا يكتب شيئاً إلا عن تدقيق . والمفهوم من العبارة أن تميم بن المعز كان بعيداً عن أبيه ، وأنه تخوف عندما جاءه خبر موت أبيه من أن يكون الخبر خدعة ، ولهذا فقد كلموه من خارج قصره ، فلما اطمأن إلى صحة الخبر برز إليهم من الطاق . والخلاف بين المعز وابنه تميم معروف ، ويبدو أن سبب ذلك خطأ المعز فى استقدام العرب والاستعانة بهم . وقد انقسم هؤلاء بعد استقرارهم فى إفريقية قسمين : قسما ناصر بنى زيرى الصنهاجيين (زغبة ورياح وسليم) وقسما ناصر الزناتيين الذين نافسوا بنى زيرى على سيادة المغرب الأوسط (الأثبج وعدى) ، وقد استسلم المعز بن باديس من أول الأمر للنكبة ولجأ إلى المهدية تاركاً العرب يفعلون ببقية بلاده ما يشاءون ، فى حين أن ابنه تميماً ظل فى الميدان يناضل قدر استطاعته ، ويبدو أن أباه تخوف منه ، وهذا ظاهر من إشارة لها معناها أوردها ابن عذارى فى حوادث رجب ٤٣٣ (البيان المغرب : ١/٢٩٨) .

(٢) أوسع ما لدينا إلى الآن عن ابن شرف هو ما أورده ابن بسام فى الذخيرة (قسم ٤ — مجلد ١) ص ١٣٣ وما بعدها ، وفيه كذلك الكثير عن معاصره ومنافسه ابن رشيق .

أصحُّ وأقوى ما رأيناه فى النَّوَى من الخبر المأثور منذ قديمِ
أحاديثُ تُمليها السيولُ عن الحَيَا عن البحر عن جود الأمير تميم

ولأبى الحسين عبد الكريم بن فضّال المعروف بالحلوانى فيه :

عَرِّسا بى فذَا مَناخٌ كريمُ هذه جَمَّةٌ(١) وهذا تميمُ
هذه الجنة التى وعد الله وهذا صراطه المستقيم

وكان تميم حليماً جواداً ممدحاً ، هجاه ابنُ الحداد الأقطع ومما قال فيه :

الزوم أحسن عندى إذا اختبرت الأمورا
من أن يكونَ تميمٌ على الثغور أميرا

فطلبه ، ثم استتر ، ثم حبَّر قصيدةً يستعطفه بها ، وأنشده إياها ، فصفح عنه وأحسن إليه . ذكر ذلك أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت فى تاريخه ، قال : وكان يعترض الشعراء وينتقد عليهم ألفاظَهم ، فلا يتخلص منه إلا الماهر . أنشده بعضهم فى وقت هَرْج :

تثبَّتْ لا يخامِرْكَ اضطرابُ إليك تمدُّ أعينَها الرقابُ

فقال له : « أرأيتنى — ويحك — طِرتُ خفةً ورميت بنفسى من هذا العلو قلقاً واضطراباً ؟ » وسكَّته ، فلم يسمع من قصيدته غير هذا البيت .

وكان ابنه يحيى بن تميم وأبوه المعز بن باديس والحسن بن على بن يحيى بن تميم شعراء ، وسيأتى ذِكرُ كل واحد منهم فى بابه إن شاء الله تعالى .

ومن شعر تميم :

/ بِكَرِّ الخيلِ داميةِ النحورِ وقرعِ الهام بالقُضُب الذكورِ [١٤٢-١]
لأقتحمنَّها حرباً عواناً يشيب لهولها رأسُ الصغير

(١) لعل المراد بهذا مدينة « الجم » من كبار مدن تونس .

فإما المُلكُ فى شرفٍ وعزٍّ   علىَّ التاجُ فى أعلى السرير
وإما الموت بين ظُبَى العوالى   فلستُ بخالدٍ أبدَ الدهور

وله :

سأسكتُ صبراً واحتساباً فإننى   أرى الصبرَ سيفاً ليس فيه فُلولُ
عدانىَ أن أشكو إلى الناس أننى   عليلٌ ، ومن أشكو إليه عليل
وإن امرءاً يشكو إلى غير نافعٍ   ويسخو بما فى نفسه لَجهول

وله فى غلام من مواليه اسمه « مُدام » ، وهو من مشهور شعره ويغنَّى به

مُدامٌ يطوف بكأسِ المُدام   فلم أدر أيّهما أشربُ
فهذا الصديقُ وهذا الرحيقُ   وهذا الهلالُ وذى الكوكبُ
وهذا يمدُّ[1] بألحاظه لى   وهذى بألبابنا تلعبُ
وما البدرُ والنجمُ من ذا وذاك   ولكنه مَثَل يُضرب

وله :

قام بكأسٍ فقلتُ غصنٌ   عليه آسٌ وجُلَّنارُ
كأنما الفرعُ منه ليلٌ   والوجه من تحته نهار
يا غصنَ بانٍ على كثيبٍ   لبَّدَهُ الغيمُ والقِطار
هل من نوالٍ لمُستهامٍ   جانَبه النومُ والقَرار ؟
ليس له فى السُّلُوِّ رأىٌ   ما اختلف الليل والنهار

وله ، وهو مما يستحسن له :

لها نهدانِ قد نجما   كنابَىْ فيلِ شطرَنج

وله :

(١) الأصل : يجد .

إلى كَمْ أقاسى الحبَّ والشوقَ والوجدَا ... وما أجملتْ «جُمْلٌ» ولا أسعدتْ «سُعْدَى»[1]

/ وجوهٌ كأقمارٍ قَمَرْنَ تجلُّدى ... على كلِّ قدٍّ قَدَّ منى الحشا قدًّا [١٤٢-ب]

وكان ابتداء الحبِّ هَزْلا ولم أكنْ ... علمتُ بأن الهزلَ قد يبعث الجدَّا

وله :

همُ عرَّضونى للصَّبابة والهوى ... وهُمْ قطعوا حَبْلى وهمْ صرفوا رُسْلى

جُفونى جَنَتْ قتلى علىَّ صَبابةً ... ولم أرَ مقتولا بألحاظه قبلى

وله :

ولما افترقنا وساروا ضحًى ... شققنا لوشْكِ الفراقِ الجيوبا

ولو كان فينا وفاءٌ لهم ... شققنا مكانَ الجيوب القلوبا

وله :

أقبلتْ بدرَ تمامٍ ... بعدما لاحت هلالاَ

غادةٌ ذاتُ محيّا ... فيه نورٌ يتلالا

كتب الُحسن عليه : ... صنعةُ الله تعالى

وله :

لو كنتِ حَلْياً لكنتِ عِقدَا ... أو كنتِ طِيباً لكنتِ نَدّا

أو كنتِ وقتاً لكنتِ صبحاً ... أو كنتِ نجماً لكنتِ سعدَا

أو كنتِ غصناً لكنتِ آساً ... أو كنتِ زهراً لكنتِ وردَا

وكم طلبتُ السُّلُوَّ جَهدى ... فلم أجد من هواكِ بُدّا

وله :

أقول لها وقد عَرضتْ ... فكانت منتهى أملى

(١) فى الأصل : سعدا .

لئن أصبحتِ لاهيـــةً فإنى منــكِ فى شغُلِ
ولا شغلٌ سوى مَطْلى ولَىِّ الوعــدِ بالعلل

وله يصف بركة ماء :

بركةٌ بالمـاء تَطَّرِدُ للصَّبا فى مَتْنِها زَرَدُ
[١٤٣-أ] / بات فى أحشائها قمرٌ مثلَ قلبِ الصبِّ يرتعدُ

١١٦ – إدريس بن يحي العلوى الحَمُّودى ، أبو رافع
[٦٢-ب] / ويلقب بالعالى

هو إدريس بن يحيى بن على بن حَمُّود بن أبى العيش ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب(١) .

أخرج من [قرطبة مع أبيه يحيى بعد خلافته الأولى عندما خلعه البربر سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ، واستقر فى مالقة حتى](٢) بويع له بالخلافة بمالقة

(١) نسب بنى حمود وارد هنا بأوفى مما هو عند ابن حيان . انظر الذخيرة قسم ١ مجلد ١ ، ص ٧٨ .

(٢) بياض بالأصل ، فأضفت هذه العبارة ليستقيم السياق . وإدريس بن يحيى بن حمود هو الخامس ممن تولوا الخلافة فى قرطبة من أفراد هذا البيت فى سنوات الاضطراب البالغ أيام فترة الطوائف الأولى التى تمتد من موقعة قنتيش التى أشرنا إليها فى ربيع الأول سنة ٤٠٠/ نوفبر ١٠٠٩ إلى إخراج هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية فى الأندلس من قرطبة وإلغاء الخلافة من هذا البلد فى ذى الحجة ٤٢٢/ نوفبر ١٠٣١ .

وكان سليمان المستعين قد أقام القاسم بن حمود وأخاه علياً حاكين على منطقة العدوة ، وكانا من زعماء الطائفة البربرية التى اعتمد عليها سليمان المستعين هذا ، وقد حسب سليمان أن ذلك =

بعد أبيه يحيى المعتلي ، وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالعالى . ثم خلفه ابنُ عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود واعتقله . ثم عاد ثانية إلى مالقة . وفى ولايته يقول أبو محمد غانم بن وليد المخزومى الأديب[1] ، من أبيات :

واستقبلَ المُلكَ إمامُ الهدى … فى أربعٍ بعد ثلاثينا
خلافةُ الله سمتْ نحوَهُ … وهو ابنُ خمسٍ بعد عشرينا
إنى لأرجو يا إمامَ الهدى … أن تملِكَ الدنيا ثمانينا
لا رَحِمَ اللهُ امرأً لم يقلْ … عند دعائى لك : آمينا !

وفيه يقول أبو زيد عبد الرحمن بن مُقَانا[2] الأُشْبُونى ، من قصيدته المشهورة التى يتداولها القوّالون لعذوبة ألفاظها وسلاستها :

يزيد مركزه قوة ، ولكنه أخطأ فى حسابه إذ أن الأخوين تقاسما السيطرة على جهتى العدوة ، فاستقر على فى سبتة والقاسم فى الجزيرة الخضراء ، وتبينا من أول الأمر أن أمر سليمان معتمد على تأييدهما اعتماداً تاماً ، وبدأا يمهدان لانتزاع الخلافة من يده ، فزعم علىّ أن هشاما المؤيد أوصى له بالخلافة وأعلن استقلاله فى سبتة عن سليمان المستعين ، وتواطأ مع زاوى بن زيرى زعيم الصنهاجيين فى الأندلس — وكان مستقراً فى غرناطة — ومع خيران الفتى العامرى على خلع سليمان . ثم دخل قرطبة فى ٢٢ المحرم ٤٠٧/أول يوليو ١٠١٦ وعزل سليمان المستعين وقتله وأخاه عبد الرحمن وأباه الحكم وتولى الخلافة متلقباً بلقب الناصر لدين الله ، وبدأت بذلك قصة خلافة بنى حمود التى وصلت بالخلافة القرطبية إلى قمة الأزمة التى أدت إلى زوالها .

(١) غانم بن محمد بن عبد الرحمن المخزومى من أهل مالقة ، ذكره ابن سعيد فى « المغرب » باسم غانم بن الوليد بن عمر بن غانم الأشونى (نسبة إلى أشونة Osuna) الساكن بمالقة « فقيه ومدرس وأستاذ فى الآداب وفنونها ، مجود مع فضل وحسن طريقة » كما يقول ابن بشكوال ، وقد توفى سنة ٤٧٠ .

ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٩٧٩ ص ٤٥٠ — ٤٥١ .
ابن سعيد ، المغرب ، ١/٣٧٠ .
ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ — مجلد ٢ ص ٣٤٥ وما بعدها . والأبيات التى أوردها ابن الأبار هنا واردة فى الذخيرة ، ص ٣٥٤ مع خلاف قليل فى اللفظ .

(٢) انظر عنه : المغرب لابن سعيد ، ١/٤١٣ .

وكأنَّ الشمسَ لما أشرقتْ   وانثنتْ عنها عيونُ الناظرينْ

وجهُ إدريسَ بنِ يحيى بنِ على   بنِ حمـــودٍ أميرِ المؤمنين

خطَّ بالمسكِ على أبوابهِ :   ادخلوها بســـلامٍ آمنين

ملكٌ ذو هيبةٍ لـكنـــهُ   خاشـــعٌ لله رب العالمين

وإذا ما رُفعت راياتُهُ   خفقتْ بين جناحى جَبْرَئِين

وإذا أشكَلَ خطبٌ مُعضلٌ   صَرع الشكَّ بمفتاح اليقين

وإذا راهن فى السبق أتى   وبيمناه لواء الســـابقين

يا بَنى أحمدَ يا خيرَ الورى   بأبيكمْ كانَ رِفْدُ المسلمين

نزلَ الوحىُ عليـــه فاحتبى   فى الدجى فوقهمُ الروحُ الأمين

/خُلقوا من ماء عدلٍ وتقًى   وجميعُ الناسِ من ماء وطين [٦٣ - ١]

وأول هذه القصيدة :

أَلِبَرْقٍ لاحَ مِن أَنْدَرِينْ   ذَرفتْ عيناكَ بالدمعِ المَعين (١)

لعبتْ أســـيافهُ عاريةً   كمَخاريقَ بأيدى اللاعبين

ومنها :

ومصابيحُ الدُّجى قد أطفئتْ   فى بقايا مِن سوادِ الليلِ جُونْ

وكأن الطَّلَّ مِسكٌ فى الثرى   وكأن النَّوْرَ درٌّ فى الغصون

والندى يقطُرُ من نَرجِسِهِ   كدموعٍ أسلمتهنَّ الجفون

والثريا عُلِّقَتْ فى أُفْقِهـــا   كقضيبٍ زاهرٍ من ياسمين

---

(١) وردت أبيات من هذه القصيدة فى معظم مراجعنا . وقد أسقط ابن الأبار بعد هذا البيت بيتاً لا يستقيم السياق بدونه :

ولصوتِ الرعدِ زجرٌ وحنين   ولقلبى زفَـراتٌ وأنين

وهذا من أحسن ما قيل فى تشبيه الثريا .

وكان إدريس هذا متناقض الأمور : كان أرحم الناس قلباً ، كثيرَ الصدقة يتصدق كلَّ يومِ جمعةٍ بخمسمائة دينار ، وردَّ المطرودين إلى أوطانهم وصرفَ إليهم ضياعَهم وأملاكَهم ، ولم يسمع بَغْياً فى أحد من الرعية . وكان أديب اللقاء حسن المجلس ، يقول من الشعر الأبياتَ الحسان . ومع هذا فكان لا يصحب ولا يقرِّب إلا كل ساقط نذل ، ولا يحجب حُرَمَهُ عنهم ، وكل من طلب منهم حِصناً أعطاه إياه . وسلَّم وزيرَه ومدبرَ إمامته وصاحبَ أبيه وجده موسى بنَ عفان إلى أمير صنهاجة فقتله ، وكان الصنهاجي سأل ذلك منه وكتب إليه فيه ، فلما أخبر إدريسُ موسى بنَ عفان بذلك وبأنه لا بد من تسليمه إليه قال له : « افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . وهو القائل بديهاً ، وقد غُنِّى ما لم يَرضَهُ فى مدحه فقال للمغنى : « أعد الصوتَ وقل :

إذا ضاقت بك الدنيا فعرِّجْ نحو إدريسا
إذا لاقيتَـــه تلقى رئيساً ليس مرءوسا
إمامٌ ماجدٌ ملكٌ يزيل الغمَّ والبوسا »

هؤلاء خاتمة الأدباء من الملوك العلوية والمروانية ، لذهاب سلطانهم وانقراض مُلكهم بالأندلس والمغرب فى هذه المائة الخامسة ، واستيلاء الثوار على الأقطار .

وفيها أيضاً كان انقراض الدولة العُبَيدية بإفريقية على يدى المعز / بن باديس [٦٣ – ب] الصنهاجي .

وافترقت الجماعة بالأندلس على رأسها إلى وقتنا هذا ، وتسلَّط العدوُّ أثناءَ ذلك فتحيَّفَها ، ثم والى مَغَاره وخَسَارَه حتى أتلفها . ونظَمها فى هذه الفترة ملكُ المغرب أحياناً ، وانفردت بالثائرين فيها أحياناً . وفى كل ذلك لم تقم

لها قائمة ، ولا أغنت عنها واردةٌ ولا حائمة ، وما برحت تَخِلُّ بها وتُؤْذِن بعَطَبها فاتحةٌ من فتنتها وخاتمة .

* * *

ونعود إلى ذكر أمراء الفتنة :

١١٧ – جَهْوَر بن محمد بن جهور بن عبيد الله ، أبو الحزم – رئيس قرطبة

قد تقدم ذِكرُ جدِّه أبي الحزم جهور بن عبيد الله والرفعُ فى نَسَبه ، وكان جدهم أبو أمية عبد الغافر بن أبي عبدة من وزراء عبد الرحمن بن معاوية . وسماه عيسى بن أحمد الرازى فى حُجّاب هشام الرضى بن عبد الرحمن بن معاوية ، قال : وكانٌ من أهل الخير والدين والفضل ، وهو صاحب الخاتم للإمام هشام ولابنه الحكم – يعنى الرَّبضى . وسَمّى أيضاً فى حُجاب الحكم هذا عبدَ العزيز أبا عبدة أخا عبد الغافر .

وما زال هؤلاء الجهاوِرَة يتعاقبون على الخُطط السنية الشريفة ، من الحِجابة والوزارة والقيادة والكتابة ، إلى أن وقعت الفتنة العظمى بالأندلس ، وأولُ من أَرَّث نارَها ، وأورث شنارها ، محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى . فتناوب قصرَ قرطبة جماعةٌ من الأموية والعلوية فى المدة القريبة ، آخرهم هشام بن محمد ابن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر المُعْتَدُّ ، لم يكن عندهم غَناء ، ولا فُقد بتوليتهم التواء ولا عناء . وحينئذ استولى على الأمر بقرطبة ، دارِ الخلافة وقرارة المُلك ، أبو الحزم هذا الأخير زماناً الأول سلطاناً ، وإن كان ما فارق رسْمَ الوزارة ولا تحول عن داره إلى قصور الخلفاء ، لاتصافه بالرجاحة والدهاء .

قال ابن حَيّان — وذَكر اجتماعَ الملأ من أهل قرطبة على تقديمه : أعطوا منه قوس السياسة باريها ، وولوا من الجماعة داهيتها[١] . فاخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه ، فاقترن صلاحُهم به . وأجاد السياسة[٢] ، فانسدل به الستر على أهل قرطبة مدتَه . وحصَّل كل ما يرتفع من البلد بعد إعطاء مقاتلتهِ ، وصيّر ذلك فى أيدى ثقاتٍ من الخدَمة ، [مُشارفاً لهم بضبطه ، فإن فَضَل شىء تركه بأيديهم مثقفاً مشهوداً عليه ، لا يتلبس لهم بشىء منه][٣] ، ومتى سئل قال : « ليس لى عطاء/ ولا منع ، هو للجماعة وأنا أمينهم » . وإذا [٦٤-١] رابه أمر عظيم ، أو عزم على تدبيرٍ ، أحضرهم وشاورهم . وإذا خوطب بكتاب ، لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء . فأعطى السلطان حقه من النظر ، ولم يخل مع ذلك من نظره[٤] لمعيشته ، حتى تضاعف ثراؤه ، وصار لا تقع عينه على أغنى منه . حاط ذلك كلَّه بالبخل الشديد ، والمنع الخالص ، اللذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعناً ، ولكَمُل لو أن بشراً يكمُل .

قال : وكان — مع براعته ورفعة قدره وتشييد [ه لقديمه][٥] بحديثه — من أشد الناس تواضعاً وعفة ، وأشبههم ظاهراً بباطن ، وأولا بآخِر ، لم تختلف به حال ، من الفَتاء إلى الكهولة .

واستمر فى تدبيره قرطبةَ ، فأُنجِح سعيُه بصلاحها ولمِّ شعثها فى المدة

(١) ابن الأبار ينقل هنا عن ابن حيان ، وقد نقل نفس العبارة ابن عذارى فى البيان المغرب (ج ٣ ص ١٨٦) ، وقد ورد فيه هنا : أمينها .

(٢) عند ابن عذارى : وأجادوا السياسة فيه .

(٣) أسقط ابن الأبار هذه العبارة من كلام ابن حيان رغم أهميتها الكبيرة فى تفصيل النظام الذى سار عليه أبو الحزم بن جهور فى سياسة أمور قرطبة ، ولهذا جعلتها بين أقواس . أما رواية ابن بسام (قسم ١ مجلد ٢) فتضيف هنا : متهوداً عليه [إلى أن يعن وقت تصرفه] .

(٤) الكلمة غير واضحة فى الأصل ، وقد قرأها دوزى (ص ١٦٩) : ربحه . والعبارة التى أثبتها واردة فى البيان المغرب . وفى رواية الذخيرة : ترقيمه.

(٥) بياض فى الأصل ، والتكملة من الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢) ص ١١٦ .

القريبة ، وأثمر الثمرة الزكية ، ودب دبيب الشفاء فى السقام ، فنعَش منها الرفات ، وألحفها رداء الأمن ، ومانع عنها من كان يطلبها من أمراء البرابرة المتوزعين أسلابَها ، بخفْض الجناح ومعاملة الرفق[١] ، حتى حصل على سَلمِهم واستدرار مرافق بلادهم . ودارى القاسطين من ملوك الفتنة ، حتى حفظوا حضرتَه ، وأوجبوا لها حرمةً ، بمكابدته الشدائد حتى ألانها بضروب احتياله ، فرخَت الأسعارُ وصاح الرخاء بالناس أن : هلموا[٢] ! فلبّوه من كل صقع ، فظهر تزيُّد الناس بقرطبة من أول تدبيره لها . وغَلَت الدور ، وحرّكوا[٣] الأسواق ، وتعجب ذوو التحصيل للذى أرى[٤] اللهُ فى صلاح الناس من القوة — ولمّا تعتدل حال أو يهلك عدو أو تَقْوَ جباية — وأمر الله تعالى بين الكاف والنون .

وقال الُحميدى : لم يدخل فى أمور الفتن قبل ذلك ، وكان يتصاون عنها . فلما خلا له الجو وأمكنته الفرصة ، وثب عليها — يعنى قرطبة — فتولى أمرها واستضلع بحمايتها . ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً ، بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه ، وجعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجىء مستحق يُتفق عليه فيُسلم إليه . ورتّب البوابين والحشم على أبواب تلك القصور ، على ما كانت عليه أيامَ الدولة ، ولم يتحول من داره إليها . وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتّبهم لذلك ، وهو المشرف عليه . وصيّر أهلَ الأسواق جنداً ، وجعل أرزاقَهم رؤوسَ أموال تكون بأيديهم مُحصاة عليهم ، يأخذون ربحها فقط ورؤوسُ الأموال باقية محفوظة ، يؤخذون بها ويُراعَوْن فى الوقت بعد الوقت

(١) عند ابن عذارى : والرفق فى المسائل .

(٢) فى البيان المغرب (١٨٧/٣) : أن يعلموا ، وهو خطأ .

(٣) فى البيان المغرب : فتحركت الأسواق .

(٤) فى البيان المغرب : أرأى ، وهو خطأ .

كيف حفْظُهم لها . / وفرّق السلاحَ عليهم ، وأمرهم بتفريقه فى الدكاكين [٦٤-ب] وفى البيوت ، حتى إذا دهم أمرٌ فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه . وكان يشهد الجنائز ويعود المرضى ، جاريًا فى طريقة الصالحين . وهو – مع ذلك – يدبر الأمر بتدبير السلاطين المتغلبين[1] ، وكان [مأمونًا][2] وقرطبة فى أيامه حريمًا يأمن فيه كلُّ خائفٍ من غيره ، إلى أن مات فى صفر – وقال ابن حيّان : ليلةَ الجمعة السادسة من محرم ، ثم اتفقا – سنة خمس وثلاثين وأربعمائة .

ومن شعره ، وكتب به إلى المنصور محمد بن أبى عامر :

متع الله سيدى بالسرور وتولاه فى جميع الأمورِ
وهنيئًا له بعـــزة دهرٍ تتوالى بظلِّ تلك القصور
دعوةٌ أقبلَ الضميرُ بنجوا هُ عليها لصَفْوِ ما فى الضمير[3]

هكذا وجدتُ هذه الأبيات منسوبةً إلى جهور بن محمد فى كتاب « مطمح الأنفس » للفتح بن عبيد الله ، وقد بينتُ غلطَه فيما نَسب إليه مما ثبتَ أنه لجده جهور بن عبيد الله ولغيره . ولا يبعُد أن يهنِّئَ المنصور فى آخر دولته ، لأنه حينئذ – بل عام وفاته – كان يشارف الثلاثين فى سِنّه . ولعل هذه الأبيات – على ضعفها – لأبيه أبى الوليد محمد بن جهور بن عبيد الله الوزير ، فإنه كان خاصًا بالمنصور ، وهو الذى أطلعه على أمر جعفر بن على الأندلسى صاحبِ المسيلة واختلافِ البربر إليه بقصر العُقاب ، واستأذن على المنصور فى وقت لم يكن يصل فيه إليه أحد ، فكسَر رائحةَ النبيذ عنه ، ووارى الحُرَم ، وأصغى إليه ، وقبل نصيحته ، فقتل جعفر على أثر ذلك .

(١) وردت الكلمة فى الأصل : المـ ن ، وقد أكملتها من كلام الحميدى ، وعنه ينقل ابن الأبار هنا . جذوة المقتبس ، بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى (القاهرة ١٣٧١) : ص٢٨ .

(٢) بياض بالأصل ، والتكملة من جذوة المقتبس للحميدى.

(٣) لم أجد هذه الأبيات فى نسخة مطمح الأنفس المطبوعة .

وتوفى أبو الوليد سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة . ذكر ذلك ابن حيان فى تاريخه الكبير ، وصدّر به المتوفين فى الدولة العامرية من الوزراء والخواصّ .

ولم يُنشد الحُميدى لأبى الحزم الأخير شعراً ، وأنشد لأبيه أبى الوليد هذا :

أبلغت فى حبـــك اسماعى فصرتُ لا أصغى إلى الداعى
من صممٍ أورثنيه الأسى وحُرقة [تُشعِـ]ـل[1] أوجاعى
كلفتَنى الصبرَ وأنَّى به وكيف بالصـــبر لمرتاع ؟
جزعتُ فى الحب على أننى [فى الخطب][2] جلْد غير مجزاع

وسيأتى ذكر أبى الوليد محمد بن جهور بن محمد — الذى خلف أباه فى رئاسة [٦٥-ا] قرطبة وتدبير أمرها ، إلى أن قبض/عليه المعتمد محمد بن عباد — بعد هذا ، إن شاء الله تعالى .

١١٨ — محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى القاضى ، أبو القاسم

قال أبو رافع الفضل بن على بن أحمد بن حزم فى كتابه الموسوم بـ « الهادى إلى معرفة النسب العَبّادى » : هو أبو القاسم محمد بن ذى الوزارتين أبى الوليد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عِطاف بن نُعيم . وعِطاف — وضبطه بكسر العين وتخفيف الطاء المهملتين — عن غير أبى رافع ، هو الداخـــل منهم بالأندلس فى طالعة بَلْج بن بشر القُشَيْرى ، وقيل إن عِطَافاً ونُعَيْماً هما الداخلان معاً إلى الأندلس . وكان عِطافٌ من أهل حِمْص من صقع الشام ، لَخْمِىّ النسب صريحاً ، وموضعه من حمص

(١ و ٢) التكملة من جذوة المقتبس للحميدى .

العريش ، والعريشُ فى آخر الجِفَار بين مصر والشام . ونزل بالأندلس بقرية يُومِين من إقليم طُشَّانَة(١) من أرض إشبيلية ، وعلى ضفة نهرها الأعظم . وقال غير أبى رافع إنهم من وَلَد النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وبذلك كانوا يفخرون ويُمدَحون ؛ وهذا ابن اللبانة يقول :

من بنى المنذرين وهو انتساب(٢) زاد فى فخره بنـــو عبادِ

فتية لم تلد ســـواها المعالى والمعالى قليـــلة الأولاد

وقال ابن حيّان : إسماعيل بن عباد قاضيهم القديم الولاية(٣) ، ورجل

(١) فى الأصل : لشانة ، والتصويب من الذخيرة لابن بسام ، مخطوطة أوكسفورد ، ورقة ٢ ظهر .

وطشانة هى Tocina فى مديرية إشبيلية حالياً .

أما « يومين » فقد حقق اسمها دوزى فى تعليقاته على الترجمة اللاتينية لهذه القطعة فى *Script. Ar. Loci de Abbad.* I, 227. وقال إنه وجد فى كتاب :

Repartimiento de la muy nobe y leal ciudad de Sebilla que hiço el Rey Alonso el dezimo, Rey de Castilla y Leon que por excelencia fue llamado el Sabio, era de 1291, que es Ano del Senor 1253 (Mus. Brittan. Ms. Egerton 478,fol.2v.)

عبارة تقول إن القرية التى كان العرب يسمونها **Torconina** غيّر الملك ألفونسو اسمها إلى موليناً **Molina** . ورجح فى ظن دوزى أن الاسم مصحف فى هذا المخطوط ، وأن صحته **Toriomina** وهو بالعربية طُور يُومين أى جبل يومين .

(٢) فى الأصل :

من بنى المنذر بن ماء السماء وهو انتساب زاد فى فخره بنو عباد

وهو واضح الانكسار ، وقد صوبه دوزى على هذا النحو ، وهو صحيح .

***Abbadides* II, 47 n.c.**

(٣) عند ابن بسام : قديم الولاية ، وقد نشر دوزى نص الذخيرة لابن بسام فى الجزء الأول من مجموعه عن أقوال المؤرخين فى بنى عباد وعنوانه :

***Historia Abbadidorum* (Lugduni Batavorum. Leiden, 1846) pp.220 sqq.**

وعنوان الجزء الثانى من هذا الكتاب يختلف عن ذلك ، وقد سبق أن ذكرناه . وسأشير إليه فيما يلى من التعليقات بعبارة : دوزى ، بنو عباد .

الغرب[١] قاطبة المتصل الرئاسة فى الجماعة والفتنة . وكان أيسرَ مَن بالأندلس وقتَه[٢] : ينفق من ماله وغلّاته ، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ، ولا خدمَه[٣] . وكان واسع اليد بالمشاركة[٤] . آوى صنوف الجاليَـة من قرطبة عند احتدام الفتنة . وكان معلوماً بوفور العقل وسُبوغ العلم والزكانة ، مع الدهاء و بعد النظر و إصابة القَرْطَسَة[٥] .

فأما ذو الوزارتين أبو القاسم ابنُه فأدرك متمهلا ، وسما بَعدُ إلى بلوغ الغاية ، فخلَّط ما شاء ، وركب الجرائم الصعبة . وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه إسماعيل ، ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بَعد بُعده عنه مدة ، وحصل منه بمنزلة الثقة ، فخانه تخوُّن الأيام عند إدبارها عنه ، إيثاراً للحزم وطلباً للعافية ، وصَدَّه عن إشبيلية بلدِه لما قصده من قرطبة مفلولا .

وكان الذى وطَّد له ذلك نفرٌ من أكابرها المرتسمين بالوزارة ، مناغين فى [٦٥- ب] ذلك لوزراء/ قرطبة على تحميلهم لابن عباد كِبْرَ ذلك ، لإنافتِه عليهم فى الحال

---

(١) الأصل : المغرب ، والتصويب من ذخيرة ابن بسام ، مخطوط أوكسفورد ، ورقة ٢ ظهر . والمراد غرب الأندلس . ومن المعروف أن ابن بسام – فى مضاهاته لتقسيم يتيمة الدهر لأبى منصور الثعالبى إلى أقطار يذكر فى كل منها ما يختاره لشعرائها – قسم الأندلس إلى ثلاثة أقسام : الشرق والغرب والموسطة .

(٢) نص ابن حيان برواية ابن بسام (الذخيرة ، ورقة ٢ ظهر) : « وكان أيسر مُكَوَّر بالأندلس وقتَه » . ومكور أى معمَّم ، كناية عن أنه كان من أهل الفقه والعلم والقضاء . انظر ملحق القواميس لدوزى : ٢/٤٩٧ .

(٣) غريب أن يقول ابن حيان أن إسماعيل بن عباد لم يخدم السلطان ، وهو يقول قبل ذلك أنه كان قاضياً ، بل قديم الولاية فى القضاء . ولعله أراد أن إسماعيل بن عباد لم يتول شيئاً من الوظائف الإدارية أو السياسية .

(٤) المشاركة هنا تعنى المزارعة ، أى تقديم أراضيه للفلاحين يزرعونها بالمشاركة ، له حصة من المحصول ولهم حصة ، وتسمى أيضاً المقاسمة والمناصفة .

(٥) القرطسة هى الهدف الذى كان يوضع ليتدرب على إصابته الرماة . انظر : ملحق القواميس لدوزى : ٢/٣٣٠ .

وسعة النعمة ، و إحصائهم عليه ملكَ ثلث إشبيلية ضيعة وغلة ، يخادعونه بذلك عن نَشَبه إبقاءً منهم على نعمهم ، وهو يشترى بذلك أنفسهم ولا يشعرون ، إلى أن وقعوا فى الهوة . وكانوا جماعة ، منهم ولد[1] أبى بكر الزبيدى النحوى و بنو يَرِيم[2] وغيرهم ، راض بهم الأمورَ ، واستمال العامة ؛ فلما توطأت له قبض أيدى أصحابه هؤلاء[3] ، وسما بنفسه وأسقط جماعتهم .

قال : وسلك سيرةَ أصحاب الممالك الذين بالأندلس لأول وقته ، وقام بأصح عزم وأيقظِ جدٍّ ، واخترع فى الرئاسة وجوهاً تقدم فيها كثيراً منهم ، [وامتثل رسْمَ[4] ابن يعيش[5] صاحب طليطلة من بينهم فى تمسكه بخطة القضاء وارتسامه

---

(١) رواية الذخيرة : بنو أبى بكر الزبيدى.

(٢) فى الذخيرة : بنو يريم صنائع ابن عباد . وقد ترجم دوزى هذه العبارة بقوله : filii Jarîmi ministri Ibn Abbadî أى أبناء يريم وزراء ابن عباد ، والنص لا يحتمل ذلك . وورد ذكره فى البيان المغرب لابن عذارى : ابن مريم .

(٣) نص ابن حيان عند ابن بسام يقول هنا : « وجرت له فى تدبيرهم أموريشق إحصاؤها ركب فيها [أحزم] طرق طلاب الدول ، حتى انفرد بسابقته ، ومهد لدولته ، واجتمع أهل عمله على طاعته ، فداذوا له » . والتكملة بين المعقوفتين من البيان المغرب لابن عذارى : ١٩٦/٣ .

(٤) بياض بالأصل ، والتكملة من الذخيرة ، ورقة ١٣ .

(٥) لم أجد ذكراً لابن يعيش فيما ذكر ابن حيان من أخبار بنى ذى النون وأوليةأمورهم (الذخيرة ، قسم ٤ مجلد ١ ، ص ١٠٩ وما بعدها) ولكنى وجدت بعض التفصيل فى :

ANTONIO PRIETO Y VIVES, *Los Reyes de Taifas. Estudio histórico-numismático de los Musulmanes Espanoles en el siglo V. de la Hégira* (XIo de J.C.), Madrid, 1928, p. 51—52.

وملخصه أن طليطلة استولى على الأمور فيها عند قيام الفتنة جماعة من رؤسائها منهم ابن مسرة ومحمد ابن يعيش وسعيد بن شنظير ويعيش بن محمد بن يعيش المذكور وأبو عمرو أحمد بن سعيد بن شنظير وعبد الرحمن بن متيوه ، وقد اجتهد يعيش بن محمد بن يعيش حتى أصبح الرئيس الفعلى للجماعة (كما فعل إسماعيل بن القاسم بن عباد) ولكنه لم يستطع الاستمرار فى الحكم إذ اختلف عليه الناس وأخرجوه ، واحتاجوا إلى من يقوم بأمرهم بعد ذلكفخاطبوا إسماعيل بن ذى النون — وكان مستقراً فى شنتبرية Santâver إلى شمال شرق طليطلة ، وكان زعيماً من زعماء البربر فى كورة طليطلة ، وكان سليمان المستعين قد ولاه مدينة اقْلِيش ، ثم أضاف إليها كُونْكَة ، فأقبل بجنده ودخل البلد واستبد بأمره وأعلن انفصاله عن قرطبة والجماعة ، فكان أول من فعل ذلك من سموا بعد ذلك =

بها ، وأفعاله على ذلك أفعال الجبابرة . وأقبل يضم الأحرار من كل صنف ، ويشترى العبيد والجد يساعده والأمور تنقاد له ، إلى أن ساوى ملوك الطوائف ، وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه وكثرة غلمانه ، فنفع الله به كافةَ رعيته ، ونجاهم من مُلك البرابرة[(١)] . وتوفى لليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة . وهو القائل يفخر :

ولا بد يوماً أن أسود على الورى ولو رُد عمرو للزمان وعامرُ
فما المجد إلا فى ضلوعىَ كامنٌ ولا الجودُ إلا مِن يمينىَ ثائرُ
فجيش العلا ما بينَ جنبىَ جائلٌ وبحر الندى ما بين كَفّىَ زاخرُ

وله :

محبٌّ ما يساعــــده الحبيبُ رأى وجهَ الإنابة لو يُنيبُ
ويبكى للصِّبا إذ زال عنــهُ فيضحك فى مَفَارِقِهِ المشيبُ
وكم أحيتْ حشاشتَه أمانٍ يباعدُ بينَها الأجلُ القريبُ

وله فى الياسمين :

وياسمينٍ حسنِ المنظرِ يفوق فى المرأى وفى المخبرِ
كأنه من فوق أغصانه دراهم فى مِطْرفٍ أخضرِ

= ملوك الطوائف . وقد ترجم ابن بشكوال لأبى بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى ، وقال إنه من أهل طليطلة ، ثم رحل إلى المشرق لطلب العلم ، « وكان حافظاً للفقه ذاكراً المسائل ، وتولى الأحكام ببلده ، ثم صار إليه تدبير الرياسة به ، ونفع الله به أهل موضعه ، ثم خلع من ذلك وصار إلى قلعة أيوب وتوفى بها سنة ٤١٨ ، كذا قال ابن مطاهر ، وقال ابن حيان : توفى فى صفر سنة ١٩ » ترجمة رقم ١٤٠٥ ص ٦٢٨ .

(١) وقف ابن الأبار هنا بكلام ابن حيان ، وبقيته فى الذخيرة ، بنوعباد : ١/٢٢١ وما بعدها .

وله فيه :

يا حبــذا الياسمينُ إذ يزهرْ فوق غصــونٍ رطيبةٍ نُضَّرْ
/قد امتطى للجمال ذروتها فوق بساط من سندس أخضرْ [٦٦-١]
كأنه والعيونُ ترمقــه زمرد فى خِــلاله جوهرْ

وله فى الظليان(١) :

ترى ناظر الظَّيان فى لونه إذا مرّ ماء السحائب يغتذى
وحفَّت به أوراقُه فى رياضهِ وقد قُدَّ بعضٌ مثلَ بعضٍ وقد حُذِى
كصُفرٍ من الياقوت يلمعْنَ بالضحى منضَّدة من فوق قُضْبِ الزمردِ

وله فيه :

كأن لونَ الظَّيان حين بدا نوّاره أصفراً على ورقِهْ
لونُ محبٍّ جفاه ذو مللٍ فاصفرّ من سُقمهِ ومن أرقِهْ

وله فى النيلوفر :

يا حُسنَ منظرِ ذا النيلوفر الأرِجِ وحُسنَ مَخبرِهِ فى الفَوح والأَرَجِ
كأنه جامُ دُرٍّ فى تألُّقِــهِ قد أحكموا وَسْطَهُ فصًّا من السَّبَجِ

١١٩ ــ ابنه عباد بن محمد المعتضد بالله ، أبو عمرو

قال ابن بسام فى كتابه الموسوم بـ « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » : تَسَمَّى أولا بفخر الدولة ، ثم بالمعتضد . قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ،

(١) فى الهامش إلى يسار السطر : الظليان الياسمين البرى ، وهو نبت يشبه النسرين .

مِن رجلٍ لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سَلِم عليه قريبٌ ولا بعيد . جبارٌ أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسدٌ فَرسَ الطُّلَى وهو رابض . متهور تتحاماه الدهاة ، وجبار لا تأمنه الكماة . متعسف اهتدى ، ومُنْبَتٌّ قطع فما أبقى . ثار والناس حرب ، وكل شيء عليه أَلْب ، فكفى أقرانَه وهم غير واحد ، وضبَط شانَه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يدُه ، واتسع بلدُه ، وكثر عديده وعددُه . افتتح أمرَه بقتل وزير أبيه حبيب طعنةً فى ثغر الأيام مَلَّكَ بها كفَّه ، وجباراً من جبابرة الأنام شرَّد بها مَن خلفَه ، فاستمر يَفْرِى ويَخْلُق[1] ، وأخذ يجمع ويفرق . له فى كل ناحية ميدان ، وعلى كل رابية خَوَّان[2] . حرْبه سم لا يبطئ ، وسهم لا يخطئ ، وسلْمُه شر غير مأمون ، ومتاع إلى أدنى حين .

[٦٦ ـ ب] وذكره ابن حيان فقال ، وقد نُعِى إليهم بقرطبة : / وعَشِىَّ يوم الأحد لستٍّ خلت لجمادى الآخرة سنة إحدى وستين — يعنى وأربعمائة — طرقَ قرطبةَ نعىُ المعتضد عباد ، زعيمِ جماعة أمراء الأندلس فى وقته ، أسدِ الملوك ، وشهابِ الفتنة ، وراحض العار ، ومدرك الأوتار ، وذو الأنباء البديعة ، والجرائر الشنيعة ، والوقائع المبيرة ، والهممِ العلية ، والسطوة الأبية . فرماه الله بسهم من مَرَامِيه المصمية ، أمَدَّ[3] ما كان فى اعتلائه ، وأرقى ما كان إلى سمائه ، وأطمعَ ما كان فى الاحتواء على الجزيرة ، محتفِزاً[4] لها عند تشميره الذيلَ بفتنةٍ لا كفاء

(١) ضبطها دوزى : يخلِّق ، والصواب ما أثبتناه . ويخلق الأديم يُقَدِّرُ لما يريد قبل القطع ويقيسه ليقطع منه قربة أو خُفًّا وما أشبه ، ويفرى ويخلُق مصطلح معروف معناه إنفاذ الإنسان لما عزم عليه . اللسان : ١١/٣٧٥ .

(٢) ضبطها دوزى : خُوَّان ، وترجمها et in quovis colle latronis ، ومعنى latronis لص أو قاتل ، وفسرها دوزى بمعنى خائن وقال إن جمعها خُوَّان ، وقد أخذها من قولهم : قطعتُ الطريق وخُنت السبيل . والصواب خَوَّان ، وهو من أسماء الأسد .

(٣) قرأها دوزى (بنوعباد ، ١/٢٤٢) : أَجَدّ .

(٤) فى الأصل ، وفى مخطوط الذخيرة (ورقة ٥ وجه) : محتقراً ، وهكذا قرأها وأثبتها دوزى (بنوعباد ، ١/٢٤٢) وليفى پروفنسال (البيان المغرب ، ٣/٢٠٤) . والصواب ما أثبتناه ، واحتفز الرجل فى جلوسه أراد القيام والبطش . اللسان : ٧/٢٠٣ .

لها . فتوفاه الله على فراشه من علة ذُبَحة قصيرة الأمد ، وحِيَّة الإجهاز ، اتفقت الحـكايات على أنها كانت شِبهَ البَغْت . وكانت ولايته بعد موت أبيه يومَ الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين ، وقضى نحبه يوم السبت الثانى من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين ، ودُفن عشيَّ يوم الأحد بعده . تغمد الله خطاياه ، فلقد حُمِل عنه على مر الأيام — فى باب فرط القسوة ، وتجاوز الحدود ، والإبلاغ فى المُثْلة ، والأخذ بالظِّنة ، والإخفار للذمة — حكاياتٌ شنيعة ، لم يبد فى أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ، فالقول ينشاع[1] فى ذكرها . ومهما برئ من مغبتها ، فلم يبرأ من فظاعة السطوة ، وشدة القسوة ، وسوء الاتهام على الطاعة : سجايا من جِبِلَّتِه لم يحاشِ فيهن ذوى رحم ، ولا غلبهن بحيلة .

وقد كان تَقَيَّل سيرة أحمد بن أبى أحمد بن المتوكل ، آخِر أشداء خلائف العباسيين ، الذى ضَمَّ نشرَ المملـكة بالمشرق ، وسطَا بالمتنزين عليها ، وبفقده انهدمت الدولة . فحمل عَبَّادٌ سِمَتَه المعتضدية ، وطالعَ بفضل نظره أخبارَه السياسية ، التى أضحت عند أهل النظر أمثلة هادية إلى الاحتواء على أمد الرئاسة ، فى صلابة العصا وشناعة السُّطَا[2] ، فجاء منها بهولات تُذْعِر مَن سمعها ، فضلا عمن عاينها ، نسبوا إلى هذا الأمير الشهم عَبّاد [امتثالها من][3] غير دلالة ، ولم يقصر فى دولته التى مهّدها فوق أطراف الأسنة ، وصيَّر أكثر شغله فيها شَبَّ الحروب ، وكِيادَ الملوك ، وانهراجَ[4] البلاد ، وإحراز التِّلاد ، من[5] توفُّر حظه من الأمور الملوكية ، والعُدد السلطانية / والآلات الرياسية . [١-٦٧]

---

(١) فى الذخيرة (دوزى ، بنوعباد ، ٢٤٢/١) : ينساغ ، وفى نسخة أخرى . ينساع .

(٢) الأصل : السطى ، ولم أجد هذه اللغة فى سطا يسطو سطوا .

(٣) بياض فى الأصل ، والتكملة من الذخيرة (بنو عباد ، ٢٤٣/١) .

(٤) الذخيرة : إهراج البلاد ، وهو أصح . والهرج الفتنة ، كما فى اللسان .

(٥) رواية الذخيرة : فى .

ومن نادر أخباره [المتناهية فى الغرابة][(١)] أن [نال بغيته][(٢)] وأهلك [تلك][(٣)] الأمم العاتية ، وإنه لغائب عن مشاهدتها ، مترفهٌ عن مكابَدَتها ، [مدبِّرٌ][(٤)] فوق أريكته ، منفذٌ لحيلها من جوف قصره . ما مشى إلى عدوٍ أو مغلوب من أمثاله[(٥)] غير مرة أو مرتين ، ثم لزم عريسته يدبر داخلَها أموره . جرّد نهارَه لإبرام التدبير ، وأخلَصَ ليله لتملِّى السرور ، فلا يزال تُدار عليه كؤوس الراح ، ويُحيا عليها بقبْض الأرواح . له فى كل شانٍ شُوَيْن ، وعلى كل قلب سمعٌ وعين . ما إن سَبَرَ أحد من دهاة رجاله غورَه ، ولا أدرك قعرَه ، ولا أمِنَ مكرَه ؛ لم يزل ذلك دأبُه منذ ابتدائه إلى انتهائه .

قال : وكان عَبّاد أوتى من جمال الصورة ، وتمام الخلقة ، ونخامة الهيأة ، وسباطة البُنيان ، وثُقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحس ما فاق أيضاً على نظرائه .

ونظر مع ذلك فى الأدب — قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان — أدنى نظر بأذكى طبع حصَل منه ، لثقوب ذهنه ، على قطعة وافرة علقها ، من غير تعهد لها ، ولا إمعان فى غمارها ، ولا إكثار من مطالعتها ، ولا منافسة فى اقتناء صحائفها ، أعطته نتيجتها[(٦)] على ذلك ما شاء من تحبير الكلام ، وقرْض قطعٍ من الشعر ذات طلاوة ، فى معان أمدّته فيها الطبيعة ، وبلغ منها الإرادة ، واكتتبها الأدباء للبراعة .

جمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة إلى جود كفٍّ بارَى السحاب . وأخبار عَبّاد — فى جميع أفعاله ، وضروب أنحائه : عالِيَاته[(٧)] وخافياته — غريبة بعيدة .

(١ و٢ و٣) التكملة من الذخيرة ، بنو عباد : ١/٢٤٣ .
(٤) بياض فى الأصل ، والتكملة من الذخيرة ، بنو عباد : ١/٢٤٣ .
(٥) الذخيرة : أقتاله .
(٦) الذخيرة : سَجِيَّته ، والأصوب هنا أن يقال : أعانته سَجِيَّتُه .
(٧) فى الأصل : عالِيَاته .

وكان — على تجرُّده فى إحكام التدبير لسلطانه — ذا كلَف بالنساء ، فاستوسع فى اتخاذهن ، وخلَّط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك إلى مدًى لم يبلغه أحد من نظرائه . فقيل إنه خاف من صنوفهن السَّريريّات خاصةً نحواً من سبعين جارية ، إلى حُرَّته الحظيّة لديه ، الفَذَّة من حلائله ، بنت مجاهد العامرى أخت على بن مجاهد أمير دانية ؛ ففشا نسلُ عباد لتوسُّعه فى النكاح وقوته عليه . وقال غير ابن حيّان : افتض ثمانمائة بكر . وفى موت المعتضد يقول أبو الوليد بن زيدون — ولم يُظهره — سروراً بذلك واستراحةً منه ، لأنه كان غير مأمونٍ على الدماء ، ولا حافظ لحرمة الأولياء :

لقــد سرَّنى أنَّ النَّعِىَّ موكَّلٌ بطاغيةٍ قد حُمَّ منــه حِمَامُ
/ تجانَبَ صَوْبُ الغيث عن ذلك الصدا ومرَّ عليــه المزنُ وهو جَهَام [٦٧ – ب]

ومن شعره ، وقد جمعه ابنُ أخيه إسماعيل فى ديوان :

حَميتُ ذِمارَ المجدِ بالبيضِ والسُّمرِ وقصَّرتُ أعمارَ العداةِ على قَسْرِ
ووسَّعتُ سُبْلَ الجود طبعاً وصنعةً لأشياء فى العلياء ضاق بها صدرى
فلا مجدَ للإنسان ما كان ضــدُّهُ يشاركُهُ فى الدهر بالنهيِ والأمرِ

وله :

رعَى اللهُ حالينا : حديثاً وماضيًا وإن كنتُ قد جردتُ عزمىَ ماضيَا
فما لليالى لا تزال ترومــنى و يرمِينَ منى صائبَ السهمِ قاضيا[1] ؟
وقد علمتْ أنَّ الخطوبَ تطُوعُنى وما زلتُ مِن لِبسِ الدنيّات عاريا
أجددُ فى الدنيا ثياباً جديدةً يجدِّدُ منها الجودُ ما كان باليا

(١) قرأها دوزى (بنوعباد : ٢/٤٩) : قاصيا .

فما مرَّ بى بخلٌ بخاطرِ مهجتى ولا مرَّ بخلُ النـاسِ قطُّ بباليا
ألا حبذا فى المجد إتلافُ طارِفى وبذْلىَ عنـــد الحمد نفسى وماليا

وله :

لقد بسطَ اللهُ المـكارمَ مِن كَفِّى فلستُ على العِلاتِ عنها أخا كفِّ
تُنادى بيوتُ المـال من فرطِ بَذلها يمينىَ : قد أسرفتِ ، ظالمتى ، كُفِّى !
فتُغرى يمينى بالسَّماح فَتَنْهَمِى ولا ترتضِى خِلاًّ يقول لها : يكفى
لعمرُك ما الإسرافُ فىَّ طبيعةٌ ولـكنَّ طبعَ البخلِ عندىَ كالحتفِ

وله :

يصبِّرُنى أهلُ المودة دائباً وإنَّ فؤادى — والإلٰهِ — صبورُ
أغار على معْنَى الرئاسةِ ، إننى على كلِّ حُسنٍ فى الزمان غيورُ
أصرِّفُ ذهنى فى أمورٍ جليلةٍ وأعلمُ أنَّ الدائراتِ تدورُ

وله :

أقومُ على الأيام خـــيرَ مَقامِ وأوقِدُ فى الأعداء شرَّ ضِرامِ
[٦٨ – أ] / وأنفق فى كسب المحامد مُهجتى ولو كان فى الذكر الجميل حِمَامى
وأُبلِغُ من دنيايَ نفسىَ سُؤْلَهَا وأضربُ فى كلِّ العُلا بسهامى
إذا فَضح الأملاكَ نقصٌ فإنهُ يبيِّنُهُ عِنـــــد الأنام تمامى

وله :

عنِ القصدِ قد جاروا وما جُرت عن قصدى إذا خَفِيتْ طُرْقُ الفرائس عن أُسْدِ (١)
إذا اعترضوا للبخل أعرضتُ عنهم وإنْ مَنَّ أقوامٌ كتمتُ الذى أُسْدِى

---

(١) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٥٠) : أَسْدِى .

فلله ما أُخفِي من العدل والنَّـــدى ولله ما أبدِي من الفضل والمجد
ولا ألتقي ضيفي بغير بشاشـــةٍ إذاً فَجَحدتُ(١) اللهَ معروفَه عندى

وله :

أنامُ وما قلبي عن المجد نائمُ وإنَّ فؤادى بالمعـــالى لهائمُ
وإن قعدتْ بى علةٌ عن طِلابها فإنَّ اجتهادى فى الطلاب لدائمُ
يعز على نفسى إذا رُمت راحةً براحٍ ، فتثنينى الطباعُ الكرائم
وأسهر ليلى مفكراً غيرَ طاعمٍ وغيرى على العِلات شبعانُ نائم
ينادى اجتهادى إن أحسَّ بفترةٍ : ألا أين يا عَبّادُ تلك العزائم ؟
فتهتز آمالى وتقـــوى عزيمتى وتُذْكرنى لذاتُهنَّ الهزائم

وله :

زُهْرُ الأسنةِ فى الهَيْجا غدتْ زَهْرِى غرستُ أشجارَها مُستجزِلَ الثَّمَرِ
ما إنْ ذكرتُ لها مِن(٢) معركٍ جَللٍ إلا تجلَّلتُه بالصارم الذَّكر
حتى غدوتُ وأعدائى تخاطبنى : يا قاتلَ الناس بالأجناد والفِكَر !

وله :

هٰذى السعادةُ قد قامت على قدمِ وقد جلستُ لها فى مجلس الكرمِ
فإن أردتَ إلٰهى بالورى حَسَناً فملِّكنِّى زمامَ العُرْب والعَجم
فإننى لا عدلتُ الدهرَ عن حَسنٍ ولا عدلتُ بهم عن أكرمِ الشيَم
أقارعُ الدهرَ عنهم كلَّ ذى طلبٍ وأطردُ الدهرَ عنهمْ كلَّ ما عَدَمِ(٣) [٦٨ - ب]

---

(١) كذا فى الأصل ، والأصوب هنا : لجحدت . وجعلها دوزى : فحمدت .
(٢) جعلها دوزى (بنوعباد : ٥١/٢) : فى .
(٣) قرأها دوزى (بنوعباد : ٥٢/٢) : عرم ، والأصح ما أثبتناه . و « ما » هنا زائدة .

وله :

وإذا توعَّرَتِ المسالكُ لم أُرِدْ فيهـا السُّرَى إلا برأيٍ مقمرِ
وإذا طلبتُ عظيمةً فمفاتحى فيهـا العزيمةُ والسِّنانُ السَّمْهَرِى

وله :

لعمرك إنى بالمُـدامة قوّالُ وإنى لمـا يَهْوَى النُّدامَى لفعّالُ
قسمتُ زمانى بين كدٍّ وراحةٍ : فللرأى أسحارٌ ، وللطِّيب آصالُ
فأُمْسِى على اللذاتِ واللهو عاكفاً وأُضْحِى بساحات الرئاسة أختالُ
ولستُ ـ على الإدمان ـ أغفلُ بُغيتى من المجد ، إنى فى المعالى لمحتالُ

وله يخاطب أباه القاضى أبا القاسم ، وقد عتب عليه :

أطعتُك فى سِرى وجهرىَ جاهدًا فلم يكُ لى إلا الملامَ ثوابُ
وأعملتُ جُهدى فى رضاك مشمِّرًا ومن دون أن أفضى إليه حجاب
ولما كبَا جَدِّى إليك ولم يَسُغْ لنفسى على ســوء المقام شراب
وقَلَّ اصطبارى حين لا لِيَ عندَكم من العطف إلا قسوةٌ وعتاب
فررتُ بنفسى أبتغى فَرجةً لها على أنَّ حلوَ العيشِ بَعدك صاب
وما هزنى إلا رســولُك داعياً فقلتُ : أمــيرُ المؤمنين مجاب
فجئت أُغِذُّ السَّـير حتى كأنما يطير بسَرجى فى الفَلاة عُقاب
وما كنتُ بعد البَيْن إلا موطِّناً بعزمى على أنْ لا يكونَ إياب
ولكنــكَ الدنيا علىَّ حبيبةٌ فما عنكَ لى ـ إلا إليكَ ـ ذَهاب
أَصِبْ بالرضا عنى مَسَرَّةَ مُهجتى وإنْ لم يكنْ فيما أتيتُ صواب
وفضلُك فى ترك الملامِ ، فإنه وحقِّــك فى قلبى ظُبًى وحِراب
[٦٩ ـ ا] / إذا كانتِ النُّعْمَى تُكدَّرُ بالأذى فما هى إلا محنــةٌ وعذاب
ولا تقبضَنْ بالمنــع كفى فإنهُ وجــدِّكَ نقضٌ للعلا وخراب

فكلُّ نَوالٍ لى إليكَ انتسابُهُ وأنتَ عليه بالثناء مُثاب
بقِيتَ مكينَ الأمر ما ذَرَّ شارقٌ وما لاح فى أُفْقِ السماء رَبَاب

وله إلى صهره مجاهد العامرى :

عَرفتُ عَرْفَ الصَّبا إذْ هبَّ عاطِرُهُ مِن أفْقِ مَن أنا فى قلبى أشاطِرُهُ
أراد تجديدَ ذِكراهُ على شَحَطٍ وما تيقَّنَ أنى الدهرَ ذاكِرُهُ
قصاره[1] قيصر أن قام مفتخراً لله أوله مجـــداً وآخره
خِلِّى أبا الجيشِ ، هل يُقْضَى اللقاء لنا فيَشْتفِى منكَ طَرْفٌ أنتَ ناظره ؟
شَطَّ المزارُ بنا ، والدارُ دانيــةٌ يا حبذا الفالُ لو صحَّتْ زواجره

وله أيضاً :

أترى اللقاءَ كما نحب يوفَّقُ فنظل نُصبَحُ بالسرور ونُغبَقُ ؟
أفْدِى أبا الجيش الموفَّقَ إنهُ للمكْرُمات ميسَّرٌ وموفَّقٌ
باهَى به الزمنُ البهىُّ كأنهُ بِشْرٌ على وجهِ الزمانِ ورونقُ
مَلِكٌ إذا فُهْنا بطيب ثنائه ظلتْ له أفواهُنا تتمطَّق
حسْب الرئاسة أنْ غدتْ مزدانةً بسناهُ ، فهو التاجُ وهى المِفْرَق

وله فى النسيب :

يجور على قلبى هوًى ويُجيرُ ويأمُرُنى ، إن الحبيبَ أميرُ
أغار عليه مِن لحاظى صيانةً وأكرمه ، إن المحبَّ غيور
أخفُّ على لقيا الحبيب وإننى لعمرك فى جُلَّى الأمور وقور

وله :

رعى اللهُ مَن يَصْلَى فؤادى بحبه سعيراً ، وعينِى منه فى جنة الخُلدِ

(١) المراد أصْلُه أو جده ، إشارة إلى الأصل الصقلبى لمجاهد العامرى ، ولم أجد هذه الصورة بهذا المعنى فى مادة « قَصَرَ » فى المعاجم ، وإنما وجدت « قَصَرَة » وهى أصل النخلة أو الشجرة ، والجمع قَصَرٌ ، ويبدو أن صحة اللفظ : فأَصْلُه ، وبه يستقيم الوزن والمعنى .

[٦٩–ب] / غَزَالِيَّةُ العينين ، شمسِيَّةُ السَّنا كَثِيبِيَّةُ الرِّدفين ، غُصْنِيَّةُ القَدِّ
شكوتُ إليها حبَّها بمدامعي وأعلمتُها ما قد لقيتُ من الوَجدِ
فصادف قلبي قلبَها وهو عالمٌ فأعدَى ، وذو الشوق المبرِّحِ قد يُعدِي
فجادت — وما كادت — عليَّ بخدها وقد ينبع الماء النميرُ من الصَّلْدِ
فقلتُ لها : هاتي ثناياكِ إنني أفضِّل نُوّارَ الأقاحي على الورد
ومِيلِي على جسمي بجسمك ، فانثنتْ تُعيد الذي أمَّلتُ منها كما تُبدِي
عناقاً ولثماً أرَّثا(١) الشوقَ بيننا فُرادَى ومَثْنَى كالشرار من الزَّنْدِ
فيا ساعةً ما كان أقصرَ وقتها لدىَّ تقضَّت غيرَ مذمومةِ العهد(٢)

وله :

تنام ومدنَفُها يسهرُ وتصبر عنه ولا يصبرُ
لئن دام هذا وهذا بهِ سيهلِكُ وَجداً ولا يشعرُ

وله :

يا قمراً قلبي له مطلعُ وشادِناً في مهجتي يرتَعُ
واللهِ ما أطمع في العيش مُذ أصبحتُ في وصلك لا أطمع
ايت كما يرتع في مهجتي أنىَ في ريقته أكرَع

---

(١) الأصل : أورثا ، ولا معنى له هنا .

(٢) قرأ دوزى هذا الشطر هكذا :

* لَدَىَّ تَقَضَّى غَيْرَ مُذْ موتها عهدى ! *

وترجمها إلى اللاتينية على هذه الصورة :

fata utinom complevissem, sed non antequam suavissima illa hora plane esset emortua!

(بنو عباد : ٢/٥٨) .

وله :

يطولُ عليَّ الدهرُ ما لم أُلاقِها ويقصُر إن لاقيتُها أطولُ الدهرِ
لها غُرَّةٌ كالبدر عند تمامِهِ وصدغًا عَبيرٍ نَمَّقا صفحة البدر
وقدٌّ كمِثل الغصن مالت به الصبا يكاد لفَرط اللينِ ينقدُّ فى الخَصر
ومشىٌ كما جاءت تَهادَى غمامةٌ ولفظ كما انحلَّ النظامُ عن الدر

وله ، وهو من جيد شعره :

شربنا وجَفنُ الليلِ يغسلُ كُحلَهُ بماء الصباح والنسيمُ رقيقُ
معتَّقةً كالتِّبر ، أما بخارها فضخم ، وأما جسمها فدقيقُ

/ وله فى الياسمين : [٧٠-١]

كأنما ياسمينُنا الغضُّ كواكبٌ فى السماء تَبْيضُّ
والطُّرْقُ الحمْرُ فى جوانبه كخد عذراء مسهُ عضُّ

وله وأنشد على منبر مالقة[1] ودُعِى له بها وبخمسةٍ وعشرين حصناً من حصونها جمعةً واحدة :

عَتادى أجرُ ما أوليتُ فيهم من الفتكاتِ بكرٍ أو عوانِ
وحسبى فى سبيل الله موتٌ يكون ثوابه دار الجنانِ

وهذا مثل قوله ، عندما ظفر بحصن رُنْدَة ، من أبيات كان يُعجَب بها ويأخذ الناس بحفظها :

سأُفنِي مُـــدةَ الأعدا ء إن طالتْ بىَ المدَّهْ
وتَبلَى بى ضـــلالتُهمْ ليزدادَ الهدى جِـــدَّهْ

---

(١) فى الأصل : مقالة ، والتصويب من دوزى (بنوعباد : ٦٠/٢) وهو صحيح هنا .

فكم من عِــدَّةٍ قتّلْــتُ منهم بعــدَها عِدَّه
نظمتُ رؤوسَهم عِقداً فحَلَّتْ لبَّة الشُّــدَّه[1]

وكانت له خزانة — أكرم لديه من خزانة جوهر — فى جوف قصره ، أودعها هامَ الملوك الذين أبادهم بسيفه ، منها رأس محمد بن عبد الله البَرْزالى ، ورؤوس الحُجّاب ابن خزرون وابن نوح وغيرهم ، الذين قرن الله رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن على بن حَمُّود . وكان الذى يغريه بطلبهم أن بعض الراصدين مولدَه ، أخبر أن انقضاء دولته يكون على أيدى قوم يطرأون على الجزيرة من غير سكانها ، فكان لا يشك أنهم تلك البَرازلة[2] الطارئون عليها على عهد

---

(١) ترك ابن الأبار الأبيات الأولى من هذه القطعة ، وأوردها ابن بسام فى الذخيرة (بنوعباد : ٢٤٧/١) ، وها هى :

لقد حُصِّلت يا رنده فصرت للكنا عِقده
أفادتناك أرماح وأسياف لها حده
وأجناد أشداء بهم تنتهى الشده
غدوتُ يرونى مولى لهم ، وأراهم عُبده

وقد قرأ دوزى الأبيات الثلاثة الأولى من هذه محرفة تحريفاً شديداً .

(٢) بنو برزال — أو البرازلة — رهط من زناتة مواطنهم الأولى وسط الجزائر الحالية فيما كان يعرف بالزاب الأسفل . وكان الزاب الأعلى ، أى المطل على البحر إلى غربى قسطنطينة الحالية ، تابعاً لأمراء الأغالبة ثم العبيديين بعدهم ، أى أنه كان معتبراً جزءاً من إفريقية . أما الزاب الأسفل فكان مستقلا ، وقد أراد عبيد الله المهدى إخضاعه ، وتم له ذلك على يد قائده على بن حمدون الأندلسى واختط فيه مدينة المسيلة لتكون حصنا للسلطان العبيدى ، وكان بنو برزال نازلين حول المسيلة ، ودخلوا فى طاعة على بن حمدون ، ثم دارت حرب طويلة بين على بن حمدون والزعيم الصنهاجى المعروف زيرى بن مناد ، وانتهى الأمر بهجرة جعفر بن على بن حمدون الأندلسى إلى الأندلس حيث دخل فى خدمة الحكم المستنصر فى أواخر أيامه ، واستطالت صنهاجة يقودها زيرى بن مناد (جد بنى زيرى) على الزناتيين — وفيهم بنو برزال — بعد رحيل جعفر بن على ، فاستأذن جعفر الخليفة الحكم فى أن يعبر بنو برزال إلى الأندلس فأذن ، وعبر إلى الأندلس عدد كبير منهم ، ودخلوا فى خدمة الخلافة الأموية ، ثم استعان بهم المنصو بن أبى عامر فزادت =

ابن أبي عامر ، فأعمل في نكالهم وجوهَ سياسته . واتفق أن دخل عليه يوماً بعض وزرائه و بين يديه كتاب قد أطال فيه النظر ، فإذا كتابُ سقّوت[1] ، المنتزى

= قومهم . وعندما وقعت الفتنة غلب البرازلة على قرمونة وإستجة وحصن المدور ، وكان زعيمهم محمد بن عبد الله البرزالى . وقد ثارت حروب طويلة بينه وبين المعتضد بن عباد انتهت بقتل محمد بن عبد الله البرزالى وتفرّق أمر البرازلة بعد أن فعلوا فيما وقع بأيديهم من البلاد شر الأفاعيل، وانضمت بقاياهم إلى باديس بن حبوس صاحب غرناطة .

أما الحاجب ابن خزرون فهو عبدون بن خزرون أمير بنى يرنيّان ، فرع من بنى يفرن الزناتيين ، وكانوا ممن وفد على المنصور ابن أبي عامر ودخلوا فى خدمته وخدمة ابنيه من بعده، وعندما قامت الفتنة استولى عبدون بن خزرون على حصن أركُش Arcos de la Frontera واستبد به ، ومثله فى ذلك أبو نور بن أبي قرة اليفرنى ، وقد استبد ببلدة رندة وحصنها، ومحمد ابن نوح الدمّرى شيخ بنى دمّر – قبيل من بنى يفرن الزناتيين – وقد استبد بمورور Morón .وتقرب المعتضد بن عباد إلى هذه الطوائف من الزناتية ، ثم دعاهم إلى حفل إعذار أولاده ، فلما صار رؤساؤهم عنده قتلهم ، ويقال إنه أغلق عليهم الحمام فماتوا ، وصارت بلادهم كلها للمعتضد .

انظر : ابن عذارى : البيان المغرب : ٣/٢٦٧ وما بعدها .

(١) سقوت البرغواطى أصله من قبيلة برغواطة الزناتية ومنازلها على ساحل المغرب الأقصى جنوبى طنجة إلى أصيلا ، وتجاورهم من الشرق منازل قبيلة غمارة الزناتية أيضاً ، وكانت غمارة عماد قوة الأدارسة فى عهدهم الأول ، ولهذا كانت برغواطة دائماً من أعداء الأدارسة . وقد أسر سقوت هذا فى بعض حروب غمارة وبرغواطة ، وانتهى أمره إلى أن صار عبداً لشيخ من شيوخ غمارة ، ثم صار إلى على بن حمود الذى ذكرناه ، وهو من سلائل الأدارسة ، والغماريون قومه ، وكان عليهم اعتماده ، وبفضلهم وصل إلى الخلافة ، وكان سقوت من أكبر رجاله ، فولاه على طنجة وسبتة وأطاعته غمارة ، وبعد زوال أمر الحموديين ظل سقوت يحكم طنجة وسبتة مناوئاً للمعتضد بن عباد ومهدداً له . فلما قامت دولة المرابطين وزحف يوسف بن تاشفين إلى الشمال ووصل إلى أحواز طنجة طلب إلى سقوت ومن معه من الغماريين الانضمام إليه فى القضاء على قبيلة برغواطة سنة ٤٧١ ، ومال سقوت إلى الاستجابة لدعوة المرابطين ، ولكن ابنه المسمى بضياء الدولة ثناه عن ذلك ، فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أمر غمارة توجه إلى طنجة واستولى عليها من يد سقوت وقُتل هذا فى الحرب سنة ٤٧٦ . ثم أرسل يوسف بن تاشفين ابنه وولى عهده إذ ذاك المعز (مات بعد ذلك بسنوات وخلفه أخوه علىّ فى ولاية العهد) فاستولى على سبتة من يد ضياء الدولة بن سقوت البرغواطى وقتله . ودخلت غمارة بعد ذلك فى طاعة لمتونة كبرى قبائل المرابطين .

انظر: ابن بسام ، الذخيرة (مخطوط بغداد ، ص ٤٠٧ – ٤١٢) .

ابن خلدون ، العبر : ٦/٢٢١ وما بعدها .

يومئذ بسَبتة ، يذكر أن الملثمين المدعوين بالمرابطين قد وصلت مقدمتُهم رحبةَ مراكش ، فأخذ الوزير يهون أمرهم ويخبر أن دونهم اللُّجج والمَهامِه ، فقال له المعتضد : « هو والله الذى أتوقعه وأخشاه ، وإن طالت بك حياة فستراه . اكتب إلى فلان — يعنى عاملَه على الجزيرة[1] — بحفظ جبل طارق حتى يأتيه أمرى » . فقضى أن خلعوا ولده وقرضوا أمره .

١٢٠ — ابنه محمد بن عباد المعتمد على الله

[٧٠ — ب] — ويلقب أيضاً بالظافر وبالمؤيد — / أبو القاسم

بويع له بالإمارة بعد أبيه المعتضد سنة إحدى وستين وأربعمائة .

قال ابن حَيّان — وذكر المعتضد عباد بن محمد : هلكت له بنت أثيرة لديه ، أبدى لها حزناً شديداً امتثله أهلُ مملكته فى إظهاره ، وحضر خواصُّهم شهودَ جنازتها بداخل قصره عشيةَ الجمعة غرةَ جمادى الأولى — يعنى من سنة إحدى وستين وأربعمائة — فاستَنْفَرُوا[2] فى تعزيته . فلما انفضّوا شكا ألماً برأسه ، من زكام ثقيل انصبّ[3] عليه فهدّه . وأُحضر له طبيبُه ، وقد ازداد

---

(١) يريد الجزيرة الخضراء .

(٢) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٦١) : احتفلوا ، ولاداعى لهذا التعديل ، فإن فعل استنفر يستعمله ابن حيان دائماً للسخرية ممن يجتهد فى القول أو فى إلقاء الشعر .

(٣) جعلها دوزى (دون مبرر أيضاً) : نصب عليه ، وقال إنها تستعمل بمعنى **dolore affecit** . صحيح أن عبارة نصب عليه تستعمل فى مثل قولهم : « نصب عليه ضرسه نصباً شديداً » ، ولكن ليس هذا ما يريده ابن حيان هنا ، إذ أنه يريد أن يقول إن الألم نزل به دفعة واحدة .

قلقه وأنكر نفسه ، فنصَّ عليه بهجمة(١) من دمه ، وأشار بتسريح شيء منه ، فرأى تأخير ذلك إلى غدِ يومه . وأمسى ليلةَ السبت — وقضاء الله قد حاق به — بخَنقٍ مزعج أغصَّه بريقه ومنعه الـكلامَ ، فقضى نحبَه يومَ السبت . وعلا النوح من قصره بحَينه ، فلم ينكتِم موتُه حيناً لشهود خليفته وقائد جيوشه وحامل كلته المرشح لمـكانه محمد بن عباد المتسمى الظافر المؤيد بالله ، فاستقرت دولتُه ليومها وألقت مراسيها . وقام فى جهاز والده ومواراته ، فدفَنه بداخل قصره وفى تُربة أبيه القاضى محمد بن إسماعيل ، وتولى الصلاة عليه فى جماعة الأشهاد من أهل مملـكته ، وذلك عَشِيَّ يوم الأحد لثلاث خلون من جمادى الأخيرة .

وأفضى الأمرُ إلى ولده وهو فى ريعان شبابه وكمال جماله ، ابن تسع وعشرين سنة وشهرين وأيام زائدة : مولده فى العشر الأخر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ؛ وقال أبو بكر محمد بن أبى الوليد بن زيدون : مولده سنة إحدى وثلاثين ، وكذلك قال أبو بكر بن اللبّانة .

قال ابن حَيّان : وكانت سن عَبّاد سبعاً وخمسين سنة وثلاثة شهور وتسعة أيام ، تأقيتاً من مولده يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة سبع وأربعمائة إلى وفاته يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأخيرة . ومدة إمارته منها — من يوم بيعته بوفاة والده يومَ الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين — ثمان وعشرون سنة ويومان .

ويُحكى عن المعتضد خبر غريب فى تطيُّره عند انصرام أيامه ، وبين يدى هجوم حِمامه ، وهو انعقاد نيته على استحضار / مغنٍّ يَجعل ما يبتدئ به فألا فى [٧١ – ا]

(١) كذا فى الأصل بوضوح . وربما تكون صحة العبارة : فنَصَّ عليه بهجمة من دمه ، المراد أنه نص على أن سبب المرض هجمة من دمه .

أمره ، وقد استشعر انقراضَ مُلـكه وحلولَ هُلـكه ، فأرسل فى الصِّقِلِّى المغنى — وكان قد قَدُم عهدُه به — فأجلسه وأنَّسه وأمره بالغناء فغنى :

نَطوى الليالى علماً أنْ ستطوينا فشعْشِعيهـا بماء المُزْنِ واسقينا

غنَّى من ذلك خمسة أبيات ، ولخمسة أيام مات .

وفى وفاة المعتضد عَبّاد وقيام ابنـه المعتمِد محمد يقول أبو الحسن على بن عبد الغنى الحُصرِى الـكفيف[1] :

مات عبادٌ ولـكنْ بقِىَ الفرعُ الـكريمُ
فكأنَّ الميْتَ حىٌّ غيرَ أنَّ الضادَ ميمُ

وكان المعتمد من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين . عفيف السيف والذيل ، مخالفاً لأبيه فى القهر والسفك والأخذ بأدنى سعاية . رد جماعة ممن نَفَى أبوه ، وسَـكَّن وما نَفَّر ، وأحسن السيرةَ ، وملَك فأسجَح . إلا أنه كان مولعاً بالخمر ، منغمساً فى اللذات ، عاكفاً على البطالة ، مُخلداً إلى الراحة ، فـكان ذلك سبب عطبه وأصل هلاكه .

ومما يؤثر من فضائله ، ويُعد فى زُهْر مناقبه ، استعانتُه على الروم بملك المغرب

(١) على بن عبد الغنى الفِـهْرى المقرئ الحصرى القروى ، يكنى أبا الحسن . قال ابن بشكوال فى الصلة (ترجمة رقم ٩٢٣ ص ٤٢٥) أنه كان شاعراً أديباً رخيم الشعر ، دخل الأندلس ولقى ملوكها . وكان عالماً بالقراءات وطرقها ، وأقرأ الناس القرآن بسبتة وغيرها ، وله قصيدة نظمها فى قراءة نافع من ٢٠٩ أبيات . توفى بطنجة سنة ٤٨٨/١٠٩٥ . وقد عرفه ابن بسام واختصه بفصل فى الذخيرة (قسم ٤ مجلد ١ ص ١٩٢ وما بعدها) أثنى عليه فى أوله ثم نقده نقداً شديداً وخاصة نثره .

وانظر : رايات المبرزين ، بتحقيق إميليو غرسية غومس (مدريد ١٩٤٢) ص ٢٨٨ من الترجمة الإسبانية وتعليق رقم CXXXVI (١١٦) ، وقد قرأ اسمه : أبو الحسن على بن عبد الله الفَتْى الكفيف الحصرى .

حينئذ — وهو يوسف بن تاشفين — وسعيه فى استقدامه ، وجده فى ملاقاة الطاغية ملك النصارى ، والإيقاع به بالموضع المعروف بالزلّاقة فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة . وبدخول اللمتونيين إذ ذاك الأندلس تسببوا إلى خلعه ، مع معرفته بحسدهم له وانعكاس نصرهم إياه خذلاناً وقهراً ، وتنبيه وزرائه على ما كان منهم قبل استجاشتهم والاستنصار بهم ، فآثر الدين على الدنيا ، وأنف للإسلام من الاصطلام[1] . وتم فيه قضاء الله نخلعوه ، بعد حضاره مدة ، يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب سنة أربع وثمانين ، واحتملوه وأهلَه إلى المغرب وأسكنوه أغْمات ، وبها مات ؛ والمقدور كائن . وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ، على حال يُوحِش سماعُها فضلا عن مشاهدتها . وهذا بعد أن خلع عن ثمانمائة امرأة : أمهات الأولاد ، وجوارى متعة ، وإماء تصَرُّف[2] . ورُزق من الناس حبًّا ورحمة ، فهم يبكونه / إلى اليوم . [٧١ – ب]

وكان له فى الأدب باعٌ وَساعٌ ، ينظم وينثر . وفى أيامه نفَقتْ سوق الأدباء ، فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه . وشعره مدوَّن موجود بأيدى الناس ، ولم يك فى ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة . وهو القائل فى صباه بديهةً ، وقد سمع الأذان لبعض الصلوات :

هـذا المؤذنُ قد بدا بأذانهِ ... يرجو الرضا والعفوَ من رحمانهِ
طوبَى له من ناطقٍ بحقيقةٍ ... إن كان عقدُ ضميره كلِسانهِ

وله يصف ترساً لازوردىَّ اللون ، مطوقاً بالذهب ، فى وسطه مسامير مذهبة ؛ ويقال إن أباه المعتضد أمره بوصفه فقال بديهاً :

---

(١) الاستئصال .
(٢) قرأها دوزى (بنوعباد : ٢/٦٣) : تُعرِّف ، وهو خطأ . والصحيح إماء التصرُّف أى جوارى الخدمة .

مِجَنٌّ حَكَى صانعوه السماءَ لتقصُرَ عنه طوالُ الرماحْ
وصاغوا مِثالَ الثريا عليه كواكبَ تقْضى لنا بالنجاحْ
وقد طوَّقوه بذوْب النُّضَارِ كما جلَّلَ الأفْقَ ضوءُ الصباحْ

وله يستعطف أباه المعتضد ، لما فرّط فى أمر مالقة وخذَله أصحابُه فأُخرج منها ، ولجأ إلى رُندة[1] فأقام بها مدة تحت موجدة أبيه :

سَكِّنْ فؤادَك لا تذهبْ بكَ الفِكَرُ ماذا يُعيد عليكَ البثُّ والحذَرُ ؟
وازجُر جفونَك لا ترضَ البكاءَ لها واصبر فقد كنتَ عند الخطبِ تصطبرُ
فإن يكن قَدَرٌ قد عاق عن وطَرٍ فلا مردَّ لما يأتى به القدر
وإن تكن خيبةٌ فى الدهر واحدةٌ فكم غزوتَ ، ومن أشياعك الظَّفَر
إن كنتَ فى حيرةٍ عن جُرم مجترمٍ فإن عذرَك فى ظلمائها قمر
فوِّض إلى الله فيما أنتَ خائفُه وثق بمعتضدٍ بالله يغتفر
ولا يَرُوعَنْكَ خطبٌ إنْ عدا زمنٌ فالله يدفع والمنصور ينتصر
[٧٢-ا] / واصبرْ فإنكَ من قومٍ أولى جَلَدٍ إذا أصابتْهم مكروهةٌ صبروا
مَن مِثلُ قومِك ؟ مَن مِثل الهُمامِ أبى عمرٍو — أبيك — له مجدٌ ومفتخَر ؟

---

(١) أورد ابن بسام تفصيل هذا الخبر (مخطوطة بغداد) ، القسم الثانى ورقة ١٦ ا و ب ، وملخصه أن مالقة كانت تحت سلطان باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وكان أهلها يكرهون حكمه ويتمنون أن يصيروا إلى حكم المعتضد بن عباد « تشيعاً لم يكن له أصل إلا شؤم الحمية ولؤم العصبية » ، لأنهم كانوا يكرهون أن يكونوا تحت أمير بربرى ، فانتهزوا فرصة ابتعاد باديس فى غرناطة وأرسلوا للمعتضد ، فأرسل ابنيه جابراً ومحمداً (الذى سيخلفه بلقب المعتمد) فأسرعا إلى مالقة من رندة ، واستوليا على البلد إلا القصبة إذ تحصن فيها جماعة من جند باديس السودِ ، وأرسلوا يستغيثون به ، فأرسل إليهم الأمداد ، فلما وصلت مزقت شمل قوات ابنى عباد ، وفرا واعتصما فى رندة .

سَمَيْدَعٌ يَهَبُ الآلافَ[1] مبتدئاً ويستقلُّ عطاياه ويحتقر
له يدٌ ، كلُّ جبارٍ يقبِّلُها لولا نداها لقلنا إنها الحَجر
يا ضَيْغمًا يقتلُ الأبطالَ مفترساً لا توهِنَنِّي فإني النابُ والظُّفُر
وفارساً تحذَرُ الأقرانُ صَولتَهُ صُنْ حَدَّ عبْدِك فهو الصارمُ الذَّكَر
هو الذى لم تَشِمْ يُمناك صفحتَهُ إلا تأتَّى مرادٌ وانقضى وطَر
قد أخلفتْنى ظروفٌ أنتَ تعلمها وغالَ موردَ آمالى بها كدر
فالنفس جازعةٌ ، والعين دامعةٌ والصوت منخفضٌ ، والطَّرْف منكسر
قد حِلْتُ لوناً ، وما بالجسم من سَقَمٍ وشِبْتُ . رأساً ، ولم يبلُغْنِىَ الكِبَر
ومِتُّ إلا ذِماءً فىَّ يُمسِكهُ أنى عَهِدتُكَ تعفو حين تقتدر
لم يأت عبدُك ذنباً يستحق به عتْبًا ، وها هو قد ناداك يعتذر
ما الذنبُ إلا على قومٍ ذوى دَغَلٍ وفَى لهمْ عفوُك المعهودُ إذ غدروا
قومٌ نصيحتُهم غشٌّ ، وحبُّهمُ بغضٌ ، ونفعُهُم – إن صُرِّفوا – ضرر
تُميز الغيظَ فى الألفاظ ، إن نطقوا وتَعرفُ الحقدَ فى الألحاظ ، إن نظروا
إن يحرق القلبَ نَبْزٌ[2] مِن مقالهمُ فإنما ذاك مِن نار القِلَى شرر
أجبْ نداءَ أخى قلبٍ تملَّكهُ أسًى ، وذى مقلةٍ أودى بها سهر
لم أوتَ مِن زمنى شيئا ألَذُّ به فلست أعرف ما كأسٌ ولا وتر
ولا تملَّكنى دَلٌّ ولا خَفَرٌ ولا تمرَّس[3] بى غُنْجٌ ولا حَوَر

---

(١) الأصل : الألفاف .
(٢) الأصل : نبذ . وقرأها دوزى (بنو عباد : ٢/٦٤) : بَنْد .
(٣) بنوعباد ٢/٦٤ : ولا سبا خَلَدى .

[٧٢ ـ ب] / رضاكَ راحةُ نفسى ، لا فُجِعتُ به فهو العَتادُ الذى للدهر أدَّخر
وهو المُدام التى أسلو بها ، فإذا عَدِمتُها وقَدَتْ فى قلبىَ الفِكَر
أجلْ ، ولى راحةٌ أخرى كَلِفتُ بها : نظْمُ الكُلَى فى القَنا والهامُ تبتَدِر(١)
كم وقعةٍ لك فى الأعداء واضحةٍ تفنَى الليالى ولا يفنَى بها الخبر
سارتْ بها العِيسُ فى الآفاق فانتشرتْ فليس فى كل حَىٍّ غيرها سَمَر
ما ترَكىَ الخمرَ عن زهدٍ ولا ورعٍ فلم يفارق — لعمرى — سِنِّىَ الصِّغَر
وإنما أنا ساعٍ فى رضاك ، فإنْ أخفقتُ فيه فلا يُفْسَحْ لىَ العُمُر
إليكَ روضةَ فكرى جادَ منبِتَها ندى يمينك ، لا طَلٌّ ولا مطر
جعلتُ ذكرَك فى أرجائها زهراً فكل أوقاتها المجتنى سَحَر

وذكر أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمى الدانى ، المعروف بابن اللبانة(٢) أن رجلا من أهل إشبيلية كان يحفظ هذا الشعر فى ذلك الأمد ، ثم خرج منها لنيةٍ منه إلى أقصى حىٍّ فى العرب فأوى إلى خيمةٍ من خيامهم ، ولاذ بذِمة راعٍ من رعاتهم ، فلما توسط القمرُ فى بعض الليالى وهجع السامر ، تذكر الدولةَ العَبّادية ورونقَها ، فطفق يُنشد القصيدة بأحسن صوت وأشجاه . فما أكملها حتى رُفع رواقُ الخيمة التى [أوى](٣) إليها عن رجل وسيم ضخم تدل سِيما فضله على أنه سيد أهله ، قال : يا حَضَرِىّ ! حَيّاك الله ، لمن هذا الكلام الذى اعذَوْذب موردُه ، واخضَوْضل منبتُه ، وتحلَّت بقلادة الحلاوة بكرُه ، وهَدَر بشقشقة

(١) الأصل : تنتدر.

(٢) سياق الخبر هنا يدل على أنه وقع بعد ذهاب أمر الدولة العبادية بزمن طويل ، مع أن راويها وهو ابن اللبانة الشاعر معاصر للمعتمد وكان من أقرب أصحابه إليه ، بل اشتهر بوفائه لذكرى إمارته بعد خلعه ونفيه إلى أغمات ، وقد توفى سنة ٥٠٧/١١١٣ .

(٣) أسقطها الناسخ ، ويقتضيها السياق .

الجزالة بكره ؟ » ، فقال : « هو لملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عبّاد » ، فقال العربى : « أظن هذا الملك لم يكن له من المُلك إلا حظ يسير ، ونصيب حقير . فمثل هذا الشعر لا يقوله من شُغِل بشىء دونه » . فعرّفه الرجل بعظم رئاسته ، ووَصَف له بعض جلالته ، فتعجب العربىُّ من ذلك ثم قال : « وممن المَلك ، إن كنتَ تعلم ؟ » فقال الرجل : « هو فى الصميم من لَخْم ، والذؤابة من يَعْرُب » ، فصرخ العربى / صرخةً أيقظ الحىَّ بها من هَجْعته ، ثم قال : [٧٣ - ١]
« هلموا ، هلموا ! » ، فتبادر القومُ إليه ينثالون عليه ، فقال : « معشرَ قومى ! اسمعوا ما سمعتُه ، وعُوا ما وَعيتُه ، فإنه لفخرٌ طلبَكُم ، وشرفٌ تلاصقَ بكم . يا حَضَرى ! أنشد كلمةَ ابنِ عمنا » ، فأنشدهم القصيدة . وعرّفهم العربىُّ بما عرّفه الرجلُ به من نسب المعتمد ، فخامرتْهم السّراء ، وداخلتْهم العزةُ ، وركبوا من طربهم متونَ الخيل ، وجعلوا يتلاعبون عليها باقىَ الليل . فلما رَسَل الليلُ نسيمَه ، وشق الصباح — أو كاد — أديمَه ، عمد زعيم القوم إلى عشرين من الإبل فدفعها إلى الرجل ، وفعلَ الجميعُ مثلَ ما فعل . فما كان رَأْدُ الضحى إلا وعندَه هُنَيْدة من الإبل ، ثم خلطوه بأنفسهم ، وجعلوه مقرّ سرورهم وتأنُّسِهم .

وللمعتمد أيضاً يستعطف أباه المعتضد :

مولاى أشكو إليك داءً أصبح قلبى به جريحا
إن لم يُرِحْهُ رضاكَ عنى فلستُ أدرى له مُرِيحا
سُخْطُكَ قد زادنى سقاماً فابعثْ إلىّ الرضا مَسيحا
واغفر ذنوبى ولا تضيِّقْ عن حَملها صدرَكَ الفسيحا
لو صوّر اللهُ للمعالى جسماً لأصبحتَ فيه روحا

وله فى النسيب :

دارَى الغرامَ ورامَ أن يتكتما وأبَى لسان دموعِه فتكلما

رحلوا وأخفى وَجْدَه فأذاعهُ ماءُ الشؤون مصرِّحاً ومُجَمْجِمَا
سايَرتُهم والليلُ غُفْلٌ ثوبُهُ حتى تراءى للنواظر مُعْلَمَا
فوقفتُ ثمَّ مُحَيَّرًا ، وتَسَلَّبَتْ مِنى يدُ الإصباحِ تلكَ الأنجُمَا

وله :

أكثرتِ هجرى غير أنكِ ربما عَطَفَتْكِ — أحيانًا — علىّ أمورُ
فكأنما زمنُ التهاجرِ بيننا ليلٌ ، وساعاتُ الوصال بدور

وله :

عفا الله عن « سِحْرٍ » على كلِّ حالةٍ ولا حُوسِبَتْ عنى بما أنا واجدُ
[٧٣ — ب] /أسِحْرُ ظلمتِ النفسَ واخترتِ فُرقتى فجَمَّعْتِ أحزانى وهنَّ شواردُ
وكانت شجونى — باقترابكِ — نُزَّحًا فهاهنَّ — لما أن نأيتِ — شواهدُ
فإن تستلِذّى بَرْدَ ما بك بَعدَنا فبَعدَكِ ما ندرى متى ما الماءُ باردُ

وله :

قامت لتحجُبَ قرصَ الشمس قامتُها عن ناظرى ، حُجِبتْ عن ناظرِ الغِيَرِ
عِلماً لعَمرُكَ منها أنها قمرٌ هل تحجب الشمسَ إلا غرةُ القمر ؟

وناولته إحدى جواريه كأس بلور مترعة خمراً ولمع البرق فارتاعت ، فقال :

رِيعتْ من البرق وفى كفها برقٌ من القهوة لمّاعُ
يا ليتَ شِعرى ، وهى شمسُ الضحى كيف من الأنوار ترتاعُ ؟

وله ، ويغنى به :

تظنُّ بنا أمُّ الربيع سآمةً ألا غفرَ الرحمٰنُ ذنباً تُواقِعهُ

أأهجرُ ظبياً فى فؤادى كِنَاسُهُ ... وبدرَ تمامٍ فى ضلوعى مَطالعُهْ
وروضةَ حُسنٍ أجتنيها وباردًا ... من الظَّلم لم تُحظَرْ علىّ شرائعُهْ
إذا عدِمتْ كَفِّى نَوالا تُفيضهُ ... على مُعتَفيها أو كَمِيًّا تُقارعُهْ

وله فيها(١) ، وضمَّن أوائلَ الأبيات حروفَ اسمها :

أغائبةَ الشخصِ عن ناظرى ... وحاضرةً فى صميم الفؤادِ
عليكِ السلامُ بقدْرِ الشجونِ ... ودمعِ الشؤونِ وقدرِ السُّهادِ
تملَّكْتِ منى صعبَ المرام ... وصادفتِ منى سَهلَ القِيادِ
مُرادىَ أعياكِ فى كلِّ حينٍ ... فيا ليتَ أنىَ أُعطَى مرادى
أقيمى على العهد فى بَيْنِنا ... ولا تستحيلى لطول البِعاد
دسستُ اسمَك الحلوَ فى طَيِّهِ ... وألَّفْتُ فيكِ حروفَ « اعتمادِ »

وإليها يشير بقوله فى رثاء ابنيه المأمون والراضى بعد خلعه :

/معى الأخَواتُ الهالكاتُ عليكُما ... وأمُّكما الثكلَى المضرَّمَةُ الصدرِ [٧٤-١]
تُبَكِّى بدمعٍ ليس للغيثِ مِثْلُهُ ... وتزجُرُها التقوى فتُصغِى إلى الزَّجر
تذلِّلُها الذكرى فتفزَعُ للبُكا ... وتصبر ـ فى الأحيان ـ شُحًّا على الأجر
أبا خالدٍ ، أورثتَنى البَثَّ خالدًا ... أبا النصر ، مذ وُدِّعتَ ودَّعَنى نصْرى
وقبلَكما ما أودَعَ القلبَ حسرةً ... تَجَدَّدُ طولَ الدهرِ : ثُكْلُ أبى عمرِو

---

(١) الإشارة هنا إلى « اعتماد » الرميكية أحب نساء المعتمد إليه ، ولم يذكرها ابن الأبار قبل ذلك . وواضح أنه كان لا بد أن يمهد لذلك بشىء عنها ، ويبدو أن ذلك ليس سهواً من الناسخ وإنما هو من الأصل الذى كتبه ابن الأبار ، فقد سها عندما اختار مختاراته من شعر المعتمد عن أن يمهد لهذه الأبيات .

يعنى ابنَه سِراجَ الدولة أبا عَمرو عبادَ بنَ محمد قتيلَ ابن عكاشة بقرطبة[١] .
وأبو خالد هو ابنــه يزيد الملقب بالراضى ، وهو الذى قتله قرور اللَّمتونى[٢] غدراً
بُرنْدَة . وأبو نصر هو ابنه الفتح الملقب بالمأمون ، وقُتل أيضاً بقرطبة فى آخر
دولتهم . وإخوتُهم أبو الحسين عبيدُ الله الملقب بالرشيد ، حُمل مع أبيه إلى العُدوة ،
وأبو بكر عبدُ الله الملقب بالمعتَدِّ ، وأبو سليمان الربيع تاج الدولة ، وأبو هاشم المعَلَّى
زين الدولة ، وكلهم لجاريته هذه الحظية عندَه الغالبة عليه « اعتماد » ؛ وهى أم
الربيع ، وتعرف بالسيدة الكبرى ، وتلقب بالرُّمَيْكِيَّة نسبة لمولاها رُمَيْك
ابن حجاج ، ومنه ابتاعها المعتمد فى أيام أبيه المعتضد . وكان مفرط الميل إليها حتى
تَلَقَّب بالمعتمد لينتظم اسمُه حروفَ اسمها ، وهى التى أغرت سيدَها بقتل أبى بكر
ابن عمار لذِكره إياها فى هجائه المعتمدَ الذى أوله :

(١) روى ابن بسام هذا الخبر فى الذخيرة (بنو عباد : ٣٢٢/١ وما بعدها) ومجمله أن قرطبة لما صارت إلى بنى عباد ولى المعتمد عليها قائداً من قواد جنوده يسمى محمد بن مرتين ، وكان المظفر ابن ذى النون طامعاً فى قرطبة ، ولكن جنود المعتمد أوقعوا به هزيمة كبيرة ، فأقام قائداً من قواده يسمى ابن عكاشة فى أحد الحصون المجاورة لها ليغاورها . وكان ابن عكاشة رجلا ذكياً واسع الحيلة ، فى حين كان محمد بن مرتين مغروراً بنفسه يظن أن أحداً لا يستطيع الثبات له ، وكان معه سراج الدولة أبو عمرو عباد بن المعتمد بن عباد ، فجعل ابن عكاشة يتلصص حول قرطبة حتى اتفق مع نفر من حراسها ، ثم هاجمها على غرة فى ليلة مظلمة سنة ٤٦٧ ، وقتل أباعمرو ومحمد بن مرتين وتملك البلد واستدعى المظفر فأسرع واستقر فى قرطبة ، وأراد التخلص من ابن عكاشة فلم يستطع . ثم توفى ابن ذى النون إثر ذلك وعادت قرطبة إلى المعتمد .

(٢) يسميه صاحب الحلل الموشية (ص ٨٧) جرور الحشمى ، وورد ذكره مراراً فى مذكرات الأمير عبد الله الزيرى فى صورة «قرور» (انظر فهرس الأعلام) . وكان يوسف بن تاشفين قد ولاه على جيش ليحاصر يزيد الراضى بن المعتمد بن عباد فى رندة ويستخلصها من يده ، وقد سلم له يزيد البلد ثم قتله جرور بعد ذلك . وفى نفس الوقت سنة ٤٨٤ جعل يوسف بن تاشفين قائده أبا عبد الله بن الحاج على رأس جيش آخر ليستولى على قرطبة من يد الفتح بن المعتمد ابن عباد ، ويلقب بالمأمون ، وكان يليها لأبيه المعتمد ، وقد اقتحم ابن الحاج البلد بالقوة وقتل الفتح بن المعتمد فى المعركة .

ألا حَيِّ بالغربِ حَيًّا حِلَالَا أناخوا جِمالاً وحازوا جَمالاَ

يقول فيه :

تَخَيَّرْتَها مِن بناتِ الهجينِ رُمَيْـكِيَّةً ما تُساوى عِقَالاَ

وهو شعر أقذع فيه ، وقد قيل إنه منحول إليه ومقول على لسانه ، فالله أعلم[1] .

وتُوفيت أمُّ الربيع هـذه بأغمات قبل المعتمد سيدها ، لم ترقأ لها عبرة ولا فارقتها حسرة ، حتى قضت أسفاً وهلـكت حزناً ، رحمها الله .

ومحاسن المعتمد فى أشعاره كثيرة ، وخصوصاً مراثيه لأبنائه وتفجعه لزوال سلطانه . ويُحكى أن بعض بنى عبّاد أنشد فى النوم قبل حلول الفاقرة بهم هذه الأبيات :

/ ما يَعْلَمُ المرءُ والدنيا تَمرُّ بهِ بأنَّ صَرْفَ ليالى الدهرِ محذورُ [٧٤-ب]

بَيْنا الفتى مُتَرَدٍّ فى مَسَرَّتِهِ وافَى عليهِ منَ الأيامِ تغييرُ

---

(١) يبدو أن هذا أيضاً رأى ابن بسام ، فقد قال فى الذخيرة (مخطوط بغداد ، ورقة ١٦٠ب) : « فشاعت فى الناس أشعار عزيت إلى ابن عمار منها قصيدة . . » ثم أورد أبياتاً متفرقة من القصيدة . وبعد أن أورد أشد الأبيات إقذاعاً قال : «وبعدُ ما أضربتُ عنه ، رغبة بكتابى عن الشين ، وبنفسى أن أكون أحد الهاجين ، فقد قالوا : الراوية أحد الشاتمين » !

وجاء بعد ذلك تعليقاً على قول ابن عمار :

وعرّج بيُـومين أمَّ القرى عسى أن تراها [هناك] خيـالا

يومين : اسم قرية بقطر إشبيلية كانت أولية بنى عباد منها .

وقد أورد ابن بسام بعد ذلك خبر المعتمد مع ابن عمار كاملا .

وأورده مختصراً عبد الواحد المراكشى فى المعجب (بتحقيق الأستاذين محمد سعيد العريان محمد العربى العلمى ، القاهرة ١٩٤٩) ص ١١١ وما يليها .

وفرَّ مِن حولهِ تلك الجيوشُ كما تفر – عايَنَتِ الصقرَ – العصافيرُ(١)
وخرَّ خُسْرًا فلا الأيامُ دُمْنَ لهُ ولا بما وُعِدَ الأبرارُ مجبور
مِن بعدِ سبعٍ كأحلامٍ تمرُّ وما يَرقَى إلى الله تهليلٌ وتكبير
يحلُّ سوءٌ بقومٍ لا مَرَدَّ له وما تُرَدُّ من الله المقادير

وكذلك حُكى أيضاً عن آخر أنه رأى فى منامه كأن رجلا صعد منبر جامع قرطبة واستقبل الناس يُنشدهم :

رُبَّ رَكبٍ قد أناخوا عِيسَهمْ فى ذُرَى مجدهمْ حِينَ(٢) بَسَقْ
سكتَ الدهرُ زماناً عنهمُ ثم أبكاهم دماً حِين نطقْ

فلما سمع المعتمد ذلك أيقن أنه نعىٌ لمُلكه ، وإعلام بما انتثر من سِلكه ، فقال :

من عزَا المجدَ إلينا قد صَدَقْ لم يُلَمْ مَن قال – مهما قال – حقّْ
مجدُنا الشمسُ سَناءً وسَنًا مَن يَرُمْ سَتْرَ سَناها لم يُطِقْ
أيها الناعى إلينا مجدَنا هل يضرُّ المجدَ أنْ خطبٌ طرَقْ ؟
لا نُرَعْ للدمعِ فى آماقنا مزجتْه بدمٍ أيدى الحُرَق
حَنِق الدهرُ علينا فسَطَا وكذا الدهرُ على الحُرِّ حَنِق
وقديماً كَلِف المُلكُ بنا ورأى منا شُموساً فعَشِق
قد مضى منا ملوكٌ شُهِروا شُهرةَ الشمسِ تجلَّتْ فى الأُفُق

---

(١) عند ابن بسام (بنو عباد : ١ /٣٠٧) :
وفرَّ مِن حوله تلك الجيوش كما تفر – إن عاينتْ صقراً – عصافيرُ
وهو أجود .

(٢) الأصل : لَمّا ، وبه ينكسر البيت ، والتصويب من نفح الطيب للمقرى .

نحن أبنـــاء بنى ماء السما نحوَنا تطمَحُ ألحاظُ الحَــدَق
وإذا ما اجتمع الدين لنـــا فحقـــيرٌ ما مِن الدنيا افترق

[٧٥ - ١] / ومنها فى ذِكر مدة إمارتهم :

حِجَجاً عشراً وعشراً بَعدَها وثلاثين وعشرين نَسَــقْ
أشرقت•[١] عشرون من أنفسِها وثلاثٌ نيِّراتٌ تأتَلِقْ

وكان مُلك بنى عَبّاد ثلاثاً وسبعين سنة ، للمعتمد منها ثلاث وعشرون .

وله :

لما تماسكتِ الدموعُ وتنبّه القلبُ الصديعُ
وتناكرَتْ هِمَمى لما يستامُها الخَطْبُ الفظيعُ
قالوا الخضوعُ سياسةٌ فليَبْدُ منكَ لهم خضوعُ
وألَذُّ من طعم الخضـــو ع على فمى السُّمُّ النقيعُ
إن تستلب عنى الدُّنَا[٢] مُلكى وتسلِمنى الجموعُ[٣]
فالقلبُ بين ضلوعِـــهِ لم تُسْلِمِ القلبَ الضلوعُ
لم أُستلَبْ شرفَ الطبا ع ، أيُسلَبُ الشرفُ الرفيعُ ؟
قد رُمتُ يومَ نِزالِهمْ ألّا تُحصِّنَنى الدروعُ
وبرزتُ ليس سِوى القمِيـ ـصِ على الحَشا شىءٌ دَفُوعُ
وبذلتُ نفسى كى تسيـ ـلَ إذا يسيلُ بها النَّجيعُ

(١) الأصل : أسرعت ، والتصويب عن دوزى (بنو عباد : ٢ / ٧٠) .
(٢) ورد هذا الشطر فى ديوان شعر المعتمد (جمعه وحققه الأستاذ أحمد بدوى والدكتور حامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٥١) ص ٨٨ : إن يَسْلِب القومُ العِدا .
(٣) ورد فى الهامش إزاء هذا الشطر :
* إن يَسْلِب القومُ العدا *

أَجَلِي تأخَّرَ ، لمْ يكنْ بِهَــواىَ ذُلِّي والخشوعُ
ما سرتُ قطُّ إلى الـكما ةِ وكان من أملِى الرجوعُ
شِيَمُ الأولى أنا منهمُ والأصـلُ تتبعهُ الفروعُ (١)

وله :

لكَ(٢) الحمدُ مِن بَعدِ السيوفِ كُبُولُ بِسَاقَىَّ منها فى السجونِ حُجولُ
وكنا إذا حانتْ لحربٍ(٣) فريضةٌ ونادتْ بأوقاتِ الصلاةِ طبولُ

(١) أورد ابن بسام هذه القصيدة بصورة أوفى (بنوعباد : ١/٣٠٣ – ٣٠٤) . وقد قال المعتمد هذا الشعر يصف حاله يوم اقتحم المرابطون إشبيلية وأخرجوه من قصره بعد أن استقر رأى يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف . وقد وصف عبد الواحد المراكشى خلع المعتمد على يد سير بن أبى بكر بن تاشفين ابن أخى يوسف بن تاشفين وأكبر قواده بعد قتال دام أياما (المعجب : ١٣٨ وما بعدها) . وكان أهل إشبيلية قد أعلنوا الثورة على المعتمد وانضموا إلى المرابطين ، فوجد المعتمد ألا فائدة من القتال واستسلم ، فأُخذ هو والباقون من أبنائه وبناته ونسائه وأرسلوا إلى الجزيرة الخضراء ، وفيها ركبوا مركباً حملهم إلى العدوة ، حيث نقلوا إلى أغمات جنوبى مراكش ، وظل المعتمد هناك إلى أن مات .

وقد زرت الموضع الذى يقال إنه قبر المعتمد ، وهو قبر متواضع داخل حجرة مهدمة فى فضاء لا يعمره غير بعض الرعاة .

وقد زار هذا القبر ابن اللبانة الشاعر ، ورثى المعتمد فى قصيدة مشهورة ، وزاره أيضاً لسان الدين بن الخطيب ورثاه .

ورواية عبد الواحد المراكشى للحوادث ظاهر فيها ميله إلى بنى عباد وبغضه للمرابطين ، وهو صدى لبغض الأندلسيين عامة للبربر الذين استقدمهم المنصور بن أبى عامر ليؤيد بهم سلطانه ، فكان من نتائج ذلك ما رأينا ، وكان عبد الواحد المراكشى من شيعة الموحدين المبغضين للمرابطين ، وكلامه على هذا ينبغى أن يقرأ بتحفظ .

قال ابن بسام (بنوعباد : ١/٣٠٦) : ووافاه حمامه بعد مرض شديد أصابه ، وكانت وفاته فى ربيع الأول سنة ٤٨٨ . وكان مولده فى ربيع الأول سنة ٤٣١ ، « ومن النادر الغريب أنه نودى فى جنازته بالصلاة على الغريب ، بعد عظيم سلطانه وجلالة شانه » .

وكل ما سيرويه ابن الأبار بعد ذلك من شعر المعتمد قاله فى منفاه ، وهو أجمل شعره وأصدقه .

(٢) الذخيرة (بنوعباد : ١/٣١٩) : له .

(٣) فى الديوان (ص ١١) نقلا عن الذخيرة : لِنَحْرٍ .

شهدْنا ، فكبَّرْنا ، فظلَّتْ سيوفنا تُصَلِّى بهامات العِدا فتُطيلُ [٧٥-ب]
سجودٌ على إثْر الركوع متابعٌ(١) هناك وأرواحُ الكُماةِ تسيلُ

وعلى هذه الحال من الاعتقال كان الشعراء ينتجعونه ويمتدحونه ، فيصِلُ بما لديه ، مَن يفِدُ عليه ، أو يوجِّه بشِعره إليه . وتعرَّض له أبو الحسن الحُصرى(٢) فى طريقه إلى أغمات — بعد القبض عليه — بشعر يمدحه فيه ، فوجَّه إليه بستة وثلاثين مثقالا لم يكن عنده سواها ، وأدْرَج قطعةَ شِعرٍ طيَّها معتذراً من قلتها . وتسامع الشعراء بذلك ، فقصدوه من كل ناحية ، فقال :

شعراء طَنْجةَ كلُّهم والمغربِ ذهبوا مِن الإغراب أبعدَ مذهبِ
سألوا العسيرَ مِنَ الأسيرِ ، وإنَّهُ بسؤالهمْ لأحقُّ ، فاعجبْ(٣) واعجبِ
لولا الحياء وعزةٌ لَخْميَّةٌ طَيَّ الحشا ناغاهُمُ فى المطلَبِ
قد كان—إن سُئل الندى—يُجْزِلْ ، وإن نادَى الصريخُ ببابه : اركبْ ! يركبِ

وله فى الزهد :

أرى الدنيا الدنيَّةَ لا تواتِى فأجمِلْ فى التصرُّفِ والطِّلابِ
ولا يَغرُرْكَ منها حُسْنُ بُرْدٍ له عَلَمانِ مِن ذَهَبِ الذَّهابِ
فأوَّلُها رجاءٌ مِن سَرابٍ وآخِرُها رداءٌ مِن ترابِ

* * *

(١) ورد هذا الشطر فى الذخيرة (مخطوطة بغداد ، ورقة ٢٦ ا):
* وفود على إثر الركوع متابع *
وقرأه دوزى (بنو عباد : ٣١٩/١) :
* رقوع على أن الرقوع متابع * !
(٢) هو أبو الحسن على بن عبد الغنى الحصرى الكفيف الذى ذكرناه آنفاً ، وقد روى هذا الخبر بتفصيل ابن بسام فى الذخيرة (مخطوط بغداد ، ورقة ٢٢ ب وما بعدها) .
(٣) فى الديوان (ص ٩٠) نقلا عن « الذخيرة » و « المعجب » : بِسُؤالِهم لأحقُّ منهم فاعْجَبِ .

أبناء المعتمد رحمه الله :

١٢١ — عبيد الله بن محمد الرشيد ، أبو الحسين

ذكر أبو بكر بن اللبانة أن كبار أولاد المعتمد محمد بن عَبّاد عبيدُ الله الرشيد هذا ، ثم المعتدّ أبو بكر عبد الله ، ثم المأمون أبو نصر الفتح ، ثم الراضى أبو خالد يزيد ؛ هكذا أسماهم . وقد قيل إن المعتدّ أصغرهم ، وإنما أراد بَعد أبى عمرو عَبّاد بن محمد سراج الدولة قتيل ابن عكاشة بقُرطبة ، وإلا فهو بِكْر أولادِه والمسمّى باسم أبيه المعتضد .

قال : ووُلد للرشيد سبعةٌ وأربعون ولدًا ، وكان دَمِثًا رقيقَ حاشيةِ الطبع ، طالَع شيئًا من العلوم الرياضية ، وكُشف له عن غيب / الأغانى ، حتى قيل إنه يجيد ضرب العود ؛ وكان له أدب وشعر . [٧٦ – ا]

وذكر غيرُه أن أباه المعتمد ولاه عهده ، وأنه قدّمه أيضاً إلى خطة القضاء بإشبيلية — محافظة على رسم سلفه فى ذلك — فكان يجلس للأحكام جلوساً عامًّا يومَ الخميس ، ويَحضر عنده أعيان الفقهاء وأهل العلم وثقات الشهداء ، وتُتجاذب عنده النوازل ، فيحكم فيها ، ويَستفتى الفقهاء ، ويُمضى من ذلك ما يجب على مذهب مالك وأصحابه ، وتنعقد عليه السجلات بالأحكام . وكان الذى يتولى القضاء للرشيد الفقيه المشاور أبو محمد عبد الله بن جابر اللَّخْمِى ، ثم صُرف عن ذلك ووُلى أبو القاسم أحمد بن منظور القيسى . ولما نُقل بنو عَبّاد إلى المغرب أُسكن الرشيد منهم بقلعة مهدى ، وكان هنالك إلى أن تُوفى فى حدود الثلاثين وخمسمائة وقد نيف على السبعين فى سِنه . ومن شعره يخاطب أمَّ ابنه المُعَلى عند ولادتها إياه :

أهنيكِ ، بل نفسى أهنِّى ، فإننى بلغتُ الذى كان اقتراحى على الدهرِ :
خلاصَكِ من أيدى المنونِ وغُرةً بدتْ للمعلَّى مثل دائرة البدرِ
كأنّى[1] بهِ عما قريبٍ مُمَلَّكاً زِمامَ المعالى نافذَ النهىِ والأمرِ
يقود إلى الهيجاء كلّ غضَنْفرٍ ويضربُ مَن ناواه بالبيض والسُّمرِ
فقَرَّتْ به عينى وعينُكِ فى العلا ولا زال أسمى فى المحَلِّ من النَّفْرِ

وجرى بمجلس أبيه قسيم فى صفة القبة المسماة بسعد السعود — وهى قبة بالقصر الزاهى — فعجز من حضر من الشعراء عن إجازته ، فقال الرشيد مرتجلا :

سعدُ السعودِ يتيه فوقَ الزاهى وكلاهما فى حسـنه متناهِ
ومن اغتدى وطناً لمثْل محمدٍ قد جَلَّ فى عُلياه عن أشباهِ
لا زال يخلُد فيهما ما شاءهُ ودهتْ عِداه من الخطوب دواهِ

وله :

قالوا : غداً يوم الرحيلِ ، فأمطرتْ عيناى دمعاً واكفَ العَبَراتِ
/ لِمْ لا ؟ وأنأى عن أحبةِ مهجتى كَرهاً ، فقلبى دائمُ الحسرات [٧٦-ب]
مِن كلِّ بيضاء العوارضِ طفلةٍ مثل البـدورِ تضىء فى الظلمات
لولا الرجاء بأنْ يُعجَّلَ بيننا وشْكُ التلاقى لاشتهيتُ مماتى

وعتب عليه أبوه المعتمد فى طريقه من مكناسة إلى أغمات عتباً أفرط فيه ، فكتب إليه يستعطفه :

يا حليفَ النـدى وربَّ السَّماحِ وحبيبَ النفوس والأرواحِ

---

(١) الأصل : كأنَّكِ .

مِن تمامِ النُّعْمَى علىَّ التماحِى لمحــةً من جبينِكَ الوضاحِ
قد غَنِينا ببِشرِه وسنـاهُ عن ضياء الصباح والمصباح
ذاك حظى مِنَ الزمانِ ، فإنْ جا دَ بهِ لى بلغتُ كلَّ اقتراحى

فأجابه المعتمد :

كنتُ حِلْفَ الندى وربَّ السماحِ وحبيبَ النفـوس والأرواحِ
إذ يمينى للبـذل يومَ العطايا ولقبضِ الأرواح يومَ الكفاحِ
وشمالى لقبض كلِّ عِنانٍ يُقحِمُ الخيلَ فى مجال الرماح
وأنا اليومَ رهنُ أسرٍ وفقرٍ مستباحُ الحِمى مهيضُ الجناحِ
لا أجيب الصريخَ إنْ حضر البا سُ ولا المعتفين يومَ السماحِ
عاد بِشْرى الذى عَهِدتَ عبوساً شغلتْنى الأشجانُ عن أفراحى
فالتماحى إلى العيونِ كريهٌ ولقـد كان نزهةَ اللُّمّاحِ

١٢٢ — يزيد بن محمد الراضى ، أبو خالد

ولاه أبوه الجزيرةَ الخضراء ، وكان بها عند إجازة عساكر ابن تاشفين اللمتونى البحر واشتراطه إياها ، فنقله إلى رُنْدَة ؛ وهو شقيق عَبّاد والفتح وعبيد الله المعتد[1] بنى المعتمد ، أمهم اعتماد ، وقد تقدم ذكر ذلك وذكر حُظْوتها لديه . وقيل إن المعتضد غاظه / ما بلغه من غلبتها على المعتمد أولَ ما اشتراها ، [٧٧ – ا]

(١) سبق أن ذكره ابن الأبار باسم عبد الله .

فتوجه إليه عازماً على عقابه(١) ومعتقداً التنكيل به ، والمعتمد إذ ذاك بشِلْب عاملٌ له ، وقد وَلدتْ منه أكبرَ أولاده سِراجَ الدوله عَبّاداً . فأمرها أن تتلقاه به لتعطفه رؤيتُه عليها ، فـكان ذلك كذلك ، ورقَّ له المعتضدُ وفَتَر عزمُه على الإيقاع به .

وكان الراضى من أهل العلم والأدب ، كَلِفاً بالمطالعة والدراسة ، قرأ كتب القاضى أبى بكر بن الطيب(٢) ، وأشرف على مذهب أبى محمد بن حزم الظاهرى ، فمهر فى الأصول وذهب إلى النظر والاختيار .

قال ابن اللبانة : ولد الراضى سبعةً من البنين ، وهو أقل بنى عباد الرؤساء ولداً ، وكان عالى الهمة ، عالماً بالشرعيات ، واقفاً على الطبيعيات ، ذاكراً للعرب وأنسابها ، حافظاً للغاتها وآدابها .

قال : وهو شاعر بنى عَبّاد بعد أبيه ، على أنه أقوى عارضةً منه ، وأبوه ألطف طبعاً وأرق صُنعا . واستُنزلَ الراضى من رُنْدة عند خلع أبيه ، وبعد مخاطبته أباه بذلك على عهود أُخفرتْ ومواثيق نُقضتْ ، فقُتل صبراً فى رمضان سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وهو القائل فى النسيب :

مَرُّوا بنا أُصُلاً من غير ميعادِ فأوقدوا نارَ شوقى أىَّ إيقادِ
وأذكَرونىَ أياماً لهوتُ بهمْ فيها ، ففازوا بإيثارى وإحمادى
لا غروَ أن زاد فى وَجْدى مرورهُم فرؤيةُ الماء تُذْكِى غُلّة الصادى

وله يخاطب أباه ، وقد أنهض جماعةً من إخوته دونه ، وبعث بها مع بعض بنيه :

(١) الأصل : عقبه ، وقرأها دوزى (بنو عباد : ٢/٧٥) : عتبه .

(٢) المراد أبو بكر بن الطيب الباقلانى .

أعيذُك أن يكونَ بنا خُمولُ ويطلعُ غـــيرنا ، ولنا أفولُ
حنانَك ، إنْ يكنْ جُرمى قبيحاً فإنَّ الصفحَ عن جُرمى جميلُ
وإن عَثَرتْ بنا قدمٌ سَفَاهاً فإنى من عِثارىَ مستقيلُ
وأحسنُ ما سمعتُ به عزيزٌ يناديه فيرحمهُ ذليــــلُ
وهأنذا أناديكمْ ، فهل لى إلى قربٍ من الرُّحْمَى سبيلُ ؟
[٧٧–ب] / وأنت المَلْكُ تعفو عن كثيرٍ فمالَكَ ظَلْتَ يُغضبكَ القليلُ ؟
ألستُ بفرعك الزاكى ، وماذا يُرَجِّى الفرعُ خانته الأصولُ ؟
بعثتُ بُرقعتى هذى رســولاً صغيرَ السِّنِّ ليس له حَوِيلُ
لترحمَـــــهُ وأفراخاً إذا ما عَتَبْتَ علىَّ عاد لهمْ عويلُ
بَقِيتَ لهمْ على عَتْبٍ وعُتْبَى فإنَّ حياتَك الظلُّ الظليلُ

وله يخاطبه أيضا مسلِّياً عن هزيمة جيش له بناحية لُورْقَة كان عليـه ابنه المعتدّ :

لا يُكْرِثَنَّكَ(١) خطبُ الحادثِ الجارى فما عليكَ بذاكَ الخطبِ من عارِ
ماذا على ضَيْغَمٍ أمضى عزيمتَه أنْ خانَه حَدُّ أنيابٍ وأظفارِ ؟
مَن يُوقِظِ الحربَ لا يُنكرْ حوادثَها قد تُحرقُ النارُ يوماً مُوقدَ النارِ
لئن أتوْكَ فمِنْ جُبْنٍ ومِن خَوَرٍ قد يَنهضُ العَيْرُ نحو الضيغمِ الضارى
عليكَ للناس أن تَسعَى لنصرهِمُ وما عليكَ لهمْ إسعادُ أقدارِ
لو يَعلمُ الناسُ ما فى أنْ تدومَ لهمْ بَكَوْا ، لأنَّكَ مِن ثوبِ الصِّبا عارِ
ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتِهمُ لم يُتحفوك بشىء غيرَ أعمارِ **

---

(١) أى لا يسوءنك . انظر اللسان ٢/٤٨٥ .

وهى طويلة ، وجل شعره فى استعطاف أبيه المعتمد لطول موجدته عليه ، والاعتذار فى كل حين إليه . ومن ذلك قوله :

سجيةُ ذى الدنيا عداوةُ ذى الفضلِ ورَوْمُكَ نقلَ الطبعِ من أعظم الجهلِ
فصـــبراً على ضِيقاتها فلعلَّها تُفَرَّج يوماً ، والعُقودُ إلى حلِّ
ولا تُضْمِرَنَّ الثُّـكْلَ إن كنتَ ذا حِجًا فليس لبيباً من يبيت على ثُـكْلِ
سأشكو إلى مُشْـكِى فؤادى بعَتْبِهِ ومِن عجبٍ شكوى الجريح إلى النَّصْلِ
أمعتَمَدَ الأملاكِ ، دعوة آملٍ رضاك فلا ضاقت إلى غيره سُبْلى
/ولستُ – و إن أُضحِى بعيداً – بيائسٍ فإن دموع المُزن تهوِى إلى سُفْلِ [٧٨ – ١]
لك الخيرُ لم أعلم بأنك منكرٌ –إذا الشمسُ آذتنى– فرارى إلى الظلِّ
فإن كنتُ ذا ذنبٍ فحسبِىَ عفوُكُمْ وقلبِىَ ما زلَّ الرجالُ ذوو العقلِ
وكم حقَنَ الأملاكُ قبلَكَ من دمٍ وكان لديهمْ سَفْـكُه كجَنَى النحلِ
يؤرِّقُنى ظنى بجَدِّى ونقصِهِ ويُرْقدنى علمى بما لَكَ من فضلِ
لعمرى لئن كنتُ الجديرَ بزُلْفَةٍ لديك ، فهذا الفرعُ من ذلك الأصلِ

وله من قصيدة :

مالى أرى ذا السيفِ عندَكَ عاطلاً وهْوَ المصمِّمُ إنْ سِواهُ تَبَلَّدا ؟
مالى حرمتُ رضاكَ لى ، وهْو الذى قد كنتُ أرهَبُ من زمانٍ أنكدا ؟
إنى وحقِّك واجدٌ بينَ الحشا مِن أجلِ سُخطك مِثلَ حَزٍّ بالمُدى
إن كان لى ذنبٌ فعفوُكَ واسعٌ أو إن يكن بغضٌ فقد بانَ الرَّدى
قد كان مِن حقى – لعَمرِكَ – أن أرى من بين أبناء الملوك محسَّـــدا
فأنا الجوادُ متى أجِئْ فى حَلبـــةٍ فاتتْ عيونُ الناظرين لىَ المدى

لا تَنْحَلُوا شِعرى سِواىَ تشكُّكاً فالسِّقْطُ قد يُغْشِى العيونَ إذا بدا

وقوله يصف نكد أيامه :

هى الدارُ غادرةٌ بالرجال وقاطعـةٌ لحبالِ الوصالْ
وكلُّ سرورٍ بها نافدٌ وكلُّ مقيمٍ بها لارتحالْ
وموعـدُها أبداً كاذبٌ فإن أنجزتْه فبعدَ المِطالْ
فمن رام منها وفاءً يدومُ ومَكْثاً لها رام عَينَ المُحالْ
خُلقنا نياماً ، وظلَّتْ خيالا وأوشَكُ شيء فراقُ الخَيالْ
/ نُعذَّبُ منها بغير اللذيذ ونشرق منها بغير الزلالْ [٧٨ – ب]
ونزداد – معْ ذاكَ – عشقاً لها ألا إنما سعيُنا فى ضلالْ(١)

وقوله فى مثل ذلك :

يَحُلُّ زمانُ المرءِ ما هو عاقدُ ويسهر فى إهلاكه وهْو راقدُ
ويُغرِى بأهل الفضل حتى كأنهم جناةُ ذنوبٍ ، وهْو للكُلِّ حاقدُ
سينهدُّ مبنىٌّ ، ويُقْفِر عامرٌ ويَصْفِر مملوءٌ ، ويخْمَد راقدُ
ويفترق الألّافُ مِن بَعدِ صحبةٍ وكم شهدَتْ مما ذكرتُ الفراقدُ

وله فى قصيدة يجاوب بها أباه ، وقد خاطبه طاعناً عليه وهازئاً به :

أتريد منى أن أكو ن كمَن غدا فى الدهر نادرْ

---

(١) أضاف دوزى هنا بيتاً غير موجود فى الأصل وهو :

كمعشوقة ودُّها لا يدوم وعاشقُها أبداً غير سال

ولم يذكر مصدره ، ومن المعروف أنه نشر ما نشر من « الحلة » عن النسخة التى عُملت من نسختنا للمكتبة الأهلية فى باريس ، فلعل الناسخ أضافه من عنده أو من مصدر آخر لم يعينه .

هيهـــات ذلك مطمع أعيا الأوائلَ والأواخرْ
لا تنسَ يا مـــولاى قو لةَ ضارعٍ لا قولَ فاجرْ
ضَبَطَ الجزيرةَ عنـدما نزلتْ بعقْوتها العساكرْ
هبْنى أسأتُ كما أسأ تُ ، أما لهذا العتْب آخرْ ؟
هبْ زلّتى لبُـــنوتى واغفر ، فإن الله غافرْ

وأول قصيدة أبيه :

المُلْك فى طىِّ الدفاترْ فتخلَّ عن قَوْد العساكرْ
طـــفْ بالسرير مسلِّماً وارجع لتوديع المنابرْ
واطعن بأطراف اليرا ع ، نُصِرْتَ ، فى ثُغَرِ المحابرْ
واضرب بسكين الدوا ةِ مكانَ ماضى الحدِّ باترْ
أولستَ رِسْطاليسَ إنْ ذُكر الفلاسفةُ الأكابرْ ؟
وكذاك إن ذُكر الخليـ لُ فأنتَ نحوىٌّ وشاعرْ
/ وأبو حنيفةَ ساقطٌ فى الرأى حينَ تكونُ حاضرْ [٧٩ - أ]
مَن هُرْمُسٌ ، مَن سيبويـ ـهِ ، مَن ابنُ فَوْرَك إذ تُناظرْ ؟
هذى المكارمُ قد حويـ تَ فكن لمنْ حاباك شاكرْ
واقعـــد فإنك طاعمٌ كاسٍ ، وقل : هل من مُفاخرْ ؟[1]

(١) ذكر ابن خاقان فى « قلائد العقيان » (بولاق ١٢٨٣ ، ص ٣١ – ٣٣) ظروف هاتين القصيدتين . وخلاصتها أن المعتمد عندما وصل لُورْقة وجد أن خصمه — والأغلب أنه المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس — قد أرسل إليها جيشاً ليحول بين المعتمد وبينها ، فطلب المعتمد إلى ابنه الراضى أن يقود جيشاً للقاء العدو ، « فأظهر التمارض والتشكى ، وأكثر التقاعس والتلكى . . ورأى أن المطالعة أرجع من المقارعة ، ومعاناة العلوم أربح من مداواة

١٢٣ — يحيى بن محمد المدعو بشرف الدولة ، أبو بكر

قرأ فى حياة أبيه على أبى عبد الله مالك بن وُهَيب[1] وأبى الحسن بن الأخضر بإشبيلية ، ونشأ خاملا وتعيَّش من كَتْب الوثائق بمرّاكُش . وهو القائل وقد دعاه المقدم للحسبة من قِبل القاضى أبى محمد بن أبى عُرجون ليكتب له ، وكان أميًّا جاهلا :

عجباً لدهرٍ كلُّ ما فيه عجبْ فَدْمٌ سَمَا ونبيهُ قومٍ قد رَسبْ
لا تنفعُ الآدابُ فيه وإن غدتْ تُعزَى إلى ذى همةٍ عالى النسبْ
أوَليس من نكد الزمان بأن أرى أُدعى لأكتبَ صاغراً للمحتسَب ؟[2]

= الكلوم ، فقد كان عاكفاً على تلاوة ديوان ، عارفاً بإجادة صدر وعنوان » ، فيئس منه المعتمد وعهد إلى أخيه عبد الله المعتد فى ذلك ، فخرج بالجيش وانهزم شر هزيمة ، وعاد إلى أبيه مفلولا ، فاشتد غضب المعتمد على ابنه الراضى ، خاصة وقد كتب إليه قصيدة (سبق أن ذكرها ابن الأبار) يعزيه فى الخسارة . وواضح أن انصراف الراضى عن الحروب كان سبب الخلاف الطويل بينه وبين أبيه المعتمد . وكان أبوه قد ولاه رندة ، فاستنزله القائد المرابطى جرور الحشمى عنها بأمان ، ثم ضرب عنقه بعد ذلك سنة ٤٨٤ . وقد أورد ابن الأبار مختاراً من القصيدتين ، وهما بتمامهما عند ابن خاقان فى الموضع المشار إليه آنفاً .

(١) أبو عبد الله مالك بن وهيب فقيه أندلسى ، أصله من إشبيلية ، اشتهر أمره أواخر أيام المرابطين بمساجلة كانت بينه وبين محمد بن تومرت فى مراكش فى أوائل دعوته ، ويقال إن ابن تومرت أفحمه ، فنصح مالك على بن يوسف بن تاشفين بقتله . وقد روى الحادثة معظم مؤرخى الموحدين .

انظر : كتاب أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المعروف بالبيدق (تحقيق ليڤى پروڤنسال ، پاريس ١٩٢٨) ص ٦٨ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٨٥ — ١٨٦ ، وانظر أيضاً : ابن خلكان ، وفيات الأعيان (القاهرة ١٩٤٨) ترجمة ٦٦٠ ج ٤/١٤٠ — ١٤١ .

(٢) بفتح السين ، وسيجىء تفسير ذلك .

خَسفٌ أسامُ به وتأبى همةٌ ... حْمية إلا الصيانةَ للحَسَبْ

أراد بالمحتَسَب — مفتوح السين — أنه — لقَدامته — كالميت الذى احتُسِب .

١٢٤ — حكم بن محمد المدعو بذخر الدولة ، أبو المكارم

قرأ أيضاً على ابن وُهَيب وتأدب به ، ومال إلى الهجاء فى خموله فتُحُومى لسانُه ، وتجول بأقطار المغرب ، ثم استقر بمدينة فاس يكتب الوثائق — كأخيه المذكور قبلَه — إلى أن توفى . وكتب إليه بعض أصحابه :

تتسامَى الحِكَمُ ... مذ وشاها حَكَمُ
فَخَرَ الطِّرْسُ به ... وتباهَى القلمُ
وزهتْ لَخْمٌ به ... فهو فيها عَلَمُ
مِن صناديدِ عُلاً ... بالثريا خيَّموا
آلُ عبادٍ وقلْ : ... آلُ أمجادٍ هُمُ
إن سطا الدهرُ بهم ... فكفَى مجدُهُمُ

فجاوبه بقوله :

/ ما لِمَجْدٍ عَلَمُ ... والزمانُ حَكَمُ [٧٩ – ب]
وقضاياه غدَا ... جورُها يَحتكمُ
رائد الشؤم به ... مِحبرٌ أو قلمُ
ونبيه فطنٌ ... بيتَ شِعرٍ ينظِمُ

درسَ الفضلُ به وتفانَى الكرمُ
وغدا كلُّ أخٍ ودُّه يُتهَّمُ
غيرُ خِلٍّ ماجدٍ فضلُه منتظِمُ
سَفَرتْ عنه لنا كَلِمٌ ، بل حِكَمُ
عظمتْ إذ نَظَمتْ مجدَ قومٍ عُدِموا
صاحِ إنا عَربٌ مَلَكتْها عَجَمُ
كلُّ فضلٍ ونُهًى عَدَمٌ عندَهُمُ
آه من دهرٍ غدا جُرؤُه يُهتَضَمُ
آلُ عبادٍ به غائرٌ نجمُهُمُ
لَعِبَ الدهرُ بهم ومحا رسمَهُمُ
ليت شِعرى والمُنَى خُلَّبٌ أو حُلُمُ
هل إلى أندلسٍ نظرةٌ تُغتَنَمُ ؟

١٢٥ — محمد بن مَعْن بن صُمَادِح التَّجيبى المعتصم بالله الواثق بفضل الله ، أبو يحيى

هو محمد بن مَعْن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صُمَادِح بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر بن عميرة — الداخل إلى الأندلس — ابن المهاجر بن سُرَيج بن حرملة بن تميم ، وفى عبد الرحمن بن

عبد الله يجتمعون مع محمد بن هاشم(١) وأهل بيته التّجيبيين ولاةِ سرقسطة

---

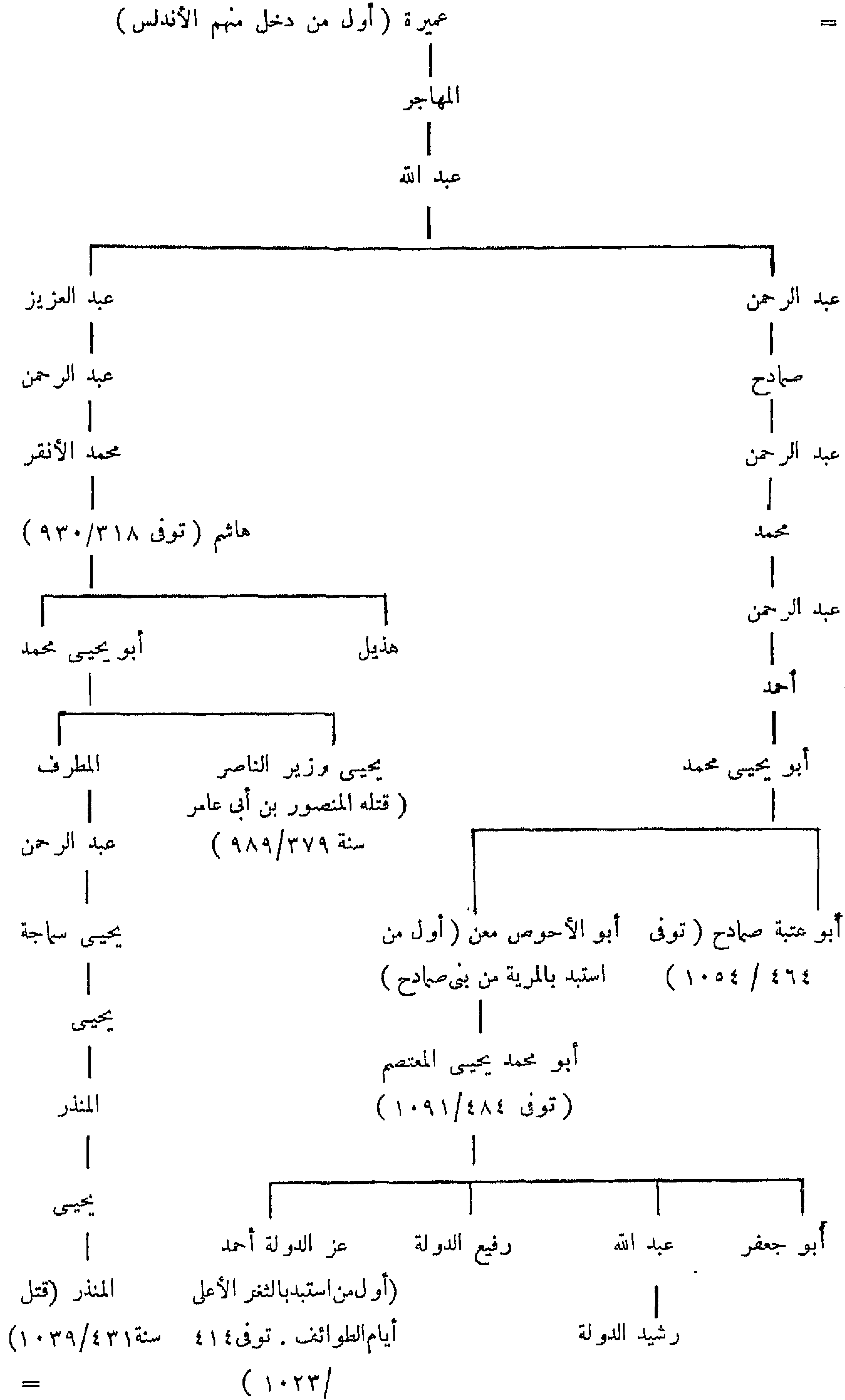
(١) بنوصمادح التجيبيون وبنو هاشم فرعان لأسرة واحدة من أصحاب الثغر الأعلى ، وأصلهم كلهم من العرب الذين استقروا فى إقليم أرغون من أيام الفتح . وكان أول ظهورهم أيام الأمير محمد ، وكان جدهم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح يلى دَرُوقَة Daroca شبه مستقل فيها ، فاستعان به الأمير محمد فى القضاء على بنى قسى أصحاب الثغر الأعلى ، وكانوا يحكمون شبه مستقلين فى هذه الناحية منذ أيام الفتح ، وأعطى الأميرُ محمدٌ عبد الرحمن بن صمادح ولايةَ قلعة أيوب بالإضافة إلى دروقة مكافأة له ، وقد اضطر محمد بن موسى بن موسى بن فرتون Furtuno رأس بنى قسى إذ ذاك إلى التنازل عن سرقسطة لرايموند كُنْت بليارش Pallars ثم انتزعها الأمير محمد من هذا الأخير وأضافها إلى عبد الرحمن بن صمادح ، فأصبح هذا الأخير سيد الثغر الأعلى كله من قلعة أيوب إلى جبال البُرت (البرانس) . واستمر هذا إلى أيام ابنه محمد بن عبد الرحمن المعروف بالأنقر (أى الأعور) . ثم تمكن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح من القضاء على آخر بنى قسى وهو محمد بن لب ، فقتله سنة ٨٥٧/٢٤٤ وانفرد بالثغر الأعلى .

أما بنو هاشم ففرع آخر من ذلك البيت التجيبى ، وجدهم هاشم بن محمد المعروف بالأنقر هو جد هذا الفرع (انظر الجدول) . وكان الأمير عبد الله قد استعان بمحمد الأنقر فى كسر شوكة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن صمادح وآله الذين استبدوا بالثغر الأعلى وربطوا علاقاتهم بالممالك النصرانية فى الشمال ، وانتهى الأمر بأن صار هاشم بن محمد الأنقر صاحب سرقسطة والثغر الأعلى كله ، واكتفى عبد الرحمن بن محمد بن صمادح ببلدة وشقة وحصّنها وخلفه أبناؤه عليها .

وقد أنجب هاشم بن محمد ابنين ، أحدهما هذيل الذى دخل فى خدمة الناصر وصار من بين وزرائه وقواده ، والثانى أبو يحيى محمد الذى ورث ولاية الثغر الأعلى عن أبيه ، وخلفه ابنه المطرّف ثم ابن هذا عبد الرحمن الذى قتله المنصور بن أبى عامر فى المؤامرة التى اشترك فيها مع عبد الله بن المنصور وغالب الناصرى كما ذكرناه ، وخلفه ابنه يحيى المعروف بسماجة ، ثم يحيى ، ثم منذر وهو الذى استبد بالثغر بعد انتثار الخلافة ، ثم يحيى ، ثم منذر الذى قتله ابن عمه المسمى عبد الله بن حكم . وكان قتله الضربة القاضية على هذا الفرع .

أما الفرع الثانى — فرع صمادح بن عبد الرحمن — فقد ظل يحكم وشقة حتى أخرج سليمان ابن هود آخرَهم أبا يحيى محمد منها فى المحرم سنة ٤٣١ . وبذلك انتهى تاريخ بنى صمادح وبنى هاشم التجيبيين فى الثغر الأعلى ، ولجأ أبو الأحوص معن وأبو عتبة صمادح ابنا أبى يحيى محمد إلى عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن أبى عامر فى بلنسية كما يحكى ابن الأبار ؛ وإليك جدولا يبين تسلسل البيتين : =

=


عميرة (أول من دخل منهم الأندلس)
المهاجر
عبد الله
عبد الرحمن
صمادح
عبد الرحمن
محمد
عبد الرحمن
أحمد
أبو يحيى محمد
أبو عتبة صمادح (توفى ٤٦٤ / ١٠٥٤)
أبو الأحوص معن (أول من استبد بالمرية من بنى صمادح)
أبو محمد يحيى المعتصم (توفى ١٠٩١/٤٨٤)
أبو جعفر
عبد الله
رشيد الدولة
رفيع الدولة
عز الدولة أحمد
عبد العزيز
عبد الرحمن
محمد الأنقر
هاشم (توفى ٩٣٠/٣١٨)
هذيل
أبو يحيى محمد
يحيى وزير الناصر (قتله المنصور بن أبي عامر سنة ٩٨٩/٣٧٩)
المطرف
عبد الرحمن
يحيى سماجة
يحيى
المنذر
يحيى
المنذر (قتل سنة ١٠٣٩/٤٣١
(أول من استبد بالثغر الأعلى أيام الطوائف . توفى ٤١٤ /١٠٢٣)

=

وأمرائها فى الفتنة وقبلَها ، وأمه بُرَيْهة بنت الناصر عبد الرحمن بن المنصور محمد ابن أبى عامر . وكان جده أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن والياً على وَشْقَة ، وهى وما والاها دار هؤلاء التُّجيبيين من الثغر الشرقى بالأندلس .

ولما أخرج منها فى الفتنة صار إلى أبى الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن أبى عامر صاحب بلنسية — ويلقَّب بالمنصور — فأكرمه وأوْطنه بلدَه ، وصاهر ابنيه مَعْنًا أبا الأحوص وصُمَادِحًا أبا عُتْبة : زوَّجهما أختيه . ثم رأى اللحاق بالمشرق فهلك غرقاً فى البحر ، وكان اليمُّ أقصى أثره .

وبقى ابنُه مَعْنٌ فى كَنَف صهره عبد العزيز بن أبى عامر ، فقدَّمه على المريَّة ، لما صارت من عمله بعد مقتل زُهَيْر العامرى بمدة قريبة/.وذلك فى سنة [٨٠ - ١] اثنتين وثلاثين — وقيل ثلاث وثلاثين — فاستبد بضبطها إلى أن هلك سنة ثلاث وأربعين ، فأجلس بنو عمه ورجالُه ابنَه أبا يحيى محمد بنَ مَعْن هذا ، وهو لم يستكمل ثمان عشرة سنة .

وقد كان أبوه أخذ البيعة له فى حياته وأحكم أمرها ، بعد أن عرضها على أخيه أبى عُتبة صمادح فدفعها وأبى قبولها ، فتمت له الإمارة بعد أبيه وسمّى نفسه بـ « معز الدولة » . فلما تلقب سائر أمراء الأندلس بالألقاب الخلافية ، تلقب هو أيضاً بـ « المعتصم بالله » و « الواثق بفضل الله » : لقبين من ألقاب خلفاء بنى العباس ، مناغاةً لصاحب إشبيلية عباد بن محمد لما تلقب بـ « المعتضد بالله المنصور بفضل الله » .

= انظر : R. DOZY : *Essai sur l'histoire des Todjibides. Les Banū Hāchim de Saragosse et les Banū Çomādih d'Almérie. Recherches*, I, pp. 211-291.
والنصوص التى أوردها دوزى فى آخر الكتاب ، ومنها نص ابن الأبار الوارد فى المتن .

وكان حسن السيرة فى رعيته وجنده وقرابته ، فانتظمت أيامُه واتصلت دولتُه واستقامت أموره .

وقال أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر السالمى فى تاريخه ، وذَكر المعتصمَ هذا : كان رَحْبَ الفناء ، جزيل العطاء ، حليماً عن الدماء والدهماء ، فطافت به الآمال ، واتسع فيه المقال ، وأُعملتْ إلى حضرته الرحال . قال : ولم يكن من نخوة ملوك الأندلس ، بل أخلد إلى الدعة ، واكتفى بالضيق من السعة ، واقتصر على قصر يبنيه ، وعِلْقٍ يقتنيه .

وكانت بينه وبين أصحابه ملوك الطوائف فتن مبيرة غلبوه عليها ، وأخرجوه من سجيته مكرهاً إليها . قال : وصاهر المعتصمَ إقبالُ الدولة على بن مجاهد العامرى ، وأنكحه ابنته ، وخاطب عنه أبو محمد بن عبد البر من دانية — يعنى عند زفافها إليه — برسالة بديعة .

وقال غيره : كان المعتصمُ ساكنَ الطائر ، مأمون الجانب ، حصيف العقل ، طاهراً ، معنيًّا بالدين وإقامة الشرع ، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً فى كل جمعــة للفقهاء والخواص ، فيتناظرون بين يديه فى كتب التفسير والحديث . ولزم حضرتَه فحولٌ من الشعراء كأبى عبد الله بن الحداد[1] ،

---

(١) أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادى آشى ، ويسميه بعضهم مازن ، فى الطبقة الأولى من شعراء القرن الخامس الهجرى ، وقد اختص بمعن بن صمادح وقال فيه أمداحاً كثيرة . توفى سنة ٤٨٠/١٠٨٧ .

انظر عنه : الذخيرة لابن بسام ، مجلد ٢ قسم ١ ص ٢٠١ وما يليها .

تكملة ابن الأبار ، ص ١٣٣ .

المغرب لابن سعيد : ٢/١٤٣ .

رايات المبرزين لابن سعيد ، ص ٢٣٤ .

وانظر بقية المراجع عنه فى المغرب والرايات فى الصفحات المبينة أعلاه .

وفيه استفرغ شِعره ، وكابن عُبادة[١] وابن مالك[٢] والأسعد بن بِلّيطة[٣] وأبى العباس [أحمد بن قاسم المحدث[٤] ، رغم] اتصافه بكثرة الجبن وقلة الجود ؛ وعلى ذلك قصده العلماء والأدباء .

وصدمتْه خيلُ المرابطين فى آخر دولته وهو عليل علتَه التى مات منها ، فحاصروه وقاتلوه من مقا [مه فى][٥] قصبة المرية وهو يعالج الموتَ ويقول أثناء

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بالقزّاز . اختصه ابن بسام بفصل طويل فى الذخيرة (مجلد ٢ قسم ١) واختصه المقرى بمادة طيبة فى أزهار الرياض ، ٢/٢٥٢ . كان شاعر معن بن صمادح المقدم ، وهو غير عبادة بن ماء السماء . انظر : المغرب لابن سعيد : ٢/١٣٤ – ١٣٧ ، ورايات المبرزين لابن سعيد .

(٢) أبو بكر محمد بن مالك القرطبى ، اختصه ابن بسام فى الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢) ص ٢٤٥ وما بعدها بكلام طويل . وكان على براعته فى الشعر والنثر فقيراً معدماً لم تفارقه الحاجة حياته كلها .

(٣) الأسعد بن إبراهيم بن بليطة القرطبى الشاعر الناثر المتوفى فى حدود ٤٤٠/١٠٤٨ . ذكره ابن الفرضى ، ترجمة ٥٨١ ص ٢٢٨ – ٢٢٩ وابن خاقان فى المطمح ص ٨٣ – ٨٤ وابن بسام فى الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢) ص ٢٩٠ وما بعدها والمقرى فى النفح (طبعة أوربا) ١/٤٥٣ – ٤٥٥ وابن سعيد فى الرايات ص ١٩٧ . وقد كان فارساً باسلا فى نفس الوقت ، قال ابن بسام : « فارسُ جحفلٍ ، وشاعر محفل ، فجرى فى الميدانين ، وارتزق فى الديوانين » . وذهب دوزى (بنو عباد : ١/٢٠ ، هامش ٦٦) إلى أن بليطة هى الكلمة الإسبانية **billete** ومعناها البطاقة .

(٤) يغلب على ظنى أن أبا العباس المذكور فى الأصل مبتور الاسم هو ابن قاسم هذا ، وقد ذكره ابن بسام فى الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢) ص ٣٩١ . وابن الأبار يقتبس هنا من ابن حيان (راجع الذخيرة ، نفس القسم ، ص ٢٣٦ وما بعدها) ، وهو يقول فى ص ٢٣٩ : « ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت كأبى عبدالله الحداد وابن عبادة وابن الشّهيد ، وغيرهم ممن لم يعلّق بسواه سبباً . . » . وابن الشهيد هو أبو حفص عمر بن الشهيد . انظر عنه الذخيرة ، نفس القسم والمجلد ، ص ١٨٠ وما بعدها . وأعتقد أن ابن الشهيد هنا أصح من أبى العباس أحمد بن قاسم . وأضفت كلمة « رغم » للسياق .

(٥) أكملت هذه العبارة بما يقيم السياق . وقد وردت هذه الحكاية فى معظم مراجعنا نقلا عن ابن حيان ، ولكن كل واحد منها تصرف فيها وحكاها كما شاء (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ٢٤٠–٢٤١ . ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص٤٧ – ٤٨ . ابن عذارى ، =

[٨٠ – ب] ذلك : « نُغِّص / علينا كلُّ شيء حتى الموت ! » إلى أن هلك بعد ذهاب المرابطين عنه — وقيل : توفي وهم يحاصرونه في شهر ربيع الآخر سنة أربع وثمانين وأربعمائة — فكانت مدة إمارته بالمرية أربعين سنة ، أشبهَ في ذلك خالَه(١) عبدَ العزيز بن المنصور صاحب بلنسية ، فإنه وُلِّي سنةَ اثنتي عشرة وأربعمائة وتوفي سنة اثنتين وخمسين .

ومن شعر المعتصم وقد توفيت إحـــدى كرائمه فركب من قصره وأمر بمواراتها :

لما غدا القلبُ مفجوعاً بأسْوَدِهِ وفُضَّ كلُّ ختامٍ من عزائمِهِ
ركبتُ ظهر جوادي كي أسَلِّيَهُ وقلتُ للسيف : كن لي من تمائمِهِ

وله ، وكتب به إلى بعض حُرَمه في رقعة طيرها إليها في جناح حمامة :

وحمَّلتُ ذات الطوق مني تحيةً تكون على أفْقِ المرية مِجْمَرا
تُبلِّغ مِن وُدِّي إليكمْ رسائلاً بأعبقَ مِن نَشْرِ العبير وأعطرا

وكتب إلى ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار مراجعاً ومعاتباً :

وزهَّدني في الناس معرفتي بهم وطولُ اختباري صاحباً بعدَ صاحبِ
فلم تُرني الأيامُ خِلاًّ تَسُرُّني مباديه إلا ساءني في العواقبِ

= البيان المغرب : ٣/١٦٨) . وقد رأيت ابن خاقان يقول : « فأكثر القتال إنما كان تحت مجلسه الذي كان به مضجعه ، وفيه تألمه وتوجعه . . » فاسترشدت بهذه العبارة في تقويم ما أسقط ناسخ الحلة السيراء .

(١) الأصل : حاله ، وكذلك قرأها دوزى ، والصحيح : خاله ، لأن عبد الملك ابن عبد العزيز الملقب بالمنصور صاحب بلنسية كان خال أبي يحيى محمد بن معن بن صمادح هذا . (انظر : الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ص ٢٣٨) .

ولا قلتُ أرجوه لدفْع ملمةٍ   من الدهر إلا كان إحدى النوائب

وكتب إليه ابنُ عمار يسأله السراح وهو ضيف عنده :

يا واثقاً فَضَحَ السحا   بَ الجودَ فى معنى السَّماح

ومُطابقــاً يأتى وجو   هَ الجِدِّ مِن طرقِ المزاحْ

أسرفتَ فى برِّ الضيو   ف ، فخذ قليلاً فى السَّراحْ

فراجعه المعتصم بقوله ، وهو أشعر منه فى الجواب :

يا فاضلاً فى شــكرهِ   أصلُ المساء مع الصباحْ

/ هلا رفقت بمهجتى   عند التكلم فى السَّراحْ ؟ [١-٨١]

إن السماح ببُعــدِكمْ   والله ليس مِن السَّماحْ

وله فى جدول :

انظر إلى حسن هذا الماء فى صَبَبِهْ   كأنه أرقمٌ قد جَدَّ فى هربِهْ

كذا قال هذا البيت فرداً ، وقد تقدم ذكرُ الخلاف فى مثله : هل هو شعر أم لا .

وكان الذى بينه و بين المعتمد محمد بن عباد غير صالح ، فكتب إليه المعتمد وقد اتهمه بالسعى عليه عند يوسف بن تاشفين أمير المغرب :

يا مَن تَمَرَّس بى يريدُ مساءتى   لا تَقْرِضَنَّ فقد نصحتُ لمَنْدَمِ

مَن غرَّه منى خلائقُ سهلةٌ   فالسُّم تحتَ لِيَانِ مَسِّ الأرقمِ

ثم تحرك ابنُ تاشفين من العُدوة بعد وقيعة الزَّلاقة ، وأجاز البحرَ إلى الأندلس ، وتقدمه سير بن أبى بكر ، فلم يخرج إليه المعتمد لبطالة كان فيها منغمساً . وكانت أولَ وحشة وقعت بينهما . ثم توجهوا جميعاً إلى حصن

أَلْيِيطْ[1] من أعمال لورقة — وقد تغلب عليه النصارى — فخرج المعتصم ليلقاهم ويُنزلهم مؤدياً حقَّ ابن تاشفين ومَن معه ، فأخجله المعتمدُ بتياسُره عن طريق لقائه فكتب إليه :

يا بعيداً وإن دنا كم تمنيتُ قُربَكا
أنت حسبي من المُنى ليتني كنتُ حسبَكا

وتلاقيا بعد ذلك عند ابن تاشفين فى تلك الغزوة ، والمعتصمُ قد تزيَّى بحمل

---

(١) فى الأصل : الْبِيط ، وقد قومتها بما يتفق مع الرسم الجارى فى بقية مراجعنا العربية ، وهو لييط . وألييط أقوم ، لأنه أقرب إلى الرسم الإفرنجى Aledo وهو حصن كان بين لورقة ومرسية . وكان يوسف بن تاشفين بعد أن انتصر فى وقعة الزلاقة فى عبوره الأول ، قد صمم على المسير نحو طليطلة فى عبوره الثانى (ربيع الأول ٤٨١/ يونيو ١٠٨٨) ، ولكن هذا الحصن كان يقع فى الطريق ، وكان ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون قد حصنه ووضع فيه قوة تقدر بألف فارس واثنى عشر ألف مقاتل ، كانت تغاور نواحى مرسية ولورقة والمرية ، فأراد يوسف بن تاشفين الاستيلاء عليه ، ودعا ملوك الطوائف إلى أن يوافوه بقواتهم عنده ، ولكنه استبان من اختلافهم بعضهم مع بعض وعدم إخلاصهم فى الجهاد ما جعله يرفع الحصار عنه بعد أن كاد يستولى عليه ، فلم يكن قد بقى من القوات التى فيه إلا مائة فارس وألف راجل . وانسحب يوسف بن تاشفين وقد عول على خلع ملوك الطوائف ، وبعد انسحابه تبين ألفونسو السادس أنه لن يستطيع الدفاع عن الحصن إذا هاجمه المرابطون مرة أخرى ، فأخلاه وهدمه (٤٨٣ — ٤٨٤) .

انظر : روض القرطاس ، ص ٩٩ .

الحلل الموشية ، ص ٤٩ — ٥٠ .

مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة (تحقيق ليڤى پروڤنسال ، القاهرة ١٩٥٥) ص ١٠٨ — ١١٣ .

مقالنا : الثغر الأعلى الأندلسى وسقوط سرقسطة . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مجلد ١١ ج ٢ سنة ١٩٤٩ ، ص ٩١ — ١٤٣ .

ويوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (الترجمة العربية لمحمد عبد الله عنان) الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩١ — ٩٢ .

العمامة ولبس البُرنس يتقرب بذلك على عزمه ، فنظر إليه المعتمدُ ، وفهم المعتصم أنه يهزأ به وانصرف ؛ فضاحك المعتمدُ في ذلك مَن جالسه من وزرائه . وأهدى ذو الوزارتين أبو الحسن بن اليَسَع منهم عَشِيَّ ذلك اليوم مَنَّ نرجسٍ ، فكتب إليه المعتمد معرِّضاً بابن صمادح :

أزِف الصيامُ وزار نَوْرُ النَّرْجِسِ　　فلَقِيتُ زورتَه بحثِّ الأكؤسِ
في ليلة دارت عليَّ نجومُها　　حتى سَكِرْتُ بكفِّ قوتِ الأنفُسِ
خَوْدٌ تملَّكتِ الفؤادَ فريدةً　　بنَدَى الثنايا والمحيَّا المشمِسِ
/ وجعلتُ نُقْلِي ذِكْرَ مُوصِلِ زَفْرتي　　فجمعتُ أشتاتَ المُنى في مجلسي [٨١ - ب]
ولقد ذكرتُ فزاد عيني قُرَّةً　　هُونُ السِّبَال وخِزْيُ ربِّ البُرْنُسِ

وحكى أبو بكر بن اللبانة أن المعتصم كتب إلى المعتمد :

شكري لبرِّك شُكرُ الروضِ للمطرِ　　ونفْحُ بِشْري به أذكى من الزَّهَرِ
وجاءني مُخبرٌ عنه ، فقلتُ له :　　بالله قلْ وأعدْ يا طيِّبَ الخبرِ
يا واحداً عَلماً في كلِّ مَنْقَبَةٍ　　جَلَّتْ ، ويا ثالثاً للشمس والقمرِ
لئن حُرِمتُ لقاءً منك أشكرهُ　　لقد حللتَ سوادَ القلب والبصرِ

فراجعه المعتمد :

أنفحةُ الروضِ رقَّتْ في صَبَا السَّحَرِ　　مِن بعدِ ما بات والأنداءُ في سَمَرِ ؟
لا ، بل تحيةُ مَحْضِ الودِّ بَلَّغَها　　بَرٌّ شريفُ المعالي ماجدُ النَّفَرِ
أما لَعَمْرُ أبي يحيى لقد وصلتْ　　مِن بره صلةٌ أحلى من الظَّفَرِ
يا من وردتُ الوفاءَ الغَمْرَ مُرْتوياً　　مِن عَهده إذ يُساقي الناسَ بالغُمَرِ
أحرزتَ سرْوَ السجايا ثم قارنَهُ　　ظَرفُ اللسان اقترانَ الكأس بالوترِ

إذا اعتبرتُ من الأخلاق أنفَسَها كنتَ المنافسَ فيه السامى القدَرِ
عليكَ منى سـلامٌ لا يزالُ لهُ فرضٌ تؤديه آصالٌ إلى بُكَرِ

وقصده أبو الوليد النَّحْلى[1] فى أسمال دنسة ، والناس بالمَرِيَّة قد لبسوا البياض ، فكتب إليه :

أيا مَن لا يُضاف إليه ثانٍ ومَن فَتح العُلا باباً فبابَا
أيجمُل أن تكون سوادَ عيْنى وأبصر دون ما أبغى حجابَا
ويمشى الناس كلُّهمُ حَماماً وأمشى بينَهمْ وحدى غُرابَا ؟

فوصله المعتصم وكساه ، وكتب إليه مراجعاً :

[٨٢ – ١] وردتَ ولليلِ البهيم مطارفٌ عليكَ وهٰذى للصباح بُرودُ
وأنت لدينا ما بقيتَ مقربٌ وعيشُك سَلْسَالُ الجمام بَرودُ

١٢٦ — ابنه عبيد الله عز الدولة ، أبو مروان

كان أبوه المعتصم قد أنفذه فى آخر دولته رسولا إلى يوسف بن تاشفين — عند كونه بغرناطة — فاعتُقل وقُيد ، فكتب إلى أبيه :

أبَعدَ السَّنا والمعالى خُمولُ وبعد ركوب المَذاكى كُبولُ ؟

(١) ذكره ابن بسام فى الذخيرة (مخطوطة بغداد ، ورقة ٢٥٣ ا و ب) دون أن يعرف به ، بل لم يزد على ذكر اسمه إلا قوله : الأديب أبو الوليد المعروف بالنحلى ، وقال إنه كان نابغة دهره ونادرة عصره ، وقال إنه : « لم يصد دراهم ملوك عصره » ، « وكان يضحك من حضر ولا يبتسم هو إذا ندّر » ، ثم أورد طائفة من شعره وخبراً يدل على تقدير المعتمد بن عباد له .

ومِن بعدِ ما كنتُ حرًّا عزيزاً أنا اليومَ عبدٌ أسيرٌ ذليلُ ؟
حللتُ رســـولاً بغرناطةٍ فحلَّ بها بى خطبٌ جليـــلُ
وثُقِّفْتُ إذ جئتُها مرسَـــلاً وقد كان يكرَم قبلى الرسولُ
فقَدتُ المرية ، أكرِمْ بها فما للوصـــول إليها سبيلُ

فراجعه أبوه :

عزيزٌ علىَّ ، ونَوْحى ذليلُ على ما أقاسى ، ودمعى يسيلُ
لَقَطَّعَتِ البِـــيضُ أغمادَها وشقَّتْ بنودٌ وناحتْ طبولُ
لئن كنتُ يعقوبَ فى حُزنِه ويوسفَ أنتَ ، فصبرٌ جميلُ

ثم لم يزل المعتصم يتحيَّل فى تخليصه حتى أُخذ من حراسه وهُرِب به على البحر ، فوافى المرية وهُنِئ أبوه بخلاصه[1] . وبعَقِبِ ذلك توفى المعتصم ، وقد حاصره اللمتونيون وبارزوه بالعداوة .

وكان ابنه معز الدولة أحمد ولىَّ عهده والمرشحَ لمكانه من بَعده ، فعَهَد إليه أن يلحق ببلاد ابن حماد من شرقى العدْوة ، إذا سمع بخلع ابن عَبّاد ، فامتثل ذلك لأشهرٍ من وفاة أبيه .

وذكر أبو عامر السالمى عن معز الدولة مثلَ هذا ، وأنه وَلىَ بعدَ أبيه المعتصم ،

(١) كان أبو يحيى محمد بن معن المعتصم صاحب المرية من أشد أمراء الطوائف مكراً وحيلة ، وكان يرقب الحوادث بعد نزول المرابطين الأندلس ويجتهد فى أن يمكر بيوسف بن تاشفين لعله يتركه على إمارته . وكان يوسف عندما بدأ فى عزل ملوك الطوائف فى جوازه الثالث قد بدأ بغرناطة وصاحبها عبد الله الزيرى ، فاستنزله واحتل غرناطة فى شعبان ٥٨٦/ سبتمبر ١٠٩٠ ، فعجل المعتصم فأرسل ابنه عبيد الله هذا ليهنئ يوسف بن تاشفين بذلك ، فقبض يوسف على عبيد الله وأودعه السجن ، واجتهد أبوه فى خلاصه حتى تمكن من ذلك ، إذ هرّبه فى مركب نقلته من مالقة إلى المرية . وعقب ذلك مباشرة أرسل يوسف قائده عبد الله بن واسِينُوا للاستيلاء على المرية .

وبقى بالمرية إلى وقت القبض على المعتمد محمد بن عباد ، ثم ركب البحرَ على وجهه فى قِطعٍ أعدَّها لفراره ، وأسلم المريةَ وأعمالَها ، وذلك فى رمضان / من [٨٢-ب] سنة أربع وثمانين وأربعمائة — وقد قيل فى شعبان .

قال : وليومٍ آخر دخلها أصحاب ابن تاشفين ، وكان إذ ذاك يحاصر مُنْدُوشَر[1] على عشرين ميلا منها .

وقصد معز الدولة بِجَاية فأقام فيها تحت رعاية المنصور بن الناصر بن عَلَنَّاس ابن حماد بن بلقين بن زيرى بن مناد الصِّنهاجى وفى كنفه ، وقد كان ما بينهما قبل ذلك جميلا ؛ ويقال إن المنصور أنزله بِتِنِس من أعماله الغربية .

قال السالمى : وعز الدولة أبو مروان عبيد الله بن المعتصم كان رسول أبيه إلى ابن تاشفين . وذَكر اعتقالَه ، والأبياتَ التى خاطب بها أباه ، ومراجعتَه إياه ، ووصَف خلاصَه كما تقدم . قال : وبقى إلى أن فرَّ أخوه — يعنى معز الدولة إلى بجاية ، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذِمَّة كانت بينهما ، إلى أن انقرض أَمَدُه بين آسٍ وكاس . قال : وحضر مع الأمير يحيى بن أبى بكر غزوتَه إلى طليطلة[2] ،

---

(١) كتبها ابن عبد المنعم الحميرى (الروض المعطارَ رقم ١٧٧ ص ١٨٥) : مندوجر وقال إنها على مرحلة من المرية ، وقال ليڤى پروڤنسال فى تعليقه على الترجمة الفرنسية لنفس الكتاب (ص ٢٢٤ من الترجمة تعليق رقم ١) : هى Mondújar أو بالضبط Santa Fé de Mondújar ، قرية صغيرة تابعة لمركز المرية من مديرية المرية على ٢٠ كيلومتراً منها على نهر أَنْدَرَشْ Andarax .

(٢) الغالب أن المراد هنا يحيى بن أبى بكر بن على بن يوسف بن تاشفين ، وكان من قواد على بن تاشفين فى المغرب والأندلس . والحملة على طليطلة المشار إليها هنا كانت سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ — ١١١١ م ، وكان على بن يوسف بن تاشفين قد انتهز فرصة اشتغال ألفونسو السادس بالحرب مع زوجته أوراكا فسير جيشاً ضخماً نحو طليطلة ، وكان على يقود الحملة بنفسه ، فاستولى على كثير من المدن والقلاع والحصون ، منها مجريط ووادى الحجارة وطلبيرة ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على طليطلة .

فلما شارفها وضرب بساحتها أخبيته ، سقط أحدُ ألويته من يد حامله وانكسر الرمح ، فتطير قوم وتفاءل آخرون ، فقال عز الدولة :

لم ينكسر عودُ اللواء لطيرةٍ يُخشى عليك بها وأن تتأوّلا
لكن تحقّق أنه يندقّ فى نحر العدو لدى الوغى فتعجّلا

ونظير هذا ما ذُكر عن أبى الشَّمَقْمَق ، فى خروجه مع خالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيبانى إلى الموصل عندما قُلِّدَها ، فلما دخلها ومر بأول درب منها اندق اللواء ، فاغتم خالد لذلك وعَظُم عليه ، فقال أبو الشمقمق بديهاً يسليه عن ذلك ، وأجاد ما أراد :

ما كان مندقُّ اللواء لريبةٍ تُخشى ولا أمرٍ يكون مُزَيَّلا
لكنَّ هذا الرمحَ أضعفَ مَتْنَهُ صِغَرُ الولايةِ فاستقلَّ الموْصِلا

فسُرَّ خالد بما صدر منه فى الحين ، وسُرِّى عنه وأحسن إليه .

وقرأتُ فى بعض ما طالعته من أخبار ملوك الطوائف بالأندلس ، أن أبا بكر ابن اللبانة كتب إلى عز الدولة هذا ، لما توفى أبوه المعتصم وخُلع هو وسائر إخوته وقد وافاه منتجعاً :

/ يا ذا الذى هزَّ أمداحى بحِلْيَتِهِ وعَزَّه أن يهزَّ المجدَ والكرما [٨٣-١]
واديكَ لا زرعَ فيه [كنت][1] تبذُلُهُ فخذْ عليه لأيامِ المُنى سَلَمَا

فوجه إليه بما أمكنه ، وكتب معه :

= انظر : يوسف أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلدان ٧ و٨ سنة ١٩٥٩ — ١٩٦٠ ، ص ١٣٩ — ١٤٠) .

(١) أضاف دوزى (ص ١٧٦) هذه الكلمة ، وقال إنها غير واردة فى المخطوط . وبها يستقيم الوزن .

الجدُ يُخجل مَن يفديك فى زمنٍ ثنَاه عن واجب البر الذى علما
فدونك النَّزر مِن مُصْفٍ مودَّته حــتى يُوفيك أيام المنى السَّلَما

١٢٧ – أخوه رفيع الدولة بن المعتصم

ذكره أبو عمرو عثمان بن على بن الإمام[1] فى كتابه الموسوم بـ « سِمْط الُجمان وسِقط الأذهان » ولم يسَمِّه وكنّاه أبا يحيى ، وكذلك كنّاه أبو عامر السالمى فى تاريخه ، وكنّاه صاحبُ المطمَح « أبا زكريا » . ولم يكنْ فى بنى صمادح أشعر منه ، إلا أن الخمول أخنى على محاسنه ، و بقى إلى آخر دولة اللمتونيين .

وذكر أبو على حسن بن عبد الله الأشيرى فى كتاب « نظْم اللآلى فى فتوح الأمر العالى »[2] من تأليفه ، أن رفيع الدولة هذا كان بتلمسان أثيراً عند واليها حينئذ ، أبى بكر بن مَرْدَنِيش ، وذلك فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، والموحدون ،

---

(١) ترجم له ابن الأبار فى التكملة (رقم ١٨٣٣ جـ ٢ ص ٦٦١) وقال إنه من أهل شلب ونزل إشبيلية ، وقال إنه «كان من علماء الأدباء بليغ القلم واللسان معروفاً بالإجادة والإحسان . كان كاتباً متقدماً وشاعراً مجيداً ، له تأليف فى شعراء عصره . توفى بعد الخمسين وخمسمائة » . ويغلب أن الكتاب الذى أشار إليه ابن الأبار هو« سقط الجمان وسقيط المرجان » الوارد ذكره فى نفح الطيب ، وقد ورد ذكر هذا الكتاب فى كشف الظنون بصورة أخرى هى « سمط الجمان وسقط المرجان » .

انظر : پونس بوبجس ، رقم ١٨١ ص ٢٢٤ .

(٢) فى الأصل : الآمر العالى ، وهو خطأ . وأبو الحسن على بن عبد الله الأشيرى كاتب وشاعر من أهل تلمسان ، توفى سنة ٥٦٩/١٠٧٣ – ١٠٧٤ ، وكتابه هذا فى تاريخ الموحدين ، والأمر العالى إشارة إلى الدعوة الموحدية . وقد ذكر صاحب « الحلل الموشية » نفس الكتاب وأورد قطعة مما نقل ابن الأبار منه هنا (انظر ص ١٠٧ من الحلل) .

أعزهم الله ، إذ ذاك بالجبل المعروف بما بين الصخرتين[1] يحاصرونها . وحُكى أن ابن أخيه أبا يحيى بن عز الدولة كان معه ، وأنهما قالا شعراً فى ذلك شاركهما فيه ابن الأشيرى ، وسيأتى بعد — بحول الله — عند ذكر ابن عز الدولة فى المائة السادسة .

وبما أنشده السالمى لرفيع الدولة هذا :

سطا ظبىُ الخميلةِ ، يالقَومى ! على أسَدِ العرينةِ واستطالا
فأوتَرَ قوسَ حاجبِه اختيالاً وفَوّق من لواحظـــه نبالا

وله :

وأهيف لا يلوى على عَتْب عاتبٍ ويقضى علينا بالظنون الكواذبِ
يحكِّمُ فيـــنا أمرَه فنطيعهُ ونحسب منه الحكمَ ضربةَ لازبِ

وله :

مالى وللبـــدر لم يسمح بزورته لعـــله ترك الإجمالَ أو هجرا

---

(١) الإشارة هنا إلى دور من أدوار الصراع بين تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين آخر أمراء المسلمين من المرابطين وعبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين . وكان عبد المؤمن يجوس بقواته من هرغة وهنتاتة وغيرهما من قبائل الموحدين بنواحى شمال المغرب الأقصى يجمع طاعة القبائل وتاشفين يلاحقه ليفسد خططه . وفى أول ذلك العام (سنة ٥٣٩) استولى عبد المؤمن على جبال غمارة وضم هذه القبيلة إلى سلطانه ، ثم انتقل إلى الغرب وحاصر تلمسان ، وكان يحكمها أبو بكر ابنُ القائد المرابطى الكبير مزدلى بن سلنكان . ونزل جيش عبد المؤمن عند « الجبل المعروف بما بين الصخرتين » المذكورهنا ، وهو موضع بين قمتين عاليتين تعرفان بصخرتى طَرْنى . والبكرى يسمى الجبل نفسه جبل طرنى ، بفتح الطاء وكسرها . ومن هذا المرتفع استطاع عبد المؤمن أن يراقب جيش تاشفين . وقد استنجد تاشفين بحليفه ابن حماد الصنهاجى صاحب بجاية ، فأمده بجيش يقوده طاهر بن لَبّاب ، فانهزم أولا ، ثم انضم إلى عبد المؤمن والموحدين .

انظر : الحلل الموشية ص ١٠٧ وترجمته الإسبانية التى قام بها .

AMBROSIO HUICI Y MIRANDA : *Colleción de Crónicas Arabes de la Reconquista*, Tomo I, Al-Hulal al Mawšiyya (Tetuán, 1952) pp. 156 - 157.

إن كان ذاك لذنبٍ ما شعرتُ بهِ ... فأكرمُ الناسِ من يعفو إذا قدرا

[٨٣ – ب] / وله :

هٰـذى ديارُهُمُ التى ذَكَّرتَنِي ... عهدَ الصبا وحديثَـــه المعسولا
ما كان أجملَ عهدَهم وفِعالَهمْ ... لو كان فِعلُك يا زمانُ جميلا

وله :

حبيبٌ إذا ينأى عن العين شخصُهُ ... يكاد فؤادى أن يطير من البَيْنِ
ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا ... كأنَّ على قلبى تمائمَ من عينى

وله :

ألا أيهـا الظبيُ الذى راق وجهُهُ ... ورقَّت حواشيه ، وناهيك من حُسنِ
يظن أناسٌ أننى بك مغرمٌ ... لعَمْرُ الهوى ، ما أخطأ القومُ فى الظنِّ

وله :

وعَلِقْتُه حلوَ الشمائلِ ماجناً ... خَنِثَ الـكلام مرنَّحَ الأعطافِ
ما زلتُ أُنصِفُهُ وأوجبُ حقَّهُ ... لـكنه يأبى من الإنصافِ

وله ، وقد رُوِيَت لغيره :

سلِ الركبَ عن نجدٍ فإن تحيةً ... لساكنِ نجدٍ قد تحمَّلها الركبُ
وإلا فما بالُ المطيِّ على الوَجَا ... خفافاً ، وما للريح حَرْجَفُها(١) رطْبُ ؟

وله :

أبا العلاء كؤوسُ الراح مُترَعةٌ ... وللنَّـــدامَى سرور فى تعاطيها

(١) الحرجف الريح الباردة ، وريح حرجف : باردة . اللسان : ٣٩١/١٠ . والوجا : السرعة .

وللغصـــــون تثنٍّ فوقها طربًا   وللحمائم سَجْـــــعٌ فى أعاليها
فاشرب على النهر من صهباء صافيةٍ   كأنما عُصرتْ من خـــد ساقيها

وله :

باكرْ إلى القَصْفِ أبا عامرٍ   فإنما نُجْحُ الفتى فى البُــكَرْ
مِن قبلِ أن يمسحَ كفُّ الصَّبا   دمعَ الغوادى من خدود الزَّهَرْ

هذا البيت مثل قول عبد الجبار بن حَمْديس الصقلى فى قصيدة يمدح بهـا الرشيدَ عبيدَ الله بن المعتمد محمد بن عباد أولها :

قُمْ هاتِها مِن كفِّ ذاتِ الوِشاحْ   فقد نَعَى الليلَ بشيرُ الصباحْ
واحلُلْ عُرى نومِكَ عن مقلةٍ   تَمُقُلُ أحداقًا مِراضًا صِحاحْ
/خَلِّ الــكرى عنك، وخذ قهوةً   تُهدِى إلى الروح نسيمَ ارتياحْ [٨٤-١]
هـــذا صَبوحٌ وصَباحٌ فمـا   عذرك فى ترك صَبُوحِ الصَّباحْ
بادرْ إلى اللذات واركبْ لهـا   سوابقَ اللهوِ ذواتِ المِراحْ
من قبل أن ترشُفَ شمسُ الضحى   ريقَ الغوادى من ثغور الأقاحْ

أردت هذا البيت .

ولرفيع الدولة يعتذر عن وسيم فى إنسان عينه ما يشينه :

قالوا : حبيبُك فى إنسان مقلتهِ   مثلُ الحبابة إذ تطفو على الراحِ
فقلتُ : بينهما فى ذلكم شبهٌ   كلتاهما تبعثان الشُّكْر للصاحى

وله :

لئن منعوا عنى زيارةَ طيفِهمْ   ولم أُلْفِ فى تلك الديار مقيلا
فما منعوا ريحَ الصَّبا سَوْقَ عَرْفِهِمْ   وقد بَــكرتْ تَنْدَى علىَّ بليلا

ولا منعونى أن أعُلَّ بذكرهمْ فؤاداً بما يجنى الصدودُ عليلا

وله يعاتب :

أفدى أبا عمرٍو وإن كان جانياً علىَّ ذنوباً لا تُعَدَّد بالعتْبِ
فما كان ذاك الودُّ إلا كبارقٍ أضاء لعينى ثم أظلم عن قربِ

وله فى المدح :

تَرمى إذا عَلِقتْ أسيافُه عَلقاً كأنه فى خدود البيض توريدُ
يهتز عِطفاك فى يوم الوغى طرباً كأن وقْعَ سيوفِ الهندِ تغريدُ
تُعْنَى بذكرك أزمانٌ وألسنةٌ كأن ذِكرَك إيمانٌ وتوحيدُ

وله :

إذا ما الأمرُ أخفق فيه سعىٌ وضاق مرامُه من كلِّ بابِ
فلا تقْنَطْ فإن الله يأتى بفتحٍ لم يكن لك فى حسابِ

١٢٨ — المتوكل بن المظفر بن المنصور ، أبو محمد

عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيبى بن الأفطس[1] .

[٨٤ — ب] قال ابن حيّان : كان عبد الله بن مسلمة رجلا من مكناسة ،/ وكان سابور العامرى — أحد صبيان فائق الخادم فتى الحَكم ، يعنى المستنصر بالله — قد انتزى ببطليوس وثغر الغرب ، فصحبه عبد الله وظاهَرَه ، ورمى إليه بأموره ، فدبَّر أعمالَه ، وتزيَّد فى الغَلَبة عليه حتى صار كالمستبد به . فلما هلك سابور

(١) لم يرد ذكر لبنى الأفطس بين التجيبيين الأندلسيين الذين ذكرهم ابن حزم فى الجمهرة .

ورث سلطانَه بعدَه ، فاستولى على الأمور ، وتلقب بالمنصور . ثم أفضى الأمرُ لابنه محمد ، وتلقب بالمظفر(١) .

ولابن حيان أيضاً قول أبسط من هذا فى أوَّلية بنى الأفطس ، يأتى ذكرُه إن شاء الله تعالى . قال : ومن النادر الغريب انتماؤه فى تُجِيب ؛ وبهذه النسبة مدحتْه الشعراء إلى آخر وقته ، منهم ابنُ شرف القيروانى حيث يقول :

يا ملكاً أمستْ تُجِيبٌ به تحسُد قحطانَ عليها نِزَارْ
لولاك لم تَشْرَقْ مَعَدٌّ بها جلَّ أبو ذَرٍّ فجلَّتْ غِفَارْ

وكانت وفاة المظفر سنة ستين وأربعمائة(٢) ، فولِّىَ بعده ابنُه يحيى بطليوسَ وتسمى بالمنصور . وكان أخوه عمر المتوكل بِيَابُرَة(٣) وما إليها من الثغر الغربى ،

(١) إليك تسلسل الحكام فى بطليوس وما تبعها من غرب الأندلس (يابرة ، الأشبونة ، شنترين ، قلمرية وما إليها) :

أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة (المنصور) : تولى ٤١٣/١٠٢٢ وتوفى فى ١٧ ربيع الثانى ٤٣٧/٣٠ ديسمبر ١٠٤٥ .

أبو محمد بن عبد الله .... بن مسلمة (المظفر) : تولى ٤٣٧/١٠٤٥ وحكم حتى ٤٥٦/١٠٦٣ .

يحيى المنصور : تولى ٤٥٦/١٠٦٣ وتوفى ٤٦٠/١٠٦٧ .

عمر المتوكل أخو يحيى ، أعطاه أبوه يابرة : تولى ٤٦٠/١٠٦٧ ونازع أخاه يحيى وحاربه حتى قتله المرابطون سنة ٤٨٧/١٠٩٤ . توفى هذا فأصبح عمر المتوكل أميراً على إمارة بطليوس كلها .

(٢) هذا هو القول السائد ، ولكن بريتو بيبس عثر على عملة باسم ابنه وخليفته يحيى المنصور مؤرخة فى سنة ٤٥٦ ، ولهذا عدَّلنا سنة وفاته فى الجدول فى التعليق السابق .

Cf : PRIETO VIVES, *op. cit.* p. 66.

(٣) يابرة Évora بلدة فى جنوب البرتغال الحالية ، وهى عاصمة مديرية الميتيجو Almetejo على ١١٧ كيلو متراً بالسكة الحديدية من الأشبونة .

انظر : الروض المعطار ، ص ١٩٧ من النص العربى وص ٢٣٩ من الترجمة الفرنسية ، تعليق رقم ١ .

ثم استوثق له(١) الأمرُ بموت أخيه يحيى — بعد منافسة طويلة بينهما كادت تفسد حالها — واحتل حاضرةَ بطليوس ، وجعل ابنَه العباس عمر(٢) بيابرة وصار إليه أمرُ طليطلة وقتاً ، وجلّ شأنُه .

ولما عظم عيث الطاغية أذفونش بن فرذلند ، وتطاول إلى الثغور ، ولم يقنع بضرائب المال ، انتدّب للتطوُّف على أولئك الرؤساء القاضى أبو الوليد الباجى ، يندبهم إلى لم الشعث ومدافعة العدو ، ويطوف عليهم واحداً واحداً ، وكلهم يصغى إلى وعظه(٣) .

وازدلف خلال ذلك إلى سبتة أميرُ المغرب حينئذ — أبو يعقوب يوسف ابن تاشفين اللمتونى — حِسبةً ورغبةً فى الجهاد ، وقد دانت له بلادُ العدوة ، وسأل من سَقُّوت بن محمد صاحبِ سبتة أن يُبيح له فُرَض(٤) الإجازة إلى الأندلس ، فأبى وتمنع من ذلك ، فأفتى الفقهاء بقتاله لصده عن سبيل الله ، فقُتل هو وابنُه فى خبر طويل . وفتح الله على ابن تاشفين سبتة ، وأمكنه الحصول على مراده بذلك(٥) .

وعلم المعتمدُ محمد بن عباد تصميمه على نيته ، فخاطب جارَيْه : صاحبَ

---

(١) أى لعمر المتوكل . (٢) يبدو أن لفظ عمر هنا زائد .

(٣) اجتهد أبو الوليد الباجى فى دعوة ملوك الطوائف إلى الاتحاد وترك التشاحن للوقوف أمام العدو المشترك ، فلم يصغ إليه واحد منهم ، بل كانوا « يستبردون نزعته » كما تقول النصوص .

(٤) جمع فرضة ، والمراد طنجة وسبتة .

(٥) سبق أن ذكرنا خبر سقوت ، ويكتبه ابن خلدون بالكاف . ونضيف إلى ما أوردناه عن ابن خلدون ما رواه ابن بسام من كلام ابن حيان فى الذخيرة (القسم الثانى ، مخطوطة بغداد ص ٤٠٦ — ٤١١) وهو أوسع ما لدينا عنه وعن ملكه وملك أبنائه فى طنجة وسبتة .

وانظر كذلك المعلومات المستقاة من النقميات التى أوردها بريتو بيبيس فى كتابه الآنف الذكر :

PRIETO VIVES, *op. cit.*, p. 117 - 118.

بطليوس وصاحبَ / غرناطة ، فى تحريك قاضييْها إلى حضرته للاجتماع بقاضى [٨٥ - ا]
الجماعة بقرطبة . فوصل من بطليوس قاضيها أبو إسحاق بن مُقَانا ، ومن غرناطة قاضيها القُلَيْعِى ، واجتمعا فى إشبيلية بالقاضى أبى بكر بن أدهم ، وانضاف إليهم الوزير أبو بكر محمد بن أبى الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون[1] . وتوجهوا جميعاً إلى ابن تاشفين ، على شروط لا تُتعدى إلى غيرها . ووصلوا إلى الجزيرة الخضراء — وعليها يزيدُ بن المعتمد ، الملقب بالراضى — ثم أجازوا البحرَ منها ، واجتمعوا بابن تاشفين مرةً بعد مرة . وتفاوضوا فى مكانٍ تنزله العساكر ، فأشار ابن زيدون بجبل طارق ، وسُئِل الجزيرةَ الخضراء فلم يُوجِد سبيلا إليها ، فما قوبل بشكر ولا لوم ، وأُصدِر هو وأصحابه دون علم بالمراد . ومشاورةُ الفقهاء من ابن تاشفين تستتب ، وفتواهم لا تغب ، فلم يُرَعْ إلا الشروعُ فى الإجازة ، ولم يُشْعَرْ إلا والجزيرةُ الخضراء فى مثل حلقة الخاتم من الجيوش الكثيفة[2] .

---

(١) المعلومات التى يقدمها ابن الأبار هنا تلقى ضوءاً على الظروف التى عبر فيها يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . ومن الثابت أن عمر المتوكل بن الأفطس كان أول من استغاث بيوسف بن تاشفين نظراً لأن بلاده كانت تتعرض للخطر المباشر ، إذ أن ألفونسو السادس استولى على قلمرية وشَنْتَرة وغيرها من بلاده وأصبح من الواضح أن هدفه التالى بطليوس نفسها ، فأرسل كتاباً كتبه ابن أيمن عن لسانه ، ثم أرسل كتاباً ثانيا ، وبدأ يوسف بن تاشفين يستعد للمسير . ويبدو كذلك أن فقهاء كثيرين من الأندلس وفدوا عليه يستصرخونه . وعندما رأى ابن عباد ذلك خطا الخطوة التى يذكرها ابن الأبار بعد أن كان يوسف بن تاشفين قد قرر العبور إلى الأندلس . وقد تطورت الظروف بعد ذلك تطوراً بعيداً كما ترى من التفاصيل التى يوردها صاحب الحلل الموشية وابن عذارى وابن بسام وابن الخطيب والأمير عبد الله الزيرى فى مذكراته وغيرهم من مؤرخينا ، وكذلك ما يرد فى المراجع النصرانية من تفاصيل . والموضوع كله فى حاجة إلى دراسة جديدة .

(٢) كان هذا العسكر الأول بقيادة القائد اللمتونى داوود بن عائشة . وأحسن تفصيل لذلك ذكره الأمير عبد الله الزيرى فى مذكراته المعروفة بالتبيان (تحقيق ليڤى پروڤنسال ، القاهرة ١٩٥٥) ص ١٠٢ - ١٠٣ .

وفُتحت لهم أبوابُها ، وأُخرجت إليهم مرافقُها ؛ فطيّر الراضى حَماماً إلى أبيه بذلك ، فأذنه بتركها والارتحال عنها إلى رُنْدَة ، ففعل .

واطردت الإجازة ، ثم تحركت العساكر إلى إشبيلية ، ورَدِفَهم ابنُ تاشفين ونزل بظاهرها . وبلغه على أثر ذلك موتُ ابنِه أبى بكر[1] ، فخيَّره حتى لَهَمَّ بالانصراف عن وجهه ، ثم آثر الجهاد ، وأنفذ مَزْدَلِي[2] إلى مراكش .

وبعد قَراره بظاهر إشبيلية لحق صاحب غرناطة فى نحو ثلاثمائة فارس ، وأخوه تميم من مالقة فى نحو مائتين ، فنزلا على ضفة النهر الأعظم . ثم لحق لصاحب المرية عددٌ من الخيل صُحبة وَلَدِه ، وتقدم ابنُ تاشفين مستعجلا فى حركته إلى بطليوس ، وابن عباد وراءه . فخرج إليهم المتوكل ، وأوسعهم بِرًّا وتضييفاً ، وتلَومَت العساكر بظاهرها فى المضارب أياماً ، إلى أن قصدهم أذفونش وتلاقوا

---

(١) أبو بكر سير بن يوسف بن تاشفين ، يبدو أنه كان أكبر أبناء يوسف بن تاشفين ، وكان قد رشحه لولاية العهد ، ولكنه مرض قبل رحيل أبيه يوسف إلى الأندلس للمرة الأولى ، فتركه مريضاً فى سبتة ، وقبيل معركة الزلاقة بلغه خبر موته ؛ فرشح بعده لولاية العهد ابنه الثانى على بن يوسف . انظر :

FRANCISCO CODERA Y ZAIDIN, *La Familia real de los Benitexufin en Estudios criticos de Historia Arabe Espanola*, segunda serie, Madrid 1917 p. 75 - 166.

(٢) أبو عبد الله مزدلى بن سلنكان قائد مرابطى كبير من قبيلة لمتونة ، اشترك فى جميع أعمال يوسف بن تاشفين العسكرية فى الأندلس ، وقاد الجيوش أيضاً فى أيام على بن تاشفين . توفى فى معركة عنيفة سنة ١١١٥/٥٠٨ مع جيوش مملكة قشتالة بعد الحملة التى وجهها إلى طليطلة ومنطقتها فى سنة ٥٠٧ هـ .

انظر بحثنا عن سرقسطة والثغر الأعلى فى عهد المرابطين . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مجلد ١١ ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ ، ص ١١٣ — ١١٤ وكذلك كتاب « نظم الجمان » لابن القطان بتحقيق الدكتور محمود مكى ، ط. تطوان سنة ١٩٦٣ ، ص ١٩ ، حاشية رقم ١ .

بالزَّلاَّقة[١] ، على مقربة من بطَلْيَوْس ، يومَ الجمعة فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، فكان الظهور للمسلمين ؛ وفى ذلك يقول ابن جمهور[٢] أحد أدباء إشبيلية :

لم تعلمِ العجم إذ جاءت مصممةً ... يومَ العروبة أن اليوم للعربِ

ونكل المتوكل يومئذ وغيره من الرؤساء ، وكان فيه للمعتمد ظهورٌ مشهور .

ثم صدر ابن تاشفين / ظافراً ، وأجاز البحر إلى العدوة صادراً ، وتحرك إلى [٨٥ - ب] الأندلس بعدُ مجاهداً لأعدائها ، وناظراً فى خلع رؤسائها ، والمعتمدُ إذ ذاك أعظمُهم شوكةً وأشهرهم نجدةً ؛ فلماقُبِض عليه لم تقم لسائرهم قائمة ، ومُزِّقوا كل ممزَّق . وفى ذلك يقول ذو الوزارتين أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن أحمد ، المعروف بابن الحاج اللُّورقى[٣] :

(١) الزلاقة موضع صغير يسمى اليوم Sagrajas على أحد نهيرات وادى آنه المسمى نهر جيريرو Guerrero على نحو ١٢ كيلومترا شمالى بطليوس Badajoz ، وكان أول من حدد مكان الموقعة بالدقة زايبولد :

Cf : SEYBOLD, *Die geographische Lage von Zalláka und Alárcos.* Revue Hispanique. Tome XV, 1906, p. 647,

ثم أكد تحقيق زايبولد رامون مننذ پيدال :

R. MENÉNDEZ PIDAL, *La Espana del Cid.* I, 539.

وانظر : الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ، رقم ٨٤ ص ٨٣ وما يليها وص ١٠٣ من الترجمة الفرنسية تعليق رقم ١ .

(٢) عبد الله بن أحمد بن جمهور بن سعيد بن يحيى بن جمهور ، يكنى أبا محمد : أديب وفقيه من أئمة أهل الفقه فى إشبيلية خلال القرن السادس الهجرى ، فقد ولد سنة ٥١٦ وتوفى سنة ٥٩٦ وقد ولى الصلاة بجامع ابن عَدَبَّس فى إشبيلية وكان إلى ذلك بصيراً باللغة متحققاً بعقد الشروط .

انظر التكملة لابن الأبار ، رقم ١٤١٧ ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

(٣) « جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافرى المعروف بابن الحاج ، ذو الوزارتين : من أهل لورقة ، عداده فى رؤساء الأدباء . كان حياً سنة ٤٩٤ . وكان شاعراً وناثراً شجاعاً » . المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى لابن الأبار ، رقم ٥٩ ص ٦٩ .

وانظر عنه : المغرب لابن سعيد : ٢/٢٧٧ وتعليق الدكتور شوقى ضيف .

كم بالمغارب من أشلاء مخترَمٍ وعاثرِ الجدِّ مصبورٌ على الهونِ
أبناء معنٍ ، وعبادٍ ، ومسلمةٍ والحميريَّيْن : باديسٍ وذى النونِ
راحوا لهم فى هضاب العز أبنية وأصبحوا بين مقبورٍ ومسجونِ

وكان سير بن أبى بكر — أحد رؤساء اللمتونيين — هو الذى حاصر إشبيليةَ حتى استولى عليها ، وقبض على المعتمد وتقلد إمارتَها بعده دهراً ، ثم تولى محاصرةَ بَطَلْيَوْس إلى أن دُخلت عنوةً يومَ السبت لثلاث بقين من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة — وقيل : يومَ السبت السابع من صفر ، وقيل : فى شهر ربيع الأول منها — وقُبض على المتوكل فقُيد ، وأهين بالضرب فى استخراج ما عنده ، ثم أزعج عنها ، وقُتل هو وابناه الفضل والعباس على مقربة منها ذبحاً ، وكان ذلك مما نُعى على ابن تاشفين . وقيل إنه رغب فى تقديم ولديه هذين بين يديه ليحتسبهما ، ثم قام بعد قتلهما ليصلى ، فبادره الموكلون به وطعنوه برماحهم حتى فاضت نفسه وغربت شمسه . وقد رثاهم أبو محمد عبد المجيد بن عبدون[(١)] بقصيدة فريدة ، أنشدَناها شيخُنا أبو الربيع بن سالم الكلاعى[(٢)]

(١) لا نحتاج هنا إلى التعريف بأبى محمد عبد المجيد بن عبدون ورائيته المشهورة فى رثاء بنى الأفطس ، ولكننا نشير إلى الفصل الطويل الذى اختصه به ابن بسام فى الذخيرة (القسم الثانى ، مخطوطة بغداد) ص ٤١٤ وما بعدها . وفى هذا الفصل من شعر ابن عبدون ما يفوق رائيته جمالا وشاعرية .

(٢) أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان بن أحمد بن عبد السلام الحميرى والكلاعى البلنسى الأصل ، يكنى أبا الربيع ويعرف بابن سالم : أكبر أهل الفقه والرواية فى شرق الأندلس خلال القرن السادس الهجرى ، وهو أستاذ ابن الأبار وقد ترجم له ترجمة واسعة فى التكملة . والكلاعى هو الذى استحث ابن الأبار على تأليف معجمه فى تلاميذ شيخهم أبى على الصدفى ، وقد اضطر إلى مغادرة بلده بلنسية عندما تهددتها الأخطار المتلاحقة سنة ٥٨٧ ، وقال فى ذلك قصيدة طويلة لا تدل على شاعرية جديرة بالذكر . وكتبه ومؤلفاته فى الفقه والحديث والتاريخ كثيرة جداً أحصاها من ترجموا له ، وتوفى مستشهداً فى معركة دارت بين الموحدين والنصارى عند بلدة أنيشَه أو أنيجة على سبعة أميال من بلنسية (يقول ابن الأبار إنها على ثلاثة =

بحاضرة بلنسية مراراً . قال : أنشدَناها القاضى أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون[١] فى مسجده بإشبيلية ، قال : أنشدَناها الوزيرُ الكاتب أبو محمد بن عبدون ، وأولها :

الدهر يفجع بَعد العين بالأثرِ فما البكاء على الأشباح والصور

يقول فى آخرها :

ويحَ السَّماح وويحَ الباس لو سَلِما والمجد والدين والدنيا على عُمرِ[٢]

/ سَقَتْ ثرى الفضلِ والعباسِ هاميةٌ تُعزى إليهم سَماحاً لا إلى المطرِ [٨٦-ا]

وأنشدنى أبو الربيع شيخُنا — وحدثنى لفظاً — قال : حدثنى الفقيه أبو عبد الله محمد بن سعيد شيخُنا — يعنى ابن زرقون — عن الوزير أبى بكر ابن القبطورنة[٣] ، أنه حدثه أنه دخل على نجم الدولة سعد بن المتوكل — وهو

= فراسخ من بلنسية) فى ١٠ ذى الحجة ٦٣٤ ، وقد أبدى شجاعة عظيمة فى هذه المعركة .
وقد نشر من كتبه : الاكتفا فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفا – الجزء الأول بعناية هنرى ماسيه فى الجزائر سنة ١٩٣١ . وقد ساق الناشر قبل النص نصوص تراجم الكلاعى من الإحاطة لابن الخطيب ومركز الإحاطة لأبى البقاء محمد بن إبراهيم بن محمد البَشْتَكى المصرى (مخطوطة باريس) وابن الأبار فى التكملة رقم ١٩٩١ ص٧٠٨ والزيادات فى طبعة جنذالث پالنثيا وألاركون ص ٥٤٠ ، وشمس الدين الذهبى فى « تذكرة الحفاظ » (طبعة حيدر أباد) رقم ١٤ ج ٤ ص ٢٠٩ ، والسيوطى فى « طبقات الحفاظ » (جوتنجن ١٨٣٣) رقم ١٥ ج ٢ ص ٥٦ ، وابن فرحون فى « الديباج المذهب » (فاس ١٣١٦) ص ١٢٥ ، والمقرى فى نفح « الطيب » (أوروبا) : ٢/٥٠٢ و٦٥٥ و٧٦٨ ، وپونس بويجس ، رقم ٢٣٩ ، ص ٢٨٣ .

(١) محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد الأنصارى ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن زرقون : من أهل إشبيلية وسكن بعض سلفه بطليوس ، من كبار فقهاء القرن السادس الهجرى ومن أساتذة ابن الأبار ، وقد ترجم له ترجمة واسعة فى التكملة (رقم ٨٢٤ ج ١ ، ص٢٥٦ – ٢٥٨) ، وذكر شيوخه ورواياته العالية وقال إنه ولى قضاء شلب وقضاء سبتة فحُمدت سيرته وعرفت نزاهته ، وكان إلى ذلك يقرض الشعر ويجيد النثر ، حسن الشارة والهيبة صبوراً على الجلوس للإسماع مع الكبْرة . ومؤلفاته فى الفقه كثيرة ، ذكر بعضها ابن الأبار . ولد بشريش ١٥ ربيع الأول ٥٠٢ (وفى رواية أخرى سنة ٥٠١ بدون تحديد الشهر) وتوفى فى إشبيلية منتصف رجب ٥٨٦ .

(٢) المراد عمر المتوكل بن الأفطس .

(٣) أبو بكر عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسى من أعلام كتاب الأندلس =

محبوس فى سجن المُلَثَّمة ، بعد غَلَبتهم على أبيه المتوكل وقتْلهم إياه وابنيه العباسَ والفضلَ — فلما رآه أجهش باكياً ثم أنشده :

بأبيك ، قُدِّس روحُه وضريحُه   يا سعدُ ساعدنى ، ولستَ بخيلاَ
واسفَحْ علىَّ دموعَ عينك ساعةَ   وامتُنْ بها حُمراً تفيض هُمولا
إن يصبح الفضلُ القتيلَ فإننى   أمسيتُ من كمدٍ عليه قتيلا
كم قد وقيتكم الحِمامَ بمهجتى   وحميتُ شَوْلَ[1] علائكم معقولا
قدمتُ نفسى للمنايا دونكم   بدلاً فلم تُرِدِ المنونُ بديلا

ومن شعر المتوكل ، وكتب به إلى أخيه يحيى المنصور من يابُرة مع نثر ، وقد بلغه أنه قُدح فيه بمجلسه :

فما بالهم ، لا أنعم الله بالَهم ،   ينوطون بى ذَمَّا ، وقد علموا فضلى
يسيئون فىَّ القولَ جهلاً وضَلَّةً   وإنى لأرجو أن يسوءهم فعلى

= خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى والنصف الأول من السادس ، فقد توفى بعد سنة ٥٢٠/١١٢٦ . تولى الكتابة لعمر المتوكل بن الأفطس ثم للمرابطين وتمتع بلقب الوزير الكاتب مثل أخويه أبى محمد طلحة وأبى الحسن محمد . وقد كتب الدكتور محمود على مكى فقرة طويلة عنه فى مقاله الذى أشرنا إليه : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١١٧ وهامش ١ و ٢ وذكر مراجع ترجمة حياته : ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى من مخطوطة بغداد ، ص ٤٦٨ — ٤٨٠ . ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٧٤٣ . القلائد لابن خاقان ، ص ١٤٨ — ١٥٥ . المغرب لابن سعيد : ١/٣٦٧ — ٣٦٨ . المطرب لابن دحية : ص ١٨٦ — ١٨٧ . الإحاطة لابن الخطيب ، بتحقيق محمد عبد الله عنان : ١/٥٢٨ — ٥٣١ . المقرى : نفح الطيب (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ٤/٢٥٠و٦/٤٨ . وذكر كذلك تفسيرى سيمونيت **(Glosario,97)** ودوزى : ***Supplément*, II, 302** لمعنى لفظ القبطورنة واشتقاقه من كلمة **caput** (أى رأس ، وفى الإسبانية القديمة **cap**)، و**torno** أى مستدير أو دائر ، فمعناه على هذا : ذو الرأس المستدير .

(١) الشول هنا يراد به البقية ، والمعنى المراد أننى حميت مابقى من علائكم وأنا فى حالة عجز ، ويمكن أن يكون المراد أيضاً : إننى حميت طَرَف عزكم مصونا (انظر : اللسان ١٣/٢٩٨ و ٤٨٦) .

طَغَامٌ لئامٌ ، أمْ كرامٌ برغْمِهِمْ سواسيةٌ ؛ ما أشبهَ الحُولَ بالقُبْلِ(١)
لئن كان حقا ما أذاعوا فلا خَطَتْ إلى غايةِ العلياءِ مِن بعدِها رِجْلى
ولم أَلقَ أضيافى بوجهٍ طلاقةٍ ولم أمنَحِ العافين فى زمن المحْل
وكيف وراحى درسُ كلِّ غريبةٍ وورْدُ التُّقى شَمِّى ، وحربُ العِدا نُقْلِى
ولى خلُقٌ فى السُّخْط كالشَّرْيِ طعمُهُ وعند الرضا أحلى جنًى من جَنَى النحل
وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما أعيى الصناديدَ من قَبْلى
/ وما أنا إلا البدر تنبح نورَهُ كلابُ عِدًا تأوى اضطراراً إلى ظِلِّى [٨٦ - ب]
فيا أيها الساقى أخاه على النوى كؤوس القِلى ، مهلاً رُويدَك بالعَلِّ
لتطفئَ ناراً أُضرمتْ فى صدورنا فمِثلِىَ لا يُقلَى ، ومثلُك لا يَقْلِى
ألستُ الذى أصفاك قِدْماً ودادَهُ وألقى إليك الأمرَ فى الكُثْر والقُلِّ ؟
وصيَّرك الذُّخرَ الغبيطَ لدهرِهِ ومَن لىَ ذخراً غيرك اليومَ ؟ لا ، مَن لى ؟
وقد كنتَ تُشْكِينى إذا جئتُ شاكياً فقل لى : لمن أشكو صنيعَك بى ؟ قُل لى !
فبادرْ إلى الأولى ، وإلا فإننى سأشكوك يومَ الحشرِ للمَلِك العدلِ

وله وقد ارتقب قدوم أخيه عليه من شَنْتَرِين(٢) يومَ الجمعة فوفد عليه يوم السبت :

---

(١) القَبَل نوع من الحَوَل . قال أبو زيد : الأقبل إذا أقبلت حدقتاه على أنفه ، والأحول الذى حولت عيناه جميعاً . وقال الليث : القَبَل فى العين إقبال السواد على المحجر ، ويقال : بل إذا أقبل سواده على الأنف ، فهو أقبل . وحُولٌ وقُبْلٌ جمع أحول وأقبل . اللسان : ١٤/٥٨–٥٩ .

(٢) شنترين Santarem فى البرتغال الحالية ، تقع على ٦٧ كيلو متراً شمالى الأشبونة . انظر : الروض المعطار ، رقم ١٠٤ ص ١١٤ و ص ١٣٩ من الترجمة الفرنسية ، وتعليق رقم ١ ، وانظر المادة عنها فى دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ ص ١٥٩ .

تخيَّرتِ اليهودُ السبتَ عيداً وقلنا : فى العَرُوبَةِ[1] يومُ عيدِ
فلما أن طَلعتَ السبتَ فينا أطلتَ[2] لسانَ مُحتجٍّ اليهودِ

ومن مليح ما فى هذا المعنى :

وحبَّبَ يومَ السبتِ عندى أننى ينادمنى فيه الذى أنا أحببتُ
ومن أعجب الأشياء أنى مسلمٌ حنيف ، ولكنْ خيرُ أيامىَ السبتُ

وكتب أبو محمد بن عبدون إلى المتوكل ، وقد انسكب المطر إثر قحط خيف قبل ذلك ، واتفق أن وافَى بَطَلْيَوْس حينئذ مغنٍّ محسنٌ يعرف بأبى يوسف :

ألمَّ أبو يوسفٍ والمطـرْ فياليت شـعرى ما يُنتظَرْ ؟
ولست بآبٍ وأنت الشهيدُ حضورَ نديِّك فى من حضرْ
ولا مَطلعى وسْطَ تلك السما ء ، بين النجوم وبين القمرْ
وركضىَ فيها جيادَ المُدا م محثوثةً بسياطِ الوترْ

[٨٧ – ١] / فبعث إليه المتوكل مركوباً وكتب معه :

بعثتُ إليك جَناحاً فَطِرْ على خفيةٍ من عيون البشرْ
على ذُلُلٍ من نِتاج البُروق وفى ظُلَلٍ من نسيج الشجرْ
فحسبىَ عمَّن نأى مَن دنا فمن غاب كان فِدا مَن حضرْ

وتوجه إلى شنترين ومعه أبو محمد بن عبدون ، فتلقاه ابن مُقَانا قاضى

(١) العروبة اسم يوم الجمعة فى الجاهلية .
(٢) فى الأصل :
فلما أن طلعتِ الشمس فينا أطلتِ لسان محتج اليـهود
وهو خطأ ، فقومته .

حضرته ، وأنزله وقدم طعاماً ، ثم قعد بباب المجلس ملازماً له إلى الليل ، والمتوكل محتشم منه . فخرج أبو محمد — لمّا أبرَمَه — إلى بعض أصحابه ، وقد أعد له مجلس أنسٍ ، فقعد يشرب معه ؛ وقد وجّه من يرقب انفصالَ ابن مقانا ، فلما عرّفه بذلك بعث إلى المتوكل بقطيع خمر وطبق ورد وكتب معهما :

إليْـكَها فاجْتَلِها منـــيرةً　　وقد خبا حتى الشهابُ الثاقبُ
واقفةً بالباب لم تأذن لها　　إلا وقد كاد ينام الحاجبُ
فبعضها من المخاف جامدٌ　　وبعضها من الحياء ذائبُ

فقبلها وكتب إليه :

قد وصلتْ تلك التى زَفَفْتَها　　بِكرًا ، وقد شابتْ لها ذوائبُ
فهُبَّ حتى نستردَّ ذاهباً　　مِن أُنسنا ، إن استُرِدَّ الذاهبُ

وقرأتُ فى « كتاب الذخيرة » لابن بسام : أخبرنى الوزير أبو طالب بن غانم قال : لا أنسى والله خط المتوكل بهذين البيتين فى ورقة بَقْلة الكرنب ، وقد كتب إلىّ بهما من بعض البساتين :

انهض أبا طالب إلينـــا　　واسقط سقوط الندى علينا
فنحن عِقْدٌ بغـــير وُسْطَى　　ما لم تكن حاضراً لدينا

وحكى غيره أنه كتبهما بطرف غصن ، وروى البيت الأول :

أقبل أبا طالب إلينـــا　　وقَعْ وقوعَ الندى علينا

[٨٧ - ب] ١٢٩ — / عبد الملك بن هُذَيل بن رزين - ذو الرياستين ، حسام الدولة أبو مروان

وَلِىَ بعدَ أبيه الحاجبِ عزِّ الدولة أبى محمد هُذَيْل بن عبد الملك بن خلف ابن لبّ بن رزين شنتمريةَ الشرق موضع إمارة سلفه ، وكان ظهورهم فى سنة إحدى وأربعمائة ، أولَ افتراق الجماعة وانبعاث الفتنة ، ويعرفون ببنى الأصلع ، وانتماؤهم فى هوّارة .

وقد ذكر ابنُ حيّان طرفاً من خبرهم فقال : وأبو محمد هذيل بن خلف ابن لبّ بن رَزِين — المعروف بابن الأصلع — صاحب السَّهْلة ، موسطة ما بين الثغر الأعلى والأدنى لقرطبة . [كان من أكابر برابر الثغر][1] ، ورث ذلك عن سلفه ، ثم سَما لأول الفتنة إلى اقتطاع عمله [والإمارة لجماعته][2] ، والتقيُّل لجاره إسماعيل بن ذى النون فى الشرود عن سلطان قرطبة ، فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيره من جميع من انتزى فى الأطراف[3] ، وتمرس به الحاجبُ منذر بن يحيى ، مُدْرِجاً له فى طىّ من استتبعه[4] واشتمل عليه من أصاغر أمراء

(١ و ٢) أسقط ابن الأبار أو ناسخه هذه العبارة من كلام ابن حيان ، على أهميتها هنا . راجع نص ابن حيان فى الذخيرة لابن بسام ، القسم الثالث (مخطوطة جايانجوس المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ فى مدريد ، ورقة ١٢٠ ا) .

(٣) ورد هنا عن ابن بسام (نفس المخطوطة والصفحة) : « غرباً وشرقاً وقبلةً وجوفاً ، إلا أن هذيل هذا مع تعززه على المخلوع هشام لم يخرج عن جماعته ، ولا وافق الحاجب منذراً ولا جماعته المتمالئين على هشام فى شىء من شأن سليمان (المستعين) عدوّه ، إلى أن ظُفِر بهشام ، فسلك هذيل مسلكهم ، فرضى منه سليمان بذلك ، وعقد له على ما فى يده لعجزه عنه ، فزاده هذا بعاداً منه » ، ثم يستمر الكلام كما عند ابن الأبار .

(٤) الأصل : اتبعه ، والتصويب من الذخيرة .

الثغر ، فأبت نفسه البُخوع له والانضمام إليه ، فردّ أمرَه وصدَّه ، وصار ندَّه ، وأجاره مِنْعَةَ معقله[١] .

قال : وليس فى ذلك الثغر أخصب بقعة من سَهْلته[٢] — المنسوبة إلى بنى رزين — فى اتصال عمارتها ، فكثر ماله . وكان مع ذلك شابا جميل الوجه ، صار إليه أمر والده منبعثَ الفتنة وهو فتى مع العشرين من سِنه . وأطال ابنُ حيان فى وصفه بالقسوة والفظاظة ورفعة الهمة ، فاقتصرتُ من ذلك على ما أثبتُّ .

وهذيل هذا هو عم هذيل والد أبى مروان المذكور . وبعدَه وَلِىَ أخوه عبدُ الملك بن خلف أبو مروان — ويعرف بعبود — ثم وَلِىَ ابنُه هذيل ، ثم ابنُه عبد الملك ، ثم ابنُه يحيى وعليه انقرض مُلكهم .

---

(١) ترك ابن الأبار هنا قطعة كبيرة من كلام ابن حيان لها أهمية خاصة لذلك التاريخ . وقد أوردها ابن عذارى فى الجزء الثالث من البيان ، ص ١٨٢ ، فأغنى ذلك عن تكرارها هنا .

(٢) شنتمرية الغرب أو سهلة بنى رزين Santa María de Albarracín توصف فى الجغرافية العربية للأندلس على أنها كانت من كبار معاقل كورة شنتبرية Santaver ، وهى كورة كانت تمتد من حدود كورة سرقسطة الجنوبية الغربية إلى كورتى وادى الحجارة وطليطلة ، وكانت تعتبر منطقة عسكرية من مناطق الثغر الأدنى أو الأوسط وقاعدته العسكرية فى مدينة سالم ، وكانت عاصمة الكورة أيام الإمارة والخلافة بلدة شَنْتَبَرِيَّة Santaver ثم انتقلت إلى أُقْلِيش Ucles ، وبعد سقوط هذه فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون أصبحت عاصمتها شنتمرية الشرق التى عرفت من ذلك الحين باسم شنتمرية بنى رزين أو سهلة بنى رزين ، وهى تقع اليوم فى شرق مديرية تيروال Teruel على نهر جايو El Gallo أحد نهيرات نهرتاجه وهى غير بعيدة عن مجرى النهر الأبيض Guadalviar أحد نهيرات نهر توريا الذى يسمى بالنهر الأحمر . وقد عرفت المنطقة بالسهلة نظراً لكثرة أنهارها ووفرة مياهها ، والبلد نفسه واقع وسط تلال ومرتفعات كانت عامرة بالحصون التى بناها الخلفاء لتحصين منطقة الثغر الأدنى ، وهذا ما ساعد هذيل بن رزين ثم ابنه على الاستبداد فى هذه الناحية .

Cf : JACINTO BOSCH VILA. *Historia de Albarracín y su Sierra.* Tomo II, *Albarracín Musulmán* (Teruel, 1959, pp. 33-80.

وكان أبو مروان — مع شرفه وأدبه — متعسفاً على الشعراء ، ومتعسراً بطلو بهم من ميسور العطاء ، وضعيف منظومه أكثر من قويه . وكانت وفاته سنة ست وتسعين وأربعمائة . وقد صار إليه من أعمال بلنسية بعضها ، ووَلِىَ بعدَه ابنهُ فأقام يسيراً ، وتغلّب على ما بيده ابنُ تاشفين(١) بعد أن أقام هو وأبوه دعوتَه فى أعمالهما . ومن شعره يفخر :

أنا مَلْك تجمّعتْ فىَّ خمسٌ　　　كلُّها للأنام مُحْيٍ مُميتُ
[٨٨ - ١] / هى : ذهن ، وحكمة ، ومضاء ،　　　وكلام فى وقته ، وسكوتُ

وله مجاوبًا :

رغِبتم وأرغبنا كمُ وهيَ الخمرُ　　　فمن لم يكن سكرانَ فليكنِ السُّكرُ
إليكم فإنى فى الوغى والندى فتًى　　　هو البحر إن أعطى ، و إن صال فالدهرُ

(١) ناقش بوسك بيلا فى كتابه المذكور فى الهامش السابق سلسلة الأمراء من بيت بنى رزين التى يذكرها ابن الأبار ، وهو يذكر منهم خمسة هم :

هذيل أبو محمد بن خلف بن لب بن رزين ، وهو أول من استبد بالسهلة .

أبو مروان بن هذيل (وهذيل هذا هو ابن أخى هذيل المذكور أولا) .

أبو مروان عبد الملك بن خلف أخى هذيل الأول ، ويعرف بعبود .

هذيل بن عبد الملك بن خلف .

يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن خلف .

ويرى بوسك بيلا أن ابن الأبار خلط بين الأسماء ، وأن الحقيقة أنه لم يملك من بنى هذيل إلا ثلاثة هم :

هذيل بن محمد بن خلف بن لب بن رزين .

وأبو مروان عبد الملك بن هذيل الذى يتحدث عنه ابن الأبار هنا ، ثم يحيى بن عبد الملك هذا.

وقد استند على ما ورد فى الذيل الذى نشره ليڤى پروڤنسال بعد نص البيان المغرب لابن عذارى ، ج ٣ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ، وتحقيقات دوزى وإيزيدرو دى لاس كاخيجاس **Isidro de las Cagigas** وغرسية بالديابليانو **L. García Valdeavellano** وپرييتو بيبس وغيرهم .

Cf : J. BOSCH - VILA, *op. cit.* pp. 113 - 117.

وله :

شأوتُ أهلَ رَزِينٍ غيرَ محتفلٍ   وهم ، على ما علمتم ، أفضلُ الأممِ
قومٌ إذا حوربوا أفنَوْا ، وإن سئلوا   أغنَوْا ، وإن سوبقوا حازوا مدى الكرم
جادوا فما يَتعاطى جُودَ أنملهم   مدُّ البحار ولا هَطّالةُ الدِّيَمِ
وما ارتقيتُ إلى العليا بلا سببٍ   هيهات ! هل أحدٌ يسعىَ بلا قدمِ ؟
فمَن يَرُمْ جاهداً إدراكَ منزلتى   فليَحْكِنى فى الندى والسيف والقلمِ

وله :

مَن كثَّر الجَهْدَ[1] يرى سَعْدَه   يصعد حتى ينتهى حدَّه
ومَن أذلَّ المالَ عزَّت بهِ   أيامُه وانصرفتْ جُنْدَه[2]
فاهدمِ بناءَ البخلِ وارفُضْ به   مَن هدمَ البخلَ بنى مجدَه
لا عاش إلا جائعاً نائعاً[3]   مَن عاش فى أمواله وحدَه

وله يصف روضاً :

وروضٍ كساه الطلُّ وشياً مجدَّدَا   فأضحى مُقيماً للنفوس ومُقْعدَا
إذا صافحَتْه الريح ظلتْ غصونُهُ   رواقصَ فى خُضرٍ من العَصْبِ مُيَّدَا
إذا ما انسيابُ الماء عاينتَ خِلتَهُ ،   وقد كسَّرتْه راحةُ الريح ، مِبردَا
وإن سكنتْ عنه حسِبتَ صفاءَهُ   حُساماً صقيلاً صافىَ المتنِ جُرِّدا
وغنَّتْ به وُرْقُ الحمائمِ حوْلَنا   غِناءً يُنَسِّينا الغَريضَ ومعبَدَا

---

(١) الذخيرة (قسم ٣ ، المخطوط المذكور) ص ٢٢ ا : من كثَّر الجُنْدَ

(٢) كذا فى الأصل بوضوح ، ولكن المعنى غير مقبول ، ثم إن الرَّوِىّ « جنده » لا يمكن أن يكون منصوباً لو تركنا الشطر على هذه الصورة . وربما أمكننا إصلاح هذا الشطر بعض الشيء لو قلنا : « أيامه أو نَصَرَتْ جنده » أو « لو نصرت جنده » .

(٣) فى الأصل : نسايعا ، وفى الذخيرة : نايعا . والنائع هو المائل . جاء فى اللسان : سئلت هند ابنة الخُسّ : ما أشد الأشياء ؟ فقالت : ضرس جائع يقذف فى مِعًى نائع (اللسان : ١٠/ ٢٤٤) . وهو إتباع يراد به توكيد المعنى .

فلا تجفُوَنَّ الدهرَ ما دام مُسعداً ومُدَّ إلى ما قد حباك به يدَا
وخذها مُداماً من غزالٍ كأنهُ ، إذا ما سعى ، بدرٌ تحمَّل فرْقدَا

[٨٨ – ب] / وله :

أدِرْها مُداماً كالغزالةِ مُزَّة تَبِينُ لرائيها وتأبَى على اللمسِ
وتبدو إلى الأبصار دون تجسُّمٍ على أنها تَخفَى على الذهن والحِسِّ
إذا شعشعت في الكأسِ خِلتَ حَبَابَها لآلئَ قد رُفِّعن في لَبَّةِ الشمسِ
موكلة بالهَمِّ تهزم جيشَهُ بجيش الأمانى والمسرة والأُنسِ
فإن شئت قل فيها أرق من الهوى وإن شئت قل فيها أرق من النفسِ

وله في النسيب :

أنحى على جسمى النحولُ فلم يدَعْ متوهَّماً من رسمه المعلومِ
عبثتْ به أيدى الصبا فكأنه سرٌّ خفيٌّ في ضميرِ كتومِ

وله :

يزهدنى(1) في الزهد عين مريضةٌ يُمَرِّضنى من لَحْظها ما أعَلَّنى
ولم يُبق نَفْسى غيرُ عطفة شادنٍ عسانى أفدِّيه بها ولعلَّنى
شكوتُ إلى فيه الذى بى من الظما فأنهلَنى عذبَ الرُّضاب وعلَّنى

وله :

دع الدمعَ يُفْنِ الجفنَ ليلةَ ودَّعوا إذا انقلبوا بالقلب لا كان مدمَعُ
سَرَوْا كاغتداء الطير ، لا الصبرُ بعدَهم جميلٌ ، ولا طولُ الندامة ينفعُ

---

(١) كذا في الأصل وفي الذخيرة (قسم ٣ ، جايانجوس ، ورقة ٢٢ ا) . وقد جعلها دوزى (ص ١٨٤) : تُزَهِّدُنى .

أضيقُ بحَمل الفادحات من النوى | وصدرى من الأرض البسيطة أوسعُ
وإن كنتُ خَلاّعَ العِـذار فإننى | لبستُ من العليـاء ما ليس يُخلعُ
إذا سَلَّتِ الألحاظ سيفاً خَشِيتُـهُ | وفى الحـرب لا أخشى ولا أتوقعُ

وله :

برح السـقم [بى ، فليس صحيحاً | مَن رأت عينُه عيوناً][1] مِراضَا
إنّ للأعين المِراضِ سهاماً | صـيَّرتْ أنفُسَ الورى أغراضاً

وله فى شمعة :

رُبَّ صفراءَ تردَّتْ | بِرداءِ العاشقينـا
مثلَ فِعل النـارِ فيها | تفعـلُ الآجالُ فينا

وحدثنى القاضى أبو عامر نذير بن وهب بن نذير[2] الفهرى — ودارُ سلفه شنتَمرية المنسوبة إلى بنى رزين — / غيرَ مرة بلفْظه ، قال : حدثنى أبى أنه كان [٨٩ – ١] بشنتمرية مُعلِّم كُتاب يؤدبهم ، ويَؤُمُّ فى مسجدين : أحدهما يصلى فيه نهاراً والثانى ليلا ، فكتب إلى الحاجب ذى الرئاستين أبى مروان عبد الملك بن الحاجب ذى المَجْدَين عز الدولة أبى محمد هذيل بن رزين[3] يسأله التقديم فى المسجد الجامع للصلاة فى دَوْلَةٍ مع سائر الأئمة ، فوقَّع له فى مكتوبه :

---

(١) بياض فى الأصل ، والتكلمة من الذخيرة ، نفس القسم والصفحة .

(٢) أبو عامر نذير بن وهب بن لب بن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن وهب بن نذير بن وهب بن نذير الفهرى ، من أهل بلنسية ، يكنى أباعامر (٥٥٨–٦٣٦) : من أعلام فقهاء بلنسية ومن أساتذة ابن الأبار ، اشتهر بكتابة الشروط والبراعة فيها . ولى قضاء الكور ، وحدَّث فى آخر عمره وسمع منه ابن الأبار وأجاز له ، ولما تغلب النصارى على بلنسية قصد دانية وولى قضاءها إلى أن توفى بها فى العشر الوسط من شعبان من السنة التى ذكرناها ، بعد ستة أشهر من سقوط بلنسية ، وكان ابن الأبار إذ ذاك فى تونس .(التكملة ، رقم ١٢١٧ ص ٤٢٤ – ٤٢٥).

(٣) هذا يدل على أن عبد الملك بن هذيل خلف أباه هذيل ، مما يؤيد ماذهب إليه بوسك بيلا من خطأ ابن الأبار فى سياقة نسب بنى رزين .

أيُطيقُ تأديباً وعقـــدَ إمامةٍ   في مسجدين وجامعٍ إنسانُ ؟
اثبُتْ على إحدى المراتب لا تَزِدْ   فمن الزيادة يُتَّـــقى النُّقصانُ

وحكى لى غيرُه أن أبا مروان هذا كانت له نجدة وصرامة وإقدام ؛ قرّب جندَه من نفسه ، وتحبب إليهم واختلط بهم ، حتى كان لا يمتاز منهم فى مركب ولا ملبس . ووقائعه فى الثغر مشهورة ، وجرى عليه خطْب كبير فى صفر سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة قبل وفاته بيسير : دبَّر عليه صهرُه عبيدُ الله القائمُ بأذْكُون(١) ، وأراد اغتيالَه مع طائفة من رجاله ليرث مكانَه(٢) ، وكان قد أحضره لدعوةٍ

(١) قد تقرأ أيضاً : أدكون بالدال المهملة ،وقد تقرأ بفتح الدال أو الذال أو تسكينهما . وقد ذهب دوزى إلى أن المراد موضع يسمى Alacón إلى شمال شرق Albarracín (سهلة بنى رزين أو شنتمرية الشرق) . وقال بوسك بيلا إنها اليوم تابعة لمركز Montalbán فى مديرية ترْوال Teruel .

(٢) لم تحدد المراجع تاريخاً لذلك الحادث ، ولكن يبدو أن ذلك كان فى أخريات أيامه . وقد توفى حسام الدولة أبومروان عبد الملك بن هذيل بن رزين يوم الاثنين ٩ شعبان ٤٩٦/١٨ مايو ١١٠٣ عن سن عالية ، نحو الثمانين . وقد حكم من وفاة أبيه هذيل سنة ٤٣٦/ من ٢٩ يوليو ١٠٤٤ إلى ١٨ يوليو ١٠٤٥ ، أى أنه حكم ٦٠ سنة هجرية (٥٩ ميلادية) ، فهو على هذا أطول أمراء الطوائف عهداً ، وإن كانت إمارته من أقلها اتساعاً وأهمية . ويرجع طول حكمه إلى حصانة معاقله أولا ثم إلى ابتعاده عن دوامة الحوادث التى أحاطت بإمارته ، فقد عاش عصر الصراع الطويل بين أمراء الطوائف والممالك النصرانية ، وعاصر ألفونسو السادس والسِّيد القمبيطور ودخول المرابطين الأندلس ، ولم يكن له هم إلا الحفاظ على نفسه ومصالحه دون أن يسدى أية معاونة لجيرانه المسلمين . وخلفه ابنه يحيى فلم يحكم إلا سنة واحدة . وإليك تواريخ أهم حوادث هذه الفترة فى السهلة وبلنسية ومرسية :

٤٨٥/١٠٩٢ : استيلاء المرابطين على الپونت Alpuente .

١٥ رجب ٤٩٥/٥ مايو ١١٠٢ : عودة بلنسية إلى المسلمين بدخول القائد المرابطى مزدلى إياها .

٤٩٦/١١٠٣ : الجواز الرابع الأخير ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

ذو الحجة ٤٩٦/سبتمبر ١١٠٣ : عزل أبى عبد الله مزدلى عن بلنسية وإقامته حاكماً لتلمسان ، وإقامة أبى محمد عبد الله بن فاطمة حاكماً لبلنسية ونواحيها وقائداً لقوات المرابطين فى شرق الأندلس. =

احتفل فيها مع جماعة ، منهم أبو عيسى بن لَبُّون صاحب مُرْبيطَر[1] . فلما أمكنتهم الغِرّة فيه بأخذ الشراب منه ، وثبوا عليه وخبطوه بسيوفهم حتى أثخنوه جراحاً . واتفق أن كانت أخته حاضرة — وهى زوج عبيد الله هذا — فصعدت إلى عِلِّيّة هناك وصرخت : « واقتيلاه ! » ؛ فتبادر الناس لتعرُّف القصة ، ودخلوا على أبى مروان و به رمق ، فأرادوا قتل قاتليه بأجمعهم ، فأمرهم بترك صهره وابنه والقبض عليهما ؛ ولم يزل يعالَج من جراحه إلى أن برئ وصحّ ، وقد غيَّرت من شكله وشانت وجهه ، فأمر بصهره فقُطعت يداه ورجلاه وسُملت عيناه وصُلب ، وأمر بقطع رجل ابنه وخلّى سبيله .

= ٨ رجب ٤٩٧ / ٩ أبريل ١١٠٤ : دخول القائد المرابطى أبى محمد عبد الله بن فاطمة شنتمرية الشرق ونهاية حكم بنى رزين بعزل يحيى بن عبد الملك .

انظر : « ذيل مشتمل على نص بعض أوراق من تاريخ مبتور الأول والآخر ، ومجهول الاسم والمؤلف فى أخبار دول ملوك الطوائف بالأندلس » ، ذيل على الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى ، ص ٣١٠ .

الحلل الموشية ، ص ٦٣ — ٦٥ .

E. LÉVI - PROVENÇAL. *La Toma de Valencia por el Cid, en Al-Andalus,* XIII, 1948, pp. 155 - 156.

R. MENÉNDEZ PIDAL. *La Espana del Cid,* II, 576 - 582.

J. BOSCH VILA. *op. cit,* 170 - 173.

(١) مُرْبِيطَرْ .. هكذا ضبطها ليڤى پروڤنسال ، والأصح مُرْبِيطْرُ وتكتب أيضاً مُرْبَاطَر ، بالإسبانية Murviedro من اللاتينى Muri veteris ومعناه الأسوار القديمة ، وظلت تسمى بهذا الاسم حتى سنة ١٨٧٧ ثم استبدل بالاسم الأيبيرى ثم الرومانى الذى كان يطلق على الموضع وهو Saguntum (حاليا Sagunto) وهو بلد على ٢١ كيلومتراً شمالى بلنسية ، فى الطريق إلى قسطليون Castellón de la Flana ، وقد اشتهرت فى القديم بمسرحها الرومانى الذى لا زال باقيا إلى اليوم ، وقد ذكرها ياقوت فى معجم البلدان : ٤٨٦/٤ . والبلد مشهور اليوم بمصانع الحديد التى فيه ، وهى الثانية فى الأهمية فى إسبانيا . انظر الروض المعطار ، رقم ١٧١ ص ١٨١ والترجمة الفرنسية ص ٢١٧ وهامش رقم ٥ . وذهب رامون منندذ پيدال إلى أن أصل الاسم اللاتينى Murus Vetulus .

وقد استبد بأمر مربيطر أبوعيسى بن لَبّون الذى سيتحدث عنه ابن الأبار بعد ذلك .

١٣٠ – محمد بن أحمد بن إسحاق بن زيد بن طاهر القيسى ، أبو عبد الرحمن

قرأت فى تاريخ أبى بكر محمد بن عيسى بن مُزَيْن الكاتب — وأبوه عيسى هو مخلوع المعتضد عباد بن محمد من شِلْب ، وكان صهره — أن ابن طاهر — يعنى أبا بكر أحمد بن إسحاق والد أبى عبد الرحمن(١) — كان من أعلام تُدْمِير(٢) / وبياضها ، فاستبد بها إلا أنه لم يَعْدُ اسمَ الوزارة فيها والمظالم ، إلى أن مات . [٨٩ – ب]

وخلفه ابنُه [أبو] عبد الرحمن محمد ، فتمادت حالُه على رسم أبيه ووَسْمه فى المظالم ، إلى أن أخرجه عنها أبو بكر بن عمار فى قصص طويلة سنة إحدى وسبعين وأربعمائة .

وقرأتُ بخَطِّ القاضى أبى القاسم بن حُبَيْش فى بعض معلقاته من تاريخ أبى مروان بن حَيّان : خاف زُهَيْر — يعنى الصقلبى صاحب المرية ومرسية — انتقاضَ أبى عامر بن خطاب رئيس مرسية عليه إن تركه خَلْفَه ، لصَغْوه إلى

(١) قال ابن بسام فى الذخيرة (قسم ٣ مخطوطة جايانجوس ، ورقة ٥ ا) : «كان أبو عبد الرحمن بن طاهر أحد من جمع الحديث إلى القديم ، وانتهى من رياسة الأقلام إلى سياسة الأقاليم . واتفق لبنى طاهر بالفتنة المطفية رياسة كورة مرسية فى خبر قد أضربت عنه لطوله ، ولأنى قد أوردته فى كتابى المترجم بسِلْكة الجواهر من ترسيل أبى طاهر »، مما يلقى ضوءاً على أولية أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر .

(٢) تدمير هى مرسية وإقليمها ، سماها العرب باسم حاكمها القوطى Theodomiro أى تدمير الذى يقول الضبى والعذرى أنه ابن غبدوش ويجعله ساقدرا Ergobados ، وكان من أنصار غيطشة وانضم إلى المسلمين أول الفتح ، وقد دخلت المنطقة أيام عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة ٩٥/٧١٤ فى حكم المسلمين بناء على صلح نصه معروف لنا . وقد حوّلت الناحية إلى كورة وأُلغى نظامها الخاص فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وجعلت بلدة مرسية عاصمة الكورة . انظر كتابنا : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١١٢ وما بعدها .

مجاهد — يعنى العامرى — مناوئه ، فأسكنه معه المريةَ دون أن يغيِّر له حالا ولا نعمة ، وترك بمرسية ابنَ طاهر ندَّ ابن خطاب ومناوئَه ، بعد أن انطلق ابنُ طاهر من يد مجاهد بفدية غليظة ، وعاد إلى حاله ونعمته ، وأعانه زهير على لَمِّ شعثه ووفى بعهده ، فاطمأنتْ قَدَمُه بمرسية فيما بعد ، وارتفعت حاله ، وبَعُد عنها عدوُّه ابنُ خطاب آخر الأيام ، فلم يُقضَ له رجوع إليها إلى أن مضى لسبيله .

قال : وفى صدر شهر رمضان — يعنى من سنة خمس وخمسين وأربعمائة — بلغت قرطبةَ وفاةُ الشيخ أبى بكر أحمد بن طاهر ، المتأمِّر قديمًا ببلده مرسية ، بعد طول عِلته الفالجية . وكان من آخر مَن أنظِر إلى هذه المدة من بقايا رؤساء الكُوَر ، فكان يُعتدُّ — بعد انقراض دولة الصقالبة العامريين — فى جملة المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر وولده عبد الملك ، على استبدادِه عليهما ، وامتناعِه من تنفيذ مالا يوافقه من أمرهما ، وإرسالِه إليهما خلال ذلك مفارقتَه[1] عما فى يده من بلده ، وقيامِه بالإنفاق على من ينزله من جنده ، وتفرُّدِه بقَوْد جند البلد ، وجباية ماله ، يرسل من فضله[2] إلى كل منهما فى وقته ما فارقه عليه ، فلا يمكنهما خلافه ، لقوة مَنْكِبِه ، ووفورِ ماله ، واجتماعِ أهل بلده على طاعته ، واعترافهم بحقه ، قد أصلح الله به على جماعتهم ، وعمرت بلادهم بجميل سيرته . ثم اتسعت مكاسبه حتى صار نصف بلده ضيعةً له ، وأحسن ارتباط الجند بإنصافهم والإحسان إليهم ، فأحبوه وناصحوه ، فاستقام أمره وضخمت نعمته .

وعضده ابنُ صِدْقٍ له نجيبٌ لبيبٌ يُسمى محمدًا ، ويُكنى أبا عبد الرحمن ،

---

(١) عبارة « فارق فلان فلاناً على كذا » كانت تستعمل فى ذلك العصر بمعنى أنهما اتفقا على شىء قبل أن يفترقا ، وفى الغالب يكون معناها أن أحدهما يؤدى إلى الآخر مالا معلوماً نظير ترك بلده له . والمفارقة هنا هى المال المتفق عليه .

(٢) أى يرسل من فضل — أو بقية — ذلك المال .

[٩٠ – أ] سلك سبيله / واتبع سيرته ، وزاد عليه بفضل علم وأدب ، فحجبه أيام تعطله وسدّ مسدَّه . فلما مضى لسبيله قعد مكانه وجَبَر ثَلْمه ، واستقام الناس له كأنهم ما فقدوا أباه . وهلك هذا الشيخ عن نحو تسعين سنة .

قال : وآلُ طاهر ذوو بيتٍ عامر ، وعدد وافر ، يفخرون بالعُروبية ، وينتمون فى قيس عَيْلان . انتهى كلام ابن حَيّان ، وهذا خلاف معتقده فى بنى خطاب ، وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله .

وكان أبو عبد الرحمن من أهل العلم والأدب البارع ، يتقدم رؤساء عصره فى البيان والبلاغة ، ويماثل الصاحبَ إسماعيلَ بن عباد وأمثاله فى الكَتْب عن نفسه ، ورسائلُه مدونة ، ولأبى الحسن بن بسام فيها تأليف سماه بـ « سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر » . وروى الحديث عن أبى الوليد بن مِيقُل (١) ، وقد أخذ عنه واستجازه أبو على بن سُكَّرة (٢) لابنه ، وذكره أبو القاسم بن بشكوال فى تاريخه ، وحدثنى المُقْرئ المعمر أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن

(١) ذكر ذلك أيضاً ابن بشكوال فى الصلة فى ترجمته لأبى عبد الرحمن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن طاهر ، رقم ١١٤٠ ص ٥١٣ . وقد ذكر أنه توفى ببلنسية وسير به إلى مرسية ميتاً ، ودفن بها سنة ٥٠٨ . والمراجع الأخرى تقول إنه توفى سنة ٥٠٧ ، ومن الممكن أن يكون نقل رفاته إلى مرسية هو الذى كان سنة ٥٠٨ .

(٢) أبو على بن سكرة هو القاضى أبو على الصَّدَفى السَّرَقُسْطى ويعرف بابن الدَّرّاج ، وهو أستاذ ابن الأبار الذى ألف فى أصحابه معجمه المعروف (نشره فرانثيسكو كوديرا فى مدريد سنة ١٨٨٦) . وقد توفى أبو على مستشهداً فى وقعة كُتُنْدَة (وتكتب أيضاً قُتُنْدة) ، وهى كما يقول ابن الأبار فى حَيِّز دَرُوقه Daroca من عمل سرقسطة ، وقد اختُلف فى تاريخها فيقال إنها كانت بعد عصر الأربعاء ١٧ ربيع الآخر ٥١٤ ، وبعضهم يقول يوم الخميس ٢٤ ربيع الآخر ٥١٤ ، وذكرت تواريخ أخرى قريبة من هذه ، وكان يقود المعركة إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وقد انهزم فيها المسلمون .

راجع مناقشة تاريخ المعركة فى ترجمة أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف بن أبى ليلى الأنصارى ، رقم ٣ ص ٧ من المعجم .

سعادة الشاطبى[١] ، عن الخطيب أبى الوليد محمد بن عبد الرحمن بن عَرِيب[٢] ، عن أبى عبد الرحمن بن طاهر بجميع روايته عن ابن مِيقُل . وكانت فيه دعابة غالبة عليه لا يدعها بحال ، وأجود رسائله ما اشتمل على الهزل لميل طبعه إليه .

وكان على ذلك جواداً ممدحاً ، ينتجعه الشعراء ويقصده الأدباء ، وقد انتجعه أبو بكر بن عمار أيام خموله ، ثم قضى أن خلعه عن سلطانه[٣] ، فله معه نوادر مذكورة ، منها قوله — بعد خلاصه من اعتقاله وانخلاع ابن عمار عن مرسية واجتماعهما عند الوزير الأجل أبى بكر بن عبد العزيز أيام رياسته ببلنسية[٤] : « أبا العيناء لا أنت ولا أنا » ، وكان ابن عمار أخفش . ومنها وقد أرسل إليه وقت القبض عليه يخيره فى خِلعة يلبسها[٥] ، فقال لرسوله : « لا أختار

---

(١) من كبار شيوخ القراءات ، أصله من شاطبة ، وقدم على بلنسية فى أول شوال سنة ٦١٠ وقرأ عليه ابن الأبار ، عمر فوق المائة ، إذ ولد سنة ٥١٤ أو ٥١٦ وتوفى يوم الثلاثاء ٩ شوال ٦١٤ .

راجع تكملة ابن الأبار ، رقم ٩٣٨ ج ٣١٣/١ — ٣١٤ .

(٢) فى الأصل : وعريب ، وجعلها دوزى (ص ١٨٨) : ابن عريب وهو تصحيح فى محله لأن المراد محمد بن عريب بن عبد الرحمن بن عريب العبسى ، أبو الوليد ، من أهل سرقسطة وسكن مرسية ، وقد ذكر ابن الأبار فى ترجمته له (رقم ١٦٠ ص ١٨٠ — ١٨١ من « المعجم » أن « الرئيس » أبا عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر أجاز له . ولم يذكر سنة وفاته .

(٣) سيفصِّل ابن الأبار هذه الحوادث فيما يلى من الكلام عن ابن طاهر ، وهناك تفصيل يكمل هذا عند ابن بسام ، الذخيرة (قسم ٣ ، جايانجوس) ورقة ٥ ا و ب وما يليها .

(٤) كان أبو بكر بن عمار الشاعر هو الذى خلع ابن طاهر عن بلنسية وسجنه كما سيقول ابن الأبار ، وكان المعتمد بن عباد قد أرسل ابن عمار فى جيش ليستولى على مرسية ، فلما تم ذلك لابن عمار استبد بمرسية وأراد أن يستقل بها ، فسلط عليه المعتمدُ ابنَ رشيق ، فتمكن هذا من خلع ابن عمار ، وخلص ابن طاهر من سجنه ، وخرج الاثنان إلى بلنسية حيث اجتمعا عند صاحبها أبى بكر بن عبد العزيز ، ولابن بسام عبارة لطيفة فيما أصاب ابن عمار على يد ابن رشيق ، أن الأول كان لسان حاله يقول : « أنفقت مالى وحج الجمل ! »

(٥) أى أن ابن عمار أرسل إلى ابن طاهر — بعد أن قبض عليه وسجنه — يسأله عما يختار من الثياب .

من خِلَعه — أعزه الله — إلا فروة طويلة ، وغِفَارة ضئيلة » فعرفها ابن عمار واعترف بها وقال : « نعم ، إنما عرّض بزيي يوم قصدته ، وبهيئتي حين أنشدته » . وقد جرى له مع أبى بكر بن عبد العزيز فى معنى الدعابة والمطايبة ما احتمله له بفضل رجاحته . وأبو بكر حركه فذكر الفول ، وكان أبو عبد الرحمن مولعاً به ومكثراً لأكله ، فعرض له هو — بل صرّح — بما كان فى لسانه من عقلة ، وهو إذ ذاك/ضيفه[1] . وخبر خلعه : وذكر ابن بسام وغيره ، وقرأت فى [٩٠ — ب] تاريخ الكاتب أبى بكر محمد بن يوسف بن قاسم الشلبى تلميذ الكاتب أبى بكر ابن القصيرة وأحد كتاب المعتمد محمد بن عباد ، قال : كان ابن عمار قد نزل ضيفاً على ابن طاهر فى صعوده إلى ابن رَيْمُنْد صاحب بَرشلونة[2] ، فاستبان ضعفه ، فداخل[3] أعيان مرسية مُخبِّلا ومخذِّلا . ثم وصل ذلك عند اجتماعه بريمند ، بمعاقدته على أن يعينه فى محاصرته ، وبذل له عن ذلك عشرة آلاف مثقال ،

---

(١) هذا الخبر مضطرب ، ولم أجد أصله لأصوبه رغم كثرة ما كتب عن ابن طاهر هذا . ومن أسف أن ابن بسام قال عندما أشار إلى ولع ابن طاهر بالنوادر — بعد أن ذكر بعضها : « إلى نوادر كثيرة ، وأوابد عنه مأثورة ، إيرادها خارج عن غرض هذا التصنيف ، وليست من شرط هذا التأليف » (مخطوطة القسم الثالث ، ص ٥ ا) .

ولكن النادرة فى مجملها مفهومة ، يفهم منها أن أبا بكر عبد العزيز بن أبى عامر حرك أبا عبد الرحمن بن طاهر إلى التندر ، فذكر الفول ، فرد ابن طاهر بشىء يتصل بالفول — وهو عقلته — ملمحاً إلى عقلة كانت فى لسان أبى بكر بن عبد العزيز .

وبالإضافة إلى الباب الطويل الذى أداره ابن بسام على أبى عبد الرحمن بن طاهر ، والفصل الطويل الذى اختصه به ابن خاقان فى القلائد (ص ٥٦ وما بعدها) ذكر الدكتور شوقى ضيف فى تعليقاته الضافية على تحقيقه لـمُغرب ابن سعيد (رقم ٥١٣ ج ٢ ص ٢٤٧ وما بعدها) بقية المراجع التى تستقى منها أخبار هذا الرجل الذى تعتبر حياته نموذجاً لاضطراب حيوات أهل ذلك العصر .

(٢) المراد Raimundo (Ramón) Berenguer II el Fratrecid كونت برشلونة من سنة ١٠٧٦ إلى سنة ١٠٩٦ ، وهو ابن رايموندو بيرنجير الأول الملقب بالعجوز المتوفى سنة ١٠٧٦ ، ولهذا يسمى الأول منهما ابن ريمند .

(٣) الأصل : فدخل .

على أن ينحدر بعسكره إلى مُرسية ، ويأتى هو فى عسكر ابن عباد ، ويرهن كلُّ واحد منهما مُعاقِدَه ما يثق به ، فرهن البرشلونى ابن عمه ، وأصعد ابن عباد ابنَه المسمى بالرشيد فى جيش إشبيلية وابن عمار معه . فاجتمعا بريمُند عليها على ميعادٍ عيَّناه ، وحاصرا مُرسية وشنّا الغارات عليها فلم ينالوا منها أكثر من ذلك .

وكان ابن عمار — عند فصوله من إشبيلية — قد قدَّر أن يُنظَر له فى المال المذكور ويُلْحَق به ، وذلك لأجَلٍ ضربه البرشلونى ، فانصرم الأجل ولم يصل المال . وتحرك المعتمد إلى قرطبة ، ثم إلى جيّان ، ومعه الرهينة ، على عادته من التؤدة والالتواء . وأبطأ على ريمند ما عوقِد عليه ، واعتقد أن ابن عمار مكر به ، فقبض عليه وعلى الرشيد وقيدهما .

وانقلب عسكر إشبيلية مفلولا ، والمعتمد قد فَصل من جيّان(١) وشارف

---

(١) جيان ، مدينة وكورة فى التقسيم الإدارى للأندلس الإسلامى . والبلد يقع على نهر الوادى الكبير إلى شرقى قرطبة ، وكانت الكورة من أعمر نواحى الأندلس وأغناها وأكثرها سكاناً . أما البلد فيقع على السفح الشمالى الشرقى لجبل كُوز Jabalcuz غربى وادى بُلُّون Guadalbullón وهو نهير صغير يصب فى الوادى الكبير . والبلد يقع على ارتفاع ٥٤٩ متراً ، ولهذا يصفه جغرافيو العرب بالحصانة والامتناع ، وخاصة قصبته . وجيان اليوم مديرية واسعة من مديريات منطقة الأندلس (وتتكون من ثمان مديريات : ولبة Huelva وقادس Cadix وإشبيلية Sevilla وقرطبة وجيان Jaén ومالقة Malaga وغرناطة والمرية Almería) . وقد ذهب دوزى إلى أن أصل اسم جيَّان Ucien اللاتينى ، ولكن عامة المتخصصين لا يرون ذلك . وكانت جيان أيام العرب من الكور المجنَّدة ، نزلها جند قنسرين ، ومن أشهر من خرج منها جمال الدين بن مالك الجيانى صاحب الألفية . وفى العصر الذى تدور فيه الحوادث التى يتحدث عنها ابن الأبار كانت جيان متنازعة بين أمراء الطوائف ، وقد صارت — قبيل دخول المرابطين — إلى بنى عباد ، ومنها أراد المعتمد أن ينفذ إلى شرق الأندلس ويضم مرسية ، فاستعان بأبى بكر بن عمار فى ذلك وطلب معاونة الكونت رايموندو بيرنجير كما رأينا ، فلم يوفق . وقد سقطت جيان فى يد النصارى نهائياً سنة ١٢٤٨ على يد فرناندو الثالث فى الوقت الذى استولى فيه على قرطبة .

عملَ شَقُورَة[1] . فلما وصل إلى وادى آنة[2] لم يمكنه خوضه لمدّه بالسيول ، فأقام على شاطئه الغربى ، و إذا سُرعان فَلِّ العسكر قد أطلوا على الشاطئ الشرقى ، فاقتحمه منهم فارسان أجازا إليه وأخبراه بالنبأ الكريه ، فسُقط فى يده ونكص على عقبه ، وقد استوثق من الرهينة ، ورجع إلى جيّان . وقد كان ابن عمار أوصى إليه مع هذين الفارسين أن يقيم لعله يلحق به ، فورد عليه بعد تمام عشرة أيام ، ونزل على وادى بُلُّون ، وكتب كتاباً وطواه ، وبعث به أحد فرسان عبيده إلى جيّان ، وفيه شعر يأتى ذكره بعدُ وأوله :

* أصدِّق ظنى أم أصيخ إلى صحبى *

فجاوبه المعتمد عنه بما أنَّسه . فوصل إليه وبكى بين يديه ، ثم اعترف بالخطأ فى السالف ، وتوافق معه على إطلاق رهينة البرشلونى مع المال ، لينطلق الرشيد بوصولهما من الاعتقال ، فكان ذلك . وانصرف البرشلونى / إلى بلاده ، وعاد الرشيد إلى إشبيلية . [٩١ - ا]

وحكى غيره أن ابن عباد سعى فى خلاص الرشيد ، حتى فداه بثلاثين ألفاً ضربها زُيُوفاً ، ولحق الرشيد بأبيه المعتمد .

---

(١) مدينة كانت إذ ذاك من عمل جيان وتسمى اليوم Segura de la Sierra وينسب إليها نهر شَقُورة Segura وهونهر مرسية ، يمر بها وبأوريولة Orihuela ثم يصب فى البحر الأبيض المتوسط . وجبل شقورة الذى يتحدث عنه الإدريسى (ص ٦٨) وابن عبد المنعم الحميرى (رقم ٩٥ ص ١٠٥) يسمى الآن Sierra de Segura ، وهى اليوم بلدة تابعة لمركز أُرثيرة Orcera فى مديرية جيان . وصارت فى آخر العهد المرابطى مركز الثائر ابن هَمُشْك . انظر التعليق رقم ٤ على الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص ١٢٨ .

(٢) أستبعد أن يكون المراد نهر Guadiana المعروف ، ويغلب على ظنى أن المراد نهير صغير من نهيرات نهر مرسية يمر ببلدة أنَّه ، وهى اليوم Anaya على مقربة من مرسية . وكانت من المدن السبع التى عاهد عليها تدمير العرب . انظر كتابنا : فجر الأندلس ، ص ١١٥ .

قال ابنُ قاسم المذكور فى تاريخه : وعاد لابن عمار فى مُرسِيَة رأيُه الدَّبَرِىّ . ولجَّ به مَيَلانُه ، فذكر للمعتمد — أو زوَّر — أن أهل مُرسية قد داخلوه وخاطبوه ، وأظهر لهم كتباً ذكر أنهم كتبوها إليه — زاد غيره : وذلك فى سنة أربع وسبعين . قال : وأشار إليه بتجهيز عسكر ثان يتقلده ، فلم يخالفه — يعنى المعتمد — وفَصل عن إشبيلية بعسكرها ، ووصل إلى قرطبة — وعليها الفتح ابن المعتمد ، وهو يومئذ حاجبُ أبيه — فضم خيلَ قرطبة إلى عسكر إشبيلية ، وسهر فى اجتيازه هذا ليلةً عند « الفتح » ، إلى أن شارف الصبح ، فقال أحد الخصيان : « قد انصدع الفجر » ، فأنشأ ابن عمار يقول :

إليك عنى ، فليـــلى كله صبحُ   وكيف لا وسميرى الحاجبُ الفتحُ ؟

قال : ثم تقـدم ابنُ عمار إلى مُرسية ، واجتاز فى طريقه على « حصن بَلج »[1] وعاملهُ يومئذ عبد الله بن رشيق ، هكذا سماه ابن قاسم الشلبى هذا — وغيره يقول فيه : عبد الرحمن ، وهو الصحيح . قال : فلما سمع به ابن رشيق خرج إليه على أميال من الحصن ، ورغب إليه فى النزول عنده ، فأجابه ابن عمار إلى ذلك . واحتفل ابن رشيق فى إنزاله احتفالا استطرفه ابن عمار ، وآل به إلى أن قدمه على جيشه ، ولم يعلم أنه يحمل منه الداهية الدهياء والداء العياء ، فوصل إلى مُرسِيَة وضايقها مدة ، غَدَرَ له فى أثنائها حصنُ مُولَة[2] ، فاستعمل عليه ابنَ

---

(١) حصن كبير كان على مقربة من جيان ، وموضعه الآن قرية Vilches التابعة لمركز كارولينا Carolina فى مديرية جيان :

Cf : MADOZ, *Diccionario Geográfico - Estadistico - Histórico*. Madrid 1850, tomo XVI p. 88 b.

(٢) مولة Mula : كانت إحدى المدن السبع التى تكونت منها ولاية تدمير التى تعاهد تدمير مع العرب على تركه مستقلا فيها (انظر كتابنا : فجر الأندلس ص ١١٥) ، وظلت بعد ذلك من المعاقل الكبيرة فى كورة تدمير ، وهى اليوم تابعة لمديرية مرسية وقاعدة قسم قضائى فيها ، =

رشيق وترك معه جملة من الخيل ، وصدر إلى إشبيلية وقد برّح بمرسية تكرُّر الحصار وانقطاعُ المواد بانخزال مُولَة عنها .

وما زال ابن رشيق يغاديها ويراوحها بالغارات ، ويداخل أهلَها فى القيام على ابن طاهر ويمنيهم الحظوة ، حتى لان قيادُهم وصرحوا له بالانحياز[1] ، ووصلت كتبهم على يديه إلى ابن عمار وهو بإشبيلية . قال ابن قاسم : ولقد شهدتُ ابنَ عمار فى القصر بإشبيلية يقرأ هذه الكتب — وكانت أزيد من عشرين — فلما استوفاها قال لنا : «كأنكم بفتح مرسية من غد إلى بعد غد» ، فكان كذلك .

ولما تم لأهل مرسية تدبيرهم مع ابن رشيق ، تحرك من مُولَة نحوهم على وقت معين ، فلما وصل إلى ظاهرها صرخوا بدعوة ابن عبّاد ، وفتحوا أبوابها لذلك الميعاد ، فدخل ابن رشيق فى أنصاره بشعاره ، وأخرج / ابنَ طاهر من داره إلى [٩١ — ب]
السجن ، وكتب من قصر مرسية وقد تملكها ، وأخذ لابن عباد بيعة أهلها .

وحكى غيره أن ابن طاهر لما قُبض عليه اعتقل بحصن مُنْتْ أَقُوط[2] ، إلى أن ورد كتاب المعتمد بتسريحه ، فلحق بأبى بكر بن عبد العزيز ببلنسيَّة ، لسعيه فى ذلك وشفاعته فيه . وقد قيل إن ابن طاهر هرب من معتقله ، بإعانة ابن عبد العزيز وتنبيهه على الوجوه الميسَّرة لخلاصه .

= وهى تقع فى لحف جبل صغير يسمى باسمها عليه بقايا حصن عربى يسمى قصر مولة **Alcázar de Mula** ، وقد سقطت مولة فى يد فرناندو الثالث المعروف بسان فرناندو سنة ١٢٢٦ .

Cf : MADOZ, *op. cit*, tomo XI, 1848, p. 679 - 681.

(١) الأصل : بالإنجاز.

(٢) منت أقوط : حصن من حصون مرسية القريبة منها ، ذكره ابن حازم القرطاجنى فى البيت التسعين بعد المائتين من مقصورته ، وهى بالإسبانية **Monteagudo** وهى اليوم قرية تابعة لبلدة مرسية قاعدة المديرية التى تحمل ذلك الاسم ، وكانت بقايا حصنها لا تزال قائمة إلى منتصف القرن الماضى .

Cf : MADOZ, *op. cit*. XI, 534 - 536.

E. GARCIA GOMEZ : *Observaciones sobre la Qaṣīda Maqṣūra de Abū-l-Ḥasan Ḥāzim al Qarṭayannī*, **Al - Andalus, vol. I, fasc. 1, p. 103.**

قال ابن بسام فى « كتاب الذخيرة » من تأليفه : ومُدَّ لأبى عن الرحمن بن طاهر هذا فى البقاء ، حتى تجاوز مَصارعَ جماعة الرؤساء ، وشهد محنةَ المسلمين ببلنسية على يدى الطاغية الذى كان يدعى الكنبيطور[1] ، وحصل لديه أسيراً سنة ثمان وثمانين ، يعنى وأر بعمائة . كذا قال ابن بسام ، وإنما دخل الكنبيطور بلنسيةَ سنة سبع وثمانين .

وتوفى أبو عبد الرحمن ببلنسية وصُلى عليه بقبلة المسجد الجامع منها إثر صلاة العصر من يوم الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأخيرة سنة ثمان وخمسمائة ، ثم سِير به إلى مرسية ودفن بها وقد نيف على الثمانين .

وعلى مكانه من البراعة والبلاغة فى الرسائل ، فلم أقف له على شعر سوى قوله فى مقتل القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن ذى النون على يدى أبى أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافرى ، عند انتزائه ببلنسية وانتقاله من خطة القضاء إلى خطة الرئاسة ، وكان أخيف :

أيها الأخيف مهلاً فلقد جئتَ عويصا

---

(١) هو السِّيد الكنبيطور – أو الكمبيطور – El Cid Campeador الفارس المغامر القشتالى الذى قام بدور كبير فى تاريخ شرق الأندلس وتاريخ إسبانيا النصرانية خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، واسمه Rodrigo Dfaz de Vivar ، وقد كتبنا عنه وعن علاقاته بالمسلمين بحثاً مطولا فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مجلد سنة ١٩٥١ . ويسمى أيضاً بالسِّيد El Cid وهو النداء الذى كان يخاطبه به أتباعه ، وهو اللغة الدارجة فى لفظ السِّيِّد العربى . وقد توفى السِّيد فى ١٠ يوليو ١٠٩٩ .

أنظر عنه :

DOZY, *Le Cid,* dans *Recherches,* 3e édition (1881), II, 1—283.

RAMON MENÉNDEZ PIDAL, *La España del Cid,* 2a edicfon (Madrid, 1947).

LÉVI-PROVENÇAL, *Le Cid de l'histoire* dans *Revue Historique, CLXXX,* 1937.

إذ قتلتَ المَلْكَ يحيى وتقمّصتَ القميصــا

رب يوم فيه تُجزَى لم تجد عنه محيصا

فقضى الله أن تسلط عليه الطاغية الـكَنْبِيطُور ، بعد أن أمَّنه فى نفسه وماله عند دخوله بلنسية صلحاً ، وتركه على القضاء نحواً من عام ، ثم اعتقله وأهلَ بيته وقرابته وجعل يطلبهم بمال القادر بن ذى النون . ولم يزل يستخرج ما عندهم بالضرب والإهانة وغليظ العذاب ، ثم أمر بإضرام نار عظيمة كانت تلفح الوجوه على مسافة بعيدة ، وجيء بالقاضى أبى أحمد يرسف فى قيوده ، وأهله و بنوه حوله ، فأمر بإحراقهم جميعاً . فضج المسلمون والروم ، وقد اجتمعوا ، ورغبوا فى ترك الأطفال والعيال ، فأسعفهم بعد جهد شديد . واحتُفر للقاضى حفرة — وذلك

[٩٢–ا] بوَلْجَة[1] / بلنسية — وأدخل فيها إلى حُجْزَته ، وسُوِّىَ الترابُ حوله ، وضُمت النار نحوه . فلما دنت منه ولفحت وجهه ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، وقبض على أقباسها وضمها إلى جسده يستعجل المنية ، فاحترق رحمه الله ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة[2] ؛ ويومَ الخميس منسلخ جمادى الأولى من السنة قبلها كان دخول الـكنبيطور المذكور بلنسية .

---

(١) ولجة – بالإسبانية huelga – هى الرحبة الواسعة التى تستعمل للنزهة وأصلها عربى – مولجة هى الأرض التى ينعطف عليها النهر فتصبح محاطة بالماء من ثلاث جهات . وقد وجدت ولجات كثيرة قرب مدن أخرى ، ولكنى لم أعثر على ولجة بلنسية . وفى بلنسية اليوم موضع يسمى رحبة القاضى Rahbatolcadi أمام كنيسة سانتا كاتالينا Santa Catalina ، وأصلها مسجد من مساجد بلنسية الإسلامية ، وقد حول إلى كنيسة بهذا الاسم بعد سقوط البلد نهائيا فى أيدى النصارى . ولعل هذا هو الموضع الذى أحرق فيه ابن جحاف . ولم يحقق منندذ بيدال ذلك الموضوع ، لأنه – أحسب – رغم دفاعه عن هذا العمل البشع الذى أتاه القمبيطور ، يشعر فى نفسه بشناعته . وقد اختفى موضع رحبة القاضى من بلنسية اليوم .

(٢) قص ابنُ بسام فى القطعة القيمة التى أوردها فى القسم الثالث من الذخيرة (ص ١٨ ب من المخطوط وما بعدها) تحت عنوان : « ذكر الخبر عن تغلب العدو عليها وعودة المسلمين =

ثم ملكها الرومُ ثانية ، بعد أن حاصرها الطاغية جاقم البرشلونى من يوم الخميس الخامس من شهر رمضان سنة خمس وثلاثين وستمائة إلى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ست وثلاثين ، وفى هذا اليوم خرج أبو جميل زيان ابن مدافع بن يوسف بن سعد الجُذامى من المدينة — وهو يومئذ أميرها — فى أهل بيته ووجوه الطلبة والجند ، وأقبل الطاغية وقد تزيّى بأحسن زى فى عظماء قومه ، من حيث نزل بالرصافة أول هذه المنازلة ، فتلاقيا بالوَلجة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سَلماً لعشرين يوماً ، ينتقل أهله أثناءها بأموالهم وأسبابهم . وحضرتُ ذلك كله ، وتوليتُ العقد عن أبى جميل فى ذلك . وابتُدئ بضَعَفَة الناسِ ، وسُيِّروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم برًّا وبحراً . وصبيحةَ يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور كان خروج أبى جميل بأهله من القصر فى طائفة يسيرة أقامت معه ، وعند ذلك استولى عليها الروم ، أخانَهُم الله(١) .

= إليها» (يريد بلنسية) أورد فيه تاريخ هذا المسكين جعفر بن جحاف وما أصابه وأصاب بلنسية على يد السيِّد . وقد نشر هذه القطعة دوزى *Recherches*, **II, p. VI—XVII** وترجمها إلى الفرنسية فى الفصل الكبير الذى أداره على السيِّد فى « أبحاثه » وقد أشرنا إليه . وأورد كذلك فى صفحة **XXXIV** ترجمتى الضبى والسيوطى لأبى جعفر أحمد بن عبد الولى البتِّى البلنسى ، من علماء بلنسية ، وقد أحرقه السيد أيضاً . وانظر دفاع رامون منندذ پيدال عن ذلك العمل فى ص ٥١٨ — ٥١٩ فى الجزء الثانى من كتابه الذى ذكرناه « إسبانيا فى عصر السيِّد » .

(١) مراجعنا العربية قليلة عن سقوط بلنسية الأخير وخروجها من دار الإسلام ، وربما كانت هذه الإشارة من ابن الأبار أوفى ما لدينا ! فى حين أن المراجع الإسبانية كثيرة جداً ، ذكر بعضها أنطونيو بايِّسترُوس فى تعليقاته الوافية التى أضافها على الفقرة التى ذكر فيها سقوط هذا البلد العربى الكبير . وكان الذى استولى عليه خايمه الأول المعروف بالغازى **Jaime I el Conquistador** ، وكان المحرض الأكبر على ذلك **Hugo Folcalquer** رئيس طائفة الاسبتارية **Orden del Hospital** فى إسبانيا و **Blasco de Alagón** من كبار أشراف قطلونية . وكان استسلام البلد وناحيته نتيجة لحروب طويلة بين رؤساء البلد من المسلمين . وقد =

١٣١ — أحمد بن رشيق الكاتب ، أبو العباس

كان أبوه من موالى بنى شُهيد ، ونشأ بمرسية ، وانتقل إلى قرطبة وطلب الأدب فبرز فيه ، وبَسَق فى صناعة الرسائل ، مع حسن الخط المتفق على نهايته . وشارك فى سائر العلوم ، ومال إلى الفقه والحديث ، وبلغ من رياسة الدنيا أرفع منزلة . وقدمه الأمير أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامرى على كل من فى دولته ، وولاه جزيرة ميورقة ، فكان ينظر فيها نظر العدل والسياسة ، ويشتغل بالفقه والحديث ، ويجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم ، ويصلح الأمور جهده . وهو آوى الفقيه أبا محمد بن حزم ، حين نُعِى عليه بقرطبة وغيرها خلافه مذهب مالك ، [٩٢-ب] وبين يديه تناظر هو والقاضى أبو الوليد الباجى . قال / الحميدى فى تاريخه — وأكثر خبره عنه — : ما رأينا من أهل الرئاسة من يجرى مجراه ، مع هيبة مفرطة وتواضع ، وحلم عُرف به مع القدرة ، وله رسائل مجموعة متداولة . وذكر أنه مات بعيد الأربعين وأربعمائة عن سن عالية ؛ وهو القائل يراجع أبا الحسن ابن سِيدَه الضرير معتذراً عن صلة وجه بها إليه من ميورقة ، وكان قد كتب إليه من دانية يستمنحه(١) :

أدأب، دهرى ، ولو تطاول لى ... فى حَطِّ ثُقْلٍ من الغرامة بى
أحدثه لى تصاونٌ وهوًى ... فى عفةٍ من دميم مكتسَبِ

— بدأ خايمه حملته فى يوليو ١٢٢٣ بالاستيلاء على بُرْيانة Burriana ثم استمر التقدم سنة بعد سنة حتى دُخلت بلنسية وسلمت كما وصف ابن الأبار فى سبتمبر ١٢٣٨ .

Cf : ANTONIO BALLESTEROS Y BERRETA, *Historia de España* (2a edicíon, Barcelona, 1948), III, 212-215.

والتعليقات والمراجع ص ٣٦٤ — ٣٧٠ .

(١) معظم المادة — فيما عدا الأبيات وخبر أبى محمد بن حزم — وارد فى جذوة المقتبس للحميدى ، رقم ٢٠٧ ص ١١٤ — ١١٦ .

فمن رآنی وظاهری لِغِـــنًی فباطـــنی قِلّةٌ علی رُتَب
أستغفر الله ، بل له نعمٌ وهی بذنبی إلیـــه لم تَجب

١١٣٣ — محمد بن مروان بن عبد العزيز الكاتب ، أبو عبد الله

أصله من قرطبة ، وسكن بلنسية ، ويعرف بابن رَوْبَش ، وسيأتی ذكر نسبه عند ذكر ابنه الوزير الأجل أبی بكر أحمد بن محمد . وكان أبو عبد الله هذا قد رأَسَ فی آخر دولة المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبی عامر صاحب بلنسية ؛ فلما توفی المنصور وملك ابنُه المظفر عبد الملك بن عبد العزيز ، تمشَّت حاله معه علی ما كانت عليه فی حياة أبيه . وكان عبد الملك ضعيفاً ، تخلعه صهره المأمون يحيی بن إسماعيل بن ذی النون صاحب طليطلة ، فی سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وفی ليله عَرَفة لتسع خلون من ذی الحجة منها ، وملك بلنسية وما إليهـا من بلاد الشرق ، فاستخلف عليها أبا عبد الله بن عبد العزيز هذا ، وجعل إليه تدبير أمرها . ثم انتقل ذلك عند وفاته إلی أبی بكر ابنه ، فتناهت فيها حاله بعد موت المأمون بن ذی النون ، واستبد بالرئاسة ، وجری علی أحمدِ سَنَنٍ منْ السياسة ؛ ذكر هذا الخبر أبو بكر محمد بن عيسی بن مُزَيْن فيما وقفت عليه من تأليف له مختصر فی التاريخ .

وأما ابن حَيّان فذكر هذا المخلوعَ عبدَ الملك وأساء الثناء عليه ، وحكی أنه كان ، فی مصير ملك أبيه إليه ، قد تخلی عن / أمر الإمارة أجمعه ، وفوضه إلی [٩٣ - ١]
وزيره أحمد بن محمد بن عبد العزيز ، الماضی لعبد الملك[١] ، مكانه عند توليه

(١) المراد محمد بن عبد العزيز والد أبی بكر ، وهو الذی كان يمضی الأمور لعبد الملك ابن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبی عامر . وظاهر أنه لا قرابة بين الكاتب محمد بن عبد العزيز =

وأشبع الكلام فى صفة خلع عبد الملك ، ونسب محاولته إلى أبى بكر دون أبيه ، فدل ذلك على وفاته قبلها ، والله أعلم . ومن شعر أبى عبد الله بن عبد العزيز ما جاوب به الوزير أبا عامر بن عبدوس ، وقد كتب إليه :

يا أطيب الناس أغصاناً وأعراقاً وأعذب الخلق آداباً وأخلاقاً
ويا حيا الأرض ، لِمْ نكّبْتَ عن سَنَنى وسُقْتَ نحوىَ إرعاداً وإبراقاً ؟
ويا سَنَا الشمس، لِمْ أظلمتَ فى بصرى وقد وسِعْتَ بلادَ الله إشراقاً ؟
من أىّ بابٍ سعت عينُ الزمان إلى رحيب صدرك حتى قيل قد ضاقا ؟
قد كنتُ أحسَبُنى فى حُسن رأيك لى أنى أخذتُ على الأيام ميثاقا
فالآن لم يبق لى بعد انحرافك ما آسَى عليه ، وأبدِى منه إشفاقا
قد كنتُ أوليكَ إحساناً وإشفاقا وأنثنى عنك مهما غِبتَ مشتاقا
وما ألَوْتُك نُصحاً لو جزيتَ به ، ولم يكن من ذميم الغدر ، ما عاقا
وكان من أملى أن أقتنيك أخاً فأخفق الأملُ المأمول إخفاقا
وقلتُ : غرسٌ من الإخوان أكلؤُه حتى أرى منــه إثماراً وإيراقا
فكان — لما انتهى إزهارُه ، ودنا إثمارُه — حنظلاً مرًّا لمن ذاقا

— وسيط المنصور بن أبى عامر ، إنما هو تشابه أسماء . وظاهر أن محمد بن عبد العزيز أو ابنه أبا بكر أحمد قد تمالأا مع المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذى النون على خلع سبط ابن أبى عامر ، وتولاها الأب (محمد) باسم المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذى النون . وذلك هو الذى جر على بلنسية البلاء ، لأنه جعلها تبعاً لطليطلة ، فلما تنازل عن طليطلة القادرُ حفيد المأمون تعهد له ألفونسو السادس بتمهيد الأمر له فى بلنسية ، فسار إليها فى حماية السيِّد القمبيطور الذى ندبه ألفونسو لذلك . فلما ثار أهل بلنسية على القادر بقيادة القاضى جعفر بن جحاف وقتلوه زعم السِّيد أنه صاحب الحق فى المطالبة بدمه وبدأ يحاصرها وبدأت مأساته فيها . وقد خلط رامون منندث پيدال بين بنى عبد العزيز هؤلاء فى كلامه عن أحوال بلنسية قبل تدخل السيد فى شئونها ، فليتنبه إلى ذلك عند مراجعته . وقد فصل الأمر ابن حيان (برواية ابن بسام فى الذخيرة ، قسم ٣ ص٤٨ ب وما بعدها) فى غضون ترجمته لأبى عامر التاكُرُنّى .

فالآن أخلَقَ ما بينى وبينك مِن ثوب الوداد ـ لسوء الفعل ـ إخلاقا
ولستَ أولَ إخوانٍ سقيتهمُ صفوى وأعلقتهمْ بالنفس إعلاقا
فما جزَوْنى بإحسانٍ ولا عرفوا قدرى ولا حفظوا عهداً وميثاقا

١٣٣ ـــ محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى[1] ذو الوزارتين ، أبو بكر

أصله من قرية بشِلْب[2] تعرف بشَنْبُوس ، ونشأ خاملا ينتجع بشعره ويطوف على ملوك الطوائف / عصرَه ؛ وقد تقدم ذكر اعترافه بقصد ابن طاهر [٩٢ - ب] فى الهيئة التى عرَّض له بها فى نادرته .

وتعلق فى أول أمره بالمعتمد محمد بن عباد ، حين وجهه أبوه المعتضد محارباً لشِلْب ، فنزع إليه ، وبلغ من المنزلة لديه أن غلب عليه . ثم صحبه بإشبيلية ، وكان يُحضِره مجالسَ أنسه ويستدعيه إليها ، ويؤثره على خاصته ويستريح إليه بسره ؛ ومن ذلك قوله وكتب به إليه :

قد زارنا النرجسُ الذكىُّ وحان من يومنا العَشِىُّ
ونحن فى مجلسٍ أنيق وقد عطشنا ، وثَمَّ رِىُّ
ولى خليلٌ غـــدا سمِيِّى ياليتَــهُ ساعدَ السَّمِىُّ

(١) الأصل : المهدى ، والصواب ما أثبتناه .

(٢) شلب Silves مدينة صغيرة حالياً فى جنوب البرتغال تابعة لمديرية « الغرب » Algarve . وانظر موجزاً لتاريخها فى العصور الإسلامية فى دائرة المعارف الإسلامية : ٤٤٣/٤ ، وانظر أيضاً المادة الطيبة عنها فى الروض المعطار ، رقم ٩٦ ص ١٠٦ وص ١٢٩ من الترجمة الفرنسية مع التعليقات .

فأجابه واصلا وقائلا :

لبيك لبيك من منادٍ له الندَى الرحبُ والندِىُّ
ها أنا بالبـاب عَبْدُ قِنٍّ قِبْلتُــــه وجهُك السنِىُّ
شرّفه والداه باسمٍ شرّفْتَه أنتَ والنبِىُّ

وسرّى(١) إلى ابن عمارٍ أن المعتمد كتب من قرطبة إلى بعض كرائمه شعراً يعتذر فيه من اللحاق بها ، آخره « إن شاء ربى أو شاء ابن عمار » ، فقال :

مولاى ، عندى لما تهوَى مساعدةٌ كما تتابعَ خطف البارق السارى
إن شئتَ فى البحر فاركب ظهر سابحةٍ أو شئت فى البر فاركب ظهر طيارِ
حتى تَحُلَّ وحِفظُ الله يكلَؤُنا ساحاتِ قصرك واتركنى إلى دارى
وقبلَ خلْعِ نِجادِ السيف فاسعَ إلى ذاتِ الوشاح وخذ للحب بالثار
ضماً ولثماً يُغنِّى الحلْىُ بينكما كما تَجاوَبُ أطيـار بأسحار

كما حكى أبو الطاهر التميمى السرقسطى فى ديوان شعر ابن عمار من جمعــه عند إيراد هذه القطعة .

وقال ابن بسام فى « كتاب الذخيرة » : ذُكر أن المعتمد أقام برهة بقرطبة يرفع بعض الأمور السلطانية / فسئم طَلَقَه ، وتذكر — على عادته — خلقه ، [٩٤ - ا] ودعته دواعى نفسه ، إلى قينته وكأسه ، فاستشار يومئذ ابنَ عمار — وكان خاطَبَه فى ذلك بشعر ، وظن عنده أهبة ، إذ كانت عليه منه بعض الرِّقبة — فوجده

(١) كذا فى الأصل ، وصوبها دوزى (بنوعباد ٨٨/٢) : ووشِى ، ولا وجه له هنا . ولا بأس بسَرى فى هذا الموضع .

أهتكَ سِتراً ، وأقلّ عن اللذات صبراً ، وأشار عليه بتعطيل الثغر ، وإضاعة الأمر ، وجاوبه على ذلك بهذا الشعر — وذكر الأبيات .

ووجّه المعتمدُ أبا بكر بن عمار إلى شِلْب متفقداً لأعمالها ، فلما ودعه أنشده وقد اهتاج شوقه إليها ، وتذكر معاهد صباه وعهوده فيها ، إذ كان والياً من قبل أبيه المعتضد عليها :

ألا حَيِّ أوطانى بشِلْبٍ ، أبا بكر   وسلهن : هل عهدُ الوصال كما أدرى ؟
وسلِّم على قصر الشَّراجِبِ عن فتًى   له أبداً شوقٌ إلى ذلك القصرِ
منازل آسادٍ وبيضٍ نواعمٍ   فناهيك من غيلٍ وناهيك من خِدْر
وكم ليـــلةٍ قدْ بِتُّ أنعَمُ جِنْحَها   بمُخْصِبةِ الأرداف مُجدِبةِ الخصر
وبيضٍ وسمرٍ فاعلاتٍ بمهجتى   فعالَ الصِّفاح البيض والأَسَلِ السُّمْر
ليالٍ بسَدِّ النهر لهواً قطعتُها   بذات سوارٍ مثل منعطف البدر
نضتْ بُردَها عن غصن بان منعَّمٍ   نضير كما انشق الـكِمَامُ عن الزهر

واتصل بالمعتمد فى بعض سفاراته عنه إلى جليقية أن الطاغية أذفونش ثقفه هنالك ، ثم وردَ الخبرُ بعدُ بضدِّ ذلك ، فلما قدم ابنُ عمار كتب إليه المعتمد :

لما رأيتَ نأى الـكرى عن ناظرى   وصرفتُه لمـا انصرفتَ عليهِ
طلب البشيرُ بشارةً يحظى بها   فوهبتُ[١] قلبى واعتذرت إليه

إلى غير ما أوردت من الدلائل على لطف المنزلة ، وتمـكن الحظوة ، وتضاعف الأثرة ، وحب الرئاسة فى رأسه يدور ، إلى أن نفذ بمصرعه على يديه المقدور .

ومن بديع صنيع ابن عمار إتلاف أشعاره المقولة فى الامتِيَاح[٢] ، وقصائده

(١) الأصل : فوهبته .

(٢) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٨٩) : الاصطناع ، ولا محل لهذا التبديل فإن الكلمة فى الأصل صحيحة ، وفى موضعها .

[٩٤ - ب] المصوغة فى الانتجاع ، ومحو آثارها ، فما يوقف منها اليوم على شىء سوى / أمداحه فى المعتضد عباد ، وما لا اعتبار به لنزوره .

وقد ألَّف أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى شعرَه ورتبه على حروف المعجم ، ولا شك أنه بحث عنه فى مظانِّه ، واستفرغ جهده فى جمعه ، فلم يقع له على غير تقريظ المعتضد ، وأرى ذلك خدمةً منه لابنه المعتمد .

وكان ابن عمار شاعر الأندلس غير مدافَع ولا منازَع ، إلا أن مساوئَ أفعاله ذهبت بمحاسن أقواله : أدمن الخمر ، وهوَّن على نفسه الغدر ، فأداه ذلك إلى رَداه ، وكان كالذى نفخ فوه وأوْكتْ[1] يداه . قال ابن بسام : ولما خبط أبو بكر بن عمار سَمُرَاتِ[2] ملوك الأندلس بعصاه ، وتردد ينتجعهم بمكائده ورقاه — وإنما كان يطلب سلطاناً ينثر فى يده[3] سلكَه ، وملكاً يخلع على نفسه[4] ملكه — جعل أبا عبد الرحمن بن طاهر موقع همِّه ، ووجْه أمِّه .

ولما ألقى المعتمد لابن عمار ما بيده[5] ، بعثه على حرب ابن طاهر ، بُغاءً لنفسه ، وبناءً على أسِّه ، فأقبلَه وجوهَ الجياد ، وأخذ عليه بالثغور والأسداد ، حتى فتَّ فى عضده ، وانتزع سلطانه من يده . ولما قال عزمه وفعل ، وقام وزنُ أمره واعتدل ، مد يده وبسطها ، وكفر نعمة ابن عباد وغمَطها ، وانتزى له من

---

(١) الأصل : وأركت . و« نفخ فوه وأوكت يداه » مثل معروف .

(٢) فى الأصل بدون شكل . وسمُرات جمع سمرة وهو نوع من شجرة العضاة جيد الخشب ، والمراد على هذا أنه تردد عليهم بمدائحه (اللسان : ٦/٤٥) .

(٣) جعلها دوزى : يديه .

(٤) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٩٠) : عِطْفَه .

(٥) نص ابن حيان كما جاء فى الذخيرة لابن بسام (قسم ٣ ، جايانجوس ، ورقة ٥ ا) وعنه ينقل ابن الأبار هنا : ولما ألقى المعتمد لابن عمار ما بيده ، وقلده — على ما شرحناه فى أخباره — تدبير دولته وبلده ..

حينه على مرسية ، وقعد بها مقعد الرؤساء ، وخاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء ، مستظهراً على ذلك بجر الأذيال ، وإفساد قلوب الرجال ، معتقداً[1] أن الرئاسة كأس يشربها ، وملاءة مجون يسحبها . فقيض له يومئذ من عبد الرحمن بن رشيق ، عدوٌّ فى ثياب صديق ، من رجل مِدره خَتِر ، وجُذَيل[2] خديعةٍ ومكر ، فلم يزل يطلُع عليه من الثنايا والشِّعاب ، حتى أخرجه من مُرْسِيَة لا كالشهاب[3] . قال : فصار ابنُ عمار مع ابن رشيق تحت المثل : « أنفقتُ مالى وحجَّ الجمل ! » . وقد تقدم ذكر السبب فى اعتقال الرشيد بن المعتمد ، وحصوله مع ابن عمار بأيدى الروم[4] ، وانهزام عسكره المحاصِر لمرسية . قال ابن بسام : وفى أثناء تلك الحال ، التى أفضت بالرشيد إلى الاعتقال ، كتب — يعنى ابن عمار — إلى المعتمد بهذه الأبيات :

أصدِّق ظنى أم أصيخُ إلى صحبى ... وأقضى[5] غريمى أم أعُوج مع الركبِ ؟
إذا انقدتُ فى رأيى مشيتُ مع الهوى ... وإن أتعقَّبه نكصتُ على عَقْبى
/وإنى لتثنينى إليكَ مودةٌ ... يغيِّرها ما قد تعرَّض من ذنبى[6] [٩٥-١]

---

(١) الأصل : ومعتقداً . ويبدو أن ناسخ الذخيرة أسقط عبارة قبل هذه الكلمة ، وبقيت واو العطف ، فحذفناها للسياق .

(٢) جعلها دوزى (بنو عباد : ٢/٩٠) : وجزيل بالزاى ، والصواب ما أثبتناه . وهو تضمين لقول أبى بكر الصديق فى خطبة السقيفة : وأنا جذيلها المُحَكَّك .

(٣) كذا فى الأصل ، وقد أسقط دوزى حرف « لا » ، وما ورد فى الأصل أصح .

(٤) الأصح أن يقال هنا : بأيدى الإفرنج ، لأن المراد هنا رامون بيرنجير الثانى صاحب برشلونة ، وكان مؤرخو الأندلس يسمون أهل برشلونة بالإفرنج ، وقد سبقت سياقة الخبر بتفصيل أوفى فى ترجمة أبى عبد الرحمن بن طاهر .

(٥) جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٩١) : وأُقْضِى ، ورسم الأصل أصح .

(٦) وردت القافية فى القصيدة كلها بدون ياء : ذنبِ ، قربِ ، قلبِ .. الخ ، فأضفت الضمير للمعنى .

فما أغرب الأيام فيما قضت به ... تريني بُعْدى عنك آنسَ من قُربى
أخافُك للحق الذى لك فى دمى ... وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى

قال : وهذا البيت — على سهولة مبناه — من أحسن ما قيل فى معناه ، وبمثله فلتُخدع الألباب ، وتُستعطف الأعداء للأحباب . إلا أن المصراع الأول كأنه شيء تكهّنه من شانه ، وطِيَرَة ألقاها الله على لسانه . وصَدق : كان له فى عنقه رِبْقٌ ، وفى دمه حق ، حتى احتال له فتاله ، والمرء يعجز لا المحالة .

وفيها يقول :

وكم قد فَرَتْ يمناك بى من ضريبةٍ ... ولا غرو يوماً أن يفلَّلَ من غَربى
وأعلمُ أن العفو منك سجيةٌ ... فلم يبق إلا أن تُخفِّفَ من عَتْبى
ولى حسناتٌ لو أمتُّ ببعضها ... إلى الدهر لم يُرتعْ لنائبةٍ سربى

فأجابه المعتمد بقوله :

تقدمْ إلى ما اعتدتَ عندى من الرحب ... ورِدْ تَلْقَكَ العُتبى حجاباً عن العتبِ
متى تَلْقَنى تَلْقَ الذى قد بَلَوْتَه ... صفوحاً عن الجانى رؤوفاً عن الصحب
سأوليك منى ما عهدتَ من الرضا ... وأصفح عما كان — إن كان — من ذنب
فما أشعَرَ الرحمنُ قلبيَ قسوةً ... ولا صار نسيانُ الأذِمَّةِ من شِغْبى
تكلَّفتُه أبغى به لك سلوةً ... وكيف يعانى الشعرَ مشترَكُ اللب ؟

فلم يزده جوابُ المعتمد إلا توحشاً ونفاراً ، وتوقفاً عن اللحاق به وازوراراً .

هذا ما أورد ابنُ بسام من خبر ابن عمار فى هذه القضية ، وابن قاسم الشِّلْبى — فى تاريخه المجموع فى أخبار المعتمد محمد بن عباد — أمتنُ علماً بها ، وأحسن سرداً لها ، وقد مضى من ذلك ويأتى ما يصحح به قولى إن شاء الله تعالى .

وأما أبو الطاهر التميمى فحكى أن ابنَ عمار كتب إلى المعتمد بحال أوجبت إيحاشاً :

* أصدِّق ظنى أم أصيخُ إلى صحبى *

الأبيات المتقدمة إلى آخرها ، وزاد فيها بيتا وهو :

/ ولا بدَّ ما بينى و بينك من نَثاً[1] يُطبِّقها ما بين شرق إلى غربِ [٩٥ - ب]

وأورد جوابَ المعتمد عنها كما تقدم ، ثم قال بعَقب ذلك : وقال أيضاً ، وكتب بها إليه — يعنى المعتمد — وقد ارتهن زعيمُ برشلونة ابنَه الرشيد لمالٍ توقَّف له[2] عنه وظُن بابن عمار فى ذلك سعىٌ ، قال : وذلك فى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة :

أأركبُ قَصْدى[3] أم أعُوجُ مع الركبِ فقد مرتُ من أمرى على مركبٍ صعبِ؟
وأصبحتُ لا أدرى أفى البُعد راحتى فأجعله حظى ، أم الخيرُ فى القرب
على أننى أدرى بأنك مؤثرٌ ، على كل حال ، ما يزحزح من كربى
أيُظلِم فى عينى كذا قمرُ الدجى وتنبو بكفى شفرةُ الصارمِ العضب ؟
[حنانيك فيمن][4] أنت شاهد جِدِّه وليس له ـ حاشا انتصاحك ـ من حسْب
[وما جئتُ شيئا فيه بَغْى][5] بطالب[6] يضاف به رأيى إلى الضعف والخب[7] .

(١) نثاً - على وزن نَوًى - هو الحديث الذى ينتشر ويذيع . (اللسان : ٢٠/١٧١) .

(٢) الأصل : لم .

(٣) فى قلائد العقيان لابن خاقان (ص ٩٠) : أأسلُك قصداً .

(٤ و ٥) بياض فى الأصل ، والتكملة من القلائد (ص ٩٠) .

(٦) فى القلائد : الطالب .

(٧) فى القلائد : العُجب .

[سِوى أننى أسلَمْتَنى لمُلمــــةٍ][1] فَلَلْتَ بها[2] حدى وكسَّرت من غَربى

أما إنه لولا [عوارفك][3] التى جرت فىَّ جرْى الماء فى الغصن الرطب

[لما سُمتُ نفسـ]ـى[4] ما أسوم من الأذى ولا قلتُ إن الذنب فى ما جرى ذنبى

سأستمنِـحُ الرُّحْمى لديك ضراعةً وأسألُ سُقْيا من تَجاوُزك العذب

وإن نفحتْنى من سمائك حَرْجفٌ[5] سأهتف : يا بردَ النسيم على قلبى !

فأجابه المعتمد :

لدىَّ لك العُتبى تُزاحُ عن العَتبِ وسعيُك عندى لا يُضاف إلى ذنبِ

وأعزِزْ علينا أن تصيبَك وحشةٌ وأنسُك ما تدريه فيك من الحب

فدَعْ عنك سوء الظنِّ بى وتَعَدَّهُ إلى غيره فهو المُمَكَّن فى القلب

قريضُك قد أبدى توحُّشَ جانبٍ فجاوبت تأنيساً وعِلمُك بى حسبى

[٩٦ – ا] / تكلَّفته أبغى به لك سَلوةً وكيف يعانى الشعرَ مشتركُ اللب ؟

هكذا أتى بالقطعتين وجوابهما على نسق ، وترجم فى الثانية بالتفرقة بينها وبين الأولى ، نخالف ابنَ قاسم وابنَ بسام كما ترى ؛ ويحتمل أن تكونا فى قصة واحدة .

قال أبو الطاهر : وقد كان خاطب أبا الوليد بن زيدون فى أول تعلقه — يعنى بالسلطان — بأبيات استعاد بعضها فى هذه القطعة ، وهى :

---

(١) بياض فى الأصل ، والتكلة من القلائد (ص ٩١) .

(٢) الأصل « به » ، والتصويب من القلائد .

(٣ و ٤) بياض بالأصل ، والتكلة من القلائد (ص ٩١) .

(٥) الريح الباردة الشديدة الهبوب .

تأملتُ منك البدرَ فى ليلةِ الخطبِ ونلتُ لديكَ الخصبَ فى زمن الجدبِ
وجرّدتُ من محروسِ جاهِك مرهفاً تولّتْ به خيلُ الحوادث عن حربى
وما زلتُ من نعماك فى ظل لذةٍ تذكّرُنى أيامُها زمنَ الحب
إذِ العيشُ فى أفياء ظلك باردٌ فمن مرتعٍ خصبٍ إلى موردٍ عذب
أحِينَ سقَى صوبُ اعتنائك ساحتى فنمّمها واهتزّ روضىَ فى تُرْبى
ثَنَيتَ لعطفٍ قد ثنيتُ مدائحى عليه ، وسِربٍ قد بَدَأْتُ به سِربى ؟
أما إنه لولا عوارفُك التى جرتْ فىّ جرىَ الماء فى الغصن الرطب
لما ذُدتُ طيرَ الودّ عن شجر القِلَى ولا صنتُ وجهَ الحمد عن كَلَفِ العَتْب
ولكنْ سأَكْنِى بالوفاء عن الجفا وأرضَى ببعدٍ بعدَ ما كان من قرب
وإن لفحتْنى من سمائك حَرْجَفٌ سأهتف : يا بردَ النسيم على قلبى !
وإنى إذا قلدتُ جاهَك مطالبى وأخفقتُ فيه ، قلت : يازمنى حسبى[1] !
أيُظلِم فى عينى كذا قمرُ الدجى وتنبو بكفى شفرةُ الصارم العَضْب ؟

وهذا أيضا مما نبّهتُ عليه قبلُ ، وعلى وقوعه نادراً ، حتى لا تعتل صحة المحكى عنه من ضياع منظوماته فى الانتجاع ؛ على أن حكم العتاب خارج عن هذا الباب .

وأما قصائده الشهيرة فى المعتمد وبنيه ، فلتوْفِيَة حق الاصطناع ، وتعفِيَة ما أوقعه فى الارتياع ، ودفعه / إلى الاستعطاف والاستشفاع . وإن أطلت [٩٦ - ٢] — بحسب الاضطرار — الكلام ، واستسهلتُ فى دعوى الاختصار للّامَ ، فلغرابة هذه الأخبار ، وبراعة ما يتخللها من الأشعار .

---

(١) وردت القوافى كلها دون الضمير المتصل .

ونعود إلى خبر ابن رشيق مع ابن عمار وما آل إليه أمره بعد ذلك : ذَكَر أبو بكر محمد بن يوسف بن قاسم الشلبي ما تلخيصه وإيجازه — مع زيادات تخيرتها ، وبعضه على المعنى دون اللفظ — أن ابن رشيق لما قرئ كتابُه — المتضمنُ دخولَه مرسية — بإشبيلية ، ارتاح ابن عمار وأعمل نظره فى اللحاق بها ، وأشار على المعتمد بذلك ، فما خالفه فُواقاً . فلم يترك ابنُ عمار بإشبيلية فى مِلك سلطانه ، ولا مِلْكِ أحـــد من معارفه ، فرساً عتيقاً ولا مطيةً ولا زاملةً ، إلا استخرج ذلك من أيديهم رغبةً ورهبةً ، حتى لاجتمع له مائةُ جَنيبة ومائة زاملة ، وأحضر له التجار ما بأيديهم على اختلاف بضائعهم ، من الديباج والخز إلى ما دون ذلك من نفيس الـكُسا ، ليعمَّ بذلك أهل مُرسية على قدر منازلهم عنده . ولم يَخْفَ عن ابن عباد وجهُ مراده ، فلما سلم عليه مودعاً قال له : « سر إلى خيرة الله ولا تظن أنى مخدوع » ، فقال : « لستَ بمخدوع ولـكنك مضطر » ، فخلع عنه .

وخرج من إشبيلية على باب مَقَرَانَة[1] ، وأقام بظاهرها أربعة أيام يستوفى أغراضه ، ثم رفع ألويته وقرع طبوله ، وسار لا يمر ببلد من أعمال ابن عباد إلا استخرج منه كل ذخيرة . حتى وصل إلى مرسية فدخلها فى يوم مشهور ، وابن رشيق بين يديه قد برز له ، وخرج يزفه إلى القصر . وجلس فى اليوم الثانى مجلسَ التهنئة للخواص والعوام ، فسجعت الشعراء بأمداحه ، وقد تزيَّى بزىٍّ

(١) مَقَرَانة — وتكتب أيضاً : مَقَرينة — حى من أحياء إشبيلية ، سمى بهذا الاسم نسبة إلى قصر رومانى قديم كان فيه يسمى قصر مكاريوس **Macarius** . وحتّى القرن الماضى كانت هناك حديقة تسمى **Campo de los Macarios** ، وقد زالت هذه الحديقة الآن ، وحلت محلها مبان حديثة . ويقع حى مقرينة شمال البلد ، ولا زال قسم من السور القديم باقياً هناك ، وفيه باب مقرينة المذكور هنا ، وهو ليس الباب العربى القديم ، بل هو باب جديد وضع فى القرن الثامن عشر ، ولا يمتاز بأى جمال .

C : RAFAEL LAFFON, *Sevilla* (Barcelona, 1958) p. 29.

ابن عباد فى حمل الطَّويلة على رأسه ، وحكاه فى التصيير[1] وكتب : « ينفذ هذا إن شاء الله » فى أسفل قرطاسه ، وتختَّم فى كلتا يديه . وبلغه أن ابن عبد العزيز عاب ذلك عليه ، فكتب إليه :

قل للوزير وليس رأى وزير ... [أن يُتبَعَ التنزير بالتندير][2]
ان الوزارة لو سلكت سبيلها ... وقف على التعزيز والتوقير
وأرى الفكاهة جُلّ ما تأتى به ... [رُحماك][3] فى التعجيز والتصدير
وصلت دُعابتُك التى أهديتها ... فى خاتم التأمين والتأمير [٩٧ - ا]
وأخالها للطاهرىّ[4] ، فإن تكنْ ... نخليقـــة التقديس والتطهير
ولعل يوماً أن يصيِّر نعتهُ[5] ... فى طينة التقديم والتأخير
وترى بلنسيّةَ وأنت قُدارها[6] ... سينالها التَّدميرُ من تُدْمِير

(١) الأصل : التصير ، وقد صوبها دوزى كما أثبتناه (بنوعباد : ٢/٩٨) . والتصيير يراد به هنا التوقيع على الأوامر ، كأن يكتب مثلا : يصير هذا ، أى ينفذ . راجع تعليق دوزى اللاتينى (هامش ٩٧ من نفس الصفحة) حيث يقول إن معنى الفعل فى هذه الحالة : effecit ut fieret

(٢) بياض بالأصل ، والتكلة من القلائد (ص ٦٤ ، فى ترجمة أبى عبد الرحمن محمد ابن طاهر) . وقد جعلها دوزى (بنوعباد : ٢/٩٨) : « أن يتبع التنديرُ بالتندير » .

(٣) بياض فى الأصل ، والتكلة من القلائد (ص ٦٤) . وقد ورد البيت هناك :

وأرى الفكاهة جلّ ما تأتى به ... رحماك فى التصدير والتظفير

(٤) المراد أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وقد سبق فى ترجمته ما يدل على اشتهاره بالفكاهة والنوادر .

(٥) فى القلائد : نَقشُه .

(٦) قُدار : رجل من ثمود يذهب المفسرون إلى أنه هو الذى أشار على قومه بعقر ناقة النبى صالح عليه السلام ، ويقولون إنه هو المراد بقوله تعالى فى سورة الشمس : « إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسولُ الله : ناقةَ الله وسقياها ، فكذبوه ، فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ، ولا يخاف عقباها » . وفى الأمثال : أشأم من قُدار .

وحكى غيره أن ابن طاهر هو الذى غمز على رسول ابن عمار المُعْلِم بخاتميه ، وأنه نسب أحدهما للمؤتمن بن هود والثانى لأذفونش بن فردلند[١] . وترجم أبو الطاهر التميمى على هذه القطعة فى مجموعه من شعر ابن عمار ، قال : وله للوزير[٢] الأجل أبى بكر بن عبد العزيز وقد ندَّر فيه حين بلغه أن أذفونش ملك الروم أعطاه خاتما عند اجتماعه به ولِياذِه ، فراراً من الوحشة الواقعة بينه وبين ابن عباد ، وتخوفاً منه ، فقال[٣] : أخاتم التأمير أم خاتم التأمين ؟ فقال ابن عمار ، واعتقد[٤] إنفاذها إليه ، وذكر الأبيات وزاد فى آخرها :

فرسا رهان أتيا فتجاريا لنقول فى التقديم والتأخير

قال ابن بسام : واستعمل ابنُ عمار خِساسَ عبيده على الحصون ، وأقطعهم الضياعَ ، وأعرض عن النصيح ، وأقبل على الغَبوق والصَّبوح ، وابنُ رشيق فى خلال ذلك يستبدل أولئك الأوباش ببنى إخوته وأخواته ، وكانوا جماعة . حتى إذا صارت عن آخرها فى ضبطه ، وعلم أن أمر ابن عمار قد نُقل لابن عباد ،

---

(١) المراد ألفونسو بن فرناندو الأول ملك ليون الذى وحد قشتالة وليون بعد حروب طويلة أعقبت موت أبيه سانشو الملقب بالكبير Sancho el Mayor . وكان فرناندو الأول من أكبر الملوك الذين ساروا بالحرب مع المسلمين المعروفة بالريكونكيستا ، ولهذا يوصف بالعظيم El Magno . وخلف فرناندو الأول هذا ابناه : سانشو الثانى ملكاً على قشتالة وألفونسو على ليون ، ثم دارت حروب طويلة بين الأخوين انهزم ألفونسو خلالها ولجأ إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة . وبعد موت أخيه سانشو اعتلى عرش قشتالة وليون باسم ألفونسو السادس ، وهو الذى استولى على طليطلة ، ثم انهزم فى موقعة الزلاقة . ومعظم علاقات ملوك الطوائف مع ألفونسو السادس ابن فرناندو الأول هذا .

Cf : **RAFAEL BALLESTEROS Y BERETTA**, *op. cit*, II, p.296 sqq.

(٢) فى الأصل : بالوزير ، وما أثبتناه أصح (وانظر أيضاً : بنوعباد ٢/٩٩) والمراد : ولابن عمار مخاطباً الوزير أبا بكر بن عبد العزيز .

(٣) أى قال ابن عبد العزيز متندراً بابن عمار .

(٤) اعتقد هنا معناها : عزم على ، أو قرَّر . . وهو استعمال شائع فى الأندلس .

قطع عنه تلك المواد ، وأغرى الأجناد بطلب أرزاقهم منه ، فأيقظته الضرورة من سنة البطالة . وفى مدة إقبـــاله على سفاهته ، كان ابن عباد يستلطفه بأعيان الأصحاب ، فيذكِّرونه بالأذِمَّة ويوعدونه على [... ... ...] وجاهَرَ به(١)

وكتب إليه المعتمد :

تغيَّر لى ــ فيمن تغير ــ حارثُ ورب خليلٍ غيرته الحوادثُ

أحارثُ إن شوركتُ فيكَ فطالما نَعِمنا وما بينى وبينكَ ثالثُ

فجاوبه ابن عمار :

لكَ المثَلُ الأعلى ، وما أنا حارثُ ولا أنا ممن غيرته الحوادثُ

/ولا شاركتْك الشمسُ فىّ وإنهُ لينأى بحظى منك ثانٍ وثالثُ [٩٧-ب]

فديتُك ، ما للبشر لم يَسْرِ برقهُ ولا نَفحتْ تلك السجايا الدمائثُ

أظن الذى بينى وبينَك أذهبتْ حلاوَتَه عنى الرجالُ الأخابثُ

تنكَّرتَ ، لا أنى لفضلك ناكرٌ لدىَّ ، ولا أنى لعهدك ناكثُ

ولكن ظنونٌ ساعدتْها نمائمٌ كما ساعدتْ صوت المثانى المثالثُ

أبعدَ انقضا خمسٍ وعشرين حجةً(٢) تجافتْ لنا عنها الخطوبُ الكوارثُ

مضتْ لم ترَبْ منى أمورٌ شوائبٌ ولا تُليَتْ عنى مساع خبائثُ

(١) الفراغ بين الحواصر بياض بالأصل ، وعبارة « وجاهر به » يمكن أن تقرأ « رجا هربه » ، وهكذا قرأها دوزى (بنوعباد: ٢/١٠١) ، ولكننى أرى أن الصواب ما أثبتُّه . ويمكن أن تقرأ العبارة هكذا : فيذكرونه بالأذمة ، ويوعدونه على [ما ذهب إليه من العصيان] وجاهر به .

(٢) فى الذخيرة (قسم ٢ مخطوطة بغداد ، ص ٢٦٨) جاء صدر هذا البيت هكذا :

* ألمَّا مضت خمسٌ وعشرون حجة *

وهو أبلغ ، وأشبه بابن عمار .

حللتَ يداً بى هكذا ، وتركتَنى نِهاباً ، ولِلأيام أيدٍ عوابثُ
وهل أنا إلّا عبدُ طاعتِك التى إذا مِتُّ عنها قام بعدىَ وارثُ ؟
أعِدْ نظراً ، لا توهنِ الرأىَ ، إنهُ قديماً كَبَا هافٍ وأدرك رائثُ
ستذكُرنى إن بان حَبلى وأصبحتْ تئنُّ بكفيكَ الحبالُ الرثائث
وتطلُبُنى إن غاب للرأى حاضرٌ وقد غاب منى للخواطر باعث
أعوذُ بمودٍ نُطتَهُ بكَ أن تُرى تحلُّ عراه العاقداتُ النوافث

وذكر ابن بسام هذا الشعر بعد أن قال : وأفضت الحال بالرشيد إلى الاعتقال بأيدى نصارى الإفرنجة فى جملة من المال كانوا أكثروا بها[1] ، فحبسوا الرشيد بسببها إلى أن افتكَّه أبوه المعتمد فى خبر طويل . وابن عمار صاحب ذلك الرحيل[2] ، والملوم فى المعلوم من أمره والمجهول ، وفسادُ حاله عند المعتمد يتزايد ، وتدابُرُه يتساند . وفى أثناء ماوقع من تدبير تلك الأمور ، ونجوم ذلك الاستيحاش والتغيير ، خاطبه المعتمد عاتباً متمثلا بهذين البيتين — وقد كان خرج عنه — وأوردها[3] وجواب ابن عمار إلى آخره .

---

(١) سبق أن ذكرنا هذا الخبر فى تعليقاتنا على ترجمة أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر ، والمراد هنا أن رامون بيرنجير الثانى أكثر فى المطالبة بالمال الذى وعده به ابن عمار فى نظير معاونته فى الحصول على مرسية لتضم إلى أملاك المعتمد بن عباد .

(٢) فى الأصل : الرعيل ، وجعلها دوزى (بنوعباد : ١٠٢/٢) : الدغيل ، والتصويب من الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٦٧) ، وابن عمار كان صاحب الفكرة فى الخروج إلى شرق الأندلس مع الرشيد بن المعتمد بجيش من إشبيلية للاستيلاء على مرسية — وبلنسية إن أمكن — بمساعدة كونت برشلونة فى الأولى وألفونسو السادس فى الثانية . وقد اشتهر ابن عمار بمداخلته للنصارى وقدرته على إقناعهم وكسب جانبهم ، ولهذا رأينا المعتمد يقول له عند وداعه : « إننى لست مخدوعاً » فرد عليه ابن عمار : « إنك لست بمخدوع ، ولكنك مضطر » ، أى مضطر إلى الاستعانة به فى هذا المطلب .

(٣) أى أن ابن بسام أوردها .

قال ابن قاسم : فكان لاينثنى عن هواه ، ولا يزلّ عن مرقاه ، حتى قال له من كان يعصيه من نصاحه : / تعرف الحصنَ الفلانى ؟ قال : نعم ، أليس صاحبه فلان من عبيدى ؟ فيقول له : لا والله ! ما فيه إلا فلان ابن أخى ابن رشيق ، أو ابن أخته(١) . وجعل يعدد له المعاقل ، ويذكر خروجها من أيدى ثقاته ورجاله ، فسُقط فى يده ، وفر على وجهه من مرسية إلى جليقية ، لاحقاً بأذفونش بن فردلند(٢) ، وشاكياً إليه غدرَ ابن رشيق رجاء إعدائه عليه . لم يذكر ابن قاسم مروره ببلنسيّة فى خروجه من مرسية ، وهو صحيح . وفى ذلك يقول يخاطب ابن عبد العزيز صاحبها ، وقد أخرج إلى لقائه رجلا استجهله(٣) : [٩٨ - ١]

تناهيتُمُ فى برنا لو سمحتُمُ ... بوجهِ صديقٍ فى اللقاء وسيمِ

وسَلسَلتمُ راحَ البشاشة بيننا ... لو أنكم ساعدتمُ بنديمِ

سألتمسُ العذرَ الجميلَ عن العُلا ... وأحتالُ للفضلِ احتيالَ كريمِ

وأثنى على روض الطلاقة بالجنى(٤) ... وإن لم أفز من نَشْره بنسيمِ

(١) جاء فى مذكرات الأمير عبد الله الزيرى : « وقدم إلى مرسية ابنُ رشيق ، فكان يطويها وينشرها ، وشبّك عليه المعاقل بقرابته ، واتخذ لنفسه صنائع مدة غفلة ابن عمار عنه ، وإقباله على راحته » .

(٢) الأصل : فرندلند . والصيغة العربية للاسم أقرب إلى صورته الأصلية **Ferdinandus** وهى مأخوذة من صيغة الأبلاتيف للاسم : **Ferdinando** مع قلب حرف **n** الأول إلى **l** . والمراد ألفونسو السادس .

وانظر عن محاولات ابن عمار مع ألفونسو السادس « مذكرات الأمير عبد الله الزيرى » ص ٨٠ – ٨١ .

(٣) جاء فى الذخيرة (قسم ٢ ، مخطوطة بغداد ، ص ٢٦٠) : « اجتاز ببنى عبد العزيز على بلنسية ، وكانوا يضمرون عداوته ، وتخلفوا عن لقائه ، وناب فى ذلك عنهم أقوام عوام ، فكتب إليهم . . »

(٤) الذخيرة (نفس المخطوطة والصفحة) : بالحيا .

بخلتم بأعيانِ الرجال[1] على النوى فلم تصِلُونا منهمُ بزعيم
ولكنْ سأستعدِى الوفاء وأقتضِى سماحَك بالأنسِ اقتضاء غريم

وحكى ابن بسام — فى أخبار ابن عمار من تأليفه — أنه قال هذا الشعر فى بعض رسالاته عن المعتمد واجتيازه ببلنسية ، لا عند فراره من مرسية .

قال ابن القاسم : وقد كان ابن رشيق قدَّم الحزمَ ، فاستمال أذفونش بألطافه وهداياه ، وغيَّره على ابن عمار ، فانصرف خائباً . ويقال إنه قال له بلسانه : « يا ابن عمار ، مثلك مثل السارق ، سرق السرقة فضيَّعها حتى سُرقت منه » . وعند ذلك عدل إلى سرقسطة ، بظاهِرِ الخدمة لواليها المؤتمن أبى عمر يوسف بن المقتدر بن هود والنيابة عنه بالوزارة ، فأمر له بدار تحمله ومن معه ، وأدرَّ عليه من الإجراء ما وسِعهم ووسِعه ، وتجافى عنه مع ذلك فأقام على البطالة مقبلا ، وفى ذلك يقول وقد عُذِل عن الإدمان :

نقمتم علىَّ الراحَ أدمِنُ شُربَها وقلتم : فتى لهوٍ وليس فتى مجدِ
/ ومن ذا الذى قاد الجيادَ إلى الوغى سواى، ومن أعطى كثيراً ولم يُكْدِ؟ [٩٨ - ب]
فدَيتُكمُ . لم تفهموا السرَّ ، إنما قليتُكمُ جهدى فأبعدتكم جهدى

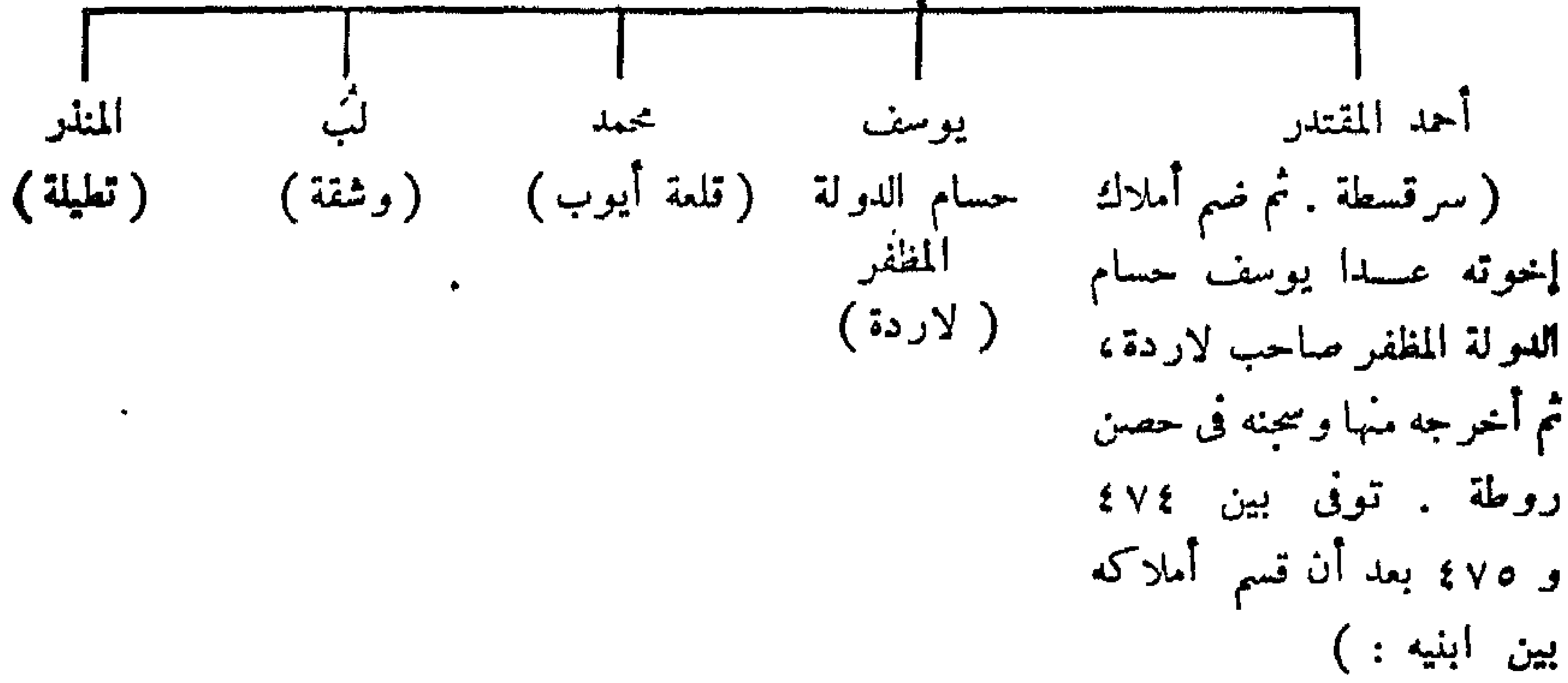
وحكى غيره أنه سئم تلك الحالة ، فرحل إلى صاحب لاردة المظفر حسام الدولة أبى عمر يوسف بن سليمان المستعين ، وكان أكبر أولاده والذى يُحادّ المقتدر لما كان عليه من الشجاعة والأدب ، المفضل به على أهل بيته[2] ، فأكرمه

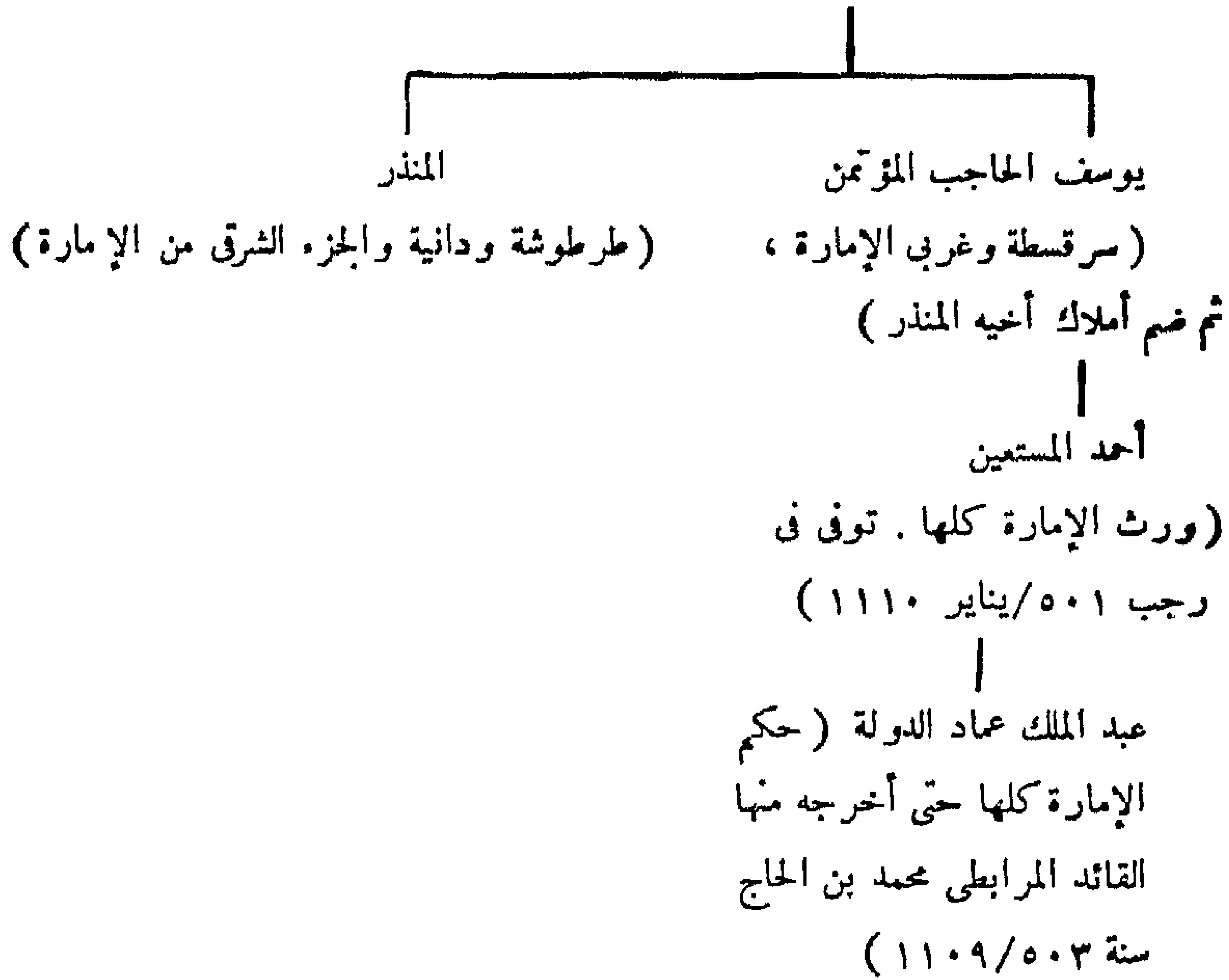
(١) الذخيرة : ضننتم بأعلاق الرجال .

(٢) هنا خطأ فى سرد أسماء أمراء بنى هود وتسلسلهم ، ولتصحيحه نورد فيما يلى جدولا بأمراء هذه الأسرة ليستعين به القارئ على تصحيح الخطأ :

سليمان بن محمد بن هود :

(أول من استبد بالثغر الأعلى من بنى هود . استولى على لاردة سنة ٤٣١ ثم سرقسطة وبقية الثغر سنة ٤٣٨ وقبل موته قسم أملاكه بين أولاده الخمسة) :





سنة ٥١٢ / ١١١٨ سقطت سرقسـطة والثغر الأعلى نهائياً فى يد ألفونسو المحارب بعد وفاة محمد بن عبد الله مزدلى آخر قواد المرابطين وحكام المسلمين فى الثغر الأعلى .

وأنزله ثم [.....][1] وكرّ عائداً إلى سرقسطة . وبلاردة قال قصيدته الفريدة التى أولها :

علىَّ ، وإلا ما بكاء الغمائم ِ وفىَّ ، وإلا ما نياحُ الحمائم ِ ؟

و[. . .][2] أنفذها إلى المعتمد وهى تُنيف على تسعين بيتاً ، مرَّ له فيها إحسان كثير . ومن فاحش الغلط قول ابن بسام أن ابن عمار قال هذه القصيدة لما خاف من المعتضد لغلبته على ابنه المعتمد ، ففر من إشبيلية ولحق بشرق الأندلس ، وتمكن من المؤتمن بن هود . قال : ومن هنالك خاطبه بها ، فلما قرعتْ سمع المعتمد وجَّه عن ابن عمار على الترغيب والتمكين واستوزره عدة سنين ، إلى الميقات المضروب والأجل المكتوب ؛ حكى ذلك فى « كتاب الذخيرة »[3] .

وفى أخبار ابن عمار من تأليفه — ولا أدرى كيف غاب عنه — أن ما ادعاه — لو صح — كان قبل الستين أو الخمسين وأربعمائة ، وولايةِ المؤتمن فى جمادى الأولى سنة أربع وسبعين . ولِقائل أن يقول : لعل ابن عمار صحبه فى حياة أبيه المقتدر ، وهو إذ ذاك مرشح لمكانه ، فيلزمه أن يأتى على مقاله بما يؤمِّنه من إبطاله . والمتعارف أن ابن عمار لم يصحب المؤتمن بسرقسطة ، إلا عند فراره من مرسية . فغلطُ ابنِ بسام لا خفاء به ولا امتراء فيه .

قال ابن قاسم : واتفق أن انتزى عامل لابن هود — يعنى المؤتمن —

— انظر بحثنا : سرقسطة والثغر الأعلى فى عصر المرابطين . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد ١١ ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ .

(١) بياض فى الأصل .

(٢) بياض بالأصل ، ويبدو أنه لم يسقط شىء ، فإن الكلام متصل فى غير حاجة إلى زيادة .

(٣) قال ابن بسام ذلك فى القسم الثانى (مخطوطة بغداد) ص ٢٤٩ .

فى معقل منيع من أعماله ، وكانت بينه وبين ابن عمار معرفة ، فضمن له استنزاله . وسار إليه ، فلما نزل بساحته تشوّف ذلك العامل إلى برِّه ، ولم يرَ بأساً فى إرقائه إلى قصبة حِصنه فى رَجُلين من جملته ، فأوعز ابنُ عمار إلى الصاعدَين معه أن : « صُبّا سيفَكما عليه إذا رأيتمانى أماشيه ويدى فى يده ، ولو قتلتمانى وإياه » ، ففعلا ذلك . وفر أصحابه عند قتله وألقوا بأيديهم إلى ابن عمار ، متطارحين / عليه [٩٩ - ا] ومستشفعين به إلى المؤتمن ، فضمن لهم تأمينه إياهم وصفحه عن جناياتهم ، وخاطبه بذلك فورد جوابه بإمضاء ما التزمه عنه من الإغضاء ، ولَطُف محلُّه عنده واستأنف الاعتناء بشؤونه ، فخاطب المعتمد فى تسريح عياله وأبنائه الذين بإشبيلية ، فلم يَبعُد له عن الإسعاف . على أنه كتب فى أثناء مراجعته يحذره منه :

والشيخ لا يترك أخلاقَهُ حتى يُوارَى فى ثرى رمسِهِ
إذا ارعوى عاد إلى ضدهِ[1] كذى الضَّنى عاد إلى نكسه

قال : وكان إقبالُ الدولة علىُّ بن مجاهد صاحب دانية ، قبل غلبة ابن هود عليه — يعنى المقتدر ، وذلك فى شعبان من سنة ثمان وستين وأربعمائة — قد استعمل ابنَه سراجَ الدولة على معقل شَقُورَة ، فلما استولى المقتدر على دانية واحتمل أباه إلى سرقسطة ، انفرد هو بشقورة و [ضبطها][2] ثم مات حتف أنفه وخلف على حُرَمه وولده فى قصبتها عبدَين ، أبوهما عبد لأبيه من سَبْى سردانية ، هما إبراهيم وعبد الجبار ابنا سُهَيْل ، فرأيا أنهما لا يستقلان بضبط المعقل ، فجعلا يساومان به الرؤساء المحيطين بهما ، حتى وصلت إشارتهما[3] إلى المؤتمن بن هود . فللذى اتفق لابن عمار قبلُ مع عامل المؤتمن المنتزى عليه ،

---

(١) المشهور : إذا ارعوى عاد إلى غيِّه .

(٢) بياض فى الأصل ، وقد أضفت هذه الكلمة للسياق .

(٣) الأصل : إشادتهما .

سولت له نفسه الخائنة إعمال تلك الحيلة فى ابنى سُهَيل ، أو استنزالهما بالإرغاب فى الثمن ، فضمن لابن هود أمرهما ، وطلب منه تجهيزه فى عسكر يستعين به على محاولته ، فأسعفه . ولما وصل إلى حضيض شقورة لم يقدِّم شيئاً على الصعود إليهما مع صاحبيه الملازمين له ، وهما « جابر » و « هادٍ » اللذان يقول فيهما من كلمة له :

عطَّلتُ من حَلْيِ الرِّكاب جيادى وسَلبتُ أعناقَ الرجال صِعادى
فإذا كُسرتُ فثَمَّ خِدنٌ « جابرٌ » وإذا ضَلَلتُ فثم آخرُ « هادِ »

كذا أنشد ابن قاسم ، ولا يُعرف هـذا البيت فى قصيدته . وهى شهيرة جليلة ، يراجِـع بها أبا عيسى بنَ لَبُّون أو أخاه أبا محمد . والبيت الأول يرويه أبو الطاهر التميمى :

[٩٩ - ب] /عَطَّلتُ من حَلْيِ السروج جيادى وسلبتُ أعناق المَطى صِعادى

قال : ولـما انتهى ابن عمار من مصعدها إلى دَرَجٍ لا يتخطاه الصاعد حتى يُجذَب بضَبْعِهِ ، تقدم هو فرُفع بالأيدى ، وأشير على صاحبيه فولَّيا منحدرين . واحتُمل هو إلى ذِروة القصبة فشد وِثاقه ، وانصرف عسكر سرقسطة . وكان ابن عمار قد أحفظ هذين العبدين ، حين كتب أيامَ رئاسته بمرسية إليهما بشعر أوله :

شمخت بكم فشمختُمُ الأجبالُ [... ...][1] تستنزل الأفعالُ

وبعد قبضهما عليه طلبا بيعه من رؤساء الأندلس ، فتثاقلوا جميعاً عن ذلك ، وخفَّ ابنُ عباد إليه ، فأنفذ نحوَهما بكل ما سألاه ابنَه يزيد المسمى بالراضى ، فنزلا على حكمه وأسلماها إليه وإياه إليه[2] . فقدَّم على الحصن ، وانصرف إلى أبيه

(١) بياض فى الأصل .
(٢) أى أسلما قصبة شقورة وابن عمار إلى يزيد الراضى بن المعتمد .

المعتمد وهو بقرطبة ، وابن عمار بين يديه مقيد بين عِدْلَىْ تِبْنٍ على هُجُنٍ زوامل العسكر ، وميل به إلى سجن قد أعد له . وعند قدوم الراضى شقورة لتسلمه كتب إليه :

قالوا : أتى الراضى ، فقلتُ : لعلها[1] ... خُلعت عليه من صفات أبيهِ
فألٌ جرى فيه المؤيد واهباً ... لىَ من رضاه ومن أمان أخيه
قالوا : نعم ، فوضعتُ خدى فى الثرى ... شكراً له ، وتيمُّناً ببنيه
يا أيها الراضى وإن لم تلقنى ... من صفحة الراضى بما أدريه
هَبْكَ احتجبتَ لوجهِ عذرٍ بيِّنٍ ... بَذلُ الشفاعةِ أىُّ عذرٍ فيه ؟
سهِّلْ على يدك الكريمة أحرفاً ... فى من أسرتَ فتنثنى تَفْديه

ولما قارب قرطبةَ قال يخاطب المأمونَ الفتح بن المعتمد مستشفعاً به :

هلا سألت شفاعةَ المأمونِ ... أو قلتَ ما فى نفسه يكفينى ؟
ما ضر لو نبَّهتَه بتحيةٍ ... يسرى النسيمُ بها على دارِين[2]

يقول فيها :

بيدٍ من « المأمون » أوثقُ عصمةٍ ... لو أن أمرى فى يد المأمونِ[3]

---

(١) فى الأصل : لعله .

(٢) المراد هنا دارِين التى ذكرها ياقوت (٤/٢٥) وقال إنها فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ، وذِكرُها كثير التوارد فى الشعر العربى . والمراد – إذا صح هذا – تحية تحمل عطر المسك .

(٣) فى الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٨٠) :

بيدى من المأمون أوثق عصمة ... ولو أن أمرى فى يد المأمون

وهذه الرواية أصح . وقد وردت « بيدى » فى المخطوط مصحفة : بيدى .

وعلى هذه الصورة تكون « المأمون » الثانية كناية عن المعتمد نفسه ووصفاً له بأنه مأمون .

[١٠٠-١] /أمرى إلى ملكٍ إليـــه أمره وكفاه من فوق ، كفاه ، ودُونِ[١]

يا « فتحُ » جرِّدها عنايةَ فارسٍ[٢] دَرِبٍ على نصر الولىِّ أمينِ[٣]

واقْرِن شفاعتَك الكريمةَ عنده بتواضع عن عزةٍ ، لا هُونِ

فى شِكةٍ من هيبةٍ وسكينةٍ وبضجةٍ[٤] من رحمـة وحنينِ

يا فتحُ إنْ نازلتَه مستنزلاً فاهنأ بفتحٍ من رضاه مبينِ

[وليخلُصنّ إليك][٥] من أنفاله عِلقٌ يَشُد عليه كفّ ضنينِ

وكتب إلى الرشيد بن المعتمد يستشفع به :

قل لبرق الغمام : ظاهِرْ بريدى قاصداً بالسلام قصرَ الرشيدِ[٦]

فتقلَّبْ فى جوِّه كفؤادى[٧] وتناثَر فى صحنـــه كالفريد

---

(١) فى الذخيرة (نفس القسم والصفحة) :

* وكفاك من فوق ، كفاك ، ودون *

(٢) كلمة « فارس » هنا مستعملة استعمالا لطيفاً يشبه استعمال ما يقابلها فى الإسبانية caballero ، ويراد به الرجل الشهم الكريم ذو الأريحية .

(٣) فى الذخيرة :

* بطلٍ على حربِ الولىِّ أمينِ *

(٤) وردت هذه الكلمة على هذه الصورة فى الذخيرة أيضاً ، ولكن المعنى يقتضى أن نقرأ هنا : ونصيحةٍ .

(٥) بياض فى الأصل أكلته من الذخيرة ، ونص المصراع هناك :

* وليخلصن إليك من أعلاقه *

(٦) فى الذخيرة :

قل لبرق الغمام مظهراً لبريـد قاصداً بالسلام قصر الرشـيد

وفيه خطأ عروضى فضلا عن عدم انسجام المعنى .

(٧) الأصل : كفو ، وجعلها دوزى (بنوعباد : ٢/١١١) : كفوج ! وقد أكملت اللفظ من نص الذخيرة .

وانتحبْ فى صلاصِلِ الرعد تحكى ضجّتى فى سلاسلى وقيودى
فإذا ما اجتلاك أو قال : ماذا ؟ قلتَ : إنى رسول بعضِ العبيد
بعضُ من أبعدته عنك الليالى فاجتنى طاعة المحب البعيد

ثم قال يخاطب المعتمد وهو بقرطبة :

سجاياك — إن عافيْتَ — أندى وأسمحُ وعذرُك — إن عاقبتَ — أجلى وأوضحُ
وإن كان بين الخطّتين مزيّةٌ فأنت إلى الأدنى من الله أجنحُ
حنانيْك فى أخذى برأيك ، لا تُطع وُشاتى ، ولو أثنوْا علىّ وأفصحوا
وإنّ رجائى أنّ عندك غير ما يخوض عدُوى اليومَ فيه ويمرح
ولِمْ لا ، وقد أسلفتُ ودًّا وخدمةً يكرّان فى ليل الخطايا فيُصبح ؟
وهبْنى قد أعقبتُ أعمالَ مفسدٍ أما تفسَدُ الأعمالُ ثُمّتَ تَصلُح ؟
/أقِلنى بما بينى وبينك من رضًا له نحو روح الله بابٌ مفتّحُ [١٠٠-ب]
وعفٍّ على آثار جُرمٍ جنيتهُ بهبّة رُحمَى منك تمحو وتُمصِح(١)
ولا تستمع زور الوشاة وإفكهم(٢) فكل إناء بالذى فيه يرشح
سيأتيك فى أمرى حديثٌ ، وقد أتى بزُور بنى عبد العزيز مُوشّح
تخيّلتهم(٣) ، لا درّ لله درّهم ! أشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا

(١) مصح الكتاب يمصَح مصوحاً : دَرَس أو قارب ذلك (اللسان : ٣/٤٣٥) وهو لازم لا يتعدى إلا بالباء أو بالهمزة فيقال مَصَحْتُ به أو أمصَحْتُه ، ولهذا شكلته : تُمْصِح .

(٢) الورقة التى تضم بقية القصيدة فى مخطوط الذخيرة (القسم الثانى) عندى ناقصة . وقد راجعت هذه البقية على نصها عند عبد الواحد المراكشى فى المعجب ، ص ١٢٧ . ونص هذا المصراع عنده :

* ولا تلتفتْ قول الوشاة ورأيهم *

(٣) فى المعجب (ص ١٢٦) : كأنى بهم .

وما ذاك إلا ما علمتُ ، فإننى إذا ثُبْتُ لا أنفك آسو وأجرح
وقالوا : سيَجزيه فلانٌ بذنبه فقلتُ : وقد يعفو فلانٌ ويصفح
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمى[1] ولـكن عفواً للمؤيد يرجُح
وبين ضلوعى من هواه تميمةٌ ستنفع لو أن الحِمام يُجَلِّح[2]
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا سوى أن ذنبى ثابتٌ متصحِّح
نعم لى ذنبٌ ، غير أنَّ لِحلمِه صَفاةً يزلُّ الذنبُ عنها فيفصحُ
سلامٌ عليه كيف دار به الهوى إلىّ فيدنو ، أو علىّ فينزَح
ويهنيه إن متُّ السُّلُوُّ فإننى أموت وبى شوق إليه مبرِّح

وكل ما صدر عن ابن عمار فى نـكبته فمن حُرِّ كلامه ، وكفى بهذه القصيدة حُسن براعة ولطف ضراعة . وقد كان خاطب المعتمد قبل ذلك من معتقله بأبيات منها :

والله ما أدرى إذا قالوا : غداً يوم اللقاء
ما أقتـــلَ الحالين لى إن كان خوفى أو حيائى

فما أصغى إليه ولا أبقى عليه .

وحكى أبو محمد عبد الملك بن أحمد بن صاحب الصلاة الباجى ، عن بعض الـكُتَّاب ، أنه ماشَى أبا جعفر بن عَطية الوزير — فى صَدَره عن الأندلس

(١) وردت الكلمة فى الأصل : يوتمى ، والتصويب من المعجب .

(٢) الأصل يجلّح ،وقد صوبتها بعد مراجعة لسان العرب (٣/٢٤٩ — ٢٥٠) والمراد يُزال أو يُكشف .

إلى مراكش ، وقد أحس بالتغير / عليه وتمكّن أعدائه منه فى مغيبه ، وذلك [١٠١-ا]
فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة — قال : فرأيته مستوحشا قلقاً ، فاستدنانى
واستنشدنى قول ابن عمار :

سجاياكَ - إن عافيتَ - أندى وأسجحُ وعذرك - إن عاقبتَ - أجلى وأوضحُ

فأنشدته القصيدة إلى آخرها ، فلما أكملتها قال : لقد كان ابن عباد
قاسيَ القلب .

وقول ابن عمار فيها : « سيأتيك فى أمرى حديثٌ » البيت ، أراد به
الوزيرَ الأجلَّ أبا بكر أحمد بن محمد بن عبد العزيز ، وكان واحدَ وقته رفعةً
وجلالةً ، وضدَّ ابن عمار صيانةً وأصالةً ، فتولَّع بانتقاصه ، وغَرِيَ[1] بذمِّه ،
فكان لا يصدُر عنه مجتازٌ به إلا أبلغه قدْحَه ، ولا يَرِد عليه شاعر إلا ألزمه
ثَلْبَه ، ولا يحضره ضيف إلا أسمعه استراحتَه فيه ، تعرُّضَ المشروف للشريف ،
حتى لخاطَب أهلَ بلنسية يغريهم به ويحضهم على القيام عليه . وقيل : إنما قال
ذلك حين غدره ابن عبد العزيز فى حصن « جُمِلَّة »[2] من أعمال مرسية[3] :

خَبِّر بلنسيةً ، وكانت جنةً أنْ قد تدلَّتْ فى سواء النارِ
غدرتْ وفيًّا بالعهود ، وقلما عَثَر الوفيُّ سعَى إلى الغدّار
يا أهلَها من غائبٍ أو حاضرٍ وقطينَها من راسخٍ أو طارِ

(١) أى أُولِعَ ، والمراد أن ابن عمار هو الذى تولع بذم ابن عبد العزيز .

(٢) جُمِلَّة Jumilla مدينة فى مديرية مرسية ، وهى مركز إدارى وقاعدة بلدية ، على ٧٤ كيلومتراً من مرسية .

Cf : *Diccionario Geográfico de España*, tomo XI, p. 290 - 292.

(٣) قال ابن بسام هنا (الذخيرة قسم ٢ ص ٢٧٠) : وفى بنى عبد العزيز أيضاً يقول (أى ابن عمار) مغرياً بهم ، خاطباً لنفسه ، ونحلَها ابنَ المطرز الشاعر .

جازوا بنى عبدِ العزيز فإنهمْ جرّءُوا إليكم أسوأ الأقدار

يقول فيها :

جاء الوزيرَ بها يكشِّف ذيلَه عن سوءةٍ سَوْءى وعارٍ عارِ

نكث اليمينَ وجار عن سَنَن التقى وقضى على الإقبال بالإدبار

آوى لينصُر من نَبَا المثوى بهِ ودهاه خِذلانٌ من الأنصار

ما كنتمْ إلا كأمةِ صالحٍ فرماكُمْ من طاهرٍ[1] بقُدَار

هذا وخصَّكمْ بأشأمِ طائرٍ ورمى ديارَكمْ بألأمِ جارِ

وفى هذه القصيدة :

كيف التفلُّتُ بالخديعة من يدىْ رجلِ الحقيقةِ من بنى عمارِ

[١٠١–ب] / فذيَّله المعتمدُ — لما اتصل به هذا الشعر — بقوله معرِّضا بابن عمار وزاريًا عليه .

الأكثرين مُسوَّداً وملَّكاً ومتوجًا فى سالف الأعصارِ

والمؤثِرين على العيال بِزادهمْ والضاربين لِهامةِ الجبـــار

الناهضين من المهود إلى العلا والمُنهِضين الغارَ بعد الغار[2]

إن كوثِروا كانوا الحصى،أوفوخِروا فمن الأكاسرِ من بنى الأحرار

يُضحِى مؤمِّلُهم يؤمَّلُ سيبهُ ويبيتُ جارُهمُ عزيزَ الجار

---

(١) الأصل : ظاهر ،والتصويب من الذخيرة (قسم ٢ — ص ٢٧١) والمرادأبوعبدالرحمن محمد بن طاهر.

(٢) هذه أيضاً رواية الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٧٢) ، ولكن دوزى جعلها :

* والمنهضين القار بعد القار *

تبكي عليهم شَنَّبُوسُ بعَبرةٍ كأَتِيِّها المتدافع التيـــار

يقول فيها :

ياشمسَ ذاك القصرِ ، كيف تخلّصتْ فيه إليكِ طوارقُ الأقـــدارِ
[لما] تنَلْكِ شَعوبُ حتى جاوزتْ غلْبَ الرقاب وسامىَ الأسوار(١)

يريد بشمسٍ أمَّ ابن عمار ، وبشَنَّبُوس قرية أوائله من نواحى شِلْب — فاهتاج ابن عمار لذلك واستوحش . وبلغت أبياتُ المعتمد إلى ابن عبد العزيز فطار بها سروراً ، وأحدثت له فى نفسه على ابن عمار مكيدة ، وذلك أنه دس إلى مرسِية نبيلاً من يهود الشرق(٢) ، لابَس ابنَ عمار حتى اطمأن إليه ، وأحله محل الرواية لأشعاره فى هجاء ابن عباد ، ومن ذلك قوله :

ألا حَيِّ بالغرب حيًّا حِلالا أناخوا جِمالاً وحازوا جَمالاَ
وعَرِّجْ بيَوْمِينَ(٣) أمَّ القُرى ونَمْ ، فعسى أن تراها خيالا

---

(١) أكملت بياض الأصل فى هذا البيت من الذخيرة ، ونصه هنالك :

لما تنلك شعوب حتى جاوزت غلب الرجال وسامى الأسوارِ

قال ابن بسام فى الذخيرة بعد أن أتى بهذه الأبيات (قسم ٢ ص ٢٧٣) : وشنبوس التى ذكر هى قرية ببادية شلب ، كانت مقرسلف ابن عمار . وقوله : «يا شمس ذاك القصر» كانت والدة ابن عمار — زعموا — كانت تدعى بشمس مصغرة » وعلى هذا فقد كان اسمها شميس أوشميسة .

(٢) قال ابن خاقان فى ترجمته لابن عمار فى القلائد (ص ٩٢) فى سياق نماذج من شعره : فمن بديع ذلك ما طالع به أبا الفضل بن حسداى يصف موضعه المعتقل فيه :

أدرك أخاك ولو بقافيـــة كالطَّل يوقظ نائمَ الزهـر

ومن المعروف أن أبا الفضل بن حسداى كان صديقاً لأبي بكر بن عبـــد العزيز ، وهو الذى كتب خطابات الدعوة لزواج المستعين بن المؤتمن بن هود ببنت أبي بكر بن عبد العزيز (راجع ترجمة أبي الفضل بن حسداى فى القلائد ، ص ١٨٤ — ١٨٥) . فهل يكون هذا هو اليهوى الذى استعان به ابن عبد العزيز فيما أراد بلوغه من ابن عمار؟

(٣) كذا ضبطت فى الأصل ، وقد سبق أن ذكرنا فى تعليقاتنا أن رسمها يُورِيين أضبط .

لتسأل عن ساكنيها الرماد ولم تر للنـــار فيها اشتعالا

وفيها إقذاع . ومنها :

سأكشف عِرضك شيئًا فشيئًا وأهتك سترك حالاً فحالا

ويَوْمِينُ اسم قرية منها أوَّلِيَّة بنى عباد ، فلما حصل اليهودى منها — وهى بخط يده — على بغيته ، طار بها صادراً إلى ابن عبد العزيز ، فطيَّرها مُدرَجةً طىَّ كتابه إلى المعتمد ، فكان ذلك مما أحنقه / على ابن عمار وأحفظه . [١٠٢ – ا]

ولما أتاه به ابنهُ يزيدُ الراضى ، أقام بقرطبة عدة ليالٍ يُحضره فى كل ليلة منها راسفاً فى قيوده ، فيقرره على غدره ويوبخه بفعله ، ويوقفه على أشعاره المدرجة إليه طىَّ كتاب ابن عبد العزيز . ثم انحدر به إلى إشبيلية فسجنه فى بيت خامل من بيوت القصر أياماً ، ثم قتله بيده . وكان أسرُه بشَقُورَة لستٍّ بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وقدومُ الراضى به على قرطبة يوم الجمعة السادس من رجب فيها .

وقيل إن القادِمين به مع الراضى لما سلموه إلى القصر ، دُعوا ذلك اليوم بعد العصر فى سلاحٍ شاكٍ وتعبئة ظاهرة ، ليصحبوه إلى إشبيلية ، فأقاموا على ذلك إلى الليل ينتظرون تسليمه إليهم ، ثم لم يرعهم إلا خروج المعتمد والشمع بين يديه ، والُحرَمُ حواليه ، وابن عمار بينهن على بغل ، وهن يهزأن به ويتضاحكن منه ، فأعرَبتْ حاله يومئذ بمبادئها عن سوء العاقبة فيها . وورد على المعتمد غيرُ ما خطابٍ فيه بالشفاعة ، فسدَّ الباب فى ذلك وشدَّ صِفادَه[1] هنالك .

---

(١) الأصل : صفاره . وجعلها دوزى (بنوعباد : ١١٨/٢) حصاده . وقد راجعتها على نص الذخيرة ، وابن الأبار يتابعه هنا ، وصوبتها من هناك (قسم ٢ ص ٧٥ ٣)

وحدث أبو بكر المنجم أن ابن عمار استدعى سَحاءة ودواة فى اعتقاله بقصر إشبيلية ، فبعث المعتمد إليه بزوج كاغد ، فكتب إليه شعراً يستعطفه به ، فعطف عليه وأحضره ليلتَه تلك ووعده العفوَ عنه . فخاطب ابنُ عمار الرشيدَ بن المعتمد بذلك ، فلمح المخاطبةَ وزيرُه عيسى ابن الأستاذ أبى الحجاج الأعلم ، فأشاع الحديث ، وبلغ ذلك أبا بكر بن زيدون — وكان شديد العداوة لابن عمار(١) — فتخلَّف عن الركوب إلى القصر حتى وجَّه فيه المعتمد ، فعرَّفه أن مجلسه مع ابن عمار وصل إليه ، فازداد المعتمد حنقاً عليه ، وحرَّك ذلك من ضِغْنه ، وقال لأحد الحجابيب : « سل ابن عمار كيف وجد السبيل — مع الترقيب — إلى إفشاء ما أخذتُ معه البارحة فيه ؟ » ، فسلك سبيل الإنكار(٢) ، ثم قال : « إنى خاطبتُ الرشيدَ وأعلمته بما وعَدنى به مولانا من العفو » ، فاتقَّد المعتمد وقام من فوره وأخذ — زعموا — طَبَرْزِيناً(٣) ودخل إليه ففزع

(١) فى الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٨٣) : « وانتهى الخبر إلى الوزير أبى بكر بن زيدون ، صاحب الدولة وقته ، وعداوته لابن عمار أوضح من أن تشرح ، فدمغته من ذلك دامغة ، وبات بليلة النابغة»

(٢) الذخيرة هنا أكثر تفصيلا (قسم ٢ ص ٢٨٣) : « فلما سأله أنكر ، قال المعتمد : فما أراد بالكاغد الذى طلب ؟ قال إنه أخبر أنه كتب إليه فيه بشعر . قال : هو فى ورقة مفردة ، فما فعل بالأخرى من الزوج الكاغد المبعوث به إليه ؟ قال : كتب فيه مسودة ذلك الشعر . قال المعتمد : خذها منه لأقف على ذلك ، فلما لم يجد بداً من النطق بالصدق رجع إلى الحق ، وقال : إنى خاطبت الرشيد . . الخ » .

ومثل ذلك عند عبد الواحد المراكشى ، مع خلاف فى الألفاظ (المعجب ، ص ١٢٧ — ١٢٨)

(٣) طَبَرْزِين : فأس مرهف الحدين **hache à deux tranchants** . جاء فى القاموس المعروف بالفوكابوليستا ***Vocabulista in Arabico*** (الذى نشره سكياپاريلى **Schiaparelli** فى فلورنسا سنة ١٨٧١) : **bipennis** (= ذو حدين) و **pica ferri** (= فأس من حديد)

— كما[1] كان فى قيوده — إلى تقبيل رجليه ، فضرب به ثم أمر فأجهز عليه .
ومما يشهد أنه باشر قتله قولُ عبد الجليل بن وهبون يرثيه ببيت مفرد وهو :

[١٠٢-ب] / عجبًا لمن أبكيه ملءَ مدامعى   وأقول : لا شُلت يمينُ القاتلِ

وأخبر ذو الوزارتين صاحب المدينة أبو محمد عبد الله بن سَلَام — بتخفيف اللام — الشِّلْبى ، وكان من صميم إخوان ابن عمار ، قال : إنى لفى أرْجَى ما كنتُ لإقالة ابن عمار ، وقد هيأتُ لخروجه مجلساً من أحسن مجالس دُورى يقيم فيه ريثما تُخلى له دُورُه ، إذا رسول المعتمد يستدعينى ، فما شككتُ فى تمام ما كنت أريده لابن عمار . فلما وصلت فَصِيل القصر ، إذا هو متشحِّط فى دمائه ، ممرَّغ فى ثيابه طريح فى قيده . فقال لى الفتيان : « يقول لك السلطان : هذا صديقك الذى كنتَ أعددتَ له ، سِرْ بِهِ وأنزِلْه » ، فأمرت من حضرنى من الحرس بسحبه فى أسماله ، طوراً على وجهه وتارةً على قَذالِه ، إلى أساس جِدار قريب من سواقى القصر ، فطُرح فى حوض محتَفَر للجيّار ، وهُدِم عليه شَفيرُه .
قال ابن قاسم الشِّلْبى — وأكثر خبر ابن عمار عنه ، إلى ما تخلله من الزيادات المفيدة عن ابن بسام وغيره : ووُجد له فى قِرابه بعد قتله بخط يده :

= وجاء فى قاموس بطرس القلعى .

PEDRO DE ALCALA, *Vocabulista aravigo en letra castellano.* Granada, 1505.

hacha que corta de dos partes (= *فأس يقطع من الناحيتين*) . وجاء فى كتاب « مفيد العلوم ومبيد الهموم » وهو تفسير الألفاظ الطبية واللغوية الواردة فى الكتاب المنصورى للرازى (تحقيق چورچ س . كولان وه . ب .ج . رِنَوء الرباط ١٩٤١) : هو فأس السَّرج ، أى أنه كان يعلق فى السرج . ويكتب أحياناً طَرْبَزِين .

انظر : دوزى ، ملحق القواميس : ٢/ ٢١ .

(١) الأصل : لما ، والتصويب من الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٨٤) .

يقول قوم : إن المؤيدَ قد أحال فى فِديتى على نقدهْ
فقلت : ماذا الشراء ثانيةً تُرى لمعنًى يريب من عنده ؟
أوحشنى ، والسماحُ عادتُهُ سماحُه بالعـــلاء[1] فى عبده
الحمد لله ، إنْ يكن حرجاً فليس فى مثلها سوى حمـــده
وحيلةٍ إن وصلتُ حضرتَهُ أجعلُها رغبـــةً إلى جُنده
لو سامحوا فى الفِرِنْدِ أرمُقهُ من طَرفه لم أخَفْه من غمده
لــكنْ على الغرب عارضٌ زَجِلٌ[2] مرتميـــاً بالشرار من زنده
أخضر يَفْتَرُّ من جوانبـــهِ كالبحر فى جَزْره وفى مَدِّه
يارِبِّ بشِّر برحمـــةٍ وحياً يونس من برقه ومن رعده

ويُحــكى عن المعتمد فى قتل ابن عمار خبر طريف من الحدثان ، تلخيصه أنه كان — أيامَ مُقامه بشِلْبٍ — قد أخذ / عليه وأمره إذا دعا أصحابه أن يكون [١٠٣-] أول داخل وآخر خارج ، ليأنس به ويتمتع بأدبه ، فكان يجده ينفر من ذلك ، ويُــكثر التسلل من مجلسه . فتقدم ليلةً إلى أصحاب سُدَّته بترقُّبه ومنعه بعد وعيد شديد . وقام ابن عمار - على عادته — فلم يحفل المعتمد بذلك ، حتى إذا انفضَّ من كان عنده طلبه فما وجده . فأحضر الموكلين بترقبه وأخذ فى تعنيفهم ، فأخبروا أنهم لم يعاينوه ولا خرج عليهم ، فراب المعتمدَ أمرُه ، وشهر سيفه وجعل يطلبه والشمع بين يديه . فلما انتهى إلى بعض الدهاليز ، إذا بحصير مطوىّ ، وابن عمار فيه أغمضُ من سر خفىّ ، عريان كأنه أفعوان ، فأمر بحمله وجعل يعجب من

(١) الذخيرة : بالغلاء .
(٢) الرجل هو الذى تصوت فيه الريح .

فعله ، ولابن عمار بكاء [ورَوْ][1] ع مفرط . فلما أفرخ روعه ، ورقأ دمعه ، سأله عن شأنه فأخبر أنه — كلما أخذت منه الشمُول — [سمع كأن][2] قائلا يقول : « هذا يقتلك ! »[3] فينفُر عند ذلك ويَنْفَرّ[4] ، ويحمل نفسه على القرار فلا تقر ، حتى أمضى الله على يديه ما كُتب من ذلك عليه ؛ والمقدر كائن .

أتيت بخبر ابن عمار على الكمال ، فكثيراً ما يُتشوف إليه ؛ ولا يوقف عليه ؛ وما أعلم أحداً ساقه هذا المساق ، ولعل عذر الإفادة يقاوم لومَ الإطالة . ومن شعره فى غير ما تقدم ، أهدى إلى المعتمد ثوب صوف بحرى يوم نيروز وكتب معه :

لما رأيتُ الناس يحتشدون فى إتحاف يومك جئتُه من بابِهِ
فبعثتُ نحو الشمس شبهَ أياتها[5] وكسوتُ متنَ البحرِ بعضَ ثيابه

فوجَّه إليه المعتمد بسكَّبة فضةٍ فيها خمسمائة دينار — وقيل خمسة آلاف دينار — ذهباً وكتب معها :

هِبةٌ أتتك من النضار أُلوفُها[6] فاغنم جزيلَ المال من وَهّابِهِ

---

(١) لم يرد فى الأصل من هذه الكلمة إلا حرف العين . وقد وردت الحكاية عند ابن بسام (الذخيرة ، قسم ٢ ص ٢٨٥) بلفظ مختلف ، فهو يقول فى هذا الموضع : « وابن عمار يبكى فيضحك ، ويشكو فيشكِّك » . وأورده عبد الواحد المراكشى فى أسلوبه السهل الواضح ، وهو يقول هناك (المعجب ، ص ١١٨) وهو يقص الخبر بلسان ابن عمار : « فلما رآنى فاضت عيناه دموعاً ، وقال : يا أبا بكر ، ما الذى حملك على هذا ؟ »

(٢) تكملة من الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٨٥) يقتضيها السياق .

(٣) فى الذخيرة : يا مسكين ! هذا يقتلك !

(٤) كذا فى الأصل ، ولم أجد انْفَرَّ فى باب فَرَرَ فى المعاجم ، ومعناه — أحسب — يطلب الفرار .

(٥) أى شبه ضيائها .

(٦) فى الأصل « طيبها » وورد لفظ « ألوفها » إلى جانبه ، وكأن الناسخ أراد أن يصحح به لفظ « طيبها » . و« ألوفها » أوفق للمعنى ، فأثبتناه .

فلو أنّ بيتَ المال يحوى قُفْلُه أضعافَها لـكسرتُه عن بابه
وملأتُ منه يديكَ لا مستأثراً فيه عليك لـكى تُرى أولَى به
فالبحر يطفح جودُه لك زاخراً لما كسوتَ البحرَ بعضَ ثيابه

وأهدى أيضاً تفاحاً و إجّاصاً إلى بعض أصحابه(١) وكتب معها :

/ خُذها كما سَفرتْ إليك خدودُ أو أوْجسَتْ فى راحتيْك نهودُ [١٠٣-ب]
دُرَراً من التفاح تُنْثَر بيننا ولها بأجياد الغصون عقودُ
خذها وناوِلْها النِّدامَ فإنها راحٌ دهاها فى الشتاء جمود
وشفَعتُ بالإجّاص قصداً ، إنه شكلُ الجمال وحدُّه المحدود
عذراً إليكَ فإنما هى أوجُهٌ بيضٌ تقارنها عيونٌ سود

وأهدى أيضا خمراً وطبقاً فيه تفاحتان ورمانتان وكتب معها(٢) :

خذوها مثلما استهديتموها عروساً ، لا تُزَفُّ إلى اللئــام
ودونـكمُ بها ثدييْ فتــاةٍ أضفتُ إليهما خدَّىْ غلامِ

وله فى الخرشف :

ونَبْتِ ماء وتُربٍ جودُها أبداً لمن يُرَجِّيه فى ثوب من البخَلِ
كأنها ، فى جمالٍ وامتناعِ ذُرًى خَوْدٌ من الروم فى درعٍ من الأسَلِ

---

(١) فى الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٦٠) أنه أهدى ذلك إلى ذى الوزارتين أبى عيسى بن لُبُّون .

(٢) فى الذخيرة : واستهدى منه بعض إخوانه خمراً ، فبعث بها مع تفاحتين ورمانتين ، وكتب مع ذلك .

ولم يورد ناسخ « الحلة » الأبيات ، بل ترك مكانها فراغاً ، فأتيت بها برواية ابن بسام فى الذخيرة (قسم ٢ ص ٢٦٠) .

وله فى طبق من الفضة مذهَّب الباطن :

وسماء من الغِنَى قد أسالتْ ذهباً فى قرارةٍ من لُجَيْنِ
فاجتنتْ حولَها العيونُ بلطفٍ زَهرَ الُحسنِ من بنانِ اليدينِ

وله فى زورق :

وجاريةٍ مثل الهلال ألِفتُها على نَهَرٍ مثل السماء رقيقِ
تَجلَّى لنا الإصباحُ وهو زمردٌ فألقتْ عليه الشمسُ ثوبَ عقيقِ

وله ، وضمَّن أوائلَ الأبيات اسمَ قينة[1] :

نفسى — وإن عذَّبتِها — تهواكِ ويهزُّها طربٌ إلى لُقياكِ
عجباً لهذا الوصل أصبح بيننا متعذراً ومُناىَ فيه مُناكِ
ما بالُ قلبى حين رامَكِ لم ينلْ ولقد ترومكِ مقلتى فتراكِ
[١٠٤–ا] /اللهُ أعلمُ ما أزور لحاجةٍ ذاك المحلَّ لغيرِ أنْ ألقاكِ
ليتَ الرقيبَ ـ إذا التقينا ـ لم يكنْ فأنالَ ريًّا من لذيذ لَمَاكِ
متنزهاً فى روض خدكِ شارباً كأسَ الفتور تُديرها عيناكِ
حَكَتِ الغصونُ جمالَ قدكِ فانثنتْ والفضلُ للمحكىِّ لا للحاكى
لا تعزُبى ياروضةً ممطورةً حتى أمدَّ يدى إلى مَجْناكِ

وله :

أنا ابن عمارَ لا أَخْفَى على بشَرٍ إلا على جاهلٍ بالشمسِ والقمرِ
وبين طبعى وذهنى كلُّ سابقةٍ كالسهم يُمد بين القوس والوتر
إن كان أُخِّر فى دهرى فلا عجبٌ فوائد الكتب يُستلحقن فى الطُّرر

(١) أوائل الأبيات الأربعة الأولى تكون اسماً معروفاً لجارية : نُعْمى . أما أوائل الأبيات الباقية فلا تكوّن إلا لفظ « المحل » .

لم أجد هذه الأبيات الثلاثة فى ما جمع أبو الطاهر التميمى من شعر ابن عمار ، فأضفتها إليه وكتبتها فى نسختى منه . وقد وقعت فى بعض نسخه : وكذلك قوله مبتدِهاً فى المعتصم محمد بن معن بن صمادح ، وقد مرَّ بقصره وحوله جماعة من الشعراء كانوا قد مدحوه ، وأبطأ عنهم عطاؤه وتعذر عليهم القول فى استنجازه ، فارتجل على ألسنتهم :

يا أيها الملكُ الذى شاد العلا   مَعْنٌ أبوه وخالُه المنصورُ
بفِناء قصرِك عُصبةٌ أدبيةٌ   لا زال وهو بجَمعهم معمورُ
زَفُّوا إليك بناتَ أفكارٍ لهمْ   واستبطأوك ، فهل لهن مهور ؟

١٣٤ — أبو محمد بن هود الجذامى ، ذو الوزارتين

لم أقف على اسمه ، وهو أحد النجباء الأدباء من أهل بيته ملوك سرقسطة والثغر الأعلى ، ونَبَتْ به دارُهم فتجوَّل بمُوسطَة الأندلس وغربِها قاصداً رؤساءها ، واختص منهم بالمتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فولاه مدينة الأشبونة من أعماله ، ثم صُرِف عنها وصَدر محمودَ السيرة معروفَ النزاهة . وهو القائل / فى خروجه من سرقسطة يخاطب قومه : [١٠٤-ب]

ضللتم جميعاً ، آلَ هودٍ ، عن الهدى   وضيَّعتمُ الرأىَ الموفقَ أجمعا
وشِنتم يمين المُلك بى فقطعتم   بأيديكم منها — وبالغدر — إصبَعا
وما أنا إلا الشمس غير غياهبٍ   دجت ، فأبت لى أن أنير وأسطعا
وإن طلعتْ تلك البدورُ أهلةً   فلم يبق إلا أن أغيب وأطلعا
ولا تقطعوا الأسباب بينى وبينكم   فأنفُكم منكم وإن كان أجدعا

وله وقد احترق بيته أيام مقامه بطليطلة :

تركت محلى جنـــةً فوجدتُه على حكم أيدى الحادثات جهنما
لتصنع بى الأيام ما شئن آخراً فما صنعت بى أولاً كان أعظما

وله فى المتوكل أيام سلطانه بيابُرة :

[... ... .] [... ...] فالذى يخشى من الحذر
[... ... ...] [... ... ...] بالخبر(١)

وله مما نُقش على رِئاس سيف المتوكل :

لا تخشَ ضيماً ولا تصبح أخا فَرَقٍ إذا رِيَاسى فى يُمنى يديكَ بَقِى
أصبحتُ أمضَى من الحَيْن المتاح فَصُلْ على الكُماة وبى عند الوغى فَثِقِ
لولا فتورٌ بألحاظِ الظباء إذاً لقُلتُ إنى أمضَى من ظُبى الحدق

وله وقد سئل عما اكتسبه فى ولايته :

وســائلٍ لىَ لمـا صدَرْتُ عما وَليتُ :
ما نلت ؟ قلتُ : ثناءً يبقى معى ما بقيتُ
فإن أمتْ كان بعدى مخــلداً لا يموتُ
[١٠٥-١] /عفت الفضولَ لعلمى أن ليس يُعدم قوتُ
وصُنتُ قدرىَ عنها مجمِّــلاً فغَنِيتُ

(١) ورد هذان البيتان فى الأصل هكذا ، معظمهما بياض ، ولم أعثر عليهما فى أى موضع آخر لأكملهما ، وقائلهما يكاد أن يكون مجهولا حتى من ابن الأبار ، وهو من سلائل بنى هود الذين تفرقوا فى نواحى الأندلس بعد أن استولى المرابطون عليها ، ثم سقوطها نهائياً فى يد ألفونسو المحارب على ما حكيناه . وسيعود بيت بنى هود إلى الظهور بعد ذلك كما سنرى .

١٣٥ – أبو عيسى بن لُبُّون(١) ، ذو الوزارتين

هو لُبُّون بن عبد العزيز بن لُبُّون(٢) ، وكان من جملة أصحاب القادر يحيى

(١) يكتبه بعضهم بفتح اللام ، وصحته فيما أرى بضمها . فهو صيغة التكبير من الاسم المعروف لُبّْ ، وهو إسبانى معرب ، من lobo أى ذئب شبه الجزيرة . وقد قال عنه المقرى فى نفح الطيب (١/١٨٥) : « ولها سبع يعرف باللُّب ، أكبر بقليل من الذئب ، فى نهاية القحة ، قد يفترس الرجل إذا كان جائعاً » . ولفظ lobo إسبانى دارج من lupus اللاتينى ، ويقال فى الدارج أيضاً lupo ويسمى به الناس ، ويسمون أيضاً باسم lup . أما López فمعناه ابن لُبّْ .

وعلى هذا فلُبُّون إما أن تكون Lobón أو Lupón ، وفى كلتا الحالتين تضم اللام ، وهى صيغة تكبير أخذتها اللغة الإسبانيةعن اللاتينية ، وقبسها العرب وطبقوها على أسمائهم فقالوا : حمدون وزيدون وفرحون .

(٢) المادة التى يقدمها ابن بسام فى القسم الثالث من الذخيرة عن أبى عيسى بن لبون لا تغنى كثيراً (وهى ساقطة من مخطوطة أكاديمية التاريخ فى مدريد وموجودة فى مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد) . أما ابن سعيد فقد أورد ذكر بنى لبون فى الفصل الخاص بلورقة ، وقال : ملكها فى مدة ملوك الطوائف أبو محمد عبد الله بن لبون ، وتوفى ، فورثها أخوه أبوعيسى ابن لبون الذى ملك معقل مُرْبِيطَرْ من أعمال بلنسية ، ووليها بعده أخوه أبو الأصبغ سعد الدولة ابن لبون ، وصارت للمعتمد بن عباد ، إلى أن تداول عليها ولاة الملثمين ، إلى أن كانت الفتنة عليهم ، فقدّم أهلها أبا محمد عبد الله بن جعفر بن الحاج . (المغرب : ٢/٢٧٥ – ٢٧٦) .

والمعروف أن أبا عيسى بن لبون كان قاضياً ووزيراً فى بلنسية أيام أبى بكر بن عبد العزيز ، فلما توفى هذا فى ٧ صفر ٤٧٨/٦ يونيو ١٠٨٥ اضطرب أمر بلنسية ، وانقسم أهلها قسمين : قسما مال إلى تصييرها ابنى هود أصحاب سرقسطة ، وقسما مال إلى إسلامها لبنى ذى النون أصحاب طليطلة . وفى نفس الوقت كان السِّيد القمبيطور معسكراً مع جنوده فى منطقة بلنسية ، فأطمعه اختلاف أهلها فى الاستيلاء عليها ، وفرض عليها ضريبة ثقيلة وأقام فيها وكيلا له يسمى ابن الفرج ليجمع الإتاوة . وفى هذه الظروف فضل ابن لبون الانسحاب من البلد ، فلجأ إلى مربيطر دار أهله ، وبعد ذلك بقليل دخل بلنسية القادر حفيد المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، بعد أن أسلم هذا البلد الأخير لألفونسو السادس ، فى مقابل مساعدة هذا الأخير له على تولى حكم بلنسية . وقد دخل القادر فى حماية قوة قشتالية كبيرة يقودها أَلْبَرْ هانس Alvar Hanez من =

ابن ذى النون . ورأسَ بمُرْبيطَر من أعمال بَلَنْسِيّة ، ثم تخلّى عنها لأبى مروان عبد الملك بن رَزِين ، صاحب شَنْتَمَرِيَّة الشرق ، أيامَ تغلب رُذْرِيق المعروف بالكنبيطور على بلنسية و إحراقه لرئيسها أبى أحمد بن جَحّاف ، وسار معه إلى شَنْتَمَرِيَّة ؛ ثم ندم بعد ذلك واستقل ما كان يُجْرى عليه فقال :

ذرونى أجُبْ شرقَ البلاد وغربَها لأشفىَ نفسى أو أموتَ بِدائى
فلستُ ككلبِ السوءِ يُرضيه مربضٌ وعظمٌ ، ولكنى عُقابُ سماء
تحُوم لكيما يدرك الخِصبَ حومها أمامَ أمامى أو وراءَ ورائى
وكنتُ إذا ما بلدةٌ لى تنكرتْ شددتُ إلى أخرى مَطىَّ إبائى
وسِرتُ ولا ألوى على متعذرٍ وصَمَّمْتُ لا أصغى إلى النصحاء
كشمسٍ تبدَّتْ للعيون بمشرقٍ صباحاً ، وفى غربٍ أصيلَ مَساء

وله من أخرى فى مثل ذلك :

خليلىَّ ما بالى على صدق عَزمتى أرى من زمانى وَنْيَةً أو تعذُّرا
ووالله ما أدرى لأىِّ جريمةٍ تجَنَّى ، ولا عن أى ذنب تغيَّرا
ولم أكُ عن كسب المكارم عاجزاً ولا كنتُ فى نَيْلٍ أُنيلُ مقصِّرا
لئن شان تمزيقُ الزمان لدولتى لقد رَدَّ عن جهلٍ كثيرٍ وبصَّرا
وأيقظ من نوم الغَرارة نائماً وكسَّب علماً بالزمان وبالورى

= كبار فرسان ألفونسو السادس ، وزعم السِّيد القمبيطور أنه يمثل ملك قشتالة فى هذه الناحية وأنه حامٍ للقادر بن ذى النون ضد خصومه من أهل البلد ، وأخذ يحاصره ، وبدأت بذلك محنة بلنسية وأهلها على يد السِّيد ، وقد فصلها ابن علقمة فى كتابه « البيان الواضح عن المُلِم الفادح » وقد عثرنا على قطع منه . انظر علاوة على المراجع الواردة فى التعليق :

DOZY, *Recherches (1ère* édition, 1848), 465 et note 2.
Primera Crónica General (1906), 549.

وكان أبو عيسى معدوداً فى الأجواد ، موصوفاً بتجويد القريض . وطالت إقامته فى كنف ابن رَزِين إلى أن توفى هنالك ، وقيل بل توفى بسَرَقُسْطة .

وأما أخوه أبو محمد عبد الله بن لُبُّون ، فكان والياً على لُورْقَة/ وتوفى بها [١٠٥-ب] بعد وقيعة الزلاّقة بيسير — وسيأتى ذِكره — فقال أبو عيسى يرثيه ويذكر أخويه المتوفيين قبله — أبا وهب عامراً وكان ضابطاً لقصر بلنسية ، وأبا شجاع أرقم وكان والياً على وَبْذَة(١) من سنت ابرية(٢) — وكان إبراهيم أبو الأصبغ من كبار أصحاب المأمون بن ذى النون وهو الذى استخلف على بلنسية فى خروجه لتملك شاطبة :

قل لصَرفِ الحِمام : لمْ ذا التناهى فى تلقِّيك لى بهٰذى الدواهى ؟
كان فى « عامرٍ » و « أرقمَ » ما يكـ ـفى ، فهلا أبقيتَ « عبد الإلٰه » ؟
فَبِهِ بعدُ كنت أستدفع الخطـ ـب وأسطو على العِدا وأباهى
أى شمسٍ وافَى عليها أفول فَلِّ غَرْبَىْ عزائمى ونَواهى

وله يخاطب أبا اليَسَع كاتبَ أخيه والذى خلفه بعدُ على لُورْقَة :

لو كنتَ تشهد يا هـذا عشيّتَنا والمُزْنُ يُمسِك أحياناً وينحدرُ
والأرض مصفرةٌ بالقَطْر كاسيةٌ أبصرتَ تبراً عليه الدرُّ ينتثر

وهذا كقول الأسعد بن بلِّيطة ، وأجاد ما أراد :

لو كنتَ شاهدَنا عشيةَ أمسِنا والمزنُ يبكينا بعينَىْ مذنبِ

(١) وَبْذَة Huete مركز لقسم إدارى فى مقاطعة كُونْكَة Cuenca ، وتقع على بعد ٥٠ كيلومتراً غربى هذه الأخيرة . وتقع وبذة على نهر وبذة ، أحد نهيرات نهر تاجه .

(٢) كذا ، والمراد — دون شك — شَنْتَبَرِيَّة Santáver ؛ فإن وبذة تقع فيها بحسب التقسيم الإدارى الأندلسى .

والشمس قد مدتْ أديمَ شعاعها ... فى الأرض تجنح غيرَ أنْ لم تغربِ
خِلتَ الرذاذَ بُرادةً من فضةٍ ... قد غُربلتْ من فوق نطْعٍ مُذْهَبِ

ولابن لُبُّون :

سقى أرضًا ثَوَوْها كلُّ مُزْنٍ ... وسايَرَهمْ سرورٌ وارتياحُ
فما أَلْوَى(١) بهم هُلْكٌ ولكنْ ... صروف الدهر والقدر المتاحُ
سأبكى بَعدَهم حزنًا عليهم ... بدمعٍ فى أعِنَّتِه جِماحُ

وله :

ياليتَ شعرى، وهل فى «ليت» من أربٍ؟ ... هيهات، لا تُبْتَغى(٢) من «ليت» آرابُ
أين الشموسُ التى كانت تطالعُنا ... والجوُّ من فوقه لليل جلبابُ ؟
[١٠٦-١] / وأين تلك الليالى إذ تُلِمُّ بنا ... فيها وقد نام حُرّاس وحُجّابُ ؟
تُهدِى إلينا لُجَينًا حشوُه ذهبٌ ... أناملُ العاجِ والأطرافُ عنّابُ

وله :

قم يا نديمُ أدِرْ علىّ القَرْقَفَا ... أوَ ما ترى زَهرَ الرياض مُفوَّفَا ؟
فتخالُ محبوبًا مُدِلاًّ وَرْدَها ... وتظن نرجسَها مُحِبًّا مُدنَفا
والجُلّنارَ دماءَ قتلى معركٍ ... والياسمينَ حَبابَ ماء قد طفا

وله :

يارب ليلٍ شربنا فيه صافيةً ... حمراءَ فى لونها تَنْفِى التباريحا

---

(١) الأصل : الورى ، وصوبتها للمعنى والوزن .
(٢) الأصل : تُنْتَقَى ، وصوبتها للمعنى .

ترى الفَراش على الأكواس ساقطةً كأنما أبصرت منها مصابيحا

وله يعاتب :

لحا اللهُ قلبى ! كم يحنُّ إليكمُ وقد بِعتمُ حظى ، وضاع لديكمُ
إذا نحن أنصفناكُمُ من نفوسنا ولم تُنصفونا ، فالسلامُ عليكمُ !

وله فى زهده و إقلاعه والتزامه بيته عند انخلاعه :

نفضتُ كفى من الدنيا وقلتُ لها : إليكِ عنى فما فى الحق أغتبنُ
من كِسْرِ بيتى لى روضٌ ، ومن كُتُبى جليسُ صدقٍ على الأسرار مؤتمنُ
أدرِى به ما جرى فى الدهر من خبرٍ فعنده الحق مسطورٌ ومختزَنُ
وما مضى بى سوى موتى و يدفننى قومٌ وما لهم علم بمن دفنوا

١٣٦ ــ أبو عامر بن الفرج ، ذو الوزارتين(١)

كان من بيت رئاسة ، تصرّف آباؤه وقومه مع بنى ذى النون ملوكِ طليطلة . و إلى أبى سعيد منهم — وهو وال على كُونْكَة — توجّه المظفرُ عبد الملك ابن المنصور عبد العزيز بن أبى عامر ، حين خلعه المأمون بن ذى النون من

(١) أورد عنه ابن بسام (الذخيرة ، قسم ٣ ، مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو غير مرقم) بعد ترجمة ابن طاهر مادة قصيرة لا تغنى ، وقد نقل ابن سعيد معظمها فى المغرب (٢/٣٠٣ — ٣٠٤) . وأحسن ما لدينا عنه ما أورده ابن سعيد من كلام الحجارى فى المسهب (المغرب ، ٢/٣٠٤) وفيه « وكان أبوبكر بن عبد العزيز يقصدهم (فى بلنسية) لمكانهم من بلده ، ويخفى لهم ما أظهره بعدُ مِن حسده ، فتصدى لهم بالموبقات ، وأخرجهم عن بلنسية ، فتفرقوا على حواضر ملوك الطوائف ، وكلٌّ صادف محلا قابلا ، وصار أبوعامر وزيراً للمأمون ابن ذى النون (فى طليطلة) » .

بلنسية فى ذى الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة . وأبو عامر هـذا هو القائل يستدعى أبا محمد المصرى (١) إلى مجلس أنس :

أنا قد أهبتُ بكم وكُلُّكُمُ هوًى وأحقُّكم بالشكر منى السابقُ
[١٠٦-ب] /والشمسُ أنتَ وقد أطلّ طلوعُها فاطلع وبين يديك فجرٌ صادقُ

وله يعتذر :

ما تخلّفتُ عنك إلا لعـذرٍ ودليلى فى ذاك حرصى عليكا
هبك أن الفرار عن غير عذرٍ أتراه يكون إلا إليكا ؟

وله إلى وسيم من معارفه يستدعى منه خمراً لعلاج ابنه :

أرسل بها مثلَ وُدِّكْ أرقَّ من ماء خدِّكْ
شقيقة النفس فانضحْ بها جوى ابْنِى وعبدِكْ

١٣٧ — أبو الحسن بن اليسع الكاتب ، ذو الوزارتين (٢)

كتب لأبى محمد بن لُبُّون صاحب لُورْقَة ، وخلّفه عليها بعد وفاته ، واستبد

(١) أبومحمد عبد الله بن خليفة القرطبى ، عرف بالمصرى لطول إقامته بمصر . وقد وصفه ابن بسام فى الذخيرة (القسم الرابع ، مخطوطة مصورة بجامعة القاهرة ، ورقة ١٢٠) بأنه كان « شيخ الفتيان وآبدة الزمان ، وخاتمة أصحاب السلطان ، وكان رحل إلى مصر واسمه خامل ، وسماؤه عاطل ، فلم ينشب أن طرأ على الأندلس وقد نشأ خلقاً جديداً ، وجرى إلى النباهة طلقاً بعيداً » ، وقال إن المطاف انتهى به عند المأمون بن ذى النون ، وقال إنه اشتهر بالطب ولذلك لقب بالحكيم ، ثم انتقل إلى إشبيلية ، وخدم المعتمد بن عباد حتى خُلع هذا ، وقد توفى يوم الجمعة منتصف رجب سنة ٤٩٠ .

انظر أيضاً : المغرب لابن سعيد (٢/١٢٨ — ١٢٩) وتعليقات الدكتور شوقى ضيف .

(٢) لم يورد أحد ممن ترجموا له اسمه الكامل . وأضاف ابن خاقان فى القلائد (ص ١٦٧) أن المعتمد بن عباد ولاه مرسية ، فصار فيها قائداً ووزيراً ، فائتمر به أهلها وخلعوه ، بسببه إسرافه فى الخمر والمجون على الأغلب .

بضبطها دون بنيه ، إلى أن تخلى عنها للمعتمد محمد بن عباد ، ولديم عليه بقرطبة ، وحضر غزوة الزَّلاّقة معه . وذكر أبو بكر بن قاسم الشِّلْبي فى تاريخه المجموع فى أخبار ابن عمّار ما يخالف هذا ، وسيأتى نصه بعدُ إن شاء الله تعالى . وكان ابن اليسع ماجناً صاحب بطالة وراحة ، أديباً شاعراً ؛ وهو القائل يخاطب أبا بكر ابن اللبانة :

تشرَّق آمالى وسعيى يغرِّبُ ‏ وتطلُع أوجالى وأُنسِىَ يغرُبُ
سَريْتُ أبا بكرٍ إليك وإنما ‏ أنا الكوكب السارى تخطاه كوكبُ
فبالله إلا [ما](1) مَنحتَ تحيةً ‏ تَكُرُّ بها السَّمْعُ الدرارى وتذهب
وبعدُ فعندى كلُّ عِلْقٍ تصونُهُ ‏ خلائق لا تفنى(2) ولا تتقلب
كتبتُ على حالين : بُعدٍ وعُجمةٍ ‏ فيا ليت شعرى كيف ندنو فنُعرب ؟

وكان فى ليلة الشك من شعبان بخارج قرطبة ، إذ قدِم على المعتمد فى لمَّة من أعيانها ، منهم أبو الحسين بن سِرَاج ، وقد غلبوه على المسير معهم ، فخرج مكرهاً وغرضه الاستراحة ، وكان تحته فرس عتيق . فأخذ معهم فى أمره حيلة فى إجرائه والانفصال عنهم على تلك الحال ، وركضه مولياً عنهم وراجماً إلى منزله / ليخلو [١٠٧-ا] براحته ، فما انصرفوا إلا وهلال رمضان ظاهر ؛ فكتب إليه أبو الحسين ابن سراج :

عَمْرِى أبا حسنٍ لقد جئتَ التى ‏ عطفَتْ عليك ملامة الإخوانِ
لما رأيتَ اليومَ ولَّى عمرُهُ ‏ والليل مقتبل الشبيبةِ دانِ
والشمس تنفُض زعفراناً بالرُّبى ‏ وتفتُّ مِسكتَها على الغيطان

(١) إضافة من المغرب (٢/٨٦) يستقيم بها الوزن .

(٢) الأصل : لا تبقى ، والتصويب من المغرب لابن سعيد ، وقد جعلها دوزى (ص١٩٤) : تبلى .

أطلعتَها شمســاً وأنت عطاردٌ وحففتَها بكواكب النّدمان
وأتيتَ بدعاً فى الأنام مخــلداً فيما قرنتَ ولات حين قران
ولهيتَ عن خِلّيْ صفاء لم يكن يلهيهما عنك اقتبـالُ زمان
غَنيا بذِكركَ عن رحيقٍ سلسلٍ وحدائقٍ خُضرٍ وعَزفِ قِيان
ورضيتَ فى دفع الملامة أن تُرَى متعلقاً بالعـذر من حَسّان

فراجعه بقوله :

وأنا أسأتُ فأين عفوُك مُجمِلاً هبنى عَصيتُ اللهَ فى شعبانِ
لو زرتَنى والآن تحمد زَوْرَتى كنتَ الهلالَ أتى بلا رمضانِ

وله فى أبى بكر بن القَبْطُورْنة يستهدى مشروباً وهو ببَطَلْيَوْس فى غزاة الزلاّقة :

عطشتُ أبا بكرٍ وكفُّك دِيمَةٌ وذُبتُ اشتياقاً والمزار قريبُ
نخفِّفْ ولو بعض الذى أنا واجدٌ فليس بحقٍ أن يُضاعَ غريبُ
ووفِّر لنا من تلك حظًّا نُرى به نشاوَى ، وبعد الغزو سوف نتوبُ

فوجَّه إليه مطلوبه وتضييفاً معه وكتب إليه :

أبا حسنٍ مثلى بمثلِك عالمٌ ومثلُك بعد الغزو ليس يتوبُ
فخُذها على مَحضِ الصفاء كأنها سَناً مالَها بعد الحساب ثُؤُوبُ

وله إلى أبى بكر بن عمار :

لمــا دنوتَ وعندى حظ من الشوق وافِ
[١٠٧-ب] /قدَّمتُ قلبىَ قبلى فصـنهْ حتى أوافى

ولما تحرك المعتمد إلى لُورْقَة — فى الجيش الذى ترك عنده ابن تاشفين

بعد غزوة الزّلاقة ، وغرضه التمكن من ابن رشيق لتمنّعه عليه بمرسيَة — كتب إليه أبو الحسن بن اليسع وقد قرب منه :

هٰذى سماؤك فلتصعد إلى أملٍ أمنيّتى منه رعىٍ فى كواكبها
منعتُها وملوكُ الوقتِ تطلبُها سعياً لُملكك فلتهنأ به وبها

وقصد المعتمد مرسية فى هذه الحركة فلم يظفر منها بطائل ، وخدعه ابنُ رشيق وداخلَ الواصلين معه من المرابطين على جيش ابن تاشفين ، فانصرف إلى إشبيلية . وفى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، حرك المعتمد ابنَ تاشفين للغزو ، بعد أن أجاز إليه البحر ، ولقيه على وادى سَبُوا[1] وبمنعطف منه يعرف « بالدّخْلة » ، فقصدوا جميعاً حصن أُلْييط — و بينه و بين لُورْقَة اثنا عشر ميلا — والروم يعيثون منه فيما حوله ، وابن رشيق يعينهم . وعلم الطاغية أذفونش بذلك ، فتحرك لغياث الحصن والدفاع عن أهله ، فوقع الانزعاج واستراب ابن تاشفين ، وتحيز إلى لورْقَة وأقام هناك أياماً . ويقال إن جيش الطاغية فى حركته هذه نيَّف على ثمانية عشر ألفاً بين خيل ورَجْل ، فأهلكهم الله بالوباء ولم ينصرف إلا فى أقل من خمسة آلاف . ولما فصلت جيوشُ المسلمين مع ابن تاشفين — وقد صار أمر مرسية إلى المعتمد ، وكان ابن رشيق فى قبضته — ترك ابنَ اليسع على لُورْقَة والياً ، وترك ابنَ رشيق مسجوناً عنده[2] ؛ فقال فى ذلك أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورْقى :

(١) كذا ورد الاسم فى الأصل ، والمشهور بدون ألف بعد الواو وبتسكين السين : « سبْو » . وقد رسمه البكرى أيضاً بالألف بعد الواو (انظر فهرس الأعلام) .

(٢) أورد الأمير عبد الله الزيرى فى مذكراته (ص ٧٩ — ٨١ ، ثم ص ١٠٩ — ١١٢) تفاصيل وافية عما صنع ابنُ رشيق أول الأمر مع ابن عباد وابن عمار فى مرسية ، ثم موقفه أثناء حملة لييط ، وكيف ترك يوسف بن تاشفين الفقهاء يفتون فى أمره ، فقرروا « إزاحته عن المسلمين » ، فسُلم إلى المعتمد بن عباد فقتله .

قل لى ، أبِنْ لى ، هل تأملتَها أو هل تدبرتَ لها عاقبهْ ؟
بالأمس أعيتْك رشــيقيةٌ واليومَ أحدثتَ لها صاحبهْ

هذا خبر ابن الشِّلْبي مع ما انضاف إليه من غيره .

١٣٨ — حَريز بن حَكم بن عُكّاشة

[١٠٨-ا] / صحب أبوه حَكم أبا الحسن إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السَّقّاء(١) ، وزير أبى الوليد بن جَهْوَر رئيس قرطبة ، فسُجن عند قتله مع أصحاب الجرائم ،

(١) أورد ابن بسام فى الذخيرة (قسم ١ مجلد ٢ ص ١١٤ وما يليها) فصلا كبيراً لابن حيان عن بنى جهور وولايتهم لأمر قرطبة أيام أبي الحزم بن جهور وابنه الوليد وابنى هذا عبد الرحمن وعبد الملك ، وكيف قسم أبو الوليد بينهما شئون الإمارة ، فجعل عبد الرحمن للشئون الإدارية والمالية وعبد الملك للشئون العسكرية . وكان عبد الملك شهما جريئاً ، وهو الذى قتل ابن السقاء وخلص دولة بنى جهور منه . ويفهم من كلام ابن حيان (ص ١٢٣) أن ابن السقاء كان صاحب الأمر فى قرطبة أيام أبي الوليد بن جهور ، فحسده عليه ابنُ عباد ، وكان طامعاً فى قرطبة ، فأوقع بينه وبين عبد الملك بن أبي الوليد حتى قام عبد الملك بقتله . وفى القسم الرابع من المجلد الأول من الذخيرة (القاهرة ١٩٤٥ ، ص ١٨٦ وما يليها) أورد ابن بسام فصلا آخر لابن حيان فى نفس الموضوع فصّل فيه تاريخ أبي الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء هذا ، وذكر كيف نشأ فقيراً يبيع السَّقَط فى درب ابن أبي سفيان فى قرطبة ، ثم صار متولياً للنظر فى المسجد الجامع ، ثم اختاره أبو الوليد بن جهور ورفعه إلى الرياسة والوزارة ، فتغيرت حاله وأغراه السلطان وطمع فى المال حتى أصبح من الأغنياء ، واستبد بأمور البلد و « اتخذ لنفسه جند سوء » ليستظهر بهم على أقادم الجند بقرطبة ، واتخذ لنفسه داراً خاصة بالغلمان سماها الناس « دار اللذة » فقام عليه عبد الملك بن أبي الوليد محمد بن جهور وقتله بيده مع نفر من أصحابه يوم السبت ٢٣ رمضان ٤٥٥ . وقد ريع أبو الوليد لمقتل وزيره ، ولكنه لم يستطع شيئاً ، وفى هذا اليوم يقول ابن حيان : « سُلبت كسوة مسجد ابن السقاء وثرياه ، وعطلت فيه الصلاة ، فصار مثوى للثاوى » .

وكان حَكم بن عكاشة من رجال ابن السقاء هذا .

إلى أن هرب من محبسه ولحق بالمأمون بن ذى النون فنصح له . وكان شهماً صارماً ، فولاه بعض الحصون المجاورة لقرطبة ، فدخلها بعد خلع بنى جَهْوَر فى خبر طويل[١] ، وقتل أميرها حينئذ عَبّاداً الملقب بسراج الدولة بن المعتمد محمد ابن عباد ، وبعث برأسه إلى المأمون وهو ببلنسية ، وذلك فى سنة سبع وستين وأربعمائة ، فورَد المأمونُ قرطبةَ وأقام بها نحواً من ستة أشهر ، ثم توفى فى ذى القعدة من السنة المذكورة ، واحتُمل إلى طايطلة فدُفن بها . وبقى حَكَمُ ابن عُكّاشة بقرطبة ، نائباً عن القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون بن ذى النون ، بعد أن جُددت له البيعة بها ، وبلغ ذلك المعتمدَ محمد بن عباد فأقبل فى جموعه طالباً بثأر ابنه عَبّاد . وعلم ابن عُكّاشة أنه لا طاقة له به ، فهرب عند ذلك وأسلم قرطبةَ فدخلها المعتمدُ ، وأتْبعه خيلا لحقته فقُتل وجىء له به فصُلب مع كلب[٢] .

وولىَ ابنهُ حَرِيز هذا قلعةَ رَبَاح[٣] للقادر بن ذى النون ، وهو الذى

---

(١) فصل ابن حيان (الذخيرة ، قسم ٢ مجلد ٢ ، ص ١٣٣ وما يليها) هذه الأحداث . وكان خلع بنى جهور سنة ٤٦٢ ، خلعهم المعتمد بن عباد ، وكان عبد الملك بن أبى الوليد محمد ابن جهور قد طلب منه مدداً يدفع به خطر المأمون بن ذى النون عن قرطبة ، وكان قد ضايقها وحكمها مدة ، فبعد انصراف ابن ذى النون قام جند المعتمد بخلع بنى جهور ونفاهم هو إلى جزيرة شلطيش .

(٢) روى ابن بسام أخبار هذه الحوادث عن ابن حيان (الذخيرة ، قسم ١ مجلد ٢ ، ص ١٢٣ وما بعدها) ولكن كلامه فى تلك القطعة يخلو من تلك الصراحة وذلك الوضوح اللذين تعودناهما منه .

(٣) قلعة رباح مدينة تابعة لمدينة طليطلة فى التقسيم الإدارى الأندلسى ، وتوصف بأنها — مع طَلَبِيرة **Talavera** — حد فاصل بين أرض النصارى وأرض المسلمين ، ويحددها الرازى بأنها شمال شرق قرطبة وجنوبى طليطلة ، وأنها تقع على وادى آنة ، وهى مسماة فى الأغلب باسم التابعى على بن رباح اللخمى الذى اشترك فى فتح الأندلس . وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن هو الذى بنى حصنها ومدّنها ، وحلت محل مدينة أوريط **Oreto** القديمة . وقد سقطت قلعة رباح =

امتحن أبا الحسن بن السِّيد البَطَلْيَوْسى (١) لما اتهمه وكاتبَه بمداخلة المتوكل بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس ، فبطش بالكاتب وأفات نفسَه ، وحبس أبا الحسن فى بيت ضيق ، وكان يُجرى عليه رغيفاً لا شىء معه ، إلى أن ضعف وهلك .

وقُتِل حَرِيز فى سنة ثمانين وأربعمائة على حصن مَسْطاسَة (٢) ، وقد كان

= فى يد ألفونسو السادس مع طليطلة سنة ٤٧٦/١٠٨٥ ، وقد استعادها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بعد انتصاره فى وقعة الأرك بعد أن تبادلها المسلمون والنصارى عدة مرات ، وقد سقطت وخرجت عن حوزة الإسلام نهائياً سنة ١١٤٧ . وأصبحت بعد ذلك مركزاً لطائفة مشهورة من الرهبان المرابطين (كالداوية والاسبتارية) وهى طائفة قلعة رباح La Orden de Calatrava التى تجردت لحرب المسلمين ومغاورتهم ، وموضع قلعة رباح العربية يسمى اليوم Castillo de Calatrava la Vieja على ١٢ كيلومتراً شمال شرق مدينة Ciudad Real عاصمة المديرية التى تحمل نفس الاسم جنوبى مديريتى مدريد وطليطلة .

راجع : الروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى ، رقم ١٥٠ ص ١٦٣ وص ١٩٦ من الترجمة الفرنسية وتعليق ٢ ، وكذلك .

MADOZ, *op. cit.*, V. 269 - 273.

(١) لا نعرف صلة أبى الحسن بن السِّيد البطليوسى هذا بالعالم المعروف أبى محمد عبد الله ابن محمد بن السِّيد النحوى الفقيه الفيلسوف مؤلف الكتب الكثيرة مثل كتاب « الحلل فى شرح أبيات الجمل » و« شرح الموطأ » و« التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة » و « كتاب الحدائق » (مدخل فى المنطق والفلسفة) . وقد ولد هذا الأخير سنة ٤٤٤/١٠٥٢ فى بطليوس وتوفى فى بلنسية سنة ٥٢١/١١٢٧ . وإذا حسبنا حساب التواريخ كان ابن السيد العالم ابناً أو ابن أخ لأبى الحسن المذكور هنا .

انظر : ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٦٣٩ ص ٢٨٧ . وقد نشر آسين پلاثيوس دراسة وافية عن أبى محمد عبد الله بن السيد البطليوسى كمقدمة لتحقيقه لكتاب « الحدائق » :

MIGUEL ASIN PALACIOS, *Ibn al-Sid de Badajoz y su «Libro de los Cercos»* (*Kitab al-Hadaiq*). Al-Andalus, 1940, tomo V, fasc. 1. pp. 45 - 154.

(٢) مسْطاسَة Mestanza قرية فى مديرية Ciudad Real تابعة لمركز كامپو دى كالاتراڤا Campo de Calatrava (فحص قلعة رباح) غير بعيد من المُدَوَّر Almodóvar del Rey

Cf : MADOZ, *op. cit.* XI., p. 397.

أهل فَحْص البَلوط[1] أسروه ، وسيق إلى المعتمد فمنَّ عليه وأطلقه . ومن شعره ما حَكى الفتحُ بن عبيد الله فى « كتاب مطمح الأنفس » من تأليفه أن الوزير أبا مروان بن مثنى كتب إليه :

يا فريداً دون ثانٍ وهلالاً فى العِيانِ
عُدِم الراحُ فصارتْ مثل دُهن البَلَسَانِ

فبعث بمطلوبه وجاوبه بقوله :

جاء من شِعركَ روضٌ جاده صَوْبُ البيانِ
فبعثناها سُلافاً كسجاياكَ الحسانِ
/يافريداً لا يُجارَى بين أبناء الزمانِ [١٠٨-ب]

---

(١) فحص البلوط كورة متوسطة الاتساع فى التقسيم الإدارى الأندلسى ، يقول الرازى إنها تقع جنوب غربى أوريط (وادى الحجارة) وقال إن سهلها تحيط به جبال البرانس المعروفة الآن باسم جبال طليطلة وتسمى اليوم **Los Pedroches** ، وهى الجزء الشمالى من مديرية طليطلة بين **Hinojosa del Duque** وجبال المعدن **Sierra de Almadén**. وكانت أهم مدن الكورة فى العصور الإسلامية بِطْرَوْش **Pedroche** وغافق، ويسميه الإدريسى إقليم البَلاَّلِطَة ؛ والنسبة لفحص البلوط البَلُّوطى .

انظر : ياقوت ، معجم البلدان : ٣٦٥/٤ — الإدريسى ، ص ١٧٥ والترجمة الفرنسية للوزى ، ص ٢١١ — الروض المعطار ، رقم ١٢٧ ص ١٤٠ والترجمة الفرنسية ص ١٦٨ وتعليق ١ .

١٣٩ — عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، أبو عبيد — الوزير

هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب [بن عمرو من أبناء][١] الأمراء [... ...][٢] يكنى أبا [عبيد الله . ولى][٣] أبو زيد محمد بن أيوب وَلْبَةَ وشَلْطِيش[٤] وما بينهما من الثغر الغربى وأصلهم من لَبْلَة[٥] .

(١) كتبنا فى بحثنا عن « الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٧ و٨ ، ١٩٥٩ — ١٩٦٠ ، ص ٣٠٣ وما بعدها) بحثاً مطولا عن أبى عبيد البكرى وبيته رجعنا فيه إلى كل ماكتب ونشر عنه . والثابت لدينا أنه عبد الله ابن عبد العزيز بن أيوب بن عمرو ، فجعلنا اسمه هكذا مع أن الناسخ ترك فراغاً بين« عبد العزيز» و« ابن محمد » . وأكملنا النسب بعد ذلك ، وأضفنا عبارة « من أبناء » للسياق .

(٢) بياض فى الأصل .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) فى التقسيم الإدارى الأندلسى تدخل ولبة وشلطيش فى كورة أكشونبة **Ocsonoba** ، وكانت تشمل الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة مما يلى كورة إشبيلية غرباً ، وجزء منها داخل فى حدود البرتغال حالياً ، وفيه شِلْب **Silves** ، والباقى داخل فى حدود إسبانيا . وولبة **Huelva** وشلطيش **Saltes** داخلتان اليوم فى زمام مديرية ولبة الحالية . أما ولبة فيطلق حالياً على مديرية كبيرة مساحتها ١٠٠٨٥ كيلومتراً مربعاً تتاخم مديريتى إشبيلة وقادس من الشرق وحدود البرتغال من الغرب ، وشمالها مديرية بطليوس ويمر فيها نهر صغير يسمى النهر الأحمر **Rio Tinto** ونهر آخر يسمى الأوديل **Odiel** ومصباهما متقاربان فى خليج واسع تقع فيه جزر صغيرة ، أكبرها شلطيش **Saltes** . وبين المصبين ، على رأس يفصل بينهما ، تقع ولبة الحالية ، وهى ميناء كبير ومركز هام لصيد السمك وقاعدة المديرية المسماة باسمها . وقد سقطت ولبة وخرجت من دار الإسلام نهائياً سنة ٦٤٦/١٢٤٨ على يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس ، وسقطت تبعاً لها جزيرة شلطيش . ويشرب أهل شلطيش من مياه الأمطار ، يخزنونها فى صهاريج ، وينقل إليها الماء من ولبة بالسفن إلى الآن ، كما كان الحال أيام العرب.

(٥) فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت لبلة **Niebla** قاعدة كورة تحمل نفس الاسم تقع شمال كورة أكشونبة المذكورة فى التعليق السابق ، وكانت تسمى لبلة الحمراء . ولبلة على خمسين كيلومتراً غربى إشبيلية ، على الضفة الغربية للنهر الأحمر **Rio Tinto** ، وهى تابعة لمديرية =

وكان أيوب بن عمرو قد وَلِى خطةَ الردِّ بقرطبة ووَلِى أيضاً القضاء ببلده ، وسَماه ابنُ حَيّان فى الذين سمعوا من هشام المؤيد ما أمرَ بعقده للمنصور محمد بن أبى عامر مجدِّداً للألفة ، وسمَّى معه محمد بن عمرو أخاه ، وتاريخ هذا العقد شهر صفر سنة سبع وثمانين وثلاثمائة . وذكر أبو القاسم بنُ بشكوال أيوبَ بن عمرو المذكور فى تاريخه .

قال ابن حيان : لما تولى الوزيرُ أبو الوليد بن جَهْوَر الإصلاح بين ابن الأفطس والمعتضد — بعد امتداد شأوِهما فى الفتنة — وسَنى اللهُ السلمَ بينهما فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين — يعنى وأربعمائة — اعتدى إثر ذلك المعتضدُ على جارَيْه ابنِ يحيى أمير لَبْلَة وأبى زيد البكرى أمير شَلْطِيش ووَلْبَة ، فأخرجهما عن سلطانهما الموروث ، وحصل له عملُهما بلا كبير مؤونة ، وضمه إلى سائر عمله العريض . وازداد بذلك المعتضدُ سلطاناً وقوة ، وذلك أنه لما خلا وجهُه من المظفر بن الأفطس فرغ لابن يحيى بلَبْلَة ، وصمَّم فى قصده بنفسه ، فنزل له عن لَبْلَة وخرج عن البلد ، وانزعج إلى قرطبة مسلوبَ الإمارة ، لائذاً بكنف ابنِ جَهْوَر سادِّ الخَلَّة ومأوى الطريد . وكان من الغريب النادر أن شاركه المعتضد بقطعة من خيله وصَّلته إلى مأمنه بقرطبة .

ثم سقط إلينا[1] النبأ بعدُ بامتداد يده إلى البكرى بوَلْبَة وشَلْطِيش . وكان

= ولبة . وقد ذهب پروڤنسال إلى أن أصل اسمها لاتينى هو **Ilipla** ولكن الغالب أنه **Nebula** بدليل أن النسبة إليها **nebulense** . وقد دخلت لبلة فى حوزة الإسلام على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير سنة ٧١٤/٩٤ وخرجت عنها نهائياً سنة ١٢٥٧/٦٥٥ على يد ألفونسو العاشر . انظر : صفة الأندلس للرازى ، ص ٩١ – ياقوت : ٣٧٨/١ – الإدريسى ، ص ١٧٤ – الروض المعطار ، رقم ١٥٨ ص ١٦٩ ، والترجمة الفرنسية ص ٢٠٣ .

(١) فى الأصل : إليها . وقد أسقطها دوزى فيما نشر من كلام ابن حيان فى الذخيرة (بنوعباد : ٢٥٢/١) والصحيح « إلينا » لأن المتكلم هنا هو ابن حيان ، وهو يروى الأخبار من مقامه فى قرطبة بحسب ورودها إليه ، وعبارة « سقط إلينا النبأ » كثيرة الورود عنده .

هذا الفتى وارثَ ذلك العمل لأبيه ، وكان أبوه من بيت الشرف والحسب والجاه والنعمة ، والاتصال القديم بسلطان الجماعة ، وكان له واسلَفَه إلى[1] إسماعيل بن عَبّاد — جَدِّ المعتضد — وسائلُ وأذِمَّة خلَّفاها فى الأعقاب ، اغترَّ بها عبدُ العزيز البكرى فبادر البعثةَ إلى المعتضد ساعةَ دخل لَبْلَة يهنئه بما تهيأ له منها ، وذكّره/ [١٠٩-١] بالذِّمام الموصول بينهما ، واعترف بطاعته وعرض عليه التخلى عن وَلْبَة وإقراره بشَلْطِيش إن شاء ، فوقع ذلك من المعتضد [موقع إرادة][2] ، ورد الأمر إليه فيما يعزم عليه ، وأظهر الرغبـــة فى لقائه وخرج نحوه يبغى ذلك . فلم يطمئن عبدُ العزيز إلى لقائه ، وتحمَّل بسُفنه جميعَ مالِه إلى جزيرة شَلْطِيش[3] ، وتخلى للمعتضد عن وَلْبَة ، فحازها حوزه لِلَبْلَة ، وبسط الأمانَ لأهلها ، واستعمل عليها ثقة من رجاله ، ورسم له القَطْعَ بالبكرىّ ، ومَنَعَ الناسَ طُرًّا من الدخول إليه ، فتركه محصوراً وسط الماء ، إلى أن ألقى بيده من قرب[4] . ولم يعزُب عنه الحزمُ ، فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاقَ صاحبه ، فأمّنه ولحق بقرطبة ..

وبوشِرَ منه رجل سَرِىٌّ عاقل عفيف أديب ، يفوت صاحبَه ابنَ يحيى خلالاً وخصالاً ، إلى زيادةٍ عليه ببيت التَّرْوِ والشرف ، وبابنٍ له من الفتيان ، بذَّ الأقرانَ جمالاً وبهاء وسَرْواً وأدباً ومعرفةً ، يكنى أبا عبيد[5] .

وتحدث الناس من حزم عبد العزيز يومئذ ، أنه لما احتل شَلْطِيش عَلِم أنه لا يقاوم عَبّاداً ، فأخذ بالحزم أولا ، وتخلى له عنها بشروط وَفَى له بها ، فباع منه

---

(١) فى الذخيرة (بنوعباد : ٢٥٢/١) : قُبيل ، وهو أصح .

(٢) فى الأصل : فوقع له ذلك من المعتضد ، فقومت العبارة على نص كلام ابن حيان فى الذخيرة ، وأضفت الناقص .

(٣) نص الذخيرة المنشور (بنوعباد : ٢٥٣/١) : « وتحمل بسبقه بجميع ماله إلى جزيرة شلطيش » ، ونص ابن الأبار أصح .

(٤) أى بعد قليل .

(٥) يريد أبا عبيد الله بن عبد العزيز البكرى العالم اللغوى الجغرافى المعروف .

سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال ، واحتل قرطبة فى كنف ابن جهور المأمون على الأموال والأنفس ، وصفت لعبّاد تلك البلاد لو أن شيئاً يدوم صفاؤه[١] ؛ والمُلك الباقى لله وحده .

وحكى غيره[٢] أن البكرى فى قصده قرطبة اجتاز « بإقليم البصل » وطَلْيَاطَة[٣] ، وقد أعدّ المعتضدُ له النزلَ والضيافةَ هنالك ، ومذهبُه القبضُ عليه وعلى نعمته ، فقدّم إلى صاحب قَرْمُونة[٤] محمد بن عبد الله البِرْزالى يُعْلمه باجتيازه عليه ، وبأنه لا يأمن غائلةَ عبّاد ، وسأله مشاركتَه وخفارتَه ، فعجّل له

(١) جعلها دوزى (بنوعباد : ١/٢٥٣) : وإن شاء الله يدوم صفاؤها ! وعلق على لفظ الجلالة فى الهامش بقوله : hoc vocabulum ego addidi (هذه الكلمة أضفتها) .

(٢) أى غير ابن حيان .

(٣) طَلْيَاطَة قرية كانت على سبع مراحل شمال إشبيلية ، وتسمى اليوم Tejada ، وهى اليوم خرائب مهجورة despoblado على ٣٠ كيلو متراً شمال غربى إشبيلية . ومن ضواحى إشبيلية اليوم موضع يسمى Tablada كتبه ابن عذارى أيضاً طلياطة ، فى كلامه عن غزوات المجوس (النرمانيين) على الأندلس أيام عبد الرحمن الأوسط ، والأصح أنه طلباته وهو Tablada مع تقديم حرف على حرف . وهذا الموضع اليوم مطار بظاهر إشبيلية .

Cf : DOZY, *Recherches*, 3e éd. I, 308 - 309.

والروض المعطار رقم ١٢١ ص ١٣٨ ، والترجمة الفرنسية ص ١٥٥ وتعليق ٦ – وبحثنا عن « غزوات النورمان فى المغرب والأندلس » ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية سنة ١٩٥٠ .

(٤) قَرْمُونة : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت قرمونة كورة واسعة تضم مدناً أخرى وحصوناً كثيرة ، وقاعدتها تحمل نفس الاسم (انظر : صفة الأندلس للرازى ، ص ٩٤ وياقوت ٤/١٩٦) . وأوسع وصف لمدينة قرمونة أورده ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار (رقم ١٤١ ص ١٥٩) والترجمة الفرنسية ص ١٩٠ . وأصل اسمها لاتينى : Carmo . وقد دخلت قرمونة فى حوزة الإسلام سنة ٩٢/٧١٢ وسقطت نهائياً سنة ٦٤٤/١٢٤٧ فى يد ألفونسو الثالث . وهى Carmona الحالية وهى مركز إدارى فى مديرية إشبيلية ، وتقع على بعد ٣٥ كيلومتراً شمال شرقيها . (انظر مادة زيايبولد فى دائرة المعارف الإسلامية ، ح ١ (ص ٨٤٩ ا).

قطعة من خيل مجردة ، لقيته بموضع اتفقا عليه . ولم يَلُوِ البكرىّ على موضع النزل ، وحثّ حمولتَه حتى لقيته خيلُ ابن عبد الله ، فوصل معها إلى قرمونة ، ثم توجه منها إلى قرطبة ونجا من حبائل المعتضد .

قال : وكانت مدة البكريين بشَلْطِيش وما إليها إحدى وأربعين سنة .

فى أول هذا الخبر عن ابن حيان ذِكْرُ ابنِ يحيى وأبى زيد البكرى . وأبو زيد إنما هو محمد بن أيوب والد عبد العزيز ، ولم يدرك المعتضدُ زمانَه ؛ [١٠٩-ب] وأما عبد العزيز فكنيته أبو المصعب ، وكان جواداً / ممدحاً ، وفيه يقول أبو على إدريس بن اليمانى من قصيدة فريدة — وكان إدريس هذا مقدما فى فحول شعراء الأندلس(١) :

فِدًى للتى لم يَثْنِ لِينٌ فؤادَها ... على كبدٍ جارَ الفراقُ فآدَها

من البيض ريا فى رداء ذوائبٍ ... يُبارى سوادُ العين منها سوادَها

يقول فيها :

---

(١) أبو على إدريس بن اليمان ، قال فى حقه الحميرى فى الجذوة : « شاعر جليل عالم ، ينتجع الملوك فينفق عليهم [شعره] ، ذكره أبو عامر بن شهيد فنسبه إلى بلده ، فقال : اليابسى ، وينسبه آخرون فيقولون : الشّبينى بالباء المعجمة ، لأن الغالب على بلده شجرة الشبين وهى شجرة الصنوبر (تسمى فى الإسبانية Sabina) ، وقد أدركتُ زمانه ولم أره » (الجذوة ، رقم ٣١٣ ص ١٦٠) .

ونقل نفس المادة الضبى (بغية ، رقم ٥٦٠ ص ٢٢٢) .

وقد عقد له ابن بسام فصلا فى الذخيرة (قسم ٣ ورقة ٦٠ وما بعدها من مخطوطة جايانجوس ، وترجمة إدريس بن اليمان هناك ناقصة الأول ، فرجعت إلى مخطوط معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد) وهو يقول بعد أن يذكر نسَبه اليابسى : « وأخبرت أن أصله من قسطلية العرب من عمل شنت برية ابن هارون (كذا) ، وبدانية قرأ وبها نشأ ومنها انبعث » . ثم ذكر بعد ذلك كيف حدد أجر قصيدة المديح بمائة دينار كاملة .

[... ... ...] الروض [...][1] سقاها الصبا السلسال حتى أنادَها[2]
تقود بلا رفق خيولَ مدامعى لتُورد هيجاءَ الملام وِرادَها
وما أنصفَتْها حين ضنت بجودها عليها وحثَّت بالطِّراد جيادَها
أفدْتُ غداةَ البَين منها التماحةً شكرتُ صنيعَ البينِ بى إذ أفادَها
أعيدى سَقَى مثْواكِ ألعَسُ أشْنَبٌ إذا مرضتْ أرضُ الأحبةِ جادَها
يضوع بواديك الأغنُّ أغانياً متى ما يُعِدْها لم تَمَلَّ مُعادَها
إذا ما أجادت كفُّه حول روضةٍ حسِبْنا جَدَى[3] عبدِ العزيز أجادها

ثم تصرف فى المديح تصرفَه فى النسيب وأحسن وأبدع .

وابن يحيى هو يحيى بن أحمد بن يحيى اليَحْصُبِىّ من أهل لَبْلَة ، استولى عليها أحمد أبوه فى بضع عشرة وأربعمائة ، وملكها نحواً من عشرين سنة ، إلى أن مات سنة ثلاث وثلاثين فوليها بعده .

وكان أبو عبيد البكرى من مفاخر الأندلس ، وهو أحد الرؤساء الأعلام ، وتواليفه قلائد فى أجياد الأيام ؛ ذكره ابنُ بشكوال فى تاريخه ، وحكى أنه كان يمسك كتبه فى سَبَانِى الشَّرب[4] وغيرها إكراماً لها . قال : وجمع كتاباً فى إعلام

---

(١) لم يورد ابن بسام هذه القطعة فيما أورد من شعر إدريس بن اليمان ، ولم أجدها فى مرجع آخر.

(٢) أناد = أمال (ناد ، ينود ، نَوْداً ونُوَاداً ونَوَداناً – تمايل من النعاس . اللسان ٤/٤٤١) .

(٣) فى الأصل : جرى ، وصُوبت فى الهامش بخط مخالف .

(٤) سبانى جمع سَبَنِيَّة وهى المنديل الكبير أو الملاءة البيضاء ، وهو لفظ إسبانى : sabana ، ولا زال يستعمل فى المعنى الثانى فى إسبانيا إلى اليوم . وسَبَانى الشَّرب هى المناديل الكبيرة التى كانوا يستعملونها أثناء الطعام . وكانت تتخذ من رفيع القطن أو الكتان ، وهى أغلى السبانى . وبلغ من إعزاز أبى عبيد البكرى للكتب أنه كان يلفها فى السبانى الغالية .

نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ، أخذه الناس عنه ؛ وتوفى فى شوال سنة تسع وثمانين وأربعمائة(١) .

وحكى الفتح بن عبيد الله — فى ما وجد بخط ابن حيّان على زعمه — أن أبا عبيد صار إلى محمد بن مَعْنٍ صاحب المرية ، فاصطفاه لصُحبته وآثر مجالسته والأنس به ، ورفع مرتبته ووفر طعمته(٢) . ومن شعره يخاطب أبا الحسن إبراهيم ابن محمد بن يحيى المعروف بابن السَّقّاء ، وزير أبى الوليد بن جَهْوَر بقرطبة ، [١١٠-ا] وقد خرج رسولا إلى بادِيس بن حَبُّوس بغرناطة ، أنشدها/ له ابن حيّان فى تاريخه الكبير ونقلتها من خط أبى الوليد بن الدباغ المحدِّث :

كذا فى بروج السعد ينتقل البدرُ ... وتحسُن حيث حلّ آثاره القطْرُ

وتقتسم الأرضُ الحظوظَ : فبقعةٌ ... لها وافرٌ منها ، وأخرى لها نَزْرُ

لَذَلَّ مكانٌ غابَ عنه مُمَلَّكى ... وعَزَّ مكانٌ حَـلَّه ذلك البدرُ

فلو نقلتْ أرضٌ خطاها لأقبلتْ ... تهنيه بغداذٌ بقُربك أو مصرُ

وله فى المعتمد محمد بن عباد عند إجازته البحرَ مستجيراً بيوسف بن تاشفين :

يهونُ علينا مركبَ الفلك أن يرى ... محيى العلا لما نبا مركبُ الجدِّ(٣)

---

(١) هذا كلام ابن بشكوال فى الصلة (بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٢) ، رقم ٦٢٣ ص ١١٧ .

(٢) راجع مناقشتنا لهذه العبارة فى كتابنا « الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » ص١١٨-١١٩ .

(٣) البيت قلق ، ولم يروه إلا ابن الأبار من أصحاب الأصول التى وردت إلينا ، وقد ورد فى الأصل هكذا :

يهون علينا مركبُ الفلك أن يرى ... محيى العلا لما قبا مركب الجد

وقد قومته على قدر فهمى لمعناه ، وربما كان أول الشطر الثانى : مُحَيّيًا .

فجزتَ أجاج البحر تبغى زلالَهُ وذقتَ جَنى [الأهوال] (١) تبغى جنى الشهد

يذكرنا ذاك العبابُ إذا طما ندى كفكَ الهامى على القرب والبعد

ومنها :

محمدُ يا ابنَ الأكرمين أرومةً ليَهْنِكَ تشييدُ المكارم والمجدِ

فلو خُلِّد الإنسانُ بالجد والتُّقَى وآلائه الحُسنى ، لهُنِّئتَ بالخلدِ

وله :

أجَدَّ هوًى لم يألُ شوقًا تجددا ووجداً إذا ما أتْهمَ الحبُّ أنجدا

وما زال هذا الدهرُ يلحَنُ فى الورى فيرفع مجروراً ويخفض مبتدا

ومَن لم يُحطْ بالناس علماً فإننى بلوتُهمُ شتى : مسوداً وسيدا

وله ، وكان مولعاً بالخمر منهمكاً فيها :

خليلىَّ إنى قد طربتُ إلى الكاسِ وتُقتُ إلى شم البنفسج والآسِ

فقوموا بنا نلهو ونستمعُ الغِنا ونسرق هذا اليومَ سرًّا من الناسِ

فليس علينا فى التَّعلُّل ساعةً وإن وقعتْ فى عقبِ شعبانَ من باسِ (٢)

(١) أضفتها للسياق والوزن ، وقد راعيت فيها المقابلة بين « الأهوال » و« جنى الشهد » مثل المقابلة بين « أجاج البحر» و« زلاله » فى المصراع الأول .

(٢) بعد هذه القطعة تقرأ فى المخطوط : « وأنشد له ابن فرج فى الحدائق :

سقيا لهم من ظاعنين حسبتهم وسط الموادج لؤلؤاً مكنونا

الأبيات . .

وهى لا يمكن أن تكون لأبى عبيد البكرى ما دام راويها هو ابن فرج فى الحدائق ، فإن ابن فرج كان معاصراً للحكم المستنصر وعاش إلى أيام المنصور بن أبى عامر وتوفى أثناءها ، وقد رجحنا – لهذا – أنها لعبد الله بن عبد العزيز المروانى الذى سبق ذكره ، وقد شرحنا فيما سبق سبب هذا الخلط .

المائة السادسة

١٤٠ — يحي بن تميم بن المعز الصنهاجي ، أبو علي

أمير إفريقية . ملك بعد أبيه تميم في منتصف رجب سنة إحدى وخمسمائة ، وتوفي ثاني عيد الفطر سنة سبع وخمسمائة ، وتخلف من الولد الذكور نيفاً وثلاثين .

ولم يطل أمد ولايته . استغرقت عمره إمارة أبيه فلم يرث سلطانه إلا وهو ابن ثلاث وأربعين وسبعة أشهر إلا أياما .

مولده بالمهدية لأربع بقين من ذي القعدة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وبرز للناس راكبا ، ثم عاد إلى قصره فخلع على وزرائه خلعا نفيسة ، ووهب للأجناد والعبيد أموالا جمة ، ومما أنشد في ذلك اليوم :

سقى الغيثُ قبراً ضم أكرمَ مفقود ... يعزّى به في الناس أفضلُ موجودِ
مضى فائزاً بالخلد أفضلُ والدٍ ... وشرّف هذا المُلكَ أشرفُ مولودِ
وأحياه يحيى من ردى كل مُلحدٍ ... وولّى تميمٌ عنه أكرمُ ملحودِ
فقد طابت الدنيا بأعلى مؤيَّدٍ ... كما فازت الأخرى بأكرم موءودِ
أرى النشأةَ الأولى أعيدت فأقبلت ... بمُلك سليمانَ وفقدانِ داوودِ

وليحيى هذا شعر ضعيف منه قوله :

ألا يا منتهى طـــربى ومَن لم يَعْدُها أربى
إذا ما كنتِ حاضرةً شربتُ الراحَ بالنُّخَبِ
ومهما غبتِ عن بصرى فواحَــزَنى وواحَرَبى
فجودى بالوصال على شريف القدر والحسب
وسَقِّيـــه معتَّقةً لهـــا تاج من الحَبَب
مليكٌ مُلِّـكتْ كفا ه رِقَّ العُجْم والعَرب

وله :

ألا حبذا يومُنا بالحِمَى وقد قارن القمرُ المشترِى
وجاء الحبيبُ إلى منزلى برَيّا القرنفُلِ والعنبرِ
/ وغنت لنا قينة حلوة بنظم من الشعر كالجوهر [١٤٣-ب]
إذا كان حبى حِذا ناظرى شربتُ المُدامَ ولم أسكَرِ

قال أبو الصلت : وكنا بين يديه فى يوم من شعبان شديد البرد فقال بديهاً :

أما ترى القَرَّ قد وافتْ عساكرُه فادفعْه منتصراً بالفَرْوِ والشَّرَرِ
وقهوةٍ عُتِّقت فى الدَّنِّ صافيةٍ يصفُو بها عيشُ حاسيها من الكدر

وقال لى ولبعض كتابه : « أجيزا » ، فعملنا على جهة الاشتراك ، وجُلُّه للكاتب :

يا مَن حُلاه جمال الكُتْب والسِّيَرِ ومَن ندى يدِه مُغنٍ عن المطرِ
ذَعَرْتَ عبدَيْكَ لما قلتَ مرتجلا ضَرْباً من الشعر يُعيِي أشعرَ البشرِ:
« أما ترى القَرَّ قد وافت عساكرُه » ، البيت والذى بعده .
فطاوعاك وقالا تابعَين ، ومَن يُجارِ سَحْبانَ لا يأمنْ من الحَصَرِ :

« تسعى عليك بها هيفاء ناعمةٌ　　تسبي العقولَ بحُسن الدَّلِّ والحَوَر
كأنَّ غُرّتَها الغراء شمسُ ضحًى　　تبدو لعينك فى ليلٍ من الشَّعَر »

١٤١ — رشيد الدولة أبو يحيي محمد بن عز الدولة أبي مروان عبيد الله بن المعتصم محمد بن مَعن بن صُمادِح

ذَكره أبو عامر السالمى فى تاريخه ، وقال : نشأ بعد انقراض مُلكهم ، فتكلَّف بالآداب وبرَّز فيها ، ثم تاق إلى الرئاسة فقيُّد ، فمن قوله فى السجن :

أحبَّتُنا الكرامُ بَغَوْا علينا　　وبغيُ المرء معطبةٌ ونارُ
وقالوا الهُجْرَ لمّا يعلموهُ　　وهُجْرُ القولِ مَنقصةٌ وعارُ
صبرتُ على مقارعةِ الدواهى　　وطبعُ الحرِّ صبرٌ واتّجارُ
/ وقلتُ : لعلها ظُلَمُ المَتَ　　وحالُ الليلِ آخرُها النهارُ [١٤٤-١]
فإنْ يكُنِ الردى يكنِ اصطبارٌ　　وإن تكنِ [المُنى](١) يكنِ اغتفارُ

وله فى ذلك :

صبراً على نائباتِ الدهرِ إنّ لهُ　　يوماً كما فتكَ الإصباحُ بالظُّلَمِ
إن كنتَ تعلمُ أن اللهَ مقتدرٌ　　فثق به تلقَ رُوحَ اللهِ من أَمَمِ
وقلما صبر الإنسانُ محتسباً　　إلا وأصبح فى فضفاضة النِّعم

(١) بياض بالأصل ، وقد أكملها دوزى (أبحاث ، الطبعة الثالثة ، ص ٥٩ من الذيول) من الذيل والتكملة لعبد الملك المراكشى ، المخطوط ورقة ١٢٠ ظهر.

وذكر أبو على بن الأشيرى أنه كان مع أبي يحي هذا وعمّه رفيع الدولة بن المعتصم بداخل تِلمسَان ، فى حصارها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة — وتاشفين ابن على بن يوسف بن تاشفين فى ذلك الوقت بظ هرها فى محلاته وجموعه — قال : فورد على الموحدين ، أعزهم الله ، فتحٌ ضربوا له طبولَهم[١] . فقال رفيعُ الدولة — وكان مسنًّا — لابن أخيه أبي يحي : لولا كبر سنى وضعفى لـكنتُ عندهم ، حرصاً عليهم ونظراً لنفسى . فقال أبو يحي : تعال نقل شعراً نجعله عُدَّة . فقال رفيع الدولة ، وكان ذا بديهة :

لِعبــــدِ المؤمنِ المَلِكِ   يدور السعدُ فى الفَلَكِ

فقال أبو يحي :

همامٌ نورُ غُـــرّته   كضوء البدر فى الحَلَكِ

فقال ابن الأشيرى :

فيمِّمْهُ تجـــدْ مَلِـكاً   عليه ســـكينةُ المَلَكِ

ولا تجزع فليس له   على القُصّاد من دَرَكِ

قال : وشاعت هذه الأبيات و [... ...][٢] إلى تلمسان [و بلغت][٣] أبا بكر بن مَزْدَلى نخاف قائلوها ، وكان رفيعُ الدولة إذ ذاك مقدَّماً على بنيان سور الرَّبَض منها[٤] بحيلة . قال ابن الأشيرى : وكنت أرى فى النوم من يقول

---

(١) روى أبو بكر الصنهاجى المعروف بالبيدق فى كتاب « أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » (بتحقيق ليڤى پروڤنسال ، باريس ١٩٢٨ ، ص ٩٥ وما بعدها) هذه الحوادث بتفصيل . ورواها أيضاً – نقلا عن أبي على الأشيرى– صاحب الحلل الموشية ، ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢) بياض فى الأصل .

(٣) أضفت هذه الكلمة للسياق .

(٤) هنا شىء ناقص فى معنى : وأرادوا التخلص من جريرتها . ولم يترك الناسخ بياضا .

[...] به [...] سفر فارغة ، فذكرت ذلك لأبي يحي بن صُمادح [... ... .../ [١٤٤-ب]
... ...] من خصه بالنعم السابغة [...] لجرى القدر بذلك [... ...][1] فيسير ولرْتَرْتِير[2] هذا علج لبنى تاشفين من كبار قوادهم وأبطال رجالهم ، كانت له

(١) لم أستطع استكمال النص هنا رغم وفرة المراجع التي تحدثنا عن هذه الحوادث في تفصيل كبير ، بل لدينا معظم ما قال أبو علي الحسن الأشيرى الذى ينقل عنه ابن الأبار هنا ، ولكن أصل هذا الخبر غير موجود .

انظر : كتاب أخبار المهدى ابن تومرت للبيدق ، ص ٩٤ وما يليها . الحلل الموشية ، ص ١٠٨ وما يليها . والقطعة القيمة المجهولة المؤلف التي نشرها ليفي پروفنسال في مجلة إسپيريس تحت عنوان :

Notes d'histoire Almohade, **Hespéris, tome X, 1930, p. 49 sqq.**

أما ابن الأشيرى الذى نقل عنه ابن الأبار كثيراً هنا فهو « حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب ، يعرف بابن الأشيرى ، ويكنى أبا علي ، من أهل تلمسان . نشأ بها ، وأخذ عن الأستاذ أبي علي بن الخراز ، وأخذ بالمرية عن أبي الحجاج بن يَسَعْوُن سنة ٥٤٠ ، وكان من أهل العلم بالقراءات واللغة والغريب ، يغلب عليه الأدب ، وكان ناثراً ناظماً ، وله مجموع في غريب الموطأ وقفت عليه بخطه ، ومختصر في التاريخ سماه بنظم اللآلى » (التكملة رقم ٦٦ ج ١ ص ٢٦) . وقدتوفى الأشيرى سنة ٥٦٩/١١٧٣ — ١١٧٤ . وكان أول الأمر كاتباً لتاشفين بن علي بن تاشفين ، ثم أصبح من كتاب الموحدين . انظر « نظم الجمان » لابن القطان بتحقيق الدكتور محمود علي مكي (تطوان ، ١٩٦٤) ص ١٧٦ تعليق ٣ .

(٢) الربرتير — ويكتبه البيدق دائماً الأبرتير — قائد قطلوني مشهور في أخبار المرابطين أيام علي بن يوسف وابنه تاشفين اسمه Reverter ، وأصله من فرسان النبلاء في برشلونة ، أسره أمير البحر المرابطي علي بن ميمون وسيق إلى مراكش ؛ حيث دخل في خدمة المرابطين وجعله علي بن يوسف « قائداً للروم » أي رئيس فرقة الجند النصراني المرتزق التي كانت تعمل في صفوف المرابطين . وقد أبلى الربرتير بلاء حسناً في الدفاع عن دولة المرابطين أمام الموحدين ، وقتل عند تلمسان قبل مقتل تاشفين بن علي بن يوسف بقليل سنة ٥٣٩/١١٤٤ — ١١٤٥ . وقد وصف البيدق ظروف موته بتدقيق كبير ، وقال إنه مات معه نفر آخر من الجند الرومي ذكر منهم شُوين (Juán) وغَشْتُون (Gaston) وبطريان (Pedroyano أو Adriano). وكان للربرتير ابن أسلم وتسمى بعلي ، ويعرف بعلي بن الربرتير ، كان من بواسل جنود الموحدين ، وهو الذى انتصر على بني غانية في جزيرة ميورقة ، وكانوا قد اعتصموا بها أيام أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي . وقد قتل في الحروب التي وقعت بعد ذلك بين بني غانية والموحدين في إفريقية سنة ٥٨٣/١١٨٧ . انظر « نظم الجمان » ، ص ٩٦ تعليق ١ .

فى الحروب مقاوم شهيرة . وكان مقتل تاشفين ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان من سنة تسع وثلاثين المذكورة . وجّه ابنَه إبراهيم[١] وليّ عهده إلى مراكش، خوفاً عليها فى شعبان ، وسار كاتباً معه أبو جعفر بن عطية[٢] ، واستقر هو

= انظر الترجمة الفرنسية لأخبار المهدى ابن تومرت للبيذق ، ص ١٣٩ ، هامش ١ ، وأبحاث دوزى : ٢/٤٣٧ — ٤٤٢ ، وكتاب :

FRANCISCO CODERA, *Decadencia y desaparición de los Almorávides en Espana*. Zaragoza, 1899, p. 180 sqq.

وسنشير إلى هذا الكتاب فيما يلى باسم : اضمحلال المرابطين لكوديرا .

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ، كان آخر أمراء المرابطين ، ولد سنة ٥٢٥ فى الأندلس ، وفيها نشأ . ولاه أبوه عهده يوم تولى هو ، ثم أرسله إلى قرطبة « برسم القراءة فيها » أى ليتعلم ، وفى أثناء الحرب مع الموحدين عند تلمسان استدعاه أبوه وجدد له العهد ، ثم أرسله إلى مراكش ليقيم فيها ويشترك فى الدفاع عنها ، وكانت سنه إذ ذاك ١٣ سنة . وبعد أن استولى عبد المؤمن بن على على الجناح الشرقى من دولة المرابطين ، وقتل تاشفين بن على بن يوسف أصبح إبراهيم بن تاشفين أميراً للمسلمين أواخر سنة ٥٣٩ ، ثم كر عبد المؤمن فاستولى على فاس ثم سبتة ثم سلا ، وتقدم لحصار مراكش فسقطت فى يده بعد حصار وقتال عنيفين ، ووقع فى يده إبراهيم بن تاشفين ، فأراد العفو عنه لصغر سنه ، ولكن أشياخ الموحدين « عزموا عليه فى قتله ، فضربوا رقبته رحمه الله تعالى ، وأبيد أمر اللثام » ، وكان ذلك حوالى منتصف شوال سنة ٥٤١ .

انظر القطعة المجهولة المؤلف التى نشرها ليڤى پروڤنسال فى مجلة إسپيريس (وقد أشرنا إليها فى التعليق قبل السابق) ، ص ٦٠ — ٦٩ . أخبار المهدى ابن تومرت ، ص ١٠٣ — ١٠٤ .. الحلل الموشية ، ص ١١١ وما يليها.

(٢) أبو جعفر أحمد بن جعفر بن عطية القضاعى المراكشى ، كان من كبار الكتاب والأدباء أيام المرابطين ، وكان أخوه أبو عقيل بن عطية أديباً كاتبا مثله ، وأصلهما القديم من قرية بناحية طرطوشة بالأندلس . وقد ولد أبو جعفر أحمد بن عطية فى مراكش ، وعندما زالت دولة المرابطين اختفى حتى أمن ، ثم أظهر نفسه وعفا عنه عبد المؤمن بن على واستكتبه ، ثم جرت عليه بعد ذلك محنة انتهت بقتله وأخيه أبى عقيل فى أواخر ٥٥٣.

انظر : المعجب لعبد الواحد المراكشى ، ص ١٩٨ — ٢٠٠ . إعتاب الكتاب لابن الأبار ، بتحقيق الدكتور صالح الأشتر (دمشق ١٩٦١)، ص ٢٢٥ — ٢٢٩ . الإحاطة لابن الخطيب : =

بوَهْران ، ولجأ إلى حصنٍ شرع في بنيانه في تلك الأيام . فقصده الموحدون وأضرموا النار حوله ، فلما رأى ذلك ودع أصحابه ليلا ، واقتحم — والنار محتدمة — باب الحصن ، فوُجد من الغد ميتاً لا أثر فيه لضربة ولا طعنة . ويقال إن فرسه صرعه ، وسيق فصُلب .

وقال غير ابن الأشيرى : كان مَهلك تاشفين بخارج مدينة وَهْران ؛ تردى به فرسُه في البحر فهلك وتـكسّرا جميعاً . وكان قصَد الرِّباط بخارج وَهْران على البحر ، في قطعة من أصحابه ، ليقوم به ليلة سبع وعشرين من رمضان المذكور ، فنُبِّه عليه الموحدون أعزهم الله ، فطرقوهم ليلا في جمع وافر وأحدقوا بالرِّباط ، وفيهم أمير الأمراء ، والمخصوص بنصر الألوية ونُجْح الآراء ، الشيخ المعظم المجاهد المقدس المرحوم أبو حفص عمر بن يحيي — رضوان الله عليه — وارث الممالك ومورثها ، ومطفئ نار الفتن والتجسيم مُؤَرِّثُها[1] ، الذى كانت الفتوح تنثال عليه ، وتتلاقى لديه ، وكتائب النصر والرعب تسير خلفه و بين يديه . فلما علم تاشفين بهم ، ركب وخرج هو وأصحابه مستميتين ، فوقع تاشفين على من يليه

— ٢٧١/١ — ٢٧٩ . و«مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » ، حققها ونشرها ليڤى پروڤنسال (رباط الفتح ١٩٤١) ص د — ه من المقدمة .

(١) يلاحظ انتهاز ابن الأبار لأى فرصة للإشادة بأبي حفص عمر بن يحيى جد الحفصيين (انظر أيضاً « إعتاب الكتاب » ، ص ٢٢٦) ، غير عالم أن أبا زكريا حفيده سيكونقاتله .

وأبو حفص عمر كان من أوائل أنصار محمد بن تومرت ، وهو من قبيلة هنتاتة ، ويذهب عبد الواحد المراكشي إلى أن اسمه الأول كان فَصْكَة ابن أُمْزال ، وأن ابن تومرت سماه أبا حفص عمر ، وكان يعرف بعد ذلك باسم عمر إينتى (أى الهنتاتى) . أما ابن خلدون فيقول إنه عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن على ، وعرف باسم عمر إنتى ، وأنه من قبيلة فَصْكات ، وفصكات حفيد وانودين .

انظر تعليق ليڤى پروڤنسال على الترجمة الفرنسية لأخبار المهدى ابن تومرت للبيدق ، ص ٥٠ تعليق ٤ .

من محاربيه ، وظن الأرض متصلة فهوى به فرسه ، وتمزق بأسفل المَهْوى وانهزم عسكرُه . وذلك بعد مكثه فى الحرب خمسة أعوام إلا أشهراً ثلاثة ، ما آوى إلى بلد ، ولا عرّج على أهل ولا ولد ؛ ومن يحاربُ أمرَ الله محروب[1].

واتصل مقتلُه بابن أخيه يحيى بن أبى بكر بن على بن يوسف — وهو المعروف بابن الصَّحراوية — وكان بتلمسان ، فخرج منها فى أصحابه وأسلمها .

[١٤٥-أ] وخرج أبو يحيى بن صُمَادِح / وابن الأشيرى مهاجرين[2] ، فقُبِلا .

ولأبى يحيى منهما قصائد مطولات فى مدح الأمر العالى[3] . وفى هذا الخبر أن ابن الصحراوية كان بتلمسان ؛ وقد تقدم عن ابن الأشيرى أن أبا بكر بن مزدَلى كان والياً عليها فى هذه السنة المذكورة ، فلعله وَلِىَ بعدَه ، أو كان مدداً له فى تلك المدة .

---

(١) هذه العبارة غريبة من ابن الأبار ، وهى تضمين لشطر من بيت شعر .

(٢) المهاجر — فى المصطلح الذى وضعه محمد بن تومرت لطبقات الموحدين — هو من يترك بلدَه وأهله وينضم إلى الموحدين أثناء قتالهم للمرابطين . وطبقات الموحدين — بحسب ما أورده أبو بكر الصنهاجى المعروف بالبيدق (ص ٣٢ وما بعدها) — هى : أهل الجماعة ، أهل خمسين ، المضافون إلى أهل خمسين فى التميز ، المهاجرون ، المهاجرون من العبيد ، القبائل ، عامة عبيد المخزن ، المحتسبون ، الغزاة ، الحفاظ ، أهل الحرب .

وقال ابن الأبار بعد ذلك : فقُبلوا ، أى أن الموحدين قبلوا هجرتهم إليهم . وكان يحدث كثيراً أن ترفض هجرة رجل أوقبيلة ، فيقتل أوتسترق القبيلة كلها .

(٣) الأمر العالى يراد به الدعوة الموحدية .

١٤٢ – أحمد بن الحسين بن قَسِىّ ، أبو القاسم

أول الثائرين بالأندلس عند اختلال دولة الملثمين ، وهو رومى الأصل من بادية شِلْب . نشأ مشتغلا بالأعمال المخْزَنِية(١) ، ثم تزهد – بزعْمه – وباع ماله وتصدق بثمنه ، وساح فى البلاد . ولقى أبا العباس بن العريف(٢) بالمرية ، قبل إشخاصه إلى مراكش ، ثم انصرف إلى قريته . وأقبل على قراءة كتب أبى حامد الغزالى فى الظاهر ، وهو يستجلب أهلَ هذا الشأن محرضاً على الفتنة وداعياً إلى الثورة فى الباطن . ثم ادعى الهداية مَخْرقةً وتمويهاً على العـــامة ، وتسمَّى بـ « الإمام » . وطُلب فاستخفى ، وقُبض على طائفة من أصحابه فأزعِجوا إلى إشبيلية .

(١) ابن الأبار يستخدم هنا المصطلح المغربى ، والأعمال المخزنية هى الحكومية ، ولم يعرف هذا الاستعمال فى المصطلح الأندلسى .

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله بن العريف الصنهاجى ، أصل أبيه محمد من طنجة « وإنما سمى بالعريف لأنه كان صاحب حرس الليل ، وعريف القوم القيم بأمره » . ثم انتقل إلى المرية ، وهناك ولد ابنه أحمد ، وأراد له أن يتعلم الحياكة ، ولكن الصبى اتجه إلى الدراسة ونبغ فى علوم الفقه والأدب ، وكانت المرية مركز الصوفية فى الأندلس إذ ذاك ، فال إلى التصوف وطريق التزهد ، واجتمعت حوله طائفة كبيرة من المريدين . وكما هى العادة ، نشأ الخلاف بين هذه الطائفة من الصوفية وبين الفقهاء ، وكان لهم السلطان الأعلى إذ ذاك أيام على ابن يوسف بن تاشفين . وتزعم مناهضة الصوفية القاضى ابن الأسود ، واستطاع أن يثير مخاوف الدولة من جهة ابن العريف ، فاستقدمه على بن يوسف مع صاحبيه أبى بكر محمد بن الحسين الميورقى وأبى الحكم بن بَرّاجان . وقد لقى ابن العريف كل إكرام من على بن يوسف وأطلق سراحه ، ولكنه مات بعد ذلك بمراكش .

انظر الدراسة التى قدم بها آسين پلاثيوس لتحقيقه لكتاب محاسن المجالس لابن العريف (باريس ١٩٣٣) .

ولما دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، أشار من موضع استخفائه على أصحابه « المريدين » أن يسيروا مع محمد بن يحيى الشَّلْطِيشي — المعروف بابن القابلة ، وكان يسميه بالمصطفى ، لاختصاصه الكلى بكتابته ، واطلاعه على أموره ، ثم قتله بعد ذلك — وأمرهم أن يغدروا قلعة مِيرْتُلَة[١] — وهي إحدى القلاع المنيعة بغرب الأندلس — في وقتٍ رسمه لهم من هذه السنة القارضة مُلْكَ اللمتونيين بمقتل تاشفين أميرهم في رمضان منها . فكمنوا بالرَّبَض — وهم نحو من سبعين رجلا — وتغلبوا عليها سَحَرَ ليلة الخميس الثاني عشر من صفر منها ، بعد أن قتلوا بوّاب القلعة . وأعلنوا بدعوة ابن قَسِيّ ، وأقاموا على ذلك إلى أن وصلهم في غرة شهر ربيع الأول في جمع وافر من المريدين شعارهم التهليل والتكبير[٢] ، فصعد إلى قصبتها واحتل بقصرها ، وشرع في مخاطبة أعيان البلاد مخبّبًا / وللفتنة [محزبًا][٣] ، فاستجاب له كثير منهم ، وأولهم أهل يابُرة ، [١٤٥ـب]

---

(١) مِيرْتُلَة — وتكتب أيضاً مارتُلَة ومَرْتُولة — في التقسيم الإداري الأندلسي كانت من مدائن كورة باجة Beja في البرتغال الحالية ، وكانت هذه الكورة تلاصق كورة قرطبة من الغرب وتقع جنوب كورة ماردة . ويصف ياقوت قصبتها بأنها أمنع حصون إقليم الجوف ، أي غرب الأندلس . واسم ميرتلة في القديم Myrtilis ، وتقع على نهر وادي آنه ، على ٤٥ كيلومتراً من مصبه . وقد كانت مدار صراع طويل بين الموحدين والنصارى ، حتى سقطت في أواخر العصر الموحدي .

انظر : وصف الأندلس للرازي ، ص ٣٧ . ياقوت : ٨ / ٢٢٤ . الإدريسي ، صفة الأندلس والمغرب ، ص ١٧٥ و ١٧٩ . وقد اختصها ابن عبد المنعم الحميري بمادتين : رقم ١٦٥ ص ١٢٥ (مارتلة) ورقم ١٨٣ ص ١٩١ (ميرتلة) .

(٢) انظر عن ثورة ابن قسي في ميرتلة ، والثورة على المرابطين في الأندلس عامة مقالنا « نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، أي من ٥٢٠ إلى ٥٤٠/١١٢٦–١١٤٥ » صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥ ص ٩٧ وما بعدها .

(٣) بياض في الأصل ، وقد اخترت هذه الكلمة على وزن « مخبّباً » السابقة لها ، ولا تخرج الكلمة الناقصة عن هذا المعنى .

ثم أهل شِلْب . واتسع [على المرابطين](١) خرق لم يَرْقَعُوه ، وهجم عليهم حادث طالما توقعوه .

وآلت الحال بابن قَسِيّ إلى أن خُلع بمِيرْتُلَة ، ثم أعيد ، ومنها هاجر إلى الموحدين أعزهم الله ، فقدم عليهم بسَلاَ متبرئاً من دعاويه ، وتائباً مما أسلفه [من مساويه](٢) في ربيع الآخر سنة أربعين . ثم انصرف في المحرم سنة إحدى وأربعين صحبـــة الجيش الذى افتتح جزيرة طَريف ثم الجزيرة الخضراء(٣) .

---

(١) بياض فى الأصل .

(٢) بياض فى الأصل .

(٣) فى التقسيم الأندلسى الإدارى كانت الجزيرة الخضراء كورة صغيرة تشتمل على مدن كثيرة ، منها أسطبونة **Estepona** وجبل طارق (جبل الفتح) وجزيرة طريف (انظر صفة الأندلس للرازى ، ص ٩٧) وقاعدة الكورة هى مدينة الجزيرة الخضراء ، وتسمى أيضاً الخضراء وجزيرة أم حكيم ، نسبة إلى جارية لطارق بن زياد خلفها هناك قبل صدوره لفتح الأندلس . وقد اختصها ابن عبد المنعم الحميرى بمادة وافية تعتبر أوفى ما لدينا ، فوصفها ومنطقتها فى العصر الإسلامى أحسن وصف وأدقه (رقم ٧٢ ص ٧٣ – ٧٥) . وقد سقطت الجزيرة الخضراء نهائياً فى يدألفونسو الحادى عشرسنة٧٤٣/١٣٤٢بعد موقعة طريف المسماة موقعة نهر طريف – وبالإسبانية **El Rio Salado** – وهى اليوم مركز إدارى فى مديرية قادس ويكتب اسمها **Algeciras** (الجزيرة) وهى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة مواجهة لسبتة ، وعلى لسان فى البحر حذاءها تقع جبل طارق .

أما جزيرة طريف فليست جزيرة على الحقيقة ، وإنما هى رأس بارز فى الطرف الأقصى الجنوبى لشبه الجزيرة جنوب غربى الجزيرة الخضراء بقليل ، وعليه يقوم بلد صغير يسمى اليوم **Tarifa** ، والاسم نسبة إلى طريف بن زرعة الذى أرسله طارق بن زياد فى بعث استطلاعى ليختبر أحوال شبه الجزيرة قبل عبور الجيوش الإسلامية . وقد سقطت جزيرة طريف فى يد سانشو الرابع ملك قشتالة سنة ٦٩٢/١٢٩٢ وحاول بنو الأحمر استعادتها مراراً بمعاونة المرينيين والبرتغاليين ، وبالفعل استعادوها . وقد وقعت الموقعة النهائية التى أخرجت جزيرة طريف من دار الإسلام فى سبتمبر ١٣٤٠ ، واشترك فيها يوسف بن الأحمر وأبو الحسن المرينى ضد الإسبان والبرتغاليين ، وانتصر فيها الإسبان والبرتغاليون . وهى الآن بلد صغير وميناء لمراكب الصيد ، والبلد يمتاز بجو عربى مغربى خالص .

ولما فُتحت شِلْب تُرِك ابن قَسِيّ عليها والياً ، ومنها كان قدومه فى شهر رمضان من السنة مهنئا بفتح إشبيلية ، وكان فتحها يوم الأربعاء الثالث عشر من شعبان .

و بعد عوده إلى شِلْب ظهر منه غيرُ ما فورق عليه ، إلى أن صرّح بالخلاف ، وداخل الطاغية ابنَ الرّيق صاحب قلنبرية(١) فى إعانته و إمداده ، فأظهر إجابته إلى مراده ، و بعث إليه بفرسٍ وسلاح ، فأنكر ذلك أهل شِلْب ، وفتكوا به فى « قصر الشَّرَاجِب » منها موضع سكناه فى قصة طويلة ، ونصبوا مكانَه ابنَ المنذر(٢) الأعمى ، معلنين بدعوة الموحدين ، وذلك فى جمادى الأولى من سنة ست وأربعين وخمسمائة . ومن شعر ابن قَسِيّ بين يدى ثورته :

إذا صَفَرُ الأصفار جاء فإنما يجىء بأمرٍ لا يُمِرُّ ولا يُحْلِى
وشهرا ربيعٍ فيهما كلُّ آيةٍ وعند جمادى ينقضى أمدُ الخَبْلِ

وله :

وما تَدفعُ الأبطالُ بالوعظ عن حِمًى ولا الحربُ تُطفَى بالرُّقَى والتمائمِ
ولكنْ ببيضٍ مرهَفاتٍ وذُبَّلٍ مواردها ماء الطُّلَى والغلاصمِ
ولا صُلحَ حتى نطعنَ الخيل بالقَنا ونضربَ بالبيضِ الرِّقاق الصوارمِ
ونحن أناسٌ قد حمَتْنا سيوفُنا عن الظلم لما جُرِّمُ بالمظالمِ

---

(١) المراد هنا Alfonso Henrique ملك البرتغال ، وكانت البرتغال إذ ذاك إمارة حديثة الانفصال عن مملكة قشتالة و ليون .

(٢) أبو الوليد محمد بن المنذر الذى ثار على المرابطين فى شلب فى نفس الوقت ، وسيتحدث عنه ابن الأبار فيما بعد .

/ وكان أبو عمر أحمد بن عبد الله بن حَرْبُون الشلبي من كتّابه ، وفيه يقول : [١٤٦-ا]

اهربْ إلى الله وابرَأْ من أحمدَ بن قَسِىّ
أو فاتخــذه إماماً واكفر بكل نبىّ

وكتب إليه يمدحه :

لم أرَ جُوداً لمُـمْتَاحٍ علَّمنى صــنعةَ امتداحِ
قد خلق الله راحتيه من طينة البأس والسماح
ألقى على الجود نور بِشْرٍ فجاء كالغيث فى الصباح
راش إمامُ الهدى جَناحى وليس فى الحق من جُناح
أريتَنى اليوم كيف أورِى وكنتُ أصلدتُ فى اقتداحى
تبـــارك الله أىُّ جِدٍّ أُفرِغَ فى قالَب المزاح

فقال ابن قَسِىّ يجيبه :

جدَدْتَ جِدًّا بلا مزاحٍ ورُضْتَ معتادةَ الجماحِ
حَلَّيْتَه من نتاج فكرٍ حَوْلِيَّه ، ثَقْفَةَ القِداح
دهماء قد لُطِّمتْ بليلٍ وخُوِّضت لجــةَ الصباح
إن سوبقتْ بالرياح جاءت بلقاء فى مقدم الرياح
أهديتهــا والزمانُ بادٍ صلاحُه لذوى الصلاح[1]
فكانتِ الزَّهرَ لانتسامٍ وكانتِ الزُّهرَ لالتمــاح
فأقبلتْ بى على اغتباقٍ ليلا ، ويوماً على اصطباح
وكنت أعتدُّ أنَّ رمحى فى الطعن من أثقف الرماح

(١) هذا البيت – كبقية القصيدة – من مخلع البسيط ، وفيه زحاف يسير .

حتى طلعتم لدى عَجَاجٍ كالليل غشّى من النواحى
فمِن لَمُوحٍ من العوالى ومِن لَمُوعٍ من الصِّفاح
/ فثَمّ كَسَّرتُ من صِعادى وثَم ألقيتُ بالسلاح [٤٦ ب]
وبعدُ ، يا من أعار خُلقى حُلَى من أخلاقه السِّماح
فها أنا اليومَ فى بِساطىْ هزلٍ وجِدٍّ من امتداح
أُعطِى إلى الجِد صَفْح رسْمٍ باقٍ ، وللهزل صفح ماح
فأَعقِبُ المزحَ حالَ جِدٍّ والجِدُّ أولَى من المزاح

١٤٣ — محمد بن عمر بن المنذر ، أبو الوليد

أحد أعيان شِلب ونبهائها ، من بيت قديم فى المولَّدين . وكان من أحسن الناس وجهاً ، ولازم التعلم بإشبيلية فى صغره حتى تميز بالمعارف الأدبية والفقهية . ووَلِىَ خطة الشورى[1] ببلده ، ثم تزهد وانزوى ، ورابط على ساحل البحر فى

(١) خطة الشورى : كان يقوم بأمر القضاء فى الأندلس هيئتان : الفقهاء المشاوَرون والقضاة . فأما المشاوَرون فكانوا جماعة من كبار الفقهاء والعلماء يختارهم الأمير أو الخليفة ليستشيرهم فى أمر القضاة والأحكام ، ولم يكونوا هيئة بمعنى الكلمة تجتمع معاً فى مجلس خاص كالوزراء . بل كانوا فرادى ، يختار الأمير من يراه صالحاً للشورى ، ثم يبعث إليه بما يريد ليفتى فيه ، وقد يستقدمه إلى القصر . وكان المشاوَرون أعلى من القضاة مرتبة ، بل كانوا فى مراتب الوزراء من حيث المكانة والجاه . وفى بعض العصور تميز بعض المشاوَرين حتى صار كالرئيس لهؤلاء المفتين ، ويسمى لهذا برأس الفتيا أو رأس المشيخة ، وقد يسمى شيخ المرأسين أو شيخ البلد . وكانت المشورة أو الفتيا أعلى المناصب التى يطمح إليها الفقيه ، وإن لم تكن منصباً حكومياً محدد الوظيفة والراتب والسلطان . وكان المشاورون يبدون رأيهم فى القضاة ، فلا يعين كبارهم إلا برأيهم . أما القضاة فهم المعروفون ، وأكبرهم قاضى قرطبة أو قاضى الجماعة ، وكان فى منزلة الفقهاء المشاورين ، وقد يمتاز عليهم إذا أهلته ملكاته لذلك . ونظام القضاء فى الأندلس فى حاجة إلى دراسة شاملة .

رباط الرَّيحانة ، وتصدق بماله . وصاحَبَ أحمد بن قَسِيّ الدّعى ، وامتُحن من أجله ، ثم خلص من ذلك . واتَّبعه عند ثورته ، وقام فى بلده بدعوته ، مستعينا على ذلك بأبى محمد سِيدرَاى بن وزير الثائر بيابُرة قبله ، وكانت بينهما — قيل [(1)] — صحبة وصداقة ثم سار إلى حصن مرجيق [(2)] . من أعمال شِلْب ، وقد ضبطه الملثمون فتغلب عليهم وقتلهم .

وسرى خبرهم إلى من كان منهم بباجة ، فطلبوا من أهلها تأمينَهم ، على أن يلحقوا بإشبيلية . وإثر خروجهم منها ، دخلها ابنُ المنذر فى العسكر الذى أمده به ابنُ وزير — وعليه أخوه أحمد وخالُه عبد الله بن على بن الصُّمَيْل — ثم قدم هو وأبو محمد بن وزير على ابن قَسِيّ فى أول شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وقد استقر بقلعة مِيرْتُلَة قبل ذلك بشهر ، فسلما عليه بالإمارة ، وأذعنا له بالطاعة ، فأقر ابنَ وزير على باجة وما والاها أميراً ، وابنَ المنذر على شِلْب وما والاها كذلك .

ثم انصرف ابنُ وزير ، وتَلَوَّم ابنُ المنذر بمِيرْتُلَة أياماً ، وقد أبدى منافسةَ ابنِ / وزيرٍ وحسادتَه . ثم لحق ببلده ، حتى إذا اجتمع عسكر أُكْشُونُبَة [(3)] [١٤٧-١]

(١) قرأها دوزى (ص ٢٠٢) : قَبْلُ .

(٢) حصن مرجيق : لم أجد موضعاً بهذا الاسم بالضبط ، وإنما توجد فى مديرية الغرب El Algarve فى جنوب البرتغال مدينة تسمى Monchique باسم جبال مُنْشِيق Sierra de Monchique . ومدينة منشيق تابعة لمركز فارو Faro الإدارى وهى مشهورة بمياهها الكبريتية .

(٣) أُكْشُونُبَة : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت أكشونبة Ocsonoba كورة كبيرة جنوبى كورة باجة وغربى كورة إشبيلية ، وهى تقابل الآن مديرية الغرب El Algarve فى البرتغال الحالية . وكانت تضم حصوناً كثيرة ومدناً أكبرها شلب . وكانت كورة بحرية اشتهرت بدور صناعة لبناء السفن أكبرها فى قاعدتها شلب . وقد ذكر ابن عبد المنعم الحميرى أن أهلها عرب من اليمن وغيرها ، وأن أهل بوادبها — أى ريفها — فى غاية الكرم (الروض المعطار ، رقم ٩٦ ص ١٠٦-١٠٧) . وياقوت (معجم البلدان) يكتبها أكشونِيَة بالياء ، وهو خطأ =

إلى مَن عنده من الشِّنْبيين وأصحابه « المُريدين »[١] ، قدم على ابن قَسِيّ ثانيةً ، يُظهر الجد فى نصرته والعمل على نشر دعوته ، فسُرَّ بمقدمه وجَدد له عهده على ما بيده ، وسمّاه « العزيز بالله » . ثم عبر وادى آنة متقدماً فى جمعه إلى وَلْبَـة فدخلها ، وامتد منها إلى لَبلَة فقاتلها حتى ملـكها ، بمعاونة يوسف بن أحمد البطروجي أحد مَرَدة الثوار من هؤلاء المريدين ، وأنزل من تمنع فى بروجها من الملثمين .

وطمح به الاغترارُ إلى إشبيلية — وقد نُمِي إليـه أنها حينئذ دون أمير يضبطها — فتحرك من لَبْلَة نحوها ، ودخل حصن القصر وطَلْيَاطَة من أعمال شَرَفها[٢] — وقد كثف جمعه وكثر حشده — فانتهى إلى الحصن الزاهر ودخله .

= ويظن أن أكشونبة كان الاسم القديم للموضع الذى قامت فيه بعد ذلك شنتمرية الغرب وهى المسماة اليوم فارو Faro . وذهب هوبنر Hübner إلى أن موضعها تقوم فيه اليوم بلدة Estoy على عشرة كيلومترات شمالى فارو التى كانت تسمى Milreu (انظر دائرة المعارف الإسلامية : ٣/١٠٣٧ ب . والترجمة الفرنسية للروض المعطار ص ١٢٩ ، وتعليق رقم ٥٠ . وصفة الأندلس للرازى ص ٩١ . والإدريسى ، فهرس الأعلام .

(١) « المريدون » : يطلق فى هذا العصر فى الأندلس على أتباع شيوخ الجماعات الصوفية المرابطة التى كثرت إذ ذاك ، ومصدر الحركة كلها المرية وشيخها الكبير أبو العباس بن العريف . وباستثناء ابن العريف وكبار أتباعه الذين ذكرناهم فى التعليق الخاص به ، تحولت بقية الجماعات الصوفية إلى جماعات من المحاربين الذين يطلبون الملك ، ومنهم ابن قسى وابن المنذر وابن حمدين . ولم يتجه أحد منهم إلى الجهاد مع اتساع ميدانه إذ ذاك ، بل صرفوا همهم فى محاربة المرابطين ، وقد قضى الموحدون على هذه الجماعات .

(٢) شرف إشبيلية يراد بها المرتفعات الواقعة إلى غربها ، وتسمى اليوم جبال أنديڤالو Sierra de Andévalo وهى جزء من جبال سيرا مورينا Sierra Morena التى كان العرب يسمونها جبال المعدن . وتمتد منطقة الشرف حتى تصل إلى لبلة وباجة ، وقد قال عنها ابن عبد المنعم الحميرى فى سياق كلامه عن الزيت الذى اشتهرت به إشبيلية (نقلا عن الإدريسى) : « فيجتمع هذا الزيت من الشرف ، وهو مسافة أربعين ميلا كلها فى ظل شجر الزيتون والتين ، أوله مدينة إشبيلية وآخره مدينة لبلة ، وسعته اثنا عشر ميلا ، وفيه ثمانية آلاف قرية عامرة =

وبظاهر اطريانة(١) انكشف أصحابه أمام طائفة من جيش أبى زكرياء يحيى بن على بن غانية(٢) .

= بالحامات والديار الحسنة ، وبين الشرف وإشبيلية ثلاثة أميال » . ويسمى الشرف الآن Ajarafe انظر : الإدريسى ، صفة المغرب والأندلس ، ص ١٧٨ — الروض المعطار ، رقم ١٤ ص ١٩ ، والترجمة الفرنسية ص ٢٥ .

(١) كذا فى الأصل : اطريانه ، والأشهر بدون ألف : طريانة ، وهى Triana ضاحية لإشبيلية موجودة إلى اليوم على الضفة الغربية للوادى الكبير . وقد ذكر أبو الفدا فى « تقويم البلدان » (ص ١٦٧) أنه كان يصلها بإشبيلية قنطرة من القوارب ، أما الآن فهناك قنطرة كبيرة تحمل نفس الاسم . ويفهم من كلام ابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار (رقم ١١٧ ص. ١٢٧) أن طريانة كانت حى الصناع وأصحاب الحرف . وأصل اسمها Irajana مسماة باسم منشئها القيصر تراجان .

(٢) رأس أسرة بنى غانية الثائرين على الموحدين بعد زوال أمر المرابطين فى الأندلس ، وهو من قبيلة مسّوفة ثانية القبائل الصنهاجية الكبرى التى قام عليها مُلك المرابطين بعد لمتونة . ولد يحيى بن غانية فى قرطبة وتلقى العلم فيها ، وكان فارساً نجداً ظهرت بسالته من أول الأمر حتى ليقول ابن الخطيب أنه طلق امرأته — وكانت فائقة الجمال — حتى لا تشغله عن الحرب ، وقد جعله على ابن يوسف بن تاشفين عاملا على إستجة ، فأبلى بلاءً حسناً فى مدافعة ألفونسو المحارب ملك أرغون عندما أغار على الأندلس وأوغل فيه حتى الجنوب .

وكان والد يحيى — وهو على بن يوسف المسّوفى — من كبار رجال يوسف بن تاشفين ، وهو الذى زوجه من قريبة له تسمى غانية ؛ وأظن أن الأصح أن يقال غانيّة ، نسبة إلى غانة . وقد أنجب منها على بن يوسف ابنين : محمداً ويحيى هذا ، عرفا بابنى غانية كما يقال أبو بكر بن الصحراوية نسبة إلى أمه . وفى أيام على بن يوسف أرسل محمد بن غانية إلى ميورقة ليطفىء ثورة هناك ، وهناك أقام إلى أن قضى الموحدون على سلطان المرابطين فى المغرب فاعتصم فيها ورفض البيعة للموحدين . أما أخوه يحيى فقد تولى — كما رأينا — إستجة وأبلى بلاء عظيماً ، ثم أقيم عاملا على مرسية وبلنسية حيث استطاع أن يهزم ألفونسو المحارب سنة ٥٢٨/١١٣٣ — ١١٣٤ ، ثم تصدى لحرب الثائر ابن قسى كما يقول ابن الأبار وهزمه فى إشبيلية وحاصره فى لبلة . وعندما اشتد ضغط النصارى على قرطبة جاهدهم ما استطاع حتى ردهم عنها ، ثم اتصل بالقائد الموحدى بَرّاز بن محمد المسوفى الذى ولاه عبد المؤمن بن على على إشبيلية ودخل فى طاعة الموحدين ، فولوه قرطبة وقرمونة فى مقابل تسليمه جيان . ثم اختلف مع الموحدين ودافعهم عن قرطبة مستعيناً بألفونسو السابع ، وبمعاونته استولى على الجزيرة الخضراء ، ثم تحالف مع الثائر ابن عياض على =

وكان لما بلغه أمرُ لَبْلَة وبلادِ الغرب قد بادر من قرطبة بالخروج لغزو أهلها ، فوافى إشبيليةَ وابنُ المنذر يعيث فى نواحيها ، فعيّن من أصحابه لاتّباعهم وعبور الوادى نحوهم مَن هزمهم وطردهم ، وقُتل عدد وافر منهم . فأسْرى ابنُ المنذر ليلةً إلى لَبْلَة ، وأقام بها يومين يحصنها ، ثم لحق بِشِلْب وترك يوسف البَطروجى بها . فنازله ابنُ غانية فى جيوشه ثلاثةَ أشهر ، وذلك فى كَلَب الشتاء وحدَّته ، إلى أن بلغه قيامُ ابن حَمْدِين(١) بقرطبة ، فانصرف عنها إلى إشبيلية ، وقد تغير على الناس واشتد حذرُه منهم ، فجرت له معهم ولهم معه قصص طويلة .

ولما سمع ابنُ قَسِيّ بقيام ابن حَمْدِين ، أمر ابنَ المنذر هذا أن يعسكر ويسير هو ومحمد بن يحيى — المعروف بابن القابلة ، كاتب ابن قَسِيّ وصاحبه — إلى قرطبة طمعاً فى دخولها ، وخاطب معهما أهلَها يرغبهم فى أمره ، ويحرضهم على القيام بدعوته ؛ وكان بالرَّبَض الشرقى مَن له حِرص عليه ورغبة فيه ، كأبى الحسن
[١٤٧-ب] ابن مؤمن وغيره . فتحرك ابنُ المنذر وصاحبُه بعسكر شلب ولَبْلَة / فوجدوا أحمد بن عبد الملك بن هود سيف الدولة ، قد جاء به أهل قرطبة من بعض ثغورها المجاورة لها وملَّكوه عليهم ، وطردوا ابنَ حَمْدِين فانحاز إلى الحصن

= الموحدين وتمكن من ضم سبتة إلى بلاده وأقام عليها يحيى بن أبى بكر الصحراوى . وقد تجرد عبد المؤمن بن على للقضاء عليه ، فتخلى عن قرطبة ولجأ إلى غرناطة فى ١٠ شعبان سنة ٥٤٣/ ٢٤ ديسمبر ١١٤٨ . أما أولاده فقد لجأوا إلى عمهم محمد بن غانية المسوفى صاحب الجزائر الشرقية ، واشتركوا معه ومع أبنائه فى حرب الموحدين . واستمر بنوغانية شوكة فى جنب الدولة الموحدية ، وعبروا البحر واستولوا على بجاية فى المغرب ، ولم ينته أمرهم إلا فى أيام محمد الناصر رابع خلفاء الموحدين . وقد ألف فى تاريخهم ألفريد بل كتاباً وافياً :

ALFRED BEL, *Les Banou Ghanya*, Paris 1903.

(١) حمدين بن محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبى ، وسيترجم له ابن الأبار فى الحلة . انظر التكلة ، رقم ١١٩ ص ٣٨ . وبغية الملتمس للضبى ، رقم ٣٨٥ .

المعروف بفُرنَجولُش(١) ، ومنها أعادته العامةُ ، لما قامت على ابنِ هود وقتلت وزيره ابنَ شَمّاخ ، وفر هو بعد اثنى عشر يوماً من دخولها ولم يعد إليها بعدُ .

وانصرف أصحابُ ابن قَسِيّ خائبين ، وبعد وصولهم إليه استدعى أبا محمد سيدراى بن وزير للاجتماع به ، فتوقف وارتاب ، لما كان من قبضه عليه بقصبة مِيرْتُلَة وخلْعه ثم صرْفه إلى حاله أثناء مغيب ابن المنذر فى قصد إشبيلية .

ولما يئس منه ابنُ قَسِيّ أمر ابنَ المنذر بمحاربته ، فهزمه ابنُ وزير وقبض عليه واعتقله بمدينة باجة . ثم تذكر يوماً خالَه وقد صارت إليــــه بَطَلْيَوْس وأعمالُها ، إلى ما كان بيده من بلاد الغرب ، فأمر خالَه عبد الله بن الصُّمَيْل — المذكور قبلُ — بأن يسير إلى باجة ويستخرج ابنَ المنذر من سجنه ويسمل عينيه ، ففعل ذلك . وأقام فى معتقله إلى أن فتح الموحدون ، أعزهم الله ، باجة وسائر بلاد الغرب ، فأنقذه الله على أيديهم وعاد إلى شِلْب .

وكان يجالس ابنَ قَسِيّ فى ولايته عليها من قِبل الموحدين إلى أن خَلع دعوتهم وانسلخ من طاعتهم وداخَل النصارى ، فاستراح ابنُ المنذر إلى وجوه بلده بما كان عنده من باطن أموره ، ودبر معهم — وهو ذاهب البصر — قتله ، فتم ذلك كما تقدم ذكره . وخلَفه فى ولايته قائماً بالدعوة المهدية خلّدها الله ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين نخيف منه أن يثور ثالثةً ، فنُقل إلى إشبيلية ، بعد أن خلَعه ابنُ وزير وملَك شِلْب دونَه فى خبر ذكره ابنُ صاحب

---

(١) فرنجولش **Hornachuelos** بلدة صغيرة فى مديرية قرطبة حاليا ، تقوم على تل مرتفع ، وقد ذكرها ابن عبد المنعم الحميرى : رقم ١٢٨ ص ١٤٣ والترجمة الفرنسية ص ١٧١ والتعليقات . وانظر :

Cf : MADOZ, *op. cit.* IX, p. 201 - 232.

الصلاة فى كتاب « ثورة المريدين » من تأليفه . وبعد ذلك أجاز البحر إلى سَلَا ، فتوفى بها سنة ثمان وخمسمائة .

ومن شعره يخاطب ابنتَه ، وتوفيت بعد خلْعه وسَمْل عينيه :

أواحدتى قد كنتُ أرجوكِ خِلفةً لعينىَّ ، أختيكِ اللتين سبا الدهرُ
رضيتُ بحكمِ الله فيها [أصابنى][1] إذا لم يكن يسرٌ فيا حبذا العُسرُ

[١٤٨-أ] /وله ، وبعث به إلى أبى بكر بن المنخَّل[2] ، فى نكبته ، وكان قد استوزره فى ولايته :

يا واحدى مِن ذا الورى بولائه ووحيدَهمْ – إن ناظَروا – بذكائِه
أما الكلامُ فقد ملَكتَ زمامَهُ نوعاً فنوعاً فانفرِدْ بلوائه
إن شئتَ فانظِمْ دُرَّ لفظٍ رائقٍ يحكى حمامَ الأيكِ حالَ غِنائه
أو شئتَ فانثر من كلامكَ جوهراً تغلو به الأرباحُ عند شرائه
يا طالباً علمَ الكلام تحققاً أبشِرْ فقد أدركتَه بلقائه
إن كنتَ تبغى كشفَ غامضِه فقد أنجحتَ ، فانزلْ وارتبطْ بفِنائه
واسمَع إذا ألقى إليك معلِّماً والقَنْ – هُديتَ الحقَّ – من إلقائه
من كان يرتاد الشفاء لنفسه فلديه منه ما يَفى بشفائه
ما إن يناظر حائراً فى دينه إلا اهتدى وشفاه من أدوائه

---

(١) بياض فى الأصل .

(٢) أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنخل المهرى الشِّلْبى ، ذكره ابن الأبار فى التكملة وأثنى عليه بأنه كان أحد الأدباء المتقدمين والشعراء المجودين ، وروى شيئاً من شعره ، وقال إن له ديوان شعر ، وأنه توفى فى حدود سنة ٥٦٠ (رقم ٧٣٠ ص ٢١٤) . وانظر أيضاً :

وإذا تخطُّ يمينه(١) في مُهْرَقٍ أهدى لنا الحسنَى بحُسن رُوائه
إيهِ أبا بكرٍ ، وماذا مِن أخٍ ناديتُ غيرَك لم يجبْ لندائه
عثرت بيَ الدنيا فأصبح مُعرضاً عني كأنى لم أدِنْ بإخائه
ومنحتُه ودى وصنتُ إخاءه من نائبات الدهر حالَ بلائه
ورعيتُ ظَهر الغيب حقَّ جواره وحفظتُه من خلفه وورائه
فعدا عليَّ ولم أظنَّ ببغيهِ وأنا بحالٍ من أمان عـــدائه
لو أننى ممن تسوء ظنونُه ما نالنى ما نال من تِلقائه
ما ساء فِعلى مرةً فيسوءه بى ظنٌّ بمن قَدْمَتَّ لى بولائه

فأجابه بقصيدة ، منها :

/ يا مُلبسى النُّعمى بحسن ثنائه وممِّزى(٢) نقداً بصدق ولائهِ [١٤٨-ب]
ألقى عليَّ مديحَه فلبستُهُ بُرداً ، وردَّ عليَّ فضلَ ردائه
وأعارنى من خُلْقِهِ وصفاته فسحبتُ ذيلَ الوَشْيِ من صَنْعائه
لَبَّيْك من داعٍ تيم حبُّه قلبى ، فصيَّره إلى سَودائه
إن كان أبناء الزمان تشبهوا بأبيهمُ ، ما أنتَ من أبنائه
فذَرِ الحسودَ لما به فدواؤه فى موته ، وحياتُه من دائه
لله دَرُّك من فتًى عبثتْ به أيدى الزمان فأخلفتْ بعَلائه
أفديه من حُرٍّ جفاه زمانُه لو كان يسمح دهرُنا بفدائه
قد كان مثلَ السهم ينفذ فى الوغى والنصرُ معقود برأس لوائه



= المغرب لابن سعيد ، ج ١ ص ٣٨٧ وتعليق الدكتور شوقى ضيف .
(١) الأصل : يمناه ، والتصويب للوزن .
(٢) الأصل : وميز لى . وقد صوبها دوزى كما أثبتناها .

شهماً إذا دجت الخطوب تبلّجت لعقولنا الأقمارُ من لألائه
شِيَمٌ كأزهار الربيع وراءها هِمَم تَحطُّ النجمَ من غُلَوائه
وإذا ترقَّى منــبراً لمُلمةٍ عطَفَ القلوبَ على مناهج رائه
كانت لياليـــه نجومَ زماننا فتناثرت حُمَماً على ظَلْمائه

وله إلى ابن المنخّل أيضاً :

لئن غضّ منك الدهرُ يوماً بأزْمةٍ لحسْبُك أن تُلفَى وأنت صبورُ
فليس أسًى يبقى وإن جلّ ، مثلُ ما — على كل حالٍ — لا يدوم سرور
أيوجد فى الدنيا من الناس صاحبٌ إذا أعرضتْ أبقى ؟ لَذاكَ عسيرُ . .
طلبتَ عزيزاً لا يُنال ، فإن يكنْ فإن أبا بكرٍ بذاك جـــدير
رضيتُ به حظًّا من الناس كلهمْ فما بعدَه حُرٌّ إليـــه نشير

فأجابه بقوله :

[١٤٩-ا] / تجافَ عن الدنيا وعن بَردِ ظلِّها فإنَّ بُروداً لا يدوم حَرُورُ
فدَيتُك ، لا تأسف لدُنيا تقلّصتْ وأوحشَ يوماً منــبرٌ وسرير
وإن عَرِيَتْ جُرْدُ المَذاكى وذُلِّلَتْ أسودٌ ، فلم يُسمع لهن زئير
وغودرت الراياتُ تهفو كأنها جوانحُ من ذعرٍ عليك تطير
وكانت ولم تُذعَرْ عليك كأنها إذا رفرفتْ يومَ الهياج نسور
طلبتَ وفاءً ، والوفاءُ سجيةٌ ولكنّها — أمُّ الوفاء — نَزُور
رأيتُك تبغى مثلَ نفسك فى العلا طِلابٌ لَعَمْرى ما أردتَ عسير
ومن ذا [الذى][1] يسمو سموّك للعلا ويعفو عن الزلات وهو قدير .

---

(١) أضفت هذه الكلمة لوزن الشعر.

ولابن المنخَّل فيه يرثيه من قصيدة :

بأىِّ حسامٍ أدفع الخطبَ بعد ما فقدتُ الحسامَ المُنذِرىَّ اليمَانيا ؟
ومَن لى بِمِثل المنـــذرىِّ محمدٍ صديقًا صدوقًا أو خليلاً مصافيا ؟
وقد كنتُ أستدنى البعيدَ برأيِهِ فيأتى على حكم الإرادة دانيا

١٤٤ — على بن عمر بن أضحى الهمدانى ، أبو الحسن

هو على بن عمر بن محمد بن مُشرَّف بن أحمد بن أضحى بن عبد اللطيف بن غريب — بالغين المعجمة — ابن يزيد بن الشَّمِر ، من همدان ، فى ذؤابة شرفها وصميم بيوتاتها . وقد تقدم ذِكر نباهةِ سلفه ، وقيامِ محمد بن أضحى بأمر العرب بعد سعيد بن جُودِىّ السَّعْدِىّ فى خلافة الأمير عبد الله بن محمد ، ولِمَ سُمى والدُ عبد اللطيف « غريبًا » حتى غلب عليه — وإنما اسمُهُ خالد ، ويزيد بن الشَّمِر أبوه هو الداخل إلى الأندلس .

ووُلد أبو الحسن على بن عمر هذا بالمَرِيّة فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، ووَلِى قضا ها بعد أبى عبد الله محمد بن يحيى بن الفرّا الزاهد ، ثم صُرِف بعبد المنعم بن سَمَجُون[1] ، وأعيد / بعده ثانيةً . [١٤٩-ب]

ولما انقضت دولة الملثمين فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، ودعا ابنُ حَمْدِين

---

(١) ترجم له ابن الأبار فى التكلة (رقم ١٨١٦ ص ٦٥٣) ولم يذكر أنه ولى قضاء المرية . وهو عبد المنعم بن مروان بن عبد الملك بن سمجون اللواتى ، من أهل طنجة ، أبو محمد . نشأ بغرناطة وتفقه على نفر من شيوخها ، منهم أبو على بن سُكَّرة الغسانى الصدفى . ولى قضاء إشبيلية بعد صرف أبى مروان الباجى عن ولايته الثانية ، ثم نقل إلى قضاء غرناطة ، واستعفى ولم يُعفَ . توفى فى شعبان سنة ٥٢٤ .

لنفسه بقرطبة ، خاطب أبا الحسن بن أضحى يحضه على اتّباعه — وهو إذ ذاك بغرناطة ، وقاضيها أبو محمد بن سِمَاك — فقام بدعوة ابن حَمْدِين ، وتابعه أهلُ بلده ، وأخرجوا الملثمين من المدينة ، فتحصنوا بالقصبة ونشب القتال بين الطائفتين ، فاتصل ذلك مدة .

وذكر أبو محمد بن صاحب الصلاة أن الذى قام عليه ابنُ أضحى من الملثمين هو على بن أبى بكر — المعروف بابن فَنُّو [١] ، وهى أخت على بن يوسف بن تاشفين . كان أميرا عليها [٢] بعد أبى زكرياء بن غانية ؛ قال : واستصرخ — يعنى ابن أضحى — بابن حَمْدِين بقرطبة ، وبابن جُزَىّ قاضى جيّان ، فوجّه إليه ابنُ حَمْدِين ابنَ أخيه علىَّ بنَ أبى القاسم أحمد — المعروف بابن أم العِمَاد — فى عسكر قرطبة ، وعلم بذلك سيفُ الدولة أحمد بن هود [٣] ، فعجّل ودخل مدينة غرناطة ، وانصرف ابنُ أم العِماد خائبا .

(١) فَنُّو ابنة يوسف بن تاشفين ، وقد تزوجت ابن عمها أبا بكر يحيى بن أبى يحيى ابن تاشفين وأنجبت منه عليا المذكور هنا .

ويعرف من بنات يوسف بن تاشفين وأبنائه عدد نوردهم فى الجدول التالى :

يوسف بن تاشفين

- أبو بكر سير ، أكبر أولاده . توفى ٤٧٨/١٠٨٦
- أبو الطاهر تميم ، الملقب بالمعز
- على الذى خلف أباه يوسف
- يحيى
- أبو محمد إبراهيم
- أبو عبد الله محمد بن عائشة
- رقية
- كوت ، أو كوتة
- تميمة أم طلحة
- فنو

ويُظن أن غانيّة التى تزوجت على بن يوسف المسوفى ، والد يحيى بن غانية الذى ذكرناه ، كانت ابنة يوسف بن تاشفين ، ولكن الغالب أنها كانت من بيت يوسف بن تاشفين فحسب .

(٢) أى على غرناطة .

(٣) سيف الدولة أحمد بن هود هذا هو ابن عماد الدولة عبد الملك بن أحمد المستعين صاحب سرقسطة . وكان عماد الدولة عبد الملك بن هود رجلا ضعيف النفس شديد الحرص على البقاء فى سرقسطة بأى ثمن ، وكان المرابطون قد استقروا فى مرسية وبلنسية وتطلعوا نحو سرقسطة ، —

وتعاون ابنُ هود مع ابن أضحى على قتال الملثمين وحصارهم بالقصبة أشهراً ، وفى أثناء ذلك جرحوا ولدَ ابن هود وأسروه وأدخلوه القصبةَ ، فمات من جراحه فغسلوه وكفنوه وجعلوه فى نعش ، ودفعوه إلى أبيه فدفنه .

قال : ثم مات القاضى ابنُ أضحى ، وتقدم ابنُه محمد بعدَه مع الرعية فى معاونة ابن هود . ثم إن ابنَ أبى جعفر قاضى مرسية الثائرَ بها جيَّش لمعونة أهل غرناطة ، فلما وصل إلى ما يقرب منها — وهو فى ألفى فارس من أهل الشرق — خرج الملثمون إليه فهزموه وقتلوه وكثيراً ممن كان معه ، ودفن هو بغرناطة . وعجز ابنُ هود ففر إلى جيّان ، وكان قد ترك بها ابنَ عمه نائباً عنه وابن مشرف البَراجلى (١)

= فتحالف عبدالملك بن هود مع ألفونسو الأول الملقب بالمحارب ملك أرغون ونَبَرَّة (٤٩٩ – ٥٢٩ / ١١٠٤ – ١١٣٤) ، فأسرع القائد المرابطى محمد بن الحاج ودخل سرقسطة سنة ٥٠٣/١١٠٩ ، وانتقل عبد الملك بن هود إلى حصن روطة **Rueda** حيث أقام فى حماية ألفونسو المحارب وتوفى سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ وقام من بعده ابنه أحمد سنة ٥٢٥ / ١١٣١ أو ٥٢٦/١١٣٢ ، وكان معدوداً فى جملة أتباع ألفونسو المحارب يقاتل من يأمره بقتاله ، مسلماً كان أو غير مسلم . ثم تنازل عن روطة لألفونسو السابع ملك قشتالة فى مقابل إقطاع بناحية طليطلة حتى سنة ٥٣٩/١١٤٤–١١٤٥ وهى السنة التى قتل فيها تاشفين بن على بن يوسف وبدأت الثورة على المرابطين فى الأندلس ، فأسرع أحمد بن هود واحتل قرطبة بمعاونة أهلها وألفونسو السابع . وقد فصلت مدونة ألفونسو السابع ***Cronica del Emperador Don Alfonso* VII** كيف اتفق أحمد بن هود مع ملك قشتالة على أن يعمل على إشعال الثورة على المرابطين ، وفصلت كذلك كيف اشترك أحمد بن هود فى حملة ألفونسو المحارب على الأندلس والتخريب الذريع الذى أنزله ببلاد المسلمين . وبعد ذلك يبدأ أحمد بن هود دوره فى هذه الفتنة التى قامت على المرابطين فى الأندلس وكادت تقضى على ما بقى منه إذ ذاك لولا تدارك الموحدين إياه ، والمسئول عن ذلك رجال مثل ابن حمدين وابن قسى وأحمد بن هود وسيدراى بن وزير ومن إليهم . وقد تسمى أحمد بن هود هذا بسيف الدولة ، وتكتبه المراجع الإسبانية **Zafadola** .

Cf. : Fr. CODERA, *Decadencia y desaparición de los Almorávides*, p. 71 sqq.

(١) الأصل : وإن مشرف ، ويغلب أن صحتها ما أثبتناه . والبراجلى نسبة إلى البراجلة ، وهى مجموعة من أقاليم كورة إلبيرة كل منها تسمى بُرجالة : برجالة أَنْدَرَة ، وبرجالة أبى جرير ، وبرجالة قيس ، وبرجالة النليول وغيرها .

فوقيا له . وتغلب الملثمون على مدينة غرناطة ، وفر محمد بن على بن أضحى إلى المنكّب ، ثم منها إلى حصن بنى بشير .

وحكى غيره أن ابن أضحى لما دعا لابن حَمْدين فى رمضان سنة تسع وثلاثين ، تمنع الملثمون بقصبة غرناطة — وكانوا جماعةً أهلَ بأسٍ ونجدة ، فيهم بقية أمرائهم ونقاوة أبطالهم — فحاربوه ثمانيةَ أيام ، إلى أن وصل من جيّان بعضُ قواد الثغر مدداً لابن أضحى ، فاضطربت[1] محلته بالمصَلى ، وانضاف إليه من غرناطة جمع وافر ، /فخرج إليهم الملثمون من الغد ، وهزموهم أقبح هزيمة ، [١٥٠-ا]
وقتلوا منهم مقتلة عظيمة . ثم عادوا إلى القصبة ، وضيقوا على ابن أضحى وأهل البلد ، ومنعوهم المرافق ، ودامت الحرب بين الطائفتين بداخل المدينة وخارجها ، إلى أن ورد ابنُ أبى جعفر القائم بمُرْسِية فى جموع وافرة — يقال إنهم كانوا اثنى عشر ألفاً ، بين خيل [ورجل][2] فخرج إليه الملثمون مستميتين ، وقد اشتدت شوكتُهم وكثفت جماعتُهم ، فهزموه وقُتل ابنُ أبى جعفر ، ولم ينج من عسكره إلا القليل ؛ وانصرف الملثمون إلى معقلهم ظاهرين على عداتهم ظافرين فى حركاتهم .

ثم قدم ابنُ هود ، ودخل غرناطة من باب مَوْرور ، ومعه ابنُه عِماد الدولة فخرج إليه ابنُ أضحى راجلا ، وسلم عليه وأنزله . واستسقى ابنُ هود ، فأمر له ابنُ أضحى بقدحِ زجاج فيه ماء معدٌّ لإتلاف مَن يشربه ، فعند إخراجه صاحت به العامةُ : « لا تشربْه يا سلطان ! » ، وحذَّرته العاقبةَ ، فخجل ابنُ أضحى ، وتناول القدحَ وعبَّ فيه ينفى الظِّنَّة بذلك عنه ، فمات من ليلته .

ونزل ابنُ هود ببعض البساتين بظاهر غرناطة ، وأقام هنالك عشرةَ أيام ،

---

(١) الأصل : فاضطرب .

(٢) أضفت هذه الكلمة للسياق .

ثم انتقل إلى القصبة الحمراء ، والقتالُ بين الملثمين وأهل المدينة متصل . وفي بعض تلك الأيام أثخنوا ابنَه جراحاً وأسروه ، فمات من ليلته ، فدفعوه إلى أهل البلد مكفناً ليدفنوه أو يحملوه . ولم يُقِم ابنُ هود بعد ذلك إلا نحو شهر في مظالم وتنويع مغارم ، حتى لَهَمّ به أهلُ غرناطة ، فانخزل عنهم ليلا وفر إلى مُرسية ، وقيل إلى جَيّان .

وقام بعدَه بأمر غرناطة أبو بكر محمد بن أبي الحسن بن أضحى ، وذلك في أول سنة أربعين وخمسمائة ، وأقام ثمانية أيام يُغادَى ويُراوَح بالقتال ، حتى هرب من ليلة الجمعة القابلة إلى المنكَّب[1] . وعند هربه تصالح أهلُ المدينة والملثمون — وأميرُهم علي بن فَنُّو قد توفي ، فخلفه ميمون بن يَدَّر بن ورقاء — وقيل : بل دخلها عنوةً علي أبي علي المنصور بن محمد بن الحاج في نيابته عن يحيى بن علي ابن غانية ، وأقام إلى أن أسلمها إلى الموحدين أعزهم الله سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

وكان أبو الحسن بن أضحى — في حداثته وبعدها — أبيّ النفس ، عالي الهمة ، فقيهاً يناظَرُ / عليه ، أديباً ، صاحبَ بديهة . قرأتُ بخط أبي عبد الله [١٥٠ب] محمد بن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عَبّاد البَلَنْسِيّ ، وحدثني الحافظُ أبو الربيع ابن سالم عنه ، وأنشدني ذلك غيرَ مرة ، قال : قال أبي : أنشدنا صاحبُنا أبو بكر بن الغفائري ببَلَنْسِيَّة — وكتبها لي بخطه — قال : أنشدني الشيخ المحدث[2]

---

(١) المنكَّب ، تسمى اليوم Almunécar وهي فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز مُطْرِيل Motril في مديرية غرناطة ، وهي على ٢٣ كيلومتراً غربي مطريل . وفي المنكب نزل عبد الرحمن الداخل عندما عبر إلى الأندلس من المغرب .

انظر : الإدريسي ، ص ١٩٩ — الروض المعطار رقم ١٧٩ ص ١٨٦ والترجمة الفرنسية ص ٢٢٥ .

(٢) الأصل : المحـ ، وقد أكلناها بما يناسب المعنى .

أبو حفص عمر بن محمد بن عمر اليَحْصُبِي قال : أنشدنى القاضى أبو الحسن بن أضحى لنفسه ، وقد دخل مجلسَ عليّ بن يوسف بمراكش ، فلم يَهْتَبِلْ به أحد ، ونزل حيث انتهى به المجلسُ ، فحضره هذان البيتان فاستأذن الأميرَ فى إنشادهما فأذن له فقال :

نحن الأهِلَّةُ فى ظلامِ الحِنْدِسِ ... حيث احتلَلْنا ثَمّ صدرُ المجلسِ

إن يبخلِ الزمنُ الخؤونُ بعزِّنا ... ظُلماً فلم يذهب بعزِّ الأنفسِ

فأمر بترفيعه فى المجلس — لو قال « يذهب » مكان « يبخل » لكان أجود .

وله :

يا ساكنَ القلبِ رفقاً كم تقطِّعُهُ ... اللهَ فى منزلٍ قد ظلّ مثواكا

يشيِّدُ الناسُ للتحصين منزلَهم ... وأنت تهدمه بالعُنف عيناكا

واللهِ واللهِ ما حبى لفاحشةٍ ... أعاذنى الله من هذا وعافاكا

وله :

أزِف الفراقُ وفى الفؤادِ كُلومُ ... ودنا الترحُّلُ والحِمامُ يحومُ

قل للأحبة : كيف أنعَمُ بعدَكم ... وأنا أسافر والفؤاد مقيمُ ؟

قالوا : الوَداعُ يهيج منك صَبابةً ... ويثير ما هو فى الهوى مكتوم

قلت : اسمحوا لى أن أفوز بنظرةٍ ... ودعوا القيامةَ بعد ذاك تقوم

وله :

روحى لديكِ فرُدِّيه إلى جسدِى ... مَن لى على فقده بالصبر والجلَدِ ؟

بالله زورى كئيباً لا عزاء له ... وشرِّفيه ومثواه غداةَ غدِ

لو تعلمين بما ألقاه يا أملى بايعتِنى الودَّ تُصْفِيه يداً بيدِ
عليكِ منى سلام الله ما بقيَتْ آثارُ عينيك فى قلبى وفى كبدى [١٥١-١]

وله :

وشمعـةٍ يحملها شادنٌ يسترُ وجهاً قمريًّا بهـا
فكان كالشمس على نورها يكسِفُ منها البدرُ حيث انتهى

وله ، وكتب به إلى ذى الوزارتين أبى جعفر بن أبى [...][١] القرطبى معتذراً :

ومستشفعٍ عندى بخير الورى عندى وأولاهمُ بالشكر منى وبالحمدِ
وصَلت فلمـا لم أقم بجزائه لففتُ له رأسى حياءً من المجدِ

وله فى الزهد يخاطب [...][٢] :

علىُّ ، قد آنَ أن تتوبا ما أقبحَ الشيبَ والعيوبا
شِبتَ ، وما تُبتَ من بعيدٍ سوف تُرى نادماً قريبـا
تركب للهو والمعـاصى صعبـاً وتستسهل الذنوبا

(١) سقطت بقية الاسم من الأصل ، ولم أجد من أهل هذه الفترة من يحتمل أن يكون المراد هنا إلا أبا جعفر أحمد بن عبد العزيز بن أبى الخير الأنصارى المعروف بالمَوْرُورى ، من أهل سرقسطة وسكن قرطبة ، وهو من تلاميذ أبى على الصدفى ، ذكره ابن الأبار فى المعجم ، رقم ٧ ص ١١ .

(٢) هنا أيضاً سقط اسم المخاطَب ، ويفهم من الأبيات أن اسمه على . والغالب أنه قال هذه الأبيات مخاطبا نفسه .

١٤٥ ــ مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان ابن عبد العزيز ، أبو عبد الملك

لما انتهى إلى بلنسية الخبرُ بقيام أبي جعفر حَمْدِين بن محمد بن حمدين وبيعته بقرطبة وبجامعها الأعظم في يوم السبت الخامس من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وبانصراف ابن غانية عن لَبْلَة ــ وقد أعجزه أمرُها وتعذر عليه فتحُها ــ اضطرب أهل بلنسية وواليها حينئذ أبو محمد عبد الله بن محمد بن على ، ابنُ أخي أبي زكرياء بن غانيةَ[1] ، وقاضيها أبو عبد الملك هذا ــ ولاه تاشفين بنُ على بن يوسف في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ــ فاجتمعا في الحين ، على منافسةٍ كانت بينهما في الباطن ، واتفقا على الائتلاف وترك الخلاف . وحضر الناسُ بالمسجد الجامع ، فقام فيهم مروانُ خطيباً يذكِّر بجهاد اللمتونيين للروم ، ونصْرِهم للجزيرة ، واستنقاذِهم بلنسية من أيديهم ، ويحض على التمسك بدعوتهم والوفاء لهم . ثم قام / عبدُ الله بن محمد الوالى ، وتكلم بما حضره في هذا المعنى ، وذكّر الناسَ بما انتظم بينهم وبين عمه من الصحبة ، وانفصلوا . [١٥١-ب]

(١) لكي تتضح العلاقة بين هذين الاثنين نورد الجدول البياني التالي :



فنُمِي إلى عبد الله من القول — عن القاضي وغيره — ما أزعجه ؛ وليلةَ يوم الأربعاء ، الثامن عشر من رمضان ، أنفذَ عيالَه وأثقالَه إلى شاطبة ، وأصبح هو بالوَلَجَة(١) . فدار بينه وبين الجند ما أوجب تمزيقَ خبائه ، وللفور أخذ في الفرار مع قومه . فلما استقروا بشاطِبة ، أغارت خيلُه على جهات بلنسية فاكتسحت ما وجدت ، وتظلم الناسُ إلى ابن عبد العزيز ، ورغِب إليه الجندُ والعربُ ووجوهُ أهل البلد في التأمُّر عليهم ، فأبى وقال : « اختاروا من شيوخكم مَن تقدِّمونه » ، فاتفقوا على بعض اللّمتونيين الباقين ببلنسية بعد فرار عبد الله ابن محمد . وتمشَّتِ الحالُ على هذا أياماً .

وأراد هذا المجتَمَعُ عليه من لَمتُونة أن يقبض على ابن عبد العزيز ، فلم يستطع . ثم خامره الروع ، فلحق بشاطبة ، هو والباقون معه من أشياعه . وحينئذ وقع الإجماعُ على ابن عبد العزيز ، فاستخفى إلى أن انفرد به أبو محمد عبدُ الله ابن عِيَاض قائدُ الثغر ، وعبدُ الله بن مَرْدَنِيش وقالا له : « هذا الأمر لا بد لك منه ، والرأى المبادرة » ، فقبل ذلك وتم [أمرُه](٢) والبيعة له يومَ الاثنين الثالث من شوال(٣) ، وولَّى عبدَ الله بنَ عياض الثغرَ وما والاه ، وضم إلى نظَره ما كان بأيدى أصهاره بنى مَرْدَنِيش قبل ظهورهم . والملثمون أثناء ذلك يغيرون على الجهات ، ويعيثون فيما يجاورهم من البسائط والمعاقل ، فاستدعى ابنُ عبد العزيز أجنادَ الثغر ، ونهض بهم إلى منازلة شاطِبة . فانحدر الملثمون من قصبتها إلى المدينة ،

(١) ولجة بلنسية ، سبق أنْ تكلمنا عنها .

(٢) أضفت هذه الكلمة للسياق .

(٣) يلاحظ تسرع أولئك الناس فى الحركة والوثوب بالأمر ، فإن بيعة ابن حمدين فى قرطبة كانت فى ١٥ رمضان ٥٣٩ ، ولابدَّ أن الخبر وصل بلنسية بعد أيام ، وفيما بين وصول هذا الخبر و٣ شوال حدث كل ذلك بما فيه من اتفاق ونقض وهروب وغارة وحرب واختفاء ، ثم ظهور وعرض وتمنع وقبول .

ونهبوا الديار وسبوا النساء ، وقدم ابنُ عبد العزيز على هذه الحال يومَ الجمعة الثامن عشر من شوال ، فكانت بينه و بينهم مواقفات ظهر فيها عليهم ، حتى لجأوا إلى القصبة منهزمين .

ووصل أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبى جعفر بعسكر مُرسية فى آخر شوال ، فأقاما على حصار شاطبة ، متفقَين فى الظاهر ، مختلفَين فى الباطن ، وكل واحد منهما يرى أنه أولى بها .

[١٥٢-أ] واضطربت / مُرسية إثْرَ ذلك ، فتوجه إليها ابنُ أبى جعفر مصلحاً ومسكّناً ، ثم عاد إلى حصار شاطبة . ووصل ابنُ عياض بأهل الثغر معيناً لأميره ابنِ عبد العزيز ، فلم يجد عبدُ الله بن محمد بدًّا من الفرار ، ولحق بالمَرِيَّة فى خبر طويل ، ومنها ركب البحر إلى أبيه محمد بن على ، وهو بمَيُورْقَة قد ملكها واستقر فيها برأى أخيه أبى زكرياء يحيى بن على ، عند ثورة العامة بإشبيلية منصرَفَه من حصار لَبْلَة .

ولما هرب عبدُ الله من قصبة شاطبة استولى عليها ابنُ عبد العزيز صلحاً ، فحصَّنها وعيَّن لها ضابطاً وصدَر إلى بلنسية ، فيقال إنه دخلها راكباً على جمل فى زى الجند ، وجُددت له البيعةُ يومَ قدومه ، وذلك فى صفر سنة أربعين . وانصرف ابنُ أبى جعفر إلى مُرسية ، ثم قُتل على إثر ذلك بجهة غرناطة ، فانضافت لَقَنْت[1] وأعمالُ شاطبة إلى ابن عبد العزيز .

---

(١) لقنت : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت لقنت مدينة من مدائن كورة تدمير (صفة الأندلس للرازى ، ص ٧٠ - ٧١) ، وقد وصفها الإدريسى (صفة الأندلس والمغرب ، ص ١٩٣) - ونقل ابن عبد المنعم الحميرى نص كلامه (رقم ١٦١ ص ١٧٠) - بأنها مدينة صغيرة ، بها سوق ومسجد جامع ومنبر ، ويتجهز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر ، وبها قصبة منيعة جداً ، وعلى صغرها تنشأ بها المراكب السَّفَرِية والحراريق . ولقنت فرضة قديمة سماها الرومان Ilicitanus ، ومن هنا جاء اسمُها فى العربية ومنه اسمها اليوم أليكانتى Alicante ، وهى من المدائن السبع التى صالح عليها تُدمير ، ولهذا دخلت فى كورة تدمير فى التقسيم الإدارى . =

وعند استقلاله بالرئاسة خانه الجندُ ، ولم تَفِ الجبايةُ بالواجبات ، فتعللوا عليه بذلك ، وعزموا على خلعه ، وخاطبوا ابنَ عِيَاض يستعجلونه فى الوصول إليهم من مُرسية — وكان قد ملكها بمداخلة أهلها وخلعَ أبا عبد الرحمن بنَ طاهر[1] منها فى العاشر من جمادى الأولى من سنة أربعين المذكورة — فلم يَرُع ابنَ عبد العزيز إلا إحداقُ الجند بقصره يومَ الثلاثاء السادس والعشرين من شهر جمادى الأولى المذكور — وحكى ابنُ صاحب الصلاة أن ذلك كان فى الخامس والعشرين منه — فخرج راجلا متنكراً ، وتدلَّى من سور بلنسية ليلا ، واعتسف الطريق دون دليل حتى لحق بجبال المَرِيَّة ، واجتمع بالقائد محمد بن ميمون ، فقَبض عليه وقيده وفاء لبنى غانية ، وأقام عنده إلى أن دفعه إلى عبد الله بن محمد[2] ، عدوِّ ابنِ عبد العزيز وطريدِه من بلنسية وشاطبة ، وقد ورد على المَرِية فى قِطَع

— وقد اضمحل أمر لقنت خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى ، وتنافس عليها الطامعون حتى عرض صاحبها أبو جميل زيان بن مردنيش على حايمه الأول المعروف بالفاتح ملك أرغون بيعها إياه مع ميورقة فى مقابل ٥٠٠٠ بيزانت من الذهب (البيزانت نحو دينار) ، ولكن هذا رفض العرض لأن لقنت وإقليمها كانت من النواحى التى اتفق ملوك النصارى على أن تكون من نصيب ملك قشتالة . وقد استولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة سنة ٦٥٦/١٢٥٨ بعد حصار قصير . ولقنت اليوم عاصمة مديرية بحرية تحمل نفس الاسم تقع جنوبى مديرية بلنسية وشرقى مديريتى البسيط ومرسية . وهى من أكبر موانى الساحل الشرقى لإسبانيا .

ر Cf. MADOZ, *op. cit.* I., 611 sqq.

(١) هو حفيد أبى عبد الرحمن بن طاهر الذى ترجم له ابن الأبار فيما سبق .

(٢) هو عبد الله بن محمد بن على بن يوسف المسوفى ، وهو من بنى غانية ، وابن أخى يحيى بن غانيـــة .

ميورقة برسم اتّباع العدو ، فعفّ عبدُ الله عن دمه ، واحتمله معه مقيداً ؛ ونقم الناسُ على ابن ميمون(١) فعلَه .

ويقال إن عبد العزيز لما غدر به الجندُ فر إلى قُلَيْرة(٢) ، ثم رجع إلى بلنسية مستتراً ودخل دارَه القديمة ، فعُثر على خبره وطُلب حتى أحرق بعضُ [١٥٢-ب] /دوره ، فخرج ثانيةً مستخفياً إلى مرسية ، واقتفى أثرَه يوسفُ بن هلال إلى مقربة منها ، ففاته . وأقام هو بمرسية ثلاثةَ أيام ، ثم خرج منها إلى المرية فقبض عليه ابنُ ميمون .

ولما خلعه الجندُ قدّموا عبدَ الله بن محمد بن سعد بن مَرْدَنِيش نائباً عن ابن عِيَاض ، وأسكنوه قصرَ بلنسية ، وقدِم ابن عِيَاض فى آخر جمادى الأولى — وقد وافتْه بيعةُ أهلها فى طريقه إليها — فأقام بها ناظراً فى أمورها ومصلحاً لثغورها . ثم عاد إلى مرسية ، وترك صهرَه أبا محمد بن سعد ببلنسية أميراً عليها من قِبَله — وهو عمُّ أبى عبد الله بن سعد ، أمير الشرق بعد ذلك والمعروف

---

(١) محمد بن ميمون هو أمير البحر أيام المرابطين ، وكانت له فى أيامهم مواقع كبيرة فى الدفاع عن الجزائر الشرقية وسواحل بلنسية وتدمير ، وهو الذى أسر الرُّبَرْتير القائد القطلونى الذى ذكرناه آنفا ، ثم دخل بعد ذلك فى خدمة الموحدين وقاد أسطولهم .

(٢) الأصل قُلَّبيرة ، ولم أجد فى ناحية بلنسية موضعاً بهذا الاسم ، والموجود Cullera فرجح عندى أنها المرادة هنا . وقليرة ميناء صغير جنوبى بلنسية ، وهو تابع لمديريتها على مقربة من سُوَيْقَة Sueca جنوبى البحيرة Albufera المعروفة هناك . وقد ذكر مادوث أنها كانت تسمى أيام المسلمين Colira (قليرة) . وقد سقطت قليرة فى يد خايمه الأول ملك أرغون سنة ١٢٣٦/٦٣٤ ، أسلمها إليه صاحبها جميل أبو زيان ، فأقطعها ملك أرغون بفرسان المعبد لمواصلة الحرب ضد المسلمين .

Cf : MADOZ, *op. cit.* VII, p. 278 sqq.

وانظر أيضاً الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ١٢٦ **تعليق ٢** .

بصاحب البَسيط[1] ، لأنه استشهد فيه مع سيف الدولة بن هود . وقَبض أهلُ

(١) البسيط : هذه واحدة من المرات القلائل التى ورد فيها اسم « البسيط » فى مراجعنا العربية ، مع أن هذا الموضع الصغير أعطى اسمه لمديرية كبيرة فى إسبانيا اليوم Albacete وقاعدتها تحمل نفس الاسم . ويغلب على الظن أن موضع مدينة البسيط الحالية هو موضع الحصن الذى كان يسمى « اللُّجّ » ، لأن ابن الأبار سيقول بعد ذلك بمناسبة مقتل عبد الله بن سعد بن مردنيش : « بالموضع المعروف باللُّجّ وبالبسيط على مقربة من جِنْجَالَة »Chinchilla. فأما حصن اللج فقد ورد فى الروض المعطار (مادة شلبطرة ، ص ١٠٨) باسم حصن الثلج ، وهو خطأ . وفى مادة « العقاب » (Las Navas de Tolosa) (قال الحميرى إن الناصر الموحدى فى طريقه إلى المعركة عسكر قرب حصن شلبطرة واللج ، واستولى عليهما ، مما يفهم منه أن حصن اللج قريب من شلبطرة Salvatierra ، وهذا يصدق على مكان مدينة البسيط الحالية . وقد ذكر الضبى « البسيط » فى مقدمة « البغية » التى يوجز فيها أحداث الفترة التى يتكلم عنها ابن الأبار هنا ، فقد قال إن المستنصر بن هود خرج مع ابن عياض « إلى غزوة البسيط » واستشهد بها فى نصف شعبان سنة ٥٤٣ (البغية ، ص ٣٣) .

وأما جنجالة فتسمى الآن Chinchilla de Monte de Aragón وهى بلدة صغيرة فى مديرية البسيط على ١٥ كيلومترا جنوب شرق العاصمة . وقد ذكرها الإدريسى (ص ١٧٥) وقال إنها مشهورة ببسط الصوف ، وذكرها أيضاً ياقوت بالإمالة الأندلسية : جنجيلة ، ومن هنا أتى النطق الإسبانى : تشِنْشِيَّا . ويفهم من هذا كله أن البسيط كان يطلق على حصن اللج أو حصن آخر مجاور له فى منطقة واسعة تكثر فيها الحصون مثل شلبطرة . وكان إقليم البسيط على هذا يشمل القسم الشمالى الشرقى من كورة مرسية وجزءاً من إقليم المانشا (La Mancha) من اللفظ العربى « المَنْجَى » وهى الأرض المرتفعة – وجزءاً من إقليم قشتالة الجديدة ، أى ما يقابل مديرية البسيط الحالية . ولم تشتهر هذه الناحية إلا فى أواخر العصور الإسلامية ، وقد كانت أراضيها موزعة بين كور قرطبة وغرناطة ومرسية وبلنسية . وبعد انهيار التنظيم الإسلامى انكمشت كورة قرطبة إلى الغرب وغرناطة إلى الجنوب ومرسية وبلنسية إلى الشرق ، ونتجت عن ذلك مساحة واسعة تقوم فيها حصون متفرقة مثل اللج وشلبطرة وجنجالة أطلق عليها اسم « البسيط » ، وقد سمى حصن اللج بحصن البسيط نسبة إلى هذه المساحة الواسعة . وقد سقطت حصون البسيط وجنجالة وشلبطرة والإقليم كله بعد سنة ١١٤٦/٥٤١ بقليل .

وإلى سنة ١٤٠٣ كانت « البسيط » بليدة صغيرة تابعة لجنجالة ، ثم مدنت – أى اعتبرت مدينة من الناحية الإدارية – سنة ١٤٠٥ ، ثم وسعها الملكان الكاثوليكيان – فرناندو وإيزابيلا – سنة ١٤٩٢ ، فأنشآ إلى جانبها مبانى جديدة مازالت تزيد مع الزمن حتى قامت مدينة جديدة إلى جانب القديمة ، وأصبح موضع هذه الأخيرة يعرف باسم Villavieja (البلد القديم) أو –

الثغر على أبي جعفر أحمد بن جُبير[١] ـ وهو والد أبي الحسين الأديب الزاهد ـ واحتملوه مقيداً إلى حصن مُطَرْنيش[٢] ـ وهو من أمنع معاقل بلنسية ، وسُجن فيه إلى أن فَدى نفسَه بثلاثة آلاف دينار ، إلى ما نُهب له من دفاتر وذخائر ، فسُرِّح وتوجه إلى شاطبة واتخذها داراً .

= Villa cerrada (البلد المغلق) . وهذه التسمية الأخيرة تدل على أن المراد حصن اللج القديم وما يحيط به من أرض مسورة ، ثم عرف هذا القسم القديم من البلد ـ ولا زال يعرف إلى اليوم ـ باسم Alto de la Villa (أعلى البلد) إشارة إلى أنه يقوم على مرتفع ، في حين نشأ البلد الجديد على السفح . وقد أنشئت مديرية البسيط Provincia de Albacete بمرسوم ملكي صدر في يناير ١٨٣٤ ، واعتبرت مدينة « البسيط » عاصمتها .

ولما كانت ناحية البسيط وحصونها لم تذكر في الحوليات الإسلامية إلا في أواخر العصر المرابطي فإننا نستنتج من ذلك أن ذكرها كان نتيجة لضياع كثير من الأراضي من أيدي المسلمين وصعوبة الثبات في نواح عامرة مرغوب فيها ، ومهددة تبعاً لذلك ، فكانت حصون مثل اللج وجنجالة وشليطرة ملجأ ومعتصما لمغامرين من طراز سيف الدولة بن هود ومروان بن عبد العزيز . وقد ارتبطت أسماء هذه الحصون بكثير من المآسي التي شهدتها هذه الحقبة وما تلاها ، ففيها ـ كما سيروي ابن الأبار ـ قتل ـ أو انتحر ـ سيف الدولة بن هود ، وعلى حدودها الجنوبية المتاخمة لمديرية جيان وقعت معركة العقاب Las Navas de Tolosa في منتصف صفر ٦٠٩/١٧ يوليو ١٢١٢ التي انهزم فيها محمد الناصر رابع خلفاء الموحدين ، وتلاشى بعد ذلك رويداً رويداً سلطان الموحدين في الأندلس ، وتلاشى أيضاً الأمل في الثبات على جبهة الوادي الكبير ، وارتد المسلمون إلى ما يلي ذلك جنوبا ، وتمكنوا من الثبات على خط نهر شنيل ، مكتفين بما يقع جنوبه .

انظر ـ بالإضافة إلى المراجع التي ورد ذكرها في متن التعليق ـ مواد جنجالة وشليطرة والعقاب في الروض المعطار ـ دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الأولى ، مادة البسيط Albacete بقلم فرديناند زايبولد ، ج ١ ص ٢٥٣ ب ، و :

MADOZ, *op. cit.*, I, p. 243 sqq.

AMBROSIO HUICI MIRANDA, *Las Grandes Batallas de la Reconquista durante las Invasiones Cristianas* (Madrid, 1956) p. 231 sqq.

(١) الرحالة ، صاحب الرحلة المعروفة .

(٢) مُطَرْنيش Montornes مدينة صغيرة اليوم في جنوب مديرية برشلونة في أرض مرتفعة كثيرة الحصون . وفي العصور الإسلامية كانت من حصون الحدود بين كورة طرطوشة =

واستطالت الأيدى على سائر أصحاب ابن عبد العزيز ، وانتُهب القصر أياماً ؛ وعند إشخاصه مقبوضاً عليه إلى ميورقة سُجن فى بيت مظلم مُطبَق كان لا يعرف النهار فيه من الليل ، وتُرِك أوقاتاً دون غذاء ولا ماء ، وأقام مسجوناً نحواً من عشرة أعوام وقيل اثنى عشر عاماً . وفى سجنه ذلك قال قصيدة يعارض بها أبا مروان الجزيرى[1] أولها :

يا نفسُ دونَكِ فاجزعى أو فاصبرى   طلع الزمانُ بوجهـــه المتنمِّرِ

وهى طويلة ضعيفة لم يمر له فيها كبيرُ إحسان ، فلذلك تركتُها . ثم إنه تخلص من معتقَله بسعى أبى جعفر بن عطية الوزير فى ذلك ، حتى خوطب إسحاق بن محمد بن على بتسريحه وقد وَلى ميورقة بعد قتل أبيه محمد وأخيه عبد الله[2] فى سنة ست ، بل سبع ، وأربعين وخمسمائة ؛ وجنح إلى الموحدين أعزهم الله فامتثل إسحاق ذلك ، ووجَّه به إلى بِجَاية ومنها توجَّه إلى مراكش ،

= وكونتية برشلونة . وبعد زوال الخلافة وخلال عصر الطوائف تداعى خط الحصون الذى كان يؤمن بلاد الإسلام فى هذه الناحية ، ولم يبق للمسلمين إلا بعض الحصون المنيعة مثل مطرنيش هذا ، وعندما استولى السيِّد القمبيطور على بلنسية صارت مطرنيش فى يد ملك أرغون ، وعندما استعاد المرابطون بلنسية عاد حصن مطرنيش إلى الإسلام ، ثم خرج من أيديهم عندما استولى خايمه الأول على بلنسية وتوابعها . ويسمى الحصن فى بعض النصوص اللاتينية : Mons Orenes (جبل أورِنس) .

Cf : R. MENÉNDEZ PIDAL, *La Espana del Cid*, I, p. 504, 533, II, 771 — 772.

(١) هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى ، وقد سبق التعليق عليه . والقصيدة المشار إليها هنا قصيدة « فى الآداب والسنة » كتب بها إلى بنيه ينصحهم ، ومنها :

واعلم بأن العلم أفضل رتبة   وأجل مكتسب وأسنى مفخـر

انظر : جذوة المقتبس للحميدى ، رقم ٦٢٤ ، ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٢) هؤلاء جميعاً من بنى غانية .

فسعى له ابنُ عطية فى حضور المجلس السلطانى . ولما طولب[1] قال يغرى به ويحرض عليه ، غامطًا حقَّه وكافراً يدَه :

[١٥٣-١] قل للإمام – أطال الله مُدتَه قولا تبينُ لذى لُبٍّ حقائقُه :

إن الزَّرَاجِين[2] قومٌ قد وَتَرْتَهُمُ وطالبُ الثأر لا تؤمَنْ بوائقُه

وللوزير[3] إلى أربابهم مَيَلٌ لذاك ما كثُرتْ فيهم علائقُه

فبادرِ الحزمَ فى إخماد نارهمُ فربما عاق عن أمرٍ عوائقُه

الله يعلم أنى ناصح لكمُ والحق أبلج لا تخفَى طرائقُه

همُ العدوُّ ومن والاهمُ كهمُ فاحذر عدوَّك واحذر من يصادقُه

فكانت هذه الأبيات من أقوى الأسباب فى قتل ابن عطية رحمه الله . وله أيامَ خموله بالمغرب يصف حاله :

أفٍّ لدنيا تقلبتْ بى تقلُّبَ المشىِ والغُدُوِّ

قد كنتُ فيما مضى عزيزاً مُساميَ النجمِ فى العلوِّ

فحالىَ الآنَ لو رآها بكى لها رحمةً عدوِّى

وتوفى بمراكش سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، ومولده سنة خمس وخمسمائة .

---

(١) أى ولما طولب أبو جعفر بن عطية ، وقد سبق أن فصلنا ذلك .

(٢) الزراجين والزراجنة صفة يستعملها بعض كتاب الموحدين ويعنون بها المرابطين . جاء فى أخبار المهدى محمد بن تومرت للبيذق (ص ١٢) : « جماعة الملثمين الزراجنة الساكنين بالسوس دمرهم الله » ، وفى ص ٢٨ : « وكان الناس فى القتال مع الزراجنة » ، وقال فى تفسير عبارة قالها ابن تومرت بالبربرية : « يعنى بالباطل الزراجنة وما كانوا عليه » . . الخ . وقال ابن القطان فى تفسير هذا اللفظ إنه جمع زَرْزَجان وهو طائر أسود البطن أبيض الريش شبه ابن تومرت به المرابطين لأنهم « بيض الثياب سود القلوب » .

(انظر نظم الجمان بتحقيق الدكتور محمود مكى ص ٨٥) .

(٣) يريد بالوزير أبا جعفر بن عطية .

١٤٦ — محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن ابن طاهر القيسى ، أبو عبد الرحمن

لأهل بيته فى قِدم الرئاسة وكرم السياسة ذكر مأثور وأثر مذكور ، وقد أوردتُ كلامَ أبى مروان بن حَيّان فى أوّليتهم . وكان أبو عبد الرحمن الأولَ منهم فى الرسائل ، كأبى عبد الرحمن الأخير فى علوم الأوائل ، ذلك للبيان والتشقيق ، وهذا للنظر والتحقيق .

وأول(1) من ثار بمرسية بعد انقراض الدولة اللمتونية أبو محمد بن الحاج الاورق — وهو عبد الرحمن بن جعفر بن إبراهيم — قدّمه أهلُ مرسية فدعا لابن حَمْدِين أياماً من شهرى رمضان وشوال سنة تسع وثلاثين وخمسمائة — وهى السنة التى كثر فيها الثوار بشرق الأندلس وغربها من القضاة وغيرهم — ثم أظهر التبرم بما حُمِّل ، وأحب الانخلاع مما قُلِّد .

واتفق أن وجّه سيف الدولة بنُ هود قائداً من قواده يعرف بعبد الله بن فتوح/ الثَّغرى إلى مرسية ، فأخرج ابنَ الحاج منها للنصف من شوال المذكور ، [١٥٣-ب] ودعا لابن هود ، ثم أُخرِج .

(١) يورد ابن الأبار فيما يلى موجزاً لأحداث شرق الأندلس خلال هذه الفترة المضطربة التى مرت بين زوال أمر المرابطين واستقرار الأمر للموحدين فيما بقى للإسلام فى هذه الناحية . وقد ترجم ابن الأبار لبعض من سيجىء ذكرهم فى هذا السرد فى بعض كتبه الأخرى ، فترجم لأبى محمد بن الحاج وهو عبد الرحمن بن جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافرى فى « المعجم » ، رقم ٢١٤ ص ٢٣٣ — ٢٣٥ ؛ ولأبى جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن موسى الخشنى (من أهل مرسية ، يكنى أبا جعفر ويعرف بابن أبى جعفر الخشنى) فى التكملة رقم ٦٣٤ ج ١ ص ١٨٠ ؛ ولأبى العباس المعروف بابن الحلاّل وهو أحمد بن محمد بن زيادة الله الثقفى فى «المعجم» رقم ٢٨ ص ٤٠ ؛ ولمحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسى فى التكملة ، رقم ٧٧٤ ص ٢٣٨ .

وقدِم أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبى جعفر الخُشَنى الفقيه فى آخر شوال هذا ، فتولى بالتدبير بقيةَ العام وأشهراً من سنة أربعين ، وكان يقول فى قيامه بالإمارة : « ليست تصلح لى ولست لها بأهل ، ولكنى أريد أن أمسكَ الناسَ بعضهم عن بعض حتى يجىء مَن يكون لها أهلا » . وتوجه إلى شاطبة يعين أبا عبد الملك مروان بن عبد العزيز على محاصرة مَن بها من الملثمين ، ثم خرج غازياً إلى غرناطة ومعيناً للقاضى أبى الحسن بن أضحى ، فى جيش ضخم وجمع كثيف يحكى أنه بلغ اثنى عشر ألفاً بين خيل ورَجْل ، وقد اشتدت شوكةُ الملثمين بقصبتها ، وانضاف إليهم من قومهم خلق كثير ، فبالغوا فى التضييق على مدينتها وأكثروا القتل فى أهلها . ولما سمعوا بمسير ابن جعفر نحوهم تأهبوا له وبرزوا لدفاعه — ويقال إن عبد الله بن محمد بن على بن غانية كان فيهم ، قبل لحاقه بأبيه وقدومه عليه ميورقة إلى أمثاله من الأعيان ولاتهم ومشاهير حماتهم — فهزموا ذلك الجمع بمقربة من غرناطة ، وقُتل ابنُ أبى جعفر .

وذكر ابنُ صاحب الصلاة أن عبد الله الثَّغْرى كان قائداً بكُونكَة[1] ، فلما سمع بقيام ابن حَمْدِين خرج إليه وأقام لديه ؛ واتفق أن وصلته مخاطبةُ أهل

(١) فى التقسيم الإدارى للأندلس كانت كُونْكَة (وتكتب أيضاً : قُونْكَة) مدينة من أعمال كورة شنتبرية Santaver (انظر : ياقوت : ٧/ ١٨٦) ولا ذكر لكورة مستقلة بهذا الاسم فى الترجمتين الإسبانية والبرتغالية لجغرافية الرازى ، لأن المترجمين عدلوا التقسيم بحسب ما كان الأمر عليه أيام ألفونسو العاشر ، ولهذا فهى تذكر هناك مع مدينة سالم . وكانت كونكة من أمنع حصون الثغر الأدنى ، ولهذا فإننا نظن أن عبد الله الثغرى المذكور هنا سمى بالثغرى لأنه كان قائداً فى هذا الحصن . وفى أثناء الفتنة التى يتحدث عنها ابن الأبار كانت كونكة قد أصبحت تابعة لبلنسية ، وفى عصر الموحدين اشتد الصراع حول كونكة ، وانتهى الأمر بأن أسلمها صاحب بلنسية إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة فى مقابل سكوته عنه ، وكان ذلك سنة ٦٢٠/١٢٢٣ . ثم أصبحت مدار حرب طويلة بين مملكتى أرغون وقشتالة . وهى اليوم قاعدة مديرية تحمل نفس الاسم . والبلد نفسه يقع على نهر وَقَر Huecar أحد نهيرات نهر شقر R. Júcar على ١٧٠ كيلومتراً جنوب شرق مدريد .

مرسية يذكرون تقديمهم أبا محمد بن الحاج ، وأنه استعفى من ذلك ، فأنفذ إليهم الثَّغْرى واليًا ، وقدَّم أبا جعفر بن أبى جعفر قاضيًا . قال : فورد يومَ الثلاثاء منتصفَ شوال سنة تسع وثلاثين .

وظهر من أبى جعفر حبُّ الرئاسة ، فحشد الناسَ لقتال الملثمين بأُورِيُولَة[1] ، وغدر بهم عند نزولهم على الأمان فقتلهم . ثم داخَل أهلَ بلده مرسية فى أن يؤمِّروه ، ويتقدم للقضاء أبو العباس بن الحلاَّل[2] ، ولقيادة الخيل عبدُ الله الثغرى ، فلم يخالفوه .

وبعد انعقاد البيعة له نبذ طاعةَ ابن حَمْدِين ، ودعا لنفسه ، واقتصر لقبه على « الأمير الناصر لدين الله » وأسقط منه « الداعى لإمام المسلمين »[3] . وقَبض على الثغرى فسجنه وصهريه ابنى مسلوقة ، وصيَّر قيادةَ الخيل لزَعْنون ، أحد وجوه الجند .

---

(١) أوريولة : هى إحدى المدائن السبع التى عاهد عليها تُدمير ، وعند تحويل بلاد تدمير إلى كورة أيام عبد الرحمن الداخل أصبحت أوريولة من كبار مدائنها . ذكر ذلك الرازى وقال إنها بلدة أولية (صفة الأندلس ص ٧٠/٧١ ، وكرر نفس الكلام الإدريسى ، ص ١٧٣ . وياقوت : ٢١٣/١ يكتبها أريول) واختصها أحمد بن أنس العذرى بمادة طويلة ، وذكرها كذلك أبو الفدا فى تقويم البلدان (بتحقيق رينو ودى سلان) ص ١٧٩ . ويذهب العذرى وابن عبد المنعم الحميرى (الروض المعطار ، رقم ٣٢ ص ٣٤) إلى أن أصل اسمها المدينة الذهبية ، وهذا صحيح ، لأن أصل اسمها Aureola ، واسمها الآن Orihuela ، وهى مركز إدارى فى مديرية مرسية ، تبعد عنها ٢٣ كيلومترًا إلى الشمال الشرقى .

انظر بالإضافة إلى المراجع المذكورة : د. م. إ. ج ٣ ص ١٠٦٧ .

(٢) ترجم له ابن الأبار فى « المعجم » (رقم ٢٨ ، ص ٤٠) وهو أبو العباس أحمد ابن محمد بن زيادة الله الثقفى المعروف بابن الحلاّل وقال إنه : « قاضى قضاة الشرق من أهل مرسية ، ولبيته بها نباهة . ولاه الأمير محمد بن سعد (بن مردنيش) قضاء عمله ثم نكبه وهلك فى معتقله بأُنْدَة Onda من ثغور بلنسية سنة ٥٥٤ » .

(٣) « الداعى لإمام المسلمين » هو اللقب الذى اتخذه لنفسه القاضى ابن حمدين .

[١٠٤-أ] ثم توجّه إلى شاطبة معيناً لابن عبد العزيز/فى حصار الملثمين المتمنعين بقصبتها — ورئيسهم إذ ذاك عبد الله بن محمد بن غانية — فثارت العامةُ بمُرسية عند مغيب ابن أبى جعفر عنها ، وسرّحوا الثَّغْرى وصهريه من معتقلهم ، فلحق بها وأطفأ تلك النائرة[1] . وهرب الثَّغْرى إلى كُونَكة[2] ، وعاد هو إلى حصار شاطبة ، إلى أن هرب عبدُ الله بن غانية منها ، فأتبعه ابنُ أبى جعفر خيلا سلبت ما تحمّل من المال ، وأفلت هو فلحق بالمرية .

ولما تغلب ابنُ عبد العزيز على شاطبة ، عاد ابنُ أبى جعفر إلى مرسية ، وذلك فى صفر سنة أربعين . ثم توجه بعد ذلك إلى غرناطة مغيثاً أهلَها ، فلقيه الملثمون بخارجها فهزموا جموعه وقتلوه[3] .

وعند انصراف الفَلِّ إلى مُرسية ، أجمع أهلُها على تأمير أبى عبد الرحمن بن طاهر هذا ، وذلك فى أواخر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، فانتقل إلى القصر ودعا لابن هود ، ثم لنفسه بعده ، وقدّم أخاه أبا بكر على الخيل . وكان ابن حَمْدِين قد وجّه ابنَ أخيه — وهو المعروف بابن أم العِمَاد — بعسكر فرُد خائباً ، ثم أعاد توجيه عسكر آخر مع ابن عمه المعروف بالفُلْفُلى ، صحبةَ أبى محمد ابن الحاج وابن سَوّار وغيرهما من الواصلين من أهل مُرسية إليه ، فصُد عن دخولها وطولب المائلون إليه .

وأقام ابنُ طاهر فى إمْرَته أياماً ريثما خوطب أبو محمد بن عياض بتعجيل الوصول إليهم ، فعجل المسير نحوهم ، وتلقاه زَعْنُون ، وهو وال على أُورَيُولة ،

---

(١) النائرة : الحقد والعداوة ، وقال الليث : النائرة الكائنة تقع بين القوم ، وقال غيره : بينهم نائرة أى عداوة (اللسان : ٧/١٠٦ ، السطر الأخير) .

(٢) وردت الفتحة على النون فى الأصل ، فتركتها كما هى .

(٣) فى الترجمة التى اختصه بها ابن الأبار فى التكملة (رقم ٦٣٤ ص ١٨٠) يقول إن مقتله كان فى صفر سنة ٥٤٠ ومولده مع الخمسمائة ، وقيل إنه لم يبلغ عند موته ٣٥ سنة .

فبرئَ منها(١) إليه وملَّكه إياها ، ولحق به الذين خاطبوه من مرسية يحرضونه على قصدها ، ولا عِلم لابن طاهر بذلك ، بل تمادى على تحسين الظن بالذين قدموا من لقاء ابن عياض . وقد برز الناسُ إلى لقائه ، ثم دخل القصر الكبير لا يدافعه عنه أحد ، وذلك فى العاشر من جمادى الأولى من السنة . وانتقل ابنُ طاهر إلى الدار الصغرى ثم [خاف على نفسه](٢) فتركها وانتقل إلى داره ، وعفَّ ابنُ عياض عن دمه لعلمه بضعفه . وكان مع شهامته حسن السيرة .

وفى هذا الشهر خَلع الجندُ مروانَ بن عبد العزيز ببلنسية ، واستدعوا ابن عياض فأمَّروه ، وأقام أميراً على شرق الأندلس داعياً لابن هود إلى أن قُتل/ [١٠٤-ب] بالبَسيط(٣) ، وداعياً بعد ذلك لنفسه .

وخالفه عبدُ الله الثَّغْرى إلى مرسية فى بعض أسفاره منها ، فدخلها وانتزى فيها . وكان قد أنفذه رسولا إلى الطاغية أذفونش ، ليعقد معه السلم ويمالئه على صاحب بَرشلونة ، فعاد من سفارته هذه وزعم أن أذفونش أمَّره على مرسية(٤) ، واستعان على دخولها بطائفة من أهل الفساد كانوا يشايعونه ، فتم ذلك وهرب محمدُ بن

---

(١) أى أسلمه إياها . وقد قرأها دوزى ، ص ٢١٩ : فرمى .

(٢) أكملت هذه العبارة بما يناسب السياق ، وقد اخترتها لقول ابن الأبار فى ترجمته فى التكملة (رقم ٧٧٤ ص ٢٣٨) : « ورأس بمرسية بعد انقراض الملثمين يسيراً ، ثم تخلى عن ذلك ، وتلوَّن للناس رغبة فى السلامة . وتوفى بمراكش سنة ٥٧٤ » .

(٣) توضيحاً لهذه العبارة نقول إن الذى قتل فى « البسيط » هو سيف الدولة أحمد بن هود .

(٤) قال كوديرا تعليقاً على ذلك : يفهم من « مدونة الإمبراطور » (ألفونسو السابع ملك قشتالة) أن سيف الدولة بن هود كان قَصَلا (أى تابعاً) لألفونسو الأول ، وأنه كان يحكم مرسية باسمه ، فلما قتل سيف الدولة فى البسيط أعطى الإمبراطور مرسية إقطاعاً لخلفه عبد الله بن فرج الثغرى . ولم تطل مدة حكم هذا الأخير فى مرسية ، فقد تولاها من أوائل ذى الحجة ٥٤٠/١٥ مايو ١١٤٦ إلى ٧ رجب ٥٤١/١٣ ديسمبر ١١٤٦ وهو تاريخ موته . وقد ضرب لنفسه عملة تحمل تاريخى سنتى ٥٤٠ و ٥٤١ وسمى نفسه فيها « الرئيس عبد الله بن فرج » .

Cf : CODERA, *op. cit.*, p. 109 - 110.

سعد بن مَرْدَنِيش — نائب بنى عِيَاض فيها — فلحق بلَقَنْت ، وذلك فى أوائل ذى الحجة من سنة أربعين .

ثم قُتل الثَّغْرى سابعَ رجب سنةَ إحدى وأربعين ، واستولى ابنُ عياض ثانيةً على مُرسية وسائر بلاد الشرق ، إلى أن قضى نحبه من سهم رُمى به فى بعض حروبه مع الروم ، يومَ الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين ، فكانت ولايتُه عاماً وتسعة أشهر وعشرين يوماً ، وحُمل إلى بَلنسية فدُفن بها ، ومحمدُ بن سعد إذ ذاك والٍ عليها ، فقام بمواراته . وعلم أهلُها بعهد ابنِ عياض إليه بالإمارة من بعده ، فبايعوا له — ويقال : بل نصبه أهلُها لذلك دون عهد .

وأما أهل مُرسية فأمضوا نيابة علىّ بن عبيد عن ابن عياض بعد وفاته ، إلى أن تخلى هو فى أواخر جمادى الأولى من السنة عما بيده لأبى عبد الله محمد بن سعد ابن محمد بن سعد الجُذامى بن مَرْدَنِيش — وجدُّه هو المعروف بذلك[1] —

---

(١) لم يترجم ابن الأبار لابن مردنيش ، إذ ليس له شعر ، مع أنه أكبر وأخطر الثائرين الذين ظهروا فى شرق الأندلس فى الفترة من زوال أمر المرابطين إلى دخول الموحدين الأندلس . وقد عوض فرانثيسكو كوديرا هذا النقص ، فاختص ابن مردنيش بدراسة مطولة فى كتابه عن اضمحلال المرابطين وزوال أمرهم من الأندلس .

Decadencia y desaparición de los Almoravides en Espana, **p. 111 sqq.**

ولا يتسع المجال لإيراد ملخص لهذا البحث هنا (والكتاب كله جدير بترجمة كاملة) . ونكتفى هنا بالإشارة إلى تحقيقه للاسم ، فإن مَرْدَنِيش أو مردانيش أو مَرْذَنِيش ليس اسما عربياً ، مما يقطع بأن نسبته الجذامية ليست صحيحة . والواقع أن أصله من أهل شبه الجزيرة ، وقد يكون جده مردنيش هذا دخل فى ولاء بعض الجذاميين وانتسب إليهم ، وهو فرض مقبول ؛ لأن دار بطون جذام بن عَدِىّ بن الحارث بن مرة بالأندلس كانت « شذونة والجزيرة وتدمير وإشبيلية » (الجمهرة لابن حزم ، ص ٣٩٦) .

وربما كان أصل الاسم **Martinez** ، وفى هذه الحالة كان ينبغى أن يكتب بالعربية : مرتينش أو مردينش . أما أن تكون صحة الاسم **Martinéz** لتتمشى مع النطق العربى فأمر غير ممكن ؛ لأن هذا الاسم لا يمكن نطقه مع نبر المقطع الأخير ، ولهذا فقد اقترح كوديرا أن يكون أصل =

فقوى سلطانه ، وعظم شأنُه . واشتد حذر ابنِ طاهر هذا منه ، لما كان يسمع ويبصر من شهامته وحزامته ، وربما عرض له ابنُ سعد بما يزيده حذراً منه وانقباضاً عنه ، فأخذ فى التلون وأقبل على الانهماك والإدمان ، [و زهد فى الإمارة][1] وطلب السلامة من غائلتها وقطع معه مدته [خائفاً][2] إلى أن توفى ابنُ سعد منسلَخَ رجب سنة سبع وستين وخمسمائة ، فأفرخ روعه ، ورسخ بالدخول فى الدعوة المهدية أمنُه ، وتوفى بمراكش سنة أربع وسبعين — أكثرُ هذا الخبر المنسوق عن ابن صاحب الصلاة ، وجلُّه [...][3] مع ما اندرج فيه زيادة ، عن غيره مستفادة .

= الاسم Martinus أو Mardonius . وهذا الأخير من أسماء البيزنطيين ، وكانت لهم جالية كبيرة فى قرطاجنة الحَلْفاء غير بعيد عن مرسية .

وكان محمد بن سعد بن مردنيش فى هيئته ولباسه وسلاحه أقرب إلى نصارى شبه الجزيرة منه إلى مسلميها ، وكان يتكلم لغاتهم الإسبانية والقطلونية بطلاقة ، وكان الكثير من رجاله وجنده نصارى ، بل أعطى واحداً منهم — هو Pedro Ruiz de Azagra — مدينة شنتمرية الشرق (شنتمرية بنى رزين) إقطاعاً وسمح له بأن يقيم فيها أسقفية ، وكان هو نفسه حليفاً وفَصَلاً لملك قشتالة وكونت برشلونة . ويسمى فى المراجع النصرانية باسم لُبْ Lobo أو Lope أو الملك لُبْ El Rey Lobo

وكان ابن مردنيش يؤدى إتاوة لرايموندو برينجير الرابع Ramón Berenguer IV كونت برشلونة ولألفونسو السابع ملك قشتالة قدرها ١٠٠ مثقال من الذهب . وعندما مات كونت برشلونة هذا سنة ١١٦٨ تعهد ابن مردنيش بأن يدفع لخلفه ألفونسو الثانى ملك أرغون ٢٥ ألف دينار مرابطى فى السنة ، وكذلك كان يدفع إتاوة لجمهوريتى بيزا وجنوة فى بعض السنين . وكانت بينه وبين هنرى الثانى ملك انجلترا مراسلات ومهاداة . ورغم هذه الإتاوات كلها فقد انتزع كونت برشلونة من شرق الأندلس طرطوشة (سنة ١١٤٩) ثم لاردة وأفراغة Fraga ومكناسة Mequinenza أواخر ذلك العام نفسه .

(١ و ٢) أضفت هذه الكلمات " "

(٣) بياض فى الأصل .

ومن شعر ابن طاهر :

[١٠٥-١] /تأيَّدْ على الشطرنج إن كنت لاعباً [... ... ...]

فما أمره مما يعز وإنما يعزُّ علينا فيه نقضُ القرائح

وله وقد جرى ذكر سلطان المغرب بينه وبين قينة فى مجلسه فقال :

إمامٌ تناهى فى الأئمة فضلُهُ فأصبح مِنا النوعَ يفخر بالشخصِ

وقالت القينة :

تكامل حتى جل عن وصف واصفٍ وأبدى لنا ما فى الأنام من النقصِ

ولابنه أبى محمد عبد الحق بن أبى عبد الرحمن ، وهو لبنت القاضى أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى[1] ، وباسمه وكنيته سُمى وكُنى :

اختر مكانَ العز فاحللْهُ ولو عُوِّضتَ منه شقاوة بنعيم

هذا الحبيب وفيه أفضلُ أسوةٍ وهو المفدَّى عند كل كريم

لم يرضَ عضواً للمحب يحله غير الفؤاد وفيه نار جحيم

وله يمدح :

لما وجدتَ العالمين تقسموا قسمين : من حزبٍ ، ومن أعداء

قسَّمتَ عدلَك فيهمو قسمين قد شملاهمُ : من نعمة ، وشقاء

للأجر جاهدتم عِداةَ الدين لا أن العداةَ لكم من الأكفاء

وله من قصيدة :

---

(١) المراد أبو محمد عبد الحق بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسى الذى يترجم له ابن الأبار فى هذه المادة .

ويفهم من هذه الفقرة أن أمه كانت بنت القاضى أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى .

هجرتَ من الدنيا لذيذَ نعيمها　　لأنك لا ترضاه إلا مخلَّدَا

وقضَّيتَ شهرَ الصوم بالنيةِ التى　　رقيتَ بها فى رُتبةِ القُدس مُصْعِدَا

وودَّعَ عن شوقٍ إليك مبرِّح　　فلو كان ذا جفنٍ لبات مسهَّدَا

يقول فيها :

تفقَّدْ بحُسن الرأى عبداً مؤمِّلا　　دعاه رجاء الفوز أن يتعبدا

وإن كان عُظْمُ الذنبِ صغَّر قدرَهُ　　فإن سليمانًا تفقد هُدهُدَا

وهذا نحوُ ما أنشدَنا الأستاذُ أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار بن محمد الرعينى بحضرة تونس حرسها الله ، قال : أنشدنا أبو البركات الواعظ المصرى المعروف بالزيزارى — وقد رأيت أنا أبا/ البركات هذا وسمعتُ وعظه بجامع بلنسية فى [١٥٥-ب] سنة ثمان وستمائة :

ومن عادة السادات أن يتفقدوا　　أصاغرَهم ، والمكرماتُ مصائدُ

سليمان فى ملك تفقد هدهداً　　وأصغر ما فى الطائرات الهداهدُ

وكل ما عثرت عليه من منظوم عبد الحق هذا ومنثوره منصوص فى كتابى المترجَم بـ « إيماض البرق فى أدباء الشرق » .

١٤٧ — عبد الله بن خَيار الجيانى ، أبو محمد

عداده فى المتوثبين(١) ، وكان عاملا على مدينة فاس فى دولة الملثمين ثم استبد بها يسيراً فى قيامه عليهم بالدعوة المهديّة ، وعلى يديه كان فتحُها ، والموحدون

(١) فى الهامش بخط مخالف : صح : من المتأدبين .

أعزهم الله إذ ذاك بمكناسة فأسرعوا الوصول إليها ، وأمّنوا أهلَها عند دخولها عصرَ يوم الأربعاء الرابع عشر من ذى قعدة سنة أربعين وخمسمائة ، وقيل عند الفجر منه (١) .

وذلك أن واليها يحيى بن أبي بَكر بن على بن يوسف المعروف بابن الصحراوية أعرس تلك الليلة بامرأة من قومه فشغله ابنُ خِيار بكثرة ما أهدى إليه عن النظر لنفسه ، وقد واعدَ الموحدين تمكينَهم من البلد لما أمكنته الفرصة ، فدخلوا عند الفجر ، ولم يكن ليحيي محيص عن الفرار والنجاة بنفسه فيمن خفَّ معه من أصحابه وانتهوا إلى طَنجة ، ثم أجازوا البحر منها إلى الأندلس .

---

(١) روى أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق هذه الحوادث بتفصيل (أخبار المهدى ابن تومرت ، ص ٩٨ — ٩٩) ، وقدسبق أن ذكر نفس المؤلف فى كلامه عن دخول ابن تومرت فاس فى صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر شيئاً عن الجيانى هذا ، فقال : « وكان مظفر يحكم فاس والجيانى مشرِّفهم بعدماكان مقدماً على الجيارين . وكان الجيانى له حظ عظيم ، حتى لم يكن فى زمرة الحَشَم أحظُّ منه ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا . فعند خروج الجيانى للقصر خرج المعصوم (يريد المهدى ابن تومرت) من فاس متوجهاً لبلاد السوس ، وغدا نحو مكناسة ، والله الموفق للصواب » (ص ٦٥) .

ويفهم من هذا أن حاكم فاس كان رجلا يسمى « مظفر » ، وقد ذهب ليڤى پروڤنسال فى تعليقه على الترجمة الفرنسية لهذه الفقرة (ص ١٠٢ من الترجمة ، تعليق ٢) أن مظفراً هذا كان من الصقالبة الذين خدموا المرابطين ، واعتمد فى ذلك على عبارة للمقرى (طبعة أوربا ، ج ٢ ص ٢١٩) يقول فيها « مظفر الخصى » . وأما لفظ « المشرف » فقد ترجمه پروڤنسال : **prévôt de la population** ، ولكن يفهم من عبارة للبيدق (ص١٠١) أن المشرف كان المسئول عن شئون المال .

ولم يشر البيدق إلى هذه الحيلة التى دبرها الجيانى على ابن الصحراوية . وفى ص ١٠١ نرى بوضوح كيف كان الجيانى هذا متآمراً مع الموحدين على أرباب نعمته المرابطين . وفى آخر ذلك الخبر يقول البيدق (ص ١٠٢) : « وقلع الخليفة رضه مع الموحدين أعزهم الله بأجمعهم إلى مكناسة ، وترك فى فاس أبا عبد الله محمد بن يحيى الكدميوى والجيانى الذى كان استفتاحها على يديه » .

وجلّت حالُ ابنِ خِيَار هذا بعدُ ، وكانت له من الدولة العلية مكانة سنية ، وهو القائل في محاولاته :

لنا في جَناب الدين والخير آمالُ تمكّنها سعدٌ عتيدٌ وإقبالُ
نحوز بها فوزاً ونُحرز غِبطةً فعند الإمام العدل صفح وإفضال
وإني لأرجو أن أفوز بليلةٍ فيُشرق عَسّالٌ ويشبع عسال

وفيه يقول أبو بكر يحيى بن سهل اليَكّيّ[1] عند تناهي حاله في الحظوة والوجاهة :

أيا ابنَ خِيَارٍ بَلغتَ المدى وقد يُكسَفُ البدرُ عند التمامْ
/فأين الوزير أبو جعفرٍ[2] وأين المقرَّبُ عبدُ السلامْ[3] [١٥٦-١]

(١) الأصل : البَكّيّ بالباء ، والصواب بالياء . وهو أديب شاعر مذكور في شعراء الموحدين ، ترجم له الضبي في « البغية » ، رقم ١٤٧٩ ص ٤٨٨ وقال إنه كان « خبيث الهجاء » ، وهو منسوب إلى يَكَّة ، مدينة صغيرة إلى شمال مرسية تسمى Yecla . وأما قراءته « البكي » ونسبته إلى بلد يسمى بَكّة « وهي مدينة بنواحي طريف » فغير صحيحة ، إذ ليس هناك بلد يسمى بَكّة ، إنما الموجود لَكّه وهي الصورة العربية للفظ Lago (البحيرة) والمراد به البحيرة المعروفة بالخندق Lajanda شمالي مدينتي الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف ، وعندها وقعت الموقعة بين طارق بن زياد ولذريق . انظر ذلك مفصلا في كتابنا « فجر الأندلس » ، وانظر عن اليكي :

HENRI PÉRÈS, *La poésie à Fès sous les Almoravides et les Almohades.* Hespéris, tome XVIII. 1934.

وانظر : كتاب « زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر » لأبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي ، بتحقيق عبد القادر محداد . بيروت ١٩٣٩ ، ص ٧٧ وتعليق ٢ .

(٢) المراد أبو جعفر بن عطية ، وقد سبق ذكره .

(٣) المراد عبد السلام الكومي الملقب بالمقرَّب . مات مخنوقاً بأمر عبد المؤمن بن علي سنة ٥٥٧ . راجع ترجمته في المعجب لعبد الواحد المراكشي ، ص ١٩٨ .

يريد أبا جعفر أحمد بن جعفر بن عطية الوزير الكاتب ، و نُكب فى صفر من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائه ، وفيه قُتل هو وأخوه أبو عَقيل عطية بخارج مراكش ، ولأبى جعفر إذا ذاك ست و ثلاثون سنة ، مولده سنة سبع عشرة وخمسمائة ولأخيه ثلاث وعشرون سنة وأصلهما من قَمْرِلَة[1] قرية بطَرطُوشة من شرق الأندلس و نسبهما فى قُضاعة .

ويريد بالمقرّب عبدَ السلام بن محمد الكومى وهو أخو بندة لأمها ، وتقلد الوزارة بعد أبى جعفر بن عطية ، وكان كثير الس[عاية] به شديد [الحسد له لايطيق الصبر] عليه ولا إمهاله[2] فيما وصل إليه . [فلما صارت إليه الوزارة] أدلّ بقربه وقرابته[3] ، واستبد بالأموال وكثر التظلمُ من عماله ، فسُجن بتلمسان.

---

(١) قَمْرِلَة فرضة صغيرة على البحر الأبيض جنوبى طركونة **Tarragona** تسمى اليوم **Cambrila** وهى جنوب رأس سالو **Cabo Salou** مباشرة ، وهى تابعة لمركز ريوس **Reus** فى مديرية طركونة ، وتبعد عن ريوس بمسافة ١٩ كيلومتراً ، وتبعد عن طركونة بعشرة كيلومترات إلى الجنوب . انظر :

LÉVI-PROVENÇAL, ***Un Recueil de lettres officielles Almohades. Etude Diplomatique et Historique.*** **Hespéris XXVIII (1941), p. 5.**

Diccionario Geográfico de Espana, **tomo VI (1958), p. 115.**

(٢) أكملت هذه العبارة بما يناسب المعنى بعد أن راجعت الفصل الطويل الذى كتبه ابن صاحب الصلاة عن نكبة عبد السلام الكومى فى الفصل الذى عنوانه : « ذكر مادار من الأوامر العلية فى هذه الغزوة المنصورة ، غزوة المهدية » فى كتاب « المن بالإمامة » ، مخطوط أكسفورد ، نسخة مصورة ، ورقة ٢١ وما بعدها .

(٣) شرح ابن صاحب الصلاة قرابة عبد السلام الكومى من عبد المؤمن بن على (ص٢٥ من المخطوط) فقال إن والد عبد المؤمن كان قد تزوج والدة عبد السلام (الكومى) « فولدت له ابنة تسمى بَنْدَة ، فكان يرى لنفسه حقاً ، ولم يعلم أن الملك عقيم ، وأن مسراته هموم ، ومُر عقابه كلوم . وكانت تلك الأخت بندة قد زوجها أمير المؤمنين رضى الله عنه من الشيخ المرحوم أبى حفص ، فلم تحسن عشرته ، فطلقها برأى أمير المؤمنين حين أساءت الزوجية معه ، وهجر أمير المؤمنين بندة » .

عند الانصرافه من غزوة المهدية فى سنة خمس وخمسين إلى أن سُم فى طعامه فهلك ، وقيل إنه قُتِل بالأرجل[١] .

[ومن بين][٢] ما قرأت فى بعض المعلقات أن عبد السلام هذا قصده جماعة من أهل سَلاَ فى وزارته فقعد عن برِّهم ولم يقض حاجتهم ، فكتب إليه أحدهم :

يا مَن يرى خيبةَ الراجين تَكرِمةً ونيلَ ما أمَّلوا عجزاً وتقصيرَا
مهلاً فإنك خامٌ فى يدىْ زمنٍ وقد أعدَّ له كَمْداً وتقصيرَا[٣]

فقُتِل فى اليوم الثانى من دفع الرقعة إليه بالأرجل .

واتفق أيضا مثل هذا لأبى العلا إدريس بن أبى إسحاق بن جامع[٤] فى

---

(١) فصّل ابن صاحب الصلاة موت عبد السلام الكومى مسموماً (نفس الورقة من مخطوط صاحب الصلاة) وملخص ذلك أنه بعد أن اتهم عبد السلام الكومى بسوء التصرف فى أموال قابس بعد دخولها فى طاعة الموحدين عقب استيلائهم على المهدية ، تكاثر عليه أعداؤه ، وفيهم نفر من السادة (أمراء الموحدين) فأمر عبد المؤمن بسجنه عندما وصل تلمسان ، ثم مال إلى العفو عنه ، فاتصل أعداؤه بالسجان وتواطأوا معه ، فصنع له السجان « ثَرْدَة فى فروج » — أى ثريداً فى فروج — فأكلها ومات منها . وليس هناك ذكر لموته قتيلا بالأرجل .

(٢) أضفت هذه الكلمات للسياق .

(٣) كذا فى الأصل . ومن المستبعد أن تكون قافيتان متواليتان بكلمة واحدة ، إلا إذا كان المراد بالثانية التقصير ضد التطويل . وربما كانت صحة الكلمة « تصهيراً » من الصهر وهو الإذابة ، وذلك بقرينة وصفه إياه فى المصراع الأول بأنه « خام » . والكَمْد هو تغير اللون .

(٤) بنو جامع أسرة من أهل الإدارة والوزارة خدمت الموحدين من أيام المهدى إلى أيام العادل الموحدى . وأصلهم القديم من الأندلس ، من مدينة طليطلة ، وأول من نسمع به منهم إبراهيم ابن جامع ، نشأ بضيعة تسمى رُوطَة Rota بساحل مَدينة شَرِيش على المحيط الأطلسى ، وهى غير روطة Rueda الثغر الأعلى ، « وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبة كل =

وزارته : قصده بعض معارفه الناشئين معه فلم يرفع به رأسا ، فكتب إليه .

شُغلتَ بخدمة السلطان عنا ولم تدْرِ العدوَّ من الصديقِ
رويدَك عن طريقٍ أنت فيها فإن النائبات على الطريق

فنكب بعد ذلك بيوم ، وهذا من طريف موافقة الشعراء فى زجرهم للقضاء .

وكانت نكبة أبى العلا هذا فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، بعد أن

= سنة » كما يقول عبد الواحد المراكشى فى «المعجب» (ص ٣١٠)، ثم يقول بعد ذلك ، « ثم انتقل إبراهيم هذا إلى بر العدوة ، وكان يحاول صنعة النحاس ، فتعرف بابن تومرت فكان من أصحابه ، فهو معدود فيهم » . وقد ذكر البيدق أبا إسحاق إبراهيم بن جامع بين « أهل دار الإمام المهدى» (ص ٢٩) . وظل إبراهيم بن جامع فى رعاية محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن على ، حتى كان يعيش فى قصر هذا الأخير ، وفيه ولد ابنه إدريس الذى استوزره أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ، وجمع ثروة طائلة وعاش فى قصر عظيم يطنب ابن فضل الله العمرى فى وصف سعته (الترجمة الفرنسية للجزء الخاص بالمغرب بقلم جودفروا ديمومبين ، ص ١٨٨ و٢٦٢) . وكان لإدريس هذا أخ يسمى عبد الله بن إبراهيم بن جامع كان يتولى مدينة سبتة وجهاتها وقيادة الأسطول . وفى سنة٥٧٣ غضب الخليفة أبو يعقوب يوسف على إدريس وأولاده ، فنفاهم إلى ماردة بغرب الأندلس حيث ظلوا ست سنوات حتى عفا عنهم الخليفة أبو يعقوب يوسف وهو فى طريقه إلى غزوة شنترين . أما عبد الله بن جامع فظل فى عمله ، وأنجب ولدا يسمى أبا سعيد عثمان ولاه الخليفة الناصر الموحدى طرابلس ، ثم ولاه الوزارة سنة ٦٠٥ . وقد اتسع سلطان أبى سعيد عثمان بن عبد الله بن جامع فى عهد المستنصر ، أبى يعقوب يوسف بن محمد الناصر ، خامس خلفاء الموحدين(٦٢٠-٦٢١) ، ووقع نزاع ومنافسة طويلة بينه وبين الوزير أبى زيد عبد الرحمن بن موسى بن وَجّان (أو يُوجّان) بن يحيى الهنتاتى . وعند موت المستنصر كان ابن وجان هذا من أكبر الساعين فى بيعة أبى محمد عبد الله بن أبى يعقوب المنصور الملقب بالعادل فى الأندلس منافساً لعمه عبد الواحد بن أبى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بمراكش ، وهو المعروف بعبد الواحد المخلوع (الروض المعطار ، ص ٦٧ — ٦٨ ، مادة جنجالة) . وقد وقف أبو عثمان سعيد بن جامع إلى جانب عبد الواحد ، فلما انتصر العادل بتأييد أشياخ الموحدين له على عمه فى سنة ٦٢١ نُفى إلى ناحية من جبال الأطلس ، وحاول أخوه أبو إسحاق بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع — وكان أمير البحر — منع العادل من العبور إلى المغرب ، وفشل فهرب ومات فى بلاد هسكورة . ولا نسمع بعد ذلك عن بنى جامع .

انظر ، بالإضافة إلى المراجع المذكورة آنفاً : ابن خلدون ، العبر ج ٦ — و :

AMBROSIO HUICI MIRANDA, *Historia política del Imperio Almohade.* Tetuán, 1957. II, p. 448, y nota 1.

استكمل فى وزارته خمس عشرة / سنة وشهراً وعشرين يوماً . واعتُقل هو وابنُه [١٥٦-ب] يحيى وأقاما مغرَّبين بجهة إشبيلية ستة أعوام وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً إلى أن صفح عنهما وقت الانصراف من غزوة شنترين سنة ثمانين وخمسمائة[١] .

١٤٨ ــ أخيل بن إدريس الرُّندى الكاتب ، أبو القاسم

كتب فى أول أمره للملثمين ، ثم استكتبه أبو جعفر حَمْدِين بن محمد بن حَمْدِين فى إمارته [ورعى له][٢] صحبْته إياه أيامَ قضائه ، فلما دخل ابنُ غانية قرطبة وأخرج ابنَ حَمْدِين ، لحق أخيل برُنْدَة[٣] بلدِه واستبد بضبطها مُدَيدة ،

(١) جاء فى الجزء الرابع من البيان المغرب (طبعة أمبروزيو أويثى ميراندا وآخرين ، تطوان ١٩٥٦) فى سياق الكلام عن مسير أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على غرب الأندلس ، وعند الوصول إلى بطليوس (ص٦٢) : « وكان إدريس بن جامع مغرباً مع بنيه بماردة وحيُّون الكومى كذلك ببطليوس ، فرغبوا من الخليفة أن يأذن لهم فى حضور هذه الغزوة ، فأذن لهم فى الحين ، ومشوا فى جملة المجاهدين » .

(٢) أضفت هاتين الكلمتين للسياق .

(٣) رُنْدَة : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت رندة مدينة تابعة لإقليم تاكُرُنّا فى كورة استجة (صفة الأندلس للرازى ، ص ٩٩) ، وقد أسقط اسمها صاحب التعليق المنتقى من فرحة الأنفس (انظر : كورة استجة ، ص ٢٦) . وقد ذكرها ياقوت (٢٩٣/٤) وأبو الفدا (تقويم البلدان ، طبعة أوربا) ص ١٦٦ ، وابن بطوطة (طبعة ديفريميرى وسانجينيتى) ج ٤ ص ٣٦٣ ، وابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار ، رقم ٧٩ ص ٧٩ ، وأشادوا جميعاً بحصانتها .

واسمها معرب **Arunda** وهو اسمها أيام الرومان والقوط ، وهى قائمة على حافةخانق فى جبل يسميه صاحب الروض المعطار : طَلَلُوبَرَدو هو المعروف بجبال رندة **Serranía de Ronda**. وتحت البلد يوجد الخانق المسمى باسم التاجه **el Tajo** عمقه ١٦٠متراً ، يجرى فيه نهر وادى اللَّبَن **Guadalevín** الذى يتصل بعد ذلك بوادى آرُه **Guadairo** . ورندة مشهورة فى التاريخ الأندلسى لأن جبالها كانت مركز ثورة عمر بن حفصون ، فعلى مقربة منها تقع قلعة بُبَشْتَرُ **Bobastro** بين قمم جبال رنده . ثم كان لها شأن فى عصر الطوائف الأول ، ثم صارت جزءاً من مملكة =

فحسده أهلها وداخلوا أبا الغَمْر بن السائب بن غَرُّون فى التمكين منها – وهو يومئذ قائم بدعوة ابن حَمْدِين فى شريش وأَرْكُش[1] – فتم ذلك . واستولى أبو الغَمْر على قصبة رُنْدَة الشهيرة المنعة دون قتال ولا نزال ، لركون أخيل إليه وثقته به ، فنجا بنفسه وما كاد . ونهب أبو الغَمْر ديار أصحابه ، وخلع طاعة ابن حَمْدِين ، ودانت له المعاقل المتصلة به ، فأَمِن أمرَه . وقيل : بل سَجن أخيل ثم سرّحه ، فكان عند أبى الحكم بن حَسُّون بمالقة ، ومنها توجه إلى مراكش فأوطنها ، واتصل بأبى جعفر بن عطية الوزير ، وعلى يديه أعيد ماله . ولم يزل هنالك مكرماً ، وفى طبقته مقدماً ، إلى أن وَلِى قضاء قرطبة ، ثم قضاء إشبيلية . وكان سمحاً ، جواداً ، بليغاً ، مدركاً .

وحُكى لى أنه لما أراد الانفصال من مراكش لقى أبا جعفر بن عطية فأنشده :

يا من يَعِز علينا أن نفارقهمْ   وِجدانُنا كلَّ شىء بعدكم عدمُ

=غرناطة . وقد سقطت فى أيدى فرناندو وإيزابيلا بعد حصار ٢٠ يوماً فى ٤ جمادى الأولى سنة ٨٩٠/٢٠ مايو ١٤٨٥ . وهى اليوم تابعة لمديرية مالقة (انظر المادة الخاصة بها فى دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ١٢٤٥ – ١٢٤٦) .

أما تاكُرُنّا فمنطقة جبلية هى التى تسمى اليوم باسم جبال رندة . ولفظ تاكرنا بربرى يوجد فى نواح كثيرة من المغرب فى صور مختلفة بعض الشىء ، أشهرها تَكْرُونة فى تونس . انظر :
W. MARÇAIS ET ABDURRAHMAN GUÏGA : *Textes arabes de Takroûna*. I, Paris, 1925. VIII, n. 1.

وقد حاول دوزى أن يفسر الاسم بقوله إنه مكون من اسم الإشارة البربرى «تا» واللفظ اللاتينى «كورونا» ، ولكن أحداً لم يقبل هذا الاشتقاق . وقد ذكرها ابن عبد المنعم الحميرى (رقم ٦٣ ص ٦٢) وقال إنها « مدينة أزلية تنسب إليها الكورة » ، ثم عاد فصحح نفسه وقال إنها إقليم من أقاليم استجة قاعدته رندة – وهذا هو الصحيح .

(١) أَرْكُشُن : تسمى اليوم Arcos de la Frontera ، وكانت فى التقسيم الإدارى الأندلسى تابعة لكورة شريش شذونة . وهى اليوم من مدن مديرية قادس على خمسين كيلومتراً شمال شرقى القاعدة قادس .

فأجابه أخيل :

إذا ترحَّلتَ عن قومٍ وقد قدروا ألا تفارقَهم ، فالراحلون همُ

وتوفى بإشبيلية سنة ستين — أو إحدى وستين — وخمسمائة . ومن شعره يراجع بعض الأدباء :

وفاؤكَ قد رضيتُ به حبيباً ورأيك قد قنعتُ به نصيبًا
وودُّك لا أريد به بديلاً وبرُّك لا أقوم به مُثيبا
/مكارمُ منك قد عَبَّتْ عُباباً على العافين وانهالت كثيبا [١٥٧-أ]
وطبعُك لو نفحت به هشيماً لعاد الروض مطلولا خصيبا[1]
وعهدُك كالشباب وليس مما يكون مآلُ نُضرته المشيبا
وذاك الشِّعر أم سحرٌ حلالٌ فتنتَ به المُساكتَ والمجيبا

وله أيضاً :

إليكَ أخذتُ حبالَ الذِّمام وفيكَ تعلمتُ نظمَ الكلامْ
فأرسلته جائلا كالرماح[2] وصُلْتَ به ثائراً كالحسامْ
وما كنتُ منه ولكنها أيادٍ تفجِّر صُمَّ السِّلامْ
[تروم الإ] صارةَ فى كل [يوم فنلتَ] الإصابة من كل رامْ[3]

---

(١) ورد هذان اللفظان فى الهامش بخط مخالف .

(٢) الأصل : حائراً كالوراح ، ولا معنى له .

(٣) أضفت ما بين الحواصر للسياق والوزن . وقد ورد لفظ الإصارة هكذا : صاره . وقد أخذت لفظ الإصارة من الصَّيِّر وهو القبر (اللسان : ٦/١٤٨) ، وراعيت فى هذا التوازن بين الإصارة والإصابة الواردة فى الشطر الثانى . والمعنى بعد هذا الإكمال : أنك تروم الموت كل يوم فى ساحات القتال ولكنك تنتصر وتصيب كل رام .

وتثنى الغصون على هزة كأن بها سكرات المدام
وكلٌّ تَهنَّأَ[1] إقبـــاله ولا كإياب الأمـــير الهُمامْ
فتى المكرُمات تصدّى لها بحُكم الكهول وسِنٍّ الغلام
[فأغنى][2] لمشرمضت من سنيه[3] [وأبلغ][4] فى النائبات العقام
وساق إلى المســلمين التى أنارت لهم فى اعتكار الظلام
وشوّق أضعافَ ما اشتاقه ولولا التصبر كان الغرام
وقاسى ليتّدِع المسلمون [وأنكى ليهلك][5] أهل اللئام
ونافر منهـــم أفاعى الرجا ل تبعث من ضغنها بالسّمام
وجاراهمُ طلقَ المكرمات فكان على الرغم منهم إمام
وأعشاهمُ فى سماء العـــلا بنور هلالٍ كبـــدر التمام

ووجدتُ منسوباً إليه — والصحيح أن ذلك لأبى جعفر عبد الله بن محمد ابن جُرْج القرطبى[6] ، وهو عندى بالإسناد إليه :

[١٥٧ب] / أما ذُكاء فلم تصفرَّ إذ جنحتْ إلا لفُرقة ذاك المنظر الحسنِ
رُبًى تروق وقِيعانٌ مزخرفةٌ وسائحٌ مَدَّ بالهطّالة الهُتُنِ
وللنسيم على أرجائه حَبَبٌ يكاد من رقةٍ يُجلى على الغصنِ

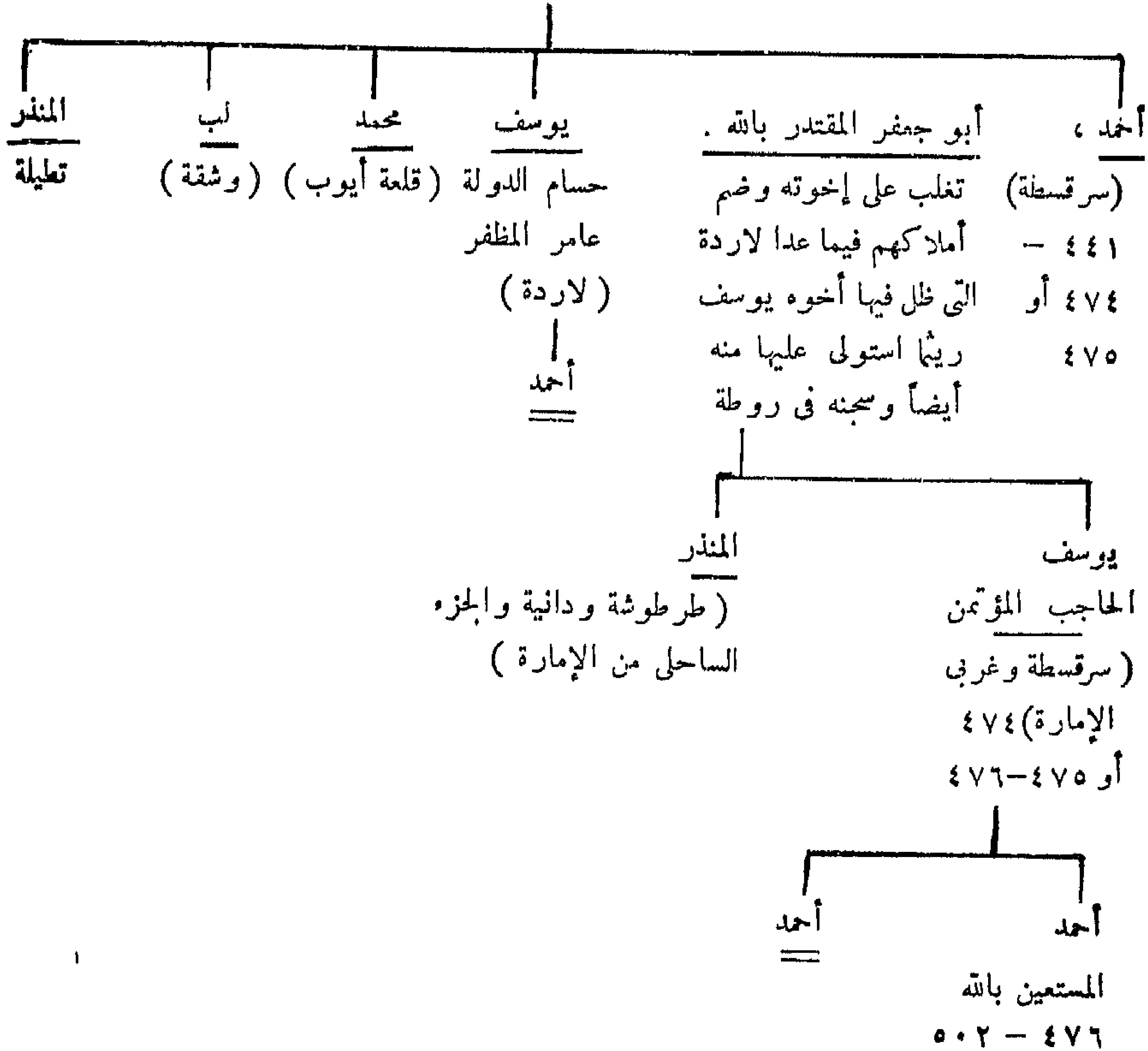
(١) الأصل : تَهَنّى .
(٢) أضفتها للسياق والوزن .
(٣) الأصل : سنّه ، ولا يستقيم به الوزن .
(٤) أضفتها للسياق والوزن.
(٥) أضفت هذه الكلمات للسياق والوزن .
(٦) عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى المطرف عبد الرحمن بن سعيد ابن جُرْج ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا محمد (فى النص يقول إنه أبو جعفر) . سمع من عدد من الشيوخ منهم أبو القاسم بن بشكوال ، وأجاز له ما رواه وألفه . توفى يوم الجمعة ٨ شعبان ٦١٤ ، ودفن بمقبرة أم سلمة ومولده سنة ٥٣٥ . فهو على هذا من معاصرى ابن الأبار . انظر : التكملة ، رقم ١٤٣٨ ج ٥١٠/١ .

١٤٩ — أحمد بن يوسف بن هود الُجذامى ، أبو جعفر

هو أحمد بن حسام الدولة أبى عامر يوسف بن عضد الدولة أبى أيوب سليمان ابن المؤتمن أبى عامر ، ويقال فى كنيته : أبو عمر يوسف بن المقتدر بالله أبى جعفر أحمد بن المستعين بالله أبى أيوب سليمان بن محمد بن هُود الجُذامى(١) .

(١) على هذا يكون أبو جعفر هذا إما من أولاد أحمد المقتدر بن سليمان بن محمد بن هود أو من أولاد أخيه يوسف حسام الدولة الملقب بالمظفر بن سليمان بن محمد بن هود ، والقول الثانى أصح ، فهؤلاء أصحاب لاردة ، وإليك شجرة النسب تبين هذين القولين :

أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود (٤٣٨ — ٤٤١)
كان من كبار وجوه الجند بالثغر الأعلى ، وعند قيام الفتنة استولى على لاردة سنة ٤٣١ ، ثم دخل سرقسطة وأصبح صاحب الثغر الأعلى كله سنة ٤٣٨ ، وعند موته فرق بلاد الثغر الأعلى على أولاده الخمسة كما يلى :



عبدالملك عماد الدولة : لم يطل حكمه ، إذ استولى على سرقسطة والثغر الأعلى القائد المرابطى =

وكان آباؤه وأهل بيته أمراء سَرقسطة والثغر الشرقى ، غلبت عليهم دون ملوك الطوائف الشجاعة والشهامة ، وقبضوا أيديَهم فقلَّت أمداحهم ، وترك الشعراء انتجاعهم ، إلا فى الغِبِّ والنادر ، على سعة مملكتهم ووفور جباياتهم .

وأول ملوكهم أبو أيوب سليمان بن محمد ، المتلقِّب من الألقاب السلطانية بالمستعين بالله صاحب لاردة ، وصار إليه مُلك سَرقسْطة وما معها ، بعد مقتل منذر بن يحيى بن منذر بن يحيى التجيبى الأخير : فتك به ابنُ عم له يسمى عبد الله بن حَكم ، وحز رأسه وسط قصره ، وذلك غرةَ ذى الحجة سنة ثلاثين وأربعمائة[1] ، ودعا لابن هُود أولَ أمره ، ثم ثار به أهل سَرقسْطة ، فلحق بحصن رُوطة اليهود[2] — أحد معاقلها المنيعة ، وقد كان أعده لنفسه — ونجا بفاخر ما اشتمل عليه من ذخائر آل مُنْذِر . ونهب العوام قصر سَرقسْطة إثرَ خروجه ، حتى قلعوا مَرْمَره

= محمد بن الحاج سنة ١١٠٩/٥٠٣ وضمها لدولة المرابطين .

راجع بحثنا عن « سرقسطة والثغر الأعلى فى عصر المرابطين » . مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة . مجلد ١١ ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ .

وقد قلنا هناك إن المنذر خامس أولاد سليمان بن هود هو نفسه لب ، وأن أولاد سليمان على هذا أربعة ، ولكن ما أثبتناه فى الجدول هنا أصح .

(١) سبق تفصيل هذه الحوادث والتعليق عليها .

(٢) رُوطَة : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت تابعة لمدينة (أى للكورة الثغرية) سرقسطة (انظر صفة الأندلس للرازى ، ص ٧٨) ، وهى غير روطة شريش التى ذكرناها . والمراد هنا **Rueda de Jalón** أى روطة نهر الخالون ، وهو شلون أحد نهيرات نهر إبره ، وهى اليوم تابعة لمديرية وشقة **Huesca** . وهناك مواضع أخرى تسمى **Rueda** فى هذه الناحية (انظر : مادوث ، ج ١٥ ، ص ٥٩٠ — ٥٩١ . وقد سقطت روطة هذه فى يد ألفونسو المحارب ملك أرغون عندما سقطت سرقسطة سنة ١١١٨/٥١٢) .

وطمسوا أثره ، لولا تعجيل سليمان بن هُود ، فملَكَ البلد فى المحرم سنة إحدى وثلاثين ، وأورثه بنيه حين توفى سنة ثمان وثلاثين[1] .

وحظى بولايته — دون إخوته — ابنُه أبو جعفر أحمد الملقب بالمقتدر ، وكان أقواهم سلطاناً . وهو الذى استرجع مدينة بَرْبَشْتُرُ[2] وافتتحها على النصارى

(١) انظر الجدول السابق فى تعليقنا على سليمان بن هود . وانظر أيضاً : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام (بيروت ١٩٥٦) ص ١٧٠ — ١٧١ . وابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٢) مأساة بَرْبَشْتَر Barbastro من أشنع ما أصاب المسلمين فى الثغر الأعلى خلال فترة الطوائف ، وقد روى خبرها ابن حيان وأورده ابن بسام فى القسم الثالث من الذخيرة فى سياق كلامه عن بنى هود ، وأورده المقرى فى نفح الطيب مع تحريف كثير (طبعة أوروبا ، ج ٢ ص ٧٤٩) ، وابن عذارى فى الجزء الثالث من البيان المغرب (ص ٢٢٥ — ٢٢٨) ، ودرسها دوزى دراسة وافية فى الجزء الثانى من أبحاثه ، فى بحثه الطويل عن غزوات النورمان فى إسانيا Les Normands en Espagne (ص ٢٥٠ وما يليها) والجزء الخاص بكائنة بربشتر فى ص ٣٣٢ وما يليها .

وخلاصتها أن نفراً من النورمان الذين سمح لهم شارل الأبله Charles le Simple ملك فرنسا بالإقامة فى الإقليم الذى عرف باسمهم من فرنسا بعد ذلك Normandie قاموابنشاط واسع فى الغزو والنهب والسلب فى شتى نواحى أوروبا (ومنهم تفرع النورمان الذين فتحوا انجلترا سنة ١٠٦٦ بقيادة وليم الفاتح) . وقد غزا بعضهم إيطاليا واتصل بالبابوية ، وهناك نصحهم الناس بالاتجاه لحرب المسلمين فى الأندلس ، فسارت حملة قوية منهم من جنوب فرنسا يقودها رجل يسمى Robert Crespin وانضم إليهم نفرمن الفرنسيين والإيطاليين وفاجأوا مدينة بربشتر واستولوا عليها بعد حصار أربعة أيام ثم نهبوها نهباً ذريعاً وقتلوا من أهلها ألوفاً وأسروا ألوفاً أخرى ، وكان ذلك فى جمادى الأولى ٤٥٦ .

وعندما انتشر خبر هذه الكائنة ريع المسلمون فى الأندلس كله ، ونهض أحمد بن سليمان ابن هود الملقب بالمقتدر ونادى المسلمين لتخليص بربشتر ، فتم لهم ذلك فى رمضان من السنة التالية . وعلى شناعة هذه الغزوة وما وقع فيها من القتل والسلب والنهب ، وجد باحث فرنسى أنها موضع للفخر ، وأراد أن يرد هذا الفخر إلى الفرنسيين . انظر :

P. BOISSONNADE, *La Croisade de Barbastro.*

وبربشتر مدينة ومركز إدارى فى مديرية وشقة ، تقع على نهر Cinca أحد نهيرات الإبره النابعة من جبال البُرت ، وتقع على ٦٠ كيلو متراً شمال شرق سرقسطة .

عنوة ، وخلع إقبالَ الدولة عليَّ بن مجاهد من دانية ، وسيَّره إلى سرقسطة دار مُلكه ، وهنالك هلك سنة / أربع وسبعين[1] ، وفيها توفى المقتدر . [١٥٨-أ]

ووَلى بعدَه ابنُه أبو عامر يوسف بن أحمد الملقب بالمؤتَمَن ، فلم تطل مدته وتوفى سنة ثمان وسبعين .

ووَلى بعده ابنُه أبو جعفر أحمد الملقب بالمستعين بالله ، واستُشهد على مقربة من تُطيلَة يومَ الاثنين أول رجب من سنة ثلاث وخمسمائة[2] .

ووَلى بعده ابنُه الحاجبُ عمادُ الدولة أبو مروان عبد الملك بن أحمد ، وشرط عليه أهل سرقسطة ألا يستخدم الرومَ ولا يلابسهم ، فنقض بعد أيام يسيرة ذلك — لما استشعر من ميل الناس إلى الملثمين — وأقام بحصن رُوطة . واستدعى أهلُ سرقسطة محمدَ بن الحاج اللمتونى والى بلنسية ، فوافاهم صبيحة يوم السبت العاشر من ذى قعدة سنة ثلاث وخمسمائة ، فأمكنوه من البلد ؛ وجرت قصص طويلة أفضت إلى تغلب الروم على سرقسطة فى يوم الأربعاء الرابع من شهر رمضان سنة اثنتى عشرة .

وقد كان عبد الملك هذا وجَّهه أبوه المستعين أحمد بن يوسف المؤتَمَن إلى يوسف بن تاشفين فى سنة ست وتسعين وأربعمائة بهدية سنية ، من جملتها أربعة عشر رُبُعًا من آنية الفضة ، مطرزة باسم جدِّه المقتدر والدِ جدِّه المؤتَمَن ، فقبلها

(١) ذكر ذلك بتفصيل ابن عذارى فى البيان المغرب ، ج ٣/٢٢٨ – ٢٢٩ .
وانظر : كليليا سارْنِلِّى تْشِرْكْوَا : مجاهد العامرى ، قائد الأسطول العربى فى غرب البحر المتوسط (القاهرة ١٩٦١) ص ٢٦٨ – ٢٦٩ ، والمراجع المعطاة هناك .

(٢) استشهد فى وقعة ڤالتييرا Valtierra (أول رجب ٥٠٣/٢٤ يناير ١١١٠) وكانت مع ألفونسو الأول ملك أرغون المعروف بالمحارب . انظر بحثنا عن سرقسطة والثغر الأعلى ، ص ١٠٦ ، و :

ANTONIO BALLESTEROS, *op. cit.* II, 453.

ابنُ تاشفين وأمر بضربها قراريط ، فُرِّقت ليلةَ عيد النحر فى أطباق على رؤساء قومه وهو إذ ذاك بقرطبة وقد أشار إلى بيعة ابنه على بن يوسف بالعهد لحضر عبدُ الملك ذلك .

ولما توفى بروطة فى شعبان سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وَلِىَ بعدَه ابنُه أبو جعفر أحمد بن عبد الملك سيف الدولة المستنصر بالله — ويلقب أيضاً بالمستعين بالله ، وهو آخر بنى هُود مُلْكاً — فأقام برُوطة إلى أن تخلى عنها الطاغية أذفونش بن رَمُنْد المعروف بالسُّلَيطين[1] ، وعوضه منها بنصف مدينة

(١) عبارة ابن الأبار هذه بالغة الدقة ، وهى تبين لنا مَن المراد بلفظ السليطين ، ولماذا لقب بذلك . فأذفونش بن رمند هذا هو Alfonso Raimundez وأمه هى أُرّاكه Urraca ابنة ألفونسو السادس الذى استولى على طليطلة ، الذى يقول فى حقه ابن وَقّار (الذى أخذ ابن الخطيب عنه أخبار ملوك النصارى) : «وهذا الفُنْش المعمَّر هو الذى طغى واستحوذ على ملوك المسلمين ، وحزّب بين ملوك الطوائف إلى أن قمعه الله بلمتونة ، وهزمه هزيمة الزلاقة على يد يوسف بن تاشفين» . وكان ألفونسو السادس هذا قد فقد ابنه الوحيد شانْجُه Sancho فى موقعة أقْليش على يد المرابطين سنة ٥٠٢ / ١١٠٨ . وكانت ابنته أراكة قد تزوجت من رامن دى بورجونيا Raman de Borgona وأصله بورجونى من Bourgogne فى فرنسا ، فأنجبت أذفش بن رمند Alfonso Raimundez الذى ذكرناه . ثم مات هذا . وبعد موت ألفونسو السادس (١ يوليو ١١٠٩) سعى النبلاء حتى زوجوا أراكة هذه من ألفونسو الأول ملك أرغون المعروف بالمحارب ، حتى تتحد أرغون وقشتالة ، وقد تم هذا الزواج فى سبتمبر سنة ١١٠٩ وأصبح ألفونسو الأول بالفعل ملك أرغون وقشتالة .

وقد أهملت بهذا الزواج حقوق Alfonso Raimundez ابن أراكة وولى عهدها الشرعى ووريث ألفونسو السادس الشرعى ، فقام أنصاره يطالبون بحقه ، وثار النزاع بين حزب ألفونسو الأول المحارب الأرغونى وأنصار هذا الأمير المعارضين فى أن يكون الملك الأرغونى ملكاً على قشتالة ، وكان على رأس أولئك المعارضين الأسقف برناردو أسقف طليطلة ، وكان فرنسياً من رهبان دير كلونى ، فمازال يسعى لدى البابا بسكال الثانى حتى ألغى زواج ألفونسو الأول المحارب من أراكة . ولم يكن زواجاً سعيداً على أى حال ، فقد كان الشقاق مستمراً بين ألفونسو وأراكة . وتم الانفصال بينهما سنة ١١١٤ ، وتم الاتفاق على أن يكون ألفونسو المحارب ملكاً على أرغون وقشتالة ، وتكون أراكة ملكة على ليون وجليقية وذلك بعد حروب=

طُلَيْطِلَة[1] ، وذلك فى شهر ذى قعدة سنة أربع وثلاثين ، وسار معه فأنزله بها .

وفى سنة تسع وثلاثين أخذت دولةُ الملثمين فى الانتقاض والانقراض ،

=طويلة . وعندما ماتت أراكة خلفها ابنها **Alfonso Raimundez** باسم ألفونسو السابع ، وقد سماه أهل الأندلس بالسليطين لأنه ولى عرش قشتالة صغير السن إذ كان تحت وصاية أمه أراكة ، وهو لقب يقابل التسمية اللاتينية التى كانت الحوليات المسيحية تطلقها عليه ، وهى **Rex Parvus** (أى الملك الصغير) . وعلى أى حال فقد بدأت بملكه دولة جديدة فى تاريخ ليون وجليقية ، هى الدولة البرغونية **La Casa de Borgona**

انظر :

PEDRO AGUADO BLEYE, *Manual de Historia de Espana*,II, (Madrid, 1947), p. 617 sqq.

ابن الخطيب : ذكر التعريف بما أمكن من ملوك الأندلس على الاختصار ، ذيل على كتاب أعمال الأعلام ، ص ٣٢٢ وما بعدها .

IBN, IDĀRI *: al - Bayān al - Mugrib*, nuevos fragmentos almorávides y almohades, traducidos y anotados por A. Huici Miranda, ed. Valencia, 1963, p. 201.

(١) سبق أن بينا خطأ هذا القول ، وأن الحقيقة هى أن ألفونسو السابع (وهو ألفونسو ابن رمند المعروف بالسليطين المذكور فى الهامش السابق) عندما استولى على روطة وادى خالون **Rueda de Jalón** من عماد الدولة عبد الملك بن أحمد المستعين بالله بن هود فى سنة ٥٢٥ أو ١١٣١/٥٢٦ جعله تابعاً من أتباعه وأعطاه إقطاعاً بناحية طليطلة . وأصبح عماد الدولة هذا من رجاله يخرج معه فى غزواته ، شأنه فى ذلك شأن سائر أفصاله (جمع فَصَّل وهو التابع الإقطاعى) الآخرين . وعندما توفى عماد الدولة عبد الملك بن هود خلفه ابنه أحمد بن عماد الدولة –الذى تلقب بسيف الدولة– فى إقطاعه ومركزه . وقد اشترك مع ألفونسو السابع فى حملته الكبيرة على الأندلس ، وهى التى وصل فيها إلى الجزيرة الخضراء وعاث فى بلاد الإسلام عيثاً شديداً (٥٢٨ – ١١٣٣/٥٣٠ – ١١٣٥) . وعندما وقع الانفصال بين ألفونسو المحارب وزوجته أراكة (راجع التعليق السابق) وانفصلت أرغون وقشتالة عن ليون وجليقية أصبحت روطة هذه من بلاد مملكة ليون وجليقية وملكتها أراكة حتى سنة ١١٢٦ ثم ابنها ألفونسو رايموندث المعروف بألفونسو السابع (السليطين) فاستنزل حسام الدولة أحمد بن عماد الدولة بن هود من روطة وعوضه بإقطاع فى ناحية طليطلة . ويبدو أن تأريخ ابن الأبار لهذا الحادث بذى قعدة ٥٣٤ (يونيو ١١٣٩) ليس دقيقاً ، لأننا نجد اسم سيف الدولة أحمد هذا بين أتباع ألفونسو السابع فى حملته على الأندلس سنة ١١٣٣ – ١١٣٥ (٥٢٨ – ٥٣٠) ، والأصح أن يكون ذلك قد حدث فى ذى قعدة سنة ٥٢٤/أكتوبر ١١٢٩ .

انظر : CODERA, *Almorávides*, p. 71 sqq.

وابن القطان : نظم الجمان (بتحقيق الدكتور محمود مكى) ص ٢٠٠ .

فخرج سيفُ الدولة هذا ثائراً بالثغور الجَوْفيَّة ، ومنها ورد على قرطبة ، فدخلها بمداخلة أهلها إياه ، وممالأة ملإها على ذلك[1] . وانزعج ابنُ حَمْدِين أمامه ، فلحق بالمعقل المعروف بفُرَنْجُولِش ،/ثم خرج منها بعد اثنى عشر يوماً ، ناجياً [١٥٨-ب] بنفسه ، وقد ثارت به العامةُ وقتلت وزيرَه ابنَ شَمّاخ وطائفةً من أصحابه .

فقصد جَيّان وقد ثار بها قاضيها ابنُ جُزَىّ ، فتغلب عليه وملَكها . ثم سار إلى غرناطة فملَكها ، واضطربت عليه بها الأمور فأسلمها . وعاد إلى جَيّان ، فداخَلَه أهلُ مرسية واستدعوه ، فورد عليهم ودخلها يوم الجمعة الثامن عشر من رجب سنة أربعين . ولم يستكمل فى جميعها حولا واحداً .

وقد كان ابنُ عِيَاض تأمّر بمرسية ودعا لابن هود هذا ، فوجَّه إليه ابنَه أبا بكر ، فبرز للقائه وأظهر الاحتفاء بمقدمه ، وسار به إلى بلنسية حين أمَّره أهلُها وخلعوا مروانَ بنَ عبد العزيز قاضيها ، ثم ولاه دانيةَ . وبلغ ابنَ عِيَاض ورودُ ابنِ هودٍ وحلولُه بقصر مرسية ، فعجل به اللحاق ، وقدم يوم الأحد المُوَفِّى عشرين من رجب ، مظهراً طاعتَه وممتثلا أمرَه . ونزل القصرَ الصغير ، فألقى إليه ابنُ هود بالأمور كلها ، وخصه باسم الرئاسة . وبعد ليالٍ قلائل توجها جميعاً إلى شاطبة ، وقد سبقهما إليها عبدُ الله بن سعد بعسكر بلنسية فى اتِّباع الروم المغيرين على نواحيها أصحابِ الطاغية أذفونش ، فاستُشهد ابنُ هود وابن سعد لما التقى الجمعان ، ونجا ابنُ عِيَاض . وكانت هذه الوقيعة الكبرى على المسلمين بالموضع المعروف

---

(١) أورد كوديرا (*Almorávides*, 76-77) قطعة عظيمة الأهمية هنا من :

***Crônica del Emperador D. Alfonso, Espagna Sagrada,* XXI p.330 sqq.**

فيها تفصيل تشاور الأندلسيين ومادعا إليه بعضهم من القيام على المرابطين والدخول فى طاعة ألفونسو السابع فى مقابل جزية يدفعونها له .

باللُّجِّ وبالبَسِيط — على مقربة من جنجالة — يوم الجمعة الموَفِّى عشرين لشعبان من سنة أربعين ، وقيل يوم السبت بعده .

وأبو جعفر بن حسام الدولة هو القائل يمدح من قصيدة :

علوتَ ، فما تسمو لمقدارك الشُّهْبُ وقد قصَّرتْ فى ما تسطِّره الكُتْبُ
وأنت إذا وجهتَ جيشَك رائداً تقدَّمه من بعض أنصارك الرعبُ
أقمت لنا الدينَ الحنيفىَّ ماثلا كأنّا نرى المهدىَّ ما ضمَّه التُّربُ
إذا خَلُصَتْ نفسُ الولىِّ لربِّه فغير عجيبٍ أن يوفِّقَه الربُّ

وله :

يا باكياً عُمُرَ الطلول بدمعِه أسفاً على ذاك الدم المطلولِ
[١٥٩ – ا] / أودتْ بلبِّكَ لوعةٌ صَدِيتْ لها صفَحاتُ ذاك الخاطرِ المصقولِ

وله :

ليت شعرى – ونحن بالمغرب الأقـ ـصى – متى تُزجَر الفَلاةَ الأمُونُ ؟
بفلاةٍ ترى الرياحَ بها الهُـو جَ عَرَتْهُنَّ فترةٌ وسكونُ
وتلوح البروق مثلَ سيوف الـ ـهند فيها أجفانهن الجفونُ
والسراب الرقراق فى صفحة البيـ ـداء يغشى الهضابَ ماء معينُ
تتبدّى لك الظعائن فيهـ(م)نَّ فقل أينقٌ بها أو سفينُ
خطرت خطرة الغرام على القلـ ـب وحسب الفتى لها يستكينُ
أذكرتنى بلجاءَ وُرقٌ تجاوبـ ـن بنجدٍ حديثُهن شجونُ
أطربتْنى أصواتُهن على الأيـ ـكة ، قد يُطرب الحزينَ الحزينُ

ومنها :

يامَةَ القومِ والمنى يطمع المر ء إذا ما اســـتقل يوماً قطينُ
إن تــكونى قد استقر بك الرَّبْـ ـعُ فقلبى مع الرفاق رهين
أو تــكونى سلوتِ عنا فلا والـ(م)ـلّه لم تَسلُكِ الظباء العِين
أين للشمس أن تنال مُحيّا كِ وتعزَى لمعطفيك الغصون
غُررٌ لُحْنَ من دجى الشَّعرِ بيضٌ ما تجلَّت عن مثلهن الدُّجون

١٥٠ — أحمد بن قام[1] الكاتب ، أبو العباس

دار سلفه بَيَّاسَةَ[2] ، وكانت لهم بها فى الفتنة رئاسة . وذكر أبو عمْرو بن

(١) كذا ورد الاسم فى الأصل بالقاف ، ولم أجد مثل هذا الاسم فى معاجم التراجم ، وإنما ورد « نام » بالنون مرتين فى تكملة ابن الأبار (رقم ١٢٠٦ و١٢٠٧ ج ٢ / ٤٢١) ولا أظن أن لأحدهما علاقة بأحمد بن قام هذا . فإن هذا من بياسة فى حين أن الاثنين الآخرين من سرقسطة ولبلة واسماهما مختلفان عن اسم المترجم له هنا . ولا شك أن المذكورين عند ابن الأبار يقرآن بالنون ، لأنه ذكرهما فى حرف النون ، ويحتمل أن يكون اسم المترجم له هنا أحمد بن نام بالنون .

(٢) بياسة Baeza : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت بياسة من كبار مدائن كورة جيان (صفة الأندلس للرازى ، رقم ١٨ ص ٦٩) وقد خلط مترجمو جغرافية الرازى بينها وبين بَسْطَةَ Baza فقالوا إن بياسة مشهورة بصنع المُصَلَّيَات ، و الحقيقة أن بسطة هى التى اشتهرت بذلك . وكانت بياسة فى منطقة غابات اشتهرت بأخشابها ، وعلى مقربة منها موضع يسمى لَتْشُو سِكُو Lecho Seco اشتهر بهذه الأخشاب . وقد أخطأ ناشرو ياقوت فجعلوه لَتَنْكَشَة (انظر ج ٧ ص٢٢٢) ، وصحة قراءته لِتْشُسِكُه . وبالإضافة إلى ياقوت (٣١٨/٢) وصف بياسة الإدريسى ، ص ٢٠٣ ، ونقل مادته ابن عبد المنعم الحميرى (الروض المعطار ، رقم ٥٧ ص ٥٧) ؛ وقد أشادوا كلهم بشهرتها بالزعفران . وأصل اسمها لاتينى Beatia

وقد سقطت بياسة مع جيان فى يد فرناندو الثالث سنة ١٢٣٦/٦٣٤ وفصل ابن عبد المنعم=

الإمام فى كتاب « سِمْط الجُمان وسِقْط الأذهان » من تأليفه أن أبا العباس هذا رحل عن الأندلس لبَأْوٍ كان فيه استهواه ، وزهو جاوز به غايته ومداه . قال : وكثيراً ما كان يلحظ الجزيرةَ بعين الاحتقار ، ويُنزلها وأهلَها منزلة الصَّغار ، ويأنف أن تكون له دارَ قرار ، فلا يتمثل إلا

[١٥٩-ب] / أنا فى أمـــة تداركها الله غريبٌ كصالحٍ فى ثمـــودِ

حتى قوّض عنها خيامَه ، ومشى ما مشى ظلُّه أمامَه ، فما عُرف أين صَقَع ، ولا فى أى البوار وقع . وهو القائل من أبيات :

همُ وصلوا ليلِى بليلِ ابنِ حُندجٍ وقد كان – لولا بينُهم – ليلَ مَبْتَهِجِ
ليالىَ لا نجمُ الزجاجة آفلٌ هناك ، ولا بدرُ النَّدِىِّ بمُدْلِجِ (١)
أردد طَرْفى بين برقِ مُدامةٍ وبرقةِ ثغرٍ منه تُحمَى بأدْعُجِ
فأرشف من تيّاكَ ريقةَ سلسلٍ وأرشف من ذياكَ ريقةَ أفلجِ
ولا شَدْوَ إلا صوتُ حَلْىٍ بِلَبَّةٍ ولا نُقلَ إلا وردُ خدٍّ مضرجِ
ووجنةُ تفاحٍ وألحاظُ نرجسٍ وأصداغ ريحانٍ وخال بنفسجِ

[أراد(٢) بليل ابن حندج ليل امرئ القيس حيث يقول :

وليلٍ كموج البحر أرخى سدولَه علىّ بأنواع الهموم ليبتلى

=الحميرى ذلك . وتسمى اليوم Baeza وهى مركز إدارى فى مديرية جيان وتقع على ٤٠ كيلومتراً شمال شرقى جيان عاصمة المديرية .

cf : MADOZ, *op. cit.* III, 293 - 297.

(١) الأصل : مدلج .

(٢) وردت هذه الفقرة كلها فى الهامش بخط مخالف . وهى أشبه بالشروح التى يأتى بها ابن الأبار بين الحين والحين ، ولهذا فقد غلب على ظنى أنها من كلامه ، أسقطه الناسخ وأضافه مَن راجع الكتاب على الهامش ، وقد وضعت العبارة كلها بين معقوفتين زيادة فى التحرز .

وأشار بليل مَنْبِج إلى قول عبد الملك بن صالح الـ[ـهاشمى](1) حيث سأله الرشيد عن دارة منبج ، فـكان من وصْفه لها أن قال : ليلُها سَحَر كله]

وله فى المدح :

رصانةُ حِلمٍ سفَّهتْ كلَّ أحنفٍ   وديمةُ جودٍ بخَّلتْ كلَّ حاتمِ
وفطنةُ علمٍ تحتَها إن دَجا الوغى   جهالةُ رمحٍ أو سفاهةُ صارمِ

١٥١ — محمد بن حمدين بن على بن محمد بن عبد العزيز ابن حمدين التغلبي ، أبو الحسن

هو ابن عم أبى جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين الثائر بقرطبة ، والمدعوِّ له بأكثر قواعد الأندلس .

ويعرف محمد هذا بـ « الفُلْفُلِى » فى أهل بيته ، وللمنصور محمد بن أبى عامر عليه وِلادة . وكان ابنُ عمه قد ولاه مُرسية ، بعد مقتل ابن أبى جعفر بناحية غرناطة ، وبعثه بعسكر مع طائفة من أعيان مُرسية ، فلما دنا منها صُدَّ عنها وقاتله العربُ الذين كانوا بها ، فانهزم جمعُه وانصرف مفلولا ، وأميرُ مُرسية حينئذ أبو عبد الرحمن بن طاهر ، مخلوعُ أبى محمد بن عِيَاض بعد خمسين يوماً أو نحوها من ولايته ، وذلك كلُّه فى سنة أربعين وخمسمائة .

ثم سكن ابنُ حمدين هذا مراكش ، مجاوراً لأبى عبد الملك مروان بن

(١) أكملت نسبته من الأغانى ، ج ٥ ص ١١٢ .

عبد العزيز وبنى [سيدراى][1] بن وزير رؤساء الغرب — قاله ابن صاحب الصلاة .

وحكى أنهم باتوا ليلةً فى أنس ، جمعهم فيها انقلاب الزمان وابنُ حمدين
غائب عنهم ، فلما حضر/كتبوا إليه معرِّفين بذلك ، فجاوب ابنَ وزيرٍ منهم [١٦٠-١]
بأبيات منها :

يا واحدَ الفضلِ والسماحِ … ويا فتى الجِدِّ والمزاحِ
سألتَ مستفهماً رسولا … فهزَّ منى عِطْفَ ارتياح
وليلةُ الأنس لو أعيدتْ … أصبحُ عندى من الصباح
شربت فيها السرورَ صِرفاً … وأنتَ ريحانتى وراحى
فهاج حبى ولذَّ شربى … بغير إثمٍ ولا جُناحِ
إيهٍ وقلتم فى وصف ظبيٍ … يبسم عن دُرٍّ أو أقاحِ[2]
جديبِ خصرٍ ، خصيبِ ردفٍ … ينهض عن مثقلٍ رداحِ
شكوتُ منه ، ورب شكوى … أليمةٍ من هوى الملاح
ومَن رأى الليثَ فى محلٍّ … يقوده جائلُ الوِشاحِ ؟
يا فارسَ الخيل إذ تلاقى … فى مأزق البأس والكفاح
إنَّ صِفاحَ الحسان أنكى … فى القلب قَرْحاً من الصِّفاح
أشفارُ ألحاظها شِفارٌ … تندقُّ منها سُمر الرماح

(١) أكملت الاسم اعتماداً على ما ذكره ابن عذارى فى الجزء الرابع من البيان المغرب (ص١١) من عزل سيدراى بن وزير عن باجه وجميع بلاد الغرب وإقامة حُفّاظ من الموحدين فى هذه النواحى .

(٢) الأصل : « يبسم عن ورد وعن أقاح » وفى الهامش ، « در أو أقاح » ، وكلاهما غير موزون إلا إذا جعلنا همزة « أو » همزة وصل كما أثبتناه .

أيُّ القلوب الصِّحاح يبقى على جفونٍ مرضى صحاح ؟
أفديك من عاشق عفيف غير مبيحٍ سوى المباح
ينقاد للبر والمراضي وهو عن النكر ذو جماح
فانعم هنيئاً قرير عينٍ ما اهتزت القضب بالرياح

١٥٣ — أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الوَقَّشِيّ الوزير ، أبو جعفر

أحد الكفاة الأمجاد ، والدهاة الأنجاد . وهو من بيت القاضي أبي الوليد هشام بن أحمد الوَقَّشِي(١)/ — وهي قرية بنواحي طَلَبِيرة(٢) ، مشددة القاف — [١٦٠-ب]

(١) أحسن ترجمة له هي التي أوردها ابن بشكوال في الصلة ، وهو هشام بن أحمد بن خالد ابن هشام الكناني يعرف بالوقشي ، من أهل طليطلة . ولد سنة ٤٠٨ وتوفي في دانية في ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٤٨٩ . « أحد رجال الكمال في وقته باحتوائه على فنون المعارف وجمعه لكليات العلوم » . وذكر ابن بشكوال أنه كان ضليعاً في النحو واللغة ومعاني الأشعار وعلم العروض وصناعة البلاغة ، وكان شاعراً متقدماً حافظاً للسنن وأسماء نقلة الأخبار بصيراً بأصول الاعتقادات وأصول الفقه ، نافذاً في علم الشروط والفرائض ، متحققاً بعلم الحساب والهندسة ، مشرفاً على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب ..» الخ ولكنه قال في آخر ترجمته : « وقد نسبت إليه أشياء ، الله أعلم بحقيقتها وسائله عنها ومجازيه بها » دون أن يفصح عن شيء من ذلك .

(٢) المراد هنا بلدة وَقَّش **Huecas** المنسوب إليها المترجم له .

وطلبيرة المقصودة هنا هي المعروفة باسم **Talavera de la Reina** في مديرية طليطلة ، وتقع على نهر تاجه على ١٥٠ كيلومتراً غربي طليطلة على مجرى النهر ، واسمها في القديم **Caesarobriga** ، وقد ذكرها الرازي في صفة الأندلس (رقم ٤٠ ص ٨٢) وقال إنها من قواعد كورة طليطلة ، وقال إنها «حاجز بين المسلمين والإفرنج» (نقل ذلك ياقوت : ٥٣/٦) . =

وأراه ابنَ أخيه ؛ ونسبُهم فى كِنانة . قام بأمر أبى إسحاق إبراهيم بن أحمد بن هَمُشْك ، ضابطاً لأعماله ومصلحاً لأحواله . ولما هُزم ابنُ سعد وابنُ هَمُشْك معه بغرناطة ، صبيحةَ يوم الجمعة الثامن والعشرين لرجب سنة سبع وخمسين وخمسمائة — وهى وقيعة « السَّبِيكة » إثر [هزيمة] « مرج الرُّقاد »(١) —

= ويذكر ياقوت والإدريسى (ص ١٨٧) أن عبد الرحمن الناصر جدد أسوارها وعمرها . انظر كذلك : الروض المعطار ، رقم ١١٩ ص ١٢٧ .

وهى اليوم مركز إدارى فى مديرية طليطلة . ولازالت بعض آثار التحصينات العربية باقية فيما يسمى **Torres Albarranas** ، وعلى ٣٠ كيلو متراً منها توجد اليوم مدينة أصغر تسمى طلبيرة القديمة **Talavera la Vieja** وهذه تابعة لمديرية قَصْرِش **Cáceres** . وقد سقطت طلبيرة فى يد ألفونسو السادس سنة ٤٧٥/١٠٨٢ ، أى قبل طليطلة بثلاث سنوات .

أما وَقَّش فتسمى اليوم **Huecas** وكانت من قرى طلبيرة ، وهى اليوم قرية تابعة لمركز توريخوس **Torrijos** الإدارى فى مديرية طليطلة ، وتقع على ٢٥ كيلومتراً شمال غربى طليطلة .

(١) يشير ابن الأبار هنا إلى موقعتين من أكبر ما دار بين محمد بن سعيد بن مردنيش وصهره إبراهيم بن همشك من ناحية والموحدين من ناحية أخرى . وقد سبق أن تكلمنا عن ابن مردنيش ، وأما ابن همشك فهو — كابن مردنيش — أحد هذه الشخصيات القلقة التى ابتلى بها الأندلس فى فترة الشغور بين المرابطين والموحدين وخلال جزء كبير من عصر هؤلاء . فإن ثورات ابن حمدين وابن هود وأمثالها على المرابطين هدمت ما كان قد بقى من هيكل النظام ، وانفرط عقد البلاد وانفسح المجال أمام المغامرين الذين يجمعون طوائف من شذاذ الآفاق وقطاع الطرق ويمضون يصبون البلاء على أهل المدن والأرياف . ولا نستطيع القول بأن محمد بن سعد بن مردنيش كان من هذا الطراز تماماً ، فقد كانت فيه أثارة من فضل وهيبة الأمراء . ولكن هذا لم يكن ينطبق على معاونيه وأكبرهم صهره ابن همشك ، واسمه الكامل : إبراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك . وهذا الاسم الأخير لقب أطلق على جده ، وكان من جند بنى هود ، وهو إسبانى مكون من كلمتين : **He mochico** ، **he** اسم إشارة و **mochico** مصغر **mocho** وهو فى القشتالية الثور الذى قطع قرناه أو الذى لا قرن له ، وتقال للرجل الذى قطعت أذنه ، ومعنى الاسم إذن : هذا هو المصلوم الأذن :

Cf : DOZY, *Recherches*, I, 368 - 369.

وقد كان ابن همشك من أقسى الرجال . كان ينزل بخصومه ألواناً من العذاب تقشعر منها =

عُزم على استئصال ابن هَمُشْك ومنازلة بلاده ، فلاذ بالفرار وأسلم جَيّان لوزيره الأخصّ أبي جعفر هذا . فنازلها الموحدون أعزهم الله ، وهو بضبطها مستبد ، وإلى مؤمِّره عليها مستنِد ، إلى أن صدروا عنها لعمارة قرطبة ودخلوها ضحوةَ يوم الأحد الثاني عشر من شوال من السنة ، وبها إذ ذاك — فيما حُكى — نحو من ثمانين رجلا ، قد أكلتهم الفتنة وشردتهم المجاعة ، من طول إلحاح ابن هَمُشْك عليهم بالحروب ، وشن الغارات مع الشروق والغروب ، رجاء انتظامها مع جَيّان وسائر بلاده ؛ فنُفِّس عن أبي جعفر ، وقد ناب أحسنَ منابٍ ، وحل من صاحبه آثرَ محل .

--- الأبدان ، حتى كان يضع بعضهم فى كفة المنجنيق ويلقى بهم ، وقد فصل ابن صاحب الصلاة أفاعيله (ص ٢٧ — ٢٨ من مخطوطة أكسفورد) . وذكر ابن الخطيب شيئاً من سيرة ابن همشك فى الإحاطة (ج ١ بتحقيق محمد عبد الله عنان) ص ٣٠٥ — ٣١١ وهو يسميه محمد بن مفرّج ابن همشك ، وذكر تفسير الاسم ، وقد اعتمد دوزى على هذا التفسير فى شرحه الآنف الذكر ، ثم ذكر سيرته إلى اختلافه مع محمد بن سعد بن مردنيش (وكانت ابنة ابن همشك زوجة مردنيش) وطلاق ابنته منه ، ثم دخوله فى طاعة الموحدين ووفوده على أبي يعقوب يوسف الموحدى سنة ٥٦٥ .

أما هزيمة مرج الرقاد فقد فصل أمرها ابن صاحب الصلاة (ورقة ٢٧ — ٢٨) وملخصها أن ابن مردنيش وابن همشك حاولا انتهاز فرصة انشغال الموحدين فأرادا الاستيلاء على غرناطة وأوقعا بجيش من الموحدين يقوده أبو سعيد بن عبد المؤمن وابن زيد مشرف البلد وأبو محمد بن أبي حفص فى الموضع المعروف بمرج الرقاد وهو على أربعة كيلو مترات من قرية الطرف **Atarfe** الحالية قرب مجرى نهر شنيل ، يسمى حاليا **Majarrocal** (انظر : **SECO DE LUCENA,** *(Notas sobre toponomia granadina,* **Al-Andalus, 1944, fasc. 2, p. 505** ولكنهما عجزا عن الاستيلاء على قصبة غرناطة . وأسرع الخليفة الموحدى فأرسل جيشاً يقوده أبو يعقوب يوسف ابنه وولى عهده والشيخ ابن سليمان « زعيم وقته وداهية زمانه » كما يقول ابن الخطيب (ص ٣١٠) ، فأوقع الجيش بابن مردنيش وابن همشك هزيمة قاصمة عند السبيكة ، وهى كما يقول الأستاذ عنان فى تعليقاته على الإحاطة (ص ١٢٢ هامش ٦) : « البسيط الأخضر الشاسع الواقع جنوب شرق الحمراء » . وانظر أيضاً فى تفصيل هذه الحوادث : مقال دوزى :

Sur ce qui se passa à Grenade en 1162. تحت عنوان ***Recherches,* I, 364** sqq.

ولم يزل بعد ذلك يحسن الضبط لبلاده ، ويُظهر الكفاية فى كافة محاولاته ، إلى أن اعتاق ابنُ هَمُشْك بالدعوة المهدية خلدها الله ، ونابذ صهره محمد بن سعد ، وذلك فى سنة اثنتين وستين — بعد الوقيعة العظمى بِفَحْص الجلاّب على مقربة من مُرسية ، وكانت يومَ الجمعة سابع ذى الحجة من سنة ستين(١) — ووجّه وزيره أبا جعفر هذا وافداً عنه إلى مراكش ومستصرخاً على صهره ابن سعد ، وكان قد وطئ أعمالَه ودوخها ، وتغلب على كثير من معاقله ، وكانت تحته بنتُ ابن هَمُشْك فطلقها ، ثم ندم . وهدم رحى الوَقَّشِيّ بوَاجَة بلنسية ، فقال فى ذلك :

ألا أبلغا عـــنى الشُّرَيْق وأهلَهُ   بأنى لا أثنى عِنانًا عن الغربِ
لِأُجْلِبها خُزْرَ العيونِ ضوامرًا   وأوطئها أجســادكم بدل التُّرْبِ
هــدمتم رَحى من لا يزال بسعيهِ   وأفــكاره يجنى عليكم رحى الحرب

(١) وقيعة فحص الجلاب روى تفاصيلها ابن صاحب الصلاة (ورقة ٥٦ وما يليها) : كان الموحدون — بعد انتصارهم على ابن مردنيش وابن همشك فى وقعة السبيكة ، أو جبل السبيكة — قد قرروا القضاء على ابن مردنيش ، وكان يحكم مستبداً بما بقى من شرق الأندلس حتى بلنسية ، فخرج السيد أبو حفص عمر أخو الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وذراعه اليمنى فى أوائل ربيع الأول ٥٦٠/ منتصف يناير ١١٦٥ بجيش كبير من مراكش وعبر إلى الأندلس ومعه قوة من مقاتلى العرب يقودهم شيخهم على بن محرز بالإضافة إلى الموحدين ونحو ٤٠٠ فارس من فرسان المرابطين ، وهناك انضمت إليهم قوات السيد أبى سعيد عثمان حاكم الأندلس ، وسار الجيش من إشبيلية إلى قرطبة إلى لُكّه Luque إلى أندوجر إلى بسطة إلى غُلْيَار Cullar ومن ثم أفضى إلى الفحص المسمى بالفُنْدُون جنوبى بلنسية ، ثم عسكروا فى فحص الجلاب على ١٠ أميال (نحو ١٢ كيلومتراً) جنوبى مرسية ، وفى يوم الجمعة ٧ ذى الحجة ١٥/٥٦٠ أكتوبر ١١٦٥ دارت المعركة وانجلت عن انهزام ابن مردنيش وتشتت قواه ، فأسرع لاجئاً إلى مرسية وقد حطمت هذه الهزيمة قواه ، ولم يلبث أن اختلف مع صهره وشريكه ابن همشك ؛ ومات سنة ١١٧١/٥٦٦ — ١١٧٢ فى مرسية والموحدون يحاصرونها .

انظر بالإضافة إلى ابن صاحب الصلاة فى الصفحات المشار إليها :

A. HUICI MIRANDA, *Historia politica del Imperio Almohade* (Tetúan, 1956) I, p. 226-228.

رحّى شـدَّ ما يَفْنَى الرجالُ بطحنها وليس لها قطب سوى الطعن والضرب
/ألم أجْلِبِ الجيشَ العرمرم نحوَكم وصيَّرتُـكم فى ما علمتم من الـكرب ؟ [١٦١-ا]
وإنى مَلِىٌّ أن أكدِّر ما صـفا لـكم بعد هذا فى البلاد من الشّرب
فإن يك عن أوطانكم عُمُرٌ نأى فإن أمير المؤمنين على قرب

وله فى وفادته على مراكش سنة أربع وستين يهنئ بعيـد الفطر من قصيدة طويلة :

تَحنُّ إليـكم وافداتُ المواسمِ فتهدى إلى كفَّيـكمُ ثغرَ باسمِ
ومنهن عيـدُ الفطر جاء مسلِّماً عليكَ لحيّيا منك أفضلَ طاعِمِ
ومن قبله وافى الصيامُ بشهره على خير أوابٍ وأفضل صائمِ

يقول فيها :

تقبّلتَ أخلاقَ الـكهولة ناشئاً فلم تدر يوماً ما مَناطُ التمائمِ
ولو لم تشأ وَطْء التراب بإخمصٍ لَسِرْتَ على هام الملوك الخضارمِ

وله وقد أحضر لمعاينة قتل أسد هائل المنظر يصفه من كلمة :

جَهْمُ المحيّا إن تبسّم هِبْتَهُ ومن العجائب هيبةُ المتبسِّمِ
ويقال كل الصيد فى جوف الفرا وأرى الفراء لديه بعض المطعم
وكأنما هو ناظر عن زئبقٍ وكأنما هو كاشر عن مِخْذَمِ(١)
وكأن لبـدته بقيةُ فروةٍ قَصُرتْ على طول الزمان الأقدم
لما تمرد فى العرينة فُتِّحتْ أبوابُها فانساب مثلَ الأرقم
وعلا زئيرٌ منـه حتى خِلتُهُ كالفحل يهدُر عند شولٍ هُيَّمِ

(١) الأصل : مخدم ، والصواب مِخْذَم وهو السيف .

وظننت أن الرعد من حيث الحيا حتى سمعتُ اليوم رعدًا من فم
وتناولتْ زُرقُ الأسنة زَرْقَهُ حتى بدا فى شكله كالشيهم

ولى فى هذا المعنى من كلمة قلتها عند وفادتى على حضرة تونس — أيدها الله — رسولا / عن والى بلنسية ودانية — أبى جميل بن سعد — وقد أحضِرتُ [١٦١-ب] لمثل ذلك فى أواخر شعبان سنة ست وثلاثين وستمائة :

تحِنُّ إلى ملعبٍ للظباء بكُثبان رامةَ أو غُرَّبِ
فهلاّ إلى ملعبٍ للأسودِ سَعدتَ بمنظره المعجب ؟
يقامُ الجهادُ به والجِلادُ لكلِّ فتىً مِدْرَهٍ مِحْرَب
ويُضرَى على الفتك بالضاريات فإن غالبَ القرنَ لم يُغلب
ضوارٍ ضواربُ أظفارها تعير الظُّبى رقةَ المضرب
فمِن أسَدٍ شرسٍ مُحنَقٍ ومِن نمِرٍ حَرِدٍ مغضَبِ
أثيرت حفائظُها فانبرت تسابق فى شأوها الأرحب
تُصِم المسامع من زأرها عوادىَ كالضُّمَّر الشُّزَّب
وتنبو العيون لإقدامها مذرَّبةَ الناب والمخلب
كواشرُ عن مرهَفاتٍ حِدَادٍ متى تَصْدع الهامَ لا تنشب
نيوبٌ نَبَتْن من النائبات وأزرين بالصارم المِقضَب
تنوء ثقالا ولكنها أخفُّ وثوبًا من الجُنْدُب

ومنها فى وصف مُلاعب لها من أهل الثقافة ، وكانت فى ذلك اليوم المبارك أربعة آساد ونمرين ، يدحرج إليها كرة متصلبة من خشب محكمة الصنعة تحجُبُه

من بأسها وهى رابضة ، وبيده حدائد طوال فى نهاية الإرهاف معدة لها . فإذا أحسَّتْ به وثبتْ على الكرة ، فألقمَ أفواهَها تلك الحدائد ، ودحرج الكرة ، فتباعدت عنه تمُجُّ الدم ، وأحياناً يجهز بها عليها إذا لم يأمن عاديتها . وقد حفر بمجالها الرحب لآخرين مهاوٍ تَسَعُ جثثهم ، ولها أبواب صغار يطبقونها عليهم ، فإذا ربضت على بُعد صيح بأحدهم ، ففتح باب تلك الهوة وهَجْهَجَ بها وربما ألمع لها/ بما يكون فى يده ، فما هو إلا أن تراه فيكاد وثوبُها إليه يُعْجله عن إطباق [١٦٢-أ] الباب عليه ، ثم تنصرف عنه يائسة منه ، وقد اشتد حنَقها وعَظُم زئيرُها ، فيعايَن من ذلك آنق منظر وأبدع مرأى :

ومقتحمٍ غمَراتِ الرَّدَى إذا ما ادَّعى الباسَ لم يكذبِ
يلاعبها حيث جَدَّ الحِما مُ فتفزع منه إلى مهرب
يكرُّ عليها ولا جُنَّةٌ سوى كُرَةٍ سهلةِ المجذَب
يدحرجها ماشياً ثِنْيَها على حذرٍ مِشيةَ الأنكب
عجبتُ لها ، أحجمتْ رهبةً وأقدمَ بأساً ، ولم يرهب
وقتْه الأواقى على أنَّهُ تسنَّمها صعبةَ المركب
وثاوٍ بمطبَقةٍ فوقَهُ متى تَطْفُ هامتُه ترسُب
يُهَجْهِجُ بالليث كيما يهيج ويأوى إلى الكهف كالثعلب
كذلك حتى هوتْ نحوَها عُقاب المنية من مرقب
وعاجت عليها قواسى القِسِىِّ فعبَّتْ من الحين فى مشرب
وشالت هناك بأذنابها لياذاً من العقْر كالعقرب
فيا لِقَساوِرَ قد صُيِّرتْ [فرائس](١) للأسهم الصُّيَّب

(١) لم يرد من هذه الشطرة إلا : الأسهم الصيب ، وقد أكملته للوزن والمعنى .

وللوَقَّشِىِّ تحقق بالإحسان ، وتصرف فى أفانين البيان ، وكتابى المؤلَّف فى أدباء الشرق المترجَم بـ « إيماض البرق » ، مشتمل على كثير من شعره . ومَدَحه أبو عبد الله الرُّصافى(١) بما ثبت فى ديوانه ، وأعرب عن جلالة شانه . وبالجملة فهو وأبو جعفر بن عطية من مفاخر الأندلس ، وكانا متعاصرين ، وفى الكفاية متكافئين ، ولذلك فى النثر مزية هذا [فى] الشعر . وله يصف الزرافة من أبيات :

لَبِسَتْ من الصُّفْر الأنيق مُلاءةً مرقومةَ الجنَبات بالعِقْيانِ
[١٦٢-ب] /وكأنها قد قُسِّمت فى خَلْقِها فأتَتْك بين الخيل والبُقْران
وكأن قرنيها إذا شالتهما قَلَمان قُلِّم منهما الطرفانِ
طالت قوائمُها وطال تَلِيلُها حتى لقد أوفى على الجدران
وتفاوتت فى سمكها فوراؤها ثلُث لها ، وأمامُها ثلُثان

وله فى حِفظ السر :

ومستودِعٍ عندى حديثاً يخاف من إذاعته فى السرِّ أن ينفد العُمرُ
فقلت له : لا تخش منى فضيحةً لسرٍ غدا ميْتاً ، وصدرى له قبر

---

(١) محمد بن غالب الرَّفّاء الرُّصافى ، رصافة بلنسية ، وسكن مالقة ، يكنى أبا عبدالله . يقول ابن الأبار عنه : «كان شاعر وقته المعترف له بالإجادة مع العفاف والانقباض وعلو الهمة والتعيش من صناعة الرَّفْو التى كان يعالجها بيده . لم يبتذل نفسه فى خدمة ولاتصدى لانتجاع بقافية ، حملت عنه فى ذلك أخبار عجيبة » . وهو دون شك من أعظم شعراء العصر الموحدى ، ومن أسف أننا لم نجد ديوان شعره بعد . توفى فى مالقة يوم الثلاثاء ١٩ رمضان ١١٧٧/٥٧٢ ، وقد عاش صَرُورَةً لم يتزوج قط (ترجمة رقم ٧٧٢ ج ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٨) .

وترجم له أيضاً الضبى (رقم ٢٥١) ، ويسميه المقرى ابن رومى الأندلس (طبعة أوروبا : ٣٢٧/٢) ، وانظر الرايات رقم ١٠٨ ص ٨٤ من النص العربى وص ٢٥١ من الترجمة الإسبانية . وترجم له نيكل فى :

A. R. NYKL, *Hispano - Arabic poetry* (Baltimore, 1946) p. 326 - 327.

وأورد عبد الواحد المراكشى شيئاً من شعره فى المعجب ؛ هذا وقد جمع الدكتور إحسان عباس ما وجده من شعره فى مختلف المراجع ونشره فى بيروت سنة ١٩٦٠ .

على أن مَن فى القبر يُرجَى نشورُه   وسرُّك ما يُرجَى له أبداً نَشْرُ

وله مما استفدته من أبى ـــ رحمه الله ـــ وأنشدنيه :

ألا قرّب الله الديارَ وأهلَها   ومَن حلّ فى شِقٍّ من الغرب نازحِ
أعانقُ صدرى فى الخلاء تشوُّقاً   لكونهمُ ما بين طىِّ الجوانحِ

و بينهما بيت ثالث ذهب من حفظى .

وله فى النسيب أيضاً :

لعلّ فى الظاعنين سارا   من كان لى بالعقيق جارَا
إن صح هذا خذوا بذَحْلى   من بينهم حَادِىَ المَهَارَى

يقول فيها :

ما بالُ عينىّ منذ بنتمْ   لم تطعما للكرى غِرارَا
وما لوردٍ بوجنتيكمْ   أنبت فى وجنتى بَهارَا
أيا نديمىّ أخبرانى   فإن فيما أرى اعتبارا
أبصرتُما قبلَها قضيباً   قد أثمر الليلَ والنهارا ؟
أو وجنةً وهى جسمُ ماء   تعود إثرَ الحياء نارا ؟

وله فى الشقائق :

وشقائقٍ لاحت على الأغصانِ   مثل الخدود تُزان بالخِيلانِ
/ يهفو النسيم مع الأصائل والضحى   فيهز منها مَعْطِفَ النَّشْوان [١٦٣-١]
فكأنها قُضُبُ الزُّمُرُّدِ ألصقتْ   بالمسك فيها أكؤسُ العِقيان

وله فى غصنٍ منوِّر بيد حبشى طلع به وهو فى مجلس أنسه مع ندمائه :

وزنجيٍّ ألمَّ بغصنِ نَوْرٍ وقد زُفَّتْ لنا بنتُ الكرومِ
فقال فتى من الندماء : صِفهُ فقلت : الليل أقبل بالنجوم

وقد أنشدنيهما صاحبُنا أبو على بن سليمان الأمين[1] الشَّرِيشى بمنزلى من حضرة تونس ، قال : أنشدنيهما الأستاذ أبو على عمر بن عبد المجيد الرُّنْدِى[2] بمالقة لأبى عبد الله الرُّصَافى ، وحَكى لى عنه أنه كان بظاهر مالقة مع طائفة من أصحابه على أنسٍ ، فصعد غلامٌ أحدهم إلى شجرة لوز منوِّرة فاقتطع غصنا منها وأتاهم به ، فسألوه وَصْفَهَ فقال بديهاً :

وزنجيٍّ ألمَّ بنَوْرِ لَوْزٍ وفى كاساتنا بنتُ الكرومِ

وما بعده كما تقدم ، إلا أنه قال « من الفتيان » مكان قوله « من الندماء » .
وغلط أبو مروان بن صاحب الصلاة الإشبيلى فنسبها فى تاريخه إلى بعض الأمراء ، وزعم أنه قالها فى حبشيٍّ بيده شمعة ؛ ولا يليق هذا التشبيه بذلك .

وتوفى أبو جعفر الوَقَّشِىُّ بمالقة ، صادراً عن مَرّاكش ، فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة[3] .

---

(١) وردت فى الأصل : الأيبى . ولم أعثر على الاسم فى مرجع آخر ، فقومت الكلمة كما ترى فى المتن .

(٢) عمر بن عبد المجيد بن على الأزدى المعروف بالرندى لأن أصله منها ، يكنى أبا على وأبا حفص ، نزيل مالقة . من أكابر فقهاء النصف الثانى من القرن السادس وأوائل السابع الهجريين ، إذ توفى سنة ٦١٦ عن ثلاث وسبعين سنة . انظر ترجمته فى التكملة ، رقم ١٨٢٨ ، ج ٢ ص ٦٥٧ — ٦٥٨ .

(٣) أورد نيكل فى كتابه الآنف الذكر ، ص ٣٢٦ فقرة لا بأس بها عن أبى جعفر الوقشى .

وحدثنى شيخنا أبو الربيع بن سالم أنه اجتاز ببقيع مالقة(١) ، فاستحسن ما رأى من زخرفة القبور به ، واغتراس الأشجار ذات النواوير والأزهار أثناءها ، فتمنى أن يُدفن هنالك فوَفَتِ الأقدارُ بأمنيته عند موافاة منيته .

وكانت وفاة أبى إسحاق بن هَمُشْك قبله بمكناسة ، فى صفر سنة ثنتين وسبعين وخمسمائه .

١٥٣ — أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومى ، أبو بكر

صحب أبا العباس أحمد بن مَعَدّ الأُقْلِيشِيّ الزاهد ومال إلى طريقته ، وأنفق فى أبواب الخير والمعروف / أموالا جليلة ؛ سمعت شيخنا أبا الخطاب بن واجب [١٦٣–ب] وغيره يذكرون ذلك . وكان يُعرف بالعابد ، لكثرة إيثاره وطول صحبته الفقراء ، وإكبابه على الأعمال الصالحة . وداره جزيرة شُقْر(٢) من أعمال بَلَنْسِيَة ، وبيتُه شهيرُ النباهة .

---

(١) بقيع مالقة هو موضع مقابرها .

(٢) جزيرة شُقْر أو الجزيرة أو شُقْر : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت من مدائن بلنسية (انظر صفة الأندلس للرازى ، رقم ٢١ ص ٧١) ، وهى مدينة على جزيرة فى مصب نهر شُقْر Jucar الذى يسمى وادى شُقْر ، وهو نهر متوسط الطول جنوبى النهر الأبيض (وهو نهر بلنسية المسمى Turia) . وقد أطال العذرى فى جغرافيته وصف ذلك البلد . وكانت شُقْر بلداً زاهراً غنياً ينسب إليه ابن خفاجة الشاعر فيقال له الشُّقْرى والجزيرى . وتسمى اليوم Alcira وهى مركز إدارى فى مديرية بلنسية . وقد سقطت شقر فى يد خايمه الفاتح ملك أرغون سنة ٦٤٠/١٢٤٢ ، وفى سنة ١٦٠٩ كانت مسرحاً لثورة كبرى قام بها الموريسكيون .

انظر : الإدريسى ، ص ١٩٣ . الروض المعطار ، رقم ٩٢ ص ١٠٣ والترجمة الفرنسية ص ١٢٦ ، وقد اختصها زايبولد بمادة صغيرة فى د. م . إ – ٢٥٥/١ .

ولما ضعف أمر أبي عبد الله محمد بن سعد بشرق الأندلس ، وانسلخ من طاعته أبو إسحاق بن هَمُشْك صهرُه بجَيّان وما إليها ، ثم ابنُ عمه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن سعد بالمَرِيَّة ، واستوحش حتى من نفسه ، أخرج أهلَ بَلَنْسِيَة منها وأسكنهم ظاهرَها ، وشحنها بالروم وأتباعهم . ونوى ذلك فى غيرها ، نخاف أبو بكر بن سفيان هذا أن يخرجه من بلده — وكان فيها متَّبعا — فدعا للموحدين أعزهم الله ، وخلع ابن سعد ، ورأس بموضعه ، ومالأ جيرانَه . فأنفذ إليه الرئيسُ أبو الحجاج يوسفُ بنُ سعد قائداً من كبار أصحابه فى جملة من خيله ، ورسم له حصارَه والتضييق عليه ، فبدأ بمنازلته منتصفَ شوال من سنة ست وستين وخمسمائة ، وأقام على ذلك إلى منتصف ذى الحجة ، وابنُ سفيان يقاومه ويقوم بتدبير بلده ، والأمدادُ تتلاحق فى كل حين وتحدق به ، وابنُ سعد وأخوه أبو الحجاج قد اكتنفاه فى الجموع الكثيفة ، حتى خيف من الوهَن . فاقتحم البلد ذو الوزارتين أبو أيوب بن هلال ، مقويا عزائمَ أهله ، وضامناً لهم الاستقلالَ بضبطه ، فتخلى ابنُ سفيان له عنه ، راضياً فى الظاهر متبرماً فى الباطن . وتولى ابنُ هلال من المصابرة فى تلك المحاصرة ، والمحاولة لتلك المصاولة ، ما أبقاه أثراً مشهوراً ، وخبراً تداولته الألسن دهوراً . واعتل ابنُ سعد خلالَ ذلك فلحق بمُرسية ، وألزم أخاه ملازمةَ البلد ، فتنفس الخِناق ، ثم انتعشت بوفاته الأرماق .

ولابن سفيان حظ من النظم قصَره على الزهد ، وهو القائل من أبيات :

كلُّ عطاء فإلى عـــلةٍ لا شك يُفضى ، ولِوَجْهِ السَّقَمْ

إلا الذى منك بلا عـــلةٍ يا خالقَ العرشِ ومُجرِى القلمْ

كلُّ الورى لابسُ ثوبِ الدجى لولا سناً منك يُجَلِّي الظُّلَمْ

/ وأما ابنُه أبو المطرف محمد ، فقويُّ العارضة ، مُبين الطبع ، حسن [١٦٤-١]
التصرف . وله عن أبيه وسائر أهل بلده — عند اشتداد الحصار وتمادي
المضايقة — رسالة حسنة في الاستصراخ والاستنصار أودعها أبياتاً ، منها :

تداركْ أميرَ المؤمنين دماءَنا فإنك للإسلام والدين ناصرُ
ووجِّه إلى استنقاذنا بكتيبةٍ يهابُ الردى منها العدوُّ المحاصرُ
تنفَّسُ من ضيق الخناق بقُطرنا فتُدرَكُ آمالٌ وتُرعَى أواصرُ
إذا ما انكفَى بالخزيِ وارتد خائباً فطامحه عن نَيْلها متقاصرُ
فليت ابن سعدٍ إذ تألَّفَ مانعَتْ فلم تتمخضْ عن قُواهُ العناصرُ
ستُذهب أنوارُ الخلافةِ ظلمةَ وتلفِظُهُ بعد الخيول القاصرُ
ويهدم ما قد أسس الكفرُ عندَه كريمُ السَّنَا تثْني عليه الخناصرُ
فهذا الذي يبني المساجدَ أمرُه وأمرُ ابنِ سعدٍ أن تُشادَ المعاصرُ
وذا المَلْكُ آياتُ المثاني تهزُّهُ وذاك بأصوات المثاني البناصرُ
بقيتَ أميرَ المؤمنين مخلَّداً وكلُّ الورى عن كُنْهِ وَصفِكَ قاصرُ

ومالَه عندي ، ولأخويه أبي محمد عبد الله وأبي جعفر أحمد — وكانوا جميعاً
أدباء نجباء — في كتاب « إيماض البرق » من تأليفي مستوفى والحمد لله .

١٥٤ – نفيس بن محمد الرَّبَعى البغدادى ، أبو الفضل – يعرف بابن قُمُّونة

ونسبه صريح فى ربيعة . وقدم على المغرب فتُلُقى بالقبول ، ووُلى الجزيرةَ الخضراء . وكان أديباً فصيحاً ، وهو القائل فى مقتل عمر المعروف بالرشيد سنة أربع وثمانين وخمسمائة :

فلله دَرُّكَ من عادلٍ أقرّ عيوناً وأذكى عيونَا
سطا بالرشيد فكان الرشيدَ ولَوْ فاتَه الحزمُ كان الأميقَا

[١٦–ب] / وله :

لولا خيانةُ حَيُّونٍ لقلتُ لكم هو الأمانةُ مما فيه من ثِقَلِ
هو الطويل وفى معروفه قِصَرٌ كأنه ليلُ مشتاقٍ بلا أملِ

١٥٥ – عبد الرحيم بن إبراهيم بن محمد الخزرجى الغرناطى ، أبو القاسم – المعروف بابن الفَرَس

ثار بناحية مَرّاكُش من المغرب واشتملت عليه طوائف من البربر ، ثم غدر به بعضهم ، فقُتل وحُز رأسُه وسيق إلى مَرّاكُش ، وذلك فى نحو الستمائة . وهو القائل فى ثورته ، وكان شاعراً مطبوعاً :

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن عَلى تأهبوا لوقوع الحادث الجللِ
أتاكمُ خيرُ قحطانٍ وعالمُها وصاحبُ الوقت والغلّابُ للدولِ

والناسُ طوعُ عصاه وهو قائدهمْ بالأمرِ والنهى نحو العلمِ والعملِ
فبـــادروا أمرَه ، فالله ناصِرُهُ والله خاذلُ أهلِ الزَّيغ والزللِ

وهى طويلة .

وله أيضاً :

عسى عطفةٌ من جانبِ القُدسِ تسمحُ وبارقةٌ من جانبِ اللطف تلمَحُ
عسى اللهُ يُدنينى إلى ساحةِ الرضا فأقرع أبوابَ الغيوب فتُفتَحُ
وما زال فضلُ الله يغمر ساحتى ويَظهرُ لى من حيثما أتلمَّحُ
إلى الملإ الأعلى سمـــوتُ بهمتى كذلك شأن الشَّكلِ للشكلِ يجنَحُ

١٥٦ — محمد بن سيدراى بن عبد الوهاب ابن وزير القيسى ، أبو بكر

كان أبوه أبو محمد سيدراى أميراً بغرب الأندلس فى الفتنة ، وتغلب على أبى القاسم بن قَسِيّ فى شعبان سنة أربعين وخمسمائة ، ثم نظَمتْه الدعوةُ المهدية مع رؤساء الأندلس ، وحضر حصار إشبيلية هو وابن قَسِيّ فى العساكر المحيطة بها مع الأساطيل برًّا وبحراً إلى أن فتحت يوم / الأربعاء الثانى عشر من شعبان [١٦٥-١]
سنة إحدى وأربعين ، وفر الملثمون عصرَ ذلك اليوم إلى قَرْمُونَة ، وتخلى أبو محمد المذكور عن شِلْب سنةَ اثنتين وخمسين ، فمُلكتْ مع قلعة مِيرْتُلَة .

وكان من رجالات الأندلس رجاحةً وشهامةً ، وكذلك كان ابنُه أبو بكر

هذا ، ووَلِىَ قصرَ الفتح المنسوب إلى أبى دانِس[1] عند استرجاعه من أيدى

---

(١) قصر أبى دانس ، حصن فى ناحية « الجوف » فى الأندلس ، ولم أتبين إن كان تابعاً من الناحية الإدارية لكورة الأشبونة أو لكورة باجة ، فهو فى منطقة الحدود بينهما ، وهو منسوب إلى بانيه أبى دانس بن عوسجة المصمودى (جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، ص ٤٦٦) ذكره فى سياق كلامه عن المصامدة فى الأندلس وقال : « وبنو دانس بن عوسجة كانوا أصحاب قُلُنْبِيرة ، وإلى جدهم ينسب قصر أبى دانس فى الجوف» ويسمى الموضع حاليا **Alcacer do Sal** (بالبرتغالية ، أى قصر الملح) وهو يقع على نهر شَطُوبَر الذى يسمى اليوم **Sado** وهو نهير صغير يصب فى بحيرة ضحلة صغيرة متصلة بالبحر تسمى اليوم **Setúbal** ، وقد أعاد الحكم المستنصر بناء الحصن بعد غارة المجوس على؟ غرب الأندلس سنة ٣٥٩/٩٧٠ . وكان لقصر أبى دانس دور عظيم فى العصر الموحدى ، نظراً لاهتمام خلفاء الموحدين بالدفاع عن غرب الأندلس . وكان بنو وزير – ومعهم المترجم له – من أكابر بيوت هذا الثغر ، وقد سبقت الإشارة إلى جدهم أبى محمد سيدراى بن عبد الوهاب بن وزير القيسى الذى ثار فى يابره وباجة ودخل فى طاعة ابن قَسِى ثم اختلف معه وانتزع منه ميرتلة وبطليوس سنة ٥٤٠/١١٤٦ واشترك معه فى الاستيلاء على إشبيلية من المرابطين سنة ٥٤١/١١٤٧ . وقد اختلف مع الموحدين حينا ، ولكنه – على الجملة – كان من خيرة رجالهم . ويبدو أنه توفى بعد سنة ٥٦٥/١١٧٠ بقليل ، لأننا لا نسمع بعد ذلك إلا عن ابنه أبى بكر محمد المترجم له هنا وأخيه على الذى كان واليا على سِرْبَة **Serpa** ثم وقع فى أسر البرتغاليين . وفى سنة ٦١٤/١٢١٧ – عندما هاجم البرتغاليون قصر أبى دانس مصممين تصميماً كاملا على الاستيلاء عليه ، لأنه كان يعوق تقدمهم نحو الجنوب – نجد والى الحصن المدافع عنه رجلا من بنى وزير هو عبد الله بن وزير ، ويبدو أنه ابن أبى بكر محمد هذا . وقد استعان البرتغاليون فى الاستيلاء على الحصن بأسطول من الصليبيين الألمان ، ومع ذلك لم يسقط فى أيديهم إلا بعد قتال مرير وحصار طويل فى جمادى الثانية ٦١٤/سبتمبر ١٢١٧ فى يد ألفونسو الثانى ملك البرتغال بعد أن قتل كل أهل القرى حوله . وتظاهر عبد الله بن وزير باعتناق المسيحية لينجو من القتل ثم هرب بعد ذلك . والبلد اليوم مركز إدارى فى مديرية يابرة **Evora** فى البرتغال ، ويقع فى منتصف المسافة بين باجه **Beja** والأشبونة ، ولازالت بقية الحصن العربى قائمة فيه .

انظر : أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ١٦٩ . وقد اختصه الروض المعطار بمادتين ، رقم ١٤٥ (القصر) ص ١٦١ ورقم ١٤٦ ، ص ١٦٢ (قصر أبى دانس) ، وانظر الترجمة الفرنسية للمادتين ، ص ١٩٣ (وتعليق ٣) وص ١٩٤ و :

A. HUICI MIRANDA, ***op. cit.*** **II, 442-443.**

ودائرة المعارف الإسبانية (إسْپاسَا كالْپِ) ج ٤ ص ١٢٠٧ .

الروم فى جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وكانوا قد تغلبوا عليه سنة خمس وخمسين ، وأقام والياً عليه سامىَ الرتبة نامىَ الحظوة ، إلى أن توفى فى صدر المائة السابعة بعد حضوره بوقيعة العِقاب[1] ، وكانت يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة . وهو القائل فى حرب ظهر فيها على الروم :

ولما تلاقينا جرى الطعنُ بيننا ... فمنا ومنهم طائحون عديدُ
وجال غرارُ الهند فينا وفيهمُ ... فمنا ومنهم قائم وحصيدُ
فلا صدرَ إلا فيه صدرُ مثقَّفٍ ... كلانا على حَرِّ الطعانِ جليدُ
ولكنْ شددْنا شدةً فتبلَّدوا ... ومن يتبلَّدْ لا يزال يَحيدُ
فولَّوْا وللبيض الرقاقِ بهامهمْ ... صليلٌ وللسُّمر الطوال وُرودُ

وله فى النسيب :

ومرنَّحِ الأعطافِ تحسبُ أنهُ ... متعلِّلٌ أبدًا بصِرْفِ مُدامِهِ
خَنِثِ المحاجرِ والجفونِ كأنما ... يَسرِى فتورُ جفونه لكلامِهِ
فضح الهلالَ بوجهه ولربما ... فضح القضيبَ بلينه وقَوامه
وغدا شقيقَ سميِّه فى حُسنهِ ... وغدا العَنا وقفاً على لُوّامه

وله :

وبتْنا جميعاً مثل ما لفَّتِ الصَّبا ... قضيبين من نوعين ذاوٍ وناضرِ
فطوراً أمصُّ الشهدَ من جوهر اللَّمَى ... ويا عجباً للشهد بين الجواهر
وطوراً عناقاً لا تنفُّسَ بيننا ... ولكن تناجِينا بسرِّ الضمائر

(١) هى الموقعة المشهورة عند الموضع المعروف اليوم باسم **Las Navas de Tolosa** بمديرية جيان الحالية على ٥ كيلومترات شمال شرقى لاكارولينا **La Carolina** ، وكانت فى ١٥ صفر ٦٠٩/١٧ يوليو ١٢١٢ ، وتفاصيلها كثيرة فى مَراجعنا .

[١٦٥-ب] /أقول : أما للصبح من متنفَّسٍ ؟ وعنـدىَ أنَّ الليلَ لجةُ ناظر

وله وقد فَصدتْ أم ولده وكانت غالبة عليه :

يا مَن علا[1] فحلا فى النفس موقعُهُ ومَن هو القلبُ أو فى القلب مرتَعُهُ
لم تملإِ الطِّسْتَ لما أنْ فَصَدْتَ دماً وإنما الصَّبُّ ذابتْ فيه أدمعُهُ
فلا تخَفْ بعدَها من حادثٍ نَبأً فاللهُ والفَلكُ الأمورُ يدفعُــــهُ

وما أحسن قول الحسين بن عبد السلام فى هذا المعنى وقد فَصدتْ محبوبته :

ما أنت شاكية حقًا ، أنا الشاكى عافانىَ اللهُ مما بى ، وعافاكِ
حللتِ منى فؤاداً حشوُه لهبٌ فإن حُمِمْتِ فهـذا أصلُ حُمّاكِ
قالوا مَدَدْتِ إلى الحَجّام جارحةً وموضعُ الفَصْدِ منها عينُ مُضْناكِ
أسال من فضةٍ بيضاء فى ذهبٍ ياقوتةً هى دمعُ المشفِقِ الباكى

ولأبى بكر فى كلب صيد وطئه فرس له حول خبائه فهلك ، وهو من جيد شعره :

يا مجهدَ النفسِ فى إدراكِ مطلوبى ومُسعِدى حين إدلاجى وتأويبى
وحارسى ورداءُ الليـلِ مشتملٌ من كل مستلبٍ فى زىِّ مسلوبِ
ويا وفيًّا بما خانَ الرجالُ بهِ وراثةً عن مطاويعٍ مناجيب
كنتَ المصيخَ لأمرى والمطيعَ لهُ وإن تعرَّض فيــه كلُّ مرهوبِ
ففاجأتكَ المنايا حيث تأمنُهـا من طالبٍ لم تفتْهُ عينُ مطلوب
لئن طوتْكَ الليالى طىَّ بُردتِها لقد طوتْ فيكَ أنسِى طىَّ مكتوب
وأودعَتْـــنى سرًّا من سجيَّتِها بأنَّ رغبــتَها ثُكْلٌ لمرغوب

(١) يمكن أن تقرأ أيضاً : يامن غلا .

فكم غَنِينا وقد رُحنا إلى قنص ببعض حُضْرِكَ عن قرع الظنابيب
/وناب نابُكَ فى ما كنتَ تفرِسُهُ من الظباء عن الصُّمِّ الأنابيب [١٦٦-١]
قد كنتَ تُولِى الرَّدى مَن حانَ موعدُهُ حتى أتاك لوعدٍ غيرِ مكذوبَ

* * *

ومِمن كان بإفريقية فى آخرِ هذه المائة
من رجال الدعوة المهدية ، خلّدها الله :

١٥٧ – عمر بن جامع ، أبو على

هو ابن أخى أبى العُلَى إدريس بن أبى إسحاق بن جامع الوزير ، وكان بإفريقية فطال مكثه بها ، وحنَّ إلى بنيه فاستدعاهم من مَرّاكُش وقال فى ذلك شعراً خطه فى رقعة ، ثم نشأت له قبلَ وصولهم غزاةٌ إلى سُلَيْم من العرب ، فقُتل فيها ، ووُجدت الرقعةُ فى جيبه ومن أبياتها :

سقَتْنا بَعدَكم أيدى الفراقِ كُؤوساً طعمُها مرُّ المذاقِ
فأضرمتِ الحشا ناراً وأجرَتْ دموعاً تَستهلُّ من المآقى
فلولا النارُ مُتُّ غريقَ دمعٍ ولولا الدمعُ مُتُّ من احتراق
ولكنْ حين حُمَّ النأىُ عنكم وأعلى صوتَه حادِى الرفاق
خَشِيتُ خروجَ قلبىَ من ضلوعى وخِفتُ بلوغَ نفسىَ للتراقى
ولكن لا احتكامَ على الليالى وهل مما قضاه اللهُ واقٍ ؟

١٥٨ — عبد الواحد بن عبد الله ، أبو محمد المعروف بوامَجُّور[١]

وَلِيَ تونس ، وكان شهماً صارماً سفاكاً للدماء ، ونُكِب بعد محاصرة قَفْصَة والظفر بها وبالثائرين فيها بدعوة عليّ بن غانِيَة ، وذلك سنةَ ثلاث وثمانين وخمسمائة[٢] ، ومات بنواحى بِجَاية فى طريقه إلى المغرب مسخوطاً عليه . ويُنسَب إليه أنه قال فى محبِسه :

نَصحتُ فلم أفلحْ ، وخانوا فأفلحوا فأنزلَنى نُصحى بدار هوانِ

[١٦٦-ب] /فإن عشتُ لم أنصحْ وإن متُّ فالعنوا ذوى النصح من بَعدى بكلِّ لسانِ

وهذا عندى كما يُنسب إلى أبى بكر بن إبراهيم المَسُّوفِى المعروف بابن تافَلوِيت[٣] — والى سرقسطة فى صدر هذه المائةِ سنةَ ثمانٍ ، والمتوفى بها فى رجب

---

(١) ورد الاسم فى الأصل : وا بحور ، دون نقط . وقد صوبت الاسم بحسب ما ورد فى كتاب أخبار المهدى لأبى بكر الصنهاجى المعروف بالبيدق ، وقد ورد هناك : أبو محمد عبد الواحد بن وَمَتَّجُور الهنتاتى ، وكان من الطبقة الثانية من الموحدين المعروفين بأهل خمسين أو أيت خمسين (انظر ص ٣٥ من النص و٥٣ من الترجمة الفرنسية) . وورد الاسم فى الجزء الرابع من البيان المغرب لابن عذارى (ص ١٠١) : أبو محمد بن واسجور ، وانظر الترجمة الإسبانية بقلم أويثى ميراندا (ج ١ ص ١١٨ وتعليق ٢) . أما ابن الأثير فيذكره باسم عبد الواحد ابن عبد الله الهنتانى .

(٢) انظر تفاصيل ذلك فى الجزء الرابع من البيان المغرب لابن عذارى ، ص ١٠٩ وما يليها .

(٣) هو أبو بكر بن إبراهيم ، الأمير أبو يحيى المسوفى المعروف بالصحراوى . ترجم له ابن الخطيب ترجمة واسعة وذكر أنه كان صهر على بن يوسف ، زوج أخته ، ولم تفصح —

سنة إحدى عشرة منها — أنه قال فى سيفٍ ، ووقفتُ على ذلك من وجوه :

هززتُ حُسـاماً فشبَّهتهُ غديراً من الماء لكن جَمَدْ
ومهما بدا لى منه فِرِنْدٌ لهيباً من النار لكن خَمَدْ
فلولا الجمودُ ولولا الخمودُ لسالَ لدى الهزِّ أو لاتَّقَدْ

وكما يُنسب أيضاً إلى يحيى بن إسحاق بن غانيةَ المَسُّوفِى أنه قال :

وإذا تجيشُ النفسُ قلتُ لها : قِرِى موتٌ يريحُكِ أو ركوبُ المِنبرِ
ما قد قُضِى لا بد أن تَلْقَيْنَهُ ولكِ الأمانُ من الذى لم يُقدَرِ

وهذا الشعر الأخير إنما هو لأبى الحسن التِّهامى ، وهو موجود فى ديوانه ، والذى قبله يُروى لابن المعتز ولغيره . والظاهر أنهم يتمثلون بما يحفظون فيتوهم سامعُهم أن ذلك لهم ، وإلا فرفعةُ الحال تنزههم عن الانتحال ، ولو أنى اجتنبتُ ما اجتلبتُ من هذا وشِبهه لأوجدتُ للمعترض سبيلا إلى المقال .

= المراجع عن اسم هذه الأخت . وذكر ابن الخطيب أصله وسبب تسميته بالصحراوى واتصاله بعلى بن يوسف . وقد تولى غرناطة سنة ٥٠٠ ثم سرقسطة بعد ذلك ، وهناك صحبه أبو بكر محمد ابن الصائغ الفيلسوف المعروف بابن باجة ، وتوفى فى سرقسطة سنة ٥١٠ .

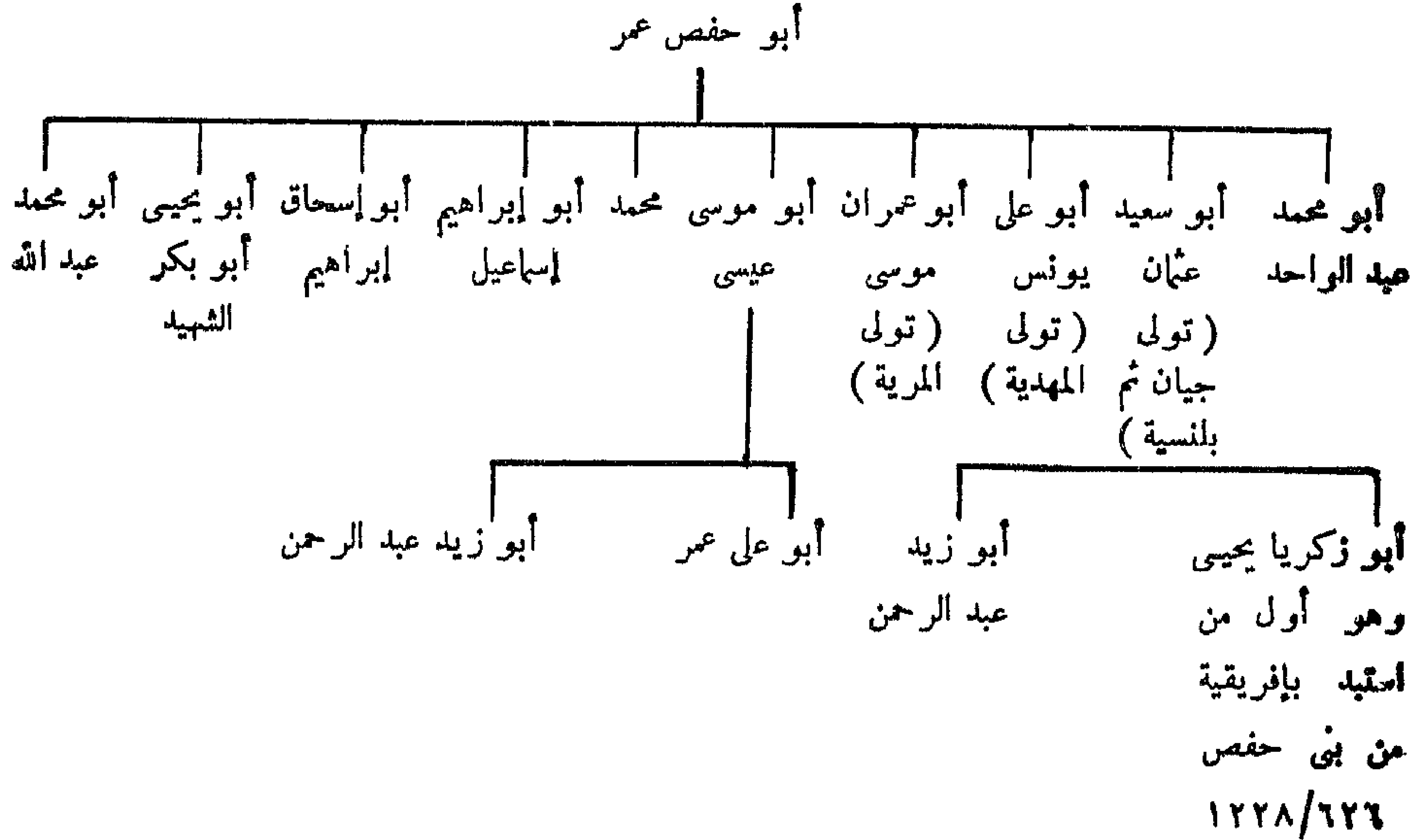
انظر : الإحاطة (بتحقيق محمد عبد الله عنان) ١/٤١٢ وما بعدها .

المائة السابعة

نبدأ بالذين يُبدأ بهم الذكر الجميل أو يُختم ، ومن منثور حِكمهم ومنظومها يُنثر فى أوصافهم ويُنظم ، أهل البيت المبارك الحَفْصِى[1] ، المستولِى بأدنى السعى على الأمد القَصِىّ ، بيتِ الخلافة السعيدة ، والإمارة التليدة ، ذاتِ الحائد

---

(١) إليك جزءاً من شجرة نسب الحفصيين ، بينا فيه الظاهرين من أوائل رجال هذا البيت وتسلسل نسب من ترجم لهم ابن الأبار فى الحلة السيراء منهم :



انظر الجداول الكاملة لنسب الحفصيين فى نهاية الجزء الثانى من كتاب :

ROBERT BRUNSCHWIG, *La Berbérie Orientale sous les Ḥafsides*, Paris 1947.

الظاهرة والمحامد المتظاهرة ، لازالت مِنحُها صوراً مجلوة ، ومدحها سورا متلوة ، فأوّلهم وأولاهم بالتقديم للاشتراك فى شرف الأبوة والانفراد بكرم الأُخُوّة :

١٥٩ — أبو زيد عبد الرحمن ابن الشيخ المجاهد المقدّس أبي محمد

[١٦-١] /وَلِىَ بعد أبيه رضوان الله عليه إفريقيةَ فى غرة المحرم سنة ثمان عشرة وستمائة وإثرَ دفنه فى اليوم الذى توفى فيه ، وذلك ضحى يوم الخميس منسلَخ شهر ذى الحجة من السنة قبلَها ، فكان له الأثر الحميد والصيت البعيد[1] ، وبلغ فى السماح والبأس ما ليس عليه مزيد ، ثم صُرِف وانتقل إلى المغرب ، ووَلِىَ بَطَلْيَوْس وثغورَها بالأندلس ، ولحق بمرّاكُش بعد ذلك ، فاستُشهد هنالك سنة خمس وعشرين وستمائة . وهو القائل من قصيدة فى شكاية أصابت أباه ، لا زال صوب الغمام يسقى ثراه :

يا دهرُ مالَكَ ضاحكاً وعَبوسا   أتُعيرُنا بعدَ النعيم البُوسا ؟
ولقد عهِدتُكَ ضاحكاً متهللا   تُهدى القَبولَ وتبذلُ التأنيسا
أتُراكَ تجزع من شكايةِ ماجدٍ   أضحى لزُهرِ النيِّرات جليسا ؟
مَلِكٌ تدرَّع من عنايةِ رَبِّهِ   دِرعاً غدتْ للعالمين لَبُوسا
لو جاءه عيسى بزِىٍّ معالجٍ   قَصداً لأنْعَمَ بالتوكُّلِ عيسى
ساس الزمانَ فكان من عُبْدانِهِ   والصعبُ منقادٌ إذا ما سِيسا

(١) الأصل : الحميد ، وهو وهم من الناسخ ، إذ تستبعد سجعتان بنفس اللفظ .

ناهيك من متبرِّعٍ متورِّعٍ   كسرَ الصليبَ وأفحمَ الناقوسا
مَلِكٌ حمى إفريقْيَةً وذِمارَها   لما غدَا ليثاً وتونِس خِيسا(١)
لا يرتَضى العَضْبَ المهنَّدَ خادماً   إلا إذا اقتحم الكماةُ وَطِيسا
فإليه تستبق الجوارى شُرَّعاً   وإليه تحتَثُّ الحداةُ العِيسا

وله أيضاً من قصيدة :

هل المجدُ إلا ما تجرُّ العزائمُ ؟   وإن رِيعَ يوماً فالسيوفُ تمائمُ
وإن لاحَ من وجهِ الزمانِ تجهمٌ   فوجهُك وضاحٌ وثغرُكَ باسمُ

ومنها :

سأفرى أديم الأرض فى طلب العلا   وأركب عزماً لم تقُدْه العزائمُ
/ وأخطبُ آمالى بما هو مَطلبى   ولو منعتْنى الفاتكاتُ الصوارمُ [١٦٧-ب]
وحسبيَ عَضْبٌ صادقُ العزمِ صارمٌ   ألدُّ إذا كان الزمانُ يخاصمُ
أُشيمُ به البرقَ اليمانىَّ مَوْهِناً   وأَهدِى به السارين والليلُ عاتمُ

وله أيضاً :

أيا حَمَامُ هل لك من ضلوعى   زفيرٌ أو لك الدمعُ السَّفوحُ
فقد أشبهتَنى ماءً وناراً   وهيهاتَ المعنَّى والسريحُ

(١) الخيس عرين الأسد ؛ هذا ويلاحظ أن الوزن يقتضى أن يُنطَق لفظ « إفريقية » الوارد فى الأصل هكذا : « إفرِقْيَةً » ، إلا إذا افترضنا قراءته « إفْرِيقِيا » .

١٦٠ — أبو زيد عبد الرحمن ابن الشيخ المكرَّم أبى موسى

كان بقرطبة فى إيالة عمه الشيخ المكرَّم أبى العباس ، وبعد ذلك صار إلى مَرّاكُش عند انبعاث الفتنة المبيرة بالمغرب ، فهلك هنالك ؛ وكان لِدَةَ أخيه المذكور بعدَه ، وُلِدا جميعاً سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وهو القائل فى وسيم شاكٍّ السلاح ، وأجاد ما أراد :

يكفيك يا مُعتقِلَ السَّمْهَرِى ما نالنا من طَرْفِكَ الأحوَرِ
إن كنتَ من جُندك فى قِلةٍ فأنت من لَحْظك فى عسكرِ

١٦١ — أخوه أبو على عمر

وَلِىَ بالأندلس جَيّان وغيرَها ، وكان فى سنتى ثمان عشرة وتسع عشرة وستمائة على خيل بَلَنْسِيَة ، فى إيالة عمه الشيخ المكرَّم أبى سعيد رِضوان الله على جميعهم ، ثم وَلِىَ فى هذه الدولة المباركة ، التى بها انتصار الإسلام وافتخار الأيام ، مدينةَ بِجَاية وقتاً ، وهو على قاعدة المهدية من شهر الله الأصم رجب سنة ثمان وثلاثين وستمائة إلى وقتنا هذا ، وهو شهر الله المحرم من سنة ست وأربعين .

وفى شهر ولايته ، ثم فى يوم الخميس الثانى منه كانت البيعة المباركة بولاية العهد الكريم لمولانا الأمير الأجل الأسعد المبارك الأرضَى الأمجد أبى يحيى أيد الله مَقامه ، وقصَر على نظم الفتوح ونثر المَنوح ظَعْنه ومُقامه . وكان لأبى علىّ هذا ، وَصَل الله علاءه / فى ذلك اليوم الأعز الأغر مقام محمود ومقال محمول . [١٦٨-١]

ولعَبْدِهم(١) ، المقتصرِ على خدمة مجدهم ، بما لا يقصِّر فيه من تحبير مدحهم ، وتحرير حمدهم ، كلمةٌ إذ ذاك يرجو لأن يتجددَ له بها قبول ، ويسعدَ مأمول بمأمول ، أولها :

أشاد بها الداعى المُهيبُ إلى الرُّشدِ ... فهبَّ لها أهلُ السعادة بالخُلْدِ

ولايةُ عهدٍ أنجز الحقُّ وعدَهُ ... بتقليدها مِن أهله الصادقَ الوعدِ

وبيعةُ رضوانٍ تبلَّجَ صُبحُها ... عن القمر الوضّاح فى أفُقِ المجد

تجلَّتْ ، وجلَّتْ عِزةً فليَومِها ... من الدهر تفويفُ الطِّراز من البُرْد

وحلَّت بسعدِ الأسعُدِ الشمسُ عندَها ... فأيَّد فى أثنائها السعدُ بالسعد

ولما أتت بين التهـــانى فريدةً ... تخيَّرَها التوفيقُ فى رجَبِ الفرد

ومنها :

أبَى الدينُ والدنيا وُلاةً سوى بنى ... أبى حفصٍ الأقمارِ والسُّحْبِ والأسْدِ

وإن ضايَقتْ فيها الملوكَ وعدَّدتْ ... مناقبَ تَحكى الشُّهبَ فى الظُّلَمِ الرُّبْدِ

فإنّ كتابَ الله يَفضُلُ كلَّهُ ... وقد فضَلَتْه [بينها] سورةُ الحمدِ

وفى شجَرات الروضِ طِيبٌ معطِّرٌ ... صَبَاهُ وللأُتْرُجِّ ما ليس للرَّنْدِ

وكلُّ سلاحِ الحربِ بادٍ غَناؤه ... ولـكنْ لمعنًى أوثِرَ الصارمُ الهندى

على زكريَّاء بن يحيى التقى الرِّضا ... كما التقتِ الأنداء صُبحاً على الوردِ

على المرتضَى بنِ المرتضَى فى أرومةٍ ... نَمَتْ صُعُداً بالنَّجْلِ والأبِ والجدِّ

على المـكتفِى والمقتفِى نهجَ قصْدِهِ ... ومُشْبِهِهِ فى البأسِ والجودِ والجِدِّ

---

(١) الأصل : ولسعدهم ، والصحيح ما أثبتناه . وابن الأبار يريد هنا نفسه ، والشعر من نظمه . وانظر مولر : ص ٣٢٥ .

وشعر أبى علىّ ، أعزه الله ، كثير . وقد وقفتُ على ديوانه ، وسمعتُ منه غير قصيدة وقطعة بلفظه ، ومن ذلك كلمةٌ بعث بها إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم صحبة الحاج أبى بكر بن العربى / الإشبيلى أوّلُها — وأنشدنى جميعَها : [١٦٨-ب]

أصبحَ من صبره على أملٍ قُسِّم بين الوجود والعــدمِ (١)
إليك ألقى بعُـــذر محتشمٍ مرتحلِ القلبِ ساكنِ القدمِ (٢)
يُتْبِـعُ ركبَ الهوى إليك أسًى ما شاء من حسرةٍ ومن ندمِ
برّح شـــوقٌ به إليك فما ينفكُّ — ما لم يزُرْكَ — فى ضرَمِ
ألوَى به عن بلوغ نيتــه حكمُ زمانٍ عليــه محتكمِ
فعزمةٌ تلتوى عــلى عقبٍ وهمــةٌ ترتمى إلى أَمَمِ

ومنها :

يا خيرَ من تُعمَل المطىُّ له عُذرىَ فى اللبثِ غيرُ متَّهَمِ
عبـدُك لو يستطيع جاب إليـ ـكَ القفرَ فى غيهبٍ من الظُّلَمِ
يمسح(٣) ما بين خمصَ منـه إلى يَثْرِبَ مَرًّا بوَجنــةٍ وفَمِ
ولى ذنوبٌ وقَصْنَنِى ثِقَـــلاً لولا أذى ثِقْلِهن لم أقُمِ
يرجوك يا شافعَ البريةِ أن تشـــفع فيها لِبَارِئِ النَّسَمِ
عسى قَبولٌ لديكَ يُلحِقُنى بقـــبرك المستنير والحرَمِ
وصاحبيك اللذين خصَّهما بنعمة القرب منك ذو النعمِ
فقد توسَّلتُ بالذى لك عنـ ـدَ الله من رفعةٍ ومن عِظَمِ

---

(١) إلى يمين هذا البيت حرف « خ » وإلى يساره حرف « ق » .

(٢) إلى يمين هذا البيت حرف « ق » وإلى يساره حرف « ق » .

(٣) الأصل : يسمح .

صلى عليــــه الإله ما اتصفتْ أوصافُه بالجلال والكرمِ

وله فى وصف سيفٍ :

يسيلُ إذا ما سُلَّ ماءً ويلتظى لهيباً على الإتلاف يأتلفانِ
كأنْ جدولاً مستقبلا شفَق الدجى فلا يَقَقٌ منــه الحُبابُ وقانِ

وله فى صِنَاب[1] أهدى إليه وألغز بوصفه من أبيات :

بعثتَ بما يُشتهَى يا ابنَ عمٍّ فدُمتَ ، ودامت عليك النِّعمْ
بأبيضَ كالمَحْضِ لـكنهُ به شِــــدةٌ تستثير القَرَمْ
طَفاوَتُه تحتَهــــا لجــــةٌ بلا ضَرَمٍ دهرَها تضطرمْ
كثيرُ الحرافةِ مستعــــذَبٌ عليها والمِلح فَضــــلٌ عَلَمْ
لسَــوْرته سطوةٌ بالأنوف وليس لَعَمْرُك مما يُشَمْ
شفاءٌ ولـكنَّ نِعمَ الشفاء لمن ظل يشكو بداء البَشَمْ
وقد يجــتزى الجَفَلى باليسيـ ـرِ منــــه وليس لأمرٍ يُذَمْ

وكتب إلىّ مع تمر أهداه ، حرس الله سناه وسنّاه :

أتتْك خليقاتٍ بحُسن الخلائق بها غُنيةٌ عن كل ما فى الحدائقِ
سليلاتِ جبار حكى وسْطَ دوحهِ خوافقَ بالمُرّان فوق الفيالقِ
حواملَ لم تُعلَمْ مواقيتُ حمْلها ولا حُمِّلت من فمٍ حُـكْمَ طالق
تجود إذا ما الجَوْدُ عَمَّ بعزِّهِ وسحَّ من الخضراء سَحٌّ بوَادِقِ
ممنَّعةٍ فى سامقٍ ما ارتقت لها بنانٌ ولا بانت بها يدُ سارقِ

---

(١) الصِّناب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب وهو صباغ يؤتدم به ، والمِصْنَب المولع بأكل الصناب (اللسان ٢/١٩) . والمراد بالصباغ هنا ما نسميه فى اللغة الجارية صَلْصَة = sauce

عثا كِلُها مِثلُ الشُّذور تذلَّلتْ بسالفةِ الغَيداء أو كالقراطِقِ
فلِلنَّضرِ منها حُسن لونٍ لناظرٍ وللزَّهْوِ منها طيبُ طعمٍ لذائقِ
كأنَّ بما تُبدى وتُضمر أنسبَتْ شمائلُها من مؤمنٍ ومنافقِ
لها جسمُ أوّاهٍ شحوباً ومن نوًى فؤادٌ حَكى من قسوةٍ قلبَ فاسقِ
وما ضَرَّها إذ قد أباحت لطاعمٍ حلاوتَهـا ألا تفوحَ لناشقِ

ومنها :

فصنحاً عن المُهدِى ومُهدًى ورُقعةٍ أتتك بعجزٍ لا بإعجازِ خارقِ
[١٦٩-ب] / ويرمِى إذا يرمِى القوافى بصائبٍ من الفكر لم يُضْحَب(١) بفُوقٍ موافقِ
وقد كان يُصمِى حين يرمِى كأنما له خاطرٌ أفكارُه من جُلاهِقِ
سرى دهره فى نشره فتفرقتْ شبيبتُه إذ لاح شَيبُ المفارق

فراجعته بأبيات منها :

أمولاى حقُّ العبدِ تقريرُ عُذرِهِ إذا هو لم يَلْقَ الحقوقَ بلائقِ
مَنائحُ أسْدتها مَناحٍ كريمةٌ تُفَوِّف للأحداقِ مثلَ الحدائقِ
وتبرِيَّةُ الأكمامِ شَهْدِيَّةُ الجَنَى حَلَت وتحلَّت زاكياتِ الخلائق
لها عَجَمٌ فى العُرب ولّد مُنْجبا وحسْبُك منها بالسَّوامى السَّوامقِ
كأنّ بأعلاها إذا احمرّ بُسْرُها مشاعلَ تَهدى فى الدجى كلَّ طارقِ
كأنَّ بها الماذِىَّ يَجْمُد تارةً ويَقْطُر من راقى المكانةِ رائقِ
كأنَّ الذى تُهديه من تمرها اغتذى بريقـةِ موموق ورقةِ وامقِ

---

(١) الأصل : يبحث .

مَنَنتَ بها منثورةً وشفعتَها ... بمنظومةٍ كالعِقد فى نحر عاتقِ
من الـكَلِم اللاتى انتمين إلى العلا ... وشرَّفن بالتسديد بِيضَ المهارقِ

فـكتب مجاوباً وللتشريف المنيف واهباً :

أتتْ نخبا من نورها نورُ شارقِ ... ولاحتْ فلم يُلمَحْ وميضٌ لبارقِ
وجاءتْ موَشّاةً من أقلامك التى ... برِيقَتِها راقت صِفاحُ المهارقِ
فما شئتَ من لفظٍ لمعناه حافظٍ ... وخَطٍّ له حَظٌّ من الحُسن فائقِ
فروضُ بنانٍ فاتنٌ حُسنُ زَهرِهِ ... وروضُ بيانٍ مثمرٌ بالحقائقِ
جَلوتَهما فى رُقعةٍ فأرتْ لنا ... محلَّ مُحلاّةٍ وأوراقَ رائقِ
/وكالخمر إطراباً ولـكنَّ سُـكرَها ... تحوّلَ شـكراً للمُدير الموافقِ [١٧٠-١]
كأنَّ بريقَ الحِبر فى صفَحاتها ... يُريقُ على رَأْدِ الضُّحَى رِيقَ عاشقِ
غدتْ باحورارٍ تستبى كلَّ مقلةٍ ... وتُغرِى بتبريحِ الهوى كلَّ رامقِ
تميسُ بريحِ الُحسنِ زَهوًا سطورُها ... كما ماس خُوطُ البانِ وسْطَ الحدائقِ
من اللؤلؤ المنظوم لفظًا تعطلتْ ... بلألائه لألاء دُرِّ المخانقِ
تبدّتْ فأسْلَتْ عن هوًى كلَّ عاشقٍ ... وأغرى بصمتٍ قولُها كلَّ ناطقِ
مطرزةٌ ما البُرد منها وإنها ... لمِنْه وما سَبْقُ العصور بلائقِ
لها نغْمةٌ تُهدَى بها أكؤسُ الطِّلا ... وتُحدَى المَهارَى بين ساقٍ وسائقِ
كأن بها ناراً تَشَعْشَعُ للقِرَى ... فيمشو إليها كلُّ سارٍ وطارقِ
أهبتُ بها سرًّا فلبّتْ مجيبةً ... بهِزّةِ معشوقٍ وطاعةِ عاشقِ

فجاءت كما شاءت وشئتَ مقيمةً وخافقةً بالُحسن فى كلّ خافقِ
وجئت بهذى مثل هادٍ وصائدٍ وقد شاف أطلالَ العُقاب[1] بباشقِ
ومَن يقتحمْ ما لا يُطيق اقتحامَه يُلاقِ الذى بالحُرِّ ليس بلائقِ

فكتبت إليه ممتدحاً [... ...][2] ثناء مستمنحاً :

لمَن كَلِمٌ كاللؤلؤ المتناسقِ لها فضلُ موصوفاتِهن البواسقِ ؟
نفائسُ كالأعلاق تجتذب النُّهَى لفتنتها من حُسنها بعلائقِ
جلائلُ ألفاظٍ إذا ما قرأتَها قَرَيْتَ مَعيناً من معانٍ دقائقِ
يجيشُ بها بحرٌ من العلم والندى حبَا كلَّ أفْقٍ من حُلاه بفائقِ
مَلاكيَّةٌ سيقتْ لتشريف سوقةٍ وحسْبُ الأمانى من مسوقٍ وسائقِ
[١٧٠-ب] /مطهرةُ الأعراق ليس لمعَبَدٍ بأبياتها شــدوٌ ولا لمُخارقِ
نَمَتْها المعالى والهدايةُ والتُّقَى فجاءت لعادات القريض بخارقِ
ألا بأبِى منها هَــدِىٌّ بلاغةٍ تُناغى المَهَى محجوبةً فى المَهارقِ
شقيقةُ روضِ الحَزْنِ باكرَهُ الحَيَا فحيّا بِغَضَّىْ نرجسٍ وشقائقِ
أطالعُ من قرطاسها كلَّ غاربٍ محاسنَ تلقانى بطلعةِ شارقِ
وألثم من أسطارها كلَّ فاتنٍ بما يَجتَلى من رَقْمها كلُّ رامقِ
وُلوعاً بيُمْنَى نَمْنَمَتْها حديقــةً تزهِّد أحداقَ الورى فى الحدائقِ
كأنىَ منها فى نسيمِ نوافحٍ تهبُّ أصيلاً أو شميمِ نوافقِ[3]
تدانتْ رحيباً شأوُها وتباعدتْ فضاق نطاقاً عندها كلُّ ناطقِ

---

(١) الأصل : أطلال العِقاب .

(٢) بياض فى الأصل . وقد وردت العبارة السابقة للبياض : فكتبت إلى ممتدحا ، فقومتها للسياق .

(٣) نوافق جمع نافقة ، وهى وعاء المسك (اللسان : ١٢/٢٣٨) .

رشفتُ بها مثلَ الثغور عذوبةً ... فأقصرتُ عن ذكر العُذَيْبِ وبارقِ
وملتُ إليها والفصاحةُ مِلؤها ... صحيفة ضخمِ السَّرْوِ ضخمِ السُّرادقِ
يشقِّق أطرافَ الكلامِ لسانُهُ ... فيَثْنِى الفحولَ اللُّسْنَ خُرْسَ الشَّقاشِقِ
وقورٌ فإن هزَّته نَغْمةُ صادحٍ ... رأيتَ قضيباً منه أثناءَ شاهقِ
سما بأبيه حين سمَّوْه باسمه ... فللّه من سامى المراتبِ سامقِ
ميمَّمُ مرضاةِ الإمامِ بسيفه ... ومُوضِحُ خافى الهُدَى فى كلِّ خافقِ
سَمِىُّ الذى استسقَى بعم نبيه ... فأخمد بردُ الوَدْقِ حَرَّ الوَدائقِ
ووافق فى عهد الرسالة ربَّه ... وناهيك من توفيقِ ذاك المُوافقِ
من الصفوة الأبرار صيغوا وصُوروا ... لموتِ أعادٍ أو حياةِ أصادقِ
إذا حقَّ أو حاق اضطهادٌ بأمةٍ ... تخلصَها منهم حماةُ الحقائقِ
/أمولاى إغضاءً فللفكر نَبوةٌ ... ولا نَبْوَ إلا لاعتراض العوائق[1] [١٧١ - ا]
على أنها الغاياتُ أعيا لحاقُها ... فلا سبْقَ فيها للوجيه ولاحِقِ
إلى العجز يلوِى بعد لأيٍ عِنانَهُ ... وإن عُدَّ صدراً فى العِتاق السوابقِ
وأنَّى لمثلى أن يُساوقَ مِثلَها ... وما فى البرايا مِن مُساوٍ مُساوقِ
ولكننى فيها على نهْجِ خدمةٍ ... لأنعُمَ من أرفاقها بمَرافقِ
سلامٌ عليها ساحةً موْلويَّةً ... يُلِمُّ لُهاهَا البِيضِ غيرُ مُفارقِ
تجود بوضع الدَّين من سعة الندَى ... وتضرب صفحاً عن تقاضى المَضايقِ

(١) الأصل : * ولا نبا إلا اعتراضَ العوائق *
وهو مكسور ، فقومته على هذه الصورة . والنَّبْو مصدر من نبا (اللسان : ١٧٢/٢) .

فراجع مشرّفاً عنها بقصيدة مباركة ، منها :

أتت كثرةً كالجحفلِ المتضايق ... وقد سال منها كلُّ شِعْبٍ وشاهقِ
وفاض على شُهْبِ المَهارق سَيْبُها ... كما فاض بعد الفجر نورُ المشارقِ
كأنَّ بصيصَ الحِبرِ فوقَ اسودادِهِ ... مذابُ زجاجٍ إثمدىٍّ المآلقِ
جرى فوقه دهْنٌ تخطَّتْ بما جرى ... وما ذاب فى القِرطاس أقلامُ ماشقِ
ولا عيبَ فيه غير أن رُقومَهُ ... تلوح احوراراً فى لحاظ المَهارقِ
وتبلغ سِرَّ العاشقين ولم يغِبْ ... رقيبٌ فيَشْقَى من تنعم عاشقِ
غدت كغصون الشوك شُعثاً سطورُهُ ... وفى ضِمنها ما ضم زَهرُ الحدائقِ
وما هى إلا معجزاتٌ تظاهرتْ ... لتعجيز ذى دعوى وتصديق صادقِ
أتيتَ بما لا يُستطاع تحدياً ... وجئتَ ببِدعٍ للعوائد خارقِ
فتُبنا من الدعوى ولا من معاندٍ ... وثُبنا لإيمانٍ وما من منافقِ

وله أعزه الله وكتب إلىّ به ملتزما فيه ما لا يلزم :

[١٧١-ب] / أنفذتُ نظمى قبلَ تنقيحٍ لهُ ... فثوَتْ به أذْنى مَليًّا تُعرَكُ
وأخو البديهة ليس يخلو قولُهُ ... مما يعَوَّضُ عنه أو يستدرَكُ
وأصحُّ حالٍ فيه ما رَوَّيْتَهُ ... ورأيتُ وقتاً(١) فيه وقتاً يشرِكُ
فلئن كففتُ عن القريض فصالحٌ ... ولئن تركتُ الكفَّ عنه لأُترَكُ
وأرى الإصابةَ كالهَدِىِّ وروحَها ... طوراً تهيم به وطوراً تُفرَكُ
إن البديع لمُدْرَكٌ لكنهُ ... مع ذاك ما فى كلِّ وقتٍ يُدرَكُ

---

(١) الأصل : ورابت وقتا .

وله فى حلواء :

خذها إليك شقيقةً لسجيةٍ — لك طالما سرّت فِراق فَريقها
تتحلب الأفواهُ عند مَذاقها — طيباً تحلُّبَها لرشفِ رحيقها
وافتْكَ فى أفق الخِوان وقد حكتْ — للشمس عند غروبها وشروقها
تُعزَى إلى عذب المُجاجة مثلَما — نَفثَ البلاغةَ قائمٌ بحقوقها
من كل خافقة الجناح لتجتنى — زهرَ الخمائل من أعالى نِيقِها[1]
تَنمِى لآلِ الوحيِ آيةُ سِنْخِها[2] — فتُسَلِّمُ اللَّهَوَاتُ[3] فى تصديقها
لا غروَ فى بشرِ الطباع لوَقْدِها — فالنفسُ تأنسُ بالتماحِ رفيقها
وترقُّ إذ يُشْدَى لها بنسيمها — كالنحل تلهجُ إذ يُجاء بريقها

وله من أبيات فى المُجَبَّنات[4] :

وربَّ زائرةٍ معسولةِ الخُلُقِ — تُعزَى لزَهر الرُّبى والوابل الغَدِقِ
جاءت وفصل الربيع الطلق يحفزها — كالطيف يطرق من أغفى على قلق
محمرةَ اللونِ والفضلُ المبينُ لها — على الغزالةِ إذ تبدو على الأفق
كأنهـا هى إلا أن بينهما — ما بين محضِ النعيم العذبِ والحرَق

---

(١) النيق أرفع موضع فى الجبل ، والجمع أنياق ونيوق (اللسان : ١٢/٢٤٢) .

(٢) الأصل : سَنْخها ، ولا يستقيم به المعنى هنا . والأصح سِنْخ بكسر السين ، وهو الأصل من كل شيء ، والجمع أسناخ وسنوخ (اللسان : ٤/٥٠٤) .

(٣) الأصل : * فتسلم اللهو إلىّ فى تصديقها * وهو وهم من الناسخ ، والصواب ما أثبتناه . ولهوات جمع لهاة وهى اللحمة المشرفة على الحلق (اللسان : ٢٠/١٢٩) .

(٤) فى الأصل : المجنبات ، والصواب المجبنات وهى فطائر معروفة فى الأندلس ، كانت تصنع بالجبن وقد يضاف إليها العسل أولا يضاف .

[١٧٢-١] /كأنها وبنان القوم يغمزُها[١] بدر تشقَّق عنـــه حمرةُ الشفق

وهؤلاء خاتمة الشعراء من الأمراء وأبنائهم ،
على الشرط الذى لا يسوغ معنى التزامه لفظ أسمائهم[٢] .

ولو نُسئت بالأندلس إيالةُ الإسلام لنُسقت على العادة محاسن الـكلام . ولـكنْ فى هذه المائة الأخيرة ، أدرك مرامَهم الرومُ فى الجزيرة ، واستحكمت إبارتُهم لها بحكم الفتنة المبيرة ، حتى ملـكوها وجزائرَها بين الصلح والعنوة ، وغايةُ أهلها إلى هذه الغاية أن يتساقطوا على العُدْوَة ، وكل منهم مفلت بجُرَيْعَـة الذَّقن ومسلِّم لعدوه الـكافر محبوبَ الوطن .

كم تركوا من جَنّاتٍ يدوسون غلالَها ، وديارٍ يجوسون خلالَها ، وعيونٍ يُفجِّر تعويرُها العيونَ دماً ، وزروعٍ ماعدا وُجودُها أن عاد عَدَماً ، ثم لا انتصارَ بغير العبرات ، ولا اقتصارَ إلا على الزفرات والحسرات ، ولم يبق الآن إلا إشبيلية ، أمُّ القواعد والمدائن ، ومَأمُّ الركائب والسَّفائن ، وقد أشْفَتْ على الذهاب ، واستوفت [على الخراب ، ......][٣] فى حسن المصابرة ، ورزؤها خاتم الأرزاء ، وثُـكلها الدافع فى صدر العزاء ، نعوذ بالله من بأسه وتنكيله ، ونعود إلى ما كنا بسبيله :

---

(١) لم يرد فى الأصل من هذه الكلمة إلا آخرها : « ها » .

(٢) وردت هذه العبارة هكذا ، وهى قلقة غير واضحة المعنى ، إلا أن يكون ابن الأبار قد تكلفها على هذا النحو طلباً للسجع . ومن الملاحظ أنه يجيد إذا أرسل نفسه على سجيتها ، وأرسل النثر إرسالا سهلا ، فإذا تكلف السجع والتزم حلية اللفظ أغرب وفاتته الإجادة .

(٣) أكملت جزءاً من العبارة التى أسقطها الناسخ بمجاراة السجعة التى وقف عندها ، ولم أستطع إكمال الباقى .

١٦٢ – إبراهيم بن إدريس بن أبى إسحاق ابن جامع ، أبو إسحاق

وَلِىَ سَبْتَةَ إلى أشغال[1] بحرها فى آخر وزارة أخيه أبى الحسن على بن أبى العلا وأول الفتنة المنبعثة صدرَ سنة إحدى وعشرين[2] ، وفى ذلك العام صُرفا جميعاً وقُتل علىّ منهما بجزيرة طَرِيف فى رمضان سنة ست وعشرين ، وتوفى إبراهيم فيما أحسب قبل ذلك ، وكان فى بيته المخصوص بالوزارة موصوفاً بحسن الإدارة ، على أن جميعَهم لأشتات السَّرْو جامع ، وما منهم إلا لَه حِلْم أصمُّ وجود

(١) الأصل : استوال بحرها ، وقد قرأها مولر (ص ٣٣٨) : استعمال بحرها ، والصواب أشغال بحرها ، والمراد الشؤون المالية والإدارية الخاصة بأسطولها . ولفظ « الأشغال » بمعنى الشؤون المالية والإدارية كثير الاستعمال فى العصر الموحدى (انظر مثلا ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٥٠) ، ويقال أيضاً « الأشغال المخزنية » فى نفس المعنى (انظر دوزى : ملحق القواميس ١/٧٦٧) حيث ترد أمثلة لمصطلحات مثل : الأشغال المالية ، الأشغال الخراجية ، « استعمل فلاناً على الأشغال بمدينة سلا » و« أشغال العدوتين » . . الخ .

(٢) الإشارة هنا إلى الفتنة التى أصابت البيت الموحدى عقب موت خامس خلفائهم أبى يعقوب يوسف بن محمد الناصر المعروف بالمستنصر سنة ٦١١ – ٦٢٠/١٢١٤ – ١٢٢٣ وقيام نفر من أبناء أبى يعقوب يوسف المنصور على عمهم أبى محمد عبد الواحد – الذى بويع بعد المستنصر – ينزع عمهم أبو محمد عبد الله بن المنصور – وكان والياً على مرسية – وانضم إليه إخوته ونادى بنفسه وتلقب بالعادل ، وكان الساعى فى هذه الفتنة أبوزيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان ابن يحيى الهنتاتى منافس بنى جامع « الذين اتخذوا الوزارة وراثة » كما قال . وكان بنو يوجان منافسين لبنى حفص ، والبيتان ابنا عم ، فهما جميعاً من هنتاتة . قال ابن عبد المنعم الحميرى : « وجعل الله ما بين هذين البيتين ما جعل بين بنى هاشم وبنى أمية» . وتلك الفتنة هى التى قصمت ظهر دولة بنى عبد المؤمن وآذنت بزوالها .

انظر : الروض المعطار ، مادة جنجالة ، رقم ٧٠ ص ٦٧ وما بعدها .

HUICI MIRANDA, *op. cit.* II, 447 - 450.

سامعٌ ، أبقت على بقاياهم الدولة الحفْصية ، فأصحبت[1] أيامُهم العصية ، وأكثَبتْ[2] آمالهم القصية ، وهاهم قد نهضوا بالأعباء ، وانفردوا بالمحاباة فى الأحبّاء ، حتى جرى الأبناء / مجرى الآباء . [١٧٢-ب]

ولأبى إسحاق هذا امتياز بفضلٍ أدبٍ واعتلاقٍ منه بسببٍ ، وهو القائل يخاطب أبا بكر بن يزيد بن محمد بن صقلاب عامل المَرِيَّة :

يانازحاً حبُّه وكيــــدُ ... ومَن تُراعَى له العهودُ
حللت منى محل نفسى ... فأنت دان منى بعيدُ
إن قال إلفٌ : قد ملَّ إلْفِى ... وودُّهُ ناقصٌ يَبيــدُ
قلتُ له زارياً عليـــه : ... « يزيدُ » فى حبِّه يزيدُ

فكتب إليه مع نثرٍ بأبيات منها :

قَدْكَ اتئِبْ[3] أيها الحسودُ ... دارت على راحتى السعودُ
واهـــتز عِطفُ الزمان ليناً ... وكم عسا للزمان عـــودُ
أجْنَى يَدِى بعد ما تَجَنَّى ... زَهرَ الأمانى كما أريدُ
فمسرَحى مُمْرِعٌ جَمِيمٌ ... ومَشرعى سلسلٌ بَرودُ
وكل ليــــل علىَّ صبحٌ ... وكل يوم لدىَّ عيــــدُ

(١) الأصل : فأصبحت . وأصحبت أى ذُللت .
(٢) أى قَرُبَت .
(٣) الأصل : اتب . واتئب أى رويدك .

١٦٣ – سليمان بن الحاج عبد الله ابن وِيفْتَن ، أبو الربيع

عامل إفريقية ، وكان قبل ذلك واليًا على قابِس وغيرها ، واستُنيب على حضرة تونس أيدها الله ؛ ومن شعره يخاطب بعضَ الملوك ، وقد قصده فحجبه ، وأنشدنى ذلك له مَن سمعه منه :

يا أيهـــا الملك الذى ضَنَّتْ[1] به حُجُبُ الجلالهْ
جُد لى بإحدى الحُسْنَيَيْـ ـنِ من الرسول أو الرسالهْ

١٦٤ – عبد الله بن محمد بن وزير ، أبو محمد

قد تقدم ذكر أبيه أبى بكر فى آخر المائة السادسة ، وأنه كان واليًا على قصر الفتح[2] وما إليه / من الثغر الغربى . و بعد وفاته وَلِىَ عبدُ الله ذلك ، وكان أكبرَ بنيه ، والوارثَ — دون إخوته — أدبَه ورُتبه . [١٧٣ – ا]

ولم تطل ولايتُه ، ولا كادت تتبين كفايتُه ، حتى نازله الإفرنج وتغلبوا عليه فى جمادى الأولى سنة أربع عشرة وستمائة ، بعد وقيعة هنالك فُقد فيها آلاف من المسلمين ، بتخاذل رؤسائهم يومَ التقى الجمعان ؛ وهى إحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما آل إليه أمرُ الأندلس الآن . وأُسر عبدُ الله هذا ومَن كان معه ، ثم تخلص من تلك الحال بحيلة توجهت له[3] .

---

(١) الأصل : ظنت .
(٢) المراد هنا قصر أبى دانس ، وقد سبق التعريف به .
(٣) سبق أن فصلنا ذلك فى تعليقنا على قصر أبى دانس .

واستُعمل بعد وفادته على مرّاكش إثر خلاصه ، وقبضت عليه العامة بإشبيلية بلده بتحريك محمد بن يوسف بن هُود — الملقب بالمتوكل — إياها عليه وعلى أهل بيته ، وسيق إليه فقتله وأخاه أبا عمرو عبد الرحمن ، منصرَفَه من الوقيعة العظمى عليه بمارِدَة من الثغر الجَوْفىّ فى سنة سبع وعشرين وستمائة(١) .

وهو القائل فى عثمان بن نصر أمير قومه الرِّياحِيِّين عند الصفح عنه بعد القبض عليه :

---

(١) أورد ابن عذارى فى البيان المغرب (ج ٤/٢٦٦) وما بعدها أخبار محمد بن يوسف الجذامى وقيامه على الموحدين بشرق الأندلس ، ولكنه لم يبين صلة نسبه ببيت بنى هود أصحاب سرقسطة وإنما اكتفى بقوله : «كان هذا محمد بن يوسف رجلا من أصناف الجند بمرسية وغيرها ، لكنه كان لأسلافه القدماء تقدم ملك فى تلك البلاد الشرقية الأندلسية ، تقلدوا حكمها قديماً وأمرها» . وقد تحدث عن محمد بن يوسف بن هود هذا جسپار ريميرو فى كتابه عن مرسية الإسلامية :

MARIANO GASPAR REMIRO, *Historia de Murcia Musulmana* (Zaragoza, 1905) 267 sqq.

ولكنه لم يبيّن هذه الصلة . وذكر ابن الخطيب فى الإحاطة (طبعة القاهرة سنة ١٣١٧ ، ج ٢ ص ٩٠) أنه كان من سلائل المستعين بن هود .

و «الوقيعة العظمى» التى جرت عليه بماردة ذكرها ابن عذارى فى البيان (٤/٢٨٩) وابن الخطيب فى الإحاطة (٢/٩٢) وفصل أمرها أويثى ميراندا فى كتابه الذى ذكرناه مراراً فى تاريخ الموحدين (٢/٤٧٨) ، وخلاصة كلامهم أن محمد بن يوسف بن هود هذا كان عظيم الشجاعة لا يتردد فى مهاجمة أعدائه حتى وصف بالتسرع . وعندما تقدم فرناندو الثالث وحاصر ماردة منتهزاً فرصة انسحاب الخليفة المأمون الموحدى من الأندلس ، أسرع ابن هود لإنجادها ، والتقى به عند موضع تسميه النصوص الإسبانية الحَنَشْ Alange فى جمادى الأولى ٦٢٧/مارس ١٢٣٠ ، قال ابن الخطيب : «فلم يتأنّ — زعموا — حتى دفع بنفسه العدوّ ودخل فى مضاربه ، ثم لما كرّ إلى ساقته وجد الناس منهزمين لما غاب عنهم ، فاستولت عليه هزيمة شنيعة ، واستولى العدو على ماردة بعد ذلك» . وسقطت أيضاً فى إثر تلك الهزيمة بطليوس . والحنش بتسكين النون هو النطق الدارج للفظ الحنَش . ومما هو جدير بالملاحظة أن هذا الموضع يسمى فى النصوص اللاتينية **Castrum Colubri** أى حصن الحنش .

قالوا : عفا الأمير عن عثمانَ ، قلتُ لهم(١): سيُوسِع المَلِكُ الإحسانَ والصَّفَدَا
ما كان أولاه من عفوٍ وأوقعَهُ لو أن ذلك فى اليوم الذى وردا
لكنهم لحَظوا لحظَ الرءوف ، أما يؤدب الوالدُ المستصلحُ الولدا ؟
كالبحر لا تقذف المَرجانَ لُجته إلا إذا قذفت أمواجُه الزَّبَدا

وحُدِّثتُ أن أباه أبا بكر مرَّ فى بعض أسفاره بوادى الحَمام — وهو ما بين أركُش و بين مدينة ابن السَّليم(٢) — فسمع غناء حمامة فقال :

أحمامةً ناحت على وادى الحمام خَلِّى ادِّعاء جوَى المَشوقِ المُستهامْ
أين الدموعُ وأين لُبْسُ الحزنِ أمْ أين التلذُّذ بين أثناءِ الخيـام ؟
أحللتِ أنضرَ أيكةٍ تهفو على وادٍ تصفِّق إذ خلوتِ من الغرام ؟
وصدحتِ بالكفِّ الخضيبِ كمُوقِعٍ ببنانه يتلو بها نغَم الكلام
/ وزعمتِ أنكِ هامةٌ لليوم أو غدِه ، وشأنك يا حَمام سوى الحِمام [١٧٣-ب]
أنا ذاك لى جسم عفا بالسُّقم إذ وفَّى لعَلوةَ غيرَ مذموم الذمام
ما كنتُ أعلمُ قبلَه أنَّ الجوى يَبرى الجسومَ كمثلِ ما يبرى الحُسام

(١) الأصل : عفى الأمر .

(٢) أركش هى التى تعرف اليوم باسم Arcos de la Frontera وهى مركز إدارى فى مديرية قادس على نحو ٥٠ كيلومتراً شمال شرقى قادس Cádiz . أما مدينة ابن السليم فهى مدينة شَذُونة Medina Sidonia قال فى شأنها عبد المنعم الحميرى : « التى تعرف فى عصرنا بمدينة ابن السليم ، وبنو السليم قد انصرفوا إليها عند خراب مدينة قلشانة Calsena » . ومدينة شذونة مركز إدارى حالياً فى مديرية قادس أيضاً على نحو ٤٠ كيلومتراً إلى شرقها . ولابد أن وادى الحمام نهير صغير من نهيرات وادى لك Guadalete أو نهر البرباط R. Barbate ، ولم أجد اسمه فى الخرائط المفصلة أو معاجم جغرافية شبه الجزيرة ، وليس من الضرورى أن يكون مجرى ماء .

ثم إن عبد الله ابنه هذا مرَّ به بعد حين فتذكر قول أبيه فيه ، فقال :

أحمامةَ الوادى أخِفتِ من الحِمام ... فشكوتِ ما تلقَين[1] شكوى المستهامْ ؟

كذَب الحمام ، فأين دعوى مُظهِرٍ ... أشجانَه من ذى خفاء واكتتام ؟

شهِدتْ دموعى والجوى ، ولو اننى ... خاصمتُ بالجسم السقيم كفى السَّقام

بل قد عذرتُك يا حمام فلم تُطقْ ... عونا يُبين عن الذى بك من أُوام

ما باختيارك خُضِّبتْ كفٌ ولا ... قُلِّدْتِ طوقاً ما لَه عنك انفصام

أو ما ترى الكحلاء طبعاً تشتكى ... ثُكلا وناظرُها يدل على اتهام ؟

رُدى الهديلَ فإننى أشْجَى به ... يا ليتنى لم أدر يوماً ما الغرام

ووجدت منسوباً إليه :

بدا مُحيّا جابرٍ ... والليلُ ملقٍ أُزُرَهْ

والبـــدرُ قد قابلهُ ... والمشترى والزُّهَرهْ

فقلتُ : ذا أضوأ من ... تلك الثلاث النيِّرهْ

فقال صحبى كلُّهم : ... إى والذى قد صوَّره !

وهذه الأبيات قد أنشدنيها أبو بكر محمد بن الحاج أبى عامر محمد بن حسن ابن محمد بن عبد الرحمن الفِهْرِى ببَلَنْسِيَّة ، بعد سنة عشر وستمائة لشيخنا أبى الحسن بن حَريق[2] ، وحدثنى أنه سمعها منه عنـد ارتجاله إياها فى شبيبة أبى

---

(١) الأصل : تلقون .

(٢) الشاعر المشهور أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن حريق المخزومى البلنسى ، « شاعرها الفحل المستبحر فى الآداب واللغات ، روى عن عبد الله بن حميد ، وكان عالماً بفنون الآداب ، حافظاً لأيام العرب وأشعارها ، شاعراً مفلقاً ذا بديهة . اعترف له بالسبق بلغاء وقته ، ودون شعره فى مجلدتين . . ولد سنة ٥٥١ وتوفى فى ١٨ شعبان سنة ٦٢٢ » .

ابن الأبار ، التكملة ، رقم ١٨٩٥ ص ٦٧٩ .

الحسن ، قال : وكان يميل إلى وسيم يعرف بجعفر الخضرى[١] ، /فقعد وأنا معه فى [١٧٤-١]
إحدى الليالى المقمرة بين العِشاءين ، ومعنا طائفة من أترابنا ترتقب وصول جعفر
هذا ، فلما أطال قال ذلك ، وأول الأبيات :

* بدا مُحيا جعفرٍ *

إلى آخرها ، إلا أنه قال : « فقلت ذا أجمل » مكان « أضوأ » ، وهى بابن حريق
أولى ، مع أنى لم أجدها فى ديوان شعره إذ قرأته عليه ، ولا أدرى كيف نسبت
إلى ابن وزير .

١٦٥ — إبراهيم بن محمد بن صَنَانيد[٢] الأنصارى ، أبو إسحاق

كان أبوه والياً على جَيّان ، وقد وليَها هو بآخرة ، وتصرف قبل ذلك بثغر
بَطَلْيَوْس ، وهنالك صاحبْته ، ومنه خاطبنى وخاطبْته . وأصل أوّليتّه من
شَقُورَة[٣] .

---

(١) جعلها دوزى ، ص ٢٤٣ : الحمزى .

(٢) ورد اسم هذا البيت عند ابن عبد المنعم الحميرى : بنو صناديد فى جيان (ص ١١٨)

(٣) شقورة : لم يرد لها ذكر فى مدائن كورة تدمير (مرسية) عند الرازى ، وليست كذلك من مدن الكورة السبع التى عاهد عليها تدمير ، ولم يذكرها العذرى فى كلامه المطول عن كورة تدمير ، ولكن ذكرها الإدريسى (ص ١٩٥ — ١٩٦) وأبو الفدا (تقويم البلدان ، ص ٤٢ — ٤٣) وياقوت (٥/٢٨٣) وعبد الواحد المراكشى (المعجب ، ص ٢١١) وابن عبد المنعم الحميرى (الروض ، ص ١٠٥) . ويرجع ذلك إلى أن ذكرها لم يشتهر إلا فى القرنين السادس والسابع عندما تركزت الأهمية فى الحصون ذات المواقع الحصينة . واسم شقورة كان يطلق على=

وكانت لأبيه نكايات فى العداة ، وعنايات بالعُفاة(١) ، حتى لَدُوِّنت أمداحُه ، وشُهر بأسُه وسماحُه .

وأما ابنُه هذا فغلب الأدب عليه ، وانتسب السَّرْو إليه . وإلا يَكُنْ معه بأس أبيه ومضاؤه ، فمعه معروفه المعروف وسخاؤه .

حدثنى شيخُنا أبو الحسن بن حريق أنه — أيامَ اشتغاله بجهة جيّان ، وتردده عليها فى صدر هذه المائة — لقى أبا إسحاق هذا ، فأفهمه بمقتضى سَرْوِه الحرصَ على مدحه ، ثم بعث قريحته على ذلكَ بجزيلٍ من مَنْحِه ، فقال فيه قصيدته الفريدة التى أولها — وأنشدنى جميعَها :

أعْرى من المدح الطِّرْفَ الذى رَكبا لما جرى فى ميادين الصِّبا فكَبَا
تمرُّ وثباً به خيلُ الشبابِ فلا يسطيعُ من مربَطِ الخمسين أن يثبا
وربما شقَّ أسدافَ الظلام به ركضاً وشقَّ به الأستارَ والحُجُبا

يقول فيها :

يلقى الغوانى بإنكارٍ معارفَهُ وهنَّ أقرب خلق منه منتسبا
إن كُنَّ سمَّينه عصرَ الشباب أخاً لهن فاليومَ أحرى أن يكون أبا
رعَينه خَضِراً رطباً فحين عسا أتَيْن يرعَيْن ذاك الإلَّ والنَّسبا

= نهر مرسية الذى يسمى أيضاً بالنهر الأبيض ويسمى اليوم نهر Segura ، وعلى حصن شقورة . وظهرت أهمية الحصن عندما تحصن فيه عبد الرحمن بن رشيق وتمكن من التغلب على ابن عمار وإخراجه من مرسية ، ثم عندما اتخذه إبراهيم بن هَمُشْك معقلا ومركزاً له . انظر بالإضافة إلى المراجع المذكورة :

GASPAR REMIRO, *Historia de Murcia Musulmana* , p. 188.

وتسمى اليوم Segura de la Sieira وهى مركز إدارى فى مديرية مرسية .

(١) العفاة هم السائلون المسترفدون .

[١٧٤-ب]

/وفى مدحها :

لا بد أن ينصر الآدابَ مشترطٌ للمجد أن ينصر العلياءَ والحسبا
نَدْبٌ لآلِ صنانيدٍ به رُتَبٌ فاتت برفعتها الأقدارَ والرتبا
تقدمتْ بهم من فضـــله قدمٌ داسوا بإخمصِها الأقمارَ والشهبا
نالوا بسعى أبى إسحاق ما طلبوا ونال عفواً أبو إسحاق ما طلبا
يا ضاحكاً للمنى من مَبسِم لَقِطَتْ من لفظه الدرُّ واشتارت به الضَّرَبا
ومفصحاً بـ « نعم » فى كل مسألة إلا لمن لامه فى الجود أو عَتَبا
كُنْ لى كما أنت فى نفسى فقد عَقَدتْ بينى وبينَك أسبابُ العلا قُرَبا
وذاك أنكَ تُهدى البِرَّ منتخَباً نحوى ، وأهدِى إليك الحمدَ منتخَبا

ومنها :

وسامع بك فى أقصى منـــازله أفاد من رفدك الأموال والنشبا
رجاك فامتلأت أرجاؤه بِدَراً ولم يشدَّ لها رَحْلا ولا قَتَبا
سوى قصائدَ والاها منقحَةً أدتْ إلى راحتيه ثروةً عجبا
صاغت له كيمياءُ الجود إذ وردتْ منها نُضاراً وكانت قبلَها كُتُبا
فأشبهتْ حالَ بنت الكرم إذ خلَصَتْ فى الدَّنِّ خمراً وكانت قبلَه عِنبا

ومن شعر أبى إسحاق يعتذر إلى بعض الرؤساء من ترك زيارته لنِقْرِس كان يلازمه :

كم رام كاتبُها زيارةَ مجدكمْ فتعُوقَ عن آماله آلامُهُ

يا ماجداً عذراً إليك فإنه لا تستقلُّ بحمله أقدامُهُ

وكتب إلىّ مجاوباً فى سنة سبع عشرة وستمائة :

أتتنى فقلت لها : مرحباً تحيةُ صدقٍ تحلُّ الحُبَا
يسير بها العهد مستحفظاً ويسرى النسيمُ بها طيِّبَا
/يهبُّ الوفاء بها بارقاً فيُلثِمُنى ثغره أشنبَا [١٧٥-أ]
تأرَّج لما سرَى موهناً يؤدى أماناتِ زهرِ الرُّبى
وقد نضَح الطلُّ أعطافَهُ فأنساك حُسناً عهودَ الصِّبا
تحمَّل عن ذى . الهوى لوعةً يَضيق عليها النوى مذهبا
وزار فأدْنى بعيدَ النوى وبعَّد بالشوق ما قرَّبا
وأهدى من الود عَرفاً بليلا عليلا يصِحُّ به من صَبا
وذكَّرنى بالسُّرَى مُخلصاً أسامر وَجداً به الكوكبا
وما كنت عنه لبعد المزار ذَهولا فأُطلَبُ مستَعتَبا
وكيف التناسى لمن قد غدا طِرازاً بكُمِّ العلا مُذْهَبا ؟
وقُرطاً على مِسمَعى ذِكرُه ومَعنًى على القلب مستعذَبا
فبلِّغْه عنى سلاماً جزيلا يسير مع القلب مستصحَبا
ولو كنتُ فى ودِّه منصفاً لما ناب عنى نسيمُ الصَّبا

١٦٦ — يحي بن أحمد بن عيسى الخزرجي ، أبو الحسين

منتماه إلى قيس بن سعد بن عبادة صريح ، وحديث نداه عند رواة علاه حسن صحيح . ووُلد بدانيَة دار آبائه وبها نشأ ، ثم أوطن شاطِبَة وأصهر بها إلى شيخنا أبي عمر بن عاتٍ . ومال إلى خدمة السلطان ، فما زال يرتقى فى معالى الأمور درجة بعد أخرى ، حتى ساد أهلَها ووليَها من قِبل محمد بن يوسف بن هُود - الملقب بالمتوكِّل — إلى أن توفى فى آخر شعبان سنة أربع وثلاثين وستمائة ؛ ووليَها بعده أبناؤه والرئاسة منهم لأبى بكر محمد .

وصارت إليه دانيَة مدةً يسيرة ، إلى أن تغلب الرومُ عليها مستهلّ ذى الحجة سنة إحدى وأربعين . ثم تملَّك الرومُ أيضاً شاطِبَة ، فى آخر صفر / من سنة أربع [١٢٥-ب] وأربعين ، بعد مهادنة ومداراة لطاغيتهم البرشلونى ، من حين تغلبه على بَلَنْسِيَّة فى صفر أيضاً ، وفى يوم الثلاثاء السابع عشر منه سنة ست وثلاثين ، وكانوا قد شارطوا على سكانها بإتاوة معلومة .

وفى وقتنا هذا وصل بعض الشاطِبيين يخبر أنه أجلاهم عنها مع أهل جهاتها — وهم ألوف من المسلمين — فتفرقوا فى البلاد ، وأوى أبو بكر هذا فى خاصته إلى حصن بمقربة منها ، وذلك فى رمضان من سنة خمس وأربعين[1] .

---

(١) كانت الناحية الشرقية أضعف نواحى الثغر بعد سقوط سرقسطة سنة ٥١٢/١١١٨ فى يد ألفونسو الأول ملك أرغون الملقب بالمحارب ، فسقطت عقب ذلك بعض حصون كورة طرطوشة وأصبح الحد الأعلى بلنسية ، وذلك بفضل استرداد المرابطين إياها ودفاعهم المجيد عنها . وبعد قيام أبى عبد الله محمد بن أبى يعقوب المنصور على عمه عبد الواحد الملقب بالمخلوع بدأ التصدع النهائى فى هذه الناحية ، وقد تماسكت بعض الشىء بفضل قيام محمد بن يوسف بن هود فى مرسية ، ولكن=

= الحرب بينه وبين المأمون الموحدى قضت على كل أمل فى الاحتفاظ بما بقى من شرق الأندلس ، وخاصة بعد وقعة طريف بينهما فى ٦ رمضان ٦٢٦/٣١ يوليو ١٢٢٩ وهى الموقعة التى مات فيها إبراهيم بن إدريس بن أبى إسحاق بن جامع الذى ترجم له ابن الأبار فيما سبق ، وكانت هذه آخر معركة كبيرة للموحدين فى شبه الجزيرة ، فقد غادرها المأمون بعدها إلى المغرب، تاركاً أمرها لولاة نواحيها . وكان يحكم بلنسية من أواسط سنة ٦٢٠/ أواسط ١٢٢٤ أمير موحدى هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن . وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة إذ ذاك يعتبر بلنسية جزءاً من كورة طليطلة ومن ثم فهى من حق مملكة قشتالة ، ولهذا فقد تصدى للهجوم عليها . وأحس أبو زيد عبد الرحمن بضعفه أمام ملك قشتالة ، فدخل فى طاعته على أن يحتفظ بالناحية فى مقابل جزية سنوية يؤديها ، ثم دخل فى طاعته أيضاً أبومحمد عبد الله المعروف بالبَيَّاسى ، وهو ابن محمد بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن بن على . وكان الخلاف شديداً بين عبد الله البياسى هذا وعبد الله بن المنصور الملقب بالعادل الذى نادى بنفسه خليفة ، فأرسل إليه أخاه أبا العلا إدريس بن المنصور ليستولى منه على بياسة فلم يستطع ، فأرسل نحوه جيشا آخر يقوده أبو سعيد عثمان بن أبى حفص ، فاستعان البياسى بالقشتاليين وهزمه ، ومد سلطانه على قرطبة ومالقة وغيرهما ، واستقر فى قرطبة وترك بياسة فانتهى أمرها بالسقوط فى أيدى القشتاليين .

وفى نفس الوقت كان خايمه الأول ملك أرغون يطمع فى بلنسية ويعتبرها منطقة امتداد مملكته ، وحصل من البابا هونوريوس الثالث على اعتراف بحقه فى ذلك ، وكان خايمه إذ ذاك شابا فى السابعة عشرة من عمره ، ولكنه كان شديد الحماس لحرب المسلمين ، يحاربهم بروح صليبية ، وكانت عاصمته سرقسطة ، وهو الذى استولى على كورة طرطوشة بما فيها من مدن سنة ٦٢٢/١٢٢٥ . ثم تقدم خايمه يحاصر بلنسية ، ومع أنه لم يسر معه إلى هذا الحصار من فرسان مملكته إلا القليل ، إلا أن أبا زيد عبد الرحمن خاف منـه واتفق معه على أن يقدم له خُمس خراج بلنسية ومرسية جزية سنوية ، وقد كان أبوزيد هذا يستطيع الثبات لملك أرغون لأن الكثير من رجال دولته كانوا منتقين عليه ، ولكن أبازيد تخاذل واستسلم . وكان هذا من أكبر أسباب قيام محمد بن يوسف ابن هود عليه فى مرسية (آخر رجب ٦٢٥/٥ يوليو ١٢٢٨) . وقد رأينا كيف تمكن ابن هود من الاستيلاء على دانية وشاطبة وإشبيلية وحاول الاستيلاء على غرناطة ففشل . وثار على أبى زيد عبد الرحمن فى بلنسية حفيد لمحمد بن سعد بن مردنيش يسمى أبا جُميل زيان بن مدافع الجذامى (سيترجم له ابن الأبار) وطرده منها ، فلجأ إلى خايمه ملك أرغون مستعيناً به (سنة ٦٢٧/ ١٢٢٩ - ١٢٣٠) ، وهكذا أصبح شرق الأندلس موضع نزاع بين أبى زيد عبد الرحمن حفيد عبد المؤمن بن على وأبى جُميل زيان حفيد محمد بن سعد بن مردنيش ومحمد بن يوسف بن هود حفيد بنى هود ، وعبد الله البياسى مقيم فى قرطبة فى حماية فرناندو الثالث . ولما كان أبوزيد =

= عبد الرحمن قد وضع نفسه فى حماية ملك قشتالة فرناندو الثالث دون أن يجد منه حماية حقيقية ، فقد أسرع ومعه كاتبه أبو عبد الله بن الأبار القضاعى (مؤلف هذا الكتاب) ولقيا خايمه الأول ملك أرغون فى قلعة أيوب فى ٣ جمادى الثانية ٦٢٧/٢٠ أبريل ١٢٢٩ واتفق معه على أن يعينه على استعادة بلنسية ومرسية بشرط أن يعطيه أبوزيد ربع غلات كل ما يستولى عليه ، وضماناً لذلك نزل له عن بلاد بِنِشْكُلَة Peniscola ومُرَلَّة Morella وكولة Culla وألبُونت Alpuente وشارقه Jerica وشُبُرْب Segorbe ، وسلمه خايمه بصفة رهن وضمان قلعتى الديموس Ademuz وقلعة حبيب Castielfabib . ثم أبحر خايمه الأول للاستيلاء على جزر البليار معتمداً على ذلك الاتفاق المؤقت الذى عقده مع أبى زيد . وفى تلك الأثناء اجتهد أبو جُميل زيان فى الإغارة على أراضى أرغون وقشتالة من قاعدته بلنسية ، فى حين ظلت دانية وشاطبة فى طاعة محمد بن يوسف بن هود ، فولى على الأولى أبا الحسين يحيى بن أحمد بن أبى الحسين عيسى الخزرجى (الذى يترجم له ابن الأبار هنا) ، وعلى الثانية أباه أحمد بن عيسى . وضعف أمر أبى زيد عبد الرحمن جداً ، فازداد خنوعاً لخايمه الأول وذهب للقائه فى تيروال فى ١٥ ربيع الثانى ٦٣٠/٣٠ يناير ١٢٣٢ ، وتنازل له عما كان قد اشترط عليه فى اتفاقه معه فى قلعة أيوب فى ٢٠ أبريل ١٢٢٩ ، وأصبح بهذا فى عداد صغار أتباعه . وزاد الأمر سوءاً ظهور محمد ابن نصر بن الأحمر ونزاعه مع ابن هود وانتزاعه من يده قرمونة وقرطبة وإشبيلية . ثم استولى أبو جُميل زيان على دانية ، وأخرج منها أبا الحسين يحيى بن أحمد بن عيسى ، فلجأ إلى أبيه فى شاطبة وظل معه حتى استردها وحكمها باسم محمد بن يوسف بن هود بعد قليل . وفى هذه الأثناء تخلى ابن الأبار عن خدمة أبى زيد عبد الرحمن ودخل فى خدمة أبى جُميل زيان بن مردنيش وعمل كاتباً له ، فندبه للذهاب إلى تونس للاستغاثة بأميرها أبى زكريا الحفصى ، ثم عاد إلى بلنسية وظل فيها إلى سقوطها .

فى هذه الظروف ، ووسط ذلك الخلاف المتصل بين قادة المسلمين فى الأندلس عقب تلاشى سلطان الموحدين فيه نهائياً تشجع خايمه الأول ملك أرغون للاستيلاء على بلنسية وما بقى للمسلمين فى شرق الأندلس ، وشجعه على ذلك رئيس طائفة الاسبتارية فى مملكته Hugo Folcalquer ونفر من فرسانه ، وكان أبو زيد عبد الرحمن قد دخل فى طاعته مناوئاً لخصمه أبى جُميل زيان بن مردنيش ، فتقدم فى سنة ٦٢٩/١٢٣٢ واستولى على أرش Ares ومُرلّة Morella ، وفى السنة التالية استولى على بُرْيانة Burriana بعد حصار عنيف ، ثم استسلمت بنشكلة Peniscola ثم قسطليون Castellon وبُربول Borriol وحصون أخرى . وبسط غاراته على نواحى شُقْر حتى البلاط Albalate . وفى سنة ٦٣٢/١٢٣٤ استولى على المعصرة Almazora ، وفى سنة ٦٣٣/١٢٣٥ حاصر قليرة Cullera ، ثم استولى على حصن منكادة Montcoda وموسرس Museros . ثم بدأ فى حصار بلنسية فى نفس السنة بمعاونة فرسان من قطلونية =

ولأبى الحسين فضائل مذكورة ، ومآثر مأثورة ، ورُزق قبولا ، ما زال به مأمولا ، من رجل يجرى على أعراقه ، فيَدَعُ الضِّنانة بأعلاقه ، ويسع الناس بأمواله كما يسعهم بحسن أخلاقه ، يلقى الوفود مرحباً ، ويلفى — كما عوّد — الجود الذى تقيَّل فيه الجدود منسحبا :

وكلما لقِىَ الدينـــارُ صاحبَهُ   فى مِلْـكِهِ افترقا من قبل يصطحبا

وأول ظهوره فى الفتنة المنبعثة فى أول سنة إحدى وعشرين . وكانت بضاعته الأدب ، مع مشاركته فى غيره ، ويغلب عليه تحبير النثر أكثر من تجويد الشعر . وهو القائل معتذراً إلى بعض الأمراء :

= وأرغون ومن جنوب فرنسا برأسهم أسقف أربونة ، وكذلك اشترك فى الحصار فرسان من نبرة وقشتالة . وفى أثناء الحصار وصل أسطول من تونس بعثه أبو زكريا الحفصى ، فلم يستطع رجاله النزول إلى البر ، واتجهوا نحو بنشكله فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها وعادوا أدراجهم . وأخيراً ، وبعد حصار طويل استسلمت بلنسية فى ١٧ صفر ٦٣٦/٣٠ سبتمبر ١٢٣٨ بعد أن اتفق مع واليها أبى جميل زيان على أن يخرج بأهله وولده ومن يريد الخروج من المسلمين إلى دانية ، فخرج نحو ٥٠ ألف مسلم . وقد ارتفع صيت خايمه الأول بهذا النصر وتسمى بالفاتح El Conquistador وأصبح من كبار ملوك إسبانيا . وفى سنة ٦٣٨/١٢٤٠ تقــدم خايمه يحاصر دانية التى لجأ إليها أبو جميل زيان ، فعرض هذا أن يتنازل له عن لَقَنْت فى مقابل إعطائه جزيرة ميورقة ، فرفض خايمه . ثم استولى على شقر سنة ٦٤٣/١٢٤٥ وفى صفر ٦٤٦/ مايو ١٢٤٨ سقطت شاطبة ، وكانت هذه هى آخر ما استولى عليه ملك أرغون ، لأنه بموجب اتفاق تم بينه وبين ملك قشتالة وقع فى المِرْسَى Almirza اعتبر بقية شرق الأندلس داخلا فى منطقة نفوذ ملك قشتالة ، وعليهم استرجاعه من المسلمين ، وكان الحد الفاصل بين ما يتبع أرغون وما يتبع قشتالة المنطقة الواقعة بين نهر شقر Jucar وشقورة Segura

انظر بالإضافة إلى المراجع السابق ذكرها :

ANDRÉS PILES IBARS, *Valencia Arabe* (Valencia, 1901) tomo I.
ANTONIO BALLESTEROS BERETTA, *op.cit.* III, 206 sqq.

إن قصَّرَتْ(١) فى خدمةٍ محسوسةٍ فيما مضى من دهرىَ المتقدمِ
فلنيَّتى مكنونُ خدمتها التى عُقِلتْ ، وإن حُجِبتْ لمن لم يفهمِ
ولدىَّ عذرٌ فى التخلفِ أوَّلاً ولكم حُلومٌ فوق جُرم المجرمِ
وإذا محا ما قد تقدَّم عفوُكمْ فولاءُ رِقِّى ثابتٌ للمنعمِ
ولَقِيتُ عند لقائكم ما أمَّلتْ نفسى ، ولكن كيف لى بمُسَلِّمٍ ؟
وضراعتى فى أن يكون قَبولُكمْ فوقى بمنزلة الرداء المُعْلِمِ

وله يخاطب أبا عبد الله بن عَيَّاش الكاتب من قصيدة :

/ مالى يدٌ بجزاء ما أسديتَهُ والكفُّ تقصُرُ عن محلِّ الكوكبِ [١٧٦-١]
إنى وقَفتُ على جنابك همتى وجعلتُ رَبعَك كعبتى ومُحَصَّبى(٢)
ولئن سألتَ عن الذى أنا طالبٌ مالى سوى نيل العلا من مطلبِ

وله :

عزاءً أبا عامرٍ إنهُ وإن كان رُزؤك رزءاً جليلا
فإن الرسول قَضى ، فاجعلنْ عَزاءك عمن يموت الرسولا
وقدْرُ التصبُّرِ قدرُ الثوابِ فصبراً تُوَفَّ الثناءَ الجميلا

وأنشدنى له ابنُ أخيه أبو الحسين عزيز بن أبى عَمرو(٣) سعد بن أحمد فى وسيم أسمر أزرق أرمد :

---

(١) فى الأصل : إن قَصَّرْتُ ، ولا يستقيم به الوزن ، وقد قومتها على هذه الصورة على اعتبار أن المراد : إن قصرت نفسى .

(٢) المحصَّب موضع رمى الجمار بمنى .

(٣) الأصل : عُمر وسعد ، وهم الناسخ فوضع ضمة على العين ، وأوهامه من هذا النوع كثيرة جداً .

عابوه أسمرَ ، ناحلا ، ذا زُرقةٍ رَمِداً ، وظنوا أن ذاك يشينهُ
جَهِلوا بأن السَّمْهَرِىَّ شبيهُهُ وخِضابُه بدمِ القلوب يزينهُ

١٦٧ — عزيز بن عبد الملك بن محمد ابن خطاب ، أبو بكر

كان له — مع شرف البيت ونباهة السلف — تقدم معلوم فى العلوم ، وتميز بالمشاركة فى المنثور والمنظوم . ووَلىَ مُرْسِيَةَ بلدَه من قِبل ابن هود المتوكل — وهو الثائر بموضع منه يعرف بالصخور(١) — فى آخر رجب سنة خمس وعشرين وستمائة . ودخل مُرْسِيَـةَ بمواطأة قاضيها حينئذ أبى الحسن على بن محمد القَسْطَلِّىّ — قتيله بعدُ — وقَبض على واليها ، وذلك فى أول يوم من شهر رمضان من السنة المذكورة ، ومنها ملَك بلادَ الأندلس بأسرها إلا بَلَنْسِيَّة ، إلى أن هلك بقصبة ألمَرِيَّة ليلة الخميس السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة خمس

---

(١) « الصخور » ويكتبها ابن الخطيب فى أعمال الأعلام « الصخيرات » و« الصخيرة » (صفحات ٢٦٠ و٢٦٢ و٢٧٨ و٢٧٩) . ويبدو أن هناك أكثر من موضع بهذا الاسم فى نفس الناحية من مرسية ، لأن ابن الخطيب يقول فى سياق كلامه عن يوسف بن هلال صهر ابن مردنيش (ص ٢٦٢) : « وتملك الصخرة والصخيرة » . وقد اختصها ابن عبد المنعم الحميرى بمادة طويلة تدور على ظهور محمد بن يوسف بن هود ، وهى من أوسع ما لدينا عن أصله وأولياته (رقم ١٠٩ ص ١١٨) . وقد حقق جسپار ريميرو هذا الموضع فى كتابه ***Hist. de Murcia Musulmana*** (٢٦٩ — ٢٧٠) فقال إنه معقل — لا زالت أطلاله باقية — يطل على الحصن الذى يعرف اليوم باسم **Ricote** (رقوطة) وهو يشرف على الضفة الشرقية لنهر شقورة من ارتفاع ٢٩٣ متراً ، ويقع على نحو ٣٠ كيلومتراً شمال غربى مرسية .

وانظر الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص ١٤٤ ، هامش ١ .

وثلاثين . وكان أمره عجبا ، لولا أنه أورث عطبا ، وأعقب شَجَبا[1] . وفى ولاية أبى بكر هذه ، قدم عليه أبو بكر محمد بن أحمد بن الصابونى الإشبيلى[2] شاعر وقته ــ وذلك سنة اثنتين وثلاثين ــ فامتدحه بقصيد فريد أوله :

أهلا بطيفِ خيالٍ منك منسابِ أدال عَتْبك عندى حين إعتابى

[١٧٦-ب] / يقول فيه :

لادَرَّ دَرُّ ليالى البُعدِ من زمنٍ يطول فيه اجتراع الصَّبِّ للصَّابِ
نابتْ صروفٌ نبا بى عندَها وطنى قرعتُ نابى لها من رحلىَ النابى
جوّابةَ الأرض لا ألوى على سكنٍ [تمضى][3] الركاب وتجرى بى لتَجْوابى
فى الفُلْك أو فى ظهور العِيس منتقلاً فى مذهلِ اللُّب بين الموج واللاب[4]
لا أستكنُّ بكانونٍ لقِرَّتِهِ ولستُ آبَى من التهجير فى آبِ

(١) شجَب يشجُب شُجوبا ، وشجِب يشجَب شَجَبا فهوشاجب : حزن أوهلك . والشجَب عموماً العطب والهلاك (اللسان : ٢/٤٦٥) .

(٢) أبو بكر محمد بن أحمد بن الصابونى الإشبيلى ، ويلقب أيضاً بالصدفى : من أكبر شعراء الأندلس خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ، ظهر فى عصر الموحدين واعتنى به المأمون الموحدى (أبو العلا إدريس بن أبى يوسف يعقوب) فظهر أمره . وقد اشتهر بالتجويد فى الموشحات ، ورحل فى آخر أيامه إلى مصرفات فى الإسكندرية خاملا سنة ٦٠٤ كما يقول ابن شاكر فى الوفيات (القاهرة ١٢٨٣) ج ٢ ص ٢٠٩ . وواضح أن هذا التاريخ خطأ ، لأن المأمون حكم من ٦٢٤ إلى ٦٢٩ ، وربما كانت صحة السنة ٦٣٤ . انظر طرفاً من موشحاته فى أزهار الرياض للمقرى (انظر الفهرس) وشيئاً من شعره فى نفح الطيب (٢/٣٤٨ – ٣٤٩ من طبعة أوربا) ، وانظر المغرب لابن سعيد : ١/٢٦٣ وتعليق الدكتور شوقى ضيف ، ونيكل ، الشعر الأندلسى ، ص ٢٤٧ ، والرايات ، ص ٢١ من النص العربى وص ١٤٨ من الترجمة الإسبانية .

(٣) بياض فى الأصل ، ووضع دوزى هنا (ص ٢٥٠) : تشجى .

(٤) اللاب جمع لوبة وهى الحجارة السوداء فى أعلى الجبل ، والكناية هنا عن الجبال ، أى بين الأمواج والجبال (اللسان : ٢/٢٤٢) .

فكن بإدلاجٍ تأويبى على ثقةٍ من أو بقى ـ شجوِ أعداء ـ لأحباب[1]
ويامُعَنَّى بِرَيبِ الدهر يرهَبُــهُ لا تبتئس بعدُ من إرهاقِ إرهاب
إن أغريَتْ بك أبكارُ الخطوب فلُذْ منها بمجد أبى بكر بنِ خطاب
بالسيِّد الأوحد النَّدْب الذى كَمُلتْ به العـــلا بين أخلاق وأحساب
يلقى به سائلاً جودٍ ومعـــرفةٍ طَبًّا بتلقيح أحـــوال وألباب
بحرٌ من العلم يَسقى مَن يُلِمُّ بهِ ويرسل السُّحْبَ للنائى بتَسْكاب
وعنـــد ما راعتِ الدنيا إيالتُه [... ... ...][2]
نام الأنام سكوناً بالمُنى وهفَتْ بالمال هيبـــةُ غَمْرِ الجودِ وهّاب

ومنه :

لولا اعتناء عزيزٍ ما عزتُ على دهرى وقــد بزَّ امّا عزَّ أسْلابى
تقلّبتْ حركاتُ الدهرِ بى غِيَرًا حتى كأنىَ منها حرفُ إعراب

ثم انفرد بتدبير مُرْسِيَة بعد وفاة ابن هُود ، وطَرد عنها أخاه علىّ بن يوسف — الملقب بعضد الدولة — ودعا لنفسه ، وبويع له فى الرابع من المحرم سنة ست وثلاثين . وتغلب عليه أبو جُمَيل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى فى يوم الجمعة الخامس عشر من شهر رمضان من السنة ، واعتقله قليلا ثم قتله صبراً على أثر ذلك ليلة الاثنين السادس / والعشرين من الشهر .

[١٧٧-١] وكان — فى أول أمره — أبعد الناس مما صار إليه وتورط فيه : يؤذِّن فى

---

(١) ورد الشطر الأول فى الأصل هكذا : « فكن بإدلاجى وتأويبى على ثقة » ولا يستقيم وزنه هكذا فقومته ، أما الشطر الثانى فقد قرأه دوزى (ص ٢٥٠) : « من أوبقى سحر عدى لأحبابى » ، ولا أدرى من أين أتى بهذا .

(٢) بياض فى الأصل .

المساجد ويحيك الخلفاء[1] ، ويصحب المتعبدين ، والرئاسةُ تَهيب به لاحتيازه إياها من طرفَيْه ، فمالبث أن أجابها مقبلا عليها ، ومهرولا إليها ، ليكون فيها حتفُه ، والله غالب على أمره .

وأخوالُه بنو عيسى الخولانيّون فتيان الصباح ، وفرسان الكفاح . وأما آباؤه فكفاهم مجداً تالدًا ، وذكراً خالداً ، ما حكى ابنُ حَيّان فى تاريخه الكبير — وقرأته بخط القاضى أبى القاسم بن حُبَيْش — أن أبا عمر أحمد بن خطاب — وهو المعروف بالخازن — ضَيَّف محمدَ بن أبى عامر ورجالَ عسكره فى اجتيازه إلى برشلونة ، فجاء فى الاقتدار على ذلك بما صار حديثاً بعده . وكان فى نهاية من الثراء والسَّرْو والسماحة ، مخصوصاً بصداقة ابن شُهَيد .

قال : وكان ولدُه أبو الأَصْبَغ موسى يحتذى حذوَه فى الدَّهْقَنة ، وهو الذى ضَيَّف أيضاً طَرفة الخادم مولى عبد الملك بن أبى عامر ورجالَه فى اجتيازه به غازياً : قومٌ أعانهم على الحسب الثراء ، فلهم فى الفضل مقاومُ مذكورة . وهم موالٍ لبنى مروان — من وَلد عبد الجبار ، الذى يُنسب إليه البابُ المسدودُ من أبواب قرطبة — وخَلَفُهم اليوم يدفعون ذلك ، ويزعمون أنهم عرب من الأَزْد ، تموَّلُوا للقوم إيثاراً للدنيا ؛ فالله أعلم بذلك .

وحَكى ابنُ حَيّان أيضاً فى « الدولة العامرية » ، وذكر غزوة المنصور محمد ابن أبى عامر إلى برشلونة — فى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ، وهى الثالثة عشرين من غزواته — فجعل طريقه على شرقىِّ الأندلس ، وسلك طريق إلْبيرَة إلى بَسْطَة إلى تُدْمِير ، فتضيَّف بمدينة مُرْسِيَة قاعدة تُدْمِير المعروفَ بابن خَطّاب — ولم يُسَمِّه ، وكان ذا نعمة ضخمة وصنيعة واسعة ، وهمة علية — فمكث عنده ثلاثة عشر يوماً ، يقوم به وبجنده وبخدمته جميعاً على مقاديرهم ،

(١) وردت هاتان الكلمتان فى الهامش بخط مخالف كأنها إكمال للكلام . وقد قرأهما دوزى : ويغتذى الخلفاء .

وُينفذ إلى باب كلٍّ واحد منهم كلَّ يوم وظيفةً من الدقيق واللحم والفاكهة والقَضيم[(١)] . وصار جميعُم فى كفالة ابن خطاب ما بين الوزير والشُّرَطِىّ ، فلم ينفق أحد منهم لنفسه طول هذه المدة مثقال ذرة . وكان يجدد للمنصور كل يوم نوعاً من [١٧٧-ب] الأطعمة والفواكه لا يشبه / الذى قبله . نعم ، وزعموا أن ظروفه وأوعيته كانت تختلف بحسب اختلاف أنواعه . إلى أن رحل ابنُ أبى عامر متعجباً بما تبرع به ، مستغرباً لمذهبه فى التحدث بنعمة ربه ، بعد أن أثنى عليه ، وحَطَّه جملةً من خَراج ضياعه ، وأمر له بكُساً ولجماعة بنى أمية .

قال : وسأل المنصورُ ابنَ خطابٍ أن يعمل له بقرطبة خبيصاً استجاده من حَلوائه ، فأنفذ إليه جاريةً اتخذته فى قصره ، فقاربَ التُدْميرِىَّ ولم تكمل صفاته ، فحكم للهواء[(٢)] فى تجويده .

وكان المنصورُ — فيما بعدُ — يصف نعمةَ ابن خطاب وسَرْوَه ويقول : « هى أحق نعمة بالحفظ ، وأولاها بالزيادة ، لسلامتها من الغَمْط ، وبُعدها من الجحود ، وقيامها بفرض التزكية » ، ويوعز إلى عُماله بتُدْمِير بحفظ أسبابه وتحرِّى موافقته . والأخبارُ عنه فى ذلك طويلة .

وقال أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبى الفَيّاض — ويعرف بابن الغَشّاء — فى تاريخه المترجَم بـ « العِبَر » وذكر أيضاً غزوةَ المنصور إلى برشلونة : خرج إليها من قرطبة يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة خلت لذى الحجة من سنة أربع وسبعين وثلاثمائة ، وهو الخامس من مايُه[(٣)] ، وأخذ على إلْبِيرَة إلى بَسْطَة إلى

(١) القضيم : شعير الدابة .

(٢) الأصل : فحكم للهوى فى تجويده ، ولا معنى له ، فجعلتها كما هى فى المتن . والمراد أن السبب فى امتياز الخبيص الذى أكله فى تدمير على الذى صنع له فى قرطبة هو هواء تدمير .

(٣) الأصل : الخامس من مائة ، وهو وهم ، والصحيح : من ماُيه ، وهو الشهر المعروف . وحساب ابن أبى الفياض هنا قريب من الصحيح ، لأن ١٢ ذى الحجة ٣٧٤ يقابل ٧ مايو ٩٨٥ .

لُورْقَة إلى مُرْسِيَة ، فأقام بها ثلاثاً وعشرين يوماً فى ضيافة أحمد بن دُحَيْم (١) ابن خطاب وابنِه أبى الأصبغ موسى بن أحمد ، لم ينفق أحد من عسكره لنفسه درهماً واحداً فما فوقه ، من الوزير إلى الشُّرَطىّ . وكان يجدد كل يوم للمنصور نوعاً من الطعام والفواكه ، بآلات مختلفة كاختلاف الأطعمة والفواكه ، حتى صار خبراً فى حديث المنصور ، ومَفخراً عنده يباهى به . وبلغ أمرُه إلى أن صنع له ماء الحمام من ماء الورد ، وأبلغ فى الإفراط فى ضيافته ، فكان المنصور يصفه — فيما بعد — ويقول : « نعمة ابن خطاب أحق نعمة بالحفظ ، وأحرَمُها على التغيير ، وأولاها بالزيادة والتثمير ، لسلامتها وبُعدها من الجحود ، وقيامها بفرض التزكية » ، وكان يوصى عماله على تُدْمير بحفظ ابن خطاب وتحرِّى موافقتِه فى كل ما يرغبه .

ومن شعر أبى بكر فى الطريقة الصوفية :

[١٧٨ - ا]

لى حبيب أراه فى كل آنِ ... هو أُنسى وبغيتى وجَنانى
رام قومٌ أن يحجبونىَ عنهُ ... فاختفى عن عيونهم وأتانى
فأنا والحبيب متصلانِ ... وبظَنِّ الوشاة منفصلان
فإذا ما سكِرتُ لم أر غيرى ... وإذا ما صحوتُ فالحب ثان
جلّ سُكرى عن أن تراه عيونٌ ... حُجبتْ بالحروف دون المعانى

وهذا ينحو إلى قول الآخر :

أقصِرُوا عن لومكم يا لَوَمَهْ ... وذَروا القلبَ ومن قد تيَّمَهْ
إن مَن أمرض قلبى حبُّهُ ... قادر إن شاء يوماً رحمَهْ
لى حبيبٌ يتجلّى سحراً ... ولأهل الودِّ بعد العتمهْ

(١) الأصل : ابن دحم ، والصحيح ما أثبتناه .

خالقُ العرش مع الفرشِ فقــد   فهم المقصــود من قد فهمهْ

وما أحسن قول أبى العباس بن العريف الزاهد فى هذا المنحى :

فاح النَّدِىُّ بمنطق فتنازعــوا   أبإسْحِــلٍ أسْتاكُ أم بأراكِ

هيهاتَ عهدى بالسِّواك وإنمـا   شفةُ الحبيب جعلتُها مِســواكى

ويظن من سمع الحديث بأنهُ   حقٌّ .. بلَى ومدبِّرِ الأفلاك

رؤيا رأيتُ وإنَّ مَن أبصرتُهُ   لمنزه عن مهنــة الإدراكِ(١)

١٦٨ ـــ محمد بن على بن احلى ، أبو عبد الله

تأمَّر بلُورْقة متنقلا إلى الرئاسة من الدراسة . وكان يُجتَمع إليه فى علم الكلام ، ويؤخذ عنه ، وله فيه تواليف . و بيتُه فى المولَّدين تليدُ النباهة ـــ و بذلك استعان على مرامه ـــ إلى ما لأهل بلده من بأس شديد ، وكثرة عديد .

[١٧٨-ب] ولما أمكن أهلُ مُرْسِيَة منها الرومَ فى شوال / سنة أربعين وستمائة ، ضَلَّل رأيَهم ، وأبدى مخالفتَهم ، وجعل يجادلهم بلسانه ، و يجالدهم بسنانه ، فدعا ذلك إلى قصْده ، والعَيْث فى جهته ، حتى اضطر إلى المسالمة ، وعلى ذلك بقى إلى أن توفى فى أول سنة خمس وأربعين(٢) . وله أشعار بمقصده شاهدة ، وعلى معتقَدِه متواردة ، منها قوله :

---

(١) أورد ابن الخطيب فى أعمال الأعلام (ص ٢٧٤ – ٢٧٥) مادة طيبة عن أبى بكر عزيز بن أبى مروان بن خطاب ، فيها زيادات نافعة .

(٢) لم أجد فى المراجع ما يعين على التأكد من صحة قراءة اسم صاحب هذه الترجمة : ابن أحلى . وحوادث مرسية فى أيامها الإسلامية الأخيرة غامضة ، حتى التواريخ متناقضة ، رغم =

= ما بذله جسپار ريميرو فى كتابه الذى أشرنا إليه مراراً عن تاريخ مرسية الإسلامية ، وقد ظهرت بعد هذا الكتاب أصول عربية كثيرة تعيننا على إلقاء شيء من الضوء على ما وقع فى تلك الكورة العظيمة — كورة تدمير — قبل خروجها من دار الإسلام . وفيما يلى ملخص لما استطعت الوصول إليـــه :

ا — كان آخر كبار ولاة مرسية من الموحدين أبا عبد الله محمد بن أبى يعقوب المنصور الذى قام على عمه عبد الواحد بن أبى يعقوب يوسف ونادى بنفسه خليفة وتلقب بالعادل ، وترك فى مرسية السيد أبا العباس بن أبى موسى بن عبد المؤمن ، وهو الذى قام عليه محمد بن يوسف بن هود فى الصخيرات على مقربة من مرسية ، ثم دخل ابن هود مرسية فى رجب ٦٢٥/يونيو ١٢٢٧ وأصبحت مركز أعماله .

ب — وفى ٢٤ جمادى الأولى ٦٣٥/١٤ يناير ١٢٣٨ مات محمد بن يوسف بن هود قتيلا على يد رجل من رجاله هو عبد الله الرميمى الذى كان قد ولاه على المرية ، قتله بسبب المنافسة على امرأة : احتال عليه حتى دخل عنده بما عرف عنه من سلامة النية ، ثم أدخل عليه الرميمى رجالا خنقوه . وكان محمد بن يوسف بن هود — على شجاعته وحسن نيته — سيئ الحظ فى رجاله ، لم يخلص له أحد منهم (راجع البيان المغرب : ٣٨٩/٤) .

ج — وبعد موته بايع أهل مرسية ابنه أبا بكر وتلقب بالواثق بالله ، ولم يكن له شيء من ملكات أبيه ، فلم يحكم إلا سبعة أشهر ، وعزله أهل بلنسية وولوا قاضيهم وفقيههم عزيز بن خطاب الذى سبق أن ترجم له ابن الأبار . وكانت المبايعة له فى ٤ محرم ٦٣٦ وتلقب بضياء السنة .

د — ولم يستقم الأمر لعزيز بن خطاب ، فقام عليه الناس واستدعوا صاحب بلنسية أبا جميل زيان بن مردنيش ، فدخلها فى ١٦ رمضان سنة ٦٣٦ ودعا فيها للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب تونس . وكان أبو بكر بن محمد بن يوسف بن هود عندما أخرج من مرسية لجأ إلى القشتاليين فأعطوه حصناً مجاوراً لمرسية وزودوه بجند ، فمضى يغاور البلد « فكان أشد ضرراً من الروم على أهل مرسية » (البيان : ٤٣٦/٤) .

هـ — وحوالى سنة ٦٤٠/١٢٤٢ ساءت أحوال مرسية بسبب مغاورة القشتاليين لجهاتها . وكان محمد بن نصر بن الأحمر قد دخل فى طاعة فرناندو الثالث وحالفه على ألا يتعرض لجنوده وأن يمده بجند من عنده حتى فى حالة حصار بلد مسلم ، وقد اشترك ابن نصر فى الحملة التى استولت على إشبيلية وأخرجتها من دار الإسلام . وانتهى الأمر بأهل مرسية إلى أن عاهدوا القشتاليين على الدخول فى طاعتهم نظير جزية يدفعونها ، وأسلموا لهم قصبة البلد ، وهذا هو ما احتج عليه ابن أحلى المترجم له هنا . ثم ثار المرسيون على القشتاليين المستقرين فى القصبة ، وحاصروهم وأخرجوهم من بلدهم ، وكتبوا إلى محمد بن نصر يدخلون فى طاعته ، فأرسل إليهم أبا محمد بن أشقيلولة والياً ، فهاجمه القشتاليون وضيقوا عليه ، فخرج هارباً تاركاً المرسيين دون حماية ، =

المرء يعــــلَم بالضرورة نفسَهُ والثابتُ الموجودُ حيٌّ واحــــدُ
والخلق بين حقيقةٍ ومقـــدَّرٍ تقضى عليه بالافتقار شـــواهدُ
فانظر بعقلك إن بدا لك شرح ذا ك فأنت حَبْرٌ مستقيمٌ راشـــدُ

وأنشدنى له بعض أصحابنا :

تقطعتِ الأسبابُ ثم بقيتَ لى فهل أشتكى يوماً من الذل والفقرِ ؟
لئن لم يكن منك البعاد فإننى سيَغبِطُنى أهلُ الملامة فى أمرى
فلو عرفوا منك الذى قد عرفتُهُ للاح لهم تفريطُهم ، وبدا عذرى
سواءٌ ـ لعَمْرى ـ ذمُّهم وثناؤهمْ إذا كنتَ تدرى من عبيدك ماتدرى

وله :

خليلىَّ قد ضاقت علىَّ مذاهـــبى وكفـكفتُ نفسى عن جميع مطالبى
وضاقت جفون العين عن عبَراتها لأمرٍ يراه الخُـبْرُ ضربةَ لازبِ

= فتزعمهم رجل من كبارهم تسميه المراجع اللاتينية Abenhodeil أى ابن هذيل . ولم يستطع الاستمرار ، ويبدو أنه كان يخاف من بنى الأحمر ، فاتصل برجال فرناندو الثالث وعلى رأسهم پلاى پيريث كوريا Pelay Pérez Correa وتعاهد معه على إسلام البلد مع ضمان السلامة فى المال والنفس ، ودُخلت مرسية فى ٩ ذى القعدة ٦٤٣/ آخر مايو ١٢٤٣ وأسرع فرناندو الثالث ليتسلم البلد ، وتم ذلك خلال السنة التالية ٦٤٢/١٢٤٤ .

و ـ وقد أساء فرناندو الثالث ورجاله أشد الإساءة إلى هذا النفر من المرسيين الذين استبسلوا فى الدفاع عن بلدهم . ويقول ابن عذارى إنهم خرجوا من مرسية واستقروا فى موضع يسمى الرَّشَّاقة (لم أستطع تحقيقه) ، ثم طردهم القشتاليون منه سنة ٦٧٣/١٢٨٤ – ١٢٨٥ وفى الطريق هاجموهم وأنزلوا بهم مذبحة عند ورْكَل Huercal Overa فى الطريق إلى غرناطة وأسروا نساءهم وقتلوا أطفالهم بعد أن قضوا على الرجال جميعاً .

انظر بالإضافة إلى الصفحات آنفة الذكر من البيان المغرب ، الترجمة الإسبانية بقلم أويثى ميراندا ، ج ٢ ص ٢٨٧ وبايستيروس ، تاريخ إسبانيا ، ج ٣ ص ١١ – ١٣ . ويلاحظ أن ابن عذارى يخطىء هنا فى التواريخ (ج ٤) .

وشِبتُ ولم أبلغ ثلاثين حِجَّــــةً ... لُحجةِ جبـــارٍ على الخلق غالبِ
دعانى وشـجوى والأسى وبلابلى ... فلا تَعْذِلانى فى الدموع السواكب
أألتذُّ بالدنيـــــا وأرنو لحسنها ... ولستُ إليها بعــــد موتى بآيب
لعَمْرى لقد أصبحتُ سكرانَ حائرًا ... جديرًا بما عندى ، ولستُ بشارب

١٦٩ – محمد بن سُبَيع بن يوسف بن سعد بن محمد بن سعد الجُذَامى ، أبو عبد الله

وَلِىَ دانية لابن عمه أبى جُمَيل زَيّان بن مُدافِع بن يوسف أمير بَلَنْسِيَّة ، وانتزى عليه / فيها ، ثم هرب وأسلمها[1] . وكان قد انتزى قبل ذلك بمُرْسِيَة ، [١٧٩-١] فقُيِّد واحتُمل إلى مرّاكُش ، وحبس بها مدة . وله مشاركة فى الأدب ومطالعة لغيره ، ومن شعره :

ولما رأيتُ القُربَ دونَ مناله ... عوائقُ دنيا تُلحِق الحرَّ بالتُّرب
توجهت للمحراب أبغى وجاهــــةً ... لعلى بها أرقى إلى رُتبة القرب

(١) كانت دانية من البلاد التى دخلت فى طاعة محمد بن يوسف بن هود ، فلما توالت عليه الهزائم – وخاصة من ناحية أبى عبد الله بن نصر بن الأحمر ، فقد أوقع به كما يقول ابن الخطيب ثلاث مرات أخراهن سنة ٦٣٣ أو ٦٣٤ ، ثم هزيمة المأمون أبى العلا إدريس الموحدى إياه سنة ٦٣٥ ، وفقده معظم كبار العواصم التى كانت فى يده مثل إشبيلية وقرطبة وقرمونة – خرج عليه أبو جميل زيان بن مردنيش واستقل ببلنسية ومد سلطانه على دانية وولى عليها ابن عمه محمد بن سبيع ابن يوسف بن مردنيش الجذامى المذكور هنا ، وأخرج منها والى ابن هود أبا الحسين يحيى بن أحمد ابن عيسى الخزرجى الذى سبقت الترجمة له ، ثم تمكن أبو الحسين من العودة إلى دانية وإخراج محمد بن سبيع ، فمضى إلى تونس حيث توفى فى ٢٨ ربيع الأول ٦٥٣/٦ يونيو ١٢٥٥ .

وتوفى بحضرة تونس — كلأها الله — فى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وستمائة .

١٧٠ — سعيد بن حَكَم بن عمر بن حَكَم القرشى ، أبو عثمان

أصله من طَبِيرَة(١) بغرب الأندلس ، وبها وُلد . وكان بإفريقية لما خاف من والى إشبيلية ، ثم قدم على مُيورْقَة قبل أن يدخلها الرومُ عنوةً فى منتصف صفر سنة سبع وعشرين وستمائة بيسير ، فقُدِّم منها عاملا على مِنُورْقَة ، إلى أن تغلب على قاضيها أبى عبد الله محمد بن أحمد بن هشام — وقد صارت إليه رئاستُها — فى قصة طويلة ، وانفرد بضبطها من ثانى عيد الفطر سنة إحدى وثلاثين وستمائة إلى وقتنا هذا . وأخرج ابنَ هشام وابنَه ، ثم استرجعهما ، فكان ذلك آخر العهد بهما .

---

(١) طبيرة : لم يزد ياقوت فى التعريف بها على قوله : مدينة بالأندلس (٦/٢٩) وذكرها الإدريسى (ص ١٦٩) ، واختلط أمرها على ابن عبد المنعم الحميرى فلم يعرف هل هى طلبيرة أم طبيرة (الروض رقم ١١٣ ص ١٢٣) . والمراد مدينة Taveiro فى مديرية الدويرُه ، وتابعة لقُلُمْرِيَة Coimbra من الناحية الكنسية ، وهى على بعد كيلومترين من مصب نهر مُنْدِيق Mondego على البحر قرب حدود إسبانيا مع البرتغال ، وتبعد ٨ كيلومترات عن قلمرية .

انظر : دائرة المعارف الإسبانية (إسباسا كالپ) مجلد ٥٩/٩٤٧ .

وهناك طبيرة أخرى فى الأندلس ، وتكتب Tavira فى البرتغال أيضاً ، مركز إدارى فى مديرية الغرب Algarve وهى على ساحل البحر على نحو ٦٠ كيلو متراً غربى فارو (شنتمرية الغرب) . ولا أدرى من أيهما كانت أولية سعيد بن حكم المترجم له هنا .

ودُعى بـ « الرئيس » ، وشارط الرومَ على متاركته ، وبتَّ مساكنته ، بإتاوة لم يُخِلَّ بحملها إليهم فى كل سنة . فامتد مَهَلُه ، وحُمدت سيرتُه ، وكثر الانتفاع به فى جزيرته ، حتى يُمِّمَت منتجَعاً ، وصارت للمنقطع به مَفزعاً . وأما العُناة فكأنما فكّهم عليه دَين ، هـــذا ولا وَرِق بنواحيه يتسع فيه ولا عَين (١) .

(١) أورد ابن عبد المنعم الحميرى فى مادة ميورقة (رقم ١٨٢ ص ١٨٨ وما بعدها) تفصيلا طيباً لبعض أحداث الجزائر الشرقية فى آخر عصرها الإسلامى . وقد ضاعت هذه الجزائر كما ضاع الأندلس على إثر التفكك العام لدولة الموحدين فى الأندلس بعد ثورة أبى عبد الله محمد ابن يعقوب المنصور الملقب بالعادل على عمه عبد الواحد الملقب بالمخلوع . وقد فصّل ضياع هذه الجزر ألبارو كمپانير إى فْوِرْتيس فى كتاب جامع لتاريخ الجزائر الشرقية فى حكم المسلمين :

ALVARO CAMPANER Y FUERTES, *Bosquejo histórico de la dominación islamita en las Islas Baleares* (Palma, 1888).

وتناول الكلام عنها فى عصر المرابطين كوديرا :

FRANCISCO CODERA, *Almorâvides*, p. 167 - 178.

وتكلم عنها فى العصر الموحدى وفصل الحديث عن دولة بنى غانية فيها ألفريد بل :

ALFRED BEL, *Les Banou Ghanya* (Paris, 1903).

وخاصة الفصل التاسع (ص ١١٧ وما يليها) حيث يروى نهاية دولة بنى غانية واستيلاء الناصر الموحدى عليها سنة ٦٠٠/١٢٠٣ — ١٢٠٤ وقتله آخر ولاتها من ذلك البيت — عبد الله بن غانية — وإقامته الفقيه عبد الله بن طاع الله الكومى ثم استبدا له بالسيد أبى زيد بن أبى يعقوب يوسف.

وأحسن ما لدينا عن جغرافية هذه الجزائر أيام العرب جمعه زايبولد فى مادة بليار **Baleares** فى د.م.إ (١/٦٣٠ — ٦٤٠) . وأورد ابن عبد المنعم الحميرى مادة لكل من ميورقة ومنورقة ويابسة ، وهى الجزائر الثلاث الكبرى فى ذلك الأرخبيل . وقد سقطت الجزائر الشرقية فى يد خايمه الأول الملقب بالفاتح ملك أرغون بعد حرب طويلة مريرة ، إذ أنه رغم تفكك القوة الإسلامية كان هناك من القوة لدى سكانها من المسلمين ما مكنهم من الصمود للعدوان . وقد سقطت ميورقة فى ١٤ صفر ٦٢١/ أول يناير ١٢٣٠ ، أما منورقة فظلت فى يد أبى عثمان سعيد بن حكم المترجم له ، ثم ابنه أبى عمر حكم بن سعيد حتى سنة ٦٨٦/١٢٨٧ وقد اختص ابن الخطيب كلا منهما بمادة طيبة (ص ٢٧٥ — ٢٧٧) ، وفى نهاية المادة الخاصة بأبى عمر حكم يقص علينا كيف كانت نهايته المحزنة غرقاً فى البحر مع أهله جميعاً ، وهو فى طريقه إلى إفريقية .

وكثير من الأدباء استرقّهم بإعتاقهم ، فنوهت بصنيعه أمداحُهم ، وآخرون ركبوا إليه ثَبَج البحر ، ففازت بجميل اصطناعه قِداحُهم . وبالجملة فالجود المحض صناعته ، والأدب الغض بضاعته . ومن شعره :

أما الهوى فسجيتى إضمارُهُ لولا الدموعُ لما فشت أسرارُهُ
ما عيل بالكتمان صبرى إنما عَظُمَ الغرامُ فضاق عنه قرارُهُ
[١٧٩ـب] /ينهلُّ دمعى ما تُشَبُّ جوانحى والغصن يَنْدَى إذ تأجَّج نارُهُ
جمحت جيادُ الحب بى حتى أتت مضمارَ قيسٍ والردى مضمارُهُ
لله غصن ناعم قلْبى له مثوى غدا بُرداً عليه أوارُهُ
أظمأتُه بالعتْب ثم سقيتهُ دمعى فأصبح والرضا إثمارُهُ

وله :

نَقْط المداد على بُرود الكاتبِ كالخال فى خد الفتاة الكاعبِ
لا شىء يحسُن بالمداد كثوبه إن المدادَ لَوَشْىُ ثوبِ الكاتبِ

وله :

إنى لأعجب من ملوكٍ أصبحوا وهمُ موالٍ أعبُدُ الشهواتِ
الأطيبان مَرادُهم ومُرادُهم : أرب الفروج وإربة اللهَواتِ
لو وُفِّقوا وقَفوا اجتماعَهمُ على نفْى الهوى فضلا عن الخلَوات
مرتْ سنون وهم مِلاكٌ للورى يا ليتهم مروا مع السنوات
ما نحن إلا فى فلاة للردى فلتَحذَر الشهواتُ فى الفلوات

باب فى الذين ما عثرت على أشعارهم فاقتصرت على نكت من أخبارهم

المائة الأولى من الهجرة

دخل إفريقية من أمراء الصحابة رضى الله عنهم(1) :

١٧١ — عبد الله بن سعد بن أبى سرح

القرشى العامرى ، وهو افتتحها فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة سبع وعشرين .

---

(١) سبق أن ترجم ابن الأبار لعمرو بن العاص أول من دخل المغرب فاتحاً من العرب . وهو هنا يترجم لبقية من اشترك فى فتوح المغرب من الصحابة والتابعين ممن لم يؤثر عنهم شعر . وهو يكتفى هنا بفقرات ينقلها عن « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لعبد الرحمن بن عبد الحكم ، ولهذا فسأكتفى هنا بالمراجعة على ذلك الأصل . أما فيما يتصل بتفاصيل الفتح فقد اختصصناها ببحث طويل مفرد : « فتح العرب للمغرب » (القاهرة ١٩٤٨) ، وقد أعددنا له طبعة ثانية منقحة مزيدة استوفينا فيها كل ما ظهر من الأصول والأبحاث من تاريخ نشر الطبعة الأولى من هذا البحث إلى الآن .

١٧٢ – ومعاوية بن حُدَيج السَّكُونى

وقيل فى نسبه غير ذلك(١) . غزا إفريقية ثلاث غزوات : أولاها سنة أربع وثلاثين قبل قتل عثمان ، وأعطى عثمانُ مروانَ الخمسَ فى تلك الغزوة ، ولا يعرفها كثير من الناس ، والثانية سنة أربعين ، والثالثة سنة خمسين(٢) ؛/ كذا حكى [١٨٠–ا] أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى تاريخه عن يزيد بن أبى حبيب(٣) .

وحكى أيضاً أن معاوية هذا خرج بعد عبد الله بن سعد إلى المغرب سنة أربع وثلاثين ومعه فى جيشه عبدُ الملك بن مروان وجماعة من المهاجرين والأنصار ،

= وطبعة فتوح ابن عبد الحكم التى نرجع إليها هى التى نشرها ألبير جاتو ALBERT GATEAU وعنوانها : *Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne* (2 *ème* édition) *Bibliothèque Arabe - Française*, vol II Alger, 1947.

وهى طبعة جيدة أتى الناشر فيها بالنص العربى وفى مقابله ترجمة فرنسية ، وأضاف إلى ذلك تعليقات كبيرة الفائدة .

(١) الذى قيل فى نسبه غير ذلك هو أنه من تُجيب ، ولا خلاف بين القولين ، لأن السَّكُون فرع من بنى أشرس بن كندة ، ولهم فرع ثان هم السَّكاسك ، قال ابن حزم فى الجمهرة : «أمهما تجيب بنت ثوبان بن سُليم بن رُهَاء بن مذحج ، نسبوا إليها . منهم : معاوية بن حديج بن جفنة ابن قُتيرة بن حارثة بن عبد شمس بن معاوية بن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشرس بن شبيب بن السكون ، له صحبة ، يكنى أبا نُعيم » (الجمهرة ، ص ٤٠٣) . وانظر الاستيعاب لابن عبد البر ، ترجمة رقم ٨٠٦٢ ، ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب لأبى العباس أحمد القلقشندى (بتحقيق إبراهيم الإبيارى ، القاهرة ١٩٥٩) ص ١٨٥ .

(٢) روى ابن عبد الحكم هذا الخبر بنصه تقريباً بعد الخبر الذى سيورده ابن الأبار فيمايلى . (فتوح ، ٥٨ – ٦٠) .

(٣) الخبر عند ابن عبد الحكم (ص ٥٨) مروى عن عبد الملك بن مَسْلمة عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب .

فافتتح قصوراً وغنم غنائم عظيمة واتخذ قيرواناً فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر . و بعث فى هذه الغزاة عبد الملك بن مروان إلى جَلُولاَ[1] فافتتحها فى خبر غريب[2] تقدم ذكره .

وغيرُ ابن عبد الحكم يقول إن معاوية بن حُدَيج غزا إفريقية سنة خمس وأربعين ، وأن الخمسَ الذى أعطاه عثمانُ مروانَ هو خُمس ما غنم ابن أبى سَرْح ، وكان عظيماً وهو أحد الأسباب المَنْعِيَّة على عثمان رضى الله عنه .

١٧٣ — وعقبة بن نافع الفهرى

أغزاه معاويةُ بنُ أبى سفيان سنة ست وأربعين ، فخرج إلى إفريقية فى عشرة آلاف من المسلمين فاختط مدينة القيروان ، وأسلف آثاراً كريمة ، وكان من خيار الولاة والأمراء ، مستجابَ الدعوة . ثم صُرِف ، وأعيد ثانية فى سنة اثنتين وستين فقتلته البربر ومن معه بمقربة من تَهُوذَة[3] فى سنة ثلاث وستين ، وقبره هناك يُتبرك به إلى اليوم .

---

(١) جلولا أوجلولاء مدينة صغيرة كانت على ٢٤ ميلا من القيروان . اسمها معرب عن اللاتينية Culuiis أو Couloulis (انظر عنها كتابنا فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٣ هامش ١) .

(٢) تقدم ذكره عند ذكر عبد الملك بن مروان . والخبر وارد عند ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ .

(٣) تهوده (بالدال أو الذال) : مدينة رومانية قديمة لم يبق منها إلى الآن إلا أطلالها . وهى على أربعة كيلومترات تقريباً شمال واحة سيدى عقبة الحالية فى جمهورية الجزائر.

١٧٤ – وبُسْر بن أرطاة بن أبي أرطاة القرشي العامري(١)

غزا طرابلس مع عمرو بن العاصي فبعثه إلى وَدّان(٢) فافتتحها وفرض على أهلها ثلاثمائة وستين رأساً . ثم خرج مع عقبة بن نافع غازيا وافتتح قلعة من القيروان على ثلاثة أيام فعرفت بقلعة بُسْر إلى اليوم . وقد قيل إن الذى بعث بُسْراً إلى هذه القلعة هو موسى بن نُصير ، والأول أوضح وأصح .

ومن أمراء التابعين :

١٧٥ – أبو المهاجر دينار ، مولى الأنصار

قال ابنُ عبد الحكم : عُزل عقبة – يعنى ابن نافع – فى سنة إحدى وستين ، عزَله مَسْلمة بن مخلد الأنصارى من قِبل معاوية – يعنى ابن أبى سفيان – وهو أول مَن جُمعت له مصر والمغرب ، وولى أبا المهاجر ديناراً ،

(١) ورد اسمه فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ١٦١) : بشر بن أرطاة بن أبى أرطاة . واسم أبى أرطاة عُمَيْر بن عويمر بن عمر بن الحُلَيْس بن سيار بن مُعَيْص ، وهو أحد قواد معاوية وأكابر أصحابه . ثم عاد ابن حزم فذكره فى ص ٣١٥ بُسْر بن أبى أرطاة ، والمشهور بسر .

(٢) ودان مدينة فى ليبيا الحالية تقع على مسيرة ١٢ يوماً جنوبى سُرت (سيرتا) . انظر عنها حتى القرن السادس الهجرى : البكرى ، ص ٢٩ – ٣٠ . وودان اليوم مدينة صغيرة زاهرة فى ولاية طرابلس فى المملكة الليبية ، وتقع فى منخفض الجفرة على بعد ٣٨٠ كيلو مترا جنوبى صرت .

مولى الأنصار ، وأوصاه أن يعزل عقبة أحسن العزل ، فخالفه ، فسجنه وأوقَرَه حديداً حتى أتاه كتاب الخليفة بتخلية سبيله و إشخاصه إليه ، فخرج عقبةُ حتى أتى « قصر الماء » / فصلى ثم دعا وقال : اللهم لا تُمِتْنى حتى تمكِّنّى من [١٨٠-ب] أبى المهاجر دينار بنِ أمٍّ دينار ، فبلغ ذلك أبا المهاجر ، فلم يزل خائفاً منذ بلغته دعوته .

ولما قَدِم عقبةُ مصرَ ركب إليه مَسلمةُ بن مُخَلَّد ، فأقسم له بالله لقد خالفه أبو المهاجر فيما صنع ، « ولقد أوصيته بك خاصة »(١) .

ثم قدم عقبةُ على معاوية فقال له : « فتحتُ البلادَ ، و بنيتُ المنازلَ ، ومسجدَ الجماعة(٢) ، ثم أرسلتَ عبدَ الأنصار فأساء عزلى ! » فاعتذر إليه معاوية ، وقال : « قد عرفتَ مكان مَسْلَمَة بن مخلَّد من الإمام المظلوم(٣) ، وتقديمَه إياه ، وقيامَه بدمه ، و بذلَ مهجته ، وقد رددتك على عملك » .

قال : و يقال إن الذى قدم عليه عقبةُ هو يزيدُ بن معاوية بعد موت أبيه ، فرده والياً على إفريقية ؛ وذلك أصح ، لأن معاوية توفى سنة ستين(٤) .

فخرج عقبةُ سريعاً لحَنَقِه على أبى المهاجر ، حتى قدم إفريقية فأوثق أبا المهاجر وأساء عزلَه(٥) .

---

(١) إلى هنا يتابع ابنُ الأبار عبدَ الرحمن بن عبد الحكم حرفياً (ص ٦٨) ثم أسقط بعد ذلك فقرة كبيرة فيها تعليل مسلمة لعزله عقبة وتوليته أبا المهاجر ، وفيها طرف من أعمال أبى المهاجر فى إفريقية .

(٢) أسقط ابن الأبار هنا من كلام عقبة : ودانت لى (ص ٦٨) .

(٣) يريد عثمان بن عفان .

(٤) هذا كلام ابن عبد الحكم .

(٥) هذا أيضاً كلام ابن عبد الحكم مع شىء من الاختصار.

وفى تاريخ أبى إسحاق الرقيق : أن أبا المهاجر لما قدم إفريقية كره أن ينزل الموضع الذى اختطه عقبةُ بن نافع ، فمضى حتى خلَّفه بميلين مما يلى طريق تونس ، فنزل واختط بها مدينةً أراد أن يكون له ذِكرُها ، ويُفسد عملَ عقبة . وأمر الناس أن يخربوا القيروان ويعمروا مدينته .

وذكر ابنُ عبد الحكم أيضاً نحو هذا ، وقال : كان الناس يغزون إفريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط ، فأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار ، أقام بها الشتاء والصيف ، واتخذها منزلا[1] .

وعن غيره : أن معاوية تراخى فى صرف عُقبة بن نافع — كما وعده — إلى عمله حتى توفى وولىَ ابنُه يزيد بن معاوية ، فلما علم حالَ عقبة غضب وقال : « أدركْها قبل أن تهلَكَ وتفسد »[2] ، فولاه إفريقية وقطعها عن مَسْلَمة بن مُخَلَّد ، وأقرَّه على مصر ، وذلك سنة اثنتين وستين . فرحل عقبةُ من الشام حتى قدم إفريقيةَ ، وأوثق أبا المهاجر فى الحديد ، وأمر بخراب مدينته ورد الناس إلى القَيْرَوَان .

وكان عقبةُ فى ولايته الأولى لم يعجبه القَيْرَوَانُ الذى بناه معاوية بن حُدَيج قبلَه ، فركب والناسُ معه ، ويقال إنه كان فى ثمانية عشر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسائرُهم من التابعين ، فدعا اللهَ وأصحابُه يؤمِّنون عليه / وقد [١٨١ - ا]
أتى موضعَ القَيْرَوَان اليومَ ، وكان وادياً كثير الشجر ، تأوى إليه الوحوشُ والسباع والهوام فنادى بأعلى صوته : « يا أهل الوادى ! ارتحلوا فإنا نازلون » . نادى بذلك ثلاثةَ أيام ، وقيل ثلاثَ مرات ، فلم يبق من السباع شىء ولا الوحوش

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨ .

(٢) فى رياض النفوس لأبى بكر المالكى : « أدركوها قبل أن يخربها » (ص ٢٢) .

ولا الهوام إلا خرج ، وأمر الناس بالخطط[١] ، وركز رمحه وقال : « هـذا قَيْرَوَانُـكم » .

ولما قبض عقبةُ على أبي المهاجر غزا إلى السوس وهو معه في وِثاقه ، ثم انصرف إلى إفريقية ، وقد جال في بلاد البربر وقتلهم كيف شاء ، فلما دنا من القَيْرَوَان[٢] أمر أصحابه فافترقوا ، وبقى في قلة ، فأخذ على مكان يُقال له تَهُودة ، فعرض لهم كُسيلُ[٣] في جمع كبير من الروم والبربر ، فاقتتلوا فقُتل عقبةُ ومن

(١) رواية ابن عبد الحكم : « فأمر الناس بالتنقية والخطط ، ونقل الناسَ من الموضع الذى كان معاوية بن حديج نزله إلى مكان القيروان اليوم ، وركز رمحه وقال : هذا قيروانكم » (ص ٦٦) . وقد ناقشنا هذه الأسطورة بالتفصيل فى كتابنا « فتح العرب للمغرب » ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢) ابن الأبار يتابع هنا ابن عبد الحكم مع تصرف كبير يخل بالنص ويفسد نسق الأخبار . انظر فتوح ابن عبد الحكم ، ص ٦٨ — ٧٠ ، وكتابنا « فتح العرب للمغرب » ص ١٣٥ وما بعدها .

(٣) كذا ورد الاسم هنا ، والمشهور كَسِيلة . وقد تركت الاسم كما كتبه ابن الأبار فهى قراءة طيبة للإسم (راجع : فتح العرب للمغرب ، ص ١٧١ هامش ٣) .

وكسيلة زعيم من زعماء البربر كان شيخاً لقبيلة أَوْرَبَة من قبائل المغرب الأوسط ، واسمه الكامل : كسيلة بن لمزم — أولَمْزَم أو أغز — الأوربى . وأول ما نسمع عنه حوالى سنة ٥٠ هـ . عندما تقدم أبو المهاجر دينار نحو المغرب الأوسط فيما يلى بنزرت غرباً . وكانت مضارب أوربة فى المنطقة المحيطة بتلمسان وجنوبها . ويقال إن القبيلة كانت نصرانية ، وكذلك رئيسها ، ولكن ذلك غير ثابت . فلما سمع كسيلة باقتراب أبى المهاجر سار نحوه ، ووقعت بينهما حرب لم يطل أمدها ، لأن أبا المهاجر عرف كيف يكسب كسيلة إلى جانبه ، فدخل فى الإسلام ، وارتبط الرجلان برباط صداقة كانت خير معين على الاستمرار فى الفتح . وظل الأمر كذلك إلى أن عُزل دينار أبو المهاجر وعاد عقبة بن نافع ، فقبض على دينار وأوثقه فى الحديد ، وكذلك فعل بكسيلة سنة ٦١ هـ . وقام بغزوته الكبيرة التى بلغ فيها المحيط الأطلسى ، وقد تمكن كسيلة من الاتصال بقومه ودبر معهم الإيقاع بعقبة ، وهرب إليهم فى أثناء ذلك ، وكان من أكبر المدبرين لمقتل عقبة فى تهودة سنة ٦٣ هـ . ثم سار كسيلة واحتل القيروان ، وظل كذلك حتى سار زهير بن قيس —

معه ، وقُتل أبو المهاجر في الحديد ، وقيل إن عقبة لما غشيه البربر نزل فركع ركعتين ، وبلغه أن أبا المهاجر تمثل بقول أبي مِحْجَن الثَّقَفِي :

كفى حَزَناً أن تُقرعَ الخيلُ بالقنا[1] وأُتركَ مشـــدوداً علىّ وثاقيا
إذا قمتُ عنّاني الحديدُ وأُغلقتْ مَصارعُ من دوني تُصِمُّ المناديا

فأمر بإطلاقه وقال له : « الْحَق بالمسلمين فقم بأمورهم ، وأنا أغتنم الشهادة » ، فقال له أبو المهاجر : « وأنا أغتنم ما اغتنمت » . فكسر كل واحد منهما جفن[2] نفسه ، وكسر المسلمون أغماد سيوفهم ، وأمرهم عقبةُ أن ينزلوا ولا يركبوا ، فقاتلوا قتالا شديداً حتى قُتِلوا ، ولم يفلت منهم أحد ، وأُسِر محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خَلَف القيسي[3] ونفر معهما ففاداهم ابنُ مصاد صاحب قفصة[4] ، وبعث بهم إلى زهير بن قيس .

= البلوي بحملته على إفريقية سنة ٦٩ ، فانسحب كسيلة إلى مدينة ممس — أو ممش — وهي حصن بيزنطي كان يسمى Mamma . وعند هذه المدينة دارت المعركة الفاصلة بين العرب وكسيلة ، وقد انهزم فيها وقتل وتمهد الطريق لدخول المغرب الأوسط في رحاب الدولة الإسلامية . وكان لهذه المعركة نتائج سياسية [illegible] .

انظر : فتح العرب للمغرب ، ص ١٧٥ — ٢٢٥ .

(١) الأصل : * كفى حزناً أن تمزع الخيل بالقنا * وقد صوبت لفظ «تمزع» من رواية المالكي في « رياض النفوس » ج ١ ص ٢٧ ، و« معالم الإيمان » للدباغ ، ج ١ ص ٤٩ .

والبيتان لأبي محجن عبد الله بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف الثقفي ، وقد أورد أبو الفرج الأصبهاني القصيدة كاملة في الأغاني ج ٢١ ص ١٣٩ ، ولكن البيت الأول جاء محرفاً غير مستقيم الوزن هناك .

(٢) الجفن : غمد السيف .

(٣) لم أجد اسم يزيد بن خلف القيسي هذا إلا عند ابن الأبار .

(٤) ورد الاسم على هذه الصورة أيضاً عند ابن خلدون : ١٨٦/٤ ، وأبي المحاسن : النجوم الزاهرة : ١٥٩/١٠ .

وقال ابنُ عبد الحكم : أن ابن الكاهنة البربرى خرج على أثر عُقبة فى توجهه إلى السُّوس يغوِّر المياه ، كلما رحل عقبة من منهل دفنه ابنُ الكاهنة(١) . فلما انتهى عقبة إلى البحر أقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره ، ثم قال : « اللهم إنى أشهدك ألا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لُجزت » . وانصرف راجعاً والمياهِ قد غُوِّرت ، فتعاونت عليه البربر ، فلم يزل يقاتل وأبو المهاجر معه فى الحديد ، فلما استحر الأمر أمر بفتح الحديد عنه ، فأبى أبو المهاجر وقال : « ألقىَ الله فى حديدى ! » فقتلا ومن معهما .

١٧٦ — /وزُهَير بن قيس البَلَوى [١٨١-ب]

كان عُقبة بن نافع لما خرج إلى(٢) السُّوس استخلف على القيروان عمر بن على القرشى وزُهَير بن قيس البَلَوى ، فخالفه رجل من العجم فى ثلاثين ألفاً إلى عُمر وزهير وهما فى ستة آلاف ، فهزمه الله(٣) .

(١) لا ندرى على وجه التحقيق من المراد بابن الكاهنة هذا . وقد رجحت فى بحثى عن فتح العرب للمغرب أن المراد به كسيلة (انظر ص ١٨٥ وما بعدها) ، وليس معنى ذلك أنه ابنها فعلا ، بل كناية عنه . وقد انفرد ابن عبد الحكم بهذا الخبر الهام الذى ألقى ضوءاً على ما كان يدبَّر لعقبة دون أن يدرى . وفى الترجمة الفرنسية لنص ابن عبد الحكم تساءل ألبير جاتو فى تعليق رقم ٨٨ ص ١٥٩ عما إذا كان كسيلة ابن الكاهنة حقاً . وقد اعتمدت فى القول بأن المراد بابن الكاهنة هو كسيلة على ما ذكره ابن عبد الحكم نفسه فى خبر ذكره قبل ذلك : « فأخذ – يعنى عقبة – على مكان يقال له تهوذه فعرض له كسيلة بن لـمْزَم فى جمع كثير من الروم والبربر» (ص ٧٠) . وقد أكد ذلك عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم (الذى نشر ليڤى پروڤنسال له نصاً عن فتح العرب للمغرب مع مقدمة قمنا بترجمتها فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤) بقوله فى فقرة ١١ ص ٢٢٠ : « فلما قرُب من تهوذه وجد كسيلة البرانسى قد جمع أكثر من خمسين ألف مقاتل من البرابر» .

(٢) الأصل : «من» ، وهو وهم من الناسخ .

(٣) هذا الخبر منقول عن ابن عبد الحكم (ص ٧٢) ولم يذكره أحد غيره ، ولم نجد فى =

ولما قُتل عقبة زحف ابنُ الكاهنة[(١)] إلى القيروان يريد عُمر وزهير فقاتلاه ، فهُزم ابنُ الكاهنة وأصحابُه ، ثم خرجا إلى مصر بالجيش لاجتماع ملأ البربر[(٢)] ، وأقام ضعفاء أصحابهما ومَن كان خرج معهما من موالى[(٣)] إفريقية بإطْرابُلْس .

ويقال إن عبد العزيز بن مروان لما وَلىَ مصرَ كتب إلى زُهير بن قيس — وهو يومئذ بِبَرْقة — يأمره بغزو إفريقية ، فخرج فى جمع كثير ، فلما دنا من قَمُّونية[(٤)] ، وبها عسكر كَسِيل[(٥)] ، عبأ زهير لقتاله ، فقُتل كَسِيل ومن معه ، وانصرف زهير إلى بَرْقة وذلك سنة أربع وستين[(٦)] .

= المراجع اليونانية أو اللاتينية ما يدل على أن البيزنطيين أو أى طائفة أخرى من الإفرنج حاولت الهجوم على إفريقية أو القيروان أثناء غياب عقبة . ويبدو أن الخبر كله غير صحيح ، إذ أنه يستبعد أن يهاجم إفريقية أو القيروان جيش من ٣٠ ألفاً دون أن تفصل أمره المراجع . وقد ترجم ألبير جاتو عبارة « رجل من العجم » بقوله : **un étranger** ، وهو تخلص ذكى من صعوبة تحديد المراد بهذا الرجل من العجم . انظر تعليقه رقم ٨٣ ص ١٥٩ .

(١) من الواضح أن المراد بابن الكاهنة هنا هو كسيلة .

(٢) المراد : لانضمام معظم بربر إفريقية إلى كسيلة .

(٣) العبارة منقولة بنصها عن ابن عبد الحكم (ص ٧٤) ، وهذه أول مرة يرد فيها ذكر موال للعرب من أهل إفريقية .

(٤) فى الأصل « قُونية » نقلا عن ابن عبد الحكم (ص ٧٦) وهو خطأ ، والصواب قمونية ، وتكتب أحياناً قَمُّودَة وهى الصورة الأصح ، لأن الاسم معرب عن **Caput - Vada** بلدة كانت قائمة إلى جنوب سوسة الحالية التى كانت تعرف أيام الرومان باسم **Hadrumentum** ، وقد أطلق العرب اسم قمودة (وتحريفه قمونية) على الإقليم الممتد من جنوبى سوسة إلى إقليم قَسْطِيلِيَة ، هكذا حدده ابن حوقل ، وأضاف التيجانى أن إقليم قمودة يصل إلى البحر ، وذكر أنه يضم مدناً كثيرة مثل قاصرة ومذكورة ونَقَاوس وجَمُّونِس الصابون .

انظر : فتح العرب للمغرب ، ص ١٤١ .

(٥) هنا أيضاً ورد الاسم على هذه الصورة .

(٦) كان اللقاء عند مَمْس التى ذكرناها ، ورياض النفوس للمالكى أكثر المراجع تفصيلا هنا (انظر : ج ١ ص ٣٠) وغالبية المؤرخين على أن الموقعة كانت سنة ٦٥ هـ .

ويقال : بل حسان بن النعمان كان الذى وجّه زهير بن قيس[1] .

وذكر أبو إسحاق الرقيق أن زهيراً هذا أراد الانصراف إلى مصر بعد قتل عقبة ، وقد رعب هو وأصحابه ، فقيل له : أهزيمة من المغرب إلى مصر ؟ فعزم على القتال وقام خطيبا فقال : « يامعشر المسلمين ، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة إن شاء الله ، وقد مَنَّ الله عليهم بالشهادة ، وهذه أبواب الجنة مفتَّحة ، فاسلكوا سبيل أصحابكم أو يفتح الله لكم دون ذلك » . فخالفه أبو شُجَاع حَنَش الصنعانى ، ورحل واتبعه الناس ، فلما رأى ذلك زهير نهض فى أثره ، وملَك البربرُ القَيْرَوَانَ .

وأقام زهير بنواحى برقة مرابطاً ، فوجه إليه عبدُ الملك بن مروان بغزو البربر واستنقاذ القيروان ، وأمدَّه . فالتقوا فقُتل كَسِيل . ودخل زُهير القيروان ، ثم زهد فى المُلك — وكان من رؤساء العابدين — وعاد إلى برقة فصادف الرومَ قد أغاروا عليها ، فقاتلهم فاستُشهد هو وأصحابُه .

١٧٧ — وحسان بن النعمان الغسانى

كان بمصر لما قُتل زُهير بن قيس ، فأمره عبدُ الملك بغزو إفريقية ، فخرج فى أربعين ألفاً ، ولم يدخل أحد من الأمراء قبله إفريقية بمثل هذا الجيش ، فضيق على قَرْطاجَنّة إلى أن تغلب عليها ، ودخلها عنوة فهدمها ، وغزا الكاهنة[2] ملكة

(١) هذا القول منقول عن ابن عبد الحكم ، ولم يروه غيره .

(٢) انظر عن الكاهنة وأقوال المؤرخين فيها وحقيقة أمرها وماكان بينها وبين المسلمين « فتح العرب للمغرب » ص ٢٤٢ وما بعدها .

[١٨٢-ا] البربر فهزمته ، ثم عاد إلى غزوها فقتلها ، ثم بعث برأسها / إلى عبد الملك ، وعزله عبدُ العزيز بن مروان وأخذ كل ما كان معه[١].

وذكر ابنُ عبد الحكم أن حسان رجع من مصر بعد قدومه على عبد الملك شاكياً بأخيه عبد العزيز لتقديمه على برقة غ[لامه][٢] تليداً وخلف ثقله بمصر ، فقدم على عبد الم[لك][٣] وهو مريض، ثم لم يلبث حسان أن توفى على إثر ذلك .

١٧٨ – وموسى بن نصير

قدم المغرب أميراً عليه فى سنة ثمان وسبعين . وقال الليث : أُمِّر موسى بنُ نصير على إفريقية سنة تسع وسبعين ، وكان والياً من قِبل عبد العزيز بن مروان ، فافتتح عامةَ المغرب ، وبعث بغنائمه إلى عبد العزيز ، فأنهاها إلى عبد الملك ، فسكَّن ذلك منه بعض ما كان يجد على موسى[٤] .

ثم توفى عبد الملك سنة ست وثمانين ، واستخلف الوليدَ بن عبد الملك ، فتواترت فتوح المغرب عليه من قِبل موسى ، فعظمت منزلتُه عنده واشتد عجبه[٥] به .

---

(١) أوجز ابن الأبار أعمال حسان بن النعمان هنا إيجازاً مخلا .
انظر : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٣١ وما بعدها .
(٢) التكملة من فتوح ابن عبد الحكم (ص ٨٢ – ٨٦) والخبر هناك أكثر تفصيلا .
(٣) التكملة أيضاً من ابن عبد الحكم ، ص ٨٤ .
(٤) ذكر ابن عبد لحكم بعض التفصيل عما كان بين عبد الملك بن مروان وموسى بن نصير ، ص ٨٤ .

(٥) العبارة واردة عند ابن عبد الحكم (ص ٨٦) فى نهاية كلامه عن أعمال موسى بن نصير فى المغرب ، ولم يذكر ابن عبد الحكم منها شيئاً ذا بال . انظر عن أعمال موسى هذه : فتح العرب=

ووجّه موسى ابنَه مروان إلى طَنْجَة مرابطاً على ساحلها ، فانصرف وخلّف على جيشه طارقَ بن زياد — وكانوا ألفاً وسبعمائة — فكان ذلك سبب فتح الأندلس[١] : دخلها طارق بمداخلة صاحب طَنْجَة من الروم ، وزحف يريد قُرْطُبَة فتلقّته جنودُها فهزمهم[٢] . وبلغ ذلك لُذْرِيق ملكَ الروم ، فزحف إليه من طُلَيْطِلَة ، فالتقوا على نهر لَكَّة[٣] من كورة شُذُونة[٤] ، يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين . واتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعده — تتمة ثمانية أيام — ثم هزم الله المشركين ، فقُتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامُهم ملبِّسةً لتلك الأرض دهراً طويلا .

= المغرب ، ص ٢٧١ وما بعدها . وأوسع مراجعنا عن هذه الأعمال ما يذكره ابن عذارى في البيان المغرب : ١/ ٣٩ — ٤٦ وعبيد الله بن صالح بن عبد الحليم ، انظر : « نص جديد عن فتح العرب للمغرب » بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ (سنة ١٩٥٤) ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(١) فيما يلى يوجز ابن الأبار فتح الأندلس ، وقد فصّلت أمره فى كتابى « فجر الأندلس » ولهذا فلن أعلق شيئاً على هذه الفقرة ، ويستطيع القارئ أن يرجع إلى الكتاب المذكور إذا شاء مزيداً من التعريف بالوقائع وأعلام الأشخاص والأماكن .

(٢) يعتمد ابن الأبار هنا على ابن عبد الحكم (ص ٩٢ وما بعدها) وأخباره عن فتح الأندلس ضعيفة ، ومنها خبر ذلك القتال الذى جرى بين طارق وجند قرطبة ، ثم مسيره إلى أن بلغها ، ولا يؤيد ابن عبد الحكم فى هذا الرأى أحد من مؤرخى الأندلس ، والمعروف أن طارقاً وهو فى الطريق إلى طليطلة بعث مغيثاً الرومى فى نفر من الجند فاستولوا على قرطبة .

(٣) الأصل لكة بالتاء المربوطة ، والصحيح بالهاء ، وهو تعريب **Lago** أى البحيرة ، والمراد البحيرة التى تسمى اليوم لا خاندا (الخندق) التى ينبع منها نهر البرباط ، وبين هذه البحيرة وشاطئ البحر جرت المعركة التى فتحت للمسلمين أبواب الأندلس .

(٤) كذا وردت فى الأصل بالدال ، والشائع بالذال ، ولو أن الصيغة الأولى أقرب إلى الاسم الأصلى **Sidona** ، وقد احتفظ لنا صاحب « التعليق المنتقى من فرحة الأنفس » لمحمد ابن أيوب بن غالب الأندلسى (مجلة معهد المخطوطات العربية ، سنة ١٩٥٦) ص ٢٥ بمعظم كلام الرازى عن كورة شذونة . وقد ذكر فيها أن شريش قاعدتها ، ولهذا سميت الكورة فى الترجمتين البرتغالية والإسبانية كورة شريش **Distrito de Jerez**

انظر : صفة الأندلس للرازى ، أرقام ٦٤ و٦٥ و٦٦ ص ٩٦ .

وخفى أثر لُذْرِيق ، فلا يُدرى أين صَقَع ولا ما فعل ، إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب الذى كان عليه — وسرجه من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد — وقد ساخت قوائمه فى حمأة وقع فيها ، وغرق العلج فثبت أحد خفيه فى الطين فأخذ ، وخفى الآخر ، وغاب شخصه فما وُجد حيًّا ولا ميتاً .

ثم تمادى طارق على افتتاح البلاد ، ودخل طُلَيْطِلَة . وكتب إلى موسى بن نُصير يُعْلمه ، فكتب إليه ألا يجاوز قرطبة حتى يقدم عليه . ثم خرج إلى الأندلس فى رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على القيروان ابنَه عبد الله ابن موسى — وكان أسَنَّ ولده — ففتح الله فتحاً لا كِفاءَ له ، وكتب إلى الوليد : « إنها ليست بالفتوح ولكنه الحشر ! »

[١٨٢-ب] ثم خرج بغنائمه ، واستخلف على الأندلس / ابنَه عبد العزيز ، فلما قدم إفريقية كتب إليه الوليدُ بالخروج إليه ، فخرج واستخلف على إفريقية ابنه عبدَ الله ، وسار بتلك الغنائم والهدايا حتى قدم مصر . ومرض الوليد ، فكان يكتب إلى موسى يستعجله ، و يكتب إليه سليمانُ بن عبد الملك بالمكث والمقام ، ليموت الوليد و يصير ما مع موسى إليه . فقدم على الوليد وهو مريض مرضه الذى مات منه ، فنَكَبَه سليمانُ لأول ولايته ، وأغرمه مائةَ ألف دينار ، وأخذ ما كان له ، وأقامه للشمس ، وقُتل ابنُه عبد العزيز ، و بُعث برأسه إلى سليمان — وذلك فى سنة سبع وتسعين — فأراه أباه وقال له : « أتعرف هذا ؟ » قال : « نعم ، أعلمه صوّاماً قوّاماً ، فعليه لعنة الله إن كان الذى قتله خيراً منه »

ومكث أهل الأندلس بعد ذلك لا يجمعهم وال ، وكانوا أمّروا عند قتله أيوبَ[1] ابن أخت موسى بن نصير ؛ وعزم سليمانُ على الحج ، فأخرج موسى معه على قتَب ، فتوفى فى طريقه سنة سبع وتسعين .

(١) هو أيوب بن حبيب اللخمى ، ولى الأندلس من رجب إلى ذى الحجة سنة ٩٧/مارس – أغسطس ٧١٦ .

١٧٩ — ومحمد بن يزيد ، مولى قريش

ولاه سليمانُ بنُ عبد الملك إفريقيـــةَ بمشورة رجاء بن حَيْوَة سنة ست وتسعين ، فلم يزل عليها إلى أن توفى سليمان فى صفر سنة تسع وتسعين[1] .

١٨٠ — وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بنى مخزوم

ولاه عمرُ بن عبد العزيز إفريقية . وكان حسن السيرة ، من خير الولاة ، لم يبق من البربر أحد إلا أسلم على يديه . وأقام والياً إلى أن توفى عُمر بدَيْر سمعان يومَ الجمعة لعشر بقين من رجب سنة إحدى ومائة .

وهؤلاء كلهم أهل بلاغة وبيان ، مع ما كانوا عليه من جلالة شان :

خطباء حين يقول قائلهمْ بيض الوجـــوه مصاقع لُسُنُ

ولبُسْر بن أرطاة منهم فيما أحسِب شعر . وما أحسن قول القاضى أحمد بن أبى دؤاد : « كل عربى يقدر على قول الشعر » ؛ حكى ذلك أبو بكر الصُّولىّ ، فلعل لهم منه ما أعيا البحثُ عنه .

* * *

(١) انظر عن أعماله فى إفريقية : البيان المغرب : ١/٤٧ . وقد ورد اسمه فى الأصل : محمد بن زيد : وهو خطأ .

المائة الثانية

١٨١ – يزيد بن أبي مسلم

مولى الحجاج وكاتبه ، وقيل : كان أخاه من الرضاعة . ولاه يزيد بن عبد [١٨٢–١] الملك فى سنة إحدى ومائة إفريقيَّةَ ، فقدمها فى سنه اثنتين بعدها ، /وفيها كان مقتله على يد حرسه .

١٨٢ – عبيد الله بن الحَبْحاب مولى عُقْبَة بن الحَجّاج السَّلُولِىّ القَيْسِىّ

كان والياً على مصر لهشام بن عبد الملك ، فكتب إليه يأمره بالمصير إلى إفريقية ، وذلك فى شهر ربيع الأول – وقيل فى شهر ربيع الآخر – سنة ست عشرة ومائة ، فاستخلف ابنَه القاسمَ على مصر ، واستعمل ابنَه إسماعيل على السُّوس ، واستعمل أيضاً على الأندلس عقبةَ بنَ الحجاج مولاه[1] ، وعزل عبدَ الملك بن قَطَن الفِهْرى .

---

(١) ذكر ابن عذارى فى البيان المغرب : ١/٥٢ – ٥٣ كيف ولّى عبيد الله بن الحبحاب مولاه عقبة بن الحجاج السلولى الأندلس ، وهو خبر لطيف يدل على رجولة ابن الحبحاب ووفائه .

ويقال : كان على الأندلس يومئذ عَنْبَسَة بن سُحَيْم الكلبى ، فهلك عقبة بالأندلس ، فرد عبيدُ الله عليها عبدَ الملك بنَ قَطَن[1] .

وذكر عبدُ الله بن وهب الفقيه أن عبيد الله بن الحبحاب كانت مصر من العريش فى عمله وإفريقيةُ والأندلسُ وما بين ذلك .

وقرأت فى « الكتاب المُعرِب عن أخبار المغرِب » أن عُبيد الله كان كاتباً بليغاً حافظاً لأيام العرب ووقائعها وأخبارها ، ذا بلاغة فى لسانه وقلمه ، وكان يقول الشعر . قال مؤلِّفُه : وكنت سمعت له أبياتاً لم أحفظ منها وقت تأليفنا هذا الكتاب شيئاً فنثبته . وهو الذى بنى المسجد الجامع بتونس ودار الصناعة بها .

وروى عبدُ الله بنُ أبى حسان اليَحْصُبِىّ عن أبيه ـ وكان بليغاً فصيحاً ـ قال : سمعت عبيدَ الله بن الحَبْحَاب يوماً يُملِ[2] رسالةً ويَفُكُّ اسماً من دفتر العطاء ، ويأمر بحاجات فى ناحية أخرى ، ويحكم فى خَلَل[3] ذلك بين رجلين متنازعين .

وقال ابنُ غانم القاضى[4] : كان عبيدُ الله بن الحَبْحَاب رجلا من قَيْس

---

(١) كان عبد الملك بن قطن الفهرى عامل الأندلس منذ مقتل عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فى وقعة بلاط الشهداء فى رمضان ١١٤/ أكتوبر ٧٣٢ إلى أن عزله عبيد الله بن الحبحاب وولى عقبة بن الحجاج السلولى فى شوال ١١٦/نوفمبر ٧٣٤ ، وظل عقبة واليا حتى صفر ١٢٣/ يناير ٧٤١ ، فعاد عبد الملك بن قطن إلى ولايتها .

(٢) أى : يملى .

(٣) أى : فى خلال ذلك .

(٤) أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن شرحبيل بن ثَوْبان الرُّعَيْنى قاضى إفريقية . ولد سنة ١٢٨ وتوفى سنة ١٩٠ وتولى القضاء سنة ١٧١ . انظر عنه « رياض النفوس » لأبى بكر المالكى رقم ٨٧ ج ١ ص ١٤٣ — ١٥٥ ، و« معالم الإيمان » للدباغ ، ج ١ ص ٢١٥ ، و« ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك » (مخطوط دار الكتب بالقاهرة) ج ١ ورقة ١٤٣ ا .

ثم من بنى سَلول ، مولًى وليس بالصريح . فوَلىَ من إفريقة إلى الخضراء[١] .
وكان أوّله كاتباً ، ثم تناهت به الحال إلى أن صار إلى المنزلة التى كان بها ،
فتحدث ذات يوم بالقيروان فقال : « إنما كنتُ كُوَيْتِباً ، ثم صرت كاتباً ، ثم
صرت أميراً ، ثم أنا اليوم أمير كبير ، والحمد لله » .

وقفل عبيدُ الله إلى هشام فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين بعد
انقضاض البربر عليه وقتلهم عامله بطَنْجَة [عُمر بن عبد الله المُرادى][٢] وانصرف
إلى المشرق ، فيُذكر أنه تولى الخراجَ وكتب فيه لمروان بن محمد بن مروان آخر
ملوك بنى أمية بدمشق ، وقُتل عبيدُ الله يومَ قُتل ابنُ هُبَيرة بواسِط ، وقيل بل
عاش خاملا فى أيام العباسية .

١٨٣ — منصور بن عبد الله
ابن يزيد الحميرى

ذكره أبو على الحسين بن أبى سعيد عبدُ الرحمن بن عبيد القيروانى المعروف
بالوكيل فى الكتاب المعروف / « [بالمُعْرِب][٣] عن أخبار المغرب » من تأليفه [١٨٣–ب]
فى طبقة أولِى السلطان تالياً لعبيد الله بن الحَبْحَاب . وهو جد محمد المهدى بن أبى

(١) التحديد هنا غير دقيق ، لأن الخضراء هى الجزيرة الخضراء ، ولم تقتصر ولاية عبيد الله بن الحبحاب على المغرب فقط بل شملت مصر أيضاً بعض الوقت ، وشملت الأندلس كله . ولا أذكر فى الولاة من شملت ولايته هذه البلاد كلها إلا ابن الحبحاب . وربما كانت صحتها طنجة الخضراء .

(٢) انظر عن تفاصيل ذلك ابن عذارى : البيان المغرب : ١/٥١ – ٥٢ . وقد أكملت الاسم الناقص منه .

(٣) أضفت هذه الكلمة إكمالا لاسم الكتاب .

جعفر المنصور وشقيقه جعفر لأمهما ، وهى أم موسى بنت منصور هذا[1] .

وكان شريفاً فى قومه معروفَ المكان فيهم ، مذكوراً بالبلاغة والشعر وكرم الأخلاق . وانتهى ولدُه من الشرف بعده إلى غاية لم يكونوا يؤملونها لقرابتهم من المهدى .

وتزوج أبو جعفر المنصور أمَّ موسى هذه ، وهو إذ ذاك سوقة فى آخر ولاية هشام بن عبد الملك ، لما نزلت الحُمَيْمَةَ[2] من أرض البَلْقاء بعد وفاة زوجها ثم بين[3] عبيد الله من ولد العباس بن عبد المطلب .

وقيل : بل تزوجها بإفريقية ، وهو رحل[4] بها ، وكان يطوف البلدان فى زمن بنى أمية ، وأهلُ إفريقية يذكرون أنه طُلب مرة فاستخفى فى قصر صهره منصور الحميرى عند قصر بشير بطريق سُوسَة ، وكان المنصور شرط لها أن لا يتزوج عليها

(١) جاء فى جمهرة الأنساب لابن حزم : « ولدُ أبى جعفر المنصور : محمد أمير المؤمنين المهدى ، وجعفر الأكبر ، أمهما أم موسى الحميرية (وهى بنت منصور بن عبد الله بن يزيد الحميرى المترجم له هنا) ، تزوجها أبو جعفر بالقيروان فى دولة بنى أمية . وكانت قبله عند فتى خليع من ولد عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكان قد وقع إلى إفريقية فولدت له ابنة ، ومات. فاتصل بقومه (أى ببنى العباس) فنهض أبو جعفر بنفسه لاجتلاب بقيته ، فوجدها قد تزوجت رجلا خياطاً ، وولدت منه ابنا ، ومات الخياط ، فتزوجها أبو جعفر لجمالها ، وسُمى ابن الخياط طيفور . . » (ص ١٩) .

(٢) الأصل : الحسيمة ، وجعلها مولر (ص ٣٥١) : الحصيمة ، وكلاهما تصحيف ، والصحيح الُحمَيْمة ، ذكرها ياقوت (٣٤٦/٣) وقال : بلد من أرض السراة من أعمال عَمّان فى أطراف الشام ، كان منزل بنى العباس . وانظر أيضاً :

GUY LE STRANGE, *Palestine under the Moslems* (London, 1890), p. 465.

(٣) كذا فى الأصل ، ولم أستطع تقويم هذا اللفظ . وقال مولر معلقاً على هذا اللفظ (ص ٣٥١) : غير واضح . فى المخطوط شىء مثل : يز . وهذه العبارة تستقيم إذا جعلناها : ... بعد وفاة زوجها وكان من بنى عبيد الله . . . الخ (انظر جمهرة ابن حزم ، ط . عبد السلام هارون . ص ٢١) .

(٤) هذا اللفظ قلق وربما كانت صحته : راحل .

ولا يتسرّى ، وكتبت عليه بذلك كتاباً ، فعذب[1] بها عشر سنين فى سُلطانه ، ثم أتته وفاتُها فأُهديت إليه فى تلك الليلة مائة بكر .

وكانت دار منصور بالموضع الذى به دور بنى قافذ[2] بالقَيْرَوان .

وحَفْصٌ صاحب الخراج مولى بنى منصور ، وإليه يُنسب قصر حفص .

ولحق يزيدُ بنُ منصور بأخته أمِّ موسى ، فلما وَلِىَ المهدىُّ ولاه خراسانَ ، وجَلَّتْ حالُه حتى صار الشعراء يمدحون من كان من ولد المهدى بولاء منصور لهم ، ومن ذلك قول أبى نُوَاس فى العباس بن جعفر بن أبى جعفر المنصور :

فجَدّاكَ هذا خيرُ قحطان واحداً وهذا إذا ما عُــدَّ خيرُ نزارِ

يعنى بالقحطانى منصوراً الحِمْيَرِى ، وبالنِّزارى أبا جعفر المنصور . وقوله فى الأمين :

وما مِثلُ منصورَيْك منصورِ هاشمٍ ومنصورِ قحطانٍ إذا عُدَّ مَفخرُ

فمن ذا الذى يرمى بسهميك فى الورى وعبدُ منافٍ والداك وحِمْيَرُ

وقال سَلْم بن عمرو البصرى[3] فى المهدى :

أكرمْ بقَرْمٍ[4] أمينُ الله والدُهُ وأُمُّه أمُّ موسى بنتُ منصورِ

(١) كذا فى الأصل بوضوح ، ولاندرى ما السبب فى عذابه بها ، لأن الظاهر أنه لم يستمسك بالشرط الذى كتبه لها على نفسه وتزوج فى حياتها كثيرات غيرها . وقد ذكر ابن حزم فى الجمهرة من نسائه فاطمة بنت محمد بن محمد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله ، وامرأة من بنى أمية وأمهات أولاد أخريات منهن الكردية أم جعفر أكبر أبنائه (ص ٢١) .

(٢) كذا فى الأصل ، ويحتمل أن تكون بنى نافذ .

(٣) هو سلم الخاسر . وقد جمع ما ورد فى الأصول من شعره غوستاف فون جرونباوم فى كتابه « شعراء عباسيون » . انظر الترجمة العربية مع التحقيق والتعليقات بقلم الدكتورين محمد يوسف نجم وإحسان عباس (بيروت ١٩٥٥) ص ٧٧ وما يليها .

(٤) القرم هو السيد .

/ وسلّم هذا هو المعروف بالخاسر ، وقيل له ذلك لأنه باع مصحفاً واشترى [١٨٤-١]
بثمنه شِعر امرئ القيس ، وقيل شعر الأعشى ؛ وقيل بل ورث من أبيه مصحفاً فباعه واشترى بثمنه طنبوراً ، فسُمّي الخاسر .

وأبو محمد يحيى بن المبارك النحوى صاحب أبى عمرو بن العلاء ، أحدُ القراء ، إنما قيل له اليزيدى لأنه كان يؤدب ولد يزيد بن منصور ، فنسب إليه ، وكان بعد ذلك يؤدب المأمون .

١٨٤ — عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهرى

انحاز إلى الأندلس مع بلج بن بشر بن عياض القشيرى ومن كان معه من وجوه أهل الشام ، فى المحرم سنة ثلاث وعشرين ومائة ، بعد قتل البربر كلثومَ ابن عياض أمير إفريقية عمّ بلج ، وحبيب بن أبى عبيدة والد عبد الرحمن ؛ وهؤلاء الجند هم المعروفون بالطالعة البلجية بالأندلس . فلم يزل عبدُ الرحمن بها يحاول التغلب عليها ، إلى أن دخل أبو الخَطّار الحسام بن ضِرار الكلبى والياً من قِبل حنظلةَ بن صفوان الكلبى أمير إفريقية فى رجب سنة خمس وعشرين ، فخافه عبدُ الرحمن وخرج مستتراً فركب البحر إلى تونس ، وأقام بها إلى أن قُتِل الوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الأخيرة سنة ست وعشرين ومائة ، فدعا الناسَ فأجابوه ، وجمع لقتال حنظلة بن صفوان وإخراجه من إفريقية ، فتم له ذلك وانفرد بإمارتها فى قصة طويلة عشرةَ أعوام

وأشهراً . وكان مع بأســــه وبسالته خطيباً مفوهاً ، وهو أحد سادات العرب ورؤسائها بالمغرب(١) .

---

(١) فصلنا هذه الحوادث فى كتابنا « فجر الأندلس » ، انظر فهرس الأعلام : عبد الرحمن ابن حبيب .

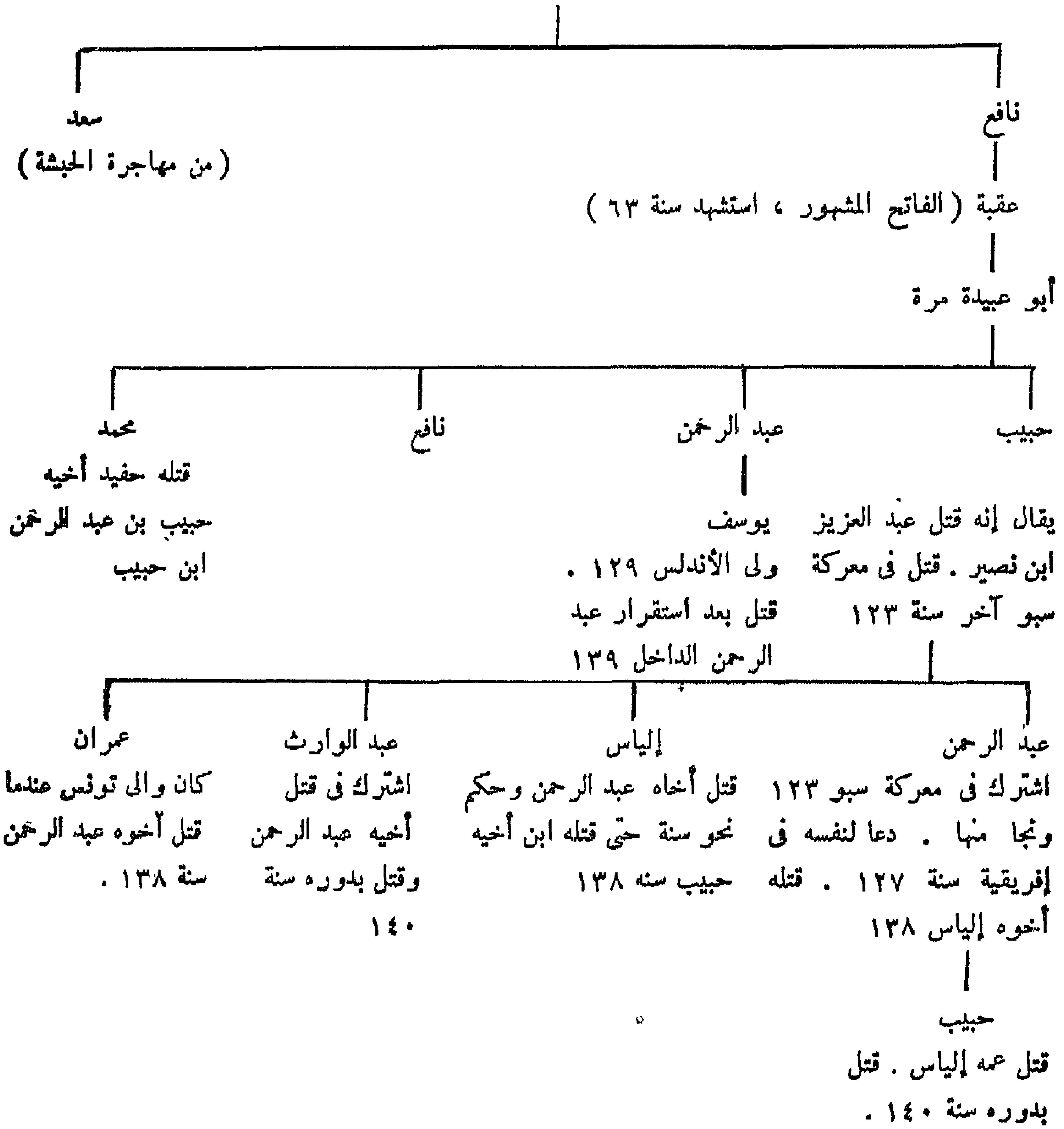
وعبد الرحمن بن حبيب كان ابن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، أى أنه حفيد الفاتح العربى الكبير . وكان قد نشأ فى إفريقية وتزعم طائفة عربها ، أى الذين استقروا فيها واتخذوها لهم وطناً أو ولدوا فيها وأصبحوا يعدون أنفسهم عرباً إفريقيين ، وهم يقابلون البلديين فى الأندلس .

وكان أولئك العرب الإفريقيون لا يستريحون إلى العرب الجدد المقبلين من المشرق، ويناوئون الولاة الذين أقامهم بنو أمية ثم بنو العباس ، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق فى الولاية والحكم . وقد تزعم هذه الطائفة أول الأمر حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، وتصدى لمقاومة ولاة بنى أمية ، وظهر أمره بصورة خاصة عندما ولّى هشامُ بنُ عبد الملك كلثومَ بن عياض القشيرى فى رمضان سنة ١٢٣ وأقبل معه ابن أخيه بلج بن بشر ، وكان شابا عنيفاً شديد الغرور ، أثار غضب عرب إفريقية ، فاجتمعوا حول حبيب بن أبى عبيدة . وكان هذا الخلاف من أكبر أسباب هزيمة جيش كلثوم بن عياض فى موقعة سُبُو ، أواخر سنة ١٢٣ ، وقد قتل فيها عياض وحبيبٌ بن أبى عبيدة ، ونجا بلج بن بشر منهزماً إلى سبتة ثم إلى الأندلس . ونجا كذلك عبد الرحمن ابن حبيب ، فر إلى القيروان ، ثم عبر إلى الأندلس ليحرض عبد الملك بن قطن — الفهرى مثله — على بلج وأصحابه ، فلما قتل عبد الملك بن قطن عاد إلى إفريقية واستطاع أن يتولى أمرها بالقوة سنة ١٢٩ ، وكانت له بعد ذلك أحداث مع أخويه إلياس وعبد الوارث فصل أمرها ابن عذارى (١/٦٠ وما بعدها) حتى قتل سنة ١٣٩ ، ولم ينته أمر بنى عبيدة بن عقبة بن نافع بمقتله بل مضى بالفتنة ابنه حبيب وأخوه إلياس . ولم ينته أمرهم إلا فى المحرم سنة ١٤٠ (راجع ابن عذارى : ١/٧٠) . وإليك تسلسل نسب الظاهرين من أهل هذا البيت كما استخرجته من الحلة السيراء وبغية الملتمس للضبى وجمهره أنساب العرب لابن حزم (ص ١٦٨) والبيان المغرب لابن عذارى (١/٦٠ وما بعدها) ونهاية الأرب للنويرى (القسم الخاص بتاريخ المغرب ، نشره جاسپار ريميرو) .

مع ملاحظة أن ابن عذارى يخطئ هنا فيكتب ابن أبى عبدة مكان ابن أبى عبيدة ، وفى بعض التواريخ التى أذكرها هنا خلاف بين المراجع .

١٨٥ — محمد بن عمرو القرشي العبدرى ابن حميد الغافقى

ثار بالأُرْبُس[١] فى إمارة عبد الرحمن بن حبيب بإفريقية ، ولم يكن بدونِ



وسأضيف ملاحظات أخرى فى تعليقاتى على ترجمة يوسف الفهرى .

(١) الأُرْبُس ، كذا أيضاً رسمها ياقوت (١/١٧٠) أما الإدريسى فرسمها بالصاد =

أخيه سليمان المتقدم الذكر شجاعةً وبلاغةً وبياناً . وثار مع محمد هذا رجل من البربر يقال له ثابت ، فخرج عبدُ الرحمن بن حبيب لحربهما فانهزما بين يديه ، وسار محمد إلى طَنْجَة ، ثم ظفر به فسجنه وأخاه سليمان ، وعزم على قتلهما ، فعوجل عبدُ الرحمن قبل ذلك ، وقتله أخوه إلياس بن حبيب فى سنة/سبع [١٨٤-ب]
وثلاثين ومائة ، وأطلقهما من معتقلهما ، ثم قُتل إلياس فى رجب سنة ثمان وثلاثين .

١٨٦ — عامر بن عَمرو القرشى العَبْدرىّ

هو عامر بن عمرو بن وهب بن مُصعب بن أبى عُزَيز بن عُمير بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَىّ ، ابن أخى مُصعب بن عُمير صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وأُحُد[(١)]؛ وهو الذى تُنسب إليه بقرطبة «مقبرة عامر» لِصْقَ سور المدينة الغربى وبابها المعطل إلى أن ملكها الرومُ فى هذه المدة القريبة .

وكان أحدَ رجالات قريش — بل مُضَر — بالأندلس شرفاً ونجدةً وأدباً ، وكان يلى المغازى والصوائف قبل يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِىّ ومعه ، فحسده

— (الأربص) وتكتب فى كتب الجغرافية والخرائط الفرنسية Laribus ، كان لها شأن فى أيام الأغالبة بصفة خاصة ، فقد اتخذها زيادة الله بن الأغلب مقاماً بعض الوقت ، وهى اليوم بلدة صغيرة تابعة لعمالة الكاف فى شمال غربى تونس .

(١) عامر هذا من نسل زُرَارة بن عُزيز بن عمير ، وعزيز أخو مصعب بن عمير ، وقد أسر عزيز يوم بدر كافراً ، أما مصعب فاستشهد يوم بدر . قال ابن حزم فى الكلام عن زرارة ابن عزيز بن عمير : «وله عقب كثير ، منهم كان عامر بن وهب ، كان له بالأندلس قدر ، وبعث إليه أبو جعفر المنصور سجلا ولواء بولاية الأندلس ، وقام بسرقسطة ، وقتله يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وله عقب كثير بسرقسطة بقرية تسمى قُرْبُلاَن» (ص ١١٧) . وورد ذكر عامر فى «الأخبار المجموعة» (ص ٦٣) ولكنه أخطأ فقال إنه من ولد «أبى عدى أخى مصعب ابن هاشم ، صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وأحد» ، والصحيح من ولد أبى عُزيز أخى مصعب بن عمير .

وعمل فى إزالته ، فلما بدا ذلك لعامر راسل أبا جعفر المنصور يخطب إليه ولاية الأندلس ، ويسأله أن يرسل إليه بسجلٍّ منه يقوم به . وأظهر التعصبَ لليمانية ، والإكبارَ لما سُفك من دمائهم بشَقُنْدَة فى أول ولاية يوسف .

ثم فرّ عن قرطبة وصار بناحيه سَرَقُسْطَة ، حيث الصُّمَيْل بن حاتم ، يبغى الفسادَ عليه ، وهنالك رجل من بنى زُهْرَة يُسمى الُحبَاب ، فكاتبه عامر ومتّ إليه بالُمضَرِية ، ودعاه إلى القيام على الصُّمَيْل فى اليمن بسجلّ أبى جعفر ، فاستجاب له . واجتمع لهما جمع من اليمن ورجال من البربر وغيرهم كثير ، فأقبلوا حتى حصروا الصُّمَيْل بسَرَقُسْطَة فى سنة ست وثلاثين ومائة ، ثم ملكها عامر وصاحبُه الزهرىّ فى قصص طويلة .

وغزا هما يوسف الفهرى فى عقب ذى القعدة سنة سبع وثلاثين ، فخاف أهل سَرَقُسْطَة مَعَرَّةَ الجيش وعَضّ الحصار ، فأسلموا عامراً وابنَه وهبًا والزهرىَّ ، فقيّدهم يوسف ثم قتَلهم فى طريقه بوادى الرّمل[1] على خمسين ميلا من طُلَيْطِلَة ، وذلك فى صدر سنة ثمان وثلاثين . فما انقضى ذلك من فِعله ولا دخل رواقَه ، حتى أتاه رسول يركض من ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يطوى البيدَ ، فأعلمه أن فتًى من قريش من ولد هشام بن عبد الملك ، يقال له عبد الرحمن بن

---

(١) وادى الرمل Guadarrama : سلسلة جبال متوسطة الارتفاع تتفرع من سلسلة الجبال الوسطى El Sistema Central فى وسط شبه الجزيرة ، تمر فى مديريات مدريد وأبلة وشقوبية ، وتتصل من ناحية الشرق بسلسلة الجبال الإيبيرية ، ونقطة التقائها بسلسلة الجبال الوسطى مرتفع سوموسييرا Somosierra ، ويصل وادى الرمل إلى قرب مدريد عند مرتفع ناباثيرادا Navacerrada . وينبع من هذه الجبال نهر يسمى وادى الرمل Rio de Guadarrama أيضاً يتجه إلى الجنوب مارا بضاحية الإسكوريال ويصب فى نهر تاجه شرقى طليطلة . وهذا النهر – كما يدل عليه اسمه – جاف معظم العام تقريباً إلا فى أوقات المطر الغزير .

Cf : Diccionario Geográfico de España, X, 434.

[١٨٥-ا] معاوية ، قد عبر البحر إلى الأندلس فنزل بساحل دمشق/ — يعنى بناحية إلْبِيرَة — واجتمع إليه موالى بنى أمية وشِيَعُهم ، وتشوّف الناسُ إليه ، فانتشر الخبر فى العسكر لوقته ، وشمت الناس بيوسف فسارعوا إلى الرّفض[١] من عسكره ، وقوّضوا إلى كُوَرهم ، وأقبل إلى طليطلة فى غلمانه وقيسٍ قوم الصُّمَيْل .

ويقال إن كاتبه خالد بن زيد قال له ، بمحضر الصُّمَيْل وزيره وقد فرغ من مؤاكلتهما ذات يوم وهو ببعض منازله فى طريقه : «هنيئاً لك أيها الأمير اكتمالُ سعدِك . قد قتل الله لك كاشِحَك ابنَ شهاب وفلاناً وفلاناً — يعد الأشراف من العرب المقتولين فى غزوهم الروم — ووفقك اقتل أنغلهم ضميراً هذا العَبْدَرِىّ — يعنى عامراً وابنَه — فمن ذا يعارضك بعدهم ؟ هى والله لك ولولدك إلى الدّجّال »[٢] .

ثم خرج الصُّمَيْل إلى قبته ، واستلقى يوسف على فراشه — وذلك وقت العصر — فما راعهم إلا بريد يركض ، تشوّف إليه أهلُ العسكر وقالوا : « رسول من قرطبة ! » وتطلعوا إلى علم خبره ، فإذا كتابُ أمِّ ولد يوسف[٣] مع غلام خاص لها على بغلتها المشهورة بها ، تذكر أن فتًى من أبناء هشام بن عبد الملك ، يقال له عبد الرحمن بن معاوية ، عبر البحر ونزل بساحة إلْبِيرَة على أبى عثمان[٤] مولاهم بقرية طُرُّش[٥] ، فشاء الله أن يكون وارثَ سلطانه ونازعَ مُلكه .

(١) أى إلى الارفضاض .

(٢) روى هذه الأخبار بتفصيل أكثر صاحب « الأخبار المجموعة » ص ٧٦ وما بعدها ، ولكنه يقول إن الصميل بن حاتم هو الذى قال ذلك الكلام ليوسف الفهرى ، ونص كلامه هناك : « قد قُتل (سليمان) بن شهاب وقتلت عامراً (المترجم له) و (الحبـ ـ) الزهرى ، هى والله لك ولولدك إلى الدجال ، من هذا ينازعك ؟ » .

(٣) اسمها عند صاحب الأخبار المجموعة « أم عثمان أم ولده وصاحبة سلطانه » (ص٧٨) .

(٤) هو أبو عثمان عبيد الله بن عثمان من كبار موالى بنى أمية فى الأندلس إذ ذاك ، وكان هو وعبد الله بن خالد « يتواليان لواء بنى أمية يعتقبان ذلك » (الأخبار المجموعة ٢ ص ٦٦) .

(٥) طرش Torrox مركز إدارى حاليا فى مديرية مالقة ـ تقع على ٤٧ كيلومتراً منها .

١٨٧ — يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، أبو محمد

قال ابنُ حيّان[١] : زعم أبو بكر بن القُوطِيّة أنه يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عُقبة بن نافع الفهرى . قال : وما وجدت هدايةً إلى أن يوسفَ هذا الوالى بالأندلس وَلدٌ له — يعنى عبد الرحمن المتقدم الذكر فى هذا البـاب — ولا وجدتُ منتماه فى جِذْم قومه ، فالله أعلم بشأنه — هكذا فى « المقتبس » .

وقد قال أبو محمد بن حزم فى كتاب « جمهرة الأنساب » من تأليفه — وكثيراً ما يقلده[٢] : عقبة بن نافع الفهرى ولدَ أبا عبيدة ، فولَد أبو عبيدة حبيباً قاتلَ عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وعبدَ الرحمن ونافعاً ، فولَد حبيبٌ عبدَ الرحمن — وَلِىَ إفريقية — وإلياسَ وعبدَ الوارث ، ولهم بإفريقية/ عقب كثير ؛ وولَد عبدُ الرحمن بن أبى عبيدة يوسفَ ، وَلِىَ الأندلسَ وله بها عقب ؛ وبالأندلس من فهر عدد عظيم[٣] . [١٨٥—ب]

وعن الواقِدِىّ أن أهل الأندلس اجتمعوا على يوسف بنِ عبد الرحمن من أجل أنه قرشى ، رضى به الحَيّان — يعنى المضَرِية واليمانية — بعد ثُوَابة بن

---

(١) الأصل : أبو حيان ، وهو تصحيف .

(٢) أى كثيراً ما يتبع ابنَ حيان فى رأيه .

(٣) انظر « جمهرة الأنساب » ، ص ١٦٨ ، وقد أخذت بهذا الرأى فى شجرة نسب بنى مرة أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، لأن يوسف الفهرى ولى الأندلس فى ٢ ربيع الأول سنة ١٢٩ وقتل بعد تولى عبد الرحمن الداخل الأندلس سنة ١٣٩ ، فهو أقرب إلى أن يكون ابن عبد الرحمن ابن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع . أما القول بأنه ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة فلا يستقيم ، لأن حبيب بن أبى عبيدة قتل سنة ١٢٣ وابنه عبد الرحمن قتل سنة ١٣٨ ، فكيف يمكن أن ابن هذا الأخير تولى الأندلس سنة ١٢٩ وقتل سنة ١٣٩ ؟

سَلَمة[١] ، فرفعوا الحرب ومالوا إلى الدعة ، فدانت له الأندلسُ تسع سنين وتسعة شهور ؛ وكان آخرَ الأمراء بالأندلس ، وعنه انتقل سلطانُها إلى الخلفاء[٢] من بنى مروان — أورد ذلك ابنُ حَيّان .

وحَكى أن اجتماع الناس على البيعة ليوسف كان فى شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين ومائة ، وفى مثل هذا الشهر من سنة ثمان وثلاثين حل بمرفأ حصن المنكَّب[٣] عبدُ الرحمن بن معاوية ، فالتقى هو ويوسفُ يوم الأضحى ، فانهزم يوسفُ وقُتل كثير من أصحابه ؛ وغَلب عبدُ الرحمن يومئذ على المُلك . ويقال إنه تفاءل يومَ عرفة بما يتفق له فى غده من صحة المشاكلة ، وقال : « يوم عيد ، ويوم جمعة ، وأموى مع فهرى ... أبشروا ، فإنى أرجو أنها أخت وقعة مَرْج راهِط ! » فصدَّق الله ظن عبد الرحمن بيومه ذلك .

وقيل إن العلاء بن جابر العقيلى مشى إلى الصُّمَيْل بن حاتم ، وقد التقى الجمعان ، فقال له : « أبا جَوْشَن ! اتق الله ؛ فوالله ما أشبَه هذا اليوم إلا بيوم المرج ، وإنّ عارَ ذلك لباقٍ علينا إلى اليوم . وإن الأمور ليُهتَدى إليها بالأشباه والأمثال : أموى وفِهْرِىٌّ ، وقيس واليمن ، [و]وزير الفِهْرِىّ فى ذلك اليوم قَيْسِىّ

---

(١) يقال أيضاً ثوابة بن سلامة الجذامى ، كان من جند فلسطين . طلب إليه عرب الأندلس أن يتولى أمرهم عندما انحرف أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى ومال إلى اليمن . وقد تولى ثوابة من رجب ١٢٧/ أبريل ٧٤٥ إلى المحرم ١٢٩/سبتمبر – أكتوبر ٧٤٦ وأعقبت موته فترة شغور تولى الأمر فى بعضها عبد الرحمن بن كثير اللخمى ، ثم اجتمع عرب الأندلس على يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فى ربيع الثانى ١٢٩/ ديسمبر ٧٤٦ – يناير ٧٤٧ .
انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢/٣٥ .

(٢) الأصح هنا أن يقال : إلى الأمراء فالخلفاء من بنى مروان .

(٣) المنكَّب ، وتكتب حاليا **Almuñecar** : فرضة صغيرة على البحر تابعة لمركز **مُطْرِيل Motril** الإدارى فى مديرية غرناطة ، وتقع على ٢٣ كيلومتراً شرق هذا البلد الأخير . وقد اختصها صاحب « الروض المعطار » بمادة طويلة (انظر رقم ١٧٩ ص ١٨٦ من النص العربى وص ٢٢٥ من الترجمة الفرنسية ، وتعليق رقم ١) .

وهو زُفَر بن الحَرِث ، ووزير هذا اليوم أنت ، وأنت قيسى . . ويوم عيد فى يوم جمعة أيضاً ، ويوم المرج يوم عيد فى يوم جمعة ! الأمر والله علينا ما أشك فيه » ، فأبى عليه[1] . ومن شعر زفَر بن الحَرِث فى يوم مرج راهط وقُتل فيه ابناه :

---

(١) المقارنة هنا بين موقعة المُصَارة وموقعة مرج راهط المعروفة التى قررت مصير الدولة الأموية فى المشرق فنقلت الأمر من السفيانيين إلى المروانيين ، وأنقذت الدولة بذلك لأن السفيانيين لم يكن فيهم من يستطيع الثبات أمام عبد الله بن الزبير ، فلما نهض مروان بن الحكم وكسب معركة المرج صارت الخلافة إليه ، فتمكن من جمع صفوف بنى أمية والثبات للزبيريين . والمقارنة بين الوقعتين طريفة ، لا من حيث الظروف العامة فقط بل من حيث النتائج أيضاً ، والأمر الوحيد الذى يحتاج إلى تحقيق هو مقارنة التواريخ ، لأن وقعة مرج راهط استمرت عشرين يوما فى حين أن المصارة دامت يوما واحداً . والمقارنة بين الأشخاص فى كلام العلاء بن جابر العقيلى لا تخلو من طرافة .

فالأموى فى المرج مروان بن الحكم ، وفى المصارة عبد الرحمن بن معاوية .

والفهرى فى المرج الضحاك بن قيس الفهرى ، وفى المصارة يوسف الفهرى.

وكان الضحاك بن قيس مذبذباً متردداً كما كان يوسف الفهرى ، فكما كان هذا الأخير يظهر الرغبة فى التفاهم مع عبد الرحمن بن معاوية كان الضحاك « إذا جاءته اليمانية وشيعة بنى أمية أخبرهم أنه أموى ، وإذا جاءته القيسية أخبرهم أنه يدعو إلى ابن الزبير » (الأغانى : ١٧/١١١) .

وزفر بن الحارث الكلابى أيضا يشبه الصميل بن حاتم ، فقد كان كل منهما بدوياً صرفاً عنيفاً وصاحب مكر ودهاء ، فقد كان زفر بن الحارث زبيرى الهوى ولكنه عرف كيف يجمع طائفة كبيرة من قيس إلى صفه ويقودهم فى المعركة .

ويقابل عبيدُ الله بن عثمان — كبيرُ موالى بنى أمية ونصير عبد الرحمن فى معركة المصارة — حسان بن مالك بن بَحْدَل الكلبى زعيمَ اليمنية ونصير البيت الأموى ، ومن المعروف أن اليمنيين كانت لهم الكلمة العليا فى دولة بنى أمية أيام يزيد بن معاوية وابنه معاوية الثانى ، فقد كانت أم كل منهما يمنية ، وكان حسان بن بحدل خال يزيد وصاحب سلطان عظيم فى دولة بنى أمية ، وقد انضم إلى مروان بن الحكم دفاعاً عن مركز اليمنية أمام القيسية الثائرة عليها والمؤيدة لابن الزبير .

انظر : يوليوس ڤلهاوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٦٧ وما يليها .

والمصارة كانت إذ ذاك ضاحية من ضواحى قرطبة القوطية ، وكانت تقع جنوبيها على شاطىء الوادى الكبير ، وفى العصر الإسلامى أصبحت المصارة جزءاً من قرطبة وإن ظلت خارج سور البلد ، وهى امتداد « الرصيف » ناحية الجنوب بمحاذاة النهر .

لعَمْرى لقد أبقت وقيعةُ راهطٍ [بمروانَ صَدعاً](١) بيننا متنائيَا
فلم تُرَ مِنّى زلةٌ قبــلَ هذه فرارى وتركى صاحبىّ ورائيا
أيذهب يوم صالح أن أسامَهُ بصالحِ أيامى وحُسنِ بلائيا ؟
[١٨٦-١] / أتُترك كلبٌ لم تنَلْها رماحُنـا وتذهبُ قتلَى راهطٍ هى ما هيا(٢) ؟
فلا صُلحَ حتى تَدْعَسَ الخيلُ بالقَنا وتثأرَ من نسوانِ كلبٍ نسائيا

واضطرب يوسف الفِهرى بعد هذه الوقعة عليه بالمصارة ، فجال فى البلاد ، ثم نكث بعبد الرحمن بعد قبوله أمانَه ، وخرج عليه منازعاً ، فظفر به وقتله(٣) .

واستوسق لعبد الرحمن مُلك الأندلس ، فلم يبق له مخالف من أهلها ، فطال أمدُه وتوارث سلطانَه عَقِبُه . وعن الرازى أن يوسف تمثل عند دخوله عسكر عبد الرحمن ببيت حُرْقة بنت النعمان :

بينا نسُوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سوقةٌ نتَنَصَّفُ

وكان معدودًا فى فصحاء الأمراء ، وابنهُ أبو الأسود كذلك . وكان مقتل يوسف فى سنة اثنتين وأربعين ، وألحق به ابنه عبد الرحمن بن يوسف ، وكان محبوساً بقرطبة .

---

(١) أكملت البيت من الأغانى (١١٢/١٧) .

(٢) فى الأصل : وترهبُ قلبى راهطٌ . . . ولا معنى للشطر على هذه الصورة ، فقومته كما هو فى المتن أعلاه ، وهو تقويم يجيزه رسم المخطوط . وورد هذا الشطر فى الأغانى :

* ويترك قتلَى راهط هى ماهيا *

(٣) الصحيح أن عبد الرحمن لم يقتل يوسف الفهرى . الذى حدث هو أنه صالحه وأعطاه الأمان وأتى به إلى قرطبة مع الصميل بن حاتم . ثم فر يوسف وتحصن بماردة وجمع جيشاً من ٢٠ ألفاً معظمهم من البربر وأراد المسير نحو قرطبة ، ولكنه هزم وتشتت جنده فهرب إلى ناحية طليطلة ، وظل شارداً حتى قتله بعض أتباعه وأتوا برأسه عبدَ الرحمن سنة ١٤٢/٧٥٩ - ٧٦٠ .

١٨٨ — ابنه محمد بن يوسف ، أبو الأسود

هرب عند مقتل أبيه يوسف هو وأخوه خضر ، إلى أن جيء بهما فحُبسا مدة . وادعى أبو الأسود هذا العمى حيلةً وهو مبصر ، فزعم أن الماء نزل بعينيه . وأحسن التمثُّل لذلك ، حتى جازت حيلته ، واشتبهت حركاته بحركات العميان ، ووقع الإشفاق عليه والرثاية له . وهُوِّن من حبسه ، حتى كان يقعد عنه الموكَّل به اختباراً لهدايته ، إذا خرج لوضوئه وقضاء حاجته ، فيبقى حائراً ينادى : « من يقود الأعمى إلى محبسه ؟ » ، فيُرَد . وكان أهل الحبس يومئذ ينزلون إلى النهر الأعظم — قُرْبَهم — للطهور والوضوء ، على سرداب اتُّخذ لهم تحت الأرض ، إذ كان مكانه يومئذ لِصْقَ القصر ، على الهِبْط[1] ، والرقباء عليهم . وقد أهمل ارتقابُ أبى الأسود هذا ، عندما وُجد السبيلُ للأمان منه من أجل عماه ، فتحيل هنالك فى التدبير مع موالٍ له كانوا بقرطبة معه ، وانتهز فرصة أجاز فيها الوادى سبحاً إلى خيل له قد أعدت بشاطئه[2] مع ثقات أصحابه ، فركب وفر ركضاً ، فنجا ولحق بطليطلة . / ودعا إلى نفسه ، واستمال الناس بموضعه ، وسار فى عسكر [١٨٦ب] جحفل حتى حل بأحواز جَيّان . فخرج إليه عبدُ الرحمن بن معاوية فى جيوشه ، فلاقاه مرةً بعد مرة ، يهزمه فى كل منها ويقتل له الجمع الكبير . وكانت بينهما بقَسْطَلُونة — على مخاضة الفتح[3] — حرب شديدة ، مكر عبدُ الرحمن فيها

(١) يفهم من هذا أن اسم الهبط كان يطلق على ذلك الجزء المنخفض من شاطىء النهر المجاور للماء ، وكان سرداب السجن ينتهى عنده .

(٢) الأصل : بشاطبة ، وكذلك قرأها دوزى (ص ٥٦) وهو مستبعد . والصحيح ما أثبتناه ، والمراد الشاطىء الآخر .

(٣) ليس من السهل تحديد موقع هذه المعركة بدقة ، لأن قسطلونة المذكورة هنا كانت قرية تسمى **Cazlona** إلى جوار بلدة لينارس **Linares** الحالية فى شمال مديرية جيان ، وكان اسمها

بأبى الأسود ، فراسلَ صاحبَ ميمنته ، وواطأه على جر الهزيمة من جهته ، ففعل . وانهزم أبو الأسود ، وقتل عامةُ رجاله ، فلم تقم له بعدُ قائمة . وذُكر أنه تمثل يومَ قَسْطَلونة :

وموقفٍ مثل حد السيف قمتُ به أحمى الذمارَ وترمينى به الحَدَقُ

وعن الرازى : أن هذه الوقيعة بمخاضة الفتح كانت يوم الأربعاء غرة شهر ربيع الأول سنة ثمان وستين ومائة ، بعد مواقفةٍ قبل ذلك أياماً كثيرة . قال : وقُتل لأبى الأسود فيها أربعة آلاف من أصحابه ، سوى من تردى فى النهر ، ووقع فى المهاوى ، وتلف فى الشعاب . وبلغ فى هزيمته إلى قَسْطَلونة على وادى الأحمر ، ومضى على وجهه إلى ناحية الغرب ، فبلغ مدينة قورية(1) ، وتمادى فى شروده وخلافه إلى أن هلك فى سنة سبعين ومائة .

= فى القديم **Castulone Castulo** (راجع معجم الأماكن الملحق بالترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة ص ٢٥٠) . ونهر الوادى الأحمر المذكور هنا هو المعروف اليوم باسم **Guadalimar** نهير من نهيرات الوادى الكبير ، وينبع من جبال شقورة . وهذا النهر يتكون من نهيرات صغيرة **arroyos** تمتلىء بالماء بعد المطر وتصبح مخاضات ، فلابد أن مخاضة الفتح المذكورة هنا كانت فى ذلك الموقع . ويفهم من النص بعد ذلك أن المعركة كانت عند المخاضة ، ثم هرب أبو الأسود إلى قسطلونة . وللشاعر الأندلسى عاصم بن زيد بن يحيى العبادى أبيات فى تهنئة سليمان ابن الأمير عبد الرحمن بنصره فى هذه المعركة ، ويفهم منها أنه هو الذى كان يقود جيش الإمارة فيها .

انظر بالإضافة إلى المرجع المذكور فى النص :

***Diccionario Geográfico Español*, X, p. 420**

والإحاطة لابن الخطيب ، مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ، ص ٣٥١ – ٣٥٢ .

(١) **قُورِيَة** : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت قورية من مدن كورة ماردة ، وكانت تابعة لقاعدة الكورة وهى ماردة (صفة الأندلس للرازى ، رقم ٤٦ ص ٨٦) . وهى مدينة قديمة عرفت قبل الفتح العربى باسم **Caurium** ، وهى من فتوح موسى بن نصير ، وقد أصبحت بعد ذلك من كبار معاقل إقليم الجوف وإن كانت دائماً معقلا للثوار والخارجين على الخلافة ، وقد استولى عليها أردونيو الأول ملك ليون سنة ٢٤٦/٨٦٠ ولكن المسلمين استردوها . ومهد إقليمها وأخلاه من الثوار عبد الرحمن الناصر ، ثم أتم عمله المنصور بن أبى عامر . وفى أيام الطوائف صارت قورية من توابع إمارة بنى الأفطس فى بطليوس ، ومن أيديهم استولى عليها ألفونسو=

وقيل إن عبد الرحمن غزاه فى سنة سبعين ، فلما أحس به فرَّ عن قورية ، وانقطع وحــدَه ، وانحاز إلى غياضِ أشِبَةٍ ، ثم صار إلى رَكَانَةَ(١) من طليطلة فمات هنالك .

وقام بعده أخوه قاسم بنُ يوسف ، فغزاه عبدُ الرحمن بن معاوية ؛ فلما دنا منه خرج إليه بلا أمان ، فتقبَّله وأمَّنه ، ونقله إلى قرطبة وأحسن إليه ، وكان آخر المخالفين عليه .

=السادس قبل استيلائه على طليطلة ، ولكن المرابطين عادوا فاستردوها . وفى أيام الموحدين أصبحت معقلا إسلامياً ونقطة دفاع من جديد ، ولم تسقط نهائياً إلا حوالى ٥٩٧/١٢٠٠ فى يد ألفونسو الثامن . وهى اليوم مركز إدارى فى مديرية قَصْرِش Cáceres فى غرب إسبانيا ، وتقع على نهر الحَجُون El-Alagón أحد النهيرات التى تصب فى تاجه ، وإقليمها خصب كثير المزارع ، وهى قريبة من حدود البرتغال .

ويخلط فى بعض الأحيان بين قُورِيَة وقَوْرَة ، وهذه الأخيرة هى Coria del Río فى مديرية إشبيلية .

انظر : الإدريسى ، ص ١٨٣ . الروض المعطار ، رقم ١٥٣ ص ١٦٥ والترجمة الفرنسية ص ١٩٨ . مادوث : ٧/١٦ وما يليها .

(١) المقصود بلدة Requena ، مركز إدارى فى مديرية بلنسية على ٦٩ كيلومتراً إلى شرق بلنسية . ومن المعروف أن كورة بلنسية كانت تصاقب كورة طليطلة فى التقسيم الإدارى الأندلسى ، والحدود بين الكورتين ليست واضحة لنا .

١٨٩ ـ الحُصَيْن بن الدَّجْن بن عبد الله بن محمد بن عَمرو ابن يحيى بن عامر بن مَلك بن خُوَيلد بن سَمْعان ابن خفاجة (١) بن عمرو بن عُبيد العُقَيْلى

كان ممن استجاب لداعية عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس ، ومال إلى أنصاره من القَحطانية واليمانية ، للذى كان بينه وبين الصُّمَيل بن حاتم الكلابى من المنافسة المعلومة على الرئاسة . وهو ممن أشار على يوسف بن

(١) فى الأصل : خفافه ، والتصويب من جمهرة أنساب العرب (ص ٢٧٤) فقد قال ابن حزم فى نسب بنى عُقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة : « ومن بنى خويلد بن سَمعان ابن خفاجة : بنو الحصين بن الدجن بن عبد الله بمَنْتيشَة بالأندلس ، ودارهم جيان وواد ياش ؛ وهم بنو عطاف بن الحُصَيْن بن الدَّجْن بن عبد الله بن محمد بن عمرو بن يحيى بن عامر بن خُوَيلد بن سمعان ، منهم كان إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم بن صخر بن عطّاف » .

ووادياش هى وادى آش Guadix ، كانت فى التقسيم الإدارى الأندلسى تابعة لكورة إلبيرة (وهى غرناطة) وتقع على السفح الشمالى لجبل الثلج Sierra Nevada الذى يسمى أيضاً جبل شُلَير (عن اللاتينية Solarius Mons) ، واسمها معرب عن اللاتينية acci ، كانت أيام القوط مركزاً لأسقفية تسمى كرسى أكْشِى Sedes Accitana ، وتقع على نهير كان يسمى باسمها أيام العرب ، ويسمى الآن Rio Fardes الذى يسمى أيضاً Anchurón ، وعلى مقربة منها موضع عين ماء معدنية يسميه العرب جِلْيَانُه (معرب عن Juliana) ، وقد اشتهرت بتفاحها حتى كانت تسمى جليانة التفاح (ياقوت : ١٣٠/٣) وهذا الموضع يسمى الآن Graena .

وكل سفح الجبل الذى تقوم عليه وادى آش كان يسمى سَنَد وادى آش (اليوم Marquesado del Zenete) . وعندما قام محمد بن نصر بن الأحمر بإنشاء دولته ضمها إليها سنة ١٢٣٢/٦٣٠ . وقد سقطت وادى آش فى يد فرناندو وإيزابيلا سنة ١٤٨٩/٨٩٥ .

انظر : ياقوت : ٢٥٧/١ (يكتبها تحت إش) . الإدريسى ، ص ٢٠٢ . الروض المعطار ، رقم ١٨٤ ص ١٩٢ والترجمة الفرنسية ، ص ٢٣٣ والتعليقات . و :

SIMONET, *Descripción del Reino de Granada* (1872) p. 78 - 101.

وانظر مادة زايبولد عنها فى د. م. إ ، ١٨٩/٢ — ١٩٠ .

وهى اليوم مركز إدارى فى مديرية غرناطة على ٥٣ كيلومتراً شمالى شرقها .

عبد الرحمن الفِهْرى باستبقاء عامر العَبْدَرى وابنِه وهب والحُباب / الزُّهْرِى [١٨٧-١]
بعد قبضه عليهم ، فكف عن قتلهم حينئذ وشد صفادَهم .

وأغزى طائفةً من عسكره إلى البَشْكُنْس فى ضعف وقلة ، لم يكره عَطبَهم . وبعث على خيلهم الحُصَيْن هذا ، فهزمهم الرومُ وقتلوا أميرَهم سليمانَ ابنَ شهاب ، ونجاالحُصَيْن . وحضر يوم المصارة مع عبد الرحمن ، فكان — فيما رُوِى — على خيله ، لصحة علمه بالعداوة التى كانت بينه وبين الصُّمَيل ابن عمه . وكان الحُصَيْن فارس أهل الشام بأساً ونجدة ، وكان شاعراً . فلما استوسق الأمرُ لعبد الرحمن بن معاوية ، عرف له صالحَ بلائه ، فاختصه وولاه الشرطة . وقرأت اسمَه فى شهود الأمان الذى عقده عبدُ الرحمن ليوسف الفِهْرى عند اصطلاحهما بإِلْبِيرَة ، وذلك فى يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين ومائة .

١٩٠ — المُخَارق بن غِفَار الطائى

لما وجه أبو العباس السفاح عمه عبد الله بن على إلى محاربة مروان بن محمد المعروف بالجعدى سنة ثنتين وثلاثين ومائة ودنا منه بالزاب[(١)] عبره المخارق

(١) المقصود هنا زاب العراق لا زاب المغرب كما هو واضح . ومن المعروف أن هناك أربعة أنهر فى العراق تحمل هذا الاسم : اثنان منها يصبان فى دجلة من ناحية الشرق ، الزاب الأعلى وينبع من الجبال الواقعة بين أرمينية وآذربيجان ويصب فى دجلة عند مدينة الحديثة ، والزاب الأدنى — الذى يسمى بالمجنون لتغييره مجراه دواماً — وينبع من ناحية شهرزور ويصب فى دجلة عند بلدة السن ، وقد أفاض الجغرافيون فى التحدث عن خصب =

ابن غفار الطائى هذا ، وكان من جند عبد الله وثبت فى أصحابه فأسر ولم يعرف أنه المخارق ، فكان محبوساً فى عسكر مروان إلى أن انهزم واستولى عبد الله على عسكره وتخلص المخارق . وكان ممن سعى قبل ذلك مع أبى مسلم .

ولما وجه أبو جعفر المنصورُ محمدَ بنَ الأشعث الخزاعى — وهو عامله على مصر — إلى إفريقية ، وجهز الجيوش إليه ، عهد إليهم إن حدث بابن الأشعث حدث فالأميرُ الأغلبُ بن سالم ، فإن حدث به حدث فالأميرُ المخارقُ بن غفار ، فإن حدث به حدث فالأميرُ المحاربُ بن هلال الدارمى ، فهلك المحارب فى الطريق قبل أن يصلوا إلى إفريقية ، وولى المخارق من قبل ابن الأشعث طرابلس فى مَقدَمه عليها من مصر ، ثم استدعاه فولاه طُبْنَةَ(1) . وعند قيام الحسن بن حرب الكندى على الأغلب فى ولايته وإقباله إلى القيروان فى عدة عظيمة ، جمع الأغلب أهل بيته وخاصة أصحابه وتكلم بكلام أعلمهم فيه أنه يلاقى الحسن

=الأراضى الواقعة بين هذين النهرين . أما الزابان الآخران فى العراق أيضاً فإلى الجنوب من هذين : بين بغداد وواسط ، ويسمى الأربعة بالزابات .

انظر : ياقوت : ٤/٣٦٤ — ٣٦٥ و :

GUY LE STRANGE, *Lands of the Eastern Caliphate*, (Cambridge, 1930) p. 90 sqq.

(1) طُبْنَة : كانت قاعدة زاب المغرب ، وهو المنطقة الواقعة جنوبى مدينة قُسَنْطِينة الحالية بين شط هُضْنَة وجبال أوراس . وقد سكنت إقليم الزاب جماعات من مهاجرة العرب من أوائل أيام الفتح واختلطت بالنازلين هناك من البربر ، ومعظمهم من هوارة ، وكان الزاب معروفاً بخصبه ووفرة ثماره ولهذا كان من أعمر نواحى المغرب الأوسط . وينقسم الزاب قسمين : الزاب الأعلى ويمتد من جنوبى قسنطينة إلى ساحل البحر إلى الغرب ، والزاب الأسفل ويمتد من جنوبى قسنطينة إلى سفوح جبال أوراس . وكان الأول تابعاً من الناحية الإدارية لولاية إفريقية (تونس الحالية) ولهذا كان عربه يعدون أنفسهم من عرب إفريقية ، وكثر نزاعهم مع ولاتها ، أما الزاب الأسفل فكان معدوداً فى المغرب الأوسط ، أى الجزائر الحالية .

انظر : اليعقوبى ، صفة المغرب ، ص ١١ . ياقوت : ٤/٣٦٥ .

وحده إن لم يعنه أحد ولو كان فى ذلك إتلاف[1] نفسه ، ثم أنشأ أبياتاً قالها :

سِيّان موتٌ بالقنا وبالسَّقَمْ / والقتلُ فى الهيجاء أدنى للكرمْ [١٨٧-ب]

موتى غداً تحت لوائى والعلَمْ

ثم دعا الخارق بن غفار فقال له : « إن فى أهل بيتى من هو أولى بما دعوتُك له منك وأقعَدُ باستخلافى إياه ، غير أنى كرهت أن يقول قائل : [انفرد][2] بها فى أهل بيته وأن تميل بكم العصبية » . ثم وصاه بالطاعة وحذره عاقبة الخلاف ، فأجابه الخارق بكلام فيه بلاغة وبيان معترفاً له بحقه ، وقام بالأمر بعده ، وهو الذى صلب الحسن بن حرب بالقَيْرَوَان ؛ وقد تقدم ذكر ذلك .

ثم قدم يزيد بن حاتم والياً على إفريقية من قِبل أبى جعفر المنصور ، فكانت له فى أيامها أخبار . وحكى صاحب « الكتاب المُعرِب عن المغرب » أن الخارق ركب يوماً فى بعض الحروب الإفريقية على فرس أنثى وبيده القناة فبرز بين الصفين وهو يقول متمثلا :

رائعة تحمل شيخاً رائعا مُجرباً قد شهد الوقائعا

قال : وكان شريف القدر عظيم الحال لا يُقايَس إلا بابن الأشعث والأغلب بن سالم وأمثالهما . وأخوه السِّندى بن غفار وابنُه المُهنّا بن الخارق لاحقان به .

---

(١) الأصل : تلك تلاف .

(٢) أضفت هذه الكلمة للسياق .

١٩١ – رَوح بن حاتم بن قَبيصَة بن المهلَّب ابن أبى صُفرة الأزْدِى العَكىّ ، أبو خَلَف

حجب أبا جعفر المنصور أولَ أيامه ، وقبل التعلق به نظر إليه رجل واقف فى الشمس عند باب المنصور فقال له : « لقد طال وقوفك فى الشمس ! » فقال : « ليطول قعودى فى الظل . . »

ووَلِىَ الكوفةَ والبصْرةَ للمهدى . ووَلِىَ أيضاً السِّنْد وطبرستان وفلسطين ، ثم وَلِىَ إفريقية والمغرب لهارون الرشيد ، وذلك لما بلغه موتُ أخيه يزيد بن حاتم ، فعزاه الرشيد وقال : « أعْرِفُ أن له صنائعَ بالمغرب ، ولا آمن عليهم متى ولَّيتُ غيرَك ، ولكن اخرج من فورك إلى إفريقية ، وحُطَّ صنائعَه » . فخرج من فوره وشيَّعه الرشيد وودعه وانصرف . ثم لحقه وصاح به : « يا وَيْح[1] ! لا ترجع ، ولا تنزل . أنت مسافر وأنا مقيم ! » ثم سايره وقال : « عليك بالزاب ، املأه خيلا ورَجْلا » .

وكان لرَوْح رأى وحزم وشجاعة وجود وصرامة ، وهو أسَنُّ من أخيه يزيد وأنبه منه ذكراً بالمشرق . ومن عجيب الأخبار وطريف الآثار أن المنصور وجَّه يزيد بن حاتم إلى إفريقية ورَوْحاً أخاه إلى السِّنْد ، / فقيل له : يا أمير [١٨٨-ا] المؤمنين ، لقد باعدت بين قبريهما ! فقضى أن ماتا جميعاً بالقيروان ، ودفنا بباب سَلَم[2] ، وعليهما سارية مكتوب فيها اسماهما .

---

(١) كذا ، وربما كانت صحتها : ياروح .

(٢) باب سلم مقبرة مشهورة خارج القيروان ، وفيها قبور نفر كبير من الصالحين وأهل العلم ، وذكره كثير فى رياض النفوس للمالكى .

ولرَوْح يقول أبو دلامة ، وقد قال له : « لو خرجت معنا ! » فى خروجه لقتال الخوارج :

إنى أعوذ بَروْحٍ أن يقدِّمنى إلى القتال فتخزَى بى بنو أسدِ
إن الدُّنوَّ إلى الأعداء نعلمهُ مما يفرق بين الروح والجسدِ
إن المهلَّبَ حُبَّ الموت أورثكم ولم أرِثْ جَلَدًا للموت من أحدِ

وأما أنباؤه فى الجود فكثيرة ، منها أنه كان يوماً جالساً فى مَنظرة مع جاريته « طِلَّة » وكانت بارعة الجمال ، إذ طلع خادم له بقادوس مملوء ورداً فى غير أوانه فاستحسنه وأمر بأن يملأ دراهم لمُهدِيه ، فقالت الجارية : « ماأنصفته ! » ، قال : « وكيف وقد ملأته بدلا من ورده دراهم ؟ » ، قالت : « فإن ورده أحمر وأبيض ، فاخلط له الصلة » ، فأمر بدنانير فمزجت مع الدراهم .

ومنها — ويستدل به على بلاغته ورسائله اللاحقة بنمط الكُتّاب — أنه وجّه فى ولايته إفريقية إلى كاتبه بثلاثين ألف درهم ، وكتب معها : « قد بعثتُ إليك بثلاثين ألف درهم ، لا أقلِّلُها تكثُّراً ولا أكثِّرها تمنُّنًا ، ولا أستثيبُك عليها ثناء ، ولا أقطع لك بها رجاء ، والسلام » .

وبالجملة فهؤلاء المَهَالِبَة أخلدُ العرب شرفاً ، والأمداح فى مقاصدهم قصْد إذا كانت سرفاً .

ويُحكى أنه مات لروح هذا ولد ، فأقبل الحىُّ يعزونه ، فألفَوْه رخىَّ البال ضاحكَ السن ، فتوقفوا عن تعزيته ، وعرف ذلك فأنشأ يقول :

وإنا لقومٍ ما تفيض دموعُنا على هالكٍ منا وإن قَصم الظهرا

وهذا البيت فى شعر لأبى الهيْذام عامر بن عمارة بن خُرَيْم المُرّى يرثى به أخاه ، وكان قد قتله عاملُ سَجِسْتان للرشيد ، فجمع أبو الهيْذام جمعًا عظيماً لطلب ثأر أخيه وقال فى ذلك :

سأبكيك بالبِيض الرِّقاق وبالقَنا ... فإنَّ بها ما أدركَ الطالب الوِتْرا
ولستُ كمن يبكى أخاه بعَبرةٍ ... يعصِّرها من جفن مقلته عصرا
[١٨٨-ب] / ولكننى أشفى فؤادى بغارةٍ ... ألهِّبُ فى قُطْرَىْ جوانبها الجَمْرا
وإنا أناس ما تفيض دموعُنا ... على هالكٍ منا وإن قَصم الظهرا

١٩٢ — ابن أخيه داوود بن يزيد بن حاتم

استخلفه أبوه يزيد على إفريقية فى مرضه الذى توفى منه فى شهر رمضان سنة سبعين ومائة ، فجعل على شرطته خالد بن بَشير ، وبعث أخاه المهلَّب بن يزيد والياً على الزاب ، وقد كان قبل ذلك عليها من قِبل أبيه حين عزل المخارق ابن غفار الطائى عنها .

وأقام داوودُ والياً تسعةَ أشهر ونصف شهر إلى أن قدم عمُّه رَوْح بن حاتم أميراً على المغرب من قِبل هارون الرشيد ، وقَفل داوودُ فولاه الرشيدُ مصرَ سنة أربع وسبعين ، ومات بالسند وهو أمير عليها ، وكان جواداً ممدوحاً معدوداً فى أدباء الأمراء وله يقول مُسلم بن الوليد :

اللهُ أطفأ نارَ الحرب إذ سَعَرتْ ... شرقاً بمُوقِدِها فى الغرب داوودِ
ماضى العزيمـــةِ لا تخلو بديهتُه ... رأىَ المهلَّب أو رأى الأيازيدِ (١)

(١) الأيازيد جمع يزيد ، والمراد أولاد يزيد بن حاتم بن قبيصة والى المغرب لأبى جعفر المنصور ، وقد سبقت الترجمة له .

= وقد حكم المهالبة إفريقية ٢٣ سنة ما بين ولاية الأغلب بن سالم التميمى جد بنى الأغلب وولاية هرثمة بن أعين فى ربيع الآخر سنة ١٧٩ ، وجاء بعد هرثمة محمد بن مقاتل العكى سنة ١٨١ فحكم حتى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ ، ثم تولى إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال ، وبدأت دولة الأغالبة . فكان المهالبة بذلك أسرة توالى رجالها على حكم المغرب فى الفترة بين استبداد بنى أبى أمية عبيدة بن عقبة بن نافع وبنى الأغلب بن سالم بن عقال .

وقد رأيت لهذا أن آتى هنا بشجرة من تولى منهم أمر إفريقية :

المهلب

- قبيصة
  - حفص
    - عمرو : ولاه أبو جعفر المنصور إفريقية سنة ١٥١ . قتل فى القيروان سنة ١٥٤ . وهو أول من تولى إفريقية من آل المهلب
    - جميل : بايعه الناس فى القيروان بعد مقتل أخيه عمرو فى ذى حجة ١٥٤ .
  - حاتم
    - يزيد : تولى إفريقية ١٥٤ وتوفى فيها ١٧١ .
      - داوود : استخلفه أبوه أثناء مرضه . دامت ولايته ٩ أشهر ونصفاً ، حتى أقبل عمه روح بن حاتم .
      - سليمان : من قواد أخيه داوود
      - المهلب : قام بأمر إفريقية حتى وصل الفضل بن روح ابن حاتم .
        - المغيرة : ولاه الفضل بن روح تونس . أساء التصرف . كان ذلك سبب ثورة ابن الجارود .
    - روح : أكبر من أخيه يزيد لكنه تولى إفريقية بعده . ولاه الرشيد ١٧١ وتوفى ١٧٤ .
      - قبيصة : بويع بعد وفاة أبيه . عزله الرشيد بنصر .
      - الفضل : كان عاملا لأبيه على الزاب . تولى إفريقية ١٧٧ وأخرجه منها عبد الله بن عبدويه ابن الجارود سنة ١٧٨ ثم قتله فى شعبان ١٧٨ وهو آخر من تولى إفريقية من آل المهلب
- سعيد
- يزيد
  - حبيب
    - حبيب : استخلفه عمرو بن حفص بن قبيصة على القيروان ١٥٤
      - نصر : تولى إفريقية فى رمضان ١٧٤ حتى سنة ١٧٧ .

وقد رجعت فى ذلك إلى الطبرى وابن خلدون وابن الأثير وابن عذارى والنويرى وابن الأبار .

١٩٣ — نصر بن حبيب المهلبي

كان على شرطة ابن عمه يزيد بن حاتم فى ولايته كلها بمصر وإفريقية ، وكان محمود السيرة ، محببا إلى الناس ذا أدب ومعرفة ، فلما وَلِىَ رَوْحُ بن حاتم بعد أخيه يزيد — وقد أسنَّ وكبر حتى كان إذا جلس للناس كثيراً ما يغلبه النوم من الضعف — كتب أبو العنبر القائد وصاحب البريد إلى هارون الرشيد بضعف روح وكبره ، وسألا منه ولاية نصر هذا فى السِّر ووصفاه بحسن السيرة ، وبأنَّ له سنًّا ومعرفة ، فكتب الرشيد عهدَه وبعث به سِرًّا .

وتوفى رَوْح على إثر هذا ، فاجتمع الناس ليبايعوا قَبِيصة ابنَه ، وقد فرش له فى الجامع ، وكان أخوه الفضل بن روح غائباً بالزاب وعاملا عليها ، فركب أبو العنبر وصاحب البريد بعهد الرشيد إلى نصر بن حبيب فأوصلاه إليه ،
[١٨٩–١] وسلَّما عليه بالإمرة ، /وركبا به إلى المسجد فى من معهما حتى أتيا قبيصة وهو جالس على الفرش ، فأقاماه وأقعدا نصراً وأعلما الناس بإمرته وقرأا كتاب[1] الرشيد عليهم فسمعوا وأطاعوا ، وذلك يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وسبعين ومائة ، إلى أن صُرف بالفضل بن رَوْح بن حاتم لعشر بقين من ذى الحجة سنة ست وسبعين ومائة ، فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر لم يعدل أحد كان قبله عدلَه فيها .

ورسالتُه التى كتب إلى العمال بها لما وَلِىَ مذكورة فى الكتاب المُغْرب عن أخبار المغرب ، وهى دالة على مكانه من البلاغة والبيان .

---

(١) الأصل : وقرا كتب .

١٩٤ — عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية
المعروف بالبلنسى

قام بالأمر لأخيه هشام بن عبد الرحمن ، إذ كان غائبا عند وفاة أبيهما بماردَة ، إلى أن ورد قرطبة فبادر لمبايعته وتسليم القصر إليه ، وخرج إلى داره ؛ وذلك فى غرة جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين ومائة . ثم استوحش منه ، فهرب إلى أخيهما سليمان كبير أولاد عبد الرحمن المولود له بالشام — وكان منازعاً لهشام — وأقام معه بطايطلة . وبعد ذلك ورد قرطبة محكِّماً فى نفسه بلا عهد ولا أمان ، فقبله هشام ، وطلب الخروج إلى العدوة فأسعفه ، واتَّبعه فى ذلك سليمان ، فاستراح منهما هشام إلى أن توفى سنة ثمانين ومائة .

وولى ابنه الحكم بن هشام المعروف بالرَّبَضِىّ ، فوصل عبدُ الله من العُدوة ونزل بكورة بَلَنْسِيَّة وقدم بعده سليمانُ من طَنْجَة ، فنازعا الحكَمَ وحارباه ، فقتل سليمان فى خبر طويل . ورغب عبدُ الله فى المقام ببَلَنْسِيَّة ، على أن يؤدى الطاعة ولا يطأ له بساطاً ، فتم ذلك .

وأقام إلى أن توفى الحكَمَ ، ووَلِىَ عبدُ الرحمن ابنُه ، فأخَّر بيعتَه والتوى بها ، وكتب إليه يعتل عليه ، ويعدد حقوقه عنده وعند أبيه وجده ، ويسأله أن يضم كورة تُدْمِير إليه ويتجافى له عن خَرْجِها . وتقدم على تفئة[1] ذلك من بَلَنْسِيَة إليها فاحتلها ، وكشف وجهه بالمعصية ، واستنفر إليها مَن حواليه / فثاب [١٨٩—ب] إليه منهم خلق كثير ، عسكروا معه بباب تُدْمِير ، وكان توافيهم إليه فى يوم خميس أرادوا الخروج فيه نحو قرطبة ، فأتاهم وقال : « بل نصلى على بركة الله

(١) الأصل : تقية ، والمراد : على إثر ذلك ، وربما كانت صحتها تَئِيَّة .

غداً صلاة الجمعة ، ونفصِل يوم السبت بعده » ، فتولى الخطبة بالناس يوم الجمعة ، فأبلغ فى تذكيرهم وتحريضهم ، وكان خطيباً مصقعاً . فلما شارفَ مقطع خطبته قال : « معاشر الناس ! رحمكم الله ، أمِّنوا على ما أدعو الله به ، واسألوه ما أنا سائله من الخيرة فيما أؤمله » ، ورفع يده نحو السماء فقال : « اللهم إن كنتُ أحقَّ بهذا الأمر الذى قمت فيه من عبد الرحمن بن هشام — حفيد أخى — فانصرنى عليه ، وافتح لى فيه ، وإن كان هو أحقَّ منى — وأنا صِنْوُ جده — فانصره علىّ » ، فأمَّن الناسُ جميعاً عاليةً أصواتُهم . فلم يكد يستوعب كلامه ، حتى ضربته الريح الباردة فسقط إلى الأرض مفلوجاً ، واحتُمل إلى مكان مُضطرَبه ، فأكمل الناس صلاتَهم بغيره .

ومكث عبدُ الله مسكَتاً أياماً ، ثم إن الله أطلق لسانَه ومنعه سائرَ جوارحه ، فقال لأتباعه : « إن الله تعالى قد أجاب الدعوة ، وفَصَل الخطاب[1] ، وحمانى الإمرة ، ولا مرد لحكمه . . فامضوا لسبيلكم » ، فتفرق جمعه . وصرفه أهله إلى وطنه ببَلَنْسِيَّة ، فكاتب عبدَ الرحمن بخبر علته ويأسه من نفسه ، وعهد إليه بالنظر لأهله وولده ، فأنفذ عهده ولم يعرض له إلى أن مات سنة ثمان ومائتين . وقد كان ابنُه عبيدُ الله بن عبد الله لحق بالحكم بن هشام ، وكان من ذوى مشورته وكبار [قواده][2] وأغنى « يومَ الهَيْج » أعظم غناء ، ثم قاد الصوائف لعبد الرحمن بن الحكم ، فكان يعرف بـ«صاحب الصوائف » ؛ وهو أحد رجالات بنى أمية .

---

(١) الأصل : وفَصَّل الخطة .

(٢) بياض فى الأصل .

١٩٥ — فُطَيْس بن سليمان بن عبد الملك بن زَيَّان ، أبو سليمان — الكاتب

بانى بيت الوزراء بنى فُطَيْس . دخل الأندلس فى أيام الأمير عبد الرحمن ابن معاوية ، فضمه إلى ابنه هشام وكتب له حتى إذا وَلِىَ الخلافة ولاه السوق ، وكورة قَبْرَة[1] ، والوزارة .

وأمضاه الحَكَمُ بنُ هشام على ذلك — بعد وفاة أبيه هشام ، واستكتبه أيضاً . وكان له فى « الهَيْج » مقام / محمود . قال أبو بكر الرازى : رأيت اسمَ [١٩٠-١] فُطَيْس فى ديوان الأمير الحكم أولَ اسم : « أبو سليمان فُطَيس ، خمسمائة دينار » . قال : وتوفى فى آخر يات أيامه .

وفُطَيْس هذا خاتمة الذين أبقيت فى هذه المائة على ما شرطتُ ، ولم أذكر فيها إلا من كان بالشعر مذكوراً ، أو على فن من فنون الأدب مقصوراً ؛ وكذلك فيما بعد .

* * *

(١) قَبْرَة : اسم كورة من كور جنوب الأندلس ، وهى أولى الكور الوارد ذكرها فى التعليق المنتقى من فرحة الأنفس ، ص ١٣ وفى ترجمة صفة الأندلس للرازى ، رقم ١١ ص ٦٥ . وكانت تلك الكورة تقع جنوبى قرطبة وشمالى كورة إلبيرة ، بينها وبين كورة جيان . وقبرة اليوم **Cabra** مركز إدارى فى مديرية قرطبة .

انظر : الروض المعطار ، رقم ١٣٤ ص ١٤٩ والترجمة الفرنسية ص ١٧٨ .

المائة الثالثة

١٩٦ ــ أبان وعثمان ـ ابنا الأمير عبد الرحمن بن الحكم
ابن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

كانا أديبين شاعرين . سَمّى أبانَ فى أولاد عبد الرحمن بن الحَكم أبو بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازى فى كتاب « الاستيعاب فى الأنساب » من تأليفه ، ووصفَه بالشِّعر أبو محمد بن حزم فى كتابه أيضاً فى « الأنساب » ، وذَكر عثمانَ أخاه أبو عبد الله الحُمَيْدى فى تاريخه عن أبى عامر بن مسلمة ، ولم يذكره الرازى .

١٩٧ ــ مسلمة أبو سعيد ، وهشام أبو الوليد ، والأصْبَغ أبو القاسم ، وعبد الرحمن أبو المطرف ـ
بنو الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم

كانوا أدباء . ووَلِىَ مسلمةُ منهم كورةَ شُذُونة ، فأقام بها أعواماً جميلَ السيرة ، مكتسباً للمحامد ، يجمع إلى تقدمه فى أساليب الأدب نزاهةَ النفس وسماحَ الكف ، مع الحلم والدماثة .

وظهرت براعة الأصْبَغ فى الأدب لأول نشأته ، وسَمَا لمناغاة إخوته ، فانكدر

سريعاً رطيب الغصن بتاء شبابه ، وتوفى وهو دون الثلاثين فى سنه ، فاشتدت على أبيه الأمير محمد فجيعتُه .

وأما عبد الرحمن فأغزاه أبوه بجيش الصائفة ، ومعه وليد بن عامر الوزير ، وكان من سَراة ولد الأمير محمد وأدبائهم ، وتوفى أيضاً فى حياة أبيه .

ووَلِىَ هشام لأخيه الأمير عبد الله جَيّان ، ونَوَّه به فى عسكره ، وقلده ميسرته فى غزواته . وكان من أتم أهل بيته جمالا ، وأكملهم أدباً ، ثم سُعِى به إليه فقتله .

[١٩٠-ب] وكان الأمير محمد من مناجيب الخلائف / من بنى مروان : بسَق من أولاده فى الأدب عـدة ، منهم عبد الله الأمير الوالى بعد أخيه المنذر ، والمطرف والقاسم — وقد تقدم ذكرهم — ومَسْلمة وأصْبَغ وعبد الرحمن وهشام المذكورون هنا . وأما المنذر — وهو الوارث سلطانَ أبيه بعده — فكان ، مع زهده فى الأدب وعطوله من حليته ، يعجب بالشعر ويفضل أهله ، ويرغب فى المديح . وفى أيامه نجم أبو عُمر بن عبد ربه .

١٩٨ — محمد ابن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم ، أبو القاسم

والدُ الناصر عبد الرحمن بن محمد . كان بكرَ أولاد أبيه ، وخليفتَه إذا غاب عن حضرته ، والمرشحَ لمكانه . وكان من أهل العناية بالآثار ، والرواية للأخبار ، والتفنن فى الآداب . ووَلِىَ لأبيه إشبيلية ، ثم هرب إلى عُمر بن حَفْصون فى قصة طويلة . وحُبس بعد ذلك بالقصر ، إلى أن قتله أخوه المطرف ابن عبد الله عند انبلاج الفجر من يوم الخميس ليلة عشرة خلت من شوال

سنة سبع وسبعين ومائتين . ثم قُتل المطرف به بعد ذلك – وبأمور سوى هذا – يوم الأحد لعشر خلون من رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، وهو ابن سبع وعشرين سنة : سنِّ أخيه قتيلِه محمد ، إذ كان بينهما فى المولد خمسة أعوام عاشها المطرف بعده .

١٩٩ – أحمد بن معاوية بن محمد بن هشام بن معاوية ابن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ،

أبو القاسم – المعروف بابن القِطّ

ومحمد بن هشام جده هو المنبَّز بذلك . وكان جميل الوجه ، فيه يقول ابن أيوب القرشى :

أعجوبةٌ ما سُمعتْ قَـطُّ قالوا : رشًا والدُه قِـطُّ
قد قلدوكَ السيفَ ياسيدى والقُرط أولى بك والرِّ بْطُ

وكان أحمد هذا من أهل العناية بالعلم والصناعة والنجامة ومعرفة الهيئة(١) ، وكانت له حركة وفيه شراسة . وخرج فى أيام الأمير عبد الله بن محمد – أوانَ ارتجاج الفتنة – يطلب / الدولة ، ويُظهر الحِسبة والرغبة فى الجهاد ، إلا أنه [١٩١ – ا]
كان يتكهن ويموِّه .

---

(١) أورد ابن حيان فى المقتبس خبر أحمد بن معاوية القط هذا بأوسع تفصيل (المقتبس ، الجزء الذى نشره ملشور أنطونيا ، ص ١٣٣ وما يليها) ، وقد أورده أولا برواية عيسى بن أحمد الرازى ، ثم برواية الخليفة الحكم المستنصر عن القاضى منذر بن سعيد البلوطى ثم برواية معاوية ابن هشام الشبينسى . وابن الأبار ينقل عن هذه الرواية الأخيرة مع تغيير لايذكر ، انظر ص ١٣٨– ١٣٩ ، والأبيات التى أوردها هنا واردة فى رواية عيسى بن أحمد الرازى.

واجتمع إليه خلق عظيم — يقال إنهم بلغوا بين خيل ورَجْل ستين ألفاً — أكثرهم من برابر الجوف والغرب ومن أهل طليطلة وطَلَبيرَة ، قصد بهم سَمُورة[١] . وكتب إلى الطاغية ملك جَلِّيقية[٢] ومن معه كتاباً مغلظاً ، يدعوهم فيه إلى الإسلام وينذرهم بالصاعقة ، وأمر رسوله أن يستعجل منهم الجواب ولا يتوقف عندهم ، وإن هم أبَوْا من مجاوبته أن يعود بالخبر إليه ؛ ونسخة كتابه ذلك مشهورة عند أهل الثغر لبلاغته[٣] . فحَمِيَ الطاغيةُ عند ذلك ونشب القتال ، فخذله رؤساء البربر[٤] ، وثبت هو فيمن بقى معه من أهل البصائر ، حتى قُتل فى اليوم الرابع ، واستؤصل أصحابُه إلا قليلا ، وحُزَّ رأسُه وجيء به إلى الملك

---

(١) سمورة Zamora قاعدة مديرية تحمل نفس الاسم على الضفة اليسرى لنهر دويره قريباً من الحدود الشمالية الشرقية للبرتغال . كانت فى أوائل أيام الإمارة منطقة خلاء بين مملكة ليون والإمارة القرطبية ، وكان العرب لأول الفتح قد أسكنوها وإقليمها جماعات من المسلمين معظمهم من البربر ، ثم استولى عليها ألفونسو الثالث سنة ٨٩٣/٢٨٠ وأراد أن يضمها إلى مملكة ليون ، ولكن عبد الرحمن الناصر استردها ، ثم استولى عليها سانشو ملك نَبَرَّه سنة ٩٥٩/٣٤٨ ، وتمكن المنصور بن أبي عامر من استردادها وتعميرها وتحصينها سنة ٩٨٨/٣٧٨ — ٩٨٩ ثم أسكنها نفراً من المسلمين سنة ٩٩٩/٣٨٥ وأقام عليها أبا الأوس معن بن عبد العزيز التجيبى حاكماً ، ويبدو أنها خرجت عن يد قرطبة بعد ذلك لأن عبد الملك المظفر بن المنصور عاد فغزاها سنة ١٠٠٥/٣٩٥ ، ثم أعقبت ذلك الفتنة وخرجت عن أيدى المسلمين ، وأصبحت من قواعد مملكة قشتالة وليون . وقد سميت لكثرة ما تعاورتها الغزوات سمورة الخراب . وأوفى مادة عنها فى المراجع ماكتبه صاحب الروض المعطار ، رقم ٨٧ ص ٩٨ ، والترجمة الفرنسية ص ١٢٠ . وانظر أيضاً المادة التى اختصها بها ليڤى پروڤنسال فى د. م. إج ١٢٨١/٤ .

(٢) أورد ابن حيان اسم هذا الملك : أذفونش بن أردون ، وهو ألفونسو الثالث ، الذى انتهز فرصة الفتنة التى فرقت أمر الأندلس على عهد الأمراء محمد والمنذر وعبد الله ومدّ حدود مملكة ليون إلى شاطىء نهر دويره ، وكان هذا هو الذى أثار مسلمى الثغر الأدنى وجعلهم يؤيدون أحمد بن معاوية القط ويسيرون معه . وقد فصل عيسى بن أحمد الرازى ذلك .

(٣) هذه العبارة لعيسى بن أحمد الرازى ، انظر المقتبس ، ص ١٣٦ .

(٤) أى خذلوا أحمد بن معاوية القط .

فنصبه على باب سَمُورة . وعظمت المصيبة بكثرة من قُتِل من المسلمين ؛ وهذه الوقيعة تعرف عند أهل الثغر بـ«يوم سَمُورة» ، وكانت سنة ثمان وثمانين ومائتين .

٢٠٠ — مالك بن محمد بن مالك بن عبد الله بن عبد الملك ابن عمر بن مروان بن الحكم ، أبو القاسم

قال فيه أبو الوليد بن الفَرَضى (١) : قرأ على بَقِىّ بن مَخْلَد كثيراً وصحِبَه ، وسمع من الخُشَنى ، وكان بليغاً شاعراً . ووَلِىَ الولايات بعد ذلك ، حتى إن بَقِىّ ابن مَخْلَد قال له : « يا مالك ، أوصيك بوصية : إنك لا تستطيع كل ما يجب عليك ، ولكن كن أسدّ من غيرك » . قال مالك : « فأنا والله أسدُّ من غيرى »

وقال ابنُ حَيّان فيه : أحد رجالات قريش فى زمانه . كان من نبلاء المتأدبين ، ومن الشعراء المطبوعين ، وممن عُنِى — على ذلك — برواية الحديث ، وتقييد الآثار ، والافتنان فى العلم والأدب . أخذ عن بَقِىّ بن مَخْلَد والخُشَنى وغيرهما من طبقتهما ، وكان مفتناً فى ضروب الآداب ، بصيراً بالنحو ، حافظاً للغة ، ذا نصيب وافر من الإملاء له ، والبلاغة فى الترسيل . صحب السلطان وتصرف فى أعماله الرفيعة .

* * *

(١) لم أجد هذه الترجمة فى تاريخ العلماء المطبوع لابن الفرضى .

ومن موالى المروانية وولاتهم بالأندلس :

٢٠١ – /محمد بن عبد السلام بن بَسِيل [١٩١-ب]

المعروف بالشيخ

ولد لأبيه عبد السلام بالأندلس ، بعد دخوله إليها مع ابنيه يحيى وعبد الواحد أيامَ عبد الرحمن بن معاوية . و بَسِيل مولى هشام بن عبد الملك .

فاستعمل عبدُ الرحمن عبدَ السلام على إشبيلية وشذونة ومَوْرُور[1] والجزيرة ، جَمَعها له ؛ واستعمله أيضاً على كورة ماردة وغيرها من الكور .

وتصرّف عبدُ الواحد ابنهُ معه فى العمالات . ولما أخرج الأميرُ عبدُ الرحمن ابن الحكم ابنَه محمداً أميراً على جَيّان ، وجّه عبدَ الواحد معه — وقد أسنّ — فكان عاملَ الكورة تحت يد محمد .

وتصرّف محمد بنُ عبد السلام هذا أيامَ الحكم فى العمالات ، ثم فى الوزارة

(١) مورور : فى التقسيم الإدارى الأندلسى كانت مورور كورة قاعدتها تحمل نفس الاسم ، وكانت تقع جنوبى الوادى الكبير بين كورتى قرطبة وتاكُرُنّا (انظر صفة الأندلس ، رقم ٦٣ ص ٩٥) ولكن التعليق المنتقى من فرحة الأنفس يجعلها « من مدن قرطبة » (ص ٢٤) ، والغالب أن ذلك خلط ممن قام بعمل ذلك التعليق ، لأن صاحب الروض المعطار – وقد كتب بعد ابن غالب صاحب فرحة الأنفس – يقرر أنها كورة . وتقع بلدة مورور على سفح جبل يحمل نفس الاسم : Sierra de Morón ولهذا فقد اشتهرت بحصانتها . وفى أول عصر الطوائف استبد بها محمد ابن نوح الدَّمَّرِى وأنشأ بها إمارة بربرية ، ولم يلبث المعتضد بن عباد أن ضمها إلى إشبيلية سنة ١٠٦٠/٤٣٨ ، ومن ذلك الحين أصبحت مورور وإقليمها من توابع إشبيلية ، وهى اليوم مركز إدارى فى تلك المديرية وتسمى Morón وقد سقطت فى يد فرناندو الثالث مع إشبيلية سنة ١٢٤٨/٦٤٦ .

انظر : ياقوت (١٩٣/٨ ، يكتبها خطأ : موزور) . وأبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص١٧٥ . والروض المعطار ، رقم ١٨١ ص ١٨٨ والترجمة الفرنسية ص ٢٢٧ ، والمادة القصيرة فى د . م . إ . ج ٦٤٧/٣ والمراجع المذكورة هناك .

والمدينة والكتابة والخيل وخطط سواها أيامَ عبد الرحمن بن الحكم ، كان رزقه عليها فى كل شهر ثلاثمائة دينار — قاله الرازى .

٢٠٢ — محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم مولى الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك

دخل أبوه إلى الأندلس . وكان محمد هذا بناحية الجزيرة ، واصطنعه عبدُ الرحمن بن عبد الحكم فى إمارته على شذونة من قبل أبيه الحكم ، فكان يأنس به فى بعض الأحيان . ثم أفضت إليه الخلافة ، فاستقدمه وصرّفه فى الحجابة والوزارة . وهو أحد القواد الذين كان فتح المجوس[1] على أيديهم بإشبيلية ، إلى فتوحات تُعلم له .

(١) المراد بالمجوس هنا النورمان أو الأردمانيون كما تسميهم النصوص . سماهم المسلمون بالمجوس ، لأنهم كانوا إذا أغاروا على موضع أشعلوا النيران فيما وصلوا إليه . وكانوا يخرجون لغزو الشواطئ فى مراكب صغار ذات أشرعة سود من مراكزهم فى جنوب إسكنديناوة أو جنوبى إنجلترا أو — وهو الأغلب — من مراكز احتلوها على شاطئ فرنسا الشمالى فى ناحية فْريزيا التى سميت بعدذلك باسمهم La Normandie ، وكانوا إذ ذاك وثنيين لا يفرقون فى غزواتهم بين مسلمين وغير مسلمين . وقد تتبع مؤرخونا أعمالهم المخربة على شواطئ الأندلس فى دقة عظيمة ، وأول نزولهم الأندلس كان يوم الأربعاء أول ذى الحجة ٢٢٩/٨٤٤ بعد غزوهم غرب فرنسا . نزلوا عند الأشبونة ودخلوا بسفنهم فى مصب نهر تاجه ، فتصدى لهم وهب الله بن حزم عامل الأشبونة ، ثم دخلوا مصب الوادى الكبير فى ١٢ محرم ٢٣٠ ودخلوا قادس ثم إشبيلية وأشعلوا النار فى مسجد عرف بعد ذلك باسم مسجد الشهداء ، فحشد الأمير عبد الرحمن قواده لحربهم ومن بينهم محمد بن رستم المترجم له هنا . وقد فصلنا ذلك فى بحث خاص عن « غزوات النرمانيين فى الأندلس ورحلة يحيى الغزال » (مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، سنة ١٩٤٩) . وانظر أيضاً : أبحاث دوزى ، الطبعة الثالثة ، ج ٢ ص ٢٥٠ — ٣٧١ ، وليڤى پروڤنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ج ١ ص ٢١٨ وما بعدها .

وكان أديباً ، حكيماً ، لاعباً بالشطرنج – ذكره الرازى . ولمحمد بن سعيد هذا شعر فى « الحدائق » لابن فرج ، قد كتبتُ منه فى « الكتاب المحمدى » من تأليفى ، فنُقل من هنا اسمه إلى باب نظرائه .

٢٠٣ – عبد الله بن محمد بن أمية بن يزيد بن عبد الرحمن ابن أبى حَوْثَرَة

مولى معاوية بن مروان بن الحكم

دخل أمية إلى الأندلس فى طالعة بَلْج ، وكتب لعبد الرحمن بن معاوية ، ثم كتب ابنهُ محمد للأمير الحَكم بن هشام ، واتهمه بالميل مع عمه سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية وعزله ، ومات خاملا .

/ وحَكى الرازى أنه وَلِىَ الوزارة والكتابة لهشام ، ثم عُزل . قال : فأما [١٩٢–ا] عبد الله بن محمد – يعنى ابنَه هذا – فوَلِىَ الوزارة والكتابة للأميرين عبد الرحمن ومحمد ، وتصرف قبل الوزارة فى الولاية والعرض .

٢٠٤ – ابنه عبد الملك بن عبد الله ، أبو مروان

كان فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن مخصوصاً بالكتابة العليا مع الوزارة ، ثم وَلِىَ المنذرُ بن محمد فأقره عليهما ، وهو الذى أغراه بهاشم بن عبد العزيز حتى قتله .

ثم وَلِىَ الأميرُ عبد الله بن محمد – أخو المنذر – فجمع له القيادة مع الوزارة .

وقتله المطرفُ بن عبد الله — على ميلين من إشبيلية ، وهو يقود جيشه — في سنة اثنتين وثمانين ومائتين[1] ، واستعمل على الجيش أحمدَ بن هاشم بن عبد العزيز ، للعداوة التي كانت بينهما . وفي شهر رمضان من هذه السنة قُتل المطرف ، وقد تقدم ذكر ذلك[2] .

وكان مروان بن عبد الملك يخلُف أباه على الكتابة ، ووَلِيَ الشرطة العليا ، ثم قُتِل بعد حبسه وعزله عن الشرطة سنة أربع وثمانين ومائتين .

٢٠٥ — وليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم

وَلِيَ للأمير محمد بن عبد الرحمن خطتي الوزارة والمدينة ، وقاد جيش الصائفة لابنه عبد الرحمن بن محمد ، وذكر ابنُ حيّان من وفور هذا الجيش ما يُستغرب . واختص وليد هذا بصداقة هاشم بن عبد العزيز ، وإياه خاطَب من موضع أسره دون الوزراء ، وهو قام بعُذره عند الأمير محمد ، فشُكر وفاؤه ، وكان كاتباً ، أديباً ، مرسّلا ، بليغاً . وابناه محمد وعبد الرحمن من أهل الأدب والبلاغة والشعر ، ومحمد أبعدُهما شأوًا في ذلك . وقد عاشر المطرف ابن الأمير محمد على الأدبِ وكاتبَه بالشعر ، ووَلِيَ المدينة والوزارة والكتابة ، وارتفع قدره في الدولة . وقد تقدم ذكر أخيه عبد الرحمن . وتوفي وليد في شعبان سنة اثنتين وسبعين ومائتين .

---

(١) فصل ابن حيان هذه الواقعة في المقتبس ، ص ١١٠ — ١١١ .

(٢) قتل الأمير عبد الله ابنه المطرف بسبب اعتدائه على القائد عبد الله بن عبد الملك بن مروان المترجم له هنا . انظر المقتبس ، ص ١١١ .

٢٠٦ — محمد بن عبد الملك بن جَهْوَر بن يوسف ابن بُخْت الفارسى

مولى عبد الملك بن مروان

دخل الأندلسَ جدُّ أبيه أبو الحجاج يوسف بن بُخْت فى طالعة بَلْج[1] ، وكان أحد القائمين بأمر عبد الرحمن بن معاوية ، فاستحجبه واستخلفه وقتاً على قرطبة . وقاد الخيل إلى جلِّيقية أيامَ / الأمير هشام ، وبلغ الفىء فى تلك [١٩٢-ب] الغزاة تسعة وثلاثين ألفاً ، وتوفى بطليطلة .

وكان ابنهُ جَهْوَر بن يوسف وزيراً للأميرين الحَكَم بن هشام وعبد الرحمن ابن الحَكَم .

ووَلِىَ ابنُ ابنِه — محمدُ بن عبد الملك هذا — الوزارة والقيادة للأميرين محمد ابن عبد الرحمن والمنذر بن محمد ، وتوفى ولم يُعقِب . وكان الأمير محمد قد نصبه إزاء هاشم بن عبد العزيز ليكسر منه ، فكان هاشم بنصاعة ظَرفه ورقة أدبه يكيده ويستذله ، إذ كان محمد ناقص الأدب لَحّانة ، إلا أنه كان كاتباً ساذج الصناعة ، مستقلا بالأعمال السلطانية ، متصرفاً فيها بعفة وكفاية[2] — قاله ابنُ حَيّان ، وحكى أن هاشماً احتال فى سَمِّ ابن جهور هذا وحضر جنازته فأنشد :

يارُبَّ عقــدةِ سَوْء يحلُّهــا الموتُ قسرًا

(١) الأصل : طاعة بلج ، وهو خطأ .

ويلاحظ التناقض بين ما يذكره ابن الأبار هنا من أن جهور من أحفاد يوسف بن بخت وما قاله قبلا من أن الجهاورة من أحفاد حسان بن مالك المعروف بأبى عبدة . وإلى أن نعثر على الجزء الأول من تاريخ ابن حيان لن نستطيع القطع فى الموضوع .

(٢) فصل الكلام فى ذلك ابن حيان فى الجزء الذى يعده للنشر الدكتور محمود على مكى .

٢٠٧ – إبراهيم بن حجاج بن عُمَير بن حبيب اللخمى أبو إسحاق

بيته نبيه فى عرب حِمص(١) ، وثار بها عند ارتجاج الفتنة(٢) ، وقَتل كُرَيْب بن عثمان بن خلدون وأخاه خالداً ، وملَكَ إشبيلية وقرمونة ، واتخذ لنفسه جنداً يرزقهم طبقات ، فكان فى مصافِّه منهم خمسمائة فارس(٣) . ولم يجاهر بالمعصية فى أكثر أوقاته ، ولا خَلَع فى جميع مدته ، وكان مالُ مُفارَقَتِهِ(٤) يردُ على الأمير عبد الله كل سنة ، ومَدده يتوافى إليه لكل صائفة إلى سنة ثمان وتسعين ومائتين .

وكان منتجَعاً على البر والبحر ، جوادًا ممدَّحاً ، يرتاح للثناء ويعطى الشعراء عداد الأموال . وكان قصَده أبو عمر بن عبد ربه — من بين ثوار الأندلس —

---

(١) المراد بحمص هنا إشبيلية ، لأن جند حمص نزلوها عندما فرق أبو الخطار الحسام ابن ضرار الكلبى الجند على الكور ، وكذلك كانت تسمى فى كثير من النصوص . والعبارة هنا منقولة عن ابن الفرضى برواية ابن حيان . انظر المقتبس ، ص ١٣١ .

(٢) المراد بذلك الفتنة الأولى التى بدأت أثناء حكم الأمير محمد واستمرت إلى منتصف حكم عبد الرحمن الناصر ، وقد بدأها عبد الرحمن بن مروان بن يونس المعروف بالجليقى بناحية ماردة من الثغر الأدنى بعد هروبه من قرطبة سنة ٢٦١/٨٧٥ على إثر إهانة أنزلها به الوزير هاشم بن عبد العزيز واعتصم بحصن الحَنَش قرب ماردة ، ومن هناك بدأ حركة عصيان واسعة المدى عجزت الدولة عن القضاء عليها فى حينها ، فتشجع ثوار آخرون على الوثوب فى النواحى أخطرهم جميعاً عمر بن حفصون الذى ثار ابتداء من سنة ٢٧٠/٨٨٣ فى جبال تاكُرُنّا واعتصم بحصن بُبَشْتْرُ . وخلال حكم الأمير عبد الله (٢٧٥ – ٣٠٠/٨٨٨ – ٩١٢) استفحلت الفتنة حتى لم يعد سلطان الإمارة القرطبية يمتد إلى أكثر من إقليم قرطبة .

(٣) ابن الأبار ينقل هنا عن ابن حيان (المقتبس ، ص ١١ وما يليها) مع إسقاط بعض العبارات ومحاولة للإيجاز تنحرف بالمعنى بعض الشىء .

(٤) سبق أن شرحنا هذا المصطلح . انظر الفهارس العامة فى آخر الكتاب .

فأفضل عليه وعرف له حقه ، فمدحه بأماديح مشهورة . وقصَده محمد بن يحيى القَلْفَاط بقصيدة هجا فيها عشيرتَه أهلَ قرطبة ، ولم يستثن منهم سوى بدرٍ الوصيف مولى الأمير عبد الله ، فحرمه ومقته ، وانصرف خائباً فابتدأ بهجاء ابن حجّاج . وبلغه ذلك فأحفظه ، وأوصل إليه من حلف له عنه : « لئن لم تكُفَّ عما أخذت [فيه] لآمرنّ من يأخذ رأسك وأنت فوق فراشك بقرطبة »(١) ، فارتاع وكف عن هجائه .

٢٠٨ – إسحاق بن إبراهيم بن صخر بن عَطّاف ابن الحُصَين بن الدَّجْن العُقَيْلى

كان من أهل المَعاقد(٢) أيام الجماعة ، يشهد مع الأمير محمد وقواده الصوائف ، ويقوم بين يديه المَقَاوِم(٣) ، /ويخطب على رأسه فى الأعياد ومجالس المحافل [١٩٣-أ] وأيامَ التبريز للمغازى ؛ وجرى على ذلك فى أيام ولديه المنذر وعبد الله من بعده ،

---

(١) العبارة بنصها واردة فى الخبر كما رواه ابن حيان عن ابن الفرضى . المقتبس ، ص ١٣٣ .

(٢) لم يرد لفظ المعاقد بصيغة المفرد فى النصوص ، وإنما يقال دائماً : من أهل المعاقد ؛ ويراد به أولئك الذين تعتبرهم الإمارة رؤساء على قومهم من جماعات العرب ، فتعقد لهم رايةً فى الجيش على عدد معين من المقاتلين أو الفرسان لابد أن يأتوا بهم عند النفير . وقد أورد دوزى أمثلة لاستعمال اللفظ : « لكل رئيس منهم عقدة يعقدها وعدة يعتد بها » و« ثم سأله أن يعقد له على قومه سنة كاملة » و« حتى أتت العقدة إلى يحيى من عند الأمير » و « فاجتمعت حوله عقدة من ثلاث مائة فارس لم يجتمع بالأندلس قبله ولا بعده مثلها . . . » الخ . انظر : ملحق القواميس ، ١٥٠/٢ .

(٣) أى يقوم بين يديه خطيباً فى المقامات ، ومقاوم جمع مقامة ، وابن حيان كثيراً مايستعملها فى هذا المعنى : « كان يقوم بين يدى الخليفة المقاوم » و« قام بين يدى الأمير بمقامة حسنة » . انظر : ملحق القواميس لدوزى : ٢ /٤٢٧ .

فلما ثارت الفتنة وتميزت الفِرق ، دخل إسحاقُ هذا حصن مَنْتِيشَة[١] ، فبناه وحصنه وامتنع به من ابن حَفْصُون وأهل الخلاف ، وتمسك بالطاعة — على تعززه عن العزل[٢] — إلى أن ضربت دولة[٣] الجماعه بعطن ، فاستنزله قَيِّمُها الخليفة عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله إلى قرطبة سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ، وبها توفى .

٢٠٩ — محمد بن أضحَى بن عبد اللطيف الهَمْدانى

من أكابر أبناء العرب بكورة إلْبِيرَة ، وكان بينه وبين سعيد بن جُودِىّ — أمير العرب أيامَ الفتنة — عداوة شديدة ، أوجبت على ابن أضْحَى الهربَ عنه بنفسه إلى غير مكان ، وسعيدٌ يجد فى طلبه ويبذل المال فيه ، إلى أن مضى

(١) مَنتيشة بفتح الميم ، هى Mentesa : بلدة صغيرة كانت فى كورة جيان ولم يعد لها وجود الآن . وقد ذكرها أليمانى بولوفر فى بحثه عن جغرافية شبه الجزيرة الأيبيرية عند العرب ، وقال إنها مذكورة بهذا الرسم عند كتاب الرومان كرحلة من مراحل الطريق الرومانى فى مقاطعة بيطى **Baetis** والمراد بها هنا جنوب شبه الجزيرة ، وهى منسوبة إلى نهر بيطى وهو الاسم القديم للوادى الكبير .

Cf. : J. ALEMANY BOLUFER, ***La Geografia de la Peninsula Ibérica en los Escritores Arabes.*** **Granada, 1921, p. 94.**

وورد ذكرها أيضاً فى قسمة قسطنطين التى أورد نصها البكرى ونشره ليڤى پروڤنسال ذيلا على الترجمة الفرنسية للروض المعطار . انظر : ص ٢٤٦ من الترجمة الفرنسية وص ٢٤٨ وتعليق ١٤ . وقد ذكرها ياقوت بضم الميم وقال إنها كورة فى جيان ، ثم أضاف « وقيل إنها من قرى شاطبة » (٨/١٧٢) ، فخلط بهذا بين مَنتيشة التى ذكرناها ومُنتيشة **Montesa** بلدة صغيرة فى مديرية بلنسية ، وتقع على ٢٢ كيلومتراً جنوب غربى شاطبة .

(٢) هذه الفقرة كلها منقولة عن ابن حيان (المقتبس ، ص ٢٩) وجاءت العبارة هناك : على تعززه على العُمَّال .

(٣) الأصل : عزلة ، والتصويب من ابن حيان ، المقتبس ، ص ٢٩ .

سعيدٌ لسبيله ، فأمن جانبه . واستدعاه أهل حصن نُوَالِش[(١)] ليمنع منهم ، فصار عندهم مستمسكاً بالطاعة ـ على ما به من عزة ـ وخاطبَ الأميرَ عبدَ الله يسأله الإسجال له على ما بيده ، عقب أشياء دارت بينه و بين ابن حَفْصُون ، أبان فيها عن صدق ولايته[(٢)] ، فأسعفه الأمير عبد الله . وأمضى له ذلك الناصرُ عبد الرحمن ـ ابنُ ابنه الوالى بعده ـ إلى أن استنزله فيمن استنزل من الثوار سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة .

وكان ابن أضحى هذا ـ مع رجوليته ـ أديباً خطيباً ، يقوم بين أيدى الخلفاء فى المحافل فيحسن القول و يطيب الثناء ؛ وله أخبار معروفة . ولأبيه أضحى مقام بين يدى الأمير المنذر بن محمد مذكور . وقد تقدم ذكر ابنه أحمد بن محمد بن أضحى ، والثائر من عَقِبه القاضى أبى الحسن على بن عمر بن أضحى فى موضعيهما من هذا المجموع .

* * *

ومن بنى الأغلب :

٢١٠ ـ أحمد بن أبى الأغلب

واسمه إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب ، أبو العباس . كان عالماً باللغة والغريب مع تصرف فى كثير من العلم والأدب ومهارة فى النِّجامة ، و يقال

---

(١) نوالش Noalejo بلدة صغيرة فى مديرية جيان ، تقع على ٤٧ كيلومتراً جنوبها قرب حدود مديرية غرناطة . وعلى ٣٠ كيلومتراً جنوب شرقها تقع بلدة حصن اللوز Iznalloz فى مديرية غرناطة .

انظر : مادوث ، مجلد ١٢ ص ١٦٦ ، والقاموس الجغرافى الإسبانى ، مجلد ١٣ ص ١٦٧ .

(٢) كذا وردت أيضاً عند ابن حيان (المقتبس ، ص ٣١) وابن الأبار ينقل عنه هنا بالنص ، والمقصود : ولائه .

إنه كان يحفظ كتب الأغانى للموصلى ، ولكنه شان نفسه وأفسد علمه بكِبْرٍ
[١٩٣-ب] كان فيه وتشادُقٍ فى منطقه وتقصير فى كلامه ، واستعمل الغريب والإغراب /
حتى أطاعه لسانُه .

وكان أبوه أبو الأغلب والياً على صقلية من سنة إحدى وعشرين ومائتين فضبطها واستقام له أمرها طول عمره بها .

* * *

ومن رجالهم :

٢١١ — أسد بن الفُرات بن سِنان

مولى بنى سُلَيم

من أهل نيسابور ، وولد هو بحَرّان ، ويكنى أبا عبد الله ، وكان يقول : « أنا أسد ، والأسد خير الوحوش .. وأبى الفُرات ، والفرات خير الماء .. وجَدّى سِنان ، والسنان خير السلاح » .

وقدم أبوه مع محمد بن الأشعث الخُزاعى فى عسكره حين ولاه أبو جعفر المنصور إفرِيقِيَّة سنة أربع وأربعين ومائة ، وأسد إذ ذاك ابن سنتين ، مولده بحَرّان سنة اثنتين وأربعين ومائة .

ويروى عنه أنه قال : « دخلت مع أبى القَيْرَوَان فى جيش ابن الأشعث

فأقمنا بها خمس سنين ، ثم دخلت مع أبي إلى تونس فأقمت بها نحواً من تسع سنين ، فلما أنهيتُ[١] ثماني عشرة سنة عُلِّمت القرآنَ ببَجَرْدَة[٢] ، ثم خرجتُ بعد ذلك إلى المشرق ، فوصلت إلى المدينة أطلب العلم ، ثم خرجت إلى العراق ، ثم انصرفت إلى القَيْرَوَان سنة إحدى وثمانين ومائة »

واستقضاه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب ، وأمَّره على الجيش الذى أنفذه لغزو صقلية ، فخرج إليها فى شهر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة ومائتين وهو فى عشرة آلاف ، منهم تسعمائة فارس ، فظفر بكثير منها ، وتوفى وهو محاصر لسَرَقُوسَة[٣] سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وكتب زيادةُ الله إلى المأمون بفتح صقلية على يدى أسَدٍ هذا ، وكان له بيان وبلاغة إلا أنه بالعلم أشهرُ منه بالأدب ، وإليه تُنسب « الأسدية »[٤] فى الفقه .

---

(١) العبارة هنا منقولة عن « طبقات علماء إفريقية » لأبى العرب ، انظر ص ٨١ . وبين نص أبى العرب وما يورده ابن الأبار هنا خلاف يسير . وأورد العبارة نفسها أبو بكر المالكى فى « رياض النفوس » ، انظر ج ١ ص ١٧٢ . وقد وردت كلمة أنهيتُ فى الأصل : انتهيت ، وفى طبقات أبى العرب ورياض النفوس : بلغت .

(٢) فى طبقات أبى العرب (ص ٨١) : فى قرية على وادى بَجَرْدَة ، وهو أصح ، لأن بَجَرْدَة نهر معروف فى تونس ، ويكتب فى بعض الأحيان مَجَرْدَة بالميم ، وعنه جاء اسمه بالفرنسية Medjerda وهو نهير صغير ينبع من جبال أوراس ويسير شمالا بشرق حتى يصب فى البحر الأبيض عند « رأس الجبل » شرقى بنزرت .

(٣) سرقوسة Siracusa ميناء معروف على الشاطئ الشرقى لجزيرة صقلية .

(٤) فى « رياض النفوس » لأبى بكر المالكى تفصيل طيب عن مدونة أسد بن الفرات التى جمع فيها أجوبة عبد الرحمن بن القاسم على ما سأله فيه من فصول الفقه ، ثم رتبها وبوبها بعد ذلك وأتى بها المغرب ، فسميت المدوّنة الأسدية ، أو الأسدية فحسب ، وفيه أيضاً تفصيل مادار بين أسد وسحنون بن سعيد ، وكيف جمع سحنون مدونته ، وكيف أخملت مدونةُ سحنون مدونةَ أسد (انظر ص ١٧٨ وما بعدها).

٢١٢ – منصور بن نصر الجُشَمِىّ

من هَوَازِن من ولد دُرَيْد بن الصِّمَّة ، ويُعرف بالطُّنْبُذِىّ من أجل كونه بقرية تُعرف بطُنْبُذَة[1] من إقليم المحمدية بجهة تونس .

كان واليًا على طَرَابُلُس ، فلما قَتل زيادةُ الله بنُ إبراهيم بن الأغلب عَمرو ابنَ معاوية الشلبى وولديه الحباب وسكتان[2] — وشرب يومًا مع أهل بيته ورؤوسهم بين يديه حتى قال فى ذلك عبدُ الرحمن بن أبى مسلمة يمدح زيادةَ الله :

أَزَرْتَ عِمرانَ عَمرًا فى مُعَصْفَرَةٍ   من الدماء ارتدى من حَوْكِها ابناهُ

[١٩٤–١] /وظن أن دخولَ الحصنِ مانعهُ   من الجيوش إذا ما سُـــدَّ باباهُ

فاستنزلته العوالى ملقيًا بيـــدٍ   ووجهُهُ لهبُ النيرانِ يغشاهُ

يعنى عمران بن مجالد الرَّبعى ، وقد تقدم ذكره — ساء ذلكَ منصورًا وغمه وامتعض للقَيْسِيَّة فقال : « يابنى تميم ، لو أن لى بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد ! » . وكان مع شجاعته فصيحًا بليغًا ، فكتب صاحبُ الخبر بكلامه إلى زيادة الله ، فعزله واستقدمه وهمّ به ، ثم صفح عنه . وخرج إلى منازله بتونس ، فجعل يراسل الجند ويذكر لهم ما يلقون من زيادة الله وما فعل بعَمرو بن معاوية وولديه ، فبلغ ذلك زيادةَ الله فأخرج محمد بن حمزة المعروفَ بالحَرُون فى ثلاثمائة

---

(١) ذكرها البكرى (صفة إفريقية ، ص ٣٨) باسم طنبد ، وقال إنها تسمى اليوم (القرن الخامس الهجرى) المحمدية ، ولا زالت تسمى بهذا الاسم ؛ وهى على بضعة كيلومترات جنوبى تونس العاصمة . وجاء فى التعليقات على رحلة التيجانى (ص ٨ هامش ١) : « اعتنى بعمارتها أحمد باشا باى ١٢٥٣ / ١٢٧١ وهى الآن على حالة خراب » .

(٢) ورد الاسم فى « البيان المغرب » (١/٩٨) : سجمان ، وفى نسخة أخرى : سمجان ، وقد صُوبت فى هذه النسخة : سمعان . وقد ورد ذكر أبيه هناك (١/٩٧) : عمرو بن معاوية القيسى ، وفى أصل مخطوطتنا عُمَر ، وهو خطأ من الناسخ كما سيرى مما يلى ، فصوبناه .

فارس للقبض عليه ، فأقام بتونس وأشخص إليه من مشيختها من يأتى به نخدعهم وبعث إليهم ببقر وغنم وعلف وأحمالِ نبيذ(١) ثم صبَّحهم فقَتل من كان مع ابن حمزة ، ولم يسلم إلا من ألقى نفسه فى البحر ، وملَك تونس ، وقَتل عاملَ زيادة الله عليها إسماعيلَ بنَ سفيان بن سالم بن عقال(٢) وولده الأكبر واستبقى الأصغر .

واستفحل أمر منصور وأطاعه الجندُ ، وتغلب على أكثر إفْرِيقِيَّة ، وكان خروجه ليلة الاثنين لخمس بقين من صفر سنة تسع ومائتين ، وأقام ظاهراً على زيادة الله فى حروبه ، نادباً له إلى الخروج من القَيْرَوَان والتخلى عن البلاد حتى قتله عامر بن نافع ، فلم يسد مسده وأقامت الفتنة بإفْرِيقِيَّة نحواً من عشر سنين إلى أن فُتحت تونس فى آخر ولاية زيادة الله .

٢١٣ — عامر بن نافع بن عبد الرحمن بن عامر ابن نافع بن مَحْمِيَّة المُسْلى(٣)

من مَذْحِج . مالأ منصورَ بنَ نصر الطُّنْبُذِىّ على الخلاف ، وكان الذى

(١) هذا الخبر كله وارد بتفصيل أوفى عند ابن عذارى (١/٩٨ — ٩٩) ، وهو يقول هنا : بأحمال قهوة .

(٢) عند ابن عذارى (١/٩٩) : إسماعيل بن سالم بن سفيان ، واسم ولده محمد .

(٣) جاء فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم فى الكلام على بنى مُسْلية بن عامر بن عمرو بن عُلَّة بن جَلْد : ومن بنى مسلية هؤلاء : عامر بن إسماعيل بن عامر بن نافع بن عبد الرحمن بن عامر ابن نافع بن محمية بن حذيفة بن عوف بن صبح ، قاتل مروان بن محمد ، وابنه يحيى بن عامر ، أنكر أمر الحضرة (أى أنكر ما أراده المأمون من المبايعة للعلويين بولاية العهد) وواجه المأمون بأمر عظيم ، فأمر بصلبه ، فصلب بخراسان (ص ٣٨٩) .

بينهما غير جميل . وربما استراح فيه منصور بمجالس أُنسه[1] ، فيغضى عامر على ذلك ، إلى أن زحف إليه لحصره بقصره بطُنْبُذَة ، واضطره إلى النزول على شروط لم يف بها ، وسجنه ، ثم كتب إلى ابنه حَمْدِيس أن يضرب عنقه ، و يبعث برأسه إليه . فدخل على منصور بالكتاب وأقرأه إياه ، فقال له : « يا ابن أخى ، راجعْه فى أمرى فلعل الله أن يصرفه إلى الجميل ! » فقال : « ما كنت بالذى أفعل وقد كتب إلىّ بما كتب به » ، قال : « فهل من دواة / وقرطاس أكتب وصيتى ؟ » فأتاه بهما ، فذهب ليكتب فلم يستطع ، فألقى القرطاس من يده ثم قال : « فاز المتقون بخير الدنيا والآخرة » . فقدمه فضرب عنقه ، و بعث برأسه إلى أبيه ، وضرب عنق أخيه معه ، ودفنهما فى مزبلة[2] . [١٩٤-ب]

وصار أمر الجند إلى عامر ، وظن أن الأمور تستقيم له ، فكان الأمر على الضد . وكتب إليه زيادةُ الله يدعوه إلى الطاعة ويعرِّفه بإشفاقه عليه وعلى حُرَمه ، ويحذره عاقبة منصور الطُّنْبُذِى قتيلِه ، ويحلف له بأنه لا يحقد عليه مع الإنابة ، وبأنه مُعيدُه إلى ما كان عليه مع أبيه إبراهيم بن الأغلب وأخيه عبد الله بن إبراهيم ، فأجابه عامر برسالة بليغة أولها : « أما بعد ، فقد أتانى كتابك ، وفهمتُ ما ذكرتَ أنك شفيق على ذريةٍ وعيالٍ صيَّرتها بأرض مضيعة وعدو مكتنف وفتنة أوقدها من صيره الله جَزْلاً[3] لها ، وصيَّرتُ نفسى مكانه فيها ، وقد كنتُ أنا الشفيقَ عليها ، والناصرَ لها فى الأيام التى قطعتَ بالتهديد قلوبَها ، وحرصتَ على إيتامها وكشف سترها ، إذ كنت أغدو وأروح إلى بابك

---

(١) جاءت هذه العبارة فى البيان المغرب (١٠١/١) فى صورة أخرى تفسر معناها : « وفى سنة ٣١١ قام عامر بن نافع على منصور الطنبذى ، وكان حاسداً له ، لأن منصوراً كان يتوعده على الشراب . . » .

(٢) الأخبار مروية على صورة تخالف هذه فى البيان المغرب : ١٠٢/١ — ١٠٣ .

(٣) الجزل ما عظم من الحطب ويبس ، والمراد هنا منصور الطنبذى .

متوقعاً لأمرك بسفك دمى من وراء حجابك ، وإن كان شعارى كنفى أعتد به دون دثارى ، مُسكتِناً به من الخلق : لا يظهر إلىّ منك إلا أصلح قطوب ، ولا يبلغنى عنك إلا تجنى الذنوب ، وقد كان نظرُك ونُصرتك لتلك الحرم أحقّ منك قبل اليوم بها ، وتسكينُك لروعتها أولى وأحرى .

وآخِرها : ثم ذكرتَ أنه لا حقد ولا إحنة ولا تِرَة إلا وذلك مضمحل مع الألفة والإنابة ، فقد والله حقِدتَ بلا ذنب ووترتَ بلا تِرَة ، وحلفت بعهود ومواثيق وأيمان مغلظة قلدتَها عنقَك وأخفرتَ بها مراراً ذمتَك وما بينى و بينك هوادة إلا ضرب السيف ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ويحكم الله بيننا وهو خير الحاكين »

ولم يلبث عامر أن انتقض عليه أمره ، واضطرب جندُه ، ووجدَ قوادُ المُضَرِية لما صنعوا بمنصور وأخيه ، وأنزلوا ذلك على العصبية ، فنافروه ثم حاربوه ، ومضى عبدُ السلام بن المُفرِّج اليَشكُرِىّ مخالفاً لعامر ، ثم زحف إليه فى جماعة من الجند فانهزم عامر واعتل إثر ذلك ، فلما أيقن بالموت دعا بنيه وأوصاهم باللحاق بزيادة / الله فعملوا برأيه ، واستأمنوا إليه بعد موته ، فسُرَّ بهم وأمّنهم وأحسن [١٩٥-١] إليهم ، وقال عند ما بلغه موت عامر : « الآن وضعت الحرب أوزارها » فكان كذلك : لم يزل أمر الجند مدبراً حتى انقضت الحرب ، وطفئت النائرة ، وصفت له إفريقية .

٢١٤ — حسن بن[1] أحمد بن نافد
المعروف بأبي المقارع

كان والياً على طُبْنَة من أعمال إفريقية فى ولاية زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغالبة ، فحاصره أبو عبد الله الشيعى داعية عبيد الله المهدى حتى غلب على المدينة ، ولجأ أبو المقارع هذا إلى حصن منيع بداخلها ، ثم نادى بالأمان ، فأجابه بعض أصحاب الشيعى ، فقال : « هذا الأمان عنك أو عنه ؟ » فقال : « عنى » ، قال أبو المقارع : « ما كنا بالذين نلقى بأيدينا إلا أن يؤمننا » . قال صاحب الشيعى : « فإن لم تفعل فما تصنعون ؟ » قال : « نسكونوا[2] كما قال الشاعر :

فأثبتَ فى مستنقع الموت رجلَهُ   وقال لها[3] : من تحت إخمَصِكِ الحشرُ »

قال : « هكذا ؟ » قال : « نعم ! وما راحتنا فى استعجال الموت ؟ بل ميتة كريمة بعد بذل المجهود أفضل » . فانصرف إلى الشيعى فأخبره ، فقال : « أعطهم عنى الأمان » فنزل أبو المقارع ومن معه ، وأتى الشيعىَّ وهو فى فرط خوف ، فسلم عليه وهنأه بالفتح ، فقال له : « ما الذى حملك على طول [المدافعة والامتناع][4] ؟ » فقال له أبو المقارع : « إن ذلك ما [لا حيلة لنا فيه][5] . خلفنا الأهل والولد ، وخشينا إن ألقينا بأيدينا أن [يحيق بنا وبهم المكروه][6] ،

---

(١) ورد الاسم فى الأصل ناقصاً لفظ « حسن » فأكملته من البيان المغرب لابن عذارى (١/١٤٠) .

(٢) كذا فى الأصل ، وهو دارج ، وقد تركته على حاله لعله يكون ذا فائدة لمن يدرسون النواحى اللغوية .

(٣) الأصل ألا ، والصواب « لها » ، والبيت لأبى تمام وهو مشهور .

(٤ و ٥ و ٦) أضفت هذه الكلمات للسياق .

وقد أمّننا هذا عنك » قال : « نعم » فشكره ودعا له ، وأعجب الشيعى ما رأى من نُبله وجزالة منطقه ، فأمر بحفظه وحفظ من كان معه ، ولم يزل فى صحبه إلى أن دخل معه إفريقية .

* * *

المائة الرابعة

٢١٥ — المنصور بن القائم بن المهدى

هو أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن عبيد الله الشيعى . فوض إليه أبوه عهده يوم الاثنين لسبع خلون من رمضان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وهو إذ ذاك ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فصلى بالناس فى عيد الفطر من هذه السنة وخطب خطبة بليغة .

ثم توفى القائمُ على إثر هذا يوم الأحد لثلاث عشرة / خلون من شوال ، [١٩٥-ب]
فكتم المنصور موتَه وابتدأ بقتال أبى يزيد مَخْلَد بن كَيْداد اليَفْرَنى الإباضى صاحب الحِمَار[١] وقد استفحل أمره وأعضل شره حتى عجز عن مقاومته القائمُ ، فتغلب على أعمال إفريقية ، وحصره بالمهدية ، ثم انتقل إلى سُوسَة ، فهزمتْه بها أوائلُ

(١) سمى أبو يزيد مخلد بن كيداد بصاحب الحمار لأنه كان يركب حماراً . ونسبه الكامل وتاريخه فى البيان المغرب نقلا عن إبراهيم الرقيق ومؤرخ يسمى ابن سعدون يبدو أنه كتب تاريخ ثورة أبى يزيد بالتفصيل ، لأن ابن عذارى يقول إنه يذكر أنصار أبى يزيد فى أول قتال له مع أبى القاسم الشيعى « رجلا رجلا » (انظر ج ١ ص ٢١٦)

جيوش المنصور ، ثم خرج بنفسه فى اتِّباعه من المهدية يوم الأربعاء لسبع بقين من شوال وهو فى قلة من عبيده وخدمه ، حتى انتهى إلى سُوسَة ، فنزل بظاهرها ، و بلغه أن أهل القيروان لما قصدهم أبو يزيد مفلولا سبُّوه ومنعوا أصحابَه دخولَ البلد ، وقتلوا جماعة ممن دخل منهم ، فكتب إليهم كتاباً يؤمنهم ، ولم يعد المنصورُ من وجهته هذه حتى أمكنه الله من أبى يزيد بعد محاصرته بالقلعة التى لجأ إليها[1] . وكان يقول فى سفره كله : « إن أنا لم آخذ أبا يزيد وأسلخه فلست بابن فاطمة ولست لكم بإمام » .

وأظلّ عيدُ الأضحى من سنة خمس وثلاثين وهو محيط بأبى يزيد فى قلعته ، فركب إلى المصلى فصلى بالناس ، ثم خطب وعرّفهم فى خطبته بموت أبيه القائم ، ونحر بَدَنة بيده ، وانصرف إلى مضربه وانصرف الناس مسرورين بخلافته موقنين بيُمن نَقيبته و بركة دعوته . وكتب أهلُ العسكر إلى من وراءهم بالقيروان والمهدية فشملهم السرور .

ودخلت سنة ست وثلاثين ، ففى المحرم منها ظفر المنصورُ بأبى يزيد بعد مواقفات لا يفى بها الوصف ، وقُيِّد إليه مثقلا بالجراح ، فأمر بحمله إلى المضرب وهو [يجود بنفسه][2] لما به .

وليلةَ الخميس آخر المحرم هلك عدو الله ، فسُلخ وحُشِيَ جلدُه بالتبن حتى ظهرت صورته[3] ، ولما فرغ من فعله ذلك بأبى يزيد وحضرت صلاةُ الظهر تقدم

---

(١) ذكر ابن عذارى (١/٢٢٠) أن هذه القلعة تسمى بحصن أبى يزيد فى جبال كتامة . وجبال كتامة فى المنطقة المعروفة اليوم باسم بلاد القبائل ، وتكتب فى الخرائط الفرنسية La Cabilie إلى شرق مدينة الجزائر الحالية .

(٢) ابن الأبار ينقل هنا عن ابن حمادُه البرنسى ، وقد استعنت بنصه كما نشره فندرهايدن (ص ٢٤ وما بعدها) فى تقويم هذا الجزء من كلامه .

(٣) عند ابن حمادُه : « فأمر إسماعيل بسلخه وحشو جلده قطناً ، وخيطت أوصاله حتى تمت جثته ، وصار كأنه نائم ، وقدد لحمه ومُلح ، وأمر بحمل جميع ذلك » (ص ٢٥) .

إليه [. . . . . . .](١) ثم قالوا : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته ، صلاة الظهر رحمك الله » والناس فى غفلة ، فكبروا وتباشروا ، و بعد صلاة العصر من ذلك اليوم [دخل عليه الناس](٢) وهنّوه بالفتح فبسط آمالهم ووعدهم الغنائم والأ[موال ، فأثنوا على](٣) شجاعته وسماحته [... ... ...](٤) دوكا ، ثم ارتحل يوم السبت غرة صفر إلى [المسيلة](٥) ومنها توجه إلى تاهَرْت فنزل/ [١٩٦ - ا] [عليها يوم الثلاثاء لست بقين من صفر من هذه السنة ، وأقام بها إلى](٦) يوم الاثنين غرة شهر ربيع الأول ، وقد هرب أمامه الثا[ئرون ، ثم كتب إلى أهل القيروان](٧) فأمّنهم ووعدهم خيراً وكان وصوله يوم الاثنين غرة شهر ربيع الأول إلى قصره بالمنصورية — وقد بناه [فتاهُ « مُدَامٌ » أثناء](٨) غيبته — عند صلاة الظهر من يوم الخميس لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين .

وفى اليوم الثانى من وصوله أمر بإخراج أبى يزيد على جمل وقد ألبس قميصاً وركب وراءه مَن يمسكه ، وعليه الطرطور وقردان على كتفيه ، فطيف به سُماطات القيروان ثلاثة أيام متواليات . ثم أمر بحمله إلى المهدية فطيف هناك به إلى أن مزقته الرياح .

ولم تطل مدة المنصور ، فتوفى ليلة الجمعة آخر شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وغسله جعفر بنُ على الحاجب المعروف بابن الأندلسى ، وصلى عليه ابنُه وولىُّ عهده أبو تميم مَعَدّ بن إسماعيل ، ودُفن ليلا فى قصره بالمنصورية وهو ابن أربعين

(١) بياض فى الأصل .
(٢ و ٣) أكملت الناقص هنا بما يقيم المعنى اعتماداً على نص ابن حماده .
(٤) لم أستطع استكمال هذه العبارة .
(٥) عن ابن حماده (ص ٢٦) .
(٦) أكملت هذه العبارة بناء على ما عند ابن حماده (ص ٢٦) .
(٧) أكملت هذه العبارة من سياق كلام ابن حماده ، نفس الصفحة .
(٨) أكملت هذه أيضاً مستعيناً بما ذكره ابن حماده ، ص ١٩ وما بعدها .

سنة كاملة . ومولده برَقّادَة سنة إحدى وثلاثمائة ، وكانت ولايتُه سبع سنين وثمانية عشر يوماً .

وفى كتاب أبى الحسين الروحى الإسكندرى أن المنصور وُلد سنة اثنتين وثلاثمائة ؛ قال : ووَلِىَ فى شوال سنة أربع وثلاثين وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة ؛ وظفر بأبى يزيد فى المحرم سنة ست وثلاثين ، وتوفى يوم الجمعة منسلخ شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، فكانت ولايتُه سبع سنين

وفى « المقتبس » لابن حَيّان : أن الناصر عبد الرحمن بن محمد قدم عليه أيوب ابن أبى يزيد الخارج على المشارقة آل عبيد الله الشيعى الدعىّ الناجم بأرض إفريقية ، رسولا لوالده أبى يزيد ، قَفّىٰ به رُسُلا قبلَه يسأل القوة على حرب هؤلاء الملحدين المُغْوِين للأمة ، وذلك يوم السبت لست بقين من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين ، فقعد له الناصر قعودًا فخماً ، وأوصله إلى نفسه وأكرم لقاءه وسمع منه وأجمل الرد عليه ، وأمر بإنزاله فى قصر الرُصَافة وقُدّامَه [ما يُحتفَل به][(١)] لأمثاله . فأقام هناك تحت رَعْىٍ وكرامة موصولة ، إلى [أن ورد عليه][(٢)] منها قوم من ناحية [إفريقية معهم][(٣)] رسول لأبى يزيد [إلى ولده أيوب][(٤)] ، يذكر كَرّة أبى يزيد على [المسيلة من بلاد][(٥)] إسماعيل ا[لمنصور حفيد أبى عبيـد الشيعى المذكور ، وأنه يتأهب][(٦)] / للنُّهود نحوه بالقيروان ، وأنهم [١٩٦-ب] [بلغهم][(٧)] أن أبا القاسم [محمد القائم بن عبيـ] د[(٨)] الله [بعد أن أوصى][(٩)] إلى ابنه فى الإمارة هلك فى [يوم الأحد الثالث عشر من شوال][(١٠)] من هذه السنة — يعنى سنة خمس وثلاثين[(١١)] — ووَلِىَ مكانه إسماعيل ابنُه [الملقب

(١ — ١٠) وردت هذه العبارة التى نقلها ابن الأبار عن ابن حيان مقطعة مليئة بالخروم ، فاجتهدت فى سد خللها مستبيناً بما أعرف من أسلوب ابن حيان فى هذه المناسبات . والإضافات كلها واردة بين أقواس .

(١١) كذا فى الأصل ، والصحيح كما ورد فى تاريخ ابن حماده سنة ٣٣٤ : « التاريخ الدقيق لوفاة محمد القائم غير معروف ، لأن ابنه إسماعيل أخفى الخبر حتى تم له النصر على أبى يزيد » .

بالمنصور][1] غير أنهم كتموا موته لما هم عليه من حال الحرب . [وطلب أبو زيد إلى ابنه أن يستصحب معه ف] رسان[2] المدد ، فاستبصر الناصر فى التوقف عن إمداد أبى يزيد إلى أن يرى مآلَ أمره ، وعلَّل ابنَه أيوب ورُسُلَه بموعده .

٢١٦ — ابنه المعز لدين الله ، أبو تميم معد بن إسماعيل ابن محمد بن عبيد الله

وَلِىَ بعد أبيه وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، وقيل أربع وعشرين . مولده بالمهدية سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، وأقام من يوم وفاة أبيه وإفضاء الأمر إليه فى تدبير الأمور إلى يوم الأحد سابع ذى الحجة من سنة إحدى وأربعين ، وفيه قعد للخاصة وكثير من العامة فسلموا عليه بالخلافة ، وتسمَّى بالمعز لدين الله ، ولم يُظهر على أبيه حزناً ، وبعث إلى المهدية فى عمومته وأهل بيته ، فوردوا عليه وبايعوا له وحضروا معه عيد الأضحى ، وخرج فصلى بالناس وخطب ونحر .

وكان من أهل البيان والبلاغة والخطابة ، وله مع أبى القاسم محمد بن هانى الأندلسى زعيم شعرائه وقاصر أمداحه — على غُلُوٍّ فيها — عليه أنباء مذكورة ، وهو أحد ملوك بنى عبيد الله العظماء .

وساعده الحال فملَكَ مصر دون [كبير مشقة][3] ، وانتقل إليها من إفريقية فى آخر دولته [فى شعبان سنة ٣٦٢][4] . ولم تزل فى يده وأيدى بنيه متصلة

(١ و ٢) هاتان العبارتان أضفتهما للسياق .

(٣ و ٤) وهاتان أيضاً .

بإفريقية ومنقطعةً منها نيفاً على مائتى سنة . وآخرهم مُلْـكاً بها أبو محمد عبد الله العاضد وهو ابن يوسف بن عبد المجيد بن محمد ابن عم مَعَدّ المستنصر بالله بن على الظاهر بن منصور الحاكم ابن نِزَار العزيز بن مَعَدّ المعز هذا .

ولم يتقلد سلطانهم من أول قيام المهدى عبيد الله إلى حين انقراضه مَن أبوه غير خليفة إلا الحافظ[1] والعاضد ، وكانت وفاته يوم السبت للنصف من جمادى الأولى سنة أربع وستين وخمسمائة فى آخر خلافة المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى بن المستظهر بن المقتدى بن [محمد بن] القائم بن القادر
[١٩٧-ا] [أبى العباس أحمد] بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفَّق بن المتوكل / [ابن المعتصم] بن الرشيد بن المهدى بن المنصور بن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس رضى الله عنهم[2] .

وأغزى المعز جوهراً خادمَه وكاتِبه إلى المغرب ففُتح عليه ، ثم أغزاه مصر ، فافتتحها فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بعد وفاة كافور الإخشيدى بسنة أو نحوها .

وابتنى له القاهرة فانتقل المعز[3] إليها فى آخر شوال سنة إحدى وستين ، ووصل إلى الإسكندرية لست بقين من شعبان سنة اثنتين وستين ، واستقر

(١) لم يرد من هذا الاسم إلا أوله : « الحافظ » وقد أكملته . وابن الأبار على حق فى هذه الملاحظة ، فإن الحافظ هو ابن أبى القاسم محمد (ولم يكن بخليفة) ابن المستنصر ، والعاضد هو ابن يوسف (ولم يكن بخليفة) ابن الحافظ . وبقية خلفاء الفاطميين آباؤهم خلفاء .

(٢) راجعت هذا النسب وصوبته بين حواصر .

(٣) يريد أنه سار إلى مصر من المغرب فى هذا التاريخ ، لأنه لم يستقر فى القاهرة إلا بعد ذلك كما سيجىء .

بقصره [بالقاهرة][١] يوم الثلاثاء السابع رمضان ، وقيل الخامس منه .

واستخلف على إفريقية أبا الفتوح يوسف بن زيرى بن مَناد الصّنهاجي ، وهو الذى يقال له بُلقّين ، فوليها بعده ولدُه — طائعين للعُبيديين ومُنتزين عليهم — إلى أن تغلب الرومُ على المهدية فى إمرة آخر هؤلاء الصّنهاجيين وهو الحسن بن على بن يحيي بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن أبى الفتوح المذكور ، وذلك فى سنة أربع وأربعين وستمائة .

[ودام مُلك المعز بعد][٢] استئثاره بمُلك مصر [إلى][٣] أن توفى بالقاهرة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وثلاثمائة ، فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام .

وفى كتاب أبى إسحاق الرقيق أن خلافته كانت أربعا وعشرين سنة ، وأن عمره عند وفاته بلغ ثمانيا وأربعين سنة ، مولده سنة ثمان عشرة وثلاثمائة .

بلغت مقابلته من الأصل المنتسخ منه جهد الاس[تطاعة]

نجز الكتاب بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه والحمد الله حمد الشاكرين ،
وصلى الله على سيد الأولين والآخرين محمد وآله وسلم فى الثالث
عشر من شعبان [سنة] تسعين وتسعمائة على يدى عُبيد الله المقترف
المعترف علىّ بن محمد الكَفّاد الأندلسى ، لطف الله به[٤]

(١ و٢ و٣) التكملة من ابن حمادُه ، ص ٤٤ .

(٤) إلى هنا ينتهى كتاب « الحلة السيراء » ، وتلى ذلك فى المخطوط ورقات ضمت إليه خطأ من كتاب « العبر » لأبى بكر أحمد بن سعيد بن الفَيّاض . وقد درسنا هذه الأوراق فى بحثنا عن « الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » (ص ١٠٦ — ١٠٧) .

كشاف عام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس القوافى

(ت)

(ث)

(ز)

(س)

(م)

أسماء الكتب التي ورد ذكرها في النص (*)

(*) أسماء الكتب والمؤلفين واردة في هذا الثبت بصورها الواردة بها في النص .

للمؤلف

مؤلفات فى التاريخ :

١ – الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٨ .

٢ – فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ (الطبعة الثانية المزيدة فى المطبعة) .

٣ – Essai sur la chûte du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1948.

٤ – صور من البطولة (طبعتان . القاهرة ١٩٤٩ ، ١٩٥٦) .

٥ – مصر ورسالتها (طبعتان . القاهرة ١٩٥٥ و١٩٥٦) .

٦ – Historical Atlas of the Muslim Peoples (in collaboration with R. Roolvink and Others). Amsterdam. 1957.

٧ – فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ .

٨ – نور الدين محمود – قصة بناء الوحدة العربية الإسلامية فى القرن السادس الهجرى ، القاهرة ١٩٥٩ .

٩ – مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية الإخشيديين – فصل فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » الذى نشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومى سنة ١٩٦٣ .

١٠ – La Republica Arabe Unida. Bosquejo histórico geográfico. Madrid, 1963.

١١ – Los Arabes ; La Lengua Arabe ; El Nacionalismo Arabe; Tres ensayos. Madrid, 1963.

١٢ – رحلة الأندلس : حديث الفردوس الموعود ، القاهرة ١٩٦٤ .

قصص ومسرحيات :

١٣ – حكايات خيرستان ، قصص رمزية ، القاهرة ١٩٥٦ .

١٤ – أهلا وسهلا ، قصة مصرية طويلة ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٥ – الطريق الأبيض ، مسرحية فى ثمانية مشاهد ، القاهرة ١٩٦٣ .

أبحاث :

١٦ – عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى ، نشر فى الجزء الثانى من المجلد الثانى عشر من حوليات كلية الآداب بجامعة القاهرة .

١٧ – تطور العمارة الإسلامية فى الأندلس ، نشر فى المجلد الأول من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .

١٨ – وثائق عن مهدى السودان ، نشر فى العدد الثانى من المجلد الثانى من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .

١٩ – غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩ و٢٤٥ هـ / ٨٤٤ و ٨٥٩ م ، نشر فى العدد الأول من المجلد الثانى من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٢٠ – السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، نشر بالعدد الأول من المجلد الثالث من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٢١ – المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، نشر فى العدد الأول من المجلد الرابع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٢٢ – المجتمع فى الدستور ، بحث نشر فى كتاب « روح الدستور » ، وهو رقم ٢٥ من سلسلة « اخترنا لك » .

٢٣ – لكى لا ننسى . . هذا صوت التاريخ ، بحث نشر فى كتاب « قناة السويس – حقائق ووثائق » ، وهو رقم ٢٩ من سلسلة « اخترنا لك » .

٢٤ – سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .

٢٥ – De nuevo sobre las fuentes árabes de el historia del Cid. صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .

٢٦ – Egipto y el Mediterraneo ، فصل نشر بالإسبانية والفرنسية فى كتاب Panorama del Mundo Arabe ، الذى نشره معهد العلوم السياسية فى مدريد سنة ١٩٥٤ .

٢٧ – نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥ .

٢٨ – أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، للونشريشى . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

٢٩ – La división politico-administrativa de la Espana musulmana صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .

٣٠ – الفولكلور ، تاريخه ومدارسه ومناهجه ، صحيفة « المجلة » العدد ٢٣ سنة ١٩٥٨ .

٣١ – Le Malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya dans Etudes d'Orientalisme dediées à la mémoire de Lévi-Provençal, Paris, 1962.

٣٢ – Abd al-Rahman III y su papel en la historia general de Espana (Revista del Instituto de Estudios Islámicos en Madrid, vols. IX-X, Madrid 1961 - 1962).

٣٣ – مواد مختلفة فى الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية .

نشر وتحقيق :

٣٤ – رياض النفوس لأبى بكر المالكى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ .
٣٥ – ضوابط دار السكة لأبى الحسن على بن يوسف الحكيم ، مدريد ١٩٦٠ .

ترجمة :

٣٦ – الإمبراطورية البيزنطية لنورمان بينز (ترجمة عن الإنجليزية بالاشتراك مع الدكتور محمود يوسف زايد) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٠ و١٩٥٧ .
٣٧ – الشعر الأندلسى لغرسية غومس (عن الإسبانية) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٢ و١٩٥٧ .
٣٨ – تاريخ الفكر الأندلسى لجونثالث بالنثيا (عن الإسبانية) القاهرة ١٩٥٥ .
٣٩ – ثم غاب القمر ، مسرحية فى ثمانية مناظر مقتبسة من قصة **The Moon is Down** لجون شتاينبك ، القاهرة ١٩٥٦ .
٤٠ – الزفاف الدامى لفيديريكو جارثيا لوركا ، القاهرة ١٩٦٤ .

فهرس الجـــزء الثانى

المائة الخامسة

صفحة

المائة السادسة

المائة السابعة

باب فى الذين ما عثرت على أشعارهم فاقتصرت على نكت من أخبارهم

المائة الأولى من الهجرة

المائة الثانيـــة

صفحة

المائة الثالثة

صفحة

المائة الرابعة

رقم الإيداع	١٩٨٥ / ٥١٣٨
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٠٢ - ١٤٥٢ - ٣

١ / ٨٤ / ١٤٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)